

چورچ ر. ر. مارتن

أغنية الجليد والنار

الكتاب الثالث

عاصفة السُّيوف

الجزء الأول

الكتاب: عاصفة السيف I (الكتاب الثالث من أغنيّة الجليد والنار) / رواية

المؤلف: جورج ر. ر. مارتن

ترجمة: هشام فهمي

عدد الصفحات: 640 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-015-8

الطبعة الأولى: 2018

هذه ترجمة مرخصة لكتاب:

A Storm of Swords by George R.R. Martin

Published by agreement with the author and the author's agents, The Lotts Agency Ltd

Copyright © 2000 by George R.R. Martin

Excerpt from A Feast for Crows Copyright © 2005 by George R.R. Martin

Maps Copyright © 2011 by Jeffrey L. Ward

Heraldic crests by Virginia Norey

Jacket design: David Stevenson

Jacket illustration: © Larry Rostant

جميع حقوق النسخة العربية محفوظة لدار التنوير ©

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقاً) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

چورچ ر. ر. مارتن

أغنية الجليد والنار

الكتاب الثالث

عاصفة السيوف

الجزء الأول

ترجمة: هشام فهمي



مقدمة المترجم

يقول جورج مارتن إن حُبَّه الشديد للموسيقى جزء من سبب استخدامه كلمة «أغنيّة» في عناوين مؤلفاته، وهو ما نراه في أعمال أخرى له بخلاف «أغنيّة الجليد والنّار»، منها على سبيل المثال «أغنيّة ليا» و«أغاني النّجوم والظلال»، كما أن الكلمة وغيرها من التّعابير الموسيقية لها في متن النّص حضور يعيه القراء جيّدًا. أمّا باقي عنوان السّلسلة فاستوحاه مارتن من قصيدة روبرت فروست الشهيرة «النّار والجليد» التي نُشرت سنة 1920، والمستوحاة بدورها من جحيم دانتي، وتصفُ جدلاً متخيلاً بين مَنْ يقولون إن نهاية العالم ستكون إلى الجليد ومَنْ يقولون إنها ستكون إلى النّار. الجدل رمزي إلى حدّ كبير، وإن كان جزء منه حرفيًا عند مارتن، ممثلاً في طرفيّ التّقويض؛ التّنانين الوليدة في حرارة الشّرق والمُشاة البيض القادمين من أقصى الشّمال المتجمّد، وكلا الضدّين يملك من القوّة المدمّرة ما هو كفيلاً بإنهاء الحياة.

لكن بين الجليد والنّار وحرفيّتهما في عالم مارتن طيفاً كاملاً من شخصيّات زاخرة بالرموز، ارتبطَ بها القارئ وارتبطتُ شخصياً كمترجم بعددٍ منها على مرّ الصّفحات وشهور العمل الطّويلة، وبأعينها نرى الوجوه المختلفة لحرب الملوك الخمسة في «وستروس»، والمستوحاة من حرب حقيقيّة، هي حرب الوردتين التي دامت أكثر من ثلاثين عامًا في إنجلترا، وأحداث تاريخيّة أخرى لا تقل عنها بشاعةً، مثل حادثتي العشاء الأسود ومذبحة جلنكو في سكوتلندا. يرى النّقاد، وأنفقَ معهم، أن «أغنيّة الجليد والنّار» في قلبها قصّة مناهضة للحرب، خصوصاً أن مارتن نفسه معارض كبير لها، ورفضَ في شبابه أن يُجنّد في حرب فيتنام وقاد حركةً طلابيّةً ضدها، لاعتقاده أن لا حرب في

التاريخ كان لها معنى أو انتفع بها أحد، باستثناء الحروب التي لها هدف نبيل، كتخليص العالم من هتلر على سبيل المثال. ثم إنه درس تاريخ العصور الوسطى علاوة على دراسته الصحافة، ويقول إنه قرأ كثيراً جداً عن الحروب الطاحنة والصراعات في تلك الحقبة وغيرها، ولهذا السبب تحديداً يلعب العُنف دوراً أساسياً في سلسلة مارتن هذه، في سبيل إبراز الفظائع التي تترتب على كل معركة، ويدفع ثمنها دائماً العامّة بمختلف ألوانهم والجُنود البسطاء الذين يُنفذ معظمهم الأوامر لا أكثر، بينما يبقى القادة والأمرون بمنأى عن الآثار أغلب الوقت، وهذا ما تلقى عليه هذه الرواية مزيداً من الضوء من خلال رحلتي اثنتين من الشخصيات في أنحاء أراضي النهر التي عانت تبعات هذا الصراع أكثر من أي منطقة أخرى، كما نرى الجوانب السياسية المتشابهة عن طريق شخصيات أخرى.

على أن أهم ما في هذه الرواية أننا نشهد تأثير الحرب على الشخصيات التي نراها بها من خلال وجهة نظرها، إذ يؤمن مارتن بمقولة ويليام فوكنر إن القمص الوحيدة التي تستحق أن تُكتب هي تلك التي تحكي عن نزاع قلب الإنسان مع نفسه، وهو ما تخوض فيه «عاصفة السيوف» بشدة، فنرى كيف تتغير شخصيات تأثرًا بالحرب وبما في أنفسها من صراع، منها من نكتشف له جوانب مدهشة ونعرف عنه ما قد يدفعنا إلى تغيير رؤيتنا له، ومنها من يرسخ اعتقادنا الأولي عنه، وفي كلتا الحالتين نرى شخصيات تنحدر أو تسمو لكنها تتطور بلا انقطاع وسط زوبعة من الأحداث الكبرى والمفاجآت، وكل هذا يُقدّمه مارتن بقدرته الفائقة على الكتابة عن مختلف أصناف البشر والتعبير عنهم ببراعة فائقة، بأسلوبه السلس ولُغته المرنة التي كانت العربية نداءً لها في هذه الترجمة.

حتى الآن تعدُّ «عاصفة السيوف» أطول كتب السلسلة، لدرجة أن طبعته البريطانية صدرت في مجلدين منفصلين تحت عنوانين فرعيين هما «الفولاذ والثلج» و«الدّم والذهب»، على حين انقسم في الترجمة الفرنسية والألمانية والإيطالية - وغيرها من ترجماتها الثلاثين - إلى أربعة مجلدات، فازت الرواية عام 2001 بجائزة «لوكوس» لأدب الخيال العلمي والفانتازيا، وجائزتي «إجنوتوس» و«جيفن»، علاوة على ترشحها لجائزتي «هيوغو»

و«نيولا»، واقتُبِسَتْ أحداثها في الموسمين الثالث والرَّابِع وجزء من الموسم الخامس من مسلسل «Game of Thrones»، ومنذ عام 2006 تحتل المركز الأول في قاعدة بيانات «قائمة الإنترنت للكتب».

كمترجم، كانت قراءة روايات «أغنيَّة الجليد والنَّار» والمتعة الشَّديدة الذي وجدتها فيها هي الفيصل في اتُّخاذ قرار ترجمتها إلى العربيَّة، وهذه التَّرجمة التي بين يديك الآن هي نتاج عمل شهور طويلة مرهقة لتقديم عالم جورج مارتن المعقَّد وشخصيَّاته المتشابهة للقارئ العربي بأفضل شكلٍ ممكن.

إلى فيليس
التي جعلتني أضيف التناين

ملاحظة على التسلسل الزمني للأحداث

تُحكى «أغنيّة الجليد والنّار» من خلال وجهات نظر شخصيات عدّة، تفصل بينها أحياناً مسافات تبلغ مئات أو حتى آلاف الأميال، وثمّة فصول تُغطي يوماً من الأحداث، وأخرى ساعة واحدة، فيما تدور أحداث فصولٍ غيرها على مدار أسبوعين أو شهر أو نصف عام، وهو ما يعني أن سرد الأحداث لا يُمكن أن يكون تعاقبياً تماماً مع بناءٍ روائي كهذا، ففي بعض الأحيان تقع أحداث مهمّة في أماكن مختلفة في آنٍ واحد.

هكذا، في حالة هذا الكتاب، على القارئ أن يدرك أن الفصول الأولى في «عاصفة السّيف» لا تتلو الفصول الأخيرة من «صدام الملوك»، بل تتزامن معها، إذ أفتتح الرواية بنظرة على بعض الأحداث التي وقعت على قمّة قبضة البشّر الأوائل)، وفي (هارنهال) و(ريقرن) وعلى ضفاف (الثالوث)، في أثناء معركة (النهر الأسود) التي دارت رحاها على شواطئ (كينجز لاندنج)، وخلال تبعاتها كذلك...

جورج ر. ر. مارتن

خريطة الشَّمال

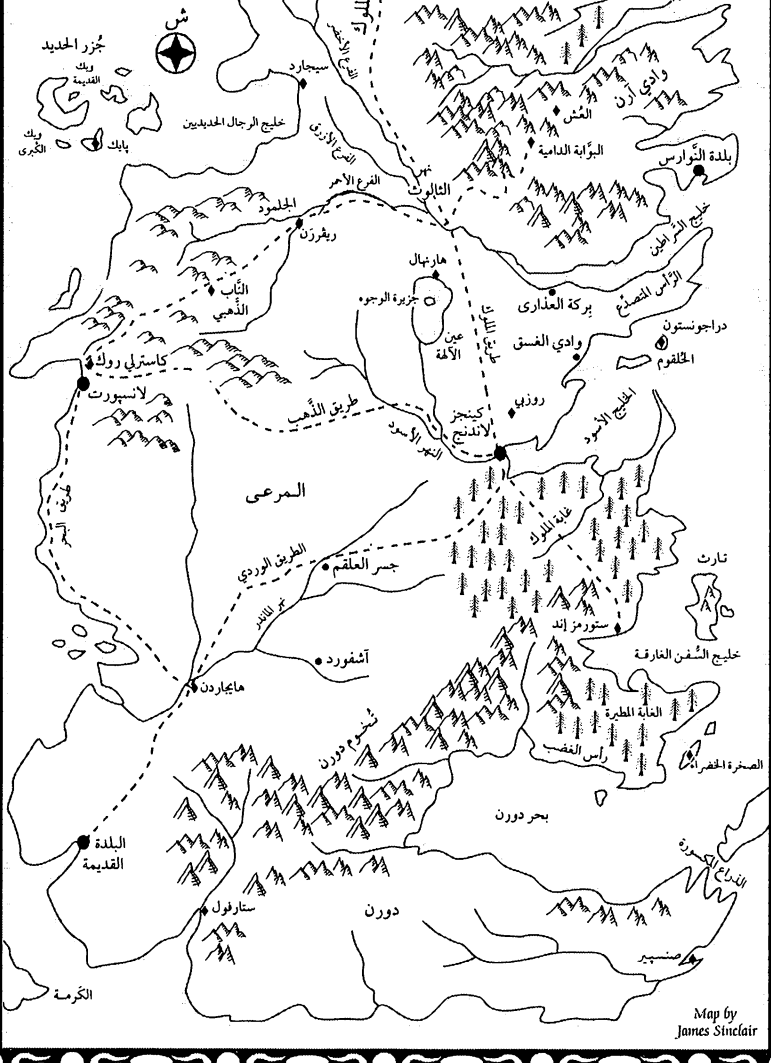
- | | |
|-----------|-----------|
| ◆ - قلعة | ● - مدينة |
| ◇ - اطلال | ○ - بلدة |



Map by
James Sinclair

خريطة الجنوب

- - مدينة
- ◆ - قلعة
- - بلدة
- ◇ - أطلال



Map by James Sinclair

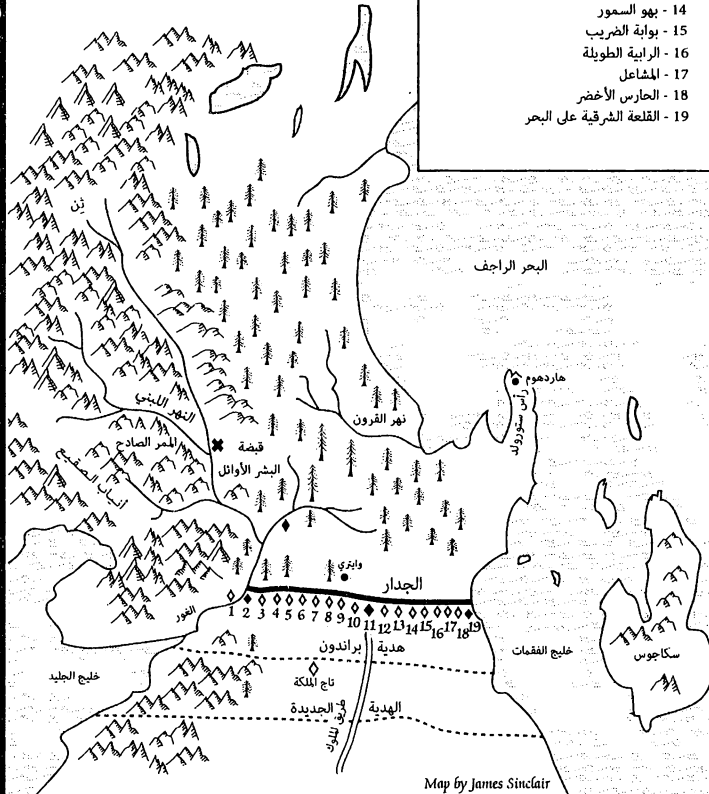
وراء الجدار

- ◆ - قلعة
◇ - أطلال قلعة

أرض الشتاء السرمدي
(غير مرسومة)

معاقل حرس الليل

- 1 - القلعة الغربية عند الجسر
- 2 - برج الظلال
- 3 - منصة الحرس
- 4 - الحارس الرمادي
- 5 - الباب الحجري
- 6 - تل الصقيع
- 7 - باب الجليد
- 8 - قلعة الليل
- 9 - البحيرة العميقة
- 10 - بوابة الملكة
- 11 - القلعة السوداء
- 12 - درع البلوط
- 13 - قلعة الغاية عند البركة
- 14 - بهو السعور
- 15 - بوابة الضرب
- 16 - الرابية الطويلة
- 17 - المشاعل
- 18 - الحارس الأخضر
- 19 - القلعة الشرقية على البحر





تمهيد

كان النَّهارَ غائماً قارس البرودة، والكلاب تَرْفُضُ التَّقَاطِ الرَّائِحَةَ. تَشَمَّمَتِ الكَلْبَةُ السَّوْدَاءُ الكَبِيرَةَ آثارَ الدُّبِّ مَرَّةً لا أَكْثَرَ، ثُمَّ تَرَاجَعَتْ مِنْكُمْشَةً عَلَى نَفْسِهَا وَذِيلِهَا بَيْنَ سَاقِيهَا، وَعَادَتْ تَنْضُمُ إِلَى القَطِيعِ المِتَمَلِّمَةِ كِلَابِهِ البَائِسَةَ مَعًا عِنْدَ ضِفَّةِ النَّهْرِ، حَيْثُ تَضْرِبُ الرِّيحُ أَجْسَامَهَا بِلَا هَوَادَةٍ. تَشِبُّ أَيْضًا شَعَرَ بِالرِّيحِ تَخْتَرِقُ مَا يَرْتَدِيهِ مِنْ طَبَقَاتِ الصُّوفِ الأَسْوَدِ وَالجِلْدِ المَقْوَى بِالرَّيْتِ المَغْلِيِّ، وَبِالْبَرْدِ الَّذِي يَكَادُ لا يَطِيقُهُ إِنْسَانٌ أَوْ حَيْوَانٌ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ، لَكِنْ مَا بِالْيَدِ حَيْلَةٍ. التَّوَى فَمَهُ، وَأَحْسَسَ كَأَنَّ البُثُورَ الَّتِي تُعْطِي وَجْهَهُ وَعُنُقَهُ تَرْدَادَ حُمْرَةٍ وَغَضَبًا وَهُوَ يُفَكِّرُ: كَأَنَّ يُمْكِنَ أَنْ أَكُونَ أَمْنًا عَلَى (الجِدَارِ)، أَعْنَى بِالعِدْفَانِ اللَّعِينَةِ وَأَشْعَلَ النَّارَ لِلْمَايَسْتَرِ إِيْمُونِ العَجُوزِ. النَّعْلُ چُونِ سَنُو هُوَ مِنْ سَلْبِهِ هَذَا، هُوَ وَصَدِيقَهُ البَدِينِ سَامِ تَارِلِي، هُمَا السَّبَبُ فِي وَجُودِهِ هُنَا الآنَ، يَتَجَمَّدُ حَتَّى النَّخَاعَ مَعَ قَطِيعِ مِنَ الكِلَابِ فِي أَعْمَاقِ (العَايَةِ المَسْكُونَةِ). جَذَبَ المَقَاوِدَ بَعْنَفٍ لِيَلْفَتَ انْتِبَاهَ الكِلَابِ، وَقَالَ بِسُخْطٍ: «بِحَقِّ الجِجَاءِ السَّبْعِ! تَتَبَعُوهُ أَيُّهَا الأَوْغَادُ. إِنَّهُ أَثَرُ دُبِّ. هَلْ تُرِيدُونَ أَنْ تَأْكُلُوا لَحْمًا أَمْ لا؟ اعْثُرُوا عَلَيْهِ!»، لَكِنَّ الكِلَابَ لَمْ تَتَحَرَّكَ إِلَّا لِتَدْنُو مِنْ بَعْضِهَا بَعْضًا أَكْثَرَ مُصْدِرَةً عُوَاءً كَالْأَنِينِ، وَعِنْدَمَا لَوَّحَ تَشِبُّ بِسُوطِهِ القَصِيرِ فَوْقَ رُؤُوسِهَا، زَامَتِ الكَلْبَةُ السَّوْدَاءُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ وَأَنْفَاسَهُ تَحْوَلُ إِلَى صَقِيعٍ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ يَلْفِظُهَا: «حَذَارِ، الكِلَابِ لِحْمِهَا لَيْسَ أَسْوَأَ مَذَاقًا مِنْ لِحْمِ الدَّبِّبَةِ».

قال لارك رجل الأخوات: «البرد أشدُّ من أن نستطيع الصَّيْدَ. فليذهب الدُّبُّ إِلَى الجَحِيمِ، إِنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ نَتَجَمَّدَ بِسَبَبِهِ». كَانَ يَقِفُ عَاقِدًا ذِرَاعِيهِ

على صدره ويدس يديه تحت إبطيه، ومع أنه يرتدي قفازين من الصوف الأسود، فلم يمنعه هذا من الشكوى الدائمة من تجمّد أصابعه.
دمدمَ پول الصّغير من وراء اللحية البنيّة الكثيفة التي تكسو معظم وجهه:
«لا يمكننا العودة خاويي الوفاض يا لارك، فلن يُرضي هذا حضرة القائد». كان رجلاً ضخماً البدن، يقف مُطبّقاً على قناة حربته بقبضته العظيمة المحاطة بقفّاز من الفرو السّميك، وقد جمّد الجليد المخاط السائل من أنفه الأفطس على شاربه.

ردّ رجل الأخوات النّحيل ذو القسمات الحادّة والنّظرات المتوتّرة:
«فليذهب الدّب العجوز إلى الجحيم أيضاً. مورمونت سيموت قبل طلوع الفجر، أم أنك نسيت؟ من يبالي بما يُرضيه؟».

رمته عينا پول السّوداوين الصّغيرتين بنظرات خاوية، فخطر لتشت أنه ربما نسي حقّاً، فهو غيبي بما فيه الكفاية لأن ينسى أيّ شيء تقريباً. «لماذا يجب أن نقتل الدّب العجوز؟ لِمَ لا نكتفي بالرّحيل وندعه وشأنه؟». قال لارك: «هل تحسب أنه سيدعنا وشأننا؟ سيُطارِدنا لا محالة. أتريد أن تكون طريدهً أيها الأبله الكبير؟».

أجاب پول الصّغير: «لا، لا أريدُ هذا، لا أريده». سأله لارك: «ستقتله إذن؟».

دقّ الرّجل الضّخم أرض ضفّة النّهر المتجمّدة بكعب حربته مجيباً: «نعم، سأفعل، فيجب ألا يُطارِدنا».

سحبَ رجل الأخوات يديه من تحت إبطيه، والتفت إلى تشت قائلاً:
«أكرّرُ أن علينا أن نقتل الضّبّاط كلهم».

كان تشت قد سئم إثارة لارك هذا الجدل تماماً، فقال وقد احتقنت بثوره غيظاً: «سبق أن تكلمنا عن هذا. الدّب العجوز سيموت، وكذا بلين من (برج الظلال)، وجروبز وإيثان أيضاً، فحظهما الأسود أنها نوبة حراستها، ودايوين وبانن لخبرتهما في اقتفاء الآثار، والسير خنزير المسؤول عن الغدّان. هؤلاء فقط، مفهوم؟ ستقتلهم بهدوء وهم نائمون. صرخة واحدة وستصبح كلنا طعماً للديدان، كلنا بلا استثناء. فم بدورك واعمل على أن يفعل أبناء عمك المثل. وأنت يا پول، حاول أن تتذكّر أنها المناوبة الثالثة وليست الثانية».

قال الرَّجُلُ الكَبِيرُ من وراء شَعْرِهِ ومخاطبه المتجمّد: «المناوَبَةُ الثَّالِثَةُ، أنا والمتسلّل، لم أنسَ يا تشّت».

سيكون القمر مُحاقًا اللَّيْلَةَ، وقد تلاعبوا بتنظيم نوبات الحراسة بحيث يكون هناك ثمانية منهم بين الخفر الواقفين ساعة التَّنْفِيزِ، بالإضافة إلى اثنين آخَرَيْنِ يَحْرُسَانِ الخيول. إنهم لن يجدوا فُرْصَةً أفضل، ثم إن من الممكن أن يجدوا الهَمَجَ فوق رؤوسهم في أيِّ يومٍ الآن، وتشت ينوي أن يكون بعيدًا تمامًا عن هنا عندما يحدث هذا.

إنه ينوي أن يعيش.

ثلاثمئة أخ أقسموا يمين حرس اللَّيْلِ كانوا قد توغّلوا شمالًا، مئتان من (القلعة السّوداء) ومئة آخرون من (بُرج الظلال)، أكبر حملة تقصّ في ذاكرة البَشَر، ما يقرّب من ثلث قوّة الحرس. كان هدفهم أن يعثروا على بن ستارك والسير وايمار رويس، ويكتشفوا سبب هجران الهَمَجِ قُرَاهِم، لكنهم ليسوا أقرب إلى ستارك ورويس الآن مما كانوا عندما تحرّكوا من (الجدار)، وإن عرفوا المكان الذي نزح إليه الهَمَجُ كافّة؛ المرتفعات الجليديّة الموحشة المسماة (أنياب الصّقيع). فليبقوا حيث هم أبد الدهر ولن يكثر تشّت مقدار ذرّة.

لكن لا، إنهم قادمون الآن، يسلكون طريق (النّهر اللّبني).

رفع تشّت عينيه يرمق النّهر الذي تتلخّف ضفّته الحجريّتان بالجليد، وتتدفّق مياهه الشّاحبة كالحليب بلا نهاية من (أنياب الصّقيع). كان ثورين سمولود قد عاد منزعجًا قبل ثلاثة أيام، وبينما يُقدّم تقريره للذّب العجوز بما رآه كشافته، أخبر رجله كِدج ذو العين البيضاء بقيّتهم وهو يُدفع يديه فوق النّار: «ما زالوا على مسافة بعيدة في المرتفعات عند سفوح الجبال، لكنهم في الطّريق. هارما رأس الكلب تقود طليعتهم، تلك المجدورة الحقيرة. جاودي تسلّل إلى معسكرها ورآها بوضوح جالسةً عند النّار، والأحمق تومبلجون أراد أن يُريها بسهم، لكن سمولود كان أعقل من هذا».

سأله تشّت بفضاظة: «هل أحصيتموهم؟».

- «أعدادهم ضخمة للغاية، عشرون أو ثلاثون ألفًا، فلم ننتظر لنعدّهم.

هارما معها خمسمئة في الطليعة، جميعهم على متون الخيول».

تبادلَ الرِّجالُ الجالسونَ في حلقةٍ حول النَّارِ النَّظراتِ المتوتِّرةَ، فمن النَّادرِ أن تجدَ دستةً لا أكثرَ من الهَمَجِ يمتطون الخيولَ، ناهيكَ بخمسمئةٍ دُفعةً واحدةً...

تابعَ كِدج: «سمولوود أرسلني مع بانن في دورةٍ واسعةٍ حول طليعتهم، لنسترقَ نظرةً إلى كُنتلهم الأساسيَّة. إنهم بلا نهاية، يتحرَّكون بِطُءِ نهرِ جليدي، لا يقطعون أكثرَ من أربعةٍ أو خمسةٍ أميالٍ في اليوم، لكن لا يبدو أنهم ينتون العودة إلى قُراهم كذلك. أكثرُ من نصفهم نساءٌ وأطفال، ويتحرَّكون سائقين حيواناتهم من ماعزٍ وخرافٍ وثيرانٍ بريَّةٍ تجرُّ الزلاجات، المحمَّلةُ كافةً بحُرْمِ الفروِ وشرائحِ اللُّحومِ وأقفاصِ الدِّجاجِ ومماخضِ الرُّبدةِ وعجلاتِ الغرلِ، جميعٌ ممتلكاتهم. البغالُ والخيولُ الصَّغيرةُ كانت مثقلةً بالأحمالِ لدرجةٍ تجعلك تحسب أن ظهورها على وشك أن تنكسر، والنَّسوةُ كذلك.»

سأله لارك رجل الأخوات: «ويتبعون طريق (النَّهرِ اللَّبني)؟»

- «ألم أقل هذا؟»

سيَمُرُّون في طريقهم هذا بـ(قبضة البَشَرِ الأوائل)، الحصن الدائري العتيق حيث عسكري رجال حرس اللَّيل، وهو ما يعني أن أيَّ شخصٍ يملك خردلةً من العقل سيرى أن الوقت قد حان لرفع الدِّفاعاتِ والانسحابِ إلى (الجدار). كان الدُّبُ العجوز قد حصَّن (القبضة) بالخوازيق والحُفَرِ وأرْجُلِ الغِربان⁽¹⁾، لكن لا جدوى من كلِّ هذا في مواجهة جيش كالذي يزحف عليهم الآن. إذا ظلوا هنا فلا شكَّ أن الهَمَجِ سينهمرون عليهم كالمطر ويكتسحونهم.

وثورين سمولوود يُريد أن يُهاجمهم! كان السيرُ مالا دور لو ك يُشارك السيرُ أوتين ويذرز العجوز إلحاحه في التَّراجُعِ إلى (الجدار)، وقد شهد مُرافقه دونل هيل المرحِ مجيء سمولوود إلى خيمة لو ك ليلةٍ أولٍ من أمسٍ ليُحاولِ إقناعه بغير ذلك، وأخبرهم دونل المرحِ أنه قال: «ملك ما وراء الجدار لن يتوقَّع أننا

(1) رجلُ الغُرابِ أو الكالتروپ سلاح قديم كان يُستخدَم منذ العصور الوُسطى وحتى بعد الحرب العالميَّة الثانيَّة، لتعطيل الجنود والخيول، ويصنَع من المسامير أو الأشواك الحادَّة المركَّبةَ معاً، بحيث يبرز أحد الأطراف إلى أعلى دائماً، بغرض أن ينغرس في القدم. (المترجم).

تَوَعَّلْنَا كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ شِمَالًا، وَجِيشَهُ الْعَرْمَرَمَ هَذَا مَا هُوَ إِلَّا قَطِيعٌ يَمْشِي مِتثَاقِلًا، قَطِيعٌ مَلِيءٌ بِالْأَفْوَاهِ عَدِيمَةِ الْفَائِدَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ أَصْحَابُهَا مِنْ أَيِّ الطَّرْفَيْنِ يُحْمَلُ السَّيْفُ. ضَرْبَةٌ وَاحِدَةٌ سَتَسْلِبُهُمُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْقِتَالِ وَتُعِيدُهُمْ مَوْلُودِينَ إِلَى أَكْوَاخِهِمُ الْوَضِيعَةَ، حَيْثُ سَيَبْقُونَ خَمْسِينَ سَنَةً أُخْرَى».

ثَلَاثُمِئَةٌ ضِدَّ ثَلَاثِينَ أَلْفًا. وَصَفَ تَشَيْتُ هَذَا بِالْجُنُونِ الْمَطْبُوقِ، لَكِنِ الْأَكْثَرُ جُنُونًا أَنْ السَّيْرَ مَا لَادُورَ اقْتَنَعَ، وَالْآنَ يَوْشِكُ الْإِثْنَانُ مَعًا عَلَى إِقْنَاعِ الدُّبِّ الْعَجُوزِ، إِذْ قَالَ ثُورَيْنِ سَمُولُودَ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ: «سَتَضِيعُ الْفُرْصَةَ وَلَنْ تَعُودَ أَبَدًا إِذَا انْتَضَرْنَا طَوِيلًا وَلَمْ نَعْتَمِدْهَا»، فَعَارَضَهُ السَّيْرُ أَوْتِينَ وَيَذَرُ قَائِلًا: «إِنَّا الدَّرْعُ الَّتِي تَقِي بِلْدَانَ الْبَشَرِ، وَلَا أَحَدٌ يَتَخَلَّصُ مِنْ دِرْعِهِ بِلَا سَبَبٍ وَجِيهٍ»، فَزَدَّ سَمُولُودُ: «فِي الْقِتَالِ، خَيْرٌ وَسِيلَةٌ لِلدَّفَاعِ أَنْ تُسَدَّدَ ضَرْبَةٌ خَاطِطَةً تُجْهَزُ بِهَا عَلَى عَدُوِّكَ، لَا أَنْ تَخْتَبِئَ وَرَاءَ دِرْعِكَ».

لَكِنِ الْقِيَادَةَ لَيْسَتْ لِسَمُولُودِ أَوْ وَيَذَرُ، بَلْ لِلْوَرْدِ مَورْمُونَتِ، وَاللُّورْدِ مَورْمُونَتِ يَنْتَظِرُ كَشَافَتَهُ الْآخَرِينَ؛ چَارْمَانِ بَكُوِيلِ وَالرَّجَالِ الَّذِينَ صَعَدُوا (سُلْمَ الْعَمَلِاقِ)، وَكُورِينَ ذَا النَّصْفِ يَدِ وَچُونِ سَنُو اللَّذِينَ ذَهَبَا لِاسْتِطْلَاعِ (الْمَمَرِ الصَّادِحِ)، غَيْرَ أَنْ غِيَابَ كُلِّ مَنْ بَكُوِيلِ وَذِي النَّصْفِ يَدِ طَالَ كَثِيرًا. إِنَّهُمْ مَاتُوا عَلَى الْأَرَجِحِ. تَحْيَلُ تَشَيْتُ جَثَّةَ النَّعْلِ چُونِ سَنُو الزَّرْقَاءِ الْمُتَجَمِّدَةِ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ، وَقَدْ انْغَرَسَتْ حَرْبَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الْهَمْجِ فِي مَوْخِرَتِهِ، فَتَرَاقَصَتْ ابْتِسَامَةً عَلَى شَفْتَيْهِ وَفَكَرَ: «أَمَلْتُ أَنَّهُمْ قَتَلُوا ذَيْبَةَ اللَّعِينِ أَيْضًا. قَالَ وَقَدْ حَزَمَ أَمْرَهُ فَجَاءَ: «لَا يَوْجَدُ دُبٌّ هُنَا، إِنَّهُ مَجْرَدُ أَثَرٍ قَدِيمٍ لَا أَكْثَرَ. لِنَعُدْ إِلَى (الْقَبْضَةِ)».

انْدَفَعَتِ الْكِلَابُ جَاذِبَةً مَقَاوِدَهَا بَعْنَفٍ كَادَ يَسْقِطُهُ أَرْضًا، وَكُلُّهَا تَوَقُّ إِلَى الْعُودَةِ مِثْلَهُ تَمَامًا، فَلَعَلَّهَا تَحْسَبُ أَنَّهُ سَيُطْعِمُهَا. ضَحِكَ تَشَيْتُ رَغْمًا عَنْهُ، فَهُوَ يُجَوِّعُهَا مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ بَغِيَةً أَنْ تَكْتَسِبَ الشَّرَاسَةَ الْمَطْلُوبَةَ، فَاللَّيْلَةَ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْسَلَّ هَارِبًا فِي الظَّلَامِ، سَيُطْلِقُهَا بَيْنَ صَفُوفِ الْخِيُولِ، بَعْدَمَا يَقْطَعُ دُونَ هَيْلِ الْمَرْحِ وَكَارِلِ ذُو الْقَدَمِ الْمَعْوَجَّةِ حِبَالِهَا. سَتَكُونُ كِلَابُ الصَّيْدِ الْمَزْمَجَةِ وَالْخِيُولُ الْمَذْعُورَةَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، تَجْرِي وَسَطَ النَّارِ وَتَبُّ مِنْ فَوْقِ السُّورِ وَتَدْعَسُ الْخِيَامَ. فِي فَوْضَى كَتَلِكَ قَدْ تَمَرَّتْ سَاعَاتٌ طَوِيلَةٌ قَبْلَ أَنْ يَلْحَظَ أَحَدُهُمْ غِيَابَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ أَحَا.

أرادَ لارك أن يُحضِرَ ضِعْفَ هذا العدد، لكن ماذا تتوقَّع من رجل الأخوات الأحمق ذي الأنفاس الذفرة؟ اهمس كلمة واحدة في الأذن الخطأ، وفي لمح البصر ستجد أن رأسك لم يُعد على كتفيك. كلا، أربعة عشر رجلاً عدد مناسب، يكفي لتنفيذ المراد وليس كبيراً لدرجة أن يتسرَّب السُّرَّ من بينهم. كان تَشِتْ قد جَنَّدَ معظمهم بنفسه، ومنهم پول الصَّغير، أقوى رجل على (الجدار) على الإطلاق، وحتى إذا كان فهمه أبطأ من حلزون ميت، فإنه قويٌّ لدرجة أنه كسرَ ظهرَ همجيِّ بمجرد أن عانقه ذات مرَّة. ديرك محبُّ الخناجر معهم أيضاً، والرَّجل الأثيب الصَّغير الملقَّب بين الإخوة بالمتسلل، الذي اغتصبَ مئة امرأةٍ في شبابه، ويتلذَّذ بالتَّباهي بأن لا واحدة منهن رآته أو سمعته حتى دَسَّه فيها.

الخُطَّةُ خُطَّةُ تَشِتْ، فهو الذَّكي فيهم، وكان وكيل المايستر إيمون العجوز طيلة أربع سنواتٍ كاملة، إلى أن أزاخه النَّغل چون سنو من وظيفته ليشغلها صديقه الخنزير البدين. إنه ينوي حين يَقتُل سام تارلي الليلة أن يهمس في أذنه: بلِّغ اللورد سنو حُبِّي، قبل أن يَسُقَّ حلق السير خنزير لتجيش دماؤه من تحت طبقات الشَّحم التي تكسو عظامه. ثم إنه يعرف الغدِفاء وتعرفه، فلن تُسبِّب له متاعب أكثر من تارلي نفسه. سيُبلل ذلك الجبان سراويله بمجرد أن يَشعُر بلمسة السكين، ويُجهش بالبكاء متوسِّلاً الرَّحمة. دَعِه يتوسَّل، فلن يُجديه هذا نفعاً. بعد أن ينحره، سيفتح الأقفاص ويهش الطيور كي لا تَبْلُغ أيُّ رسائل (الجدار). سيقتل المتسلل وپول الصَّغير معاً الدَّب العجوز، وديرك سيتولَّى أمر بلين، أمَّا لارك وأبناء عمِّه فسيُخْرِسون بانن ودايوين العجوز لئلا يأتيا ويتشَمَّما آثارهم. إنهم يُخزِّنون الطَّعام منذ أسبوعين، وسيعمل دونل المرح وكارل ذو القدم المعوجَّة على تجهيز الخيول. ستنتقل القيادة بوفاة مورمونت إلى السير أوتين ويدرز، ذلك الشَّيخ الواهن. سيهرع عائداً إلى (الجدار) قبل أن تغرُب الشمس، ولن يُبدِّد رجالاً في مطاردتنا. شدَّته الكلاب وهي تشقُّ طريقها بين الأشجار، ورأى تَشِتْ (القبضة) ترتفع مضمومةً من قلب الأخضر. كانت سماء النَّهار ملبَّدةً بغيوم كثيفة، حتى إن الدَّب العجوز أمرَ بإضاءة المشاعل، فاتَّقدت في حلقةٍ واسعةٍ على محيط السُّور الدَّائري الذي يَتَوَجَّح قَمَّةُ التَّلِّ الحجري شديد الانحدار.

نزلَ ثلاثهم إلى جدولٍ صغيرٍ مياهه باردة كالثلج، وقد بدأت رُقع
الجليد تتكوّن على سطحه بالفعل، وفي أثناء خوضهم صارحهم لارك رجل
الأخوات قائلاً: «سأتجهُ إلى السّاحل أنا وأبناء عمّي، سنبنني قارباً ونُبحر إلى
ديارنا في (الأخوات الثلاث)».

وفي الدّيار سيعرفون أنكم مهترّبون ويضربون أعناقكم أيها الحمقى. لا
سبيل لتركِ حرس اللّيل بمجرّد أن تحلف اليمين. اهزّب إلى أيّ مكانٍ في
(الممالك السّبع) كلّها، وسيقبضون عليك ويقتلوك.

أمّا أولو الأبتَر فيتكلّم عن الإبحار عائداً إلى (تايروش)، التي يَزعمُ أنها
بلد لا يفقد الرّجل يديه فيه بسبب القليل من اللّصويّة التّزيهة، ولا يُرسلونه
إلى حيث يقضي ما تبقي من حياته يتجمّد لأنهم ضبّطوه في الفراش مع
زوجة فارس ما. كان تشّت قد فكّر في الدّهَاب معه، لكنه لا يتكلّم لغتهم
البنائيّة المائعة تلك، وماذا يفعل في (تايروش) على كلّ حال؟ إنه لم يتعلّم
صنعة تُذكر خلال نشأته في (مستنقع هاج)، إذ أمضى أبوه حياته يعزق حقول
الأخريّن ويجمع العلقّات⁽¹⁾؛ يتجرّد من ثيابه كلها باستثناء إزار جلدِيّ سميك
يُحيط بعورته، ويخوض في المياه الآسنة، وحين يخرُج تجد العلقّات تُغطّيه
من حلمتيه إلى كاحليه. أحياناً كان يجعل تشّت يُساعده على نزعها، وفي مرّة
تمسّكت إحداها براحة يده، وعندما هرسها على الحائط مشمّراً ضربته أبوه
حتى أدماه، فالمايسترات يدفعون بنسّاً كاملاً لقاء كلّ دستةٍ من العلق.

فليعدّ لارك إلى دياره إذا أراد، والتايروشي الملعون كذلك، لكن ليس
تشّت. إنه لا يشعُر ولو بشذرةٍ من الشّوق لرؤية (مستنقع هاج) ثانية، على حين
راقه منظر (قلعة كراستر) كثيرًا. لقد عاش كراستر هناك كالأعيان، فما الذي
يمنعه من أن يُصبح مثله؟ كم سيكون هذا مضحكاً؛ تشّت ابن جامع العلق
لورّد وصاحب قلعة. من الممكن أن تكون رايته دستةٍ من العلقّات على خلفيّة
باللون الوردي. لكن لِمَ يكتفي باللوردية؟ ربما ينبغي له أن يصير ملكاً. مانس

(1) العلقّات كائنات طفيليّة تُشبه الدّيدان وتمتصّ الدّماء، وبدأ استخدامها قبل ألفي عام بغرض
تطهير الجسد من الدّم الفاسد بعمليةٍ كانت تُعرف بتعليق العلق، بالإضافة إلى الحفاظ على
الدّم من التجلّط أثناء الجراحة. (المترجم).

رايدر كان غُرابًا في البداية. يُمكنني أن أكون ملكًا مثله، وأتخذ لنفسِي بضع زوجات. كراستر لديه تسع عشرة زوجةً، وليس من ضمنهن البنات اللاتي لم يُصاِجِعهن بعدُ. نصف أولئك الزَّوجات عجائزٌ قبيحات ككراستر نفسه، لكن لا يهَمُّ، فيمكن لتشت أن يُكلِّفهن بالطَّهوَ والتَّنظيف وجني الثَّمار وإطعام الخنازير، فيما تُدْفِي الشَّابَّات فراشه ويحملن أطفاله، وكراستر لن يقوى على الاعتراض بمجرد أن يُعانقه بول الصَّغير.

لم يعرف تشت نساءً إلا العاهرات اللاتي استأجرهن في (بلدة المناجذ)، أمَّا قبلها، وهو أصغر، فكانت فتيات قريته يُلقين نظرةً واحدةً على وجهه بثوره وكيسه الدهني، ويُشحن بأنظارهن متقرِّزات. أسوأهن كانت تلك القذرة بسا، التي فتحت ساقيها لكل صبيٍّ في (مستنقع هاج)، فقال لنفسه إنه لا يوجد ما يمنع أن تفعلها معه أيضًا، بل وقضى صباحًا كاملًا يجمع لها الزُّهور البريَّة عندما عرف أنها تُحبُّها، فما كان منها إلا أن ضحكَّت في وجهه، وقالت إنها تُفضِّل أن تدخُل الفراش مع عُلقات أبيه على أن تدخُله معه. لم تكفَّ عن الضَّحك حتى أولج سكينه فيها، ولكم كانت النظرة على وجهها حلوةً لحظتها، فسحب سكينه وطعنها ثانيةً.

حين قبضوا عليه أخيرًا بالقرب من (الجداول السبعة)، لم يتجشَّم اللورد والدر فراي العجوز عناء المجيء والحكم عليه بنفسه، بل أرسلَ واحدًا من نغوله، والدر ريفرز، وإذا بتشت يجد نفسه في الطريق إلى (الجدار) في صُحبة الشَّيطان الأسود كريبه الرائحة المدعو يورن. لقد سلَّبه حياته كلها ثمنا لهذه اللَّحظة الواحدة الحلوة.

لكنه يعتزم الآن أن يأخذ حياته منهم ثانيةً، ويأخذ زوجات كراستر أيضًا. الهمجيُّ المسنُّ المقيت على حقٍّ؛ إذا أردت امرأةً زوجةً لك فخذها، ودعك من هراء إعطائها بضع زهور على أمل ألا تلاحظ بثورك القبيحة. تشت لا ينوي أن يرتكب ذلك الخطأ مجددًا.

للمرَّة المئة أكد لنفسه أن الخُطة ستنجح... شريطة أن نخرُج من هنا بلا عقبات. سيعمد السير أوتين إلى (بُرج الظلال) جنوبًا، فهذا أقصر الطرق إلى (الجدار). ويذرز لن يشغل باله بنا، ولن يُريد إلا العودة سالمًا. بينما سيرغب

ثورين سمولوود لا شكَّ في تنفيذ الهجوم، لكن السير أوتين رجل حذر لأقصى حد، كما أنه يفوقه رُتبةً. ولن يهْمُ هذا على كلِّ حال. فليهاجِم سمولوود من يشاء بمجرد أن نختفي، فلم نعبأ؟ إذا لم يعد أيُّ منهم إلى (الجدار)، فلن يأتي أحد يبحث عنا أبداً، وسيحسبوننا متنا مع البقية. كان هذا الخاطر جديداً، وقد استماله لحظةً بالفعل، لكن عليهم في تلك الحالة أن يقتلوا السير أوتين والسير مالادور لوك أيضاً كي تنتقل القيادة إلى سمولوود، وكلاهما مُحاط بعددٍ لا بأس به من رجاله ليل نهار... لا، المخاطرة كبيرة للغاية.

سأله پول الصَّغير وهُم يمشون متناقلين على درب حجريٍّ للفرائس يمضي بين أشجار الحارس والصَّنوبر الجُندي⁽¹⁾: «تشت، ماذا عن الطائر؟». - «أيُّ طائر لعين هذا؟». آخر شيءٍ يحتاج إليه الآن أن يشرع هذا المأفون في الثَّرة عن طائرٍ ما.

أجاب پول: «غُداً الدُّب العجوز. من سيُطعم الطائر إذا قتلناه؟».

- «ومن يُبالي؟ اقتل الطائر أيضاً إذا أردت».

قال الرَّجل الكبير: «لا أريد أن أؤدي أيَّ طيور، لكنه طائر متكلم، فماذا لو وشى بما فعلناه؟».

ضحك لارك رجل الأخوات وقال ساخراً: «پول الصَّغير، بليد كالحمير!». خاطبه پول مُنذراً: «اخرس!».

سارع تشت يقول قبل أن تتفاقم غضبة الرَّجل الكبير: «پول، عندما يجدون العجوز غارقاً في بركةٍ من الدَّم وعُنقه مشقوق، فلن يحتاجوا إلى طائرٍ يقول لهم إن أحداً قتله».

تأمَّل پول الكلام لحظةً ثم قال: «هذا صحيح. هل يُمكنني الاحتفاظ بالطائر إذن؟ إنني أحبُّه».

ردَّ تشت ليُخرسه: «إنه لك».

أضاف لارك: «ويُمكننا أن نأكله إذا جُعنا».

عادَت غيوم الغضب تتجمَّع في وجه پول ثانيةً وهو يقول بحدَّة: «خيرٌ لك ألا تأكل طائري يا لارك، خيرٌ لك».

(1) الحارس والصَّنوبر الجُندي نوعان من الأشجار من خيال المؤلف. (المترجم).

تناهت إلى مسامع تَشِتْ أصوات قادمة من بين الأشجار، فقال: «فليُطبِقِ
كلاكما فمه، إننا على وشك بلوغ (القبضة)».

خرجوا بالقرب من جانب التَّل الغربي، وداروا حوله جنوبًا حيث تخفُّ
حدَّة المنحدر، وعلى مقربةٍ من حافة الغابة وجدوا دسْتَةً من الإخوة يتمرَّنون
على الرِّمائية، وقد رسموا أهدافًا على شكل رجالٍ في جذوع الأشجار وأخذوا
يُطلقون عليها سهامهم، فقال لارك: «انظروا، خنزير يحمل قوسًا».

وبالفعل كان أقرب رام إليهم هو السير خنزير نفسه، الصَّبي البدين الذي
سرق مكانه مع المايستر إيْمون. مجرد مرأى سامويل تارلي يُفِعه غضبًا، إذ
كان عمله وكيلًا للمايستر أفضل حياة عرفها على الإطلاق، فالعجوز الصَّيرير
قليل الطُّلبات، وكلايداس يُلَبِّي معظم حاجاته على كلِّ حال، أمَّا واجبات
تَشِتْ فكانت بسيطةً، تتلخَّص في تنظيف المِغْدفة⁽¹⁾ وإشعال النَّار للتَّدْفئة
وإحضار الوجبات... كما أن إيْمون لم يضره ولو مرَّة. يعتقد أنه يستطيع أن
يأتي متبخترًا ويُنَحِّني بهذه البساطة، فقط لأنه من عِلية القوم ويعرف القراء.
ربما أجعله يقرأ سكينى قبل أن أذبحه به. خاطب رفيقه قائلاً: «أذهباً أنتما،
أريدُ أن أشاهد هذا»، ولَمَّا شدَّته الكلاب متلهِّمَةً على الذَّهاب معهما إلى
الطَّعام الذي تحسب أنها ستنالها على القمَّة، ركلَ تَشِتْ الكلبة الكبيرة بطرف
حذاءه، فهذأ هذا القطيع بعض الشَّيء.

راقب من بين الأشجار فيما كافح الصَّبي البدين للتحكُّم في قوس يُناهزه
طولًا، وقد تقلَّصت قسما ت وجهه المستدير المتورِّد من فرط التَّركيز، بينما
انغرست رؤوس ثلاثة سهام في الأرض أمامه. التقطَ تارلي سهمًا وركبه في
الوتر وسحبته، وظلَّ مثبتًا إياه مدَّة طالت وهو يُحاول التَّصويب قبل أن يُطلق،
فقط ليختفي السَّهم وسط الحُضرة، فأطلقَ تَشِتْ ضحكةً ساخرةً عاليةً ملأى
بالامتعاض المنكِّه بالتلذُّذ.

أعلنَ إد توليت، المُرافق الأشيب المتجهِّم الذي يُسمِّيه الجميع إد
الكتيب: «لن نَعثر عليه أبدًا، وسيلوموني أنا. منذ فقدتُ حصاني ولا شيء

(1) المِغْدفة عبارة عن قفص كبير بمثابة عُش لطيور الغُداف. (المترجم).

يَضِيعُ أَبَدًا إِلَّا وَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ، كَأَنِّي فَقَدْتَهُ عَمْدًا. كَانَ لَوْنُهُ أَبْيَضَ وَالثَّلْجَ يَنْهَمِرُ، فَمَاذَا تَوَقَّعُوا أَنْ يَحْدُثَ؟».

قال صديق اللورد سنو الآخر جرن: «الرَّيْحُ خَطَفَتْ هَذَا السَّهْمَ. حَاوَلَ أَنْ تَحْمَلَ الْقَوْسَ بِثَبَاتٍ يَا سَامَ».

قال الصَّبِيُّ البَدِينُ بِنْدَثُر: «إِنَّهُ ثَقِيلٌ»، وَإِنْ نَزَعَ السَّهْمَ الثَّانِي مِنَ الْأَرْضِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَحَلَقَ هَذَا السَّهْمَ عَالِيًا وَغَابَ وَسَطَ الْغُصُونِ عَلَى ارْتِفَاعِ عَشْرَةِ أَقْدَامٍ مِنَ الْهَدَفِ.

عَلَّقَ إِذَ الْكَيْتِبُ: «أَعْتَقُدُّ أَنَّكَ أَسْقَطْتَ وَرَقَةً مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ. الْخَرِيفُ يَزْحَفُ بِسُرْعَةٍ كَافِيَةٍ بِالْفِعْلِ، فَلَا دَاعِي لَأَنْ تُسَاعِدَهُ»، وَتَنَهَّدَ مُضِيغًا: «وَكَلْنَا يَعْلَمُ مَا يَتَّبِعُ الْخَرِيفُ... لَكِنِ الْبَرْدُ قَاسٍ بِحَقِّ الْأَلْهَةِ. أَطْلِقِ السَّهْمَ الْأَخِيرَ يَا سَامَ، فَيَبْدُو أَنَّ لِسَانِي بَدَأَ يَلْتَصِقُ بِسَقْفِ فَمِي».

خَفَضَ السَّيْرَ خَنْزِيرِ الْقَوْسِ، وَحَسَبَ تَشَّتْ أَنَّهُ سَيَنْفَجِرُ فِي الْبِكَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «صَعِبٌ لِلْغَايَةِ».

قال له جرن: «تَبَّتْ وَاسْحَبْ وَأَطْلِقْ، هِيَا».

بَطَاعَةٌ نَزَعَ الصَّبِيُّ البَدِينُ السَّهْمَ مِنَ الْأَرْضِ وَثَبَّتَهُ إِلَى قَوْسِهِ الطَّوِيلِ وَسَحَبَهُ وَأَطْلَقَهُ. فَعَلَ كُلُّ هَذَا بِسُرْعَةٍ وَدُونَ أَنْ يُضَيِّقَ عَيْنَيْهِ مَجَاهِدًا لِلتَّصْوِيبِ كَمَا فَعَلَ فِي الْمَرَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، فَأَصَابَ السَّهْمُ الْهَدَفَ الْمُرْسُومَ بِالْفَحْمِ فِي أَسْفَلِ الصَّدْرِ وَانْغَرَسَ فِي جَذَعِ الشَّجَرَةِ مَرْتَجِفًا، وَبَدَأَ السَّيْرَ خَنْزِيرِ مَصْدُومًا وَهُوَ يَقُولُ: «أَصَبْتَهُ! جَرْنُ، هَلْ رَأَيْتَ؟ إِدْ، انظُرْ، لَقَدْ أَصَبْتَهُ!».

قال جرن: «بَيْنَ الضُّلُوعِ عَلَى مَا يَبْدُو».

سَأَلَهُ الصَّبِيُّ البَدِينُ: «هَلْ قَتَلْتَهُ؟».

هَزَّتْ تَوَلِيَتْ كَتْفَيْهِ مَجِيئًا: «ثَقَبْتَ رِئْتَهُ عَلَى الْأَرْجَحِ، لَوْ أَنَّ لَهُ رِئَةً، وَلَكِنِ الْقَاعِدَةُ أَنَّ أَكْثَرَ الْأَشْجَارِ بِلَا رِئَةٍ»، وَالتَقَطَ الْقَوْسَ مِنْ يَدِ سَامٍ مُضِيغًا: «وَلَوْ أَنِّي رَأَيْتُ رِمَايَاتٍ أَسْوَأَ مِنْ هَذِهِ، نَعَمْ، وَسَدَّدْتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ أَسْوَأَ كَذَلِكَ». انْفَرَجَتْ أَسَارِيرُ السَّيْرِ خَنْزِيرِ عَنْ آخِرِهَا، حَتَّى إِنْ النَّظَرَ إِلَيْهِ كَانَ لِيَحْسَبَ أَنَّهُ حَقَّقَ إِنْجَازًا فَعَلِيًّا، لَكِنَ فُورَ أَنْ رَأَى تَشَّتْ وَكَلَابَهُ التَّوَتِ ابْتِسَامَتَهُ وَمَاتَتْ عَلَى ثَغْرِهِ وَخَرَجَ مِنْهُ صَرِيرٌ حَادٍ، فَبَادَرَهُ تَشَّتْ قَائِلًا: «إِنَّكَ لَمْ تُصِبْ إِلَّا شَجَرَةً. لَنْزِيرِ اعْتَكِ عِنْدَمَا تُوَاجِهُ فِتْيَةَ مَانَسِ رَايْدِرِ، فَهَؤُلَاءِ لَنْ يَقْفُوا ثَابِتِينَ فِي أَمَاكُنْهِمْ

بأطرافٍ مفرودة وأوراقٍ تحفُّ، نعم، بل سيهاجمونك مباشرةً وهم يصرُّخون في وجهك، وأراهنُ أنك ستبُللُ سراويلك هذه قبل أن يغرس أحدهم بطلته بين هاتين العينين الخنزيريتين، وآخر ما تسمعه سيكون صوتها وهي تشجُّ جُمجمتك».

طفقَ الصَّبي البدين يرتجف، فوضعَ إِد الكئيب يده على كتفه، وقال لتشت بجديَّة: «يا أخي، ما حدثَ معك لا يعني أن سام سيعاني المصير نفسه بالضرورة».

- «عَمَّ تتكلَّم يا توليت؟».

- «البطة التي شجَّت جُمجمتك. أصحيحُ أن نصف عقلك انسكبَ على الأرض والتهمته كلابك؟».

ضحكُ المغفل الكبير جرن، فيما تراقصت ابتسامه ضعيفة على شففتي سامويل تارلي، فسددت ركلةً إلى أدنى الكلاب إليه، وجذبَ المقاود وبدأ يصعد التل. ابتسم كما تريد يا سير خنزير، سزى من يضحك الليلة. ليته يملك الوقت لأن يقتل توليت أيضًا. ما هو إلا أحرق كئيب يشبه الحصان. كان الصُعود عسيرًا، حتى على هذا الجانب من (القبضة)، حيث أخف الجُروف انحدارًا، وفي منتصف المسافة راحت الكلاب تنبح وتشدّه حاسبةً أنها ستأكل قريبًا، فلم تذق منه إلا الركلات والتلويح بالسُّوط فوق رأس الكلبة الكبيرة القبيحة التي نهشت الهواء في وجهه. بمجرد أن ربطها ذهبَ يُقدِّم تقريره إلى القائد، وأخبرَ مورمونت أمام خيمته السوداء الكبيرة: «وجدنا الآثار حيث قال العملاق، لكن الكلاب رفضت تتبَّعها. مكانها هناك عند النَّهر قد يعني أنها قديمة».

لحضرة اللورد مورمونت رأس أصلع ولحية شبياء كثيفة مشعثة، وقد بدا صوته متعبًا كملامحه وهو يقول: «خسارة، كان القليل من اللحم الطازج لينفعنا جميعًا»، فهزَّ العُذاف الجاثم على كتفه رأسه إلى أعلى وأسفل مردِّدًا: «لحم، لحم، لحم!».

فكرتُ: يُمكننا أن نطبخ الكلاب اللعينة، لكنه أطبقَ فمه حتى صرفه الدُّب العجوز، فقال لنفسه برضا: وهذه آخر مرَّةٍ أحنى رأسي له. أحسَّ بقسوة البرد تشنُّدُ، الشَّيء الذي كان يُقسِم أنه غير ممكن، ولَمَّا رأى الكلاب متلمِّمةً

معًا بتعاسةٍ فوق الوحل المتجلد عن آخره، راودته نفسه عن الانضمام إليها، لكنه لَفَّ وشاحًا أسود من الصُوف حول نصف وجهه الشفلي، تاركًا فراغًا لفمه بين الطّيّات، إذ وجد أن الحركة المستمرة تبتُّ فيه دفنًا أكثر، فدارَ بتمهّل مع محيط السُّور الدَّائري ومعه حزمة من التَّبغ المُر، الذي تقاسمه مع الإخوة السُّود الواقفين حراسةً وهو يسمع ما يقولونه. لا تضمُّ خُطته أحدًا من رجال المناوَبَة النَّهاريَّة، وإن كان قد خطر له أن من المفيد أن تكون لديه فكرة عما يجول ببالهم. وأغلب ما يدور ببالهم أن البرد لا يُطاق حقًّا.

بدأت الظلال تستطيل، على حين اشتدَّت الرِّيح وهبَّت مُصدرَةً صوتًا رفيفًا عاليًا وهي تمرُّ مرتعشةً من فجوات السُّور الحجري، فغمغم العملاق الصَّغير: «كم أكره هذا الصَّوت، كأنه رضيع في الغابة يتتجب طالبًا اللَّبن». عادَ إلى الكلاب بعدما انتهى من دورته، فإذا بلارك ينتظره ليقول له: «الضُّبَّاط مجتمعون في خيمة الدُّب العجوز ثانيةً، والنِّقاش بينهم محتدم». قال تشت: «هذه عاداتهم. إنهم من عليَّة القوم، كلهم باستثناء بلين، يُسكِّرهم الكلام بدلًا من التَّبيذ».

دنا منه لارك بتؤدة، وقال متلفنًا حوله ليتأكَّد من عدم وجود أحد بالجوار: «مُخ الذُّبابة لا يزال يتكلَّم عن الطَّائر اللِّعين، والآن يسأل إن كنا قد خبَّأنا حبوبًا لإطعامه».

ردَّ تشت: «إنه غُداف، يأكل الجيف».

قال لارك بابتسامةٍ واسعة: «جيفته هو ربما؟».

أو جيفتك أنت. فكَّر تشت أنهم يحتاجون إلى الرَّجل الكبير أكثر من لارك، لكنه قال له: «دعك من القلق بشأن بول الصَّغير. قُم بدورك وسيقوم هو بدوره».

كان الشَّفق يزحف على الغابة حين خلَّص نفسه من رجل الأخوات أخيرًا وجلسَ يشحذ سيفه، العمل الذي وجده صعبًا للغاية وهو يرتدي قُفَّازيه، لكنه لن يخلعهما بالطَّبع، ففي بردٍ كهذا سيفقد أيُّ أحرق يمسُّ الفولاذ بيده المكشوفة رُقعةً لا بأس بها من جلده.

بدأت الكلاب تنوح عندما غابت الشَّمس، فسقاها الماء واللَّعنات وقال لها: «نصف ليلةٍ فحسب ويُمكنكم أن تبحثوا عن وليمتكم بأنفسكم».

عندئذ كانت رائحة العشاء تَبْلُغُ أنفه، وبينما تناولتْ قطعةً من الخُبزِ الصُّلبِ ووعاءً من الحَسَاءِ من هَاكِ الطَّبَاحِ، كان الحطَّابُ العجوزُ دايوين يقف عند نار الطهو وَيُسَاعِدُ على تقديم الطعام وهو يقول: «الغابة ساكنة للغاية، لا ضفادع تنقُّ فَرَبِ النَّهْرِ ولا بوم ينعق في الظلام. لم أسمع قطُّ غابةً أكثر موأناً من هذه».

قال هاك: «صوت أسنانك هذه يشي بأنها ميتة تماماً». طقطقَ دايوين أسنانه الخشبيَّة، وأضاف: «ولا ذئاب كذلك. كانت موجودةً من قبل لكنها اختفت. أين تحسبونها ذهبت؟». أجابَ تشت: «إلى مكانٍ دافئ».

ضمتَّ الدَّستةُ أو نحوها من الإخوة الجالسين عند النَّارِ أربعةً من رجاله، وقد حدَّقَ إلى كلِّ منهم بنظراتٍ فاحصةٍ قاسية، ليرى إن كان أحدهم يُبدي أمارَةً على التَّخادُل، فرأى ديرك هادئاً كفايةً في جلسته الصَّامتة وهو يشحذ خنجره كما يفعل كلَّ ليلة، بينما راحَ دونل هيل المرح يُلقِي الدُّعابات البسيطة. أبيض الأسنان هو، وشفته حمراوان ممتلئتان، وعلى كتفيه تسدلُ خُصلات شعره الأصفر بأناقة، ويدَّعي أنه نغل لأحد أولاد لانستر، ولعلَّه كذلك حقًّا. لا يُطيق تشت أمثاله من الصَّبيبة المليحين كالفتيات ولا يُطيق التُّغول، لكن دونل المرح بدا متماسكاً.

أما مَنْ بَتَّ فيه قدرًا أقلَّ من الثَّقة فهو الحطَّابُ العجوز الذي يُلقِّبه الإخوة بالمنشار، لأسبابٍ علاقتها بصوت غطيظه أو طد من عمله على الأشجار، والآن يبدو متوتِّرًا من فكرة ألا يغطُّ في نومه العميق ثانيةً أبدًا. الأسوأ منه كان مازلين، الذي لمَحَ تشت عرقه يسيل على الرغم من برودة الرِّيح، تلمع القطرات على وجهه في ضوء النَّار كعشرات الجواهر الصَّغيرة المبتلة، ولا يأكل ويكتفي بالحملقة إلى حَسائه كأن رائحته تُشعره بالغيثان. يجب أن أبقي عينيَّ عليه.

- «اجمع!»، جاءت الصَّيحة فجأةً من دستة من الحناجر، وسرعان ما انتشرت في أنحاء المخيم المنسوب على قَمَّةِ التَّل. «يارجال حرس الليل! اجتمعوا عند بؤرة النَّار الوُسطى!».

بملامح عابسة أنهى تشت حَساءه وسارَ وراء البقيَّة.

كان الذُّب العجوز واقفاً أمام النَّار، وخلفه يقف كلُّ من سمولود ولوك وويدرز وبلين في صَف. ارتدى مورمونت معطفاً من الفرو الأسود السَّميك، وجثمَّ عُدافه على كتفه وأخذَ يُسَوِّي ريشه الفاحم. فكَّر تشت وهو يدسُّ جسده بين برنار البني وبعض رجال (بُرچ الظلال): لا يُمكن أن يكون هذا خيراً. عندما اجتمع الكل، باستثناء من يتولون الحراسة في الغابة وعلى الشُّور الدَّائري، تنحنح مورمونت وبصق، فتجمَّد البصاق قبل أن يبلُغ الأرض، فيما بدأ الرَّجل: «أيها الإخوان، يا رجال حرس اللَّيل».

صرخَ عُدافه: «رجال! رجال! رجال!».

- «الهمج يزحفون، يأتون متبعين طريق (النَّهر اللَّبني) من بين الجبال. ثورين يرى أن طليعتهم ستبلغنا في غضون عشرة أيام، وسيكون أبرع مُغيريهم مع هارما رأس الكلب في هذه الطليعة، أمَّا بقيتُهم فسيشكِّلون حراسة المؤخِّرة، أو يتحرَّكون ملاصقين مانس رايدر نفسه، وفي البقاع الأخرى سينتشر مُحاربوهم على مسافات متباعدة بطول حطِّ السَّير. إن معهم ثيراناً وبغلاً وخيولاً، لكنها قليلة، ومعظمهم سيكون من السَّائرين على الأقدام، عديمي التَّدريب وضعيفي التَّسليح. الأسلحة التي يحملونها فيها من الحجارة والعظام أكثر من الفولاذ، كما أنهم مُثقلون بالنِّساء والأطفال وقُطعان الماعز والخراف، بالإضافة إلى كلِّ ما يملكونه من الدُّنيا. باختصار، على الرغم من أعدادهم الكبيرة، فنقاط ضعفهم عديدة... ولا يعلمون أننا هنا، أو هكذا يجب أن نتمنَّى».

إنهم يعلمون، بكلِّ تأكيد يعلمون أيها العجوز الحَرف. كورين ذو النِّصف يد لم يعد، أليس كذلك؟ ولا چارمان بكويل. إذا وقع أيُّ من رجالهما في الأسر، فثِق بأن الهمج اعتصروا منه كلَّ ما يعرفه.

تقدَّم سمولود قائلاً: «مانس رايدر يسعى إلى اختراق (الجدار) وإغراق (الممالك السَّبع) في حُمرة الحرب. حسن، إنها لعبة يمكن أن يلعبها اثنان. غداً سنبادره نحن بالحرب».

قال الذُّب العجوز فيما ارتفعت الهمهمات من بين الرِّجال: «ستتحرَّك في الفجر بكلِّ قوَّتنا، ونتَّجه شمالاً وندور غرباً، ووقتها ستكون طليعة هارما قد وصلت إلى (القبضة) وتجاوزتها بالفعل. تلال (أنياب الصَّقيع) ملأى

بالوديان الضيقة الملتفة الصالحة تمامًا كمكامن للهجوم، وخط سير الهمج يمتد أحيانًا طويلاً، لذا سنباغتهم في بقاع عدة في آن واحد، ونجعلهم يُقسِمون أننا ثلاثة آلاف لا ثلاثمئة».

أضاف ثورين سمولود: «سنوجه لهم ضربةً عنيفةً ونراجع قبل أن يحتشد خيالهم لمواجهتنا، فإذا أتوا في أعقابنا سنجعلهم يطاردوننا بلا طائل ثم ندور ونضرب بقعةً أخرى في ركبهم. سنحرق عرباتهم ونشتت قطعانهم ونقتل أكبر عدد ممكن منهم، مانس رايدر نفسه إذا وجدناه. إذا تفرقوا وهرعوا عائدين إلى أكوأخهم فقد فزنا، وإذا لم يفعلوا فنسظل نُداهمهم طيلة الطريق إلى (الجدار) ونعمل على أن يتروكوا أثرًا طويلاً من الجثث بينما يتقدمون».

صاح أحدهم من وراء تبت: «إنهم آلاف!».

وجاء صوت مازلين المشبع بغثيان الخوف يقول: «سنموت!».

وصرخ غداف مورونت ضاربًا الهواء بجناحيه الأسودين: «نموت، نموت، نموت، نموت!».

ردّ الذب العجوز: «كثيرون منا سيموتون، وربما نموت جميعًا، لكن كما قال قائد آخر قبل ألف عام، فلهذا السبب يلبسوننا الأسود. تذكروا قسمكم أيها الإخوة، فنحن السيوف في الظلمات، الحُرّاس على الأسوار...».

سحب السير مالا دور لوك سيفه الطويل مكملاً: «النار التي تحترق لتطرّد البرد».

وتابع آخرون ساحبين سيوفهم من أغمدها بدورهم: «الضوء الذي يأتي بالفجر».

عندئذ كان الجميع يستلون سيوفهم، التي ارتفع ما يقرب من ثلاثمئة منها نحو السماء، ومن حناجر أصحابها خرجت بقية الكلمات: «التغير الذي يُوقظ النيام! الدرّع التي تقي بلدان البشر!».

لم يجد تبت خيارًا غير أن يضمّ صوته إليهم، وقد أغممت أنفاسهم الهواء بالبخار وترقق ضوء النار على فولاذهم المسلول. سرّه أن رأى لارك والمتسلل ودونل هيل المرح يشتركون مع الهاتفين كأنهم حمقى كبار مثلهم. لا بأس، فلا داعي لجذب الانتباه الآن وساعتهم دانية للغاية.

عاد يسمع الرّيح إذ تضرب حجارة السور الدائري عندما خبا الهتاف، وبدا

اللَّهْبِ نَفْسَهُ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْبُرْدِ وَهُوَ يَتَرَأَّقُصُ وَيُرْتَعِدُ، وَفِي الْهَدْوَاءِ الْمَفْاجِئِ الَّذِي رَانَ عَلَى الْمَكَانِ، رَفَعَ غُدَافَ الدُّبِّ الْعَجُوزِ عَقِيرَتَهُ بِنَعِيبٍ صَاحِبِ، وَمَرَّةً أُخْرَى رَدَّدَ: «نَمُوتُ!».

طائر ذكي، فَكَّرَ تَشْتِ وَالضُّبَّاطِ يَصْرَفُونَهُمْ مَوْصِينَ بِأَنْ يَتَنَاوَلَ الْجَمِيعَ وَجِبَةً مَشْبَعَةً وَيُرْتَاوِحُوا طَوِيلًا اللَّيْلَةَ. هَكَذَا زَحَفَ تَحْتَ الْأَغْطِيَةِ الْفَرُوقِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْكَلَابِ، وَعَقْلُهُ لَا يَنْفِكُ يُفَكِّرُ فِي كُلِّ الْأَخْطَاءِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَقَعَ. مَاذَا لَوْ أَدَّى هَذَا الْقَسْمَ اللَّعِينِ إِلَى أَنْ يُعَيِّرَ أَحَدَ رِجَالِهِ رَأْيَهُ؟ مَاذَا لَوْ نَسِيَ بُولَ الصَّغِيرِ وَحَاوَلَ أَنْ يَقْتُلَ مَورْمُونَتَ خِلَالَ الْمَنَاوِبَةِ الثَّانِيَةِ لَا الثَّلَاثَةَ؟ وَمَاذَا لَوْ فَقَدَ مَازِلِينَ شِجَاعَتَهُ، أَوْ وَشَى أَحَدَهُمْ، أَوْ...

وَجَدَ نَفْسَهُ يُصْغِي إِلَى اللَّيْلِ. كَانَ صَوْتُ الرِّيحِ كَنَحِيبِ رَضِيعٍ بِالْفِعْلِ، وَمِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ تَرَامَى إِلَى أُذُنِهِ أَصْوَاتُ رِجَالٍ أَوْ صَهِيلِ حِصَانٍ أَوْ طَقْطَقَةِ الْحَطَبِ فِي النَّارِ، لَكِنْ لَا شَيْءَ غَيْرِ هَذَا. يَا لِهَذَا الْهَدْوَاءِ!

رَأَى وَجْهَ بَسَا طَافِيًا فِي الْهَوَاءِ أَمَامَهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ لَهَا: لَمْ يَكُنِ السَّكِينُ هُوَ مَا أَرَدْتُ أَنْ أَضَعُ فِيكَ. لَقَدْ قَطَعْتُ لِكَ زَهْرًا، قَضَيْتُ صَبَاحًا كَامِلًا، أَقْفَطُ لِكَ الْوَرْدَ الْبَرِّيَّ وَحَشِيشَةَ الْمَلُوكِ وَكُؤُوسَ الذَّهَبِ. كَانَ الْجَلِيدُ يَكْسُو لِحِيَّتَهُ حَوْلَ فَمِهِ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ كَالطَّبْلَةِ، حَتَّى إِنَّهُ خَشِيَ أَنْ تُوقِظَ خَفَقَاتُهُ الْعَالِيَةَ الْمَعْسَكَرَ. سَأَلَ نَفْسَهُ: مَا الَّذِي جَعَلَنِي أَفْكَرُ فِي بَسَا هَكَذَا؟ هُوَ لَا يُفَكِّرُ فِيهَا أَبَدًا إِلَّا لِيَتَذَكَّرَ كَيْفَ بَدَتْ وَهِيَ تُحْتَضِرُ، فَمَاذَا دَهَاءَ الْآنَ؟ إِنَّهُ يَكَادُ لَا يَسْتَطِيعُ التَّقَاتُ أَنْفَاسَهُ. هَلْ غَلَبَهُ النَّوْمُ؟ اعْتَدَلَ جَالِسًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَأَحْسَنَ بِشَيْءٍ بَارِدٍ مَبْتَلٍ يَمَسُّ أَنْفَهُ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ.

وَكَانَ الثَّلْجُ يَتَسَاقَطُ.

شَعَرَ بِالذَّمُوعِ تَتَجَمَّدُ عَلَى وَجْتَيْهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَصْرُخَ: لَيْسَ هَذَا عَدْلًا! سَيُفْسِدُ الثَّلْجُ كُلَّ مَا عَمَلَ فِي سَبِيلِهِ، كُلَّ مَا خَطَّطَ لَهُ بِمَنْتَهَى الْعِنَايَةِ، وَهِيَ هِيَ التُّدْفُ الْبَيْضَاءُ الْكَبِيرَةُ تَنْهَمِرُ بِكَثَافَةٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهُ. كَيْفَ سَيَعْتُرُونَ عَلَى طَعَامِهِمُ الْمَخْبَأَ؟ أَوْ عَلَى دَرَبِ الْفَرَاثِسِ الَّذِي يَنْوُونَ سَلُوكَهُ شَرَقًا؟ وَلَنْ يَحْتَاجُوا إِلَى دَاوِيْنَ أَوْ بَانَنٍ لِمَطَارَدَتِنَا وَهُمْ يَقْتَفُونَ آثَارَنَا فِي الثَّلْجِ الطَّازِجِ. ثَمَّ إِنَّ الثَّلْجَ يُخْفِي شَكْلَ الْأَرْضِ، خُصُوصًا لَيْلًا، وَمِنْ الْوَارِدِ أَنْ يَتَعَثَّرَ حِصَانٌ فِي جِذْرِ وَيَكْسِرُ سَاقَهُ عَلَى حَجَرٍ. أَدْرِكُ أَنْ أَمْرَهُمْ انْتَهَى... انْتَهَى قَبْلَ أَنْ نَبْدَأَ،

لقد ضَعْنَا. لا حياة لورد لابن جامع العَلَق، لا قلعة ولا زوجات أو تيجان،
لا شيء أكثر من سيف همجي في بطنه ثم قبر بلا شاهد. الثلج سلبي كلَّ
شيء... الثلج اللعين...

و چون سنو سمِّي الثلج الذي عصفَ بحياته من قبل، هو وخزيره المدلِّل.
نَهَضَ تَشْتِ بساقين متصلبتين، فرأى رفاق الثلج وقد أHALت ضوء
المشاعل البعيدة إلى وهج برتقاليِّ مبهم، فحِيلَ إليه كأن سحابةً من الحشرات
السَّاحبة الباردة تُهاجمهم. نزل الثلج على كتفيه ورأسه، وطارَ في أنفه وعينيه،
فنفضَه وهو يسُبُّ ويلعن، وقال لنفسه وقد تذكَّر: سامويل تارلي، ما زالَ
يُمكِنني أن أتعامل مع السير خنزير. أحكَمَ لَفَ وشاحه حول وجهه ورفع
قلنسوته، وذرَعَ المعسكر بخطواتٍ واسعةٍ إلى حيثِ ينَام الجبان.

كان الثلج يسْقُط بغزارةٍ بالغةٍ، لدرجة أنه ضَلَّ الطريق وسط الخيام، لكنه
في النَّهاية أَبصرَ حاجزَ الرِّيَّاح الصَّغير المريح الذي نصبه الصَّبي البدين لنفسه
بين صحرةٍ وأقفاص الغدْفان، ووجد تارلي يبدو كجبلٍ لَيْنٍ مستدير وهو
مدفون تحت كومةٍ من الأغطية الصُّوف والفرو السَّوداء، التي بدأت تكتسي
بطبقةٍ من الثلج. بخفوت الأمل همسَ الفولاذ إذ احتكَّ بالجلد وتَشْتِ يستل
خنجره من غمده، وأطلقَ أحد الغدْفان نعيبًا، فتمتمَّ آخَر: «سنو» وهو يُحدِّق
من وراء القضبان يعينين سوداوين، فردَّد الأول: «سنو». تحرَّك تَشْتِ مجتازًا
الطيور ومتخذًا كلَّ خطوةٍ بحذر. سيُطبق يُسراه على فم الصَّبي البدين ليكْتُم
صُراخه، ثم...

أهووووووووو!

تَوَقَّف قبل أن يكمِل خطوته، وابتلعَ شتائمه وصوت النَّفير يتردَّد مرتجعًا
عبر المخيم، خافتًا بعيدًا لكن لا ريب فيه. ليس الآن، على الآلهة اللعنة،
ليس الآن! كان الدُّب العجوز قد أمرَ عددًا من الخفر بالاختباء في حلقةٍ من
الأشجار حول (القبضة)، لتحذيرهم من اقتراب أيِّ أعداء. چارمان بكويل
عادَ من (سُلَم العملاق)، أو أن كورين ذا النَّصف يد عادَ من (الممر الصَّادح).
نفخة واحدة في البوق تعني رجوع الإخوة، وإذا كان العائد ذا النَّصف يد، فقد
يكون چون سنو معه، على قيد الحياة.

انتفضَّ سام تارلي جالسًا ورمقَ الثلج بارتباك، على حين أخذت الغدْفان

تعب بصخب، وسمع تَشْتِ كلابه تنيح. نصف المعسكر اللَّعين استيقظ. أطبقت أصابعه المغطاة بالقُفَّاز على مقبض الخنجر وهو ينتظر أن يسكن الصَّوت، لكن ما كاد التَّفِير يهمد حتى عادَ يتردَّد، أعلى وأطول هذه المرَّة.

هooooooooooooooooووووو!

سمع سام تارلي يَتَمِّم: «يا للآلهة»، ثم سارع الصَّبي السَّمين بالثُّهوض وقد اشتبك معطفه وأعطيته حول قدميه، فركلها بعيداً ومدَّ يده إلى قميص الحلقات المعدنية المعلق على الصَّخرة القريبة، وإذ كافح لدسَّ جسده في القميص الضَّخم كخيمة، لمح تَشْتِ واقفاً هناك، فسأله: «أكانت نفختين؟ حلمتُ أني سمعتُ نفختين...».

قال تَشْتِ: «لم يكن حُلماً. نفختان لدعوة الحرس إلى السَّلاح، نفختان للتحذير من اقتراب الأعداء. ثمة بلطة تنتظرك محفورة عليها كلمة «خنزير» أيها البدين. نفختان تعنيان الهمج». أراد أن يضحك لمرأى الخوف على هذا الوجه المستدير الكبير، وأضاف: «فليذهبوا جميعاً إلى الجحائم السَّبع؛ هارما الملعونة ومانس رايدر الملعون وسمولود الملعون الذي قال إنهم لن يكونوا هنا قبل...».

هooooooooooooooooووووو!

استمرَّ الصَّوت طويلاً طويلاً حتى بدا كأنه لن يخفت أبداً. كانت الغدبان تضرب بأجنحتها صارخة، تُحلق في أقفاصها وترطم بالقضبان، وفي كلِّ أرجاء المعسكر ينهض إخوة حرس الليل، يرتدون دروعهم ويربطون أحزمة الشُّيوف ويلتقطون الفؤوس والأقواس.

وقف سامويل تارلي يرتعش بوجهٍ شاحبٍ يُحاكي الثلوج التي تدور في كلِّ مكان حولهم، وقال لتَشْتِ بصوتٍ كالعويل: «ثلاث نفخات، ثلاث، سمعتُ ثلاثاً. إنهم لا ينفخون ثلاث مرَّات أبداً، لم يفعلوها منذ مئات وآلاف السنين. ثلاث نفخات تعني...».

- (... (الآخرين)).

أصدرت تَشْتِ صوتاً هو نصف ضحكةٍ ونصف نسيج، وفجأةً أحسَّ بالبلل في ثيابه الداخليَّة وبالبول يجري على ساقه، ورأى البخار يخرج من مقدِّمة سراويله.

چایمی

هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّرِيقِيَّةُ تَتَخَلَّلُ شِبَاكَ شَعْرِهِ بِنَعُومَةٍ وَشَذَا أَصْبَاعِ سِرْسِيِّ، وَقَدْ بَلَغَ مَسَامِعَهُ غِنَاءَ الطُّيُورِ، وَأَحْسَسَ بِالنَّهْرِ يَجْرِي تَحْتَ الْقَارِبِ بَيْنَمَا تَدْفَعُهُمْ ضَرْبَاتُ الْمَجَازِفِ نَحْوَ مَطْلَعِ الْفَجْرِ الشَّاحِبِ. بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْمُدَّةِ فِي الظُّلَامِ كَانَتْ لِلْعَالَمِ عَذُوبَةٌ أَدَارَتْ رَأْسَ چَايْمِي لِانْسْتِر. إِنِّي حَيٌّ، وَسَكَرَانُ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ. تَفَجَّرَتْ الضَّحْكَةُ مِنْ بَيْنِ شَفْتَيْهِ فَجَاءَتْ، كَطَائِرٍ سَلَوَى دَفْعَهُ أَحَدُهُمْ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ عُشِّهِ.

دَمَدَمَتِ الْفَتَاةُ بِمَلَامِحِ عَابِسَةٍ: «صَمْتًا». الْحَقِيقَةُ أَنَّ الْعَبُوسَ يُنَاسِبُ وَجْهَهَا الْعَرِيضُ الدَّمِيمُ أَكْثَرَ مِنَ الْابْتِسَامِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَبَقَ لِچَايْمِي أَنْ رَأَاهَا تَبْتَسِمُ. سَلَى نَفْسَهُ بِتَخِيلِهَا تَرْتَدِي أَحَدَ فِسَاتَيْنِ سِرْسِيِّ الْحَرِيرِ بَدَلًا مِنْ سُتْرَتِهَا الْجِلْدِيَّةِ الطَّوِيلَةِ الْمُطْعَمَةِ بِالْحَدِيدِ. كَمَنْ يُلْبَسُ بَقْرَةَ الْحَرِيرِ. لَكِنْ هَذِهِ الْبَقْرَةُ تَسْتَطِيعُ التَّجْدِيفَ حَقًّا. تَحْتَ سِرَاوِيلِهَا الْبَيْتِيُّ الْخَشِنَةُ كَانَتْ رَبَلْتَا سَاقَيْهَا مَشْدُودَتَيْنِ كَأُوتَارٍ مِنَ الْخَشْبِ، وَرَاحَتْ عَضَلَاتُ ذَرَاعِيهَا الطَّوِيلَةِ تَنْبَسِطُ وَتَنْقَبِضُ مَعَ كُلِّ ضَرْبَةٍ لِمَجْدَافِيهَا، دُونَ أَنْ تُبْدِيَ عِلَامَةً عَلَى التَّعَبِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ نِصْفَ اللَّيْلِ انْقَضَى وَهِيَ تُجْدَفُ، وَأَمَّا السِّيرُ كَلْيُوسِ ابْنِ عَمَّتِهِ فَبَدَا عَلَى الْعَكْسِ مِنْهَا تَمَامًا وَهُوَ يُكَافِحُ لِمُجَارَاتِهَا بِمَجْدَافِيهِ. مَنظَرُهَا يَقُولُ إِنَّهَا مَجْرَدٌ رِيفِيَّةٌ كَبِيرَةٌ قَوِيَّةٌ، بَيْنَمَا تَتَكَلَّمُ كِبَنَاتِ الْعَائِلَاتِ الْكَبِيرَةِ، وَتَتَمَنَّقُ بِسَيْفٍ وَخَنَجَرٍ. آه، لَكِنْ هَلْ تُجِيدُ اسْتِخْدَامَهُمَا؟ إِنَّهُ يَنْوِي أَنْ يَعْرِفَ الْإِجَابَةَ فَوَرَّ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ قِيُودِهِ هَذِهِ.

كَانَتْ الْأَغْلَالُ تُحِيطُ بِمَعْصَمِيهِ وَكَاحْلِيهِ، تَرْبِطُهَا مَعًا سَلْسَلَةٌ ثَقِيلَةٌ لَا تَتَجَاوَزُ الْقَدَمَ طَوْلًا، وَقَدْ قَالَ سَاخِرًا وَهُمْ يُقَيِّدُونَهُ: «كَأَنَّ كَلِمَتِي كَلَانْسْتِرُ لَا تَكْفِي».

كان الشُّكر قد بلغَ منه مبلغه آنذاك بفضل كاتلين ستارك، حتى إنه لا يتذكَّر إلاّ ومضاتِ خاطفة من هروبهم من (ريقررن). واجهتهم مشكلة ما مع السَّجَّان، لكن الفتاة الكبيرة تغلّبت عليه، وبعدها أخذوا يدورون ويدورون صاعدين سلّمًا ملتقًا لا نهاية له، كما تعرَّضَ مرَّتين أو ثلاثًا، فمدَّت الفتاة ذراعها ليستند إليها، وفي مرحلة ما لفَّه أحدهم بمعطف مسافرين ووجد نفسه يُلقى في قاع قارب نهري. يتذكَّر أيضًا أنه سمع الليدي كاتلين تأمر أحدهم بأن يرفع الشبكة الحديدية عن بوابة النهر، وتقول بلهجةٍ لا تدع مجالًا للناقش إن السير كليوس فراي عائد بأمر منها إلى (كينجز لاندنج) حاملًا شروطًا جديدةً للملكة.

لا بُدَّ أنه غابَ في التَّوَم بعد ذلك، فالنبَّيد أشعره بنعاسٍ شديد، وكان من الجميل أن يُمدَّد جسده، وهو التَّرف الذي لم تسمح به قيوده في الزَّنازة. تعلمَ چايمي منذ زمن طويل أن يختطف سويغات من التَّوَم على ظهر حصانه بين الحين والآخر فيمَا يتقدَّم الموكب، وليس أصعب أن ينام في مركب. سيضحك تيريون حتى يُوجعه بطنه حين يعرف أي نمط في أثناء هروبي. لكنه مستيقظ الآن، والقيود تزعجه حقًا، فنادى الفتاة: «سيدي، سأبادل معك التَّجذيف إذا ضربت هذه الأصفاد».

عادت ملامحها تتجهَّم وهي ترميه بنظرات الرِّيبة، وقد برزت أسنانها الكبيرة كأسنان حصان، وقالت: «ستظل مرتديًا أصفادك يا قاتل الملك».

- «أعتقدين أنكِ قادرة على التَّجذيف حتى (كينجز لاندنج) يا هذه؟».

- «سُخَّاطِني بيريان، وليس هذه».

- «واسمي السير چايمي، وليس قاتل الملك».

- «هل تُنكر أنكِ قتلت ملكًا؟».

أجاب: «لا. هل تُنكرين جنسك؟ إذا كان الأمر كذلك، فاخلي هذه السَّراويل وأريني»، ورسم ابتسامةً بريئةً على وجهه وهو يُضيف: «كنتُ لأطلب منك أن تفتحي صِدارك، لكن منظرِكَ لا يوحي بأن هذا سيُشَبَّه شيئًا». قال السير كليوس باضطراب: «تذكَّر لياقتك يا ابن الخال».

قطرات قليلة من دماء لانستر تجري في عروق هذا الرَّجُل. كليوس هو ابن عمِّته چنا من ذلك المأفون إمون فراي، الذي يعيش في رُعب من اللورد تاوين لانستر منذ تزوَّج شقيقته، وعندما دخل اللورد والدر الحرب

بـ(التَّوَامَتَيْنِ) فِي صَفِّ (رَيْفَرَرْنَ)، أَثَرَ السَّيْرِ إِمُونِ وَوَلَاءِهِ لَزُوجَتِهِ عَلَى أَبِيهِ. فَكَّرَ چَايْمِي: (كَاسْتَرَلِي رُوكْ) هِيَ الْخَاسِرَةُ فِي هَذِهِ الصَّفَقَةِ. لِلسَّيْرِ كَلْيُوسِ مَلَاحِ ابْنِ عَرَسٍ، وَبِرَاعَةِ إُوْرَّةٍ فِي الْقِتَالِ، وَإِقْدَامِ نَعْجَةٍ تَتَحَلَّى بِشَجَاعَةٍ غَيْرِ مَعْتَادَةٍ، وَقَدْ وَعَدْتَهُ اللَّيْدِي سِتَارَكَ بِإِطْلَاقِ سِرَاحِهِ إِذَا أَوْصَلَ رِسَالَتَهَا إِلَى تِيرْيُونِ، وَأَقْسَمَ السَّيْرِ كَلْيُوسِ بِرِصَانَةٍ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا.

كَلَّمَهُمْ أَقْسَمَ أَيْمَانًا عَدَّةً فِي الزَّنَانَةِ، لَا سَيِّمًا چَايْمِي. هَذَا هُوَ الثَّمَنُ الَّذِي طَلَبْتَهُ اللَّيْدِي كَاتَلِينَ لِقَاءَ تَحْرِيرِهِ، فَوَضَعَتْ رَأْسَ سَيْفِ الْفَتَاةِ الْكَبِيرَةِ عَلَى صَدْرِهِ فِي مَوْضِعِ الْقَلْبِ، وَقَالَتْ: «أَقْسِمُ أَنْكَ لَنْ تَحْمِلَ السَّلَاحَ ضِدَّ سِتَارَكَ أَوْ تَلِي ثَانِيَةً أَبَدًا. أَقْسِمُ أَنْكَ سَتُزَلِمُ أَخَاكَ بِالْوَفَاءِ بَعْدَهُ وَإِعَادَةِ ابْنَتِي آمْنَتَيْنِ سَالْمَتَيْنِ. أَقْسِمُ بِشَرْفِكَ كَفَارَسٍ، بِشَرْفِكَ كِلَانَسْتَرٍ، بِشَرْفِكَ كَأَخٍ حَلْفٍ يَمِينِ الْحَرَسِ الْمَلِكِيِّ. أَقْسِمُ بِحَيَاةِ أُخْتِكَ وَأَبِيكَ وَابْنِكَ، وَبِالْآلِهَةِ الْقَدِيمَةِ وَالْجَدِيدَةِ، وَسَأَعِيدُكَ إِلَى أُخْتِكَ. ارْفُضْ وَسَأَرْيُقُ دَمَكَ».

تَذَكَّرَ چَايْمِي وَخِزَةَ الْفُؤُلَادِ عِبْرَ أَسْمَالِهِ وَهِيَ تَلْفُ طَرَفِ السَّيْفِ. تُرَى مَاذَا يَقُولُ السَّيْتُونَ الْأَعْلَى عَنِ حُرْمَةِ الْإِيمَانِ الَّتِي تُحْلَفُ وَأَنْتَ مَخْمُورٌ حَتَّى الثَّمَالَةِ وَمَقِيدٌ إِلَى حَائِطٍ وَثَمَّةٌ سَيْفٍ يَنْغِزُ صَدْرَكَ؟ لَكِنْ چَايْمِي لَا يَشْغَلُ بَالَهُ حَقًّا بِذَلِكَ الْأَفَاكُ الْبَدِينِ وَالْآلِهَةِ الَّتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَخْدُمُهَا. تَذَكَّرَ الدَّلُوهُ الَّذِي سَكَبْتَهُ اللَّيْدِي كَاتَلِينَ فِي زَنْزَانَتِهِ. امْرَأَةٌ غَرِيبَةٌ تَلِكُ الَّتِي تَأْتَمِنُ رَجُلًا شَرَفَهُ خِرَاءٌ عَلَى ابْنَتِهَا، مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَجَسُرْ عَلَى مَنْحِهِ إِلَّا أَيْسَرَ النَّزْرَ مِنْ ثَقَّتِهَا. إِنَّهَا تَضَعُ أَمْلَهَا فِي تِيرْيُونِ، وَلَيْسَ فِيَّ. قَالَ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ: «رَبِّمَا لَيْسَتْ بِهَذِهِ الْحِمَاقَةُ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ».

ظَنَّتْ أَسْرَتَهُ أَنَّهُ يَعْنِيهَا، فَرَدَّتْ: «لَسْتُ حِمْقَاءً، وَلَا صَمَّاءً». وَجَدَ أَنَّ الشُّخْرِيَّةَ مِنْهَا سَهْلَةٌ لِدَرَجَةٍ تُفْرِغُ الْأَمْرَ مِنْ كُلِّ مَتْعَةٍ، فَقَالَ مَتَلَطِّفًا بِهَا: «كَنْتُ أَكَلَّمُ نَفْسِي، وَلَيْسَ عِنْدِي. إِنَّهَا عَادَةٌ يَسْهُلُ أَنْ يَكْتَسِبَهَا الْمَرْءُ فِي الْحَبْسِ».

عَادَتْ تَعْبَسُ فِي وَجْهِهِ وَهِيَ تَدْفَعُ الْمَجْدَافِينَ وَتَسْحَبُهُمَا وَتَدْفَعُهُمَا وَتَسْحَبُهُمَا دُونَ أَنْ تَنْبَسَ بِكَلِمَةٍ.

طَلِيقَةُ اللِّسَانِ كَمَا هِيَ جَمِيلَةُ الْوَجْهِ. «أَخْمَنُ مِنْ لِكْتَنِكَ أَنْكِ ابْنَةُ عَائِلَةٍ نَبِيلَةٍ».

- «أبي هو سلوين التارثي، سيّد (بهو المساء) ببركة الآلهة». حتى هذا الرّد خرج منها كرهاً.

قال چاييمي: «تارث)، صخرة كبيرة قبيحة في (البحر الضيق) كما أذكر، و(بهو المساء) مُقسم على الولاء لـ(ستورمز إند)، فكيف تأتي أن تخدمي روب ابن (وينترفل)؟».

- «إنني أخذمُ الليدي كاتلين، وقد أمرتني بإيصالك آمنًا إلى أخيك في (كينجز لاندنج)، وليس بتجاذب أطراف الحديث معك، فالزم الصّمت».

- «لقد طفح كيلبي من الصّمت يا امرأة».

- «تكلّم مع السير كليوس إذن، فليس لديّ ما أقوله للوحوش».

قال چاييمي مستهزئًا: «أهنأك وحوش في الجوار؟ لعلها محتبئة تحت الماء؟ أو ربما في خميلة الصّفصاف هذه؟ وسيفي ليس معي!».

- «الرّجل الذي ينتهك عرض شقيقته ويقتل مليكه ويُلقي طفلًا بريئًا من حالق لا يستحقُّ اسمًا آخر».

بريء؟ الصّبي التّعس كان يتلصّص علينا. لم يُرد چاييمي يومها أكثر من ساعة واحدة مع سرسي، فرحلتهم الطويلة شمالًا كانت عذابًا مقيمًا، إذ يراها كلّ يوم ولا يقدر على لمسها، عالمًا أن روبرت يدخُل فراشها سكرانًا كلّ ليلة في تلك المركبة الضّخمة التي لم تكفّ عن الصّيرير. تيريون بذل قصارى جهده ليُبقيه في مزاج طيّب، لكن جهده كله لم يكفّ. قال محذرًا: «ستتكلّمين عن سرسي باحترام يا هذه».

- «اسمي بريان، وليس هذه».

- «لِمَ تُبالين بالاسم الذي يُخاطبك به وحش؟».

كرّرت بعناد كلب صيد: «اسمي بريان».

قال: «الليدي بريان؟»، فلمّا لآح عليها الارتباك الشّديد استشعر چاييمي نُقطة ضعف، فأردف: «أم أن «السير بريان» تروك أكثر؟»، وضحك مواصلاً: «لا، لا أظنّ. يُمكنك أن تلبسي بقرةً واقفي العنق والرأس، وتربّطي عليها سرجًا بحزام من الجلد، وتكسيها بالحريز، لكن هذا لا يعني أنك تستطيعين امتطاءها إلى المعركة».

- «أرجوك يا ابن الخال، لا يجدر بك أن تتكلّم بهذه الخشونة». تحت

معطفه كان السير كليوس يرتدي سُترةً طويلةً على صدرها أربعة مربّعات، اثنان يُصوّران بُرجي عائلة فراي التّوأمين، واثنان يحويان أسد لانستر الذهبي. «أماننا مسافة طويلة، ولا يصحُّ ألاّ نتشاجر».

- «لا أتشاجرُ إلاّ بسيفي يا ابن عمّتي، كنتُ أكلّمُ السيّدة. أخبريني يا هذه، أكلُّ النّساء في (تارث) قبيحاتٍ مثلك؟ إذا كُنْ كذلك حقًّا فإنني أشفقُ على رجالكم. لعلّ معيشتهم على جبلٍ كثيبٍ في عَرْض البحر جعلتهم لا يعرفون كيف تبدو النّساء الحقيقيّات».

قالت الفتاة بغیظٍ وهي تضرب الماء بمجذافها: «(تارث) جميلة، يُسمّونها جزيرة الصّفير⁽¹⁾. صمّتاً أيها الوحش، ما لم تكن تُريدني أن أكمّمك».

وجّه چایمی كلامه إلى السير كليوس: «إنها وقحة أيضًا، أليس كذلك يا ابن عمّتي؟ لكنني لا أنكرُ أن شجاعتها من حديد. قلائل يجروون على نعتي بالوحش في وجهي». لكن لا شكّ أنهم يتكلّمون على سجيّتهم وراء ظهري. تنحّج السير كليوس بعصبية، وقال: «مؤكّد أن الليدي بريان سمعت هذه الأكاذيب من كاتلين ستارك، فلا أمل لدى آل ستارك في هزيمتك بالسيف أيها الفارس، ولذا يخوضون الحرب بالكلام المسموم».

لقد هزّموني بالسيف فعلاً أيها القميء الرّعديد. رسم چایمی على شفّتيه ابتسامة العليم ببواطن الأمور. إذا سمحت لهم، سيستتج النّاس مختلف الأشياء من هذا النّوع من الابتسامات. هل صدّق كليوس ابن العمّة هذا الهُراء أم أنه يتملّقني؟ ماذا لدينا هنا؟ أبله صادق أم ماسح جوخ؟

واصل السير كليوس كلامه الفارغ: «أيّ أحدٍ يُصدّق أن أخًا محلّفًا في الحرس الملكي يُمكنه أن يؤذني طفلًا لا يعرف معنى الشّرف».

ماسح جوخ. الواقع أن چایمی نادم الآن على إلقاء براندون ستارك من التّافذة، خصوصًا أن سرسي ما انفكت تُمطره باللّوم بعدها، عندما رفض الولد أن يموت، وقالت له موبّخة: «إنه في السّابعة من عُمره يا چایمی! حتى لو فهم ما رآه، كان من الممكن أن نُخيفه ونُجبره على الصّمّت».

- «لم أفكر في أنك أردت...».

(1) الصّفير أو الرّفير هو الباقوت الأزرق. (المترجم).

- «أنت لا تُفكر أبداً! إذا أفاق الصَّبي وأخبرَ أباه بما رآه...».

قال: «إذا، إذا، إذا»، وجذبها إلى حجره متابعا: «إذا أفاق سنقول إنه كان يحلم، سنقول إنه كاذب، وفي أسوأ الأحوال سأقتل نذ ستارك».

- «وماذا تتصوّر روبرت فاعلا عندئذ؟».

- «دعي روبرت يفعل ما يشاء. سأحاربه إذا اضطرت، وسيسميها المغنون الحرب في سبيل كس سرسي».

صاحت مغضبة وهي تتملص منه محاولةً للهوض: «چايمي، دعني!». لكنه لم يفعل، وبدلاً من هذا قبلها، فقاومت برهةً، ثم إن فمها انفتح تحت فمه. تذكر مذاق النبيذ والقرفل على لسانها وارتعاشة جسدها، قبل أن يمدّ يده إلى صدرها وينتزع ممزقاً الحرير ليسقط نهداها حزين، وطوى النسيان صبي ستارك حيناً.

هل تذكرته سرسي بعدها واستأجرت ذلك الرجل الذي تكلمت عنه الليدي كاتلين، لنضمن ألا يستيقظ الصَّبي أبداً؟ لو أرادته ميتاً لأرسلتني أنا، وليس من طبيعتها أن تختار قاتلاً أجيراً يفسد العملية على هذا النحو الكارثي. تفرقت الشمس المشرقة من اتجاه المصب على صفحة النهر التي موجهها الريح القوية. كان الشط الجنوبي من الطمي الأحمر الأملس كأنه طريق ممهد، تشقه جداول أصغر تصب في المجرى الرئيس، وقد تشببت جذوع الأشجار الميتة المتعفنة بالضفاف. أما الشط الشمالي فأكثر وعورةً، ترتفع عليه الجروف الصخرية العالية عشرين قدماً فوقهم، تُتوجها مجموعات من شجر الزان والبُلوط والكستناء. لمح چايمي بُرج حراسة في المرتفعات أمامه، يتعاطم حجمه كلما طعنت المجاذيف الماء، لكن قبل أن يبلغوه بفترة طويلة كان قد تبين أنه مهجور، إذ رأى الورد المتسلق الذي نما بكثافة شديدة على الأحجار المتهاكلة.

حين تبدل اتجاه الريح، ساعد السير كليوس الفتاة الكبيرة على رفع الشراع، الذي كان عبارةً عن مثلث من قماش القنب اليباس المخطط بالأحمر والأزرق، لوني عائلة تلي اللذين يجعلان من المحتم أن يتعرضوا للمتاعب، إذا صادفوا أي قوة تابعة للانستر في النهر، لكنه الشراع الوحيد الموجود. أمسكت بريان

الدَّقَّة، فيما ألقى چايمي لوح مُنصَرَف الرِّيح⁽¹⁾ في الماء، فصلصَلت قيوده وهو يتحرَّك. بعد ذلك زادت سُرعتهم بشكل ملحوظ وقد حابتهم الرِّياح والتَّيار معاً في هروبهم.

قال منبِّها الفتاة: «يُمكننا أن نُوفِّر على أنفسنا عناء السَّفَر الطَّويل إذا سلَّمتمني إلى أبي بدلاً من أخي».

- «ابنتا الليدي كاتلين في (كينجز لاندنج). سأعودُ بالفتاتين أو لا أعودُ على الإطلاق».

التفتَ چايمي إلى كليوس قائلاً: «أعِرنِي سَكِينك يا ابن العمَّة». توتَّرت المرأة، وقالت بصوتٍ ثابت كالحجر: «لا، لن أسمح بأن تحمل سلاحاً».

إنها تخشاني، حتى وأنا مقيَّد بالأغلال. «كليوس، يبدو أنني مضطرٌّ لأن أطلب منك أن تحلق لي. اترك اللحية، لكن احلق شعر رأسي كله». سأله كليوس فراي: «تريد أن تكون أصلع؟».

- «البلاد تعرف چايمي لانستر كفارس حليق شعره ذهبيٌّ طويل، أمَّا رجل أصلع ذو لحيَّة صفراء متسخة فقد لا ينتبه إليه النَّاس، وأفضَّل ألا يتعرَّفني أحد وأنا مكبَّل بالحديد».

لم يكن السكِّين حادًّا كما ينبغي، لكن كليوس أخذَ يجرُّ بعزم، يُعمل النَّصل في جزل الشَّعر المتشابكة ويُلقِيها من فوق حاجز القارب، لتطفو الخُصل الذهبيَّة على سطح الماء، وشيئًا فشيئًا تتَّسع المسافة بينها وبينهم. زحفت قملة على عُنقه عندما اختفى أغلب شعره، فأمسكها چايمي وسحقها على ظفر إبهامه، وفلَّى السير كليوس فروة رأسه من غيرها ونقفها في الماء. غمسَ چايمي رأسه في النَّهر وجعل ابن عمَّته يشحذ النَّصل قبل أن يسمح له بكشط البوصة الأخيرة من جُذامة الشَّعر، وبعدها شدَّبا لحيته أيضًا.

الانعكاس في الماء كان لرجل لا يعرفه.

إنه ليس أصلع الآن فحسب، بل ويبدو كأن السنَّ تقدَّمت به خمسة أعوامٍ

(1) لوح مُنصَرَف الرِّيح عبارة عن عارضة خشبيَّة تُلقى في الماء في الاتجاه الذي تهبُّ منه الرِّيح، بغية إحداث توازنٍ وكى لا يميل القارب على جانبه. (المترجم).

بأكملها في تلك الزّزّانة؛ وجهه أنحل وعيناه غائرتان وفي ملامحه تجاعيد لا يتذكّرهما. لا أشبهُ سرسي كثيرًا هكذا. كم ستكره هذا.

مع انتصاف النّهار كان السير كليوس قد سقط في التّوم، وخرج منه غطيط كأنه صوت نكاح البط، فيما تمدّد چايمي وترك العالم يمضي مارًا به، فبعد ظلّمة المحبس صارت كل صخرة وشجرة أعجوبةً.

مرّوا على عددٍ من الأكواخ ذات العُرفة الواحدة، القابضة على قوائم طويلة تجعلها تبدو كطيور العُرنوق، لكنهم لم يروا أثرًا للسّاكنين، وحلقت الطير فوقهم أو تبادلت الصّياح من الأشجار بطول الضّفّة، ولمح چايمي سمكةً يميل لونها إلى الفضة تخترق الماء كسكّين، ففكّر: سمكة الترويت رمز تلي، نذير شؤم هذا. ثم إنه رأى ما هو أسوأ، لمّا أنضح أن واحدًا من جذوع الأشجار الطّافية رجل ميت خلّت جُثته من الدّماء وانفخت، وقد اشتبك معطفه بجذور شجرة ساقطة، وإن قال لونه القرمزي بجلاء إنه كان من رجال لانستر، فتساءل چايمي إن كانت الجُثة لأحد يعرفه.

فروع (الثّالوث) أسهل سبيل لنقل البضائع والنّاس عبر أراضي النّهر، وفي أيام السّلام كانوا ليلاقوا الصّيّادين في قواربهم، والصّنادل المحمّلة بالغلّال تُدفع في اتجاه المصب، والتّجّار يبيعون الإبر ولفائف الأقمشة في حوانيت طافية، ولربما رأوا مركبًا تحمل فرقة ممثّلين، ألوان بدنّها وأشرعتها المبطنّة عديدة زاهية، تشقّ طريقها نحو المنبع من قريةٍ إلى قريةٍ وقلعةٍ إلى قلعةٍ.

لكن الحرب لم تُبق ولم تدر. تجاوزوا في طريقهم قُرى بلا قرويين، والأمانة الوحيدة على وجود صيّادين كانت شبكة مهترئة ممزّقة معلّقة في بعض الأشجار، وثمة فتاة صغيرة وثبت على حصانها الذي تسقيه وأسرعت تبعد بمجرد أن أبصرت شراعهم، وفيما بعد مرّوا بدستةٍ من الفلاحين يحرثون حقلاً تحت أطلال منزلٍ محترق. حدّق الرّجال إليهم بنظرات جامدة، ثم عادوا إلى عملهم فور أن قرّروا أن القارب لا يُشكّل تهديدًا.

(الفرع الأزرق) نهر بطيء متلوّ، كله حلقات ومنعطفات تنتشر فيها جُزيرات مشجّرة شديدة الصّغر، وفي غير موضع تسدّ مجراه الرّواسب الرّمليّة المتراكمة وغصون الأشجار الغارقة المتوارية تحت سطح الماء، على

أن بريان أبدت قُدرةً فائقةً على ملاحظة الخطر، فوجَّهت القارب دائمًا نحو
البقاع السَّالكة من المجرى، وحين أثنى چايمي على معرفتها بالنَّهر، رمقته
بريبةً قائلَةً: «لستُ أعرفُ النَّهر. (تارث) جزيرة، ولذا تعلَّمتُ التَّعامل مع
الأشعة والمجازيف قبل أن أتعلَّم ركوب الخيل».

اعتدلَّ السير كليوس جالسًا، وقال: «بحقِّ الآلهة، كم تُولمني ذراعاي.
أتمنى أن تستمرَّ الرِّيح»، وتشمَّم الهواء لحظةً قبل أن يُضيف: «أشمُّ مطرًا».
سيرَّحَب چايمي بالمطر ولو نزل مدرارًا، فزنازين (ريفررن) ليست بأنظف
مكانٍ في (الممالك السَّبع)، ولا بُدَّ أن رائحته الآن كرائحة قطعة عفنة من
العُجينة.

قال كليوس مضيقًا عينيه وهو ينظر تجاه المصب: «دُخان».
أشارَ لهم إصبع رمادي رفيع بالتقدُّم، وقد ارتفع ملتفًا متلوِّيًا من الضَّفة
الجنوبيَّة على بُعد بضعة أميالٍ أمامهم، وتبيَّن چايمي تحته أطلال مبنى كبير
محترق، وشجرة سنديان حيَّة تتدلَّى منها النَّساء الميتات. لم تكن الغربان قد
التهمت الكثير من جُشهن التي تدور وتتمايل كلما هبَّت الرِّيح، وقد غاصت
الجبال في لحم حلوقهن الطري.

قالت بريان عندما اقتربوا فرأوا بوضوح كافٍ: «عمل خالٍ تمامًا من
الشَّهامة. الفارس الحق لا يتغاضى عن هذه الوحشيَّة العاشمة».
ردَّ چايمي: «الفُرسان الحق يرون أسوأ من هذا عندما يذهبون إلى الحرب
يا هذه، ويفعلون أسوأ، أجل».

وجَّهت بريان الدَّفعة نحو الشَّط قائلَةً: «لن أترك الأبرياء وليمة للغربان».
- «فتاة عديمة القلب. الغربان أيضًا تحتاج إلى الطَّعام. ابقِي في النَّهر
ودعي الموتى وشأنهم يا امرأة».

رسوا حيث تميل شجرة السنديان الضَّخمة فوق الماء، وبينما خفضت
بريان الشُّراع، نزلَ چايمي من القارب بصعوبةٍ بسبب قيوده، فملأت مياه
(الفرع الأحمر) حذاءه وتشبَّعت بها سراويله المهترئة، فسقطَ على رُكبتيه
ضاحكًا وأغرق رأسه في الماء ثم رفعه لتسيل منه القطرات. كانت يده
مكسوتين بالأوساخ، ولمَّا فركهما حتى نظَّفهما في المجرى وجدَّهما أنحل

وأكثر شحوبًا مما يتذكر، كما وجد ساقيه متيبسيتين يعوزهما الثبات حين وضع ثقله عليهما. قضيت وقتًا طويلًا للغاية في زينة هوستر تلي .
سحبت بريان وكليوس القارب إلى الضفة، وتدلّت الجثث فوق رؤوسهم، ينفخها الموت كالفاكهة التالفة.

قالت الفتاة: «على أحدنا أن يقطع الجبال». صعدَ چايمي إلى الشَّطِّ مصحوبًا بصلصلة أصفاده، وقال: «سأستلِّقُ الشَّجرة. عليك فقط أن تخلي هذه القيود».

كانت الفتاة تنرنو إلى واحدةٍ من النساء الميتات أعلاهم، فاقترَبَ چايمي بخُطى قصيرة متعثرة لا تسمح السلسلة -التي لا يزيد طولها على القدم الواحد- بغيرها، وعندما رأى اللافتة البدائية المعلقة من رقبة أعلي الجثث، ابتسمَ وقرأ المكتوب بصوت عالٍ: «نمن مع الأسود»، ثم أردفَ مكلِّها بريان: «أوه، نعم يا امرأة، عمل خالٍ تمامًا من الشَّهامة... قامَ به فريقك وليس فريقِي. مَنْ كُنَّ يا تُرى؟».

أجابَه السير كليوس فراي: «خادماَت في خان. تذكَّرتُ الآن أن هذا المكان كان خانًا. بعض الرِّجال المُرافقين لي قضوا ليلةً هنا عندما عدنا إلى (ريفر رن) آخر مرَّة». لم يكن شيء قد بقى من المبنى غير أساسه الحجري وكومة من العوارض الخشبية التي سقطت متفحمة، ولا يزال الدُّخان يخرج من الرماد. قال چايمي، الذي ترك المواخير والعاشرات لأخيه تيريون، غير راغب في امرأةٍ إلا سرسي: «يبدو أن الفتيات أنسن بعض رجال السيّد والدي، وربما قدمن لهم الطَّعام والشَّرَاب كذلك. هكذا استحققن أطواق الخيانة المحيطة بأعناقهن، بقُبلة وكوبٍ من المِرز»، وتطلَّع إلى النَّهر في الاتِّجاهين ليتأكَّد من أنهم وحدهم، وتابع: «هذه أرض براكن، فلعلَّ اللورد چونوس أمرَ بقتلهن. لقد أحرقتُ أبي قلعتَه، وأخشى أنه لا يَكُنُّ لنا حُبًّا».

قال السير كليوس: «قد يكون مارك پاير، أو سراب الغابات المسَّمى بريك دوناريون، وإن سمعتُ أنه لا يَقْتُل إلا الجنود. أهي جماعة من شماليي رويس بولتون ربما؟».

- «بولتون هزمه أبي على (الفرع الأخضر)».
رَدَّ السير كليوس: «لكنه لم يكسره. لقد عادَ جنوبًا ثانيةً حينما زحفَ

اللورد تايوين على المحاضرات، وشاع في (ريفررن) أنه أخذ (هارنهال) من السير آموري لورك».

لم يُرَق هذا الخبر چایمی على الإطلاق. «بريان»، قال متلطفًا بمخاطبتها باسمها على أمل أن تُصغي إليه: «إذا كان اللورد بولتون يُسيطر على (هارنهال)، فكلًا (الثالوث) و(طريق الملك) سيكون مراقبًا». خُيِّلَ إليه أنه رأى لمحةً من الشكِّ في عينيها الزرقاوين الواسعتين، لكنها قالت: «إنك تحت حمايتي، وعليهم أن يقتلوني ليأخذوك».

- «لا أظنُّ أن هذا سيقلِّعهم».

قالت بلهجةٍ دفاعيَّة: «إنني مُحاربة بارعةٍ مثلك تمامًا، وكنتُ من سبعة الملك رنلي المختارين، وبيديه أسبَعُ عليَّ معطف حرس قوس قزح الحريري».

- «حرس قوس قزح؟ أنتِ وستُ فتياتٍ أخريات؟ أحدهم غنَّى مرَّةً عن جمال الفتيات كلهن عندما يلبسن الحرير... لكنه لم يلقاكِ طبعًا، أليس كذلك؟».

احتقنَ وجه المرأة، وبدأت تتسلَّق الشَّجرة قائلة: «علينا أن نحفر قبورًا». كانت فروع السنديانة السُّفليَّة كبيرةً بما يكفي لأن تقف عليها بمجرد أن تسلَّقت الجذع، ثم إنها مشَّت وسط الأوراق وخنجرها في يدها قاطعةً حبال الجُثث، التي احتشد الذباب حولها وهي تسقط، وساءت الرائحة التي أفعمت الهواء مع سقوط كلِّ واحدة، فقال السير كليوس شاكيًا: «كلُّ هذا العناء من أجل عاهرات. بِمَ يُفترَض أن نحفر؟ ليست معنا مجاريف، ولن أستخدم سيفي، و...».

أطلقت بريان صيحةً مقاطعةً إياه، وبدلاً من أن توصل التسلُّق وثبت أرضاً قائلة: «إلى القارب بسرعة، رأيتُ شراعًا».

هرعوا عائدين بأقصى سرعة، وإن لم يستطع چایمی أن يجري، واضطرَّ ابن عمته لأن يرفعه إلى داخل القارب، الذي دفعته بريان بمجدافٍ ورفعت الشراع بعجلةٍ صائحة: «سير كليوس، أريدك أن تجذِّف معي».

فعل كما قالت، وبدأ القارب يشقُّ الماء بسرعة أكبر، وقد عمل كلُّ من التيار والهواء والمجاديف في صالحهم، فيما جلس چایمی مكبلاً يُحدِّق

وراءهم، حيث لم يظهر من الشَّراع الآخر إلا أعلاه. الطَّرِيقَة التي يدور بها (الفرع الأحمر) جعلت القارب القادم يبدو كأنه وراء الحقول، يتحرَّك شمالاً وراء سياج من الأشجار بينما يتجهون هم جنوباً، غير أن چايمي كان يعلم أن المشهد خادع. رفع يديه يُظَلِّل عينيه، ثم أعلن: «لونه أحمر كالطَّمي وأزرق كالماء».

تحرَّك فم بريان الكبير بلا صوت، فبدت كبقرة تمضغ طعامها المجترَّ، وقالت: «أسرع أيها الفارس».

سرعان ما توارى الخان خلفهم ولم يعودوا يرون أعلى الشَّراع كذلك، وإن كان هذا لا يعني شيئاً، إذ سيُعاد مُطاردهم الظهور بمجرد أن يدوروا. غمغم چايمي وفكرة العودة إلى زنزانته لا تستهويه على الإطلاق: «لنأمل أن يتوقَّف رجال تلي الثبلاء لدفن العاهرات الميتات». كان تيريون ليُفكِّر في حلِّ بارع الآن، لكن كل ما يخطر لي أن أنقضَّ عليهم بالسيف.

مرَّ ما يقرب من ساعة وهم يلعبون الاستغماية مع المُطاردين، يدورون حول المنعطفات وبين الجزيرات الشَّجرة الصَّغيرة، وحين بدأوا يأملون أنهم ضلُّوهم أخيراً، عاد الشَّراع البعيد يلوح مجدداً، فكفَّ السير كليوس عن التَّجذيف، ومسح العرق من على جبهته قائلاً: «فليأخذهم (الآخرون)». صاحت فيه بريان: «جذف!».

أعلن چايمي بعدما ظلَّ يُراقب فترة: «إنه قادم نهري⁽¹⁾ الذي يسعى وراءنا. تسعة مجاذيف على كلِّ جانب، أي أن هناك ثمانية عشر رجلاً، أو أكثر إذا كانوا يحملون مُحارِبين مع البحَّارة. شراعهم أكبر كذلك، ولن نستطيع الفرار منهم».

كان حجم القادس يكبر كلما ضربت مجاذيفه الماء.

تجمَّد السير كليوس في مكانه، وسأله: «تقول ثمانية عشر؟».

أجاب چايمي: «ستة لكلِّ منا. أفضلُّ أن أواجه ثمانية، لكن هذه الأساور تُعيقني نوعاً»، ورفع معصميه مواصلاً: «ما لم تتلطف الليدي بريان بحلِّها».

(1) القادس نوع من السفن المزوَّدة بمجاذيف، يميِّز بدنه الطويل الرِّفيع، والقدرة على الملاحة في الظروف غير المواتية، واستُخدم في الحرب والتَّجارة والقرصنة. (المترجم).

تجاهلته الفتاة مركزةً مجهودها كله على مجذافها.

قال چايمي: «كنا نسبقهم بنصف ليلة، ثم إنهم يُجذِّفون منذ الفجر، يستريح منهم رجلان في المرّة. سيكونون مُنهكين. نعم، منظر شرعنا أعطاهم دفقةً من القوّة، لكنها لن تدوم. ستمكن من قتل عددٍ كبيرٍ منهم».

حملق السير كليوس إليه فاغراً فاه، وقال: «لكن... لكنهم ثمانية عشر».

- «على الأقل. إنهم عشرون إلى خمسةٍ وعشرين على الأرجح».

قال ابن عمّته باستنكار: «لا أمل لنا في هزيمة ثمانية عشر رجلاً».

- «هل قلتُ إننا نستطيع؟ أفضل أمل لنا هو الموت وفي يدنا السُيوف».

قالها بمنتهى الصدق، فچايمي لانستر لم يخش الموت يوماً.

توقّفت بريان عن التّجذيف، وقد ألصق العرق خُصلاً من شعرها كتّاني اللون بجبهتها، وقالت بصوتٍ يموج بالغضب خرج منها أقرب إلى زمجرة: «أنت تحت حمايتي».

ضحك مرغماً لهذه الشّراسة وقال لنفسه: إنها كلب الصّيد بثديين، أو كانت كذلك لو أن لديها ثديين يُذكران. «احمّني إذن يا هذه، أو حرّريني لأحمي نفسي».

كان القارب يَمْخُر النَّهر كيعسوب خشبيٍّ عظيم، تدفعه المجاذيف بقوّةٍ بالغةٍ ليَمْخُض المياها محيلاً لونها إلى الأبيض، فيتقدّم منهم بوضوح والرّجال يحتشدون على سطحه والمعدن يلمع في أيديهم، ورأى چايمي أقواساً كذلك. رُماة. لكم يكره الرُماة.

على مقدّمة القادس المقبل عليهم وقفَ رجل قصير القامة ممتلئ الجسد ذورأس أصلع وحاجبين أشبيين كثّين وذراعين مفتولتين، يرتدي فوق قميصه المعدنيّ سُترَةً طويلةً بيضاءً متسخةً، على صدرها شجرة صَفْصاف مُستحي⁽¹⁾ خضراء شاحبة، وإن اتّخذ شكل الدُّبوس الذي يربط معطفه شكل سمكة الترويت الفضيّة. قائد حرس (ريقرن). في شبابه كان السير روبن رايجر

(1) الصّفصاف المُستحي أو الصّفصاف البابلي نوع من الأشجار أوراقه منسدلة كالشعر، موطنه الأصلي شمال الصّين لكنه انتشر إلى بقاعٍ أخرى كثيرة. (المترجم).

مُحَارِبًا قَدِيرًا، لَكِن شَبَابَ الرَّجُلِ وَلِيَ مِنْذُ زَمَنٍ، فَهُوَ فِي سِنِّ هُوسْتَرِ تَلِي،
وَنَالَتْ مِنْهُ الشَّيْخُوخَةُ كَمَا فَعَلَتْ بِسَيِّدِهِ.

حِينَ أَصْبَحَتْ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الْمَرْكَبِينَ خَمْسِينَ يَارِدَةً لَا أَكْثَرَ، وَضَعَ چَايَمِي
يَدَيْهِ حَوْلَ فَمِهِ، وَصَاحَ لِيَعْبُرَ صَوْتُهُ الْمَاءَ: «هَلْ جِئْتَ لِتَتَمَنَّى لِي رِحْلَةً سَعِيدَةً
يَا سِيرِ رُوبِنَ؟».

جَاؤَ السَّيْرُ رُوبِنَ: «جِئْتُ لِأَعِيدَكَ يَا قَاتِلَ الْمَلِكِ. كَيْفَ فَقَدْتَ شَعْرَكَ
الذَّهَبِيَّ؟».

- «كُنْتُ أَمَلُّ أَنْ أَعْمِيَ أَعْدَائِي بِلَمْعَةِ رَأْسِي، وَقَدْ نَجَحْتَ الْحِيلَةَ مَعَكُمْ». -
لَمْ تَرُقَّ الدُّعَابَةُ السَّيْرِ رُوبِنَ، وَتَضَاعَلَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الْمَرْكَبِينَ إِلَى أَرْبَعِينَ يَارِدَةً
وَهُوَ يَقُولُ: «أَلْقُوا مَجَازِيْفَكُمْ وَأَسْلِحَتَكُمْ فِي النَّهْرِ وَلَا حَاجَةَ لِأَنْ يَتَأَدَّى أَحَدٌ». -
تَلَفَّتِ السَّيْرُ كَلْيُوسَ حَوْلَهُ بِلَهْفَةٍ قَاتِلًا: «چَايَمِي، قُلْ لِي إِنْ اللَّيْدِي كَاتِلِينَ
أَطْلَقْتَ سَرَاحِنًا... تَبَادُلْ لِلْأَسْرَى، شَرْعِي...».

وَأَخْبَرَهُ چَايَمِي، مَعَ أَنْ هَذَا لَمْ يُثْمِرْ شَيْئًا، إِذْ رَدَّ السَّيْرُ رُوبِنَ صَائِحًا: «كَاتِلِينَ
سِتَارَكَ لَا تَحْكَمْ فِي (رِيثْرَرَنَ)»، وَاتَّخَذَ أَرْبَعَةَ مِنَ الرُّمَاتِ وَضَعَ التَّصْوِيبَ عَلَى
جَانِبِيهِ، اثْنَانِ رَاكِعَانِ وَاثْنَانِ وَاقْفَانِ، بَيْنَمَا وَاصَلَ هُوَ: «أَلْقُوا سِيفُوكُمْ فِي
الْمَاءِ».

قَالَ چَايَمِي: «لَيْسَ مَعِي سَيْفٌ، لَكِن لَوْ كُنْتُ أَحْمَلُ وَاحِدًا لِأَوْلَجْتَهُ فِي
بَطْنِكَ وَجَزَزْتُ خُصْيَ هَؤُلَاءِ الْجُبْنَاءِ الْأَرْبَعَةَ».

أَجَابَتْهُ السَّهَامُ، فَانْغَرَسَ أَحَدَهَا فِي الصَّارِي، وَثَقَبَ اثْنَانِ الشَّرَاعَ، وَشَقَّ
الرَّابِعَ الْهَوَاءَ عَلَى مَسَافَةِ قَدَمٍ وَاحِدٍ مِنْ چَايَمِي.

لَا حَتَّ وَاحِدَةً مِنْ حَلَقَاتِ (الْفَرْعِ الْأَحْمَرِ) الْوَاسِعَةِ أَمَامَهُمْ، وَوَجَّهَتْ
بِرِيَانِ الْقَارِبِ عِبْرَ الْمُنْعَطِفِ، لِتَتَأَرَّجِحَ عَارِضَةُ الشَّرَاعِ وَهُمْ يَدُورُونَ، وَطَقَطَقَ
الشَّرَاعُ نَفْسَهُ إِذْ مَلَأَتْهُ الرِّيحُ. أَمَامَهُمْ كَانَتْ جَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ فِي مَتْنَصَفِ الْمَجْرَى،
يَمْضِي التَّيَّارُ عَلَى يَمِينِهَا، وَعَلَى الْيَسَارِ قَنَاةٌ ضَيِّقَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُرُوفِ الْعَالِيَةِ
عَلَى الشَّاطِئِ الشَّمَالِيِّ، فَحَزَّكَتْ بِرِيَانِ ذِرَاعِ الدَّفَّةِ وَانْعَطَفَ الْقَارِبُ يَسَارًا
وَشَرَاعَهُ يَخْفِقُ بِقُوَّةٍ، بَيْنَمَا رَاقَبَ چَايَمِي عَيْنِيهَا مَفْكَرًا: عَيْنَانِ جَمِيلَتَانِ
وَهَادِتَانِ. إِنَّهُ يَعْرِفُ كَيْفَ يَقْرَأُ الْأَعْيُنَ، وَيَعْلَمُ كَيْفَ يَبْدُو الْخَوْفَ. الْفَتَاةُ عَازِمَةٌ
وَلَيْسَتْ يَائِسَةً.

دخلَ القادس المنعطف على بُعد ثلاثين ياردةً وراءهم، وقالت الفتاة أمره: «سير كليوس، أمسك ذراع الدفة. وأنت يا قاتل الملك، خُذ مجذافًا وأبعِدنا عن الصُّخور».

- «كما تأمر سيّدتي». ليس المجداف سيفًا، لكن من شأن رأسه أن يُحَطِّم وجه رجل إذا أحسنت توجيه الضربة، ويُمكن أن يُستخدَم المقبض لدرء الهجمات.

دَسَّ السير كليوس المجداف في يد چايمي وأسرعَ إلى مؤخرة القارب. عبَروا رأس الجزيرة وداروا في القناة بحركة حادّة، ناثرين الماء على وجه الجُرف مع ميل القارب. كانت الجزيرة تعجُّ بأشجار الصّفاصف والبُلوط والصنوبر الطويلة المتشابكة، التي ألقت ظلّالا داكنةً على المياه المتدفقة، فأخفت الجذوع والغصون الغارقة، وعلى يسارهم ارتفع الجُرف الصّخري بزاوية عموديّة، يُزبد النّهر عند سفحه بالأبيض حول الجلاميد المحطمة والصُّخور الساقطة.

انتقلوا من نور الشّمس إلى الظلّ، وقد تواروا من القادس بين حائط الأشجار الأخضر وحجارة الجُرف البنيّة الرّماديّة، وفكّر چايمي وهو يدفعهم بعيدًا عن جُلمود نصف غارق: سرتاح بضع دقائق من السّهام.

اهتزّ القارب، وسمع چايمي الماء يتناثر بصوتٍ خافت، ولمّا نظَرَ حوله كانت بريان قد اختفت، لكنه رآها بعد لحظةٍ تخرُج من الماء عند قاعدة الجُرف، ثم تخوض في بركةٍ ضحلة وتصدع متعثرةً على بعض الصُّخور، قبل أن تشرع في التسلق. حدّق السير كليوس بعينين جاحظتين وفم مفتوح، ففكّر چايمي: أحمق، ثم قال لابن عمّته بخشونة: «تجاهل الفتاة ووجّه القارب».

شاهدًا الشراع يتحرّك وراء الأشجار، وسرعان ما ظهر القادس بالكامل عند مدخل القناة خلفهم بخمسةٍ وعشرين ياردة، ومالت مقدّمته بشدّة مع دورانه، بينما حلقت نصف دسّته من السّهام في الهواء، لكن جميعها تجاوزهما بمسافةٍ بعيدة، وقد صعّبت حركة المركبين التّصويب على الرّماة، وإن عرف چايمي أنهم سيتداركون أنفسهم سريعًا. كانت بريان قد بلغت منتصف الجُرف الآن، تسحب نفسها من دعامةٍ إلى أخرى في الصّخر. مؤكّد أن رايجر سيراهما، وحينها سيأمر هؤلاء الرّماة بإسقاطها. قرّر أن يرى إن

كانت كبرياء العجوز ستجعله يتصرف بحماقة، فصاح: «سير روبن، اسمعني لحظة».

رفع السير روبن يداً، فخفض رجاله أقواسهم، وقال: «قل ما لديك يا قاتل الملك، لكن قلّه بسرعة».

تأرجح القارب وهو يمرُّ وسط مجموعةٍ من الأحجار المكسورة، بينما قال چايمي: «أعرف وسيلةً أفضل لتسوية هذه المسألة؛ النزال الفردي، أنا وأنت».

- «لم أولد هذا الصّباح يا لانستر».

- «نعم، لكنك ستموت هذه الظهيرة غالباً»، ورفع چايمي يديه كي يرى الرّجل أغلاله: «سأقاتلك وأنا مكبّل، فماذا تخشى؟».

- «لا أخشاك أنت أيها الفارس. لو كان الخيار بيدي لما أحببت شيئاً أكثر، لكن أوامري أن أعيدك حيّاً إذا أمكن»، وأشار رايجر إلى رجاله قائلاً: «أيها الرّماة، ثبت، اسحب، أطلق...».

لم يكن المدى يزيد على العشرين ياردة، وفرصة أن يُخطئ الرّماة هدفهم شبه معدومة، لكن إذ سحبوا سهامهم على أوتار أقواسهم الطويلة، انهمر وابل من الحصى عليهم، وتساقطت الحجارة الصّغيرة على سطح مركبهم وارتدت عن خوذاتهم لتسقط في الماء نائراً إياه على الجانبين. من كان منهم بالذكاء الكافي ليفهم، رفع عينيه في اللحظة التي انفصل فيها جلمود بحجم بقرة عن قمة الجرف. صاح السير روبن بهلع، وهوى الحجر في الهواء ضارباً وجه الجرف لينفلق إلى نصفين سقط كلاهما عليهم، فضربت القطعة الأكبر الصّاري ونفذت من الشّراع ورمّت باثنين من الرّماة في الماء وسحقت ساق أحد الملاحين وهو مائل على مجذافه، فيما أوحّت السرعة التي أخذت المياه تملأ القادس بها أن القطعة الأصغر اخترقت بدنه مباشرةً.

تردّدت صرخات الملاحين على وجه الجرف وراح الرّماة يقاومون الماء بضراوة، ووشى منظرهم بأن لا هؤلاء ولا أولئك يُجيدون السّباحة، فضحك چايمي.

عندما خرجوا من القناة كان القادس يغرق وسط البرك والدوّامات والغصون، وقرّر چايمي أن الآلهة رحيمة. سوف يقطع السير روبن ورّماته

الملعونون ثلاثاً مسافةً طويلةً إلى (ريفرزَن) مبتلين سائرين على الأقدام، كما أنه تخلص من الفتاة الدميمة الكبيرة. لم أكن لأخطط للأمر أفضل، وبمجرد أن أتحرَّر من هذه القيود...

رفع السير كليوس صوته بصيحة، وحين نظرَ چايمي إلى أعلى رأى بريان تتحرَّك بتأقُل على مسافة كبيرة أمامهم فوق قَمَّة الجُرف، وقد قطعت اليابسة على استقامتها فيما أتبعواهم منعطف النَّهر، ثم إنها أَلقت بنفسها من الصَّخرة، فكادت تبدو رشيقَةً وهي تتخذ وضع الغوص. كان من الغلظة حينئذ أن يتمنَّى أن تُحطَّم رأسها على حجر. وجَّه السير كليوس القارب نحوها، لكن لحسن الحظَّ أن مجذاف چايمي معه. ضربة واحدة مُحكمة عندما تدفع نفسها من الماء وأتخلَّص منها...

ولكن بدلاً من ذلك وجدَ نفسه يمدُّ المجذاف عبر الماء، فأمسكته بريان وسحبَه هو وساعدها على الصُّعود إلى القارب، لتسيل المياه وتقطُر من ثيابها المشبَّعة وتتجمَّع في بركةٍ على السَّطح. تبدو أقبح وهي مبتلة. من كان ليتصوَّر هذا؟ قال لها: «أنتِ حمقاء كبيرة يا هذه. كان يُمكن أن نُواصل طريقنا دونك. هل تتوقَّعين أن أشكرِك؟».

- «لا أريدُ شُكرًا منك يا قاتِل الملك. لقد أقسمتُ أن أوصلك بأمان إلى (كينجز لاندنج)».

منحها چايمي أكثر ابتساماته إشراقًا، وقال: «وتوين الوفاء بالقسم حقًا؟ يا للعجب!».

كاتلين

خدم السير دزموند جرل عائلة تلي طيلة حياته، وكان مُرافق فارس حين وُلدت كاتلين، وفارسًا عندما تعلّمت المشي والرُّكوب والسَّباحة، وقِيّم السِّلَاح يوم تزوّجت. هذا الرَّجل شهدَ تحوُّل كات صغيرة اللورد هوستر إلى فتاة شابّة، وزوجة أحد كبار اللوردات، وأمّ ملك. والآن شهديني وقد أصبحتُ خائنةً كذلك.

كان أخوها إدميورد قد عيّن السير دزموند أمينًا للقلعة في (ريشررن) حينما خرج إلى المعركة، فوقّع على عاتقه أن يتعامل مع جريمتها، وجاءها مصطحبًا معه أوثيرايدس واين وكيل أبيها الصَّارم، ليعينه على اضطرابه. وقف الرَّجلان يتطلَّعان إليها، السير دزموند بجسده الممتلئ ووجهه المحمَّر ونظراته المحرَّجة، وأوثيرايدس بوقاره ونحوه وجهامته، ينتظر كلُّ منهما أن يتكلّم الثَّاني، ففكّرت كاتلين بإعياء: لقد بذلا حياتيهما في خدمة أبي، ورددتُ لهما الجميل خزيًا.

أخيرًا قال السير دزموند: «ابنك، المايستر فايماان أخبرنا بما حدث، الولدان المسكينان. شيء شنيع، شنيع، لكن...». وقال أوثيرايدس واين: «إننا نُشاركك حُزنك يا سيّدي، (ريشررن) كلها تُشاطرك مصيبتك، لكن...».

تدخَّل السير دزموند قائلاً: «لا بُدَّ أن الخبر أصابك بالجنون، جنون الحُزن، جنون أم. النَّاس سيفهّمون أنك لم تعرفي...». قاطعته كاتلين بحزم: «بل كنتُ أعرفُ، كنتُ أعرفُ ما أفعله تمامًا وأعلمُ أنه خيانة. إذا لم تُعاقبني، سيعتقد النَّاس أننا تواطأنا معًا لتحرير چايمي

لأنستِر، لكن هذا كان تصرُّفي أنا، تصرُّفي وحدي، ويجب ألا يُعاقَب عليه غيري. قيَّدني بأصفاد قاتِل الملك الفارغة وسأرتديها بفخرٍ إن لم يكن هناك مفر».

بدا كأن مجرَّد ذِكر الكلمة صدمَ السير دزموند المسكين، الذي قال: «الأصفاد؟ لأُمِّ الملك وابنة سيِّدي؟ مستحيل».

قال الوكيل أوثيرايدس واين: «ربما تقبل سيِّدتي أن تُحتَجَز في مسكنها حتى يعود السير إدميور، لتقضي بعض الوقت وحدها وتُصَلِّي لابنيها القتيلين؟».

قال السير دزموند: «تُحتَجَز، نعم، في زنزانة بُرج، لا بأس».

- «مادمتُ سأظلُّ حبيسةً، فليكن هذا في مسكن أبي، كي أواسيه في أيامه الأخيرة».

تفكر السير دزموند لحظةً، ثم أجاب: «ليكن. لن تعوزكِ الخدمات أو سُبُل الرِّاحة، لكنكِ ممنوعة من الحركة في القلعة. يُمكنكِ أن تزوري السِّتِ إذا شئتِ، لكن فيما عدا هذا عليكِ البقاء في مسكن اللورد هوستر إلى أن يعود اللورد إدميور».

ليس أخوها اللورد بعدُ ما دامَ أبوهما حيًّا، لكن كاتلين لم تُراجع الرِّجل، وقالت: «كما ترغب. يُمكنكِ أن تُعيِّن حارسًا عليّ، لكن لك كلمتي بأنِّي لن أحاول الهرب».

أوماً السير دزموند وقد لاحَ عليه بوضوح أنه مسرور للانتهاء من هذا الواجب الكريه، لكن أوثيرايدس واين ذا العينين الحزینتين مكثَ قليلاً بعد انصراف أمين القلعة، وقال لها: «ما فعلته جسيم يا سيِّدتي، لكنه بلا طائل. السير دزموند أرسلَ السير روبن رايجر في أعقابهم لإعادة قاتِل الملك... أو رأسه إذا أخفق في ذلك».

لم تكن كاتلين تتوقَّع أقلَّ من هذا، فصلَّت: ليضع (المُحارب) القوَّة في يدكِ حاملة السِّيف يابريان.

لقد فعلتِ كلَّ ما تستطيع، وما بيدها الآن إلاَّ الأمل.

نُقِلت حاجياتها إلى غُرْفَة نوم أبيها، التي يحتلُّها السَّرير المظلل الكبير الذي وُلِدت فيه، بأعمدته المنقوشة بأشكال سمك الترويت الوثأب، أمَّا أبوها نفسه

فكانوا قد نقلوه إلى عُرفته الشَّمْسِيَّةِ عند منتصفِ الشُّلْمِ في الطَّابِقِ الشُّفْلِيِّ، وقد وضعوا فراشَ المرض الذي يَرُقْدُ فيه بحيث يُواجهُ الشَّرْفَةَ المثلثةَ، ليرى منها النَّهْرَيْنِ اللذَيْنِ لطالما أَحَبَّهُمَا حُبًّا جَمًّا.

كان اللورد هوستر نائمًا عندما دخلتِ العُرفةُ، فخرجت إلى الشَّرْفَةِ ووقفت مُسندةً يدها إلى الدَّرَابِزِينَ الحجري الخشن. وراء أقصى نقاط القلعة امتزجت مياه (الجُلْمُود) السَّرِيعَةِ بمياه (الفرع الأحمر) الهادئة، وكان باستطاعة كاتلين أن ترى جزءًا طويلاً من النَّهْرِ في اتِّجَاهِ المصَبِّ. إذا ظهرَ شَرَاخٌ مخطَّطٌ من الشَّرْقِ، سيكون السير روبن عائداً. لكن في الوقت الحالي يظل سطح الماء خالياً، فشكَّرت الآلهة على هذا، وعادت إلى الدَّاخِلِ لتجلس مع أبيها.

لم تعرف كاتلين إن كان اللورد هوستر أدرك وجودها، أو إن كان حضورها بَثَّ فيهِ أيِّ راحةٍ، لكنها لاقت عزاءً في وجودها معه. ماذا كنت لتقول لو علمت بجريمتي يا أبي؟ لو أنني ولايسا في يد الأعداء، فهل كنت لتفعل ما فعلته أم تُدينني أيضاً وتقول إنه جنون أم؟

عابقة هذه العُرفة برائحة الموت، رائحة عِطْرَةٍ وعِطْنَةٍ في آنٍ واحد، تلتصق بالهواء، ذكَّرتها بالابنين اللذَيْنِ فقدتهما، ببران الجميل وريكون الصَّغِيرِ، وقتلتهما ثيون جرايچوي الذي كان زيبب ند. إنها لا تزال تنعى ند، وستظل تنعاه دوماً، لكن أن يُؤخَذَ صغيرها منها أيضاً... همست بضعف، لنفسها أكثر من أبيها: «قسوة لا تُدانيها قسوة أن يفقد المرء طفلاً».

انفتحت عينا اللورد هوستر، وبصوتٍ مبحوحٍ محمَّلٌ بالألم قال: «تانسِي». إنه لا يعرفني. تعودت كاتلين أن يحسبها أمَّها أو أختها لايسا، أمَّا تانسِي فاسم غريب عليها. «أنا كاتلين، كات يا أبي».

- «سامِحيني... الدَّم... أوه، أرجوك... تانسِي...».

أمن الممكن أن امرأة أخرى كانت في حياة أبيها؟ عذراء قروية جارَ عليها في شبابه ربما؟ هل وجدَ الشُّلوان بين ذراعِي خادمةٍ ما بعد وفاة أمِّي؟ كان الخاطر غريباً مُربكاً، وفجأةً أحسَّت كأنها لا تعرف أباهَا على الإطلاق. «مَنْ تانسِي يا سيدي؟ أبي، هل تُريني أن أرسل في طلبها؟ أين أجدها؟ أما زالت حيَّة؟».

أطلق اللورد هوستر أنيناً، وتمتم: «الموت...»، وتحسَّست يده طريقيها إلى يدها وهو يتابع: «سُتَنْجِبِين آخِرِينَ... أطفالاً طيِّبِينَ، وشرعيِّين».

آخرين؟ هل نسي أن ند رحل؟ أما زال يُكَلِّم تانسي؟ من يُكَلِّم الآن؟ أنا أم لايسا أم أمي؟

سعل فخرج لُعابه داميًا، وأطبَقَ على أصابعها قائلًا: «... كوني زوجةً صالحَةً وستباركك الآلهة... أطفال... أطفال شرعيون... آآههه!». جعلت نوبة الألم المباغطة يد اللورد هوستر تنقبض بشدة، فانغرسَتْ أظفاره في يدها، وخرجت منه صرخة مكتومة.

جاء المايستر فايماَن مسرعًا ليمزج جُرعةً أخرى من حليب الخشخاش⁽¹⁾، وساعد سيِّده على ابتلاعها، وقبل مضيِّ وقتٍ طويل عادَ اللورد هوستر يغيب في نوم عميق.

قالت كات: «كان يسأل عن امرأة اسمها تانسي».

رمقها المايستر بنظرةٍ خاويةٍ مرددًا: «تانسي؟».

كانت كاتلين قد غابتَ زمناً طويلاً جدًا عن (ريفررن)، فتساءلت: «هل تعرف واحدةً بهذا الاسم؟ خادمةٌ أو امرأةٌ من قريةٍ قريبة؟ أو ربما كانت موجودةً هنا قبل سنوات؟».

- «لا يا سيِّدتي. يُمكنني أن أتحرَّى عنها إذا أحببت. مؤكَّد أن أوثيرايدس واين يعرف إن كانت واحدةٌ مثلها خدمت في (ريفررن) من قبل. تقولين تانسي؟ كثيرًا ما يُسمِّي العامةً بناتهم أسماء الزهور والأعشاب⁽²⁾»، وبدا التَّفكير على المايستر وهو يُردف: «أذكرُ أن أرملةً كانت تأتي إلى القلعة تسأل عن الأحذية القديمة التي تحتاج إلى نعال جديدة. أعتقدُ أن اسمها كان تانسي، أم أنه كان بانسي؟ شيء من هذا القبيل. لكنْها لم تأت منذ سنواتٍ طويلة...». قالت كاتلين التي تتذكَّر العجوز جيِّدًا: «كان اسمها فيوليت».

غمغمَ المايستر: «حقًا؟»، ثم أضافَ معتذرًا: «سامحيني يا سيِّدتي، لكن لا يُمكنني البقاء. السير دزمووند قضى أن نُخاطبكِ في حدود الواجب لا أكثر». - «عليك أن تُطيع الأمر إذن». لا تستطيع كاتلين أن تلوم السير دزمووند،

(1) مشروب حقيقي ذو أصل اسكندنافي، مخدِّر ومسكِّن للألم. (المترجم).

(2) التانسي نبتة عُشبيَّة مُزهرة شبيهة بالأقحوان تُستخدَم لأغراضٍ علاجيَّة متعدِّدة، وفي العصور الوسطى وبعدها استُخدمت بجرعاتٍ عالية في الإجهاض. (المترجم).

فالأَسباب التي تجعله يثقُ بها قليلة، ودون شكَّ يخشى أن تستغلَّ ولاء كثيرين من أهل القلعة لابنة سيدهم لتُسبب مزيدًا من الأذى. على الأقل خلصتُ من الحرب ولو فترة قصيرة.

وضعتُ على كتفيها معطفًا من الصُوف عقب ذهاب المايستر، وعادتُ تخرُج إلى الشُرْفة. كان نور الشمس يبرُق على النَّهرين، يصبُغ صفحة المياه الجارية بالذهب، فرفعت كاتلين يدها حاجبةً الوهج عن عينيها، وراحت تبحث عن شراع بعيد وهي تتوجَّس خيفةً من أن ترى واحدًا.

لكنها لم تر شيئًا، وعدم وجود شيء يعني أن أمالها لم تزل حيَّة. ظلَّت تُراقب الماء النَّهار بأكمله، وتوَعَّل اللَّيل دون أن تُبارح مكانها، إلى أن أَلَمَّتها ساقاها من طول الوقوف.

وصلَّ عُداف إلى القلعة في أواخر الأصيل، ونزلَ من السَّماء إلى المغدفة ضاربًا الهواء بجناحيه الأسودين الكبيرين، فقالت لنفسها متذكِّرةً آخر طائرٍ جاء والرُّعب الذي حملَه: أجنحة سوداء، أخبار سوداء.

عادَ المايستر فإيمان مع حلول المساء ليُتابع اللورد تلي، وأحضرَ لكاتلين عشاءً متواضعًا من الخُبز والجُبنة واللَّحْم المسلوق مع الفجل الحار، وقال لها: «تحدَّثتُ مع أوثيرايدس واين يا سيديتي. إنه واثق تمامًا بأن لا امرأة اسمها تانسي كانت في (ريفررن) في أثناء خدمته».

- «رأيتُ العُداف الذي جاء اليوم. هل أسِرَ چايمي ثانية؟». أو - لاسمحت الآلهة - قُتِلَ؟

- «لا يا سيديتي. لم تصلنا أخبار عن قاتل الملك».

- «أهي معركة أخرى إذن؟ هل إدميور في محنة؟ أو روب؟ ترفق بي أرجوك وطمن مخاوفي».

ردَّ فإيمان: «سيديتي، لا يجدرُ بي أن...»، وتلفَّت حوله كأنه يُريد أن يتأكَّد من خلوَ العُرْفة، ثم قال: «اللورد تايوين غادرَ أراضي النَّهر، وكل شيء هادئ عند المخاضات».

- «من أين جاء العُداف إذن؟».

قال شاغلًا نفسه بأغطية فراش اللورد هوستر ومتحاشيًا عينيها: «من الغرب».

- «أهي أخبار عن روب؟».

تردّد قبل أن يُجاوب: «نعم يا سيّدي».

أدركت من أسلوبه أن هناك ما يُخفيه عنها، فقالت: «شيء ما حدث. أخبرني. أهو روب؟ هل أصابه سوء؟». حاشا للالهة أن يكون قد مات، أرجوك لا تنقل لي إنه مات.

بالأسلوب المراوغ نفسه أجاب المايستر فايمن: «جلالته أصيب بجرح خلال اقتحام قلعة (الجرف)، لكنه كتب أن الأمر لا يستدعي القلق، وأنه يأمل أن يعود قريباً».

- «جرح؟ أيّ جرح؟ وما مدى سوءه؟».

- «لا داعي للقلق كما كتب».

- «كلّ الجروح تُقلّني. هل هناك من يعتني به؟».

- «هذا أكيد. لا شكّ لديّ أن ماستر (الجرف) سيتولّى علاجه».

- «أين الإصابة؟».

- «سيّدي، أوامري ألاّ أتكلّم معك، آسف».

جمع فايمن عقاقيره وسارع يُغادر الغرفة، ومرةً أخرى صارت كاتلين وحدها مع أبيها. كان حليب الخشخاش قد أتى مفعوله، وغاص اللورد هوستر في نوم ثقيل، وقد سألت نُسالة رقيقة من اللُعباب من جانب فمه المفتوح ليُبَلّل وسادته، فالتقطت كاتلين منديلاً من الكُتّان ومسحته برفق. تأوّه اللورد هوستر حين لمسّته، وقال بخفوتٍ شديد جعلها تكاد لا تسمعه: «سامحيني... تانسي... دم... الدّم... لترحمني الآلهة...».

أزعجتها كلماته لأقصى حد، على الرغم من أنها لم تستوعب مغزاها. الدّم. أوجب أن يرجع كلُّ شيء إلى الدّم في النّهاية؟ من كانت تلك المرأة يا أبي؟ وماذا فعلت بها ويستحقّ العُفران؟

ليلتها كان نوم كاتلين متقطّعا، تسكّنه أحلام ضبابيّة بأطفالها، الضّائع منهم والميت، وقبل فترةٍ طويلة من طلوع النّهار استيقظت وكلمات أبيها تتردّد في أذنيها. أطفال طيّبون وشرعيّون... لماذا يقول شيئاً كهذا ما لم... أمن الممكن أنه أنجب نغلاً من تلك المرأة تانسي؟ لا تُصدّق هذا. أخوها إدميور، نعم،

فلن يُدهشها على الإطلاق أن تكون لإدميور دسطة من الأطفال الطَّبِيعِيِّين⁽¹⁾،
أمَّا أبوها فلا، ليس اللورد هوستر تلي، مُحال.

أمن الممكن أن يكون تانسي اسم تدليل اعتاد أن يُنادي به لايسا كما كان
يُناديني بكات؟ لقد سبق أن حسبها اللورد هوستر أختها في غير مرّة. قال:
ستُجِيبن آخريْن، أطفالاً طَبِيعِيِّين وشرعيِّين. لايسا أجهضت خمس مرّات،
مرّتين في (العش) وثلاثاً في (كينجز لاندنج)... لكن ليس في (ريقررن) قَطُّ،
حيث كانت لتجد اللورد هوستر إلى جوارها يُواسيها. لم يحدث، إلا إذا...
إلا إذا كانت حاملاً في المرّة الأولى إياها...

في اليوم نفسه تزوّجت هي وأختها، ثم تُركتا في عناية أبيهما حين غادر
عريساهما لينضمّا ثانيةً إلى ثورة روبرت، وبعدها، عندما تأخّر نزيهما القمري
عن موعده المعتاد، طفحت لايسا سعادةً بالطفلين اللذين أيقنت من حملهما
إياهما، وقالت لها: «ابنك سيكون وريث (وينترفل) وابني وريث (العش).
أوه، سيكونان أقرب الأصدقاء، مثل زوجك ند واللورد روبرت. سيكونان
أخوين أكثر من ابني خالة، حقاً، إنني واثقة». كم كانت سعيدةً.
لكن ما لبثت دم لايسا أن جاءها، وتسربت منها فرحتها كلها.
اعتقدت كاتلين دوّمًا أن نزيّف لايسا تأخّر مدّة قصيرة لا أكثر، لكن إذا
كانت حُبلي وقتئذ...

تذكّرت أول مرّة ناولت أختها روب لتحمله. كان صغيرًا أحمر الوجه
ولا يكف عن البكاء، لكن قويًّا حتى حينها، ومفعماً بالحياة. حالما وضعت
كاتلين الرضيع بين ذراعي أختها، انهمرت الدموع على وجه لايسا وأسرعت
تعيد الصّغير إلى أمّه وهرعت مغادرةً.

إذا فقدت طفلاً قبلها، فقد يُفسّر هذا كلام أبي، وأشياء أخرى كثيرة...
لقد أجزيت الترتيبات لقران لايسا باللورد آرِن على عجلة، وچون كان رجلاً
عجوزًا، حتى في ذلك الحين، يكبر أباهما سنًا بأعوام... عجوزًا بلا وريث.
زوجاته الأوليان تركته بلا أطفال، وابن أخيه قُتل مع براندون ستارك في
(كينجز لاندنج)، وابن عمّه الشُّجاع مات في معركة الأجراس، وهو ما جعله

(1) الطُّفل الطَّبِيعِي مصطلح من القرون الوسطى يُطلق على الأولاد غير الشرعيِّين. (المترجم).

في حاجةٍ إلى زوجةٍ شابةٍ في سبيل أن تستمرَّ عائلة آرن... زوجة شابةٍ يتق
بخصوصيتها.

نهضت كاتلين ووضعت معطفًا على كتفيها، ونزلت السلالم إلى العُرفة
الشمسية المظلمة لتقف عند فراش أبيها وقد ملأها إحساس بالوجل العاجز
وهي تقول: «أبي، أبي، أعرف الذي فعلته». إنها لم تعد عروسًا بريئة رأسها
زاخر بالأحلام، بل أرملة وخائنة وأم ثكلى وعليمة، عليمة بطباع الحياة.
همست: «لقد جعلته يأخذها. لا يسا هي الثمن الذي كان على جون آرن أن
يدفعه من أجل سيوف ورماح عائلة تلي».

لا عجب أن زواج أختها كان خاليًا تمامًا من الحب. آرن عائلة عظيمة
الكبرياء وبالغة الاعتداد بشرفها، وقد يكون اللورد جون قد تزوج لا يسا ليُزِم
آل تلي بالقتال في صفوف الثورة، وأملاً في إنجاب ابن، ولكن لا بُدَّ أنه كان
من الصعب أن يُحبَّ امرأةً جاءت فراشه ملوثةً مرغمةً. لا شك أنه عاملها
برفقٍ وأدّى واجباته، لكن لا يسا تحتاج إلى الدَّفء.

في اليوم التالي، بينما تتناول إفطارها، طلبت كاتلين ورقةً وريشةً، وكتبت
رسالةً لأختها في (وادي آرن)، وصارعت الكلمات وهي تحكي للايسا عن بران
وريكون، لكن أغلب ما كتبه كان عن أبيهما. تفكيره كله في الذنب الذي اقترفه
في حقك، وقد أدرك أن الوقت المتبقي له قصير، والمياستر فإيمان يقول إنه لا
يجرؤ على إعطائه جُرعات أقوى من حليب الخشخاش. آن الأوان لأن يتخلى
أبونا عن سيفه وتُرسه، آن الأوان لأن يستريح، لكنه ما زال يقاوم بشراسة وبأبي
الاستسلام، وأعتقد أن هذا بسببك أنت. إنه في حاجةٍ إلي مغفرتك. أعلم أن
الحرب جعلت الطريق من (العش) إلى (ريفررن) محفوفًا بالمخاطر، لكن لا
بُدَّ أن قوةً من الفرسان يُمكنها أن تعبر بك (جبال القمر) بأمان، أليس كذلك؟
فليكونوا مئة رجل أو ألفًا حتى. وإذا كنت لا تستطيعين المجيء، أفن تكتبي له
على الأقل بضع كلمات محبةٍ كي يموت في سلام؟ اكتبي ما تريدين وسأقرأه له
وأيسرُ طريق رحيله.

في اللحظة التي وضعت فيها كاتلين الريشة جانبًا وطلبت شمع الختم،
خامرها إحساس بأن الرسالة واهية للغاية ومتأخرة للغاية، كما أن المياستر
فإيمان لا يظن أن اللورد هوستر سيبقى فترةً تكفي لأن يُحلق غُداً إلى

(العُش) ويعود... وإن كان قد قال هذا كثيرًا من قبل. رجال تلي لا يستسلمون بسهولةٍ مهما ضَعُفَتِ الفُرُص. بعدما وضَعَتِ الرِّقَّ في عناية المايستر، ذهبت كاتلين إلى السَّيِّتِ وأشعلت شمعةً على مذبح (الأب في الأعلى) من أجل أبيها، وثانيةً لـ(العجوز) التي جلبت الغُداً الأول إلى العالم عندما اختلست النَّظَر من باب الموت، وثالثةً لـ(الأم) من أجل لايسا وكل الأطفال الذين فقدتهم كلتاها.

في وقتٍ لاحقٍ من اليوم نفسه، في أثناء جلوسها إلى جوار سرير اللورد هوستر، ومعها كتابٌ وجدَّت نفسها تقرأ منه الفقرة ذاتها مرارًا، سمعت أصواتًا عاليةً ونفيرا يتردَّد، وفكَّرت مجفلةً في الحال: السير روبن، لكن حين ذهبت إلى النَّافذة رأت التَّهْرين خاليتين، وإن جاءتها الأصوات من الخارج بوضوح أكثر؛ ديبب خيول كثيرة وصليل دروع وهتافات مرحة هنا وهناك. صعدت كاتلين السَّلالِم الملتفة إلى سطح الحصن قائلةً لنفسها: السير دزموند لم يمنعني من الصُّعود إلى السَّطْح.

كانت الأصوات آتيةً من جانب القلعة البعيد، عند البوابة الرئيسة، حيث وقفت جماعة من الرِّجال أمام الشَّبكة الحديد وهي ترتفع مهترَّة، وفي الحقول وراءها خارج القلعة كان مئات من الخيالة الذين رفرت راياتهم مع هبوب الرِّيح، فارتجفت كاتلين راحةً لمرأى سمكة (ريقررن) الوثابة. إدميور.

ساعتان مضتا قبل أن يتفضَّل بالمجيء إليها، فيما ارتفعت أصوات من التَّأم شملهم عاليةً من كلِّ أرجاء القلعة، إذ احتضن الرِّجال نسوتهم وأطفالهم الذين فارَّقوهم، ورأت كاتلين ثلاثة طيور تُحلِّق من المغدفة، وراقبتها من شُرْفَة أبيها وهي تتعد ضاربةً الهواء بأجنحتها السَّوداء. كانت قد غسلت شعرها وبدلت ثيابها جهَّزت نفسها لتوبيخ أخيها... إلا أن الانتظار كان صعبًا.

حينما سمعت الحُطوات خارج بابها أخيرًا، قعدت وضمت يديها في حجرها. كان الطُّمى الأحمر الجاف يُلوِّث حذاء إدميور وواقى ساقيه ومعطفه، ولا يدلُّ منظره البتَّة على أنه ربَّح معركته، بعوده النَّحيل ووجهه المسحوب ووجنتيه الممتقعيتين ولحيته المشعثة وعينه اللامعتين أكثر من المعتاد.

بقلق قالت كاتلين: «إدميور، تبدو في حالٍ سيّئة. هل حدثَ شيءٌ؟ هل عبرَ جنودٌ لانستر النهر؟».

قال: «صددتهم كلهم؛ اللورد تاويين وجريجور كليجاين وأدام ماربراند، دفعتهم إلى الانسحاب، لكن ستانيس...»، وبتَرَّ عبارته بتجهم.

- «ستانيس؟ ماذا عن ستانيس؟».

أجابَ إدميور باستياء: «خسرَ المعركة في (كينجز لاندنج)، احترقَ أسطوله واندرَحَ جيشه».

انتصار آل لانستر نبأ سيّئ بالتأكيد، لكن كاتلين لم تستطع أن تُشارك أباها خيبة أملها الجليّة، فهي لا تزال ترى في كوايسها الظل الذي شهدته ينسلُّ في خيمة رنلي، والدِّماء التي تدفقت من واقِي العنق الفولاذي. «ستانيس ليس صديقًا لنا أكثر من اللورد تاويين».

قال إدميور: «لستِ نفهمين. (هايجاردن) أعلنت تأييدها لچوفري، و(دورن) كذلك، الجنوب كله»، وتقلّص فمه وهو يضيف: «وأنتِ رأيتِ أن إطلاق سراح قاتِل الملك فكرة سيّئة. لم يكن لديكِ الحق».

- «كان لديّ حقُّ الأمومة»، قالت بصوتٍ هادئ، على الرغم من أن خبر (هايجاردن) ضربة عنيفة لآمال روب، لكنها لا تقوى على التّفكير في هذا الآن.

- «لم يكن لديكِ الحق»، كرّر إدميور. «إنه أسير روب، أسير ملكك، وروب كلفني بالحفاظ على سلامته».

- «بريان ستُحافظ على سلامته. لقد أقسمت على هذا بسيفها».

- «تلك المرأة؟».

- «سوف تُوصّل چايمي إلى (كينجز لاندنج) وتُعيد آريا وسانزا إلينا أمتين».

- «سرسي لن تتنازَل عنهما أبدًا».

- «ليس سرسي، بل تيريون. لقد أقسم على هذا أمام البلاط كلّه، وقاتِل الملك أقسم أيضًا».

- «كلمة چايمي لا قيمة لها، أمّا العفريت فيُقال إن بلطة أصابته في رأسه

خلال المعركة. سيموت قبل أن تبلغ فتاتك بريان (كينجز لاندنج)، هذا إذا بلغتها».

- «يموت؟». أمن الممكن أن تكون الآلهة بتلك القسوة؟ لقد جعلت
چايمي يحلف مئة يمين، لكن وعد أخيه هو ما علقت عليه آمالها.
قال إدميور وقد أعماه الحق عن أساها: «چايمي كان عهدتي أنا، وأنوي
أن أسترده. لقد أرسلت غدفاً...».

- «غدفاً لمن؟ كم؟».

- «ثلاثة، لأضمن أن تصل الرسالة إلى اللورد بولتون. نهراً أو براً، لا بُدَّ أن
يمرَّ بهم الطريق على مقربة من (هارنهال)».

- «(هارنهال)». مجرد نطق الكلمة بدا كأنه أظلم الغرفة، وأفعم الهلع
صوت كاتلين وهي تقول: «إدميور، أتدري ماذا فعلت؟».

- «لا تخافي، فلم أذكر دورك. كتبت فقط أن چايمي قد هرب، وعرضتُ
ألف تين ذهبي لمن يقبض عليه».

فكرت كاتلين بياس: أسوأ وأسوأ. أخي هذا أحمق. رغماً عنها ودون أن
تريدها أغرقت الدموع عينيها، وقالت بخفوت: «إذا كان هذا هروباً وليس
تبادلاً للأسرى، فلم يعطي آل لانستر ابنتي لبريان؟».

- «لن تصل الأمور إلى هذا الحد أبداً. قاتل الملك سيعاد إلينا، لقد
تأكدت من هذا».

- «كل ما تأكدت منه هو أنني لن أرى ابنتي ثانية. كانت بريان لتعيده إلى
(كينجز لاندنج) سالمًا... ما دام لا أحد يطارده، لكن الآن...». لم تستطع
كاتلين المواصلة، وقالت له: «اتركني يا إدميور». إنها لا تملك الحق في أن
تأمره، هنا في القلعة التي ستكون له عمًا قريب، لكن نبرتها لم تدع مجالاً
للجدل. «اتركني لأبي وحزني، فلم يعد لدي ما أقوله لك. اذهب، اذهب».
لا تريد الآن إلا أن تستلقي وتغلق عينيها وتغيب في النوم، وتصلّي أن تنأى
عنها الأحلام.

آريا

أَتَشَحَّتِ السَّمَاءُ بِالسَّوَادِ كَأَسْوَارِ (هارنهال) مِنْ خَلْفِهِمْ، وَنَزَلَ الْمَطَرُ بِخَفَّةٍ ثَابِتَةٍ لَيْسِيلٍ عَلَى وَجُوهِهِمْ وَيَكْتُمُ وَقَعَ حَوَافِرِ الْخِيُولِ.

كَانُوا يَتَحَرَّكُونَ شِمَالًا، بَعِيدًا عَنِ الْبُحَيْرَةِ، سَالِكِينَ طَرِيقًا زُرَاعِيًّا كَثِيرَ الْحُفْرِ، يَمْضِي بَيْنَ الْحُقُولِ الْمَجْتَمَّةِ نَحْوِ الْغَابَاتِ وَالتُّهَيْرَاتِ، وَآرِيَا فِي الْمَقْدَمَةِ تَهْمَزُ حِصَانَهَا الْمَسْرُوقِ، الَّذِي رَاحَ يَحْبُ بِتَهْوُّرٍ لَا يَخْلُو مِنْ رَشَاقَةٍ إِلَى أَنْ تَكَاثَفَتِ الْأَشْجَارُ مِنْ حَوْلِهَا، وَقَدْ سَعَى جَنْدَرِي وَهُوتَ بِأَيِّ وِرَاءِهَا بِأَفْضَلِ مَا فِي وَسْعِهَا، وَصَوْتُ أَنْفَاسِ الثَّقِيلَةِ لَا يَغِيبُ عَنْ مَسَامِعِهَا، بَيْنَمَا أَخَذَتِ الذُّئَابُ تَعْوِيًًا مِنْ بَعِيدٍ. لَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَبَيْنَ الْفِينَةِ وَالْفِينَةِ تُلْقِي آرِيَا نَظْرَةً مِنْ فَوْقِ كَنَفِهَا، لِتَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ الصَّبِيِّينَ لَمْ يَتَخَلَّفُوا كَثِيرًا عَنْهَا، وَتَرَى إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ يُطَارِدُهُمْ.

وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُلَا حَقُونَ حَتْمًا. لَقَدْ سَرَقَتْ ثَلَاثَةَ أَحْصِنَةٍ مِنَ الْإِسْطَبَلَاتِ، وَخَرِيطَةً وَخَنْجَرًا مِنْ غُرْفَةِ رُووسِ بُولْتُونِ نَفْسِهِ، وَقَتَلَتْ حَارِسًا عَلَى بَوَابِهِ جَانِيَّةً، شَقَّتْ حَلْقَهُ عِنْدَمَا انْحَنَى يَلْتَقِطُ الْعُمْلَةَ الْحَدِيدَ الْبَالِيَةَ الَّتِي أَعْطَاهَا چَاكْنُ هَا جَارِ إِيَاهَا. سَيَجِدُهُ أَحَدُهُمْ مَيِّتًا غَارِقًا فِي دَمِهِ، وَعِنْدَهَا سَيَعْمُ الصَّخْبُ وَيُوقِظُونَ لِلرُّودِ بُولْتُونِ وَيُمَسِّطُونَ (هارنهال) مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا، وَلَمَّا يَفْعَلُونَ سَيَجِدُونَ الْخَرِيطَةَ وَالْخَنْجَرَ مَفْقُودَيْنِ، وَمَعَهُمَا سَيُوفٍ مِنْ مَسْتَوْدَعِ السَّلَاحِ، وَالْقَلِيلَ مِنَ الْخُبْزِ وَالْجُبْنَةِ مِنَ الْمَطَابِخِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَسَاعِدِ خَبَازِ وَصَبِي حَدَّادِ وَسَاقِيَةِ اسْمِهَا نَان... أَوْ بِنْتُ عَرَسٍ، أَوْ آرِيَا، حَسَبَ مَنْ تَسْأَلُهُ.

لَنْ يُطَارِدَهُمْ سَيِّدُ (مَعْقِلُ الْخَوْفِ) بِنَفْسِهِ، بَلْ سَيَقِي رُووسِ بُولْتُونِ فِي الْفِرَاشِ، تَلْتَصِقُ الْعَلَقَاتُ بِبِشْرَتِهِ الشَّاحِبَةِ وَهُوَ يُعْطِي الأوامرَ بِصَوْتِهِ الْهَامِسِ

التَّاعِم. قد يقود رجله والتون المطاردة - ذلك المسمَّى ذو السَّاقين الفولاذ بسبب الواقين اللذين يرتديهما على ساقيه الطَّويلتين دائماً- أو ربما المُرَّيْل فارجو هوت ومرترقه الذين يُسمُّون أنفسهم رفقة الشُّجعان، بينما يُلقَّبهم آخرون بالممثَّلين السَّفَّاحين - وإن لم يكن على مسامعهم أبداً- وأحياناً برجال الأقدام، لعادة اللورد فارجو في قطع أيدي وأقدام من يُثيرون استياءه. سيَقطِّع أيدينا وأرجلنا إذا قبضوا علينا، وبعدها سيسلخ روس بولتون جلدنا. إنها لا تزال ترتدي ثياب الخدم، ورمز اللورد بولتون محيَّط على الصِّدر فوق قلبها، رجل (مقفل الخوف) المسلوخ.

كلما نظرت وراءها توقَّعت أن ترى لهب المشاعل ينهمر من بوابات (هارنهال) البعيدة، أو يمتدُّ على قمم أسوارها الضَّخمة الشَّاهقة، لكن لم يكن هناك ما يَري، وظلَّت (هارنهال) غافية حتى غابت في الظلام ووارتھا الأشجار. حين عبروا التُّهير الأول، انحرقت آريا بحصانها وقادتهما بعيداً عن الطَّريق، فاتَّبَعوا المجرى المتلوي مسافة رُبع ميل، قبل أن يخرُجوا ويصعدوا إلى ضِفة حجريَّة. أمَلت أن يُساعد هذا على تضليل مُطارديهم إذا أحضروا معهم كلاباً تتعقَّب رائحتهم، كما أنهم لا يستطيعون البقاء على قارعة الطَّريق. الموت على الطَّريق، الموت على الطرق كلِّها.

لم يُراجِعها جندري وهوت پاي في خيارها، فالخريطة معها هي في النَّهاية، كما بدأ أن هلع هوت پاي منها - بعد أن رأى الحارس الذي قتلته - يكاد يُضاهي هلعه من الرِّجال الذين قد يكونون في أعقابهم، وهو ما جعلها تقول لنفسها: الأفضل أن يخافني، هكذا سيفعل ما أقوله بدلاً من أن يتصرف بغباء.

تُدرك أن من المفترض أن تكون خائفة أكثر، فهي مجرد فتاة في العاشرة من العمر، فتاة نحيلة تمتطي حصاناً مسروقاً، من أمامها غابة مظلمة ومن ورائها رجال سيُسعدهم أن يقطعوا قدميها، وعلى الرغم من هذا انتابَّتْها سكينه لم تشعُر بها في (هارنهال) قَط. كان المطر قد غسل أصابعها من دماء الحارس، وعلى ظهرها سيف، والذُّئاب تجول في الظلمة كظلال رماديَّة عجفاء، وآريا ستارك ليست خائفة. بمنتهى الخفوت همست الكلمات التي علَّمها سيريو فورل إياها: ضربة الخوف أمضى من السِّيف، ثم ردَّدت عبارة چاكن: فالار مورجولس.

انقطع المطر فترةً ثم عادَ يَسْقُطُ، وانقطعَ ثانيةً ثم واصلَ السُّقُوطَ، لكن المعاطف التي يَرتدونها ثقيلة وتقيهم من الماء. حافظت آريا على حركتهم بطيئةً ثابتةً، فالظلام المُطبق تحت الأشجار لا يسمح بحركةٍ أسرع، كما أن كلا الصَّبَّيَّين ليس بخيَّالٍ، والأرض اللينة الوعرة خداعة، ملأى بالجذور نصف الدفينة والأحجار المحبوءة. عبروا طريقاً آخر امتلأت حُفره العميقة بالمياه الموحلة، لكن آريا اجتنبتَه، وقادت الولدين أعلى وأسفل التلال المتموجة، وخلال أدغال العُلقيق والورد البرِّي والشجيرات المتشابكة، وعبر قيعان أخاديد ضيقة فيها أغصان أثقلتها الأوراق المبتلة، راحت تصفعهم على وجوههم وهم يَمُرُّون.

انزلت فرس جندي مرّةً في الوحل، وسقطت على عجيزتها بعنف فأسقطته بدوره من فوق سرجه، لكن لا الحصان ولا راكبه تأذى، وتصدّرت ملامح جندي النظرة العنيدة إياها وهو يُعاود الرُّكوب من فوره، وبعدها بفترة قصيرة لا قوا ثلاثة ذئاب تلتهم جثّةً ظبيّ صغير، فنكص حصان هوت پاي فزعاً لما النقط رائجتها ولأذ بالفرار. اثنان من الذئاب فرّا كذلك، لكن الثالث رفع رأسه وكشّر عن أنيابه استعداداً للدِّفاع عن فريسته، فقالت آريا لجندي: «تراجع ببطء كي لا تُجفله»، وانسحب الاثنان بحصانينهما بتؤدة حتى غاب الذئب ووليمته عن نظرهما، وعندها فقط دارت آريا لتنتلق وراء هوت پاي، الذي تمسك بسرجة بيأس وفروع الشجر تلطمه.

فيما بعد مرّوا من قرية محترقة، شاقين طريقهم بحرص بالغ بين أطلال الأكواخ المسوَّدة وجثامين دستة من الرّجال المشوقين على صَف من أشجار التُّفّاح. رفعت آريا ناظريها تتطلّع إلى الأموات المهزولين في ثيابهم المتعفنة المبتلة، ورددت صلاتها: السير جريجور، دانسن، پوليفر، راف المعسول، المُدغدغ وكلب الصَّيد، السير إلين، السير مرين، الملك چوفري، الملكة سوسي، وختمتها بعبارة فالار مورجولس وهي تمسّ عملة چاكن المستقرّة تحت حزامها، ثم إنها مدّت يدها واقتطفت تُفاحةً من بين الموتى وهي تمرُّ أسفلهم، تُفاحةً طريّةً ناضجةً أكثر من اللازم، لكنها التهمتْها ببذورها ودودها. كان هذا في اليوم الذي لم يطلع فجره.

رويداً أضاءت السّماء من حولهم، لكنهم لم يروا الشّمس مطلقاً، واستحال

الأسود إلى رمادي، وعادَت الألوان تصبُغ العالم على استحياء، فاكْتسى شجر الصنوبر الجُندي بالأخضر الدَّاكن، والأشجار عريضة الأوراق بدرجات من الخمري والذهبي الباهت اللذين بدأ في التحوُّل إلى البني بالفعل. توقَّفوا فترةً تكفي لسقي الخيول وتناول إفطار باردٍ سريع، متقاسمين رغيف الخُبز الذي سرقه هوت پاي من المطابخ وقطَّعا من الجُبنة الصَّفراء الجامدة. سألتها جندري: «هل تعرفين أين سنذهب؟». رَدَّت آريا: «شمالاً».

تطلَّع هوت حوله بحيرةٍ وتساءل: «أين الشَّمال؟».

أشارت بقطعة الجُبنة في يدها مجيبةً: «من هنا».

- «لكن الشَّمس غائبة، فكيف تعرفين؟».

- «من الطَّحالب. أترى كيف تنمو غالبًا على جانبٍ واحدٍ من الأشجار؟

هذا هو الجنوب».

استفسرَ جندري: «وماذا تُريد في الشَّمال؟».

أجابته: «(الثالوث)»، وبسطت الخارطة المسروقة لتُريهما مردفةً: «انظرا، بمجرد أن نبلُغ (الثالوث)، فما علينا إلَّا أن نمضي في اتِّجاه منبعه حتى نصل إلى (ريقرن)، هنا»، وتعمَّقت الطَّريق بإصبعها مواصلةً: «إنه طريق طويل، لكن لا يُمكن أن نضلَّه، شريطة أن نتَّبِع مجرى النَّهر».

حدَّق هوت پاي إلى الخارطة متسائلًا: «وأين (ريقرن)؟».

كانت (ريقرن) مرسومةً كبرج قلعةٍ عند مُلتقى الخطَّين الأزرقين المُنسابين اللذين يُمثَّلان نهرَي (الجُلمود) و(الفرع الأحمر)، فمَسَّتها آريا قائلةً: «هنا. مكتوب (ريقرن)».

سألتها بذهولٍ كأنها قالت إنها تستطيع المشي على الماء: «يُمكنك قراءة المكتوب؟».

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت: «سكنون آمين حالما نبلُغ (ريقرن)».

- «حقًا؟ لماذا؟».

أرادت أن تقول: لأنها قلعة جَدِّي، وأخي روب سيكون هناك، لكنها عصَّت شفتها وطوت الخارطة قائلةً: «سكنون آمين فحسب، بشرط أن نصل إلى هناك»، ثم سبقتهما إلى امتطاء حصانها وقد راودها إحساس بالكدر

لأنها أخفت الحقيقة عن هوت پای... إلا أنها لا تستطيع ائتمانه على سيرها. صحيح أن جندری يعرف، لكن تلك مسألة أخرى، فجندری أيضًا لديه سر، وإن كان يبدو أنه هو نفسه يجهله.

يومها سرّعت آريا حركتهم، جاعلة الخيول تخبُّ قدر ما جرّوت، وأحيانًا تدفعها إلى الرّكض عندما تلمح حقلًا مسطحًا أمامهم، وإن لم يحدث هذا كثيرًا، إذ أخذت الآكام تزداد كلما تقدّموا، وعلى الرغم من أنها ليست عالية كثيرًا، ولا منحدرّة لهذه الدرّجة، فقد بدت بلا نهاية، وسرعان ما انتابهم السّأم من كثرة الصّعود والنّزول، ووجدوا أنفسهم يتبعون تضاريس الأرض كيفما اتّفق، يمضون بمحاذاة الجداول الصّغيرة ويعبرون تيّها من الأودية الغابيّة الصّحلة صنّعت فيها الأشجار مظلةً متينةً من فوقهم.

بين الحين والآخر كانت تجعل هوت پای وجندری يواصلان الطّريق ريثما تعود هي أدراجها في محاولةٍ لتشويش أثرهم، وقد أرهفت سمعها لالتقاط أول صوتٍ يدل على اقتراب مطّارديهم. قالت لنفسها وهي تمضغ شفّتها: حر كتنا بطيئة للغاية، سيقبضون علينا بالتأكيد.

في مرّة، من على قمةٍ أخدود، لمحت أشباحًا داكنةً تعبّر الجدول في الوادي الذي وراءهم، وبين نبضة قلبٍ وأخرى خشيت أن خياله رروس بولتون أدركوهم، ولكن حين نظرت ثانيةً تبينت أنه قطع ذئاب، فضمت يديها حول فمها وحيّتها بعوائها: «أووووووو! أوووووووو!»، وعندما رفع أكبر الذئاب حجمًا رأسه ورّد التّحيّة، بثّ الصّوت القشعريرة في جسد آريا.

بدأ هوت پای يشككي مع انتصاف النّهار، وقال لهما إن مؤخرته تؤلمه، كما أن طول الجلوس على السّرج أصاب ما بين ساقيه بالتّسلخات، ناهيك بأنه يحتاج إلى القليل من التّوم، وأضاف: «إنني متعب لدرجة أنني سأسقط من على حصاني».

نظرت آريا إلى جندری قائلةً: «من تحسبه سيّعثر عليه أولاً إذا سقط؟ الذئاب أم الممثلون؟».

أجاب الصّبي: «الذئاب، فأنفها أقوى».

فتح هوت پای فمه وأغلقه، ولم يسقط من على حصانه.

عاد المطر ينزل بعد فترةٍ قصيرة، وما زالوا لم يروا بصيصًا من الشّمس،

وبدأ البرد يشتدُّ، على حين زحفتْ خيوط من الضَّبَابِ الأبيض الشَّاحِبِ بين أشجار الصَّنوبر ودفعتها الرِّيحُ فوق الحقول المحروقة القاحلة.

بدا كأن معاناة جندري لا تقلُّ كثيرًا عن هوت پاڤي، وإن كان أكثرَ عنادًا من أن يشكو، وقد جلسَ بغيرِ راحةٍ فوق سرِّجه، وعلى وجهه نظرة عازمة تحت شَعْرهُ الأسود الأشعث، لكن آرياً أدركت أنه لا يُجيد الرُّكوب، وقالت لنفسها: كان عليّ أن أتذكّر. إنها معتادة على ركوب الخيل منذ نعومة أظفارها، المهور وهي صغيرة، والأحصنة الكبيرة فيما بعد، أمّا جندري وهوت پاڤي فمن مواليد المدينة، وفي المُدن يمشي العامّة. لقد أعطاهم يورن دوابّ عندما أخذهم من (كينجز لاندنج)، لكن ركوب حمارٍ والتَّهادي على (طريق الملوك) وراءَ عربيّةٍ شيء، وقيادة حصان صيدٍ عبر الغابات البرّيّة والحقول المحروقة شيء آخر.

تعلم آرياً أنها تستطيع أن تقطع مسافةً أطول في وقتٍ أقصر لو كانت بمفردها، ولكن لا يُمكنها أن تتخلّى عنهما. إنهما قطيعها، صديقاها، آخر من تبقى لها حيًّا من أصدقائها كلِّهم، ولولاها لكانا ما زالّا آمنين في (هارنهال)، جندري يكدح في ورشته وهوت پاڤي في المطابخ. إذا قبضَ علينا الممثلون، سأقول لهم إنني ابنة نَد ستارك وأخت الملك في الشَّمال. سأمرهم بأن يأخذوني إلى أخي والألّ يؤذوا هوت پاڤي وجندري. لكنهم قد لا يُصدّقونها، وحتى إذا فعلوا... اللورد بولتون حامل راية أخيها، نعم، لكنه يظلُّ يُخيفها كثيرًا. مدّت يدها وراء ظهرها تمسُّ مقبض السِّيف الذي سرّقه جندري لها، وتعهّدت لنفسها بصمت: لن أدعهم يأخذوننا، لن أسمح لهم.

في أواخر أصيل هذا اليوم خرجوا من تحت الأشجار ووجدوا أنفسهم على ضفّة نهر، فأطلق هوت پاڤي صيحة سرور، وقال: «(الثالوث)! كل ما علينا الآن أن نمضي في اتِّجاه المنبع كما قلّت. إننا على وشك الوصول!».

مضغت آرياً شفقتها وارتدت: «لا أظنّه (الثالوث)». صحيحٌ أن هذا التَّهر طامٌ بمياه الأمطار، لكن عرضه لا يُمكن أن يتجاوز الثلاثين قدمًا، وهي تذكّر أن (الثالوث) أعرض كثيرًا. «إنه أصغر من أن يكون هو، كما أننا لم نقطع مسافةً كافيةً».

قال هوت پاڤي بإصرار: «بل قطعنا. إننا راكبون منذ بداية التَّهر، وبالكَاد توقّفنا. لا بُدَّ أننا قطعنا مسافةً طويلةً».

قال جندري: «لنلقِ نظرةً أخرى على الخريطة».

ترجّلت آريا وأخرجت الخريطة وبسطتها، فطقطقَ المطر على جلد الغنم المصنوعة منه وسال في نُهيراتٍ دقيقة، بينما قالت آريا مشيرةً والصَّبِيَّانِ يَنْظُرانِ من فوق كتفيها: «أعتقدُ أننا في مكانٍ ما هنا».

قال هوت پاي: «لكن... كأننا لم نبتعدِ على الإطلاق. انظري، ها هي (هارنهال) عند إصبعك، تكادين تلمسينها، ونحن راكبون منذ بداية النَّهْرِ!». - «ما زالت أمامنا أميالٌ وأميالٌ قبل أن نَبْلُغَ (الثالوث)، ولن يكون ذلك قبل أيام. لا بُدَّ أن هذا نهرٍ آخَرَ، واحد من هذه، انظُر»، وأرَّته عددًا من الخطوط الزرقاء الرقيقة التي رسمها صانع الخرائط، وتحت كل منها اسم مكتوب بخطٍ نضيد. «الداري»، (الثَّفَّاحَة الخضراء)، (العذراء)... هنا، هذا النَّهْرُ، قد يكون (الصَّفصافة الصَّغِيرَة)».

نقِلَ هوت پاي بصره بين الحَطِّ والنَّهْرِ، وقال: «لا يبدو بهذا الصَّغُر». قطب جندري وجهه قائلاً: «الذي تُشيرين إليه يصبُّ في نهرٍ آخَرَ، انظري». ردَّت المكتوب: «(الصَّفصافة الكبيرة)».

- «(الصَّفصافة الكبيرة)، نعم، والذي يصبُّ في (الثالوث)، أي أن علينا أن نتبع نهرًا إلى آخَرَ، وإنما في اتِّجاه المصب وليس المنبع، لكن إذا لم يكن هذا النَّهْرُ (الصَّفصافة الصَّغِيرَة) وكان هذا الآخَر هنا...». قرأت آريا: «(الغدير الرَّقراق)».

قال متبَعًا الحَطِّ بإصبعه: «إنه يدور ويتدفَّق صوب البحيرة، في اتِّجاه (هارنهال)».

صاح هوت پاي بعينين متسعتين: «لا! سيقتلونا بالتأكيد!». أعلن جندري بصوتٍ يجيش بالعناد: «يجب أن نعرف أيُّ نهرٍ هذا، يجب».

- «لكننا لا نعرفه». قد تضمُّ الخريطة أسماء مكتوبةً عند الخطوط الزرقاء، لكن أحدًا لم يُعلِّق لافتةً عند الضَّفَّة عليها اسم النَّهْرِ. هكذا طوت آريا الخريطة قائلةً وقد حزمت أمرها: «لن نمضي في اتِّجاه المنبع أو المصب. سنعبُر ونواصل الحركة شمالًا كما نفعَل من البداية».

تساءل هوت پاي: «هل تستطيع الخيول السِّباحة؟ إنه يبدو عميقًا يا آري. ماذا لو أن هناك ثعابين؟».

وسألها جندري: «أأنتِ واثقة بأننا ذاهبون شمالاً؟ كلُّ هذه التلال... إذا
دُرنا خطأ...».

- «الطحالب على الأشجار...».

أشارَ إلى شجرةٍ قريبةٍ قائلاً: «هذه الشجرة عليها طحالب من ثلاثة
اتجاهات، وهذه التي بعدها لا طحالب عليها على الإطلاق. ربما نكون
ضائعين ونمضي في دوائر لا أكثر».

قالت آريا: «ربما، لكنني سأعبرُ النهر على كلِّ حال. يُمكنكما المجيء أو
البقاء هنا»، وعادت تمتطي حصانها متجاهلةً إياهما. إذا كانا لا يُريدان أن
يتبعها، فليجدا (ريقرن) وحدهما، وإن كان الغالب أن الممثلين هُم من
سيجدونهما.

اضطرت لأن تركب نصف ميل كاملاً بمحاذاة الضفة، قبل أن تعثر أخيراً
على بُقعة تبدو صالحةً لعبورٍ آمن، وحتى هناك تهيب حصانها من النزول إلى
الماء. أياً كان اسمه، فالنهر يجري سريعاً ولونه البني يدل على امتلائه بالطيني
الزلق، وقد ارتفع الماء عند الجزء العميق في منتصفه ليغمر بطن الحصان.
ملأت المياه حذاء آريا، لكنها واصلت التقدّم وخرجت من الضفة الأخرى،
ومن ورائها سمعت صوت تناثر الماء وفرساً تصهل بعصبية، ففكرت: تبعاني
إذن، عظيم، والتفتت تُشاهد بينما كافح الصبيان للعبور حتى خرجا إلى
جوارها والماء يقطر منهما، فقالت: «هذا ليس (الثالوث)، ليس هو».

النهر التالي كان أضحل وخوضه أسهل، لكن بدوره لم يكن (الثالوث)،
ولم يُجادلها أحدهما حين قالت إن عليهم العبور.

كان الغسق يترسب في الأجواء عندما توقفوا ثانية كي ترتاح الخيول
ويتقاسموا وجبةً أخرى من الخبز والجبن، وقال هوت باي متذمراً: «إنني
أرتجف من البرد والبلل. مؤكّد أننا بعيدون كثيراً عن (هارنهال) الآن. يُمكننا
أن نُشعل ناراً...».

صاحت آريا وجندري في اللحظة ذاتها: «لا!»، فجفل هوت باي بعض
الشيء، ورمقت آريا جندري بنظرةٍ جانبية. قالها معي، كما كان چون يفعل
ونحن في (ويترفل). إنها لا تفتقد من بين إخوتها كلهم أحداً أكثر من چون
سنو.

سأل هوت پاي: «أيمكننا أن ننام على الأقل؟ إنني متعب للغاية يا آري، ومؤخرتي تُؤلمني. يبدو أنني مصاب بقروح».

- «سُتصاب بأكثر من هذا إذا قبضوا عليك. يجب أن نُواصل الحركة، يجب».

- «لكن الظلام يكاد يحلُّ بالكامل، ولا يُمكنك أن تري القمر».

- «اركب حصانك».

وجدت آريا إرهاقها البالغ يُثقلها مع حركتهم الوئيدة في الضوء الذي أخذ يخبُت من حولهم. إنها في حاجةٍ إلى النَّومِ مثل هوت پاي تمامًا، لكنهم لا يجسرون على الخلود إلى النَّوم، فقد يفتحون أعينهم ليجدوا فارجو هوت واقفًا فوق رؤوسهم، ومعه شاجويل المهرج وأورزويك الوفي ورورج والعضاض والسبتون أوت وبقية وحوشه.

لكن بعد فترةٍ باتت لحركة حصانها أثر هززة المهد، وشعرت آريا بجفניה يتقلان، فتركت عينها تنغلقان برهةً، ثم أسرعَت تفتحهما مجددًا، وصرخت في نفسها بصمت: لا يُمكنني أن أنام، لا يُمكنني، لا يُمكنني. كورت قبضتها وفركت عينها بمفاصل أصابعها بقوةٍ وهي تُطبق على العنان بإحكام وتهمز حصانها دافعةً إياه إلى الهرولة، لكن لا هي ولا الحصان استطاعا احتمال الانطلاق طويلاً، وخلال دقائق قليلة عادا إلى المشي البطيء، وبعد بضعة دقائق أخرى انغلقت عينها ثانيةً، وهذه المرة لم تفتحها بالسرعة نفسها.

وحينما فتحتهما وجدت الحصان متوقفًا يقضم من العشب، بينما يهزُّ جندي ذراعها قائلاً: «لقد نمت».

- «كنت أريح عيني لا أكثر».

- «كنت تُريحينهما وقتاً طويلاً إذن. حصانك كان يمشي في دائرة، لكنني لم أدرك أنك نائمة حتى توقفت. هوت پاي حاله لا تقلُّ سوءًا. لقد ارتطم بفرع شجرة وسقط، وكان يُفترض أن تسمعي صياحه، لكن حتى هذا لم يُوقظك. لا بدُّ أن تتوقفي وتنامي».

قالت متثابرةً: «يُمكنني الاستمرار بقدر ما يُمكنك».

- «كاذبة. استمري إذا أردت التصرف بغباء، أمّا أنا فسأتوقف. سأتولّى المناوئة الأولى، ونامي أنت».

- «وماذا عن هوت پای؟».

أشارَ جندري، فرأت هوت پای يفترش الأرض بالفعل، وقد تكوّر على نفسه تحت معطفه على فراش من الأوراق الرطبة، وراح يغط بصوت خافت وفي قبضته قطعة كبيرة من الجبنة، فيبدو أن التّوم غلبه وهو يأكل.

أدرکت آريا أن لا جدوى من الجدل، فجندري على حق، وقالت لنفسها آملة أن يكون هذا صحيحًا: الممثلون أيضًا سيحتاجون إلى التّوم. كانت مجهدةً لدرجة أن مجرد التّزول من فوق السّرج كان معاناة، لكنها تذكّرت أن تربط حصانها قبل أن تجد بقعة أسفل شجرة زان. أحسّت برطوبة الأرض وصلابتها، وتساءلت متى ستنام في سرير ثانية وتأكل طعامًا ساخنًا وتحسّ بدفء النّار. آخر شيء فعلته قبل أن تنغلق عينها أنها أخرجت سيفها ووضعتَه إلى جوارها، وهمست متثابّة: «السير جريجور، دانسن، پولير، راف المعسول، المُدغدغ... المُدغدغ... كلب الصّيد...».

أحلامها كانت حمراء ضاربة، وفيها كان الممثلون، أربعة منهم على الأقل؛ لايسيبي شاحب، وحامل فأس وحشي أسود البشرة من (إيب)، والدوثرابي سيّد الخيول ذو التّدوب المسّمى إيجو، والدورني الذي لم تعرف اسمه قط. تقدّموا وتقدّموا في المطر مرتدين الجلد المبتل والقمصان المعدنيّة التي زحفَ عليها الصّدأ، تخبط سيوفهم وفؤوسهم السّروج فيعلو رنينها. أدرکت يقين الأحلام الجَمّ الغريب أنهم يُطارِدونها... لكنهم مخطئون. إنها هي التي تُطارِدهم.

في الحُلُم لم تكن فتاةً صغيرة، بل ذبّية، ذبّية قويّة ضخمة، وحينما خرجت من بين الأشجار أمامهم وكشفت أسنانها مُصدرةً زمجرةً كهدير واطىء، اشتمّت رائحة الخوف الرّنخة من الخيول والرّجال في آنٍ واحد. تراجع حصان اللايسيبي وصرخ رُعبًا، وزعق الآخرون في بعضهم بعضًا بلُغة بني الإنسان، لكن قبل أن يستطيعوا اتّخاذ خطوةٍ واحدة، انبثقت الذّئاب الأخرى من قلب الظّلام والمطر، قطع صامت عظيم من الأجسام الضّاوية المبتلة.

كان القتال قصيرًا لكن داميًا. سقط الرّجل المُشعر وهو يستلّ فأسه، والأسود مات وهو يُنبت سهمًا في وتر قوسه، أمّا الشّاحب القادم من (ليس) فحاول الفرار، لكن إخوتها وأخواتها داهموه من كلّ اتّجاهٍ قاطعين عليه

كَلَّ الشَّيْبِلُ، وَنَهَشُوا قِوَائِمَ الْحِصَانِ قَبْلَ أَنْ يُمَزَّقُوا عُنُقَ رَاكِبِهِ عِنْدَمَا سَقَطَ كَالْجُلْمُودِ.

ذُو الْأَجْرَاسِ وَحَدَهُ ظَلَّ صَامِدًا، وَرَفَسَ حِصَانَهُ إِحْدَى أَخْوَاتِهَا فِي رَأْسِهَا، وَشَطَرَ أُخْرَى إِلَى نِصْفَيْنِ بِمَخْلَبِهِ الْفِضِّيِّ الْمَعْقُوفِ، بَيْنَمَا أَخَذَ شَعْرَهُ يَرْنُ بِنَعُومَةٍ.

وَوَثَبَتْ عَلَى ظَهْرِهِ مَشْتَعَلَةً غَضْبًا، فَدَفَعَتْهُ مِنْ فَوْقِ السَّرَجِ لِيَقَعَ إِلَى الْأَمَامِ، وَانْغَلَقَ فَكَّاهَا عَلَى ذِرَاعِهِ إِذْ سَقَطَا، فَغَاصَتْ أَسْنَانُهَا فِي الصُّوفِ وَالْجِلْدِ وَاللَّحْمِ الطَّرِيِّ، وَلَمَّا ارْتَطَمَا بِالْأَرْضِ لَوَتْ رَأْسَهَا بِمَتْنَيْ الْعُنْفِ مَنزَعَةً الذِّرَاعِ مِنَ الْكَتْفِ، وَبِنَشْوَةٍ أَخَذَتْ تَهَزُّهَا بِفَمِهَا نَائِرَةً الْقَطْرَاتِ الْحَمْرَاءِ الدَّافِئَةَ فِي سِوَادِ الْمَطَرِ الْبَارِدِ.

تيريون

استيقظ على صرير مفصلات الباب الحديد القديمة.
قال بصوت كنفيق الضفادع: «من؟». على الأقل استعاد صوته، حتى وإن كان غليظًا خشنًا، لكنه لا يزال محموماً، ولا فكرة لديه عن الساعة. كم نام هذه المرة؟ يا لهذا الضعف الذي يحتاجه، ضعف شديد بغيض. بصوت أعلى نادى ثانية: «من؟»، وانساب ضوء مشعل من الباب المفتوح، أمّا في داخل الغرفة فمصدر الضوء الوحيد كان شمعةً محتضرةً إلى جوار فراشه.
ارتجف تيريون حين رأى جسمًا يتحرك نحوه. ما من أحد من الخدم هنا في (حصن ميجور) لم تشتت الملكة ذمته، وهو ما يعني أن أي زائر قد يكون واحدًا آخر من ماجوري سرسي، أرسلته لينهي ما بدأه السير ماندون.
ثم خطا الرجل إلى ضوء الشمعة، وألقى نظرةً طويلةً على وجه القزم الممتقع، ثم أطلق ضحكةً مكتومةً وقال: «هل جرحت نفسك وأنت تحلق؟». ارتفعت أصابع تيريون إلى الجرح البليغ الذي يمتد من تحت عينه اليسرى إلى فكّه عبر ما تبقى من أنفه، فوجد اللحم الدافئ ما زال مسحوجًا لم يلتئم، وأجاب: «نعم، بموسى كبير مخيف».

كان شعر برون الفاحم مغسولاً ومصفّفاً بحيث ينسحب إلى الوراء بعيداً عن قسّمات وجهه القاسية، وقد انتعل حذاءً طويل الرقبة من الجلد الطري المزركش، وتمنطق بحزام عريض مطعم بشدرات من الفضة، ولبس معطفاً من الحرير الأخضر الفاتح، وعلى شترته الضيقة المصنوعة من الصوف الرمادي الداكن طُرزَت بشكلٍ مائلٍ سلسلةٌ متّقدةٌ بخيطٍ أخضر بارق.

سأله تيريون بلهجة أمرة: «أين كنت؟ لقد طلبتك... لا بُدَّ أن هذا كان منذ أسبوعين».

أجاب المرتزق: «منذ أربعة أيام بالأحرى، وقد جئت مرّتين بالفعل فوجدتك مستغرّقاً في النّوم كأنك ميت».

- «لم أمت، مع أن أختي الجميلة حاولت». ربما لم يكن يجدرُ به أن يقول هذا بصوتٍ مسموع، لكن تيريون تعدّى مرحلة الاهتمام، ويعرف في أعماقه أن سرسي كانت وراء محاولة السير ماندون قتله. «ما هذا الشّيء القبيح على صدرك؟».

قال برون بابتسامةٍ واسعة: «رمز الفُروسيّة الخاص بي، سلسلة مشتعلة بالأخضر على خلفيّةٍ من الرّمادي الدُّخاني. إنني الآن السير برون فارس (النّهر الأسود) بأمر من السيّد والدك أيها العفريت، فلا تنسَ هذا».

وضع تيريون يديه على حشّية الفراش المتخمة بالريش، ودفع نفسه إلى الوراء بضع بوصات لئسند ظهره إلى الوسائد، وقال: «أنا من وعدك بالفُروسيّة، هل تذكّر؟». لم ترّفقه عبارة «بأمر من السيّد والدك» هذه على الإطلاق. للورد تايوين لم يُبدّد وقتاً، وكان نقله ابنه من (برج اليد) والاستحواذ عليه لنفسه رسالةً يستطيع أن يقرأها الجميع، وبرون رسالة أخرى. قال بصوتٍ مغمم بالمرارة: «أفقد نصف أنفي وتحصل أنت على الفُروسيّة. على الآلهة أن تكفّر عن أشياء كثيرة. هل نصّبك أبي بنفسه؟».

- «لا. من نجوا منا من القتال عند بُرجي الأوناش مرّحهم السّبتون الأعلى بالزّيوت المقدّسة ونصّبهم رجال الحرس الملكي. استغرق الأمر نصف اليوم اللعين في وجود ثلاثة فقط من الشّيوف البيضاء للقيام بالتكريم».

- «أعرف أن السير ماندون مات في المعركة». دفعه يود في النّهر قبل طرفه عين من إغمد الوغد الخائن سيفه في قلبي. «من فقدنا سواه؟».

أجاب برون: «كلب الصّيد. لم يمت لكنه رحل. ذوو المعاطف الذهبيّة يقولون إن الجبن أصابه، فقدت أنت غارةً بدلاً منه».

لم تكن فكرةً سيّدةً. أحسّ تيريون بنسيج ندوبه يتمدّد بشدّة حين قطّب وجهه، وأشار لبرون بالجلوس قائلاً: «أختي تحسبني حبةً فطر، تُبقيني في الظلام وتطعمني الخراء. يود صبيّ طيّب، لكن في لسانه عُقدة بحجم

(كاسترلي روك)، ولستُ أثقُ بِنِصفِ ما يُخبرني به. أرسلته لإحضار السير
چاسلين، فعادَ وقال لي إنه مات».

قال برون وهو يجلس: «هو وألف غيره».

سأله تيريون شاعرًا بغثيانٍ شديد: «كيف؟».

- «خلال المعركة. ما سمعته أن أختك أرسلت الإخوة كِتلبلاك لإعادة
الملك إلى (القلعة الحمراء)، ولَمَّا رآه ذوو المعاطف الذهبية يُعادر، قرَّر
نِصفهم أن يُعادر معه، فاعترضَ ذو القبضة الحديد طريقهم وحاولَ أن يأمرهم
بالعودة إلى الأسوار. يقولون إن بايووتر عَنَّفهم بمنتهى القوَّة وكان على وشك
إقناعهم بالتراجُع، عندما غرسَ أحدهم سهمًا في عُنقه. لم يبدُ مخيفًا عندئذٍ،
فجُرَّوه من فوق حصانه وقتلوه».

دين آخر في عُنق سرسي. «ابن أختي، چوفري، هل أحاق به خطر ما؟».

- «أكثر من قلائل وأقل من الأكثرية».

- «هل طاله أذى؟ أصابه جرح؟ أفسدَ تصفيفة شعره أو خبطَ إصبع قدمه
الصَّغير وكسرَ ظفره؟».

- «ليس على حدِّ علمي».

- «لقد حدَّرتُ سرسي مما سيحدث. من يقود ذوي المعاطف الذهبية
الآن؟».

- «السيّد والدك أعطاهم لأحد رجاله الغربيين، فارس ما اسمه أدام
ماربراند».

في معظم الأحوال كان ذوو المعاطف الذهبية ليستاءوا من وجود رجل
أجنبيٍّ على رأسهم، لكن السير أدام ماربراند اختيار حصيف حقًا، فهو -مثل
چايمي- من هذا النوع من الرِّجال الذين يرغب الآخرون في أتباعهم. فقدتُ
حرس المدينة إذن. قال: «أرسلتُ بود يبحث عن شاجا، لكن الحظَّ لم
يُحالفه».

- «ما زالَ رجالُ الغربان الحجريَّة في (غابة الملوك)، فيبدو أن المكان
استهوى شاجا كثيرًا، أمَّا تيميت فعادَ بالرِّجال المحروقين إلى ديارهم ومعهم
كلُّ الغنائم التي استولوا عليها من معسكر ستانيس بعد انتهاء القتال، وبالنسبة
لتشلا فقد ظهرت مع دستةٍ من الأذان السوداء عند (بوابة النَّهر) ذات صباح،

لكن رجال أبيك ذوي المعاطف الحمراء طردوهم بينما رماهم أهل المدينة بروث البهائم وهلّلوها».

يا لنكران الجميل. لقد مات رجال الأذان السوداء من أجلهم. بينما استلقى تيريون مخدّرًا يحلم، كان لحمه ودمه ينتزعون مخالفه واحدًا واحدًا. «أريدك أن تذهب إلى أختي. ابن سرسي الغالي خرج من المعركة دون أن يُصيبه خدش، فلم تُعدّ بها حاجة إلى رهينة. لقد أقسمت أن تُطلق سراح أليايا بمجرد...».

- «أطلقت سراحها بالفعل، منذ ثمانية أو تسعة أيام، بعد الجلد».

دفع تيريون نفسه إلى أعلى متجاهلاً طعنة الألم المفاجئة في كتفه، ورَدَد: «الجلد؟».

- «قيدوها إلى قائم في السّاحة وجلدوها بالسّيّاط، ثم رَجّوها من البوّابة وهي عارية دامية».

كانت تتعلّم القراءة. بدا الخاطر سخيفًا لتيريون، وأحسّ بشدّة النّدبة عبر وجهه، وبرأسه يكاد ينفجر من فرط الغيظ. أي نعم أليايا عاهرة، لكنه نادرًا ما التقى فتاة أكثر منها عذوبة أو شجاعة أو براءة. إنه لم يمسّها قطّ، إذ لم تكن أكثر من ستار لإخفاء شي، لكن رُعونته أنسته أن يُفكّر في الثّمن الذي سيُكلّفها هذا الدّور إياه. قال متذكّرًا بصوت عالٍ وقد شعرَ بأنه على وشك التّقّيؤ: «وعدت أختي بأني سأعاملُ تو من كما تُعامل أليايا. كيف يُمكنني أن أجد صبيًا في الثّامنة؟». لكن إذا لم أفعل، فسرسى الرّابعة.

قال برون بجفاف: «تومن لم يُعدّ تحت يدك. حالما علمت الملكة أن ذا القبضة الحديد مات، أرسلت الإخوة كتلبلاك لاستعادة الصّبي، ولا أحد في (روزبي) وآتته الشّجاعة لأن يقول لهم لا».

ضربةٌ أخرى، وإن كان عليه أن يعترف بأنها لا تخلو من راحة، فهو مولع بتومن. قال مذكّرًا برون بضيقٍ متزايد: «كان من المفترض أن يكون الإخوة كتلبلاك رجالنا».

- «كانوا كذلك، ما دمّت قادرًا على مُضاعفة ما تُقدّمهم الملكة إياه، لكنها رفعت سعرهم. أوزني وأوزفريد أصبحا فارسين بعد المعركة، مثلي

تمامًا، والآلهة وحدها تعلم كيف استحقًا هذا، فلم يرهما أحد يُقاتلان على الإطلاق».

رجالي المأجورون يخونوني، وأصدقائي يُجلدون ويهانون، وأنا راقِدٌ هنا أتعفنُ. حسبتُ أنني فزتُ بالمعركة، أهذا هو مذاق النصر إذن؟ «أصحيحُ أن شبح رنلي دحرَ جيش ستانيس؟».

أجابَ برون بابتسامةٍ رفيعة: «كلُّ ما رأيناه من بُرجي الأوناش كان راياتٍ في الوحل ورجالًا يُلقون حرابهم ليَهْرُوا، لكن هناك مئات في محال الأكل والمواخير يقولون إنهم رأوا اللورد رنلي يقتل هذا أو ذاك. معظم الجنود في جيش ستانيس كانوا يتبعون رنلي في البداية، وقد ارتدوا إليه مباشرةً بمجرد أن رأوه في تلك الدرع الخضراء اللامعة».

بعد كل هذا التخطيط، بعد الغارة وجسر السفن، بعد أن شقَّ وجهه إلى نصفين، يأفل نجم تيريون في ظلِّ رجل ميت. «كيف هربَ ستانيس؟».

- «رجال الاليسينثيون أبقوا قوادسهم في الخليج وراء سلسلتك، وحين انقلبت المعركة رسوا على الساحل وأخذوا أكبر عددٍ ممكن. قُرب النهاية كان الرِّجال يُقتلون بعضهم بعضًا ليصعدوا إلى السفن».

- «وماذا عن روب ستارك؟ ماذا يفعل؟».

- «بعض ذئابه يشقون طريقهم إلى (وادي الغسق) حرقًا. أبوك أرسلَ اللورد المسمَّى تارلي ليتعامل معهم. أفكرُ في الانضمام إليه. يُقال إنه جُندي بارع، وسخي في توزيع الغنائم».

فكرة أن يخسر برون كانت القسَّة الأخيرة، فقال بصرامة: «لا. إن مكانك هنا. أنت قائد حرس اليد».

ذكَرَه برون بحدَّة: «أنت لست اليد، بل أبوك، وهو لديه حرسه الملعونون».

- «ماذا حدث للرجال الذين استأجرتهم لي؟».

- «بعضهم ماتَ عند بُرجي الأوناش، وعمُّك هذا، السير كيثان، نقدَ بقيتينا أجرهم وطرَدنا».

قال تيريون بنبرةٍ لاذعة: «كرم بالغ منه. أعني هذا أنك فقدت جوعك للذهب؟».

- «مستحيل».

- «عظيم، لأنني ما زلتُ في حاجةٍ إليك. ماذا تعرف عن السير ماندون مور؟».

قال برون ضاحكًا: «أعرفُ أنه غرق».

- «عليّ له دين عظيم، لكن كيف أسدّده؟»، ومَسَّ تيريون وجهه وتحسَّس النَّدْبَةَ مواصلاً: «لستُ أَعْرِفُ إِلَّا أَقْلَ القليل عن الرَّجُل في الحقيقة».

- «كانت عيناه ميتين كَأَعْيُنِ السَّمَكِ ويرتدي معطفًا أبيض. ماذا تُريدُ أن تعرف غير هذا؟».

- «كلُّ شيءٍ، كبداية». إنه يُريدُ دليلًا يُثبِتُ أن السير ماندون كان رجل سرسي، لكنه لا يجرؤُ على البوح بهذا. في (القلعة الحمراء) عليك أن تَبْدُلُ غاية جهدك لتحفظ لسانك، ففي داخل الجُدران جردان تنصَّت، وثُمَّ طيور صغيرة تُزَقزِقُ أكثر من اللازم، وعناكب. قال مزيحًا الأغطية بصعوبة: «ساعِدني على التَّهْوِض. حان الوقت لأن أزور أبي، ولأن أظهِر نفسي للعيان ثانية كما كان واجِبًا عليّ منذ مُدَّة».

قال برون بتهمك: «منظر جميل!».

- «وهل يُفسدُ أنف مجدوع وجهًا كوجهي؟ لكن بمناسبة الجَمال، هل وصلتَ مارچري تايرل إلى المدينة بعدُ؟».

- «لا، لكنها في الطَّرِيق، وأهل المدينة مَتِّيمون بها بالفعل. منذ فترةٍ وآل تايرل يشحنون الطعام من (هايجاردن) ويورِّعونه باسمها، مئات العربات يوميًا. آلاف من رجال تايرل يتبحَّثون هنا وهناك وعلى سُتراتهم الورد الذهبي الصَّغير، ولا أحد منهم يدفع أيَّ مالٍ في نيذه. الزَّوجات والأرامل والعاهرات، النسوة كلهن يتنازلن عن عِفَّتِهِنَّ لأَيِّ صبيٍّ على وجهه شيء من الرَّغْبِ وعلى ثديه وردة ذهبية».

يَبْصُقون عليّ ويشترون المشاريب لرجال تايرل. بتؤدَّة نزلَ تيريون من السَّرير إلى الأرض، فتداعت ساقاه من تحته ودارت العُرْفَةُ من حوله، وأمسك ذراع برون ليمنع نفسه من السُّقوط على رأسه وسط الحصائر. زعقَ شاعرًا بالألم يقضم جسده ككلبٍ بلا أسنان: «بود! بودريك باين! أين أنت

بحقِّ الجحائم السَّبع؟!». إنه يَمُتُّ الضَّعْف، وبخاصَّةٍ ضَعْفه هو، ذلك أنه يُخزيه، والخزي يُشعلُ غضبه. «پود، تعالَ هنا!».

جاء الصَّبيُّ يجري، ولمَّا رأى تيريون واقفًا يقبض على ذراع برون، حملقَ إليهما قائلاً: «سيِّدي، أنت واقف. أهذا... هل... هل تُريد نبيذا؟ نبيذ النَّوم؟ هل أحضرتُ المايستر؟ لقد قال إن عليك البقاء... أعني في الفراش». - «بقيتُ في الفراش طويلاً جدًّا. اجلب لي ثيابًا نظيفةً». - «ثيابًا؟».

لن يستوعب تيريون أبدًا كيف يُمكن أن يكون الصَّبيُّ صافي الذَّهن واسع الحيلة في المعركة، بينما تجده مرتبكًا دائمًا في كلِّ الأوقات الأخرى. «ملابس، سترَّةٌ وصُدرةٌ وسراويلٌ وجوربًا، لي، لأرتديها، كي أخرج من هذه الرِّزْزانة الحقيرة».

تطلَّب الأمر ثلاثتهم لكي يضعوا عليه الثَّياب. على الرغم من بشاعة وجهه، فأسوأ جراحه الذي في المفصل بين كتفه وذراعه، حيث غرسَ سهْمٌ معدنٌ قميصه في إبطه. ما زال القيح والدم ينزان من اللِّحم المشوَّه كلما غيَّر المايستر فرنكن ضَمادته، وأيما حركة تجعل الألم الممض يطعنه طعنًا. في النَّهاية استقرَّ تيريون على سراويلٍ ومعطف نوم كبير الحجم تهدل من كتفيه، وأنعله برون حذاءه فيما ذهب پود يبحث عن عصا يتعكز عليها. احتسى كأسًا من نبيذ النَّوم ليُقوي نفسه، فوجده محلَّى بالعسل، وفيه ما يكفي من الخشخاش لجعل أوجاع الجروح محتملةً بعض الوقت.

ومع ذلك كان رأسه يدور بالفعل عندما أدارَ المزلاج، وأصاب نزول الدَّرجات الحجرية الملتفة ساقيه بالرَّجفة، وقد تحرَّك متحكِّمًا على عصا بيدٍ وعلى كتف پود بالثَّانية. كانت إحدى الخادِمات صاعدةً وهم ينزلون، وحدقت إليهم بعينين بيضاوين متسعيتين كأنها رأت شبحًا، ففكر تيريون: القزم قام من الموت، وانظري، إنه أقبح الآن أيضًا، اركضي وأخبري أصدقاءك. يُعدُّ (حصن ميجور) أقوى مكان في (القلعة الحمراء) كلها، قلعة داخل القلعة، يُطوِّقه خندق عميق جاف ارتصَّت فيه الخوازيق، وكان الجسر المتحرِّك مرفوعًا حين بلغوا الباب، وقد وقف السير مرين ترانت أمامه في درعه السَّاحبة ومعطفه الأبيض، فقال تيريون أمرًا: «أنزل الجسر».

رَدَّ السير مرين الذي لطالما كان صنيعه سرسي: «أوامر الملكة أن نرفع الجسر ليلاً».

- «الملكة نائمة، ولديّ شأن مع أبي».

ثمّة سحر في اسم اللورد تايوين لانستر. هكذا أعطى السير مرين ترانت الأمر مدمدماً بسخط، ونزل الجسر المتحرك. كان واحد آخر من فرسان الحرس الملكي يقف على النّاحية الثّانية من الخندق، وقد ابتسم السير أوزموند كتبلاك عندما رأى تيريون يقترب بخطواتٍ متمايلة، وقال: «تَشعُر بأنك أقوى يا سيّدي؟».

- «كثيراً. متى المعركة الثّالية؟ لا أطيع الانتظار».

لكن حين بلغوا السّلالم الملتقّة المفضية إلى السّاحة الخارجيّة، لم يستطع تيريون إلا أن يرمّقها بارتياح معترفاً لنفسه: لن أقوى على الصّعود وحدي أبداً، ثم إنه ابتلع كرامته وطلب من برون أن يحمله وهو يأمل -رغم قنوطه- أن أحداً لن يراه في هذه السّاعة ويبتسم، أن أحداً لن يحكي عن القزم المحمول على السّلالم كالرّضع.

ازدحمت السّاحة الخارجيّة بعشراتٍ من الخيام والشّرادقات، فشرح بودريك باين وهم يشقّون طريقهم عبر متاهة الحرير والقنب: «رجال تايرل، واللورد روان واللورد ردواين أيضاً. لم تكن هناك مساحة للجميع، أعني في القلعة، فاستأجر بعضهم عُرفاً، عُرفاً في المدينة، في الخانات وغيرها. إنهم هنا من أجل الرّفاف، زفاف الملك، الملك چوفري. هل ستكون قوياً كفاية للحضور يا سيّدي؟».

- «لن يستطيع قطع مفترس من بنات عرس أن يمنعني عنه». على الأقل يُمكنك أن تقول إن حفلات الرّفاف تتميّز عن المعارك بضآلة احتمال أن يُحاول أحدهم أن يقطع أنفك.

كانت الأضواء لا تزال مشتعلّة بخفوتٍ وراء نوافذ (بُرج اليد) المغلقة، وارتدى الرّجلان الواقفان عند الباب معطفين قرمزيين وخوذتين تُكلّلهما ريشة الأسد، الرّي المميّز لحرس أهل بيت أبيه. يعرف تيريون الاثنین، وقد سمحا له بالدخول فور رؤيته... وإن لاحظ أن كليهما لم يحتمل النّظر إلى وجهه أكثر من لحظاتٍ معدودة.

في الدّاخل لاقوا السير أدام ماربراند نازلاً السّلام الدّائريّة، مرتدياً ثياب
ضَبَّاط حَرَس المدينة، واقِي الصّدر الأسود المزخرف والمعطف المصنوع
من فُماش الذهب، وخاطبَ الرّجل تيريون قائلاً: «سيّدي، تُسعدني للغاية
رؤيتك على قديمك. لقد سمعتُ...».

- «... شائعات عن قبر صغير يُحفر؟ وأنا أيضًا. لهذا بدا من الأفضل في
هذه الظروف أن أنهض من رقدتي. سمعتُ أنك قائد حرس المدينة الآن،
فهل أهنتك أم أعزّيك؟».

أجاب السير أدام مبتسمًا: «هذا وذاك للأسف. الموت والتهرّب تركا لي
نحو أربعة آلاف وأربعمئة رجل، ولا أحد غير الآلهة والإصبع الصّغير يعلم
كيف يُمكننا الاستمرار في دفع أجور كلِّ هذا العدد، لكن أختك منعتني من
تسريح أحد».

أمازلتِ قلقَةً يا سرسي؟ لقد انفضّت المعركة، وذوو المعاطف الدّهبيّة لا
يُمكنهم مساعدتك الآن. «هل جنّت من عند أبي؟».

- «نعم. أخشى أنني لم أتركه في مزاج طيّب. اللورد تايوين يرى أن أربعة
آلاف وأربعمئة رجل عدد أكثر من كافٍ للعثور على مُرافق فارسٍ واحد، لكن
تايرك ابن عمّك ما زال مفقودًا».

تايرك هو ابن عمّه الرّاحل تايجت، صبيٌّ في الثّالثة عشرة من العُمُر،
اختفى في أثناء السّغب بعد فترةٍ قصيرةٍ من زواجه بالليدي إرميساند، الرّضيعة
التي يتصادف أنها الوريث الحي الأخير لعائلة هايفورد. وغالبًا أول عروس
في تاريخ (الممالك السّبع) تترمّل قبل أن تُفطم. «أنا أيضًا لم أستطع العثور
عليه».

قال برون بلباقته المعهودة: «الدّود يقتات بجثّته. ذو القبضة الحديد بحث
عنه، والخصيُّ وعد بمكافأةٍ سخيةٍ، ولم يُحالفهما الحظُّ أكثر منا. انس الأمر
أيها الفارس».

رمقَ السير أدام المرتزق بازدراء، وقال: «اللورد تايوين شديد العناد عندما
يتعلّق الأمر بدمه، وقد عزم على استعادة الصّبي حيًّا أو ميتًا، وأنا عازمٌ على
طاعته»، وعادَ يَنْظُر إلى تيريون قائلاً: «ستجد أباك في عُرفته السّمسيّة».
عُرفتِي السّمسيّة. «أعتقدُ أنني أعرفُ مكانها».

مزيد من الدَّرجات انتظرَه في الطَّريق إلى أعلى، لكنه صعدَ هذه المرَّة معتمداً على قوَّته هو، مكتفياً بإسناد يده إلى كتف بود. فتح له برون الباب، وفي الدَّاخِل كان اللورد تايوين لانستر جالساً أسفل النَّافذة، يَكْتُب على ضوء مصباح زيت، ولَمَّا سمعَ المزلاج يدور رفعَ عينيه قائلاً: «تيريون»، وبهدوءٍ وضعَ ريشة الكتابة جانباً.

قال تيريون: «يَسْرُنِي أنك ما زلتِ تتذكَّرني يا سيِّدي»، وتخلَّى عن بود واضعاً ثقله على العصا، وتقدَّم بخطى متمائلةٍ وقد أدركَ في الحال أن شيئاً ما على غير ما يُرام.

قال اللورد تايوين: «سير برون، بودريك، من الأفضل أن تنتظرا في الخارج حتى ننتهي».

رنا برون إلى يد الملك بنظرةٍ هي أدنى إلى الوقاحة، وعلى الرغم من هذا انحنى وانسحبَ من العُرْفَة وپود في أعقابهِ، ثم انغلقَ الباب الثَّقيل وراءَهُما، وصارَ تيريون لانستر بمُفرده مع أبيه. حتى مع انغلاق النَّوافذ أمام اللَّيل في الخارج، كان البرد في المكان محسوساً. تُرى ما الأكاذيب التي كانت سرسي تُطعمه إياها؟

على الرغم من سنِّه، يبدو سيِّد (كاسترلي روك) نحيلاً كرجل أصغر عشرين عاماً، لا تنقصُ ملامحه الوسامة وإن شوَّبتها القسوة، وتُغَطِّي وجنتيه لحية شقراء كثَّة مؤطرةٌ وجهه الصَّارم ورأسه الأصلع وفمه القوي، وقد أحاطت بعنقه سلسلة من الأيدي الذهبية، تُطبق أصابع كل منها على معصم التَّالية.

قال تيريون: «سلسلة أنيقة». مع أنها بدت أفضل عليّ.
ردَّ اللورد تايوين متجاهلاً المزحة: «الأفضل أن تجلس. أمِن الحكمة أن تُغادر فراش المرض؟».

- «سئمتُ فراش المرض». يعلم تيريون كم يحتقر أبوه الضَّعيف، على أنه قعدَ على أقرب كرسي قائلاً: «مسكنك رغد حقاً. هل تُصدِّق أن أحدهم نقلني إلى حُجيرةٍ صغيرةٍ مظلمةٍ في (ميجور) وأنا أحتضر؟».

- «(القلعة الحمراء) مزدحمة بضيوف الزَّفاف. سنجد لك مسكناً أنسب فور أن يرحلوا».

- «هذا المسكن تحديداً كان يروقي كثيراً. هل حددت موعداً للزفاف العظيم؟».

- «چوفري ومارچري سيتزوّجان في أول أيام العام الجديد، الذي يُوافق أول أيام القرن الجديد. سيُعلن هذا القرآن فجر حقبة جديدة».

حقبة جديدة لعائلة لانستر. «أوه، خسارة، أخشى أن عندي مشاغل أخرى يومها».

- «هل جئت هنا لمجرد أن تشكو من عُرفة نومك وتُلقي الدُعابات السخيفة؟ إن لديّ رسائل مهمّة عليّ أن أفرغ منها».

- «رسائل مهمّة، بالتأكيد».

- «بعض المعارك يُربح بالسيوف والرّماح، وغيرها بالرّيش والغدبان. أعفني من تأنيبك المستر هذا يا تيريون. لقد زرتك كلما سمح المايستر بالابار عندما بدا أنك ستموت»، وشبّك أبوه أصابعه تحت السلسلة وسأله: «لماذا صرفت بالابار؟».

هزّ تيريون كتفيه مجيئاً: «المايستر فرنكن ليس مصمّماً على إبقائي فاقد الحس».

- «بالابار أتى المدينة ضمن حاشية اللورد ردواين، ويقولون إنه مُعالج موهوب. كان لطفاً من سرسي أن تطلب منه أن يعتني بك. كانت تخشى على حياتك».

تعني أنها كانت تخشى أن أحتفظ بها. «لا شكّ أنها لم تُبارح جانب فراشي مرّة لهذا السبب».

قال اللورد تايوين: «لا تكن وقحاً. سرسي لديها زفاف ملكي تُجهّز له، وأنا أشنّ حرباً، وأنت لم تُعد في خطر منذ أسبوعين على الأقل»، وأمعن النّظر إلى وجه ابنه المشوّه دون أن تطرّف عيناه الخضراوان الشّاحبتان، وتابع: «وإن كان الجرح بشعاً في الحقيقة. قل لي، أيّ جنونٍ استحوذ عليك؟».

- «العدوّ كان على البوّابة حاملاً مدكاً. لو أن چايمي قاد الغارة لوصفته بالبسالة».

- «ما كان چايمي ليتصرّف بحماقة ويخلع خوذته في أثناء المعركة. لقد قتلت الرّجل الذي جرّحك، أليس كذلك؟».

- «أوه، الحقيير ميت بلا شك». وإن كان بودريك پابن هو من قتل السير ماندون، دفعه في النهر لتغرقه درعه الثقيلة. بمرح قال تيريون: «العدو الميت مصدر بهجة إلى الأبد»، رغم أن السير ماندون لم يكن عدوه حقًا، ولم يكن لديه ما يجعله يرغب في موته. كان مجرد مأجور، وأعتقد أني أعرف التي استأجرته. قالت له أن يتأكد من ألا أخرج من المعركة حيًّا. لكن اللورد تاوين لن يُصغي لآتهام كهذا أبدًا في غياب الدليل. «ماذا تفعل هنا في المدينة يا أبي؟ ألا ينبغي أن تكون في مكان ما تُقاتل اللورد ستانيس أو روب ستارك أو غيرهما؟». وخير رحيلك عاجله.

- «إننا نفتقر إلى السفن الكافية لمهاجمة (دراجونستون) إلى أن يأتي اللورد ردواين بأسطوله، لكن لا فرق، فقد غربت شمس ستانيس باراثيون على (النهر الأسود). أمّا ستارك فما زال في الغرب، لكن قوة كبيرة من رجال الصبي الشماليين تزحف على (وادي الغسق) تحت قيادة هلمان تولهارت وروبت جلوفر. أرسلت اللورد تارلي ليواجههما، بينما يسعى السير جريجور على (طريق الملوك) ليقطع عليهما سبيل الانسحاب. هكذا سيقع تولهارت وجلوفر بينهما ومعهما ثلث قوات ستارك».

- «(وادي الغسق)؟». لا شيء هناك يستحق المجازفة، فهل زل الذئب الصغير أخيرًا؟

- «لا تقلق نفسك بهذا. إن وجهك شاحب كالموتى والدم يرتشح من ضماداتك، فقل ما تريد وعد إلى الفراش».

- «ما أريد...». أحس بحلقه مشدودًا جافًا. ما الذي يُريده؟ أكثر مما يُمكنك أن تُعطيني أبدًا يا أبي. «بود يقول لي إن الإصبع الصغير نُصب سيّدًا على (هارنهال)».

- «لقب فارغ ما دام رويس بولتون مسيطرًا على القلعة لصالح روب ستارك، لكن اللورد بايلش كان تواقًا إلى هذا التكريم. لقد خدمنا بإخلاص في مسألة مصاهرة تايرل، واللانستر يُسدّد ديونه».

كانت مصاهرة عائلة تايرل فكرة تيريون في الواقع، لكن محاولة الاحتجاج الآن ستجعله يبدو جلفًا لا أكثر. قال محذرًا: «ربما لا يكون اللقب بالفراغ

الذي تحسبه. الإصبع الصَّغِير لا يفعل شيئًا دون سببٍ قوي، لكن ليكن هذا كما يكون. أعتقدُ أنك قُلْتَ شيئًا عن تسديد الدُّيون». - «وأنت تُريد مكافآتكَ، أليس كذلك؟ ليكن. ماذا تُريد مني؟ أرضًا أم قلعةً أم منصبًا ما؟».

- «قليل من الامتنان سيكون بدايةً طيِّبةً».

حدجَه اللورد تاويين بعينين لا تَطْرُفان، وقال: «لا يَتَطَلَّبُ التَّصْفِيحُ غير الممثلين والقروء، كما كان إيرس يفعل. لقد نَفَذت ما أَمِرت به، وأنا واثق بأنك لم تَدْخِر طاقَةً. لا أحد يُنْكَرِ الدَّور الذي لعبته».

لا بُدَّ أن ما تَبَقِيَ من منخَرِيّ تيريون أَسْعَ حنْقًا وقد شعَرَ بأنفاسه تضيق وهو يقول: «الدَّور الذي لعبته؟ يبدو لي أنني أنقذتُ مدينتك اللعينة».

- «أغلب النَّاس يرى أن هجومي على مؤخِّرة جيش ستانيس هو ما قلب ميزان المعركة. اللوردات تايرل وروان وردواين وتارلي قاتلوا بنُبُل كذلك، وبلغني أن أختك سرسي هي من كلَّفت الهايرومانسرات⁽¹⁾ بتصنيع النَّار الشعواء⁽²⁾ التي دَمَّرت أسطول باراثيون».

لم يَسْتَطِع تيريون أن يمنع المرارة من التسرُّب إلى صوته وهو يقول: «بينما كل ما فعلته هو تشذيب شعر أنفي، أليس كذلك؟».

- «سلسلتك كانت ضربةً بارعةً وضروريَّةً لانتصارنا. أهذا ما تُريد أن تسمعه؟ قيل لي إن الفضل يرجع إليك في مسألة التحالف الدورني أيضًا. قد يَسُرُّكَ أن تعرف أن مارسلا وصلت إلى (صنسيبير) بأمان. السير أريس أوكهارت كتبَ أنها مولعةٌ بالأميرة أريان ومفتونةٌ بالأمير تريستان. لا يروقني أن أعطي عائلة مارتل رهينةً، لكن لا مناص على ما أظن».

قال تيريون: «ستكون لدينا رهينة بدورنا. جزء من الصَّفقة كان مقعدًا في المجلس، وما لم يجلب الأمير دوران معه جيشًا حين يأتي للقعود عليه، فسيكون تحت أيدينا».

(1) الهايرومانسر كلمة يونانية تعني (كاهن النَّار)، وكانت تُستخدم قديمًا للإشارة إلى كلِّ من يحترف فنَّ التَّعامل مع النَّار لمختلف الأغراض. (المترجم).

(2) تُعرَف النَّار الشعواء في عالم الواقع باسم نار الإغريق، وهي سائل حارق سريع الاشتعال تكرر استخدامه في المعارك البحريَّة قديمًا، ولا أحد يعرف مكوناته على وجه الدقة. (المترجم).

رَدَّ اللورد تاويون: «ليت مقعد المجلس فقط كان ما سيأتي مارتل من أجله. لقد وعدته بالانتقام أيضًا». - «وعدته بالعدل».

- «سَمَّه ما تشاء. في النهاية هي مسألة دم». قال تيريون: «بضاعة لا تُعاني كسادًا فيها بالتأكيد، أليس كذلك؟ لقد خضتُ في بُحيرات منه خلال المعركة»، ثم إنه لم يرَ سببًا يمنعه من النَّفاذ إلى صُلب الأمر، فأردف: «أم أنك صرت مغرمًا بجريجور كليجايين ولا تتحمَّل فراقه؟». - «للسير جريجور فوائده، كما كانت لأخيه. كل لورد يحتاج إلى وحش ما بين الحين والآخر... وهو الدَّرس الذي يبدو من وجود السير برون ورجال القبائل هؤلاء أنك تعلمته».

فكر تيريون في عين تيميت المحروقة، وشاجا حاملًا فأسه، وتشلا محيطَّة عُنقها بقلادة الأذان المجفَّفة، وفي برون، برون أكثر منهم جميعًا، وقال لأبيه مذكرًا: «الغابات ملأى بالوحوش، والأرزقة كذلك». - «صحيح. لعلَّ هناك كلابًا أخرى يُمكنها الصَّيد. سأفكِّر في الأمر. إذا لم يكن هناك شيء آخر...».

- «لديك رسائل مهمَّة، نعم». نهَضَ تيريون على ساقين مزعزعتين، وأغلقَ عينيه هُنيهةً وقد جرفته موجة من الدُّوار، ثم أخذَ خطوةً مرتجفةً نحو الباب. فيما بعد سيُجيل عقله في الموقف ويُفكِّر أنه كان يجب أن يأخذ خطوةً ثانيةً، ثم ثالثةً، لكنه التفَتَ بدلًا من ذلك إلى أبيه، وقال: «تسألني عمَّا أريده؟ سأخبرك بما أريده. أريدُ ما لي حقًّا. أريدُ (كاسترلي روك)». زَمَّ أبوه فمه قائلاً: «حقَّ أخيك بالميلاد؟».

- «فُرسان الحرس الملكي محرَّم عليهم الزَّواج والإنجاب وامتلاك الأراضي، وأنت تعلم هذا مثلي تمامًا. چايمي تنازل عن حقِّه في (كاسترلي روك) يوم ارتدى المعطف الأبيض، لكنك لم تعترف بهذا قط. آنَّ الأوان إذن. أريدك أن تقف على الملاء وتُعلنَ أنني ابنك ووريثك الشرعي».

سدَّ اللورد تاويون إليه نظرات عينيه الخضراوين المرقتين بشذرات الذهب، تلكما العينين المنيرتين الخاليتين من الرِّحمة، وقال بنبرة باردة ميته: «(كاسترلي روك)... مُحال».

وعلقت الكلمة بينهما هائلة قاطعة مسمومة.

كنتُ أعرفُ الإجابة من قبل أن أسأل. ثمانية عشر عامًا منذ انضمَّ چایمی إلى الحرس الملكي ولم أفتح الموضوع مرةً. لا بدُّ أني كنتُ أعرفُ، لا بدُّ أني كنتُ أعرفُ طيلة الوقت. جعلَ نفسه يسأل: «لماذا؟»، رغم أنه كان يعي أنه سيندم على السُّؤال.

- «أتسأل؟ أنت يا مَنْ قتلت أمَّك لتخرُجَ إلى العالم؟ إنك مخلوق ضئيل قبيح، مخادع وعاق وحقود، مليء بالحسد والشهوة والحيل الوضيعة. قوانين البشر تُعطيك الحقَّ في حمل اسمي وارتداء ألواني، بما أني لا أستطيعُ أن أثبت أنك لست ابني، ولتعلِّمني الآلهة التواضع حكمت عليَّ بأن أشاهدك تمشي متميلاً هنا وهناك معلقاً الليث الهصور الذي كان رمز أبي وأبيه من قبله، لكن لا الآلهة ولا البشر ستُجبرني على أن أسمح لك بتحويل (كاسترلي روك) إلى ماخورك الخاص».

- «ماخوري؟». في مطلع الفجر أدركَ تيريون على حين غرة سبب الغصة التي في حلقه، فقال ضاغطاً أسنانه: «سرسي أخبرتك بأمر الأيايا».

- «أهذا اسمها؟ أتعرفُ بأني لا أذكرُ أسماء عاهراتك كلهن. مَنْ كانت التي تزوجتها في صباحك؟».

قال باصفاً الإجابة بتحدُّ: «تايشا».

- «وتابعة المعسكرات على (الفرع الأخضر)؟».

سأل غير راغب في مجرد ذكر اسم شي في حضور أبيه: «ولماذا تهتمُّ؟».

- «لست مهتمةً، ولا يعنيني إن عشن أو متن».

- «أنت من أمر بجلد يايا». لم يكن هذا سؤالاً.

قال اللورد تايوين بصوتٍ أبرد من الجليد: «أختك أخبرتني بتهديدك حفيدي، أم أنها كذبت؟».

أجاب تيريون دون أن يُنكر: «نعم، هدَّدت، لكن لأحافظ على سلامة الأيايا، كي لا يُسيء الإخوة كتلبلاك معاملتها».

- «لإنقاذ عفة عاهرة تُهدِّد عائلتك؟ أهلك؟ هكذا إذن؟».

- «أنت من علّمني أن التهديد القوي أخطر من توجيه الضربة، مع أن چوفري أغراني بضره مئات المرّات. إذا كنت تواقاً لجلد الناس بالسيّاط

لهذه الدرجة، فابدأ به. لكن تومن... لماذا أؤدي تومن؟ إنه صبي مطيع، ومن دمي».

قال اللورد تايوين: «كما كانت أمك»، ونهض فجأة ليرتفع فوق ابنه القزم، وتابع: «ارجع إلى فراشك يا تيريون ولا تكلمني ثانية عن حقك في (كاسترلي روك). سوف تحصل على مكافأتك، لكنها ستكون مكافأة أفررها مناسبة لخدمتك ومقامك. وثق بأن هذه هي آخر مرة أسمح لك بأن تجلب العار لعائلة لانستر. من الآن فصاعدًا لا علاقة لك بالعاهرات، ومن أجدها في سريرك بعد ذلك سأشنعها».



دافوس

راقب الشراع يدنو فترةً طويلةً محاولاً أن يُقرَّر إن كان يُريد أن يعيش أم يموت.

كان يعرف أن ثاني الخيارين أسهل، فما عليه إلا أن يزحف إلى داخل كهفه ويترك السفينة تمرّ وسيأتيه الموت. منذ أيام والحُمى تحرقه حرقاً، تُحيل برازه إلى سائلٍ بنيّ وتجعله يرتعد في نومه المضطرب، فطلع عليه كل صباح وهو أضعف وأضعف، حتى إنه اعتاد أن يُرَدِّد لنفسه: لن يطول الوقت كثيراً.

إذا لم تقتله الحُمى، فالعطش فاعلٌ حتمًا، لَمَّا كانت المياه العذبة شحيحةً للغاية هنا، مصدرها الوحيد المطر الذي ينزل بغير انتظام، فيتجمّع منه النّزر اليسير في التّجاويف بين الصُّخور، لكن قبل ثلاثة أيام فقط -أم أنها أربعة؟ من العسير أن يُدرك المرء تعاقب الليل والنّهار على هذه الصّخرة- كانت البرك الصّغيرة قد جفّت عن آخرها كالعظام القديمة، وشارفَ منظر الخليج المتموّج بالأخضر والرّمادي من حوله على أن يفوق قدرته على الاحتمال. كان يعلم أن النّهاية ستأتي سريعًا حالما بدأ يشرب ماء البحر، وقد أوشك على ابتلاع أول شربةٍ منه بالفعل من شدّة ظمئه، عندما أنقذته زوبعة مباحة. لحظتها كان في غاية الوهن، لدرجة أنه بذلَ آخر ما لديه من طاقة ليستلقي في المطر بعينين مغلقتين وفم مفتوح، وترك الماء يُبلّل شفّتيه المشققتين ولسانه المتورّم، وإن شعرَ بأنه أقوى بعدها، وعادت برك وشقوق وصدوع الجزيرة تُترع بالحياة.

على أن ذلك كان منذ ثلاثة أيام -أو ربما أربعة- والآن تبدّد معظم الماء

بالفعل، تبخر قليل منه ورشف هو الباقي، وحين يأتي الغد سيجد نفسه يتدوّق
الوحد ثانية، ويلعق الأحجار الرطبة الباردة في قيعان التجاويف.
وإذا لم يقتله العطش أو الحمى، فالجوع قاتله، بما أن جزيرته هذه ليست
أكثر من صخرة جرداء تخترق سطح مياه (الخليج الأسود) المترامي. أحياناً،
عندما ينخفض المد، كان يعثر على سرطانات صغيرة عالقة على الشاطئ
الحجري الضيق الذي جنح إليه بعد المعركة، يلتقطها فتعض أصابعه بأسنانها
المؤلمة حتى يكسرها على الصخر، ليمتص اللحم من مخالبها والأحشاء من
صدفها.

لكن الشاطئ يختفي كلما ارتفع المد، واضطرب دافوس لأن يتسلق إلى أعلى
الصخرة كي يحمي نفسه من الانجراف إلى الخليج مرةً أخرى. ترتفع القمة
المدببة خمسة عشر قدماً فوق الماء عندما يعلو المد، إلا أن الموج يتكسر
فيئثر البلبل على مسافة أعلى متى اضطرب الخليج، فلم تكن لديه وسيلة لأن
يبقى جافاً حتى في داخل كهفه، الذي لا يتعدى فراغاً محدوداً أسفل بروز في
الصخر. لا ينبت شيء هنا إلا الأشنة، وتتجنب طيور البحر نفسها المكان،
وحتى عندما يحط عدد من النوارس على القمة ويحاول دافوس الإمساك
بأحدها، فإنها تُسارع بالتخليق دائماً قبل أن يقترب، ولما جرب أن يقذفها
بالحجارة وجد أنه أضعف من أن يوجه رميةً قويةً، فإذا أصاب هدفه تكتفي
النوارس بالصراخ فيه بانزعاج قبل أن تثب في الهواء مبتعدةً.

ثمّة صخور أخرى يُبصرها من مأواه، قمم حجرية بعيدة أعلى من قمته،
يرتفع أطولها فوق الماء أربعين قدماً على الأقل حسبما خمن، لكن من
الصعب أن يتأكد من هذه المسافة. كان سرب من النوارس يدور حولها
باستمرار، وفكر دافوس عدّة مرّات أن يعبر إلى هناك ليسطو على أعشاشها،
غير أن المياه باردة جداً، والتيّارات خدّاع، وهو يعرف أن ما تبقى له من قوّة
لن يُمكنه من السباحة، فهي كفيّلة الآن بأن تقتله تماماً كسرب الماء المالح.

ذكّرتّه خبرة السنين بأن الخريف في (البحر الضيق) كثيراً ما يكون مطيراً
عاصفاً، ومع أن النهار ليس بهذا السوء عندما تكون الشمس مشرقةً، فالليل
يزداد برودةً يوماً تلو اليوم، وفي أحيانٍ تهبُّ الرّيح عبر الخليج دافعةً أمامها
الموجات المُرْبِدة، ولا يمضي وقت طويل قبل أن يجد دافوس نفسه غارقاً

يرتجف، فراحت الحمى والقشعريرة تتبادلان الهجوم عليه، ومؤخرًا أصابه سُعال مستمرٌّ يربُّح كيانه رَجًا.

ملجأه الوحيد هو هذا الكهف الصَّغير، وحين ينخفِض المَد تنجرف قطع من الأخشاب الطافية والحطام المتفحَّم إلى الشاطئ، وإن كان لا يملك وسيلة يُصدر بها شرارةً ليشعل نارًا. في مرَّة، من فرط اليأس، حاول أن يحكَّ قطعتين من الخشب الطافي معًا، لكنه كان متعقنًا، ولم ينل دافوس لقاء جهده إلاَّ القروح، ناهيك بأن ثيابه تشبعت تمامًا بالماء، علاوةً على فردة حدائه التي فقدتها في مكانٍ ما في الخليج قبل أن يجرفه التِّيَّار إلى هنا.

الجوع والعطش والعراء رفاقه، معه في كلِّ ساعةٍ من كلِّ يوم، ومع الوقت أصبح يعدُّهم أصدقاءه، وعاجلاً أو آجلاً ستأخذ الشَّفقة واحدًا من أصدقائه هؤلاء فيحزِّره من بؤسه الممض، أو قد يأتي يوم ويُقرَّر ببساطة أن يخوض في الماء ويوجَّه نفسه صوب السَّاحل، الذي يعرف أنه يقع في مكانٍ ما إلى الشَّمال خارج مجال بصره. صحيحٌ أن المسافة أبعد من أن يستطيع أن يسبحها بضغفه هذا، لكن لا يهْم، فلطالما كان دافوس بحارًا، وقدره أن يموت في البحر. الآلهة تنتظرنِي تحت الماء منذ زمن، وأنَّ أوان ذهابي إليها. لكن الآن هناك شرع، ما زال مجرد بقعة في الأفق، لكن حجمه يتعاظم باطراد. سفينة حيث لا يُفترض أن تكون سُفن. كان يعرف أين تقع صخرته بالتَّقريب، فهي إحدى قمم سلسلة من الجبال المغمورة التي ترتفع من قاع (الخليج الأسود) ويسمِّيها البحارة «رماح ملك شعب البحار»، أطولها يبلغ مئة قدم فوق الماء، بينما لا يتعدَّى ارتفاع دسِّته غيرها الخمسين أو الستين قدمًا. يُعلم البحارة أن كلَّ قَمَّة تبرز فوق السَّطح تكمن في مقابلها عشر أخريات تحته منتظرة الضحايا الغافلين، وأنَّ أيَّ رِبَّان يتحلَّى بالعقل يُحافظ على مساره بعيدًا عنها.

راقب دافوس السَّفينة تكبر بعينه الباهتتين المحاطتين بهالتين دامتيتين، وحاول أن يلتقط صوت الرِّيح التي نفخت الشُّراع. إنها قادمة في هذا الاتِّجاه. ما لم تُغيَّر مسارها قريبًا، فستمرُّ على مرمى صيحةٍ من ملاذه الفقير. قد تعني هذه السَّفينة الحياة إذا كان يُريدها، وهو ليس واثقًا بأنه يُريد الحياة.

ساءل نفسه والدُموع تُعشي بصره: ولماذا أعيش؟ لماذا بحق الآلهة؟ لقد

ماتَ أبنائي، دايل وآلارد وماريك ومانوس، وربما دقان أيضاً. كيف لأب أن يحيا بعد موت كل هؤلاء الأبناء الشَّباب الأقوياء؟ كيف أستمِرُّ؟ إنني صدِّقة جوفاء هلك السَّرطان الذي كان في داخلها ولم يترك إلا الفراغ. ألا يعرفون هذا؟

لقد محرت سُفنهم مياه (النَّهر الأسود) رافعةً رايات إله الضَّياء ذات القلب النَّاري، وكان دافوس وسفينته (بنا السَّوداء) في حَظِّ الهجوم الثَّاني، بين دايل على متن (الطَّيف) وآلارد على متن (الليدي ماريا)، بينما اتَّخذ ثالث أبنائه ماريك موقعه كرئيس المجذِّفين على (الثَّورة) في قلب حَظِّ الهجوم الأوَّل، وخدم مانوس نائباً لأبيه على سفينته. تحت أسوار (القلعة الحمراء) اشتبكت قوادس ستانيس باراثيون في القتال مع أسطول الملك الصَّبي چوفري الأصغر، ومضت فترة قصيرة تسيّد خلالها النَّهر طنينُ أوتار الأقواس وارتطام المِدكَّات الحديد بمجاذيف السُّفن وأبدانها، محطمةً هذه وتلك على حدِّ سواء.

ثم إن وحشاً جبَّاراً ما أطلق زئيره المدوِّي، وطوَّقهم اللهب الأخضر من كل صوب، النَّار السَّعواء، بول الپايرومانسرات، الشَّيطان اليشبي. كان مانوس واقفاً عند مرفقه على ظهر (بنا السَّوداء) عندما بدا كأن السَّفينه ارتفعت عن الماء، ثم وجد دافوس نفسه في النَّهر، يضرب بذراعيه وقد اكتسحه النَّيار وأخذ يُدوِّره ويُدوِّره. في اتَّجاه المنبع كان اللهب ينهش السَّماء على ارتفاع خمسين قدماً، ورأى دافوس (بنا السَّوداء) تحترق، و(الثَّورة)، ودسته من السُّفن الأخرى، ورأى رجالاً مُشتعليين يشبون في الماء ليغرقوا، لكنه لم يرَ (الطَّيف) و(الليدي ماريا)، اللتين ابتلعتهما المياه أو تحطمتا أو تواريتا خلف ستار من النَّار السَّعواء، ولم يكن هناك وقت للبحث عنهما، لأنه كان على وشك بلوغ مدخل النَّهر، وعبر هذا المدخل كان آل لانستر قد رفعوا سلسلةً حديديةً ضخمةً. من الضَّفة إلى الضَّفة لم يكن هناك شيء غير السُّفن المضطربة والنَّيران، وأحسَّ دافوس كأن المشهد أوقف قلبه عن الخفقان لحظةً، ولا يزال حتى الآن يتذكَّر الأصوات؛ طقطقة اللهب وهسيس البخار وصُراخ المحتضرين، وكيف راحت الحرارة الرَّهيبة تضرب وجهه إذ كسحه النَّيار نحو الجحيم.

كلُّ ما كان عليه لحظتها ألا يفعل شيئاً. بضع دقائق أخرى وكان سيُصبح مع أبنائه، يرقد في الطَّمي الأخضر البارد في قاع الخليج ويقضم السَّمك وجهه.

لكن بدلاً من هذا عَبَّ دافوس جَرَعَةً هَائِلَةً من الهواء و غاصَّ رَاكِلًا بقدميه ناشدًا قَاع النَّهْرِ. أمله الوحيد كان أن يمرَّ من تحت السِّلْسِلَة والسُّفْن المَتَّقَدَة والنَّار الشَّعْوَاء الطَّافِيَة على سطح الماء، أن يسبح بكلِّ قُوَّة إلى أمان الخليج وراء كلِّ هذا. لطالما كان دافوس سَبَّاحًا ماهرًا، ويومها لم يرتدِ أيُّ فُولَازٍ باستثناء الخوذة التي فقدَها لَمَّا فقدَ (بثا السُّوداء)، وإذ شقَّ جسده الظلمة الخضراء كالخنجر، لمحَ رجالًا آخَرِينَ يُكافِحُونَ تحت الماء، وقد جذبهم ثقل دروعهم وقمصانهم المعدنيَّة إلى أسفل ليغرقوا في الأعماق، فسبح متجاوزًا إياهم وهو لا يزال يركُل بكلِّ ما تبقَّى في ساقيه من قُوَّة، مسلِّمًا نفسه للثِيَّار وتاركًا الماء يملأ عينيه. هكذا ظلَّ يتعمَّق أكثر وأكثر وأكثر، ومع كلِّ ضربةٍ من ذراعيه أحسَّ بصعوبة كتمان أنفاسه طويلًا. يذكُر أنه رأى القاع الطري المعتم في اللحظة نفسها التي تفجَّرت فيها سلسلة من الفقاع من بين شفثيه، ومَسَّ شيء ما ساقه، لا يدري إن كان خشبةً أم سمكةً أم غريقًا.

كان في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى الهواء حينئذٍ، لكن الخوف يمنعه من الصُّعود. هل تخطى السِّلْسِلَة؟ هل خرجَ إلى الخليج؟ إذا طلعَ تحت سفينةٍ سيغرق، وإذا فعلها وسط رُقع النَّار الشَّعْوَاء الطَّافِيَة سيلفح أول نفس يلتقطه رثيه ويحيلهما إلى رماد. تلوَّى في الماء ليُنظر إلى أعلى، ولكنه لم يرَ إلا ظلامًا أخضر، ثم إنه دارَ حول نفسه عدَّة مرَّات، وفجأةً لم يُعد يستطيع التَّفَرُّق بين الأعلى والأسفل، فاستبدَّ به الهلع، وضربت يده قاع النَّهر مثيرةً سحابةً من الطمي أعمته. مع كلِّ لحظةٍ تمرُّ كان صدره يضيق أكثر، فأنشَبَ أظفاره في الماء وشرعَ يركُل، يدفع نفسه يدور وتصرُّخ رثاه طالبين الهواء، يركُل ويركُل وهو ضائع في غياهب النَّهر، يركُل ويركُل حتى بات عاجزًا عن الرُّكُل، وحين فتح فمه ليصرُّخ تدفَّقت المياه إليه محمَّلةً بمذاق الملح، وأدرك دافوس سيورث أنه يغرق.

أفاق بعدها ليجد أن الشَّمس في السَّماء، وأنه ملقى على شاطئٍ حجريٍّ ضيق تحت قَمَّةٍ من الصَّخر العاري، الخليج الخالي يُحيط به من كلِّ الجهات، وإلى جواره صار مكسور وشراع محروق وجُثَّة منتفخة، ثم اختفى الصَّاري والشُّراع والرَّجُل الميت عندما علا المَد، تاركين دافوس وحيدًا على صخرته وسط رماح ملك شعب البحار.

سنيته الطويلة كمهرب جعلت المياه التي تطل عليها (كينجز لاندنج) مألوفة له أكثر من أي دار عاش فيها، ويعلم أن مأواه ما هو إلا نقطة على الخرائط في منطقة يعزف أي ملاح كفاء عنها ولا يعمد إليها... وإن كان دافوس نفسه قد دنا منها مرة أو مرتين أيام التهريب، بغية أن يبقى بعيداً عن الأعين. عندما يجدوني ميتاً هنا، إذا وجدوني، فلربما يُسمون الصخرة تيمناً بي، يُسمونها صخرة البصل. ستكون شاهد قبري وإرثي. إنه لا يستحق أكثر من هذا. يقول السّبتونات في تعاليمهم إن الآباء -ك(الأب في الأعلى)- يحملون أولادهم، لكن دافوس قاد أولاده إلى الحميم. أبداً لن يُعطي دايل زوجته الطفل الذي صلياً من أجله، وقريباً ستبكي آرد فتاته في (البلدة القديمة) وفتاته في (كينجز لاندنج) وفتاته في (برافوس)، ولن تصير لمائوس سفينة يكون ربانها، ولن ينال ماريك فروسيتها.

كيف أعيش وهم موتي؟ فُرسان شجعان وسادة كبار كثر ماتوا، رجال أفضل مني، وأشرف. ازحف إلى كهفك يا دافوس، ازحف إليه وتكوّر على نفسك وستبتعد السفينة ولن يُزعجك أحد ثانية أبداً. نم على وسادتك الحجرية ودع النوارس تنقر عينيك بينما تلتهم السراطين لحملك. أنت التهمت الكثير من لحمها وتدين لها بهذا. اختبئ أيها المهرب، اختبئ واصمت ومُت. الآن يكاد الشراع يبلغه. بضع دقائق أخرى وستمرُّ به السفينة بسلام، ويموت هو أيضاً بسلام.

امتدت يده إلى حلقة باحثة عن الجراب الجلدي الصغير الذي يُبثته حول عنقه دائماً، ويحتفظ في داخله بعظم الأصابع الأربعة التي قلمها الملك يوم نصّبه فارساً. حظي. خبطت أصابعه المجدوعة على صدره، تبحث ولا تُعثر على شيء. لقد فقدت الجراب ومعه العظام التي لم يستوعب ستانيس قط سبب احتفاظه بها. بشفتيه المشققتين همس: «لُتذكرني بعدالة مليكي». لكنها ضاعت الآن. النار سلبتني حظي كما سلبتني أبنائي. في أحلامه لم يزل النهر مشتعلاً، والشياطين ترفص على صفحة الماء وفي أيديها سياط من لهب تجلد الرجال فيحترقون ويتفحمون. رفع دافوس صوته بالدعاء قائلاً: «رحماك يا أمّاه، أنقذيني أيتها الأم الرّءوف، أنقذينا جميعاً. لقد ضاع حظي

وضاعَ أبنائي». كان يبكي بحرقةٍ الآن، تنهمرُ العبرات المالحة على وجهه بغزارة. «النَّارُ أَخَذَتْ كُلَّ شَيْءٍ... النَّارُ...».

لعله كان صوت هبوب الرِّيح على الصَّخْرة فحسب، أو صوت انكسار الأمواج على الشَّاطِئِ، لكن دافوس سيورث سمعَ إجابتها لحظةً، إذ همست (الأم) بصوتٍ حزين خافتٍ كأنه الموج في محارة: «أنتم من اجتلبتم النَّارَ، أنتم أحرقتُمونا... أحرقتُمونا... أحررررقتُمونا!!!!!!».

صاح دافوس: «إنها هي! لا تهجُرنا يا أمنا. هي من أحرقتكم، المرأة الحمراء، مليساندرا، هي!». كان يراها بعين الخيال، يرى الوجه ذا شكل القلب والعينين الحمراءوين والشَّعر النَّحاسي الطَّويل وفُستانها الأحمر يتموِّج كاللَّهب كلما تحرَّكت، دوامة من الحرير والسَّاتان. من (أشاي) في الشَّرْق جاءت، جاءت (دراجونستون) وظفرت لإلهها الأجنبي بالملكة سيليس ورجالها، ثم بالملك ستانيس باراثيون نفسه، الذي بلغَ به الأمر أن وضعَ القلب النَّاري على راياته، قلب راهلور إله الضَّياء وربَّ اللَّهب والظل، وبالإحاح من مليساندرا جرَّ الملك تماثيل سبعة الآلهة من السَّيِّت في (دراجونستون) وأحرقها أمام بؤابة القلعة، وبعدها أضرم النَّار في أيكَة الآلهة في (ستورمز إند)، بما فيها شجرة القلوب، شجرة الويروود البيضاء الضَّخمة ذات الوجه الوقور. تتمم دافوس بضَعفٍ أكبر: «كان هذا من صنُعها». من صنُعها وصنُعك يا فارسِ البصل. أنت من قادها إلى (ستورمز إند) في جوف اللَّيْلِ كي تلدِ طفلها الظل. لا تحسب أن لا لوم عليك. لقد ركبت تحت رايته ورفعتها من صاري سفينتك، ورأيت (السَّبعة) يحترقون في (دراجونستون) ولم تُحرِّك ساكنًا. هي ألقَت بعدالة (الأب) في النَّار، وبرحمة (الأم) وحكمة (العجوز)، و(الحدَّاد) و(الغريب) و(العذراء) و(المُحارب)، أحرقتهم جميعًا في سبيل مجد إلهها الوحشي، وأنت وقفت في مكانك ولم تنبس ببنت شفة، وحتى عندما قتلت المايستر كرسن العجوز، حتى آنذاك لم تفعل شيئًا.

أصبح الشَّراع على بُعد مئة ياردة، ويتحرَّك بسرعةٍ عبر الخليج. بضع دقائق أخرى وسيكون قد مرَّ به وبدأ يصغر من جديد.

وبدأ السير دافوس سيورث يتسلق الصَّخْرة.

بيدين راجفتين سحبَ نفسه إلى أعلى ورأسه يدور من الحُمَّى، وانزلت

أصابه المجدوعة مرّتين على الصُّخور الرّطبة وكادَ يَسْقُطُ، لكنه تمكّن بشكل ما من التّشبُّث. إذا سقط فإنه ميت لا محالة، وهو يجب أن يعيش ولو فترةً أطول قليلاً فقط، فالآن هناك شيء ينبغي أن يفعله.

كانت قمّة الصّخرة أصغر من أن يستطيع الوقوف عليها بأمان وهو بهذا الوهن، فقبّع في مكانه ولوّح بيديه المهزولتين صارخاً في الرّيح: «أيتها السّفينة، أيتها السّفينة، هنا، هنا!». من هنا أمكنه أن يراها بمزيد من الوضوح، البدن النّحيل المخطّط وتمثال المقدّمة البرونزي والشّراع المنتفخ، وثمّة اسم مرسوم على البدن، لكن دافوس لم يتعلم القراءة قط. نادى ثانية: «أيتها السّفينة، النّجدة، النّجدة!».

رأه أحد رجال الطاقم الواقفين على المقدّمة وأشار نحوه، وشاهد دافوس رجالاً آخرين يقتربون من الحافة ليحدّقوا إليه، وبعد قليل خفض القادس شراعه وارتفعت مجاذيفه من الماء ودار ليّتجه إلى الملاذ القفر. كان أكبر حجماً من أن يدنو من الصّخرة كثيراً، لكنه أنزل قارباً صغيراً على بُعد ثلاثين ياردة، فتمسك دافوس بصخرته وراقبه يقترب منه بيّطاً وعلى متنه أربعة رجال يُجدّفون، وعند المقدّمة رجل خامس نادى عندما صاروا على بُعد أقدام معدودة من جزيرته: «أنت، أنت على الصّخرة، من تكون؟».

مهرّب ترقى في العالم أكثر مما كان ينبغي له، أحرق أحبّ ملكه أكثر من اللازم وأغفل ألّهته. «أنا...». كان حلقه جافاً كالصّحراء ونسبي كيف يتكلم، فشمع بمذاق الكلمات غريباً على لسانه وبوقعا أغرب على أذنيه. «كنت في المعركة، كنت... ربّاناً، فارساً... كنت فارساً».

قال الرّجل: «نعم أيها الفارس، وأي ملك تخدم؟».

خطر له فجأة أن القادس قد يكون لچوفري، فإذا لفظ الاسم الخطأ الآن سيتركونه لمصيره. لكن لا، البدن مخطّط، أي أنها سفينة لايسينيّة، سفينة تابعة لسالادور سان. (الأم) بعطفها أرسلتها إلى هنا، لأن لديها مهمّة له. عرف عندها أن ستانيس حي. ما زال لديّ ملك، وأبناء، لديّ أبناء آخرون، وزوجة مخلصة محبّة. كيف نسبي؟ (الأم) رحيمة حقاً.

صاح مجيئاً اللايسيني: «ستانيس، بحقّ الآلهة أخدم الملك ستانيس».

ردّ الرّجل على متن القارب: «نعم، ونحن أيضاً».

سانزا

بَدَتِ الدَّعْوَةُ بَرِيئَةً جَدًّا، وَلَكِنْ كَلِمًا قَرَأَتْهَا أَحْسَنَتْ بِمَعْدَتِهَا تَضْطَرِبُ.
إِنِهَا جَمِيلَةٌ وَثَرِيَّةٌ وَيُحِبُّهَا الْجَمِيعُ، وَسُتَصْبِحُ الْمَلِكَةُ عَمَّا قَرِيبَ، فَلِمَ تُرِيدُ
أَنْ تَتَنَاوَلَ الْعِشَاءَ مَعَ ابْنَةِ خَائِنٍ؟ حَمَمْتَ أَنْ الْفَضُولَ قَدْ يَكُونُ السَّبَبُ، فَرُبَّمَا
تُرِغِبُ مَارْچَرِي تَايرِلَ فِي مَعَايِنَةِ الْغَرِيمَةِ الَّتِي أَرَاخَتْهَا وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا. أَهِيَ
نَاقِمَةٌ عَلَيَّ يَا تُرَيُّ؟ هَلْ تَتَظَنُّ أَيُّ أَضْمَرُ لَهَا ضَعِيفَةٌ مَا؟

شَاهَدْتُ سَانزَا مِنْ فَوْقِ أُسْوَارِ الْقَلْعَةِ عِنْدَمَا ارْتَقَتْ مَارْچَرِي تَايرِلَ
وَمَوْكِبَهَا (تَلَّ إِجُونُ الْعَالِي). كَانَ چَوْفَرِي قَدْ قَابَلَ عَرُوسَهُ الْجَدِيدَةَ عِنْدَ (بَوَابَةِ
الْمَلِكِ) لِيُرْحَبَ بِهَا فِي الْمَدِينَةِ، وَرَكَبَ الْإِثْنَانُ جَنبًا إِلَى جَنبِ وَسَطِ الْجَمَاهِيرِ
الْمَهْلَلَةِ، يَتَأَلَّقُ چَوْفُ فِي دِرْعِهِ الْمَذْهَبَةِ وَتَرْفُلُ بِنْتُ تَايرِلَ فِي فُسْتَانِهَا الْأَخْضَرِ
الْأَخَاذِ وَمِعْطَفِ زَهْوَرِ الْخَرِيفِ الْمُنْسَدَلِ مِنْ عَلَيَّ كَتْفَيْهَا. كَانَتْ حَسَنَاءَ
نَحِيلَةٍ فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْعُمُرِ، بَيِّنَةُ الشَّعْرِ وَالْعَيْنِينَ، وَقَدْ هَتَفَ النَّاسُ
بِاسْمِهَا إِذْ مَرَّتْ بَيْنَهُمْ، وَرَفَعُوا أَطْفَالَهُمْ طَالِبِينَ بَرَكَتِهَا، وَنَثَرُوا الزُّهُورَ تَحْتَ
حَوَافِرِ حِصَانِهَا. وَرَاءَهَا بِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ جَاءَتْ أُمُّهَا وَجَدَّتْهَا فِي مَرْكَبَةٍ طَوِيلَةٍ
ذَاتِ جَوَانِبٍ نُقِشَتْ عَلَيْهَا عَشْرَاتُ الْوُرُودِ الْمُتَعَانِقَةِ، كُلُّ مِنْهَا مَذْهَبَةٌ لِامْعَةِ،
فَحَيَّاهُمَا الْعَامَّةُ بِدَوْرِهِمَا.

الْعَامَّةُ أَنْفُسَهُمُ الَّذِينَ شَدُّونِي مِنْ فَوْقِ حِصَانِي وَكَانُوا لِيَقْتُلُونِي لَوْلَا
كَلْبُ الصَّيْدِ. لَمْ تَفْعَلْ سَانزَا شَيْئًا يَسْتَأْهِلُ كِرَاهِيَةَ الْعَوَامِ، تَمَامًا كَمَا لَمْ تَفْعَلْ
مَارْچَرِي تَايرِلَ مَا يُؤَوَّلُهَا حُبَّهُمْ. تَفَحَّصْتَ سَانزَا الدَّعْوَةَ الَّتِي بَدَتِ مَكْتُوبَةً
بِخَطِّ مَارْچَرِي نَفْسِهَا، وَفَكَّرْتَ: هَلْ تُرِيدُنِي أَنْ أُحِبَّهَا أَنَا الْأُخْرَى؟ هَلْ تُرِيدُ
مِبَارَكَتِي؟ تَسَاءَلْتُ إِنْ كَانَ چَوْفَرِي عَلَى دِرَايَةٍ بِهَذَا الْعِشَاءِ، وَعَلَى حَدِّ عِلْمِهَا

قد يكون وراء الأمر كله. أصابها الخاطر بالخوف. إذا كان چوف صاحب الدعوة، فلا بُدَّ أنه يُدبِّر لدُعابة قاسية تُخزئها في عيني الفتاة التي تكبرها سِنًا. هل سيأمر حرسه الملكي بتجريدتها من ثيابها ثانية؟ آخر مرة فعلها أو فقه خاله تيريون، لكن العفريت لا يستطيع أن يُنقذها الآن.

لا أحد يُمكنه إنفاذي إلا فارسي فلوريان. لقد وعدّها السير دونتوس بأن يُساعدّها على الهرب، لكن ليس قبل ليلة زفاف چوفري، وأكّد لها فارسها المخلص العزيز الذي أصبح مهرجًا أن الخطط جاهزة، ولا شيء تفعله حتى ذلك الحين غير الاحتمال وإحصاء الأيام.

وتناول العشاء مع بديلتي...

لعلّها تظلم مارچري تايرل، لعلّ الدعوة محض كياسة بسيطة من باب المجاملة. قد يكون مجرد عشاء. لكنها في (القلعة الحمراء)، في (كينجز لاندنچ)، في بلاط الملك چوفري باراثيون الأول، وإذا كانت سانزا ستارك قد تعلمت شيئًا هنا، فهو الارتياح.

وعلى الرغم من ذلك عليها أن تقبل. إنها لا شيء الآن، ابنة منبوذة لخائن وأخت مذمومة للورد متمرّد، ولا يُمكنها أن تُعرض عن دعوة ممّن ستصبح ملكة چوفري.

ليت كلب الصيد كان هنا. ليلة المعركة جاء ساندور كليجاين عُرفتها ليأخذها من المدينة، لكنها رفضت، وأحيانًا تُرقد مستيقظة في سريرها ليلاً تتساءل إن كان رفضها حكيماً. لقد خبأت معطفه الأبيض المتسخ في صندوق من خشب الأرز تحت فساتينها المصنوعة من الحرير الصّيفي، ولا تدري لماذا احتفظت به. كانت قد سمعت كلامًا يتردّد عن الجبن الذي أصاب كلب الصيد، وكيف شرب حتى ثمل تمامًا في أوج المعركة، فأخذ العفريت رجاله وقادهم، لكنها تفهم السبب، لأنها تعلم سرّ وجهه المحروق. لم يكن يخشى إلا النار. ليلتها أجمت النار الشعواء النّهر ذاته ولفحت الهواء باللّهب الأخضر، وحتى في داخل القلعة تملك الخوف سانزا، أمّا في الخارج... لا يُمكنها أن تتخيّل كيف كان المشهد.

متنّهدة، أخرجت سانزا الحبر والرّيشة وكتبت لمارچري تايرل رسالة قبولٍ دمثة.

وعندما جاءت اللَّيلة الموعودة، أتاها واحد آخر من الحرس الملكي، رجل يختلف عن ساندور كليجاين اختلاف... اختلاف الزهرة عن الكلب. جعلَ منظر السير لوراس تايرل الواقف على عتبتها ضربات قلبها تتسارع، فهي أول مرّة تكون دانيةً منه لهذه الدّرجة منذ عادَ إلى المدينة على رأس طليعة جيش أبيه، ولوهلة لم تدِر ماذا تقول، وفي النهاية خاطبته متلعثمًا: «سير لوراس، إنك... إنك تبدو رائعًا».

رمقها بنظرة حائرة، وقال: «سيّدي شديدة اللّطف، وجميلة أيضًا. أختي تنتظرك بشوق».

- «لقد تطلّعتُ إلى هذا العشاء كثيرًا».

قال ملتقطًا ذراعها ليقودها نحو السّلام: «وما يجري أيضًا، والسيّدة جدّتي».

- «جدّتك؟». وجدّت سانزا المشي والكلام والتّفكير في الآن نفسه صعبًا بينما يمسُّ السير لوراس ذراعها وتحسُّ بدفء يده عبر حرير فستانها.

- «الليدي أولينا. ستتناول العشاء معكما أيضًا».

غمغمت سانزا: «أوه». إنني أكلمه وهو يلمّسني، يمسك ذراعي ويلمّسني. «يلقّبونها بملكة الأشواك، أليس كذلك؟».

أجاب السير لوراس ضاحكًا: «بلى»، ففكرت: يا لدفء ضحكته، بينما تابع هو: «وإن كان الأفضل ألاّ تستخدمِي هذا الاسم في حضورها وإلاّ وُخزت».

تورّد وجهها خجلًا. أيّ أحمق يعرف أن لا امرأة سيسرّها أن تُسمّى ملكة الأشواك. لعلي غيبة حقًا كما تقول سرسي لانستر. باستماتة حاولت التّفكير في شيءٍ ظريفٍ جذابٍ تقوله له، إلاّ أن بديتها تخلّت عنها، وكانت على وشك أن تُخبره بأنه يبدو رائعًا، ثم تذكّرت أنها قالت هذا بالفعل.

لكنه جميل المحيّا حقًا، يبدو الآن أطول مما كان عندما التقته أول مرّة، لكن لا يزال شديد الرّشاقة والحسن، وسانزا لم تر قطّ صبيّا يملك هاتين العينين الأخاذتين. ولو أنه ليس صبيّا، وإنما رجل ناضج، فارس في الحرس الملكي. خطر لها أنه يبدو أبهى في الأبيض مما يكون حينما يرتدي أخضر وذهبيّ عائلة تايرل، فلا ألوان في ثيابه الآن باستثناء المشبك الذي يُنبّت

معطفه، وردة (هايجاردن) المشغولة من الذهب الأصفر الخالص، المستكينة وسط أوراق خضراء رقيقة من اليشب.

فتح لهما السير بالون سوان باب (حصن ميجور) ليمراً، وقد ارتدى الأبيض بدوره، وإن لم يبد فيه برونق السير لوراس. بعد الخندق الممتلئ بالخوازيق كانت هناك دستتان من الرجال الذين يتمرنون بالسيف والثرس، فمع ازدحام القلعة عن آخرها بالضيوف، حُصِّصَت السَّاحة الخارجيّة لرفع الخيام والسُّرادقات، تاركةً الأُفنية الداخليّة الأصغر فقط للتدريب. أحد توأمي رداين كان يتقهقر مرغماً أمام السير تالاد الذي يحمل تُرساً عليه عين مرسومة، وبدا السير كينوس ابن بلدة (كايس)، الرَّجل القصير المكتنز الذي يتعالى لهاته كلما رفع سيفه الطويل، قادراً على الثبات أمام أوزني كتلبلاك، لكن ضربات أخي أوزني السير أوزفريد بالغة العنف صنعت عبرةً من المرافق ذي وجه الضفدع موروس سلينت. سواء أكانت سيوف المران هذه مكلفة أم لم تكن، سيكون محصول وفير من الكدمات قد نما لسلينت مع حلول الغد. جفلت سانزا من مجرد المشاهدة، وفكرت: بالكاد فرغوا من دفن موتي المعركة السابقة، ويتدربون بالفعل من أجل التالية.

على حافة الفناء كان فارس وحيد على تُرسه وردتان ذهبيتان يصدُّ ثلاثة خصوم، وبينما شاهدا ضرب الفارس أحدهم على جانب رأسه مُفقدًا إياه الوعي، فسألت سانزا: «أهذا أخوك؟».

أجاب السير لوراس: «هو يا سيّدي. غالباً يتمرن جارلان ضد ثلاثة رجال أو حتى أربعة. يقول إن صدام واحدٍ بواحدٍ فقط في المعركة شيء نادر، ويحبُّ أن يكون مستعداً».

- «موكّد أنه شجاع للغاية».

- «إنه فارس عظيم، أفضل مني في المبارزة بالسيف في الحقيقة، وإن كنتُ أجيّد النزال بالرُمح أكثر منه».

قالت سانزا: «أذكرك هذا. إن براعتك في الرُّكوب في المضمار فائقة».

- «لطفٌ من سيّدي أن تقول هذا. متى رأنتي أركبُ في مضمار؟».

- «في دورة مباريات اليد، ألا تدكر؟ كنت تمطي حصاناً أبيض، ودرعك عليها نقوش لمئة نوع من الزهور. يومها أعطيتني وردةً، وردةً حمراء، بينما

ألقيت الورد الأبيض لبقية الفتيات، وقلت إن لا انتصار في العالم يُضاهي جمالي». جعل قولها هذا وجهها يتخضب بالحُمرة.
منحها السير لوراس ابتسامة متواضعة، وقال: «لم أقل إلا حقيقةً بسيطةً يراها أيُّ رجل له عينان».

مشدوهةً أدركت سانزا أنه لا يذكُر، وقالت لنفسها: إنه يتلطف معي لا أكثر، لكنه لا يتذكّرني أو يتذكّر الوردة أو أيّ شيء. لقد كانت على يقين تام بأن هذا الحادث يعني شيئًا، بأنه يعني كلّ شيء. الوردة كانت حمراء لا بيضاء. قالت بيأس: «كان هذا بعدما أسقطت السير روبرار رويس عن حصانه».
رفع يده عن ذراعها قائلاً: «لقد قتلتُ روبرار في (ستورمز إند) يا سيّدي».
لم يقلها تفاخرًا، بل وسمعت رنةً من الأسي في صوته.

هو وواحد آخر من رجال رنلي في حرس قوس قزح، نعم. كانت سانزا قد سمعت النسوة يتكلمن عن هذا عند البئر، لكنها نسيته لحظةً. «عندما قُتل اللورد رنلي، أليس كذلك؟ حادثة مؤسفة لأختك المسكينة».
ردّ بصوتٍ مشدود: «لمارچري؟ نعم، بالتأكيد. لكنها كانت في (جسر العلقم) ولم تر».

- «ولو، عندما سمعت...».

بخفةٍ مسّ السير لوراس قائم سيفه⁽¹⁾ ذي المقبض الجلدي الأبيض والقبعة المرميّة ذات شكل الوردة، وقال: «رنلي مات، وروبار كذلك، فما الفائدة من الكلام عنهما؟».

فاجأتها حدّة نبرته، فقالت: «أنا... سيّدي، أنا... لم أقصد إساءةً أيها الفارس».

أجاب السير لوراس: «ولا يُمكن أن تصدُر منك إساءة يا ليدي سانزا»، لكن كلّ ما في صوته من دفءٍ تلاشى، ولم يلتقط ذراعها ثانيةً.
وصعدا السّلام الملتفة وقد رانَ عليهما صمت عميق.
أوه، لماذا ذكّرتُ السير روبرار؟ لقد أفسدتُ كلّ شيء. إنه غاضب مني الآن.

(1) يتكون قائم السيف أو رئاسته من جزأين: المقبض، وهو الجزء الذي تقبض عليه كف حامل السيف، والقبعة، وهي قطعة الزينة العريضة التي تُلبس أعلى القائم. (المترجم).

حاولت التفكير في شيءٍ تقوله لإصلاح الموقف، لكنها وجدت كلَّ الكلام الذي خطرَ ببالها تافهًا ضعيفًا، فقالت لنفسها: اصممتي وإلا زدتِ الطينَ بِلَّةً.

سكَّن اللورد مايس تايرل وحاشيته وراء السِّتِ الملكي، في الحصن الطويل المكسو سطحه بأحجار الأردواز، الذي سُمِّيَ (فقص العذراوات) منذ حبسَ الملك بيلور المبارك أخواته في داخله، كي لا تُثير فتنتهن فيه أيُّ أفكار شهوانية، وأمام مصراعِي الباب المرتفعين المنقوشين وقفَ حارسان يرتدي كل منهما خوذةً قصيرةً مذهَّبةً ومعطفًا أخضر موشِيَّ عند الحواف بالسَّتان الذهبي، وعلى صدره خيطة وردة (هايجاردن) الذهب. كلاهما يُناهز السَّبعة أقدام طولًا، عريض الكتفين وضيق الخصر ومفتول العضلات، ولَمَّا اقتربت سانزا بما يكفي لأن ترى وجهيهما بوضوح، وجدتهما تُسختين متطابقتين لا يُمكن التَّمييز بينهما، فالاثنان لهما الفك القويُّ نفسه والعينان الزَّرَقاوان العميقتان عينهما والشَّارب الأحمر الكث ذاته، فسألَت السير لوراس متناسيةً إحباطها: «مَن هذان؟».

أجابها: «حارسا جدتي الشَّخصيَّان. أمُّهما سمَّتَهما إريك وأريك، لكن جدتي لا تستطيع التَّفَرقة بينهما، فتُسمِّيُهما شمال ويمين.»
فتحَ شمال ويمين الباب، وظهرت مارچري تايرل بنفسها وأسرعت تنزل السُّلم القصير لتُحيِّيَهما مناديةً: «ليدي سانزا، يُسعِدني للغاية أنكِ جئتِ. مرحبًا بك!».

ركعت سانزا عند قدمي ملكتها القادمة قائلةً: «لقد شرفَتني تشريفًا عظيمًا يا جلالة الملكة.»

- «ألن تدعيني بمارچري؟ انهضي أرجوكِ. لوراس، ساعدِ الليدي سانزا على الوقوف. هل تسمحين بأن أحاطبكِ بسانزا؟».

قالت ناهضةً بمساعدة السير لوراس: «إذا كان هذا يُسعِدك.»
صرفته مارچري بقبلةٍ أختوية، وأخذت سانزا من يدها وهي تقول: «تعالِي، جدتي منتظرة، والصَّبْر ليس من فضائلها.»

كانت النَّار تُطَقِّطُ في المستوقد، فيما بُسِطَت الحِصائر المعطَّرة على الأرض، وحول المائدة الطويلة جلست دسنة من النَّساء.

لم تتعرَّف سانزا إلا الليدي أليري زوجة اللورد تايرل الوقور طويلة القامة،

التي ربطت ضميرتها الفضيّة بحلقاتٍ محلّاةٍ بالجواهر، بينما قدّمت مارچري لها الأخریات. كانت هناك ثلاث بنات عمومة من عائلة تايرل، مِجا وآلا وِالينور، وكلهن قريبات من سانزا في السّن، والليدي چانا ذات الصّدر الكبير هي أخت اللورد تايرل ومتزوّجة بأحد أفراد فرع التّفاحة الخضراء من عائلة فوسواي، والليدي ليونيت الرّقيقة ذات العينين اللّامعتين من عائلة فوسواي أيضًا ومتزوّجة بالسير جارلان، والسّپتة نستيريكا لها وجه دميم مجدور لكنها تبدو مرحةً، والليدي جريسفورد الشّاحبة الأنيقة حُبلى في طفل، أمّا الليدي بولوار فهي نفسها طفلة لا تتعدّى الثّامنة من العُمر، وعلى سانزا أن تُخاطب الصّاخبة السّمينة ميريديث كرين بميري على سبيل التّدليل، لكن بالتّأكيد ليس الليدي ميريويندر، الفاتنة المايريّة سوداء العينين.

وأخيرًا وقفت مارچري بها عند الجالسة إلى رأس المائدة، امرأة هَرمة بيضاء الشّعر أقرب في الحجم إلى دُمية، وقالت: «يُشَرّفني أن أقدّم لك جدّتي الليدي أولينا، أرملة اللورد لوثر تايرل سيّد (هايجاردن) الرّاحل، الذي تُواسينا ذكراه جميعًا».

كانت رائحة ماء الورد تفوح من العجوز، ولا شيء شائكا في منظرها مطلقًا، ففكرت سانزا: يا لضالّة حجمها.

مدّت الليدي أولينا يدها النّاعمة المليئة بالتّجاعيد تشدّها من معصمها، وقالت: «قبّليني يا صغيرتي. لطف شديد منك أن تتناول العشاء معي ومع سربي من الدّجاجات البلهوات».

بطاعة قبّلت سانزا العجوز على خدّها مجيبةً: «كرم منك أن تُصَيّفيني يا سيّدتي».

- «كنتُ أعرفُ جدّك اللورد ريكارد، لكن ليس جيّدًا».

- «لقد مات قبل أن أولد».

- «أعلمُ هذا يا صغيرتي، ويُقال إن جدّك تلي يموت أيضًا، اللورد هوستر.

لا بُدّ أنهم أخبروك، أليس كذلك؟ إنه رجل عجوز، مع أنه ليس طاعنًا في السّن مثلي. لكن اللّيل يحنُّ علينا جميعًا في النّهاية، وعلى بعضنا يأتي مبكرًا للغاية. لا شك أنك تعين هذا أكثر من غيرك أيتها المسكينة. أعرفُ أنك نلت قسطًا من الحسرة. إننا أسفون لما فقدت».

رمقت سانزا مارچري قائلة: «أحزنتي سماع خبر موت اللورد رنلي يا جلالة الملكة. كان رجلاً شهماً للغاية».

أجابت مارچري: «لطف منك أن تقولي هذا».

قالت جدتها ساخرة: «كان شهماً للغاية، نعم، وساحراً، ونظيفاً جداً. كان يعرف كيف يتأنق وكيف يتبسّم وكيف يتحمّم، وبشكل ما جعله هذا يتصوّر أنه يصلح لأن يكون ملكاً. دائماً ما تُوارد أولاد باراثيون هؤلاء أفكار غريبة، صحيح، وأعتقد أنها تأتي من دماء تارجارين في عروقهم»، وتنشقت مردفة: «حاولوا أن يُزوّجوني بتارجارين ذات مرّة، لكنني سرعان ما وضعت نهاية لهذا».

قالت مارچري: «رنلي كان شجاعاً ورفيقاً يا جدّتي، وأبي أيضاً أحبّه، وكذا لوراس».

ردّت الليدي أولينا بجفاف: «لوراس صغير وبارع للغاية في إسقاط الرّجال عن أحصنتهم بعضاً، لكن هذا لا يجعله حكيماً. وبالنسبة لأبيك، فليتي وُلدت فلاحاً تحمل ملعقة خشبيّة كبيرة، أضربه بها حتى يعود شيء من العقل إلى رأسه السّمين».

قالت الليدي أليري مؤثبة: «أمّي!».

- «صمتاً يا أليري، لا تكلميني بهذا الأسلوب، ولا تُناديني بأمي. لو أنني ولدتك لتذكّرتُ هذا، أنا واثقة، لكنني لسْتُ مُلامّة إلا على زوجك، سيّد (هايجاردن) المغفل».

قالت مارچري: «جدّتي، صوني لسانك. ماذا تقول سانزا عنا؟».

ردّت العجوز: «قد تقول إننا نتحلّى بشيء من الحكمة، أهدنا على الأقل»، ثم التفتت إلى سانزا مواصلة: «إنها خيانة، قلتُ لهم وحذرتهم، وروبرت لديه ابنان، ورنلي لديه أخ أكبر منه، فكيف يُمكن بأيّ شكل أن يكون له حق في ذلك الكرسي الحديدي القبيح؟ فيقول ابني: توّ توّ، ألا تُريدين أن تُصبح حفيدتك العزيزة ملكة؟ أتم يا آل ستارك كنتم ملوكاً ذات يوم، وآل آرِن ولاستر كذلك، وحتى آل باراثيون من خلال إناثهم، لكن آل تايرل لم يكونوا أكثر من وكلاء، إلى أن جاء إجون التّنين وطها ملك (المرعى) الشّرعي في حقل النّيران. إذا أردت الحقيقة، فحتى حقنا في (هايجاردن) مشكوك فيه،

تمامًا كما يشكو آل فلورنت المقيتون دائمًا. تسأليني عن الفرق؟ وبالطبع لا فرق هنالك إلا عند أمثال المغفلين كابني. فكرة أن يومًا قد يأتي ويرى مؤخرًا حفيده على العرش الحديدي تجعل مانس يتفخ ك... ماذا يُسمونها؟ مارچري، أنتِ ذكيّة، فتلفظي وقولي لجدّتك العجوز المسكينة نصف الحُرْفَة اسم تلك السمكة الغريبة التي تعيش عند (جُزر الصَّيف)، تلك التي تنفخ نفسها مضاعفةً حجمها عشر مرّات عندما تُهدّدونها».

- «يُسمونها أسماك التُّفيخة يا جدّتي».

- «بالطبع. أهل (جُزر الصَّيف) هؤلاء بلا خيال. حرّيّ بابني أن يتخذ سمكة التُّفيخة رمزًا له إذا أردتِ الحقيقة. يُمكنه أن يضع تاجًا عليها، كما يضع آل باراثيون واحدًا على الوعل، فلربما يُسعده هذا. كان ينبغي أن نبقى بعيدًا عن هذه الحمافة الدّامية إذا طلبتِ رأيي، لكن إذا حُلِبَت البقرة فلا سبيل لإعادة القشدة إلى ضرعها. بعدما وضع اللورد نُفيخة ذلك التَّاج على رأس رنلي كنا قد توغلنا في الوحل حتى الرُّكب، وها نحن أولاء نُزْمَع أن نرى نهاية الأمر، فما رأيك في هذا يا سانزا؟».

انفتَحَ فمها وانغلقَ، فأحسّت لحظتها كأنها هي نفسها سمكة متنفخة، وكان أفضل ما استطاعت أن تردّ به دون مهلةٍ للتفكير هو: «نسب عائلة تايرل يعود إليّ جارث ذي اليد الخضراء».

بتهمك قالت ملكة الأشواك: «وكذلك عائلة فلورنت، وروان، وأوكهارت، ونصف العائلات النّبيلة الأخرى في الجنُوب. يقولون إن جارث كان يهوى زرع بذوره في الأراضي الخصبة، ولا أشك أن الاخضرار لم يكن يشمل يديه فقط».

تدخّلت الليدي آيري قائلةً: «سانزا، لا بُدَّ أنكِ جائعة جدًّا. هلاً تناولنا القليل من لحم الخنزير البرّي وكعكات الليمون؟».

قالت سانزا: «كعكات الليمون طعامي المفضّل».

أعلنت الليدي أولينا، التي يبدو أن لانيّة لديها أن تصمّت: «هذا ما قيلَ لنا. ذلك المخلوق المسمّى فارس اعتقدَ أن علينا أن نكون ممثّين لهذه المعلومة. إذا أردتِ الحقيقة، فأنا لم أفهم قطُّ الجدوى من المخصّيين، ويبدو لي أنهم مجردّ رجال قُطعت أعضاؤهم المفيدة. آيري، ألن تجعلينهم

يُحْضِرُونَ الطَّعَامَ؟ أَمْ أَنْكَ تُرِيدِنِي أَنْ أَتَصَوَّرَ جَوْعًا حَتَّى الْمَوْتِ؟ تَعَالِي يَا سَانزَا، اقْعُدِي إِلَى جِوَارِي. إِنِّي أَقْلُ إِثَارَةً لِلْمَلَمَلِ مِنَ الْأَخْرِيَاتِ بِكَثِيرٍ. أَتَمَنَّى أَنْكَ تُحَبِّبِ الْمَهْرَجِينَ».

سَوَّتْ سَانزَا تُنَوِّرَتَهَا، وَقَعَدَتْ قَائِلَةً: «أَعْتَقِدُ... تَقُولِينَ الْمَهْرَجِينَ يَا سَيِّدَتِي؟ أَتَعْنِينَ... مَنْ يَرْتَدُونَ الثِّيَابَ ذَاتَ الْأَلْوَانِ الْكَثِيرَةِ؟».

- «الرَّيْشُ فِي حَالَتِنَا هَذِهِ. عَمَّنْ حَسِبْتِنِي أَتَكَلِّمُ؟ ابْنِي؟ أَمْ هُوَ لَاءَ السَّيِّدَاتِ الْجَمِيلَاتِ؟، لَا، لَا يَتَوَرَدَنَّ وَجْهَكَ هَكَذَا فَتَبْدِينَ كَحَبَّةِ رُمَانٍ، خُصُوصًا مَعَ لَوْنِ شَعْرِكَ. كُلُّ الرَّجَالِ مَهْرَجُونَ إِذَا أَرَدَتِ الْحَقِيقَةُ، لَكِنْ مِنْ يَرْتَدُونَ الْأَلْوَانَ الْمَبْهَرَجَةَ مَسْلُونَ أَكْثَرَ مَمَّنْ يَعْتَمِرُونَ التَّيْجَانَ. مَارِچَرِي يَا صَغِيرَتِي، اسْتَدْعِي بَرْمِيلَ الزُّبْدَةِ. لَنْزَ إِنْ كُنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجْعَلَ اللَّيْدِي سَانزَا تَبْتَسِمَ. وَنَتَجَلَسَ بِقَيْتِكَ، أَيْنَبَغِي أَنْ أَخْبِرَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ؟ لَا بُدَّ أَنْ سَانزَا تَعْتَقِدُ أَنَّ حَاشِيَةَ حَفِيدَتِي مَا هِيَ إِلَّا قَطِيعَ خِرَافٍ».

وَصَلَ بَرْمِيلَ الزُّبْدَةِ قَبْلَ الطَّعَامِ، مَرْتَدِيًا ثَوْبَ مَهْرَجٍ مِنَ الرَّيْشِ الْأَخْضَرِ وَالْأَصْفَرِ، وَعَلَى رَأْسِهِ عُرْفٌ عَرِيضٌ لَيِّنٌ. كَانَ رَجُلًا مُسْتَدِيرَ الْبَطْنِ شَدِيدَ الْبَدَانَةِ، يُسَاوِي حَجْمَهُ ثَلَاثَةَ مِنْ فَتَى الْقَمَرِ، وَقَدْ دَخَلَ الْقَاعَةَ دَائِرًا كَالعَجَلَةِ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَى الْمَائِدَةِ وَوَضَعَ بِيضَةً عَمَلَاقَةً أَمَامَ سَانزَا، وَقَالَ لَهَا: «اكَسْرِهَا يَا سَيِّدَتِي»، فَلَمَّا فَعَلَتْ، خَرَجَتْ مِنَ الْقَشْرَةِ دَسْتَةً مِنَ الْكَتَاكِيَتِ الصَّفْرَاءِ وَهَرَبَتْ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَصَاحَ بَرْمِيلَ الزُّبْدَةِ: «أَمَسْكِنَهَا!». اخْتَطَفَتْ اللَّيْدِي بُولُوَارَ الصَّغِيرَةَ وَاحِدًا وَنَاوَلَتْهُ إِيَّاهُ، وَعِنْدَهَا أَمَالٌ رَأْسُهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَأَلْقَى الْكَتْكُوتَ فِي فَمِهِ الطَّرِي الْكَبِيرِ، وَبَدَأَ أَنَّهُ ابْتَلَعَهُ كَامِلًا، ثُمَّ إِنَّهُ تَجَشَّأَ فَطَارَتْ رِيَشَاتُ صَفْرَاءٍ صَغِيرَةٍ مِنْ أَنْفِهِ. أَجْهَشَتْ اللَّيْدِي بُولُوَارَ بِالْبَكَاءِ مُصَدِّمَةً، لَكِنْ دَمُوعَهَا اسْتَحَالَتْ إِلَى صَرِيخَةٍ فَرِحَ مَبَاغِتَةً عِنْدَمَا خَرَجَ الْكَتْكُوتُ مَتَمَلِّصًا مِنْ كُمَّ فُسْتَانِهَا وَجَرَى عَلَى ذِرَاعِهَا.

بَيْنَمَا أَحْضَرَ الْخَدْمَ حَسَاءَ الْكُرَّاتِ وَالْفِطْرِ، شَرَعَ بَرْمِيلَ الزُّبْدَةِ يُلْقِي الْكُرَاتِ فِي الْهَوَاءِ، وَدَفَعَتْ اللَّيْدِي أَوْلَيْنَا نَفْسَهَا إِلَى الْأَمَامِ لِتُرِيحَ مَرْفِقَيْهَا عَلَى الْمَائِدَةِ، وَقَالَتْ: «هَلْ تَعْرِفِينَ ابْنِي يَا سَانزَا؟ الْلُورْدُ نُفِيخَةُ سَيِّدِ (هَائِجَارْدَن)؟».

رَدَّتْ سَانزَا بِأَدَبٍ: «إِنَّهُ مِنْ عِظْمَاءِ الْلُورْدَاتِ».

قَالَتْ مَلِكَةُ الْأَشْوَاكِ: «إِنَّهُ مِنْ عِظْمَاءِ الْمَغْفَلِينَ. أَبُوهُ أَيْضًا كَانَ مَغْفَلًا،

زوجي، اللورد لوثور الرَّاحِل. أوه، لقد أحببته كثيرًا، فلا تُسيئي فهمي. كان رجلًا حنونًا، ولا تَنقُصه مهارات عُرفة النّوم، وإنما مَغفَل كبير على الرغم من هذا. لقد أسقطَ نفسه من فوق جُرفٍ وهو يصطاد بالِصُقور. يقولون إنه كان يَنظُر إلى السَّماء ولا يُعير حركة حصانه انتباهًا، والآن يفعل المغفَل ابني الشَّيء نفسه، مع فارق أنه يمطي أسدًا لا حصانًا. لقد حذرتَه من أن ركوب الأسد أسهل من التُّزول من عليه، لكنه يضحك لا أكثر. إذا أُنجبتِ ابناً يا سانزا، فاضربيه كثيرًا كي يتعلّم أن يعمل لك حسابًا. لم أنجب إلا ابناً واحدًا ونادرًا ما ضربته، والآن ينتبه إلى برميل الزُّبدة أكثر مما ينتبه إليّ. قلتُ له إن الأسد ليس قِطَّةً مدلّلةً، لكنه لا يقول إلا تُو يا أمي. هناك الكثير جدًّا من التَّأتأة في هذه البلاد إذا طلبتِ رأيي. من مصلحة كل هؤلاء الملوك أن يلقوا سيوفهم ويصغوا لأُمَّهاتهم».

أدركتِ سانزا أن فيها مفتوح ثانية، فملأته بملعقة من الحساء، على حين قهقهت الليدي آيري والأخريات لمنظر برميل الزُّبدة وهو يوثب بضع برتقالات على رأسه ومرفقيه وردفه العامر.
فجأةً قالت الليدي أولينا: «أريدك أن تُخبريني بحقيقة هذا الصَّبي الملوكي، هذا الجوفري».

انقبضت يد سانزا حول ملعقتها وقالت لنفسها: الحقيقة؟ لا أستطيع. لا تسألني عنها أرجوك، لا أستطيع. «أنا... أنا... أنا...».
- «أنت، نعم. من يعرفه أفضل منك؟ الصَّبي يبدو ملكيًا كفايةً، هذا صحيح، وإن كان متغطرًا نوعًا، لكن هذا يرجع إلى دماء لانستر في عروقه. على أننا سمعنا بضع حكاياتٍ مُقلِّقة، فهل تمتُّ هذه الحكايات للحقيقة بصلة؟ هل أساء هذا الولد معاملتك؟».

تطلّعت سانزا حولها بعصبية. ألقي برميل الزُّبدة برتقالةً كاملةً في فمه ومضغها وابتلعها، ثم صفع وجنتيه فطارت البذور من أنفه، لتتعالى أصوات الضَّحك والفقهقة من النساء. كان الخدم يروحون ويحيئون، وتردّدت جلبة الملاحق والأطباق على جدران (قفص العذراوات)، وقفز أحد الكتاكيت على المائدة وجرى في حساء الليدي جريسفورد. لم يبدُ أن أحدًا يُعيرهما انتباهه، وعلى الرغم من هذا كانت مدعورةً.

قالت الليدي أولينا بصبر بدأ ينفد: «لماذا تُحَمِّقِين إلى برمبل الزُبدة؟ لقد سألتُ سؤالاً وانتظرُ إجابةً. هل سرقَ آل لانستر لسانك يا صغيرتي؟». كان السير دونتوس قد حذرهما من الكلام براحتها إلا في أيكة الآلهة، فقالت: «چوف... الملك چوفري، إنه... جلالته عادل ووسيم للغاية و... وشجاع كالأسد».

قالت العجوز محتدَّة: «نعم، كلُّ لانستر أسد وكلُّ تايرل رائحة فساثة كالورد، لكن أهو رؤوف؟ أهو ذكي؟ هل قلبه طيبٌ ويده رفيقة؟ هل يتحلَّى بالشَّهامة كما يليق بملك؟ هل سيقدِّر مارچري ويُعاملها برقةٍ ويحمي شرفها كأنه شرفه؟».

كاذبة أجابت سانزا: «سيفعل. إنه... إنه وسيم جدًّا».

- «قلت هذا بالفعل. أتدرين يا صغيرتي؟ البعض يقول إنك حمقاء كبيرة كبرميل الزُبدة هذا، وبدأتُ أصدِّقُ هذا. وسيم؟ لقد علمتُ عزيزتي مارچري قيمة الوسامة، أو أن هذا ما أتمناه. إنها أقلُّ من فسوة. إربون اللهب الساطع كان وسيماً لكن وحشاً. السؤال هو: ماذا يكون چوفري؟»، ومدَّت يدها تشدُّ كُمَّ خادمٍ مار، وقالت: «لستُ مولعةٌ بالكُرَّاث. ارفع هذا الحساء وأحضِر لي جُبنةً».

- «الجُبنة ستقدِّم بعد الكعك يا سيِّدتي».

قالت العجوز: «الجُبنة ستقدِّم متى أردتُ أن تقدِّم، وأريدها أن تقدِّم الآن»، وعادت تلتفت إلى سانزا متابعةً: «هل أنتِ خائفةٌ يا صغيرتي؟ لا داعي لهذا، إننا نساء فقط هنا. أخبريني بالحقيقة ولن يمسك أذى».

- «أبي كان يقول الحقيقة دائماً»، قالت سانزا بخفوت، ومع ذلك خرجت الكلمات منها بصعوبة.

بدا كأن عينيَّ العجوز تسبران أغوارها كراسيَّ سيفين ماضيين لامعين وهي تقول: «اللورد إدارد، نعم، كانت هذه سُمعته، لكنهم قالوا إنه خائن وضربوا عنقه رغم ذلك».

قالت سانزا: «چوفري، چوفري هو من فعلَ هذا، وعدني بأن يكون رحيماً وقطع رأس أبي. قال إن هذه هي الرَّحمة، وأخذني إلى أعلى الأسوار وجعلني أنظرُ إليه، إلى الرَّأس. أرادني أن أبكي، لكنني...». بتت عبارتها وغطت فمها.

قلتُ أكثر من اللازم، أوه، لتُقذني الآلهة، سيعرفون، سيسمعون، أحدهم

سيشي بي .

- «أكملي». كانت مارچري هي من حثَّتها، ملكة چوفري المقبلة، ولم تدرِ سانزا كم سمعت .

- «لا أستطيع». ماذا لو قالت له؟ ماذا لو قالت له؟ سيقتلني بكل تأكيد، أو يُعطيني للسير إلين. «لم أقصد... أبي كان خائناً، وأخي أيضاً خائن، ودماء الخيانة في عروقي. أرجوك، لا تجعليني أقول المزيد».

قالت ملكة الأشواك بلهجةِ امرأة: «هدئي نفسك يا صغيرتي».

- «إنها مرعوبة يا جدتي، انظري إليها».

نادت العجوز برميل الزُبدة: «أيها المهرِّج! عَنِّ لنا أغنيةً، واحدةً طويلةً (الجميلة والذُّب) لا بأس بها».

أجاب المهرِّج الصَّخَم: «أمرِك! لا بأس بها بالتأكيد! هل أغنيها وأنا واقف على رأسي يا سيِّدتي؟».

- «هل سيجعلها هذا أفضل؟».

- «لا».

- «قِف على قدميكِ إذن، فلا تُريد أن تقع قَبْعتك. إنك لا تغسل شعرك أبداً حسبما أذكر».

- «كما تأمر سيِّدتي»، وانحنى الرِّجل بشدَّة وتجشَّأ بعمق، ثم شدَّ قامته وأبرزَ بطنه وبدأ يجأر: «كان هناك دُب، دُب، دُب! كله أسود وبني ومغطَّى بالشعر...».

مالت الليدي أولينا إلى الأمام، وقالت: «حتى عندما كنتُ أصغر منك كان معروفًا للجميع أن الجُدران لها آذان في (القلعة الحمراء). حسنٌ، فلتُصغي الجُدران إلى الأغنية إذن بينما نتكلَّم نحن الفتيات بحرِّيَّة».

قالت سانزا: «لكن فارس... إنه يعلم، دائماً...».

زعقت ملكة الأشواك في المهرِّج: «عَنِّ بصوتِ أعلى! هاتان الأذنان العجوزتان أقرب إلى الصَّمم. هل تهمس لي أيها الأحمق البدين؟ لست أدفع لك مقابل الهمس. عَنِّ!».

دوى برميل الزُبدة ليرتدِّد صوته الجهوري العميق على عوارض السَّقْف:

«... الذُّبُّ! أوه تعال، قالوا له، تعال إلى الاحتفال! فقال الاحتفال؟ لكنني ذُبُّ! كلي أسود وبني ومغطى بالشعر!».

ابتسمت العجوز المتغصنة قائلة: «في (هايجاردن) لدينا عناكب كثيرة بين الزهور، وما دامت منصرفاً إلى حالها تتركها تنسج شباكها الصغيرة، لكن إذا وجدناها تحت أقدامنا نسحقها»، وربّنت على ظهر يد سانزا وقالت لها: «والآن الحقيقة يا صغيرتي. إلى أي نوع من الرجال ينتمي هذا الجوفري، الذي يُسمّي نفسه باراثيون بينما يبدو لانسّتر حتى النخاع؟».

- «وعلى الطريق من هنا إلى هناك! من هنا! إلى هناك! ثلاثة فتية وعزّة وذُبُّ راقص!».

شعرت سانزا كأن قلبها احتبس في حلقها. كانت ملكة الأشواك العجوز دانيةً منها للغاية، حتى إنها تشم رائحة أنفاسها المنفّرة، بينما قرصت أصابعها النّاحلة المهزولة معصمها، وعلى جانبها الآخر تجلس مارچري مصغية. مرقت في جسدها رعدة، وبصوتٍ راجفٍ سمعته هي نفسها بالكاد همست: «وحش. جوفري وحش. لقد كذب بشأن صبيّ الجزّار وجعل أبي يقتل ذئبتي، وحين أغضبه يجعل رجال الحرس الملكي يضربونني. إنه شرير ووحشي يا سيّدتي، هذا صحيح، والملكة أيضًا».

تبادلت الليدي أولينا وحفيدتها نظرةً، ثم قالت العجوز: «آه... هذا مؤسف».

بهلع فكرت سانزا: أوه، يا للآلهة! إذالم تتزوّج مارچري، سيعرف جوف أني المّلامّة، واندفعت تقول: «أرجوك، لا توقفي الزّفاف...».

- «لا تخافي، فاللورد نفيخة مصمّم على أن تكون مارچري ملكةً، وكلمة الواحد من عائلة تايرل تُساوي كلّ ما في (كاسترلي روك) من ذهب، أو أنها كانت كذلك في أيامي على الأقل. لكننا نشكرك على قول الحقيقة يا صغيرتي».

كان برمّيل الرّبدة يتوائب ويخور ويضرب الأرض بقدميه مواصلاً الأغنية: «... رقص ودار طول الطريق إلى الاحتفال! الاحتفال! الاحتفال!».

حين تبتسم مارچري تايرل، فإنها تُشبه أباها لوراس كثيرًا، وقد ابتسمت لها قائلة: «سانزا، هل ترغيبين في زيارة (هايجاردن)؟ زهور الخريف كلها

متفتحة الآن، وهناك بساتين ونوافير وساحات ظليلة وأروقة من الرُخام، وأبي يحتفظ بعدة مغنين في البلاط دائماً، صوتهم أحلى من برميلنا هذا، ولدينا زمارون وعازفو كمنجة وقيثارة أيضاً، وعندنا أفضل الخيول، وزوارق تنزه نُبحر بها في (الماندر). هل تُحِبِّين الصَّيْد بالصُّقُور يا سانزا». - «قليلاً».

- «أوه، عذبةٌ كانت، ونقيَّةٌ، وجميلةٌ! العذراء وفي شعرها العسل!». - قالت مارچري: «سُحْبِيْن (هايجاردن) مثلما أَحْبَبْها تماماً، إنني واثقة»، وأزاحت حُصْلَةً نافرةً من شعر سانزا وتابعت: «بمجرّد أن تريها لن ترغبي في الرّحيل، وربما لن يكون عليك أن ترحلي».

- «شعرها! شعرها! العذراء وفي شعرها العسل!». - قالت ملكة الأشواك بحدّة: «صمّتاً يا صغيرتي. الليدي سانزا لم تُقل حتى إنها ترغب في الزّيارة».

ردّت سانزا: «أوه، لكنني أرغب». بدأ لها أن (هايجاردن) هي المكان الذي طالما حلّمت به، البلاط السّحري الجميل الذي أمّلت ذات يوم أن تجده في (كينجز لاندنج).

- «... شَمّ رائحة هواء الصَّيْف! الدُّب! الدُّب! كلّه أسود وبنيّ ومغطّى بالشَّعر!». -

استدركت سانزا: «لكن الملكة لن تدعني أذهب...». - «بل ستفعل. دون (هايجاردن) لا أمل لآل لانستر في إبقاء چوفري على عرشه، وإذا طلب ابني اللورد المغفل هذا منها، فلن يكون لديها خيار إلا تلبية طلبه». - سألت سانزا: «وهل سيفعل؟ هل سيطلب؟».

عقدت الليدي أولينا حاجبيها مجيبةً: «لا أرى حاجةً إلى إعطائه الخيار، لكنه لا يملك فكرةً عن غرضنا الحقيقي بالطبع». - «شَمّ رائحة هواء الصَّيْف!». -

قطبت سانزا جبينها متسائلةً: «غرضنا الحقيقي يا سيّدتني؟». - «تنشق وخارٍ وشمّه هناك! العسل في هواء الصَّيْف!». - قالت العجوز وبرميل الزُّبدة يُوَاصِل جوار الأغنية بالغة القدم: «أن نُتَمّ زواجك بحفيدي بسلامٍ يا صغيرتي».

أَتَزَوَّجُ السَّيْرَ لُورَاسَ، أَوْه... احْتَبَسْتَ أَنْفَاسَهَا فِي صَدْرِهَا، وَتَذَكَّرْتَ السَّيْرَ
لُورَاسَ فِي دِرْعِ الْبِرَاقَةِ الْمَحَلَّةِ بِالصَّفِيرِ وَهُوَ يُقْلِي لَهَا وَرَدَّةً، وَفِي الْحَرِيرِ
الْأَبْيَضِ وَهُوَ شَدِيدُ النَّقَاءِ وَالْبَرَاءَةِ وَالْجَمَالِ. تَذَكَّرْتَ الْغَمَازَتَيْنِ عِنْدَ رُكْنَيْ
فَمِهِ إِذَا ابْتَسَمَ، وَعَذُوبَةَ ضَحَكْتِهِ وَدَفْءَ يَدِهِ، وَتَخَيَّلْتَ كَيْفَ سَيَكُونُ إِحْسَاسُهَا
إِنْ خَلَعْتَ قَمِيصَهُ وَتَحَسَّسْتَ الْبَشْرَةَ النَّاعِمَةَ تَحْتَهُ، وَأَنْ تَقِفَ عَلَى أَطْرَافِ
أَصَابِعِهَا لَتَقْبَلَهُ، وَأَنْ تُمَرَّرَ أَصَابِعُهَا فِي خُصَلَاتِ شَعْرِهِ الْبَنِيِّ الْغَزِيرِ وَتَغْرُقَ
فِي عَيْنَيْهِ الْبَيْتَيْنِ.

وَزَحَفَتْ الْحُمْرَةَ عَلَى عُنُقِهَا.

- «أَوْه، أَنَا عَذْرَاءٌ، وَنَقِيَّةٌ وَجَمِيلَةٌ! وَلَنْ أَرْقِصَ أَبَدًا مَعَ دُبٍّ مَغْطَى بِالشَّعْرِ!
مَعَ دُبٍّ! مَعَ دُبٍّ! لَنْ أَرْقِصَ أَبَدًا مَعَ دُبٍّ مَغْطَى بِالشَّعْرِ!».

سَأَلْتُهَا مَارْچَرِي: «أَتَوَدِّينَ هَذَا يَا سَازِنَا؟ لَيْسَتْ لِي أُخْتٌ، بَلْ إِخْوَةٌ فَحَسَبَ.
أَوْه، أَرْجُوكِ قَوْلِي نَعَمْ، أَرْجُوكِ قَوْلِي إِنَّكِ مُوَافِقَةٌ عَلَى الزَّوْجِ بِأَخِي».

تَدَقَّقْتُ مِنْهَا الْكَلِمَاتِ: «نَعَمْ، سَأَتَزَوَّجُهُ، أَوْدُ هَذَا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ،
أَنْ أَتَزَوَّجَ السَّيْرَ لُورَاسَ وَأَحَبَّهُ...».

قَاطَعَتْهَا اللَّيْدِي أُولَيْنَا بِضَيْقٍ: «لُورَاسَ؟ لَا تَكُونِي حَمَقَاءَ يَا صَغِيرَتِي.
رِجَالُ الْحَرَسِ الْمَلِكِيِّ لَا يَتَزَوَّجُونَ أَبَدًا. أَلَمْ يُعَلِّمُوكِ شَيْئًا فِي (وَيْنْتِرْفَل)؟ كُنَا
نَتَكَلَّمُ عَنْ حَفِيدِي وَيْلَاسَ. إِنَّهُ كَبِيرٌ عَلَيْكَ بَعْضَ الشَّيْءِ، هَذَا صَحِيحٌ، لَكِنَّهُ
صَبِيٌّ طَيِّبٌ، وَلَيْسَ مَغْفَلًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، كَمَا أَنَّهُ وَرِثَ (هَايْجَارْدَن)».

شَعَرْتُ سَازِنَا بِالذُّوَارِ. فِي لِحْظَةٍ أَفْعَمَتِ رَأْسُهَا الْأَحْلَامَ بِلُورَاسَ، وَفِي
التَّالِيَةِ اخْتِطَفَتْ مِنْهَا اخْتِطَافًا. وَيْلَاسَ؟ وَيْلَاسَ؟ بِبِلَاهَةِ قَالَتْ: «أَنَا...».
الْبَلْقَاةُ دِرْعَ اللَّيْدِي. يَجِبُ أَلَّا تُشْعِرِنِيهِمَا بِالْإِهَانَةِ، فَانْتَبِهِي لِمَا تَقُولِينَ. «...»
لَسْتُ أَعْرِفُ السَّيْرَ وَيْلَاسَ، لَمْ أَحْظُ بِهَذَا الشَّرْفِ يَا سَيِّدَتِي. أَهْو... أَهْو فَارَسَ
عَظِيمَ كَأَخُوهِ؟».

- «... رَفَعَهَا عَالِيًا فِي الْهَوَاءِ! الدُّبُّ! الدُّبُّ!».

أَجَابَتْ مَارْچَرِي: «كَلَّا، إِنَّهُ لَمْ يَحْلِفْ يَمِينِ الْفَرَسَانِ».
قَالَتْ جَدَّتُهَا بَعُوسَ: «أَخْبِرِي الْفَتَاةَ بِالْحَقِيقَةِ. الصَّبِيِّ الْمَسْكِينِ مَعُوقٌ،
وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ».

أَكَمَلْتُ مارچري: «أصيبَ عندما كان مُرافِقَ فارس وركبَ في أول دورة مبارياتِ شاركَ فيها، سقطَ حصانه عليه وحطَمَ ساقه».

- «اللّوم على ذلك الدورني الثُّعبان، أوبرين مارتيل، والمَايستر كذلك».

- «أردتُ فارسًا، لكنك دُب! دُب! دُب! كلك أسود وبني ومنغطي بالشَّعر!».

قالت مارچري: «ويلاس طيَّب القلب على الرغم من إعاقة ساقه. كان يقرأ لي في طفولتي، ويرسم لي صورًا للنجوم. ستُحِبُّينه كما نُحِبُّه يا سانزا».

- «ركلت العذراء الجميلة وولولت، لكنه لعق العسل من شعرها! شعرها! شعرها! لعق العسل من شعرها!».

سألت سانزا بتردُّد: «متى يُمكن أن ألتقيه؟».

وعدتها مارچري قائلةً: «قريبًا، عندما تأتين إلى (هايجاردن) بعد زفافي إلى چوفري. جدّتي ستأخذك معها».

قالت العجوز وهي تُرَبِّت على كَفِّ سانزا وتمنحها ابتسامةً ناعمةً ملأى بالتَّجاعيد: «سأفعلُ سأفعلُ بالتَّأكيد».

- «ثم زفرت وصرخت وركلت الهواء! وغنّت: دُبِّي، دُبِّي الجميل! ومعا ذهبا من هنا إلى هناك، الدُّب، الدُّب، الجميلة والدُّب!».

هدرَ برميل الزُّبدة بالبيت الأخير بأعلى صوت، ثم وثبَ في الهواء وحطَّ علي قدميه بصوتٍ صاخبٍ هَزَّ كؤوس التَّيِّذ على المائدة، فضحكت النساء وشفقن، بينما قالت ملكة الأشواك: «حسبتُ أن هذه الأغنية الفظيعة لن تنتهي أبدًا. لكن انظري، ها قد أحضروا جُبتني».

چون

كان العالم ظلمةً رماديةً تعبق بروائح الصنوبر والطحالب والبرد، وخيوط الضباب الشاحبة الرقيقة تتصاعد من الأرض السوداء، بينما يشقُّ الراكبون طريقهم وسط الحجارة المتناثرة والأشجار الضامرة، نحو بؤر النار الحفيفة الموزعة في قاع وادي النهر أسفلهم، بؤر نار أكثر مما يستطيع چون سنو أن يُحصيها، مئات منها، آلاف، نهر ثانٍ من الأضواء المتذبذبة بطول ضفتي (النهر اللبني) الأبيض بياض الجليد.

وبلا إرادةٍ منه انفتحت أصابع يده حاملة السيف وانغلقَت. نزلوا الأخدود بلا أبواقٍ أو رايات، لا يقطع الصمت إلا خرير مياه النهر الآتي من بعيد، ووقع حوافر الخيول، وطققة العظام في درع ذي القميص المُخشخَش إذ تحتك ببعضها بعضًا. في مكانٍ ما أعلاهم حلق نسر بجناحين كبيرين يمتزج فيهما الأزرق والرّمادي، وفي الأسفل سارَ البشر والكلاب والخيول وذئب رهيب⁽¹⁾ أبيض واحد.

ضرب أحد الحوافر العابرة حجرًا فأسقطه متواثبًا على المنحدر، ورأى چون جوست يُدير رأسه إثر الصوت المفاجئ. كعادته تبع الذئب الراكبين من مسافةٍ لا بأس بها طول النهار، لكن حين ارتفع القمر فوق أشجار الصنوبر الجُندي، أسرع يقترب والوهج في عينيه الحمرًاوين، فحيتته كلاب ذي القميص المُخشخَش بجوقةٍ من الرّمجرة والرّوم والنّباح العنيف - كما يحدث

(1) الذئب الرّهيب حيوان حقيقي منقرض كان يقطن الأمريكتين قبل عشرة آلاف سنة. (المترجم).

دائمًا - إلا أن الذئب الرّهيب لم يُعِرها انتباهًا. قبل ستّة أيام هاجمه أكبر كلاب الصّيد حجمًا من الخلف فيما خيّم الهمج ليلاً، لكن جوست دار وانقضّ، ولم يلبث الكلب أن فرّ منه بفخذٍ دامية، وبعدها حافظت بقيّة كلاب القطيع على مسافة مأمونة بينها وبينه.

سهلّ حصان چون سنو الصّغير بخفوت، لكن سرعان ما هدّأته لمسة وكلمة رقيقة، وتمنّى چون لو أن مخاوفه هو من الممكن أن تهدأ بهذا اليُسر. كان يرتدي الأسود بالكامل، أسود حرس الليل، لكنه في المنتصف، ومن أمامه وخلفه الأعداء. همج، وأنا معهم. ارتدت إيجريت معطف كورين ذي النّصف يد، ولاينل قميصه المعدني، والزّوجة الحربة⁽¹⁾ الكبيرة راجوايل فُفّازيه، وأحد الرّؤماة حذاءه، أمّا خوذته ففازَ بها القصير القبيح المسّمى رايك ذو الحربة الطويلة، لكنها لم تُلائم رأسه الضيق، فأعطاها لإيجريت هي الأخرى، بينما وضع ذو القميص المُخشخش عظام كورين في جرابه، بالإضافة إلى رأس دام اعتاد أن يستقرّ على كتفيّ ابن، الذي كان قد خرج مع چون لاستطلاع (الممرّ الصّادح). كلهم ماتوا، كلهم إلّاي، والعالم يحسبني في عداد الموتى.

كانت إيجريت تتحرّك وراءه مباشرةً، بينما يركب رايك ذو الحربة الطويلة أمامه، وقد عيّن سيّد العظام كليهما لحراسته، ولما تحرّكوا قال لهما محدّرًا وهو يتسم من وراء الأسنان المعوّجة في جمجمة العملاق التي يرتديها كخوذة: «إذا طار الغراب سأسلخ اللحم من على عظامكما أيضًا». صاحت إيجريت فيه ساخرةً: «هل تُريد أن تحرّسه بنفسك؟ إذا أردتنا إن نحْرّسه، فدعنا وشأننا وسنفعل».

فكّر چون: إنهم شعب من الأحرار حقًا. قد يكون ذو القميص المُخشخش قائدهم، لكن لا أحد منهم يستحيي من الرّدّ عليه ندًا لند. ثبّت عليه قائد الهمج نظراته العدائيّة، وقال: «ربما نجحت في خداع هؤلاء الآخرين أيها الغراب، لكن إياك أن تحسب أنك ستخدع مانس. سيُلقي نظرة واحدة عليك ويعرف أنك محتال، وعندها سأصنّع لنفسني معطفًا من فروة ذئب، وأفتح بطنك الطّري هذا وأخيّط ابن عرسٍ في داخله».

(1) ما يُطلَق على النّساء المحاربات من الهمج. (المترجم).

فتحَ چون يده حاملة السَّيفِ وأغلقها ليثني أصابعه المحروقة تحت قُفَّازِه، لكن رايك ذا الحربة الطَّويلة اكتفى بالصَّحك، وقال: «وأين ستجد ابن عرسٍ وسط الثَّلوج؟».

في تلك اللَّيلة الأولى، وبعد نهار طويل على متون الخيول، خيَّموا في حوض حجرِيٍّ قليل العمق على قَمَّةِ جبل بلا اسم، وتجمَّعوا بالقرب من النَّار وقد بدأ الثَّلج يتساقط. شاهدَ چون الرِّقاتق تذوب إذ تدنو من اللهب، وعلى الرغم من طبقات الصُّوف والفرو والجلد التي يرتديها، أحسَّ بالبرد ينخر عظامه. جلستَ إيجريت إلى جواره بعد أن أكلت، وقد رفعت فلتسوتها ودستَ يديها داخل كَمِيها طلبًا للدَّفء، وقالت: «عندما يعرف مانس أنك قتلت ذا النِّصف يد، سيأخذك في الحال».

- «يأخذني باعتباري ماذا؟».

ضحكت الفتاة بتهكم، وأجابت: «باعتبارك واحدًا منا. أتحسب أنك أول غراب يُحلَّق إلينا من فوق (الجدار)؟ كلكم تتوقون في قلوبكم إلى الطَّيران بحُرِّيَّة».

قال ببُطء: «وعندما أصبح حُرًّا، هل ستكون لي الحُرِّيَّة في الذَّهاب؟». ردَّت بابتسامة لم تُنقص أسنانها المعوجَّة شيئًا من دفتها: «بالتأكيد، وستكون لنا الحُرِّيَّة في قتلك. الحُرِّيَّة شيء خطير، لكن أغلب النَّاس يستسيغون مذاقها»، ووضعت يدها المكسَّوة بقُفَّازٍ على ساقه، فوق رُكبته مباشرةً، وأضافت: «سترى».

قال چون لنفسه: نعم، سأرى، وأسمع وأفهم، وعندما أنتهي سأعودُ إلى (الجدار) حاملًا الأبناء. الآن يعدُّه الهمج حائنًا بقسمه، لكنه في قرارة نفسه لا يزال رجلًا من حرس اللَّيل، يُؤدِّي آخر واجبٍ وضعه كورين ذو النِّصف يد على عاتقه... قبل أن أقتله.

عند سفح المنحدر قابلوا نُهيْرًا صغيرًا يتدفَّق من التَّلال لتمتزج مياهه بمياه (التَّهر اللَّبني). بدا لهم كأنه يتكوَّن بالكامل من الحجارة والرُّجاج، وإن سمعوا صوت الماء الجاري تحت السَّطح المتجمَّد، وقادهم ذو القميص المُخشخش عبره محطَّمًا قشرة الجليد الرِّقيقة.

أحاطَ كَشَافَة مانس رايدر بهم بمجرد أن خرجوا إلى الضَّفَّة الأخرى،

وبنظرة قِيمهم چون. ثمانية خيالة، رجال ونساء، يرتدون الفرو والجلد المقوّى بالزيت المغلي، ويضع بعضهم خوذة أو قميصًا من المعدن، وجميعهم مسلّحون بالحراّب أو الرّماح المقوّاة بالنّار، باستثناء قائدهم الأشقر اللّحيم ذي العينين الدّامعتين، الذي حملَ منجلاً مقوّسًا كبيرًا من الفولاذ المشحوذ. أدركَ چون في الحال أنه البكّاء الذي يتناقل الإخوة السّود عنه الحكايات، فهو هجّام معروف على غرار ذي القميص المُخشّخس وهارما رأس الكلب وألفين قاتلِ الغِربان.

قال البكّاء حالما رأىهم: «سيّد العظام»، ورمقَ چون وذئبه متسائلًا: «مَن هذا؟».

ردّ ذو القميص المُخشّخس، الذي يُفضّل أن يُدعى بسيّد العظام للصّوت الذي تُصدّره درعه: «غراب مارق. كان يخشى أن آخذ عظامه كما فعلتُ مع ذي النّصف يد»، ورفع جوال الغنائم أمام بقية الهمج ورجّه. قال رايك ذو الحربة الطّويلة: «لقد قتلَ كورين ذا النّصف يد، هو وذئبه هذا».

أضافَ ذو القميص المُخشّخس: «وقتلَ أورل أيضًا». تدخّلت الزّوجة الحربة الكبيرة راجوايل قائلة: «الصّبي وازج⁽¹⁾، أو أقرب إلى واحد. ذئبه قضمَ قطعةً من ساق ذي النّصف يد». رمقَ البكّاء چون بنظرةٍ أخرى من عينيه الحمرّاوين الرّاشحتين، وقال: «أحقّاقًا؟ نعم، يبدو لي أن له سيماء الذّئاب الآن وأنا أنظرُ إليه من كتب. خذوه إلى مانس ولربما يُقي عليه»، ودارَ بحصانه وهرولاً مبتعدًا يتبعه خيالته مسرعين.

كانت الرّيح تهبُّ بقوّة وترميهم بقطرات الماء وهم يعبّرون وادي (النّهر اللّبني) ويقطعون المخيّم في طابور. ظلّ جوست على مقربةٍ من چون، لكن رائحته سبقته كالنّذير، وسرعان ما أحاطت بهم كلاب الهمج من كلّ

(1) الوازج كلمة ذات أصول نورديّة وجرمانيّة وفارسيّة قديمة بمعنى «ذئب»، وفي عالم الرّواية يُسمّى البشري الذي يستطيع تلبّس الحيوانات بعقله ليتحكّم فيها «مبدّل الجِلدة»، والأوزاج فئة نادرة من مبدّلي الجِلدة، تستطيع تلبّس الذّئاب والكلاب على وجه التّحديد. (المترجم).

الجهات، تنبح وتُزْمَجِر. صرَحَ لاينل فيها أن تهْدَأ، لكنها لم تستجِب له على الإطلاق، فقال رايك لچون: «إنها لا تُحِبُّ حيوانك هذا».

قال چون: «هي كلاب وهو ذئب. إنها تعرف أنه ليس منها». تمامًا كما أنني لستُ منكم. لكن عليه أن يتنبه إلى واجبه، إلى المهمة التي كلّفه بها كورين ذو النّصف يد وهما جالسان معًا عند النَّارِ للمرّة الأخيرة؛ أن يلعب دور المارق ويكتشف ما يبحث عنه الهمج في براري (أنياب الصّقيع) الجرداء الباردة. إنها «قوّة ما» كما قال كورين للذئب العجوز، لكنه مات قبل أن يعرف كنهها، أو إن كان مانس رايدر قد عثرَ عليها مع كلِّ هذا الحفر في الجليد.

كانت بؤر نار الطهو مشتعلة بطول النَّهر، وسط العربات المجرورة والمدفوعة والمزلجات، وقد نصبَ كثير من الهمج خيامًا من الصوف المبطن وجلود الحيوانات وفروها، وأوى آخرون وراء الصّخور تحت سقوفٍ بدائية أو ناموا تحت عرباتهم. رأى چون عند واحدةٍ من بؤر النَّار رجلاً يُقَوِّي رؤوس حراب خشب طويلة ويكوّمها، وفي بقعةٍ أخرى كان شابان ملتحيان يرتديان الجلد المقوى يتبارزان بالعصي، يثب كلاهما نحو الثاني فوق اللهب ويثنُّ عندما تُصيبه ضربة، بينما جلست دسمة من النساء قريبًا منهما وعكفن على تثبيت الرّيش في السّهام.

سهام لإخوتي، سهام لقوم أبي، لأهل (وينترفل) و(ربوة الغابة) و(المستوقد الأخير)، سهام للشمال.

غير أن تجهيزات الحرب لم تكن كلَّ ما رآه، إذ رأى أيضًا نسوةً يرقصن، وسمعَ رضيعًا يبكي، وأمام حصانه جرى ولد صغير تدثر بالفرو وتقطعت أنفاسه من اللعب، فيما جالت الخراف والماعز بحريّة، وتهادت الثيران على ضفّة النَّهر بحثًا عن العُشب، وتناهت إلى أنفه رائحة الضّأن المشوي من إحدى بؤر النَّار، وعند أخرى أبصرَ خنزيرًا بريًّا يدور على سيخ خشبي.

في مساحةٍ مفتوحة تُحيط بها أشجار الصنوبر الجُندي الخضراء الطويلة ترجّل ذو القميص المُخشخش، وقال لراجاويل ولاينل والآخريين: «سنُحَيِّم هنا. أطمعوا الخيول ثم الكلاب ثم أنفسكم. إيجريت وذو الحربة الطويلة، خذوا الغراب إلى مانس ليُلقي عليه نظرة، وبعدها سنُبْقِر بطنه».

هكذا قطعوا بقية الطريق سيرًا وسط المزيد من بؤر النار والخيام، وجوست في أعقابهم.

لم يرَ چونَ كلَّ هذا العدد من الهمج قَطُّ، وتساءلَ إن كان قد سبقَ أن رآه أحد. المعسكرُ يمتدُّ بلا نهاية، لكنها مئة معسكرٍ لا واحد، وكلُّ منها أضعف دفاعًا من الآخر. لم تكن للهمج دفاعات تُذكر مع امتداد المعسكرِ فرائسٍ طويلة، لا حُفر أو خوازيق مدبَّبة، والكشافة يتكوّنون من مجموعاتٍ صغيرة يطوف كلُّ منها في محيطه فقط. ببساطة توقفت كلُّ مجموعةٍ أو قبيلةٍ أو قريةٍ حيث أرادت فور أن رأت غيرها يتوقّف أو وجدت مطرَحًا لا بأس به. شعب الأحرار. إذا باغتهم إخوته في فوضاهم هذه، فسيدفع عديدون منهم ثمن هذه الحرّية من دمه. إن أعدادهم أكبر، لكن رجال حرس الليل يمتازون بالانضباط، وفي المعارك يهزم الانضباط الأعداد تسع مرّاتٍ من كلِّ عشر كما علمه أبوه ذات مرّة.

لم يكن هناك سبيل لأن يُخطئ تعرّف خيمة الملك، فهي أكبر ثلاث مرّاتٍ من أكبر خيمة رآها، كما أنه سمع أنغام الموسيقى تسلل من الدّاخل. كثير من الخيام الأصغر، كانت مصنوعة من جلود الحيوانات وفروها، مع فارق أن الفرو في خيمة مانس رايدر هو فرو دبة الثلج الأبيض الأشعث، وقد تُوجّ السقف المثلث بمجموعةٍ ضخمةٍ من قرون الإلكة العملاقة، التي كانت تجوب (الممالك السبع) كلها ذات يوم، في زمن البشر الأوائل.

على الأقل ثمة شيء من الدّفاعات هنا، حارسان يقفان عند سديلة باب الخيمة متّكئين على حربتين طويلتين، وقد ثبتت كلُّ منهما تُرسًا مستديرًا من الجلد على ذراعه. عندما لمحا جوست، خفض أحدهما رأس حربته قائلاً: «الحيوان سيظل هنا».

قال چون أمرًا: «جوست، ابق هنا»، فجلس الذئب الرهيب.

قال ذو القميص المُخشخَش: «ذو الحربة الطويلة، راقب الحيوان»، ثم رفع سديلة الباب وأشار لچون وإيجريت بالدخول.

كانت الخيمة حارّةً مفعمةً بالدخان من الدّاخل، وقد استقرّت سلال من الفحم المحترق في الأركان الأربعة مألثةً الهواء بضوءٍ خافتٍ ضارب إلى الحمرة، بينما افترش مزيد من الجلود الأرض. شعر چون بأنه وحيد تمامًا وهو

يقف هناك مرتدياً الأسود ومنتظراً رضا المرتد الذي يدعو نفسه بملك ما وراء الجدار. حين تكيّفت عيناه على العتمة الحمراء الدّاخنة، رأى ستّة أشخاص لم يُعره أيهم أدنى انتباه، منهم شاب أسمر وحسناء شقراء يتقاسمان قرناً من البتع⁽¹⁾، وامرأة حامل واقفة عند المستوقد تطبخ زوجين من الدجاج، بينما يجلس رجل أشيب في معطفٍ رث من الأسود والأحمر مربّعاً ساقيه على وسادة، يعزف على العود ويُعنيّ:

كانت زوجة الدورني بهيّة كما الشّمس
وقُبلتها أدفاً من الرّبيع
لكن شفرة الدورني من الفولاذ الأسود
وقُبلتها شيء شنيع

عرفَ چون الأغنيّة، على الرغم من غرابة سماعها ها هنا، في خيمة متواضعة من الجلود وراء (الجدار)، على بُعد عشرة آلاف فرسخٍ من جبال (دورن) الحمراء ورياحها الدّافئة.

خلع ذو القميص المُخشخش خوذته المصفرة ريثما انتظرَ انتهاء الأغنيّة، وبدا تحت درعه المصنوعة من الجلد والعظم رجلاً صغير الحجم، والوجه الذي توارى وراء جمجمة العملاق كان عادياً؛ ذقن بارزة وشارب رفيع، ووجنتان شاحبتان غائصتان، وعينان متقاربتان وحاجبان منعقدان يمتدّان كأنهما حاجب واحد عبر جبهته، بينما ينحسر الشعر الدّاكن بحدّة عند منتصف رأسه.

كانت زوجة الدورني تُعنيّ وهي تستحمُ
بصوت بحلاوة الدُّراق
لكن لشفرة الدورني أغنيتها
وعصّتها باردة قاسية كالعلق

(1) البتع هو نبيذ مخمّر من العسل. (المترجم).

على كرسيٍّ إلى جوار المستوفد جلسَ رجلٌ قصير القامة لكن عريض الصدر للغاية يلتهم دجاجةً من على سيخ، ويسيل الدهن الساخن على ذقنه ويتخللٌ لحيته البيضاء كالثلج، وإن لاحت على وجهه ابتسامة سعيدة، وقد أحاطت بذراعيه الضخمتين حلقات ذهبية منقوشة عليها حروف أجدية قديمة، وارتدى قميصاً ثقيلاً من الحلقات المعدنية السوداء لا يمكن أن يكون قد أتى إلا من جوالٍ ميت. على بُعد بضعة أقدام وقف رجلٌ أطول وأنحف في قميصٍ جلدي مخيطة به أقراص من البرونز، يُحدِّق مقلِّباً إلى خريطة، وعلى ظهره في غمدٍ من الجلد سيف عظيم يُحمَل باليدين. كان منتصب القامة كالحرية وبارز العضلات والأوتار، وجهه حليق ورأسه أصلع، وأنفه قويٌّ مستقيم وعينه غائرتان، وكان من الممكن أن تصفه بالوسامة لو أن له أذنين، لكنه فقد الأثنتين في مرحلة ما، ولم يدرِ چون إن كان السبب قزمة الصقيع أم سكين أحد الخصوم، إلا أن غيابهما جعل رأس الرجل يبدو ضيقاً مدبباً. من نظرةٍ رأى چون بجلاءً أن كلا من أبيض اللحية والأصلع مُحارب. هذان الاثنان أخطر من ذي القميص المُخشِش مراراً. تساءل من منهما مانس رايدر.

وبينما تمدد على الأرض والظلام يُحيط به
وعلى لسانه مذاق الدماء
ركع إخوته إلى جواره وصلوا له
وابتسم هو وضحك وشرع في الغناء:
«إخوتي، يا إخوتي، أيامي ها هنا انتهت
وسلّبتني حياتي الدوري
لكن لا يهم، فكل البشر يُدرِكهم الموت
وأنا ذقتُ زوجة الدوري!». .

مع خفوت النغمات الأخيرة من (زوجة الدوري)، رفع الأصلع عديم الأذنين عينيه عن خريطته، وسدّد نظرةً قاسيةً شرسةً إلى ذي القميص المُخشِش وإيجريت وبينهما چون، وقال: «ما هذا؟ غراب؟».

رَدَّ ذُو الْقَمِيصِ الْمُحْشِخِشِ: «النَّغْلُ الْأَسْوَدُ الَّذِي قَتَلَ أَوْرُلَ، كَمَا أَنَّهُ وَاوَجَ لَعِينٍ أَيْضًا».

- «كَانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ جَمِيعًا».

فَسَّرَتْ إِجْرِيَّتُ: «هَذَا مُنْشَقٌّ. لَقَدْ قَتَلَ كُورِينَ ذَا النِّصْفِ يَدِ بِيَدِهِ».

قَالَ عَدِيمُ الْأَذْنِينَ وَقَدْ بَدَأَ أَنَّ الْخَبَرَ أَغْضَبَهُ: «هَذَا الصَّبِيُّ؟ كَانَ يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ ذُو النِّصْفِ يَدِ لِي. أَلَيْكَ اسْمُ أَيُّهَا الْغُرَابُ؟».

أَجَابَ مُتَسَائِلًا إِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْكَعَ أَيْضًا: «چُونِ سَنُويَا جَلَالَةَ الْمَلِكِ».

رَدَّدَ الْأَصْلَعُ: «جَلَالَةَ الْمَلِكِ؟»، وَالتَفَتَ إِلَى أَبِيضِ اللَّحْيَةِ قَائِلًا: «أَتَرَى؟
إِنَّهُ يَحْسِبُنِي مَلِكًا».

تَفَجَّرَتْ ضِحْكَاتُ الْمَلْتَحِيِّ الْكَبِيرِ بِشِدَّةٍ جَعَلَتْ قِطْعَ الدَّجَاجِ تَتَنَاءَثَرُ مِنْ بَيْنِ شَفْتَيْهِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ الدَّهْنَ عَنْ فَمِهِ بظَهْرِ يَدِهِ الصَّخْمَةِ، وَقَالَ: «صَبِيٌّ أَعْمَى لَا بُدَّ. مَنْ سَمِعَ بِمَلِكٍ بِلَا أُذْنَيْنِ مِنْ قَبْلِ؟ كَانَ تَاجَهُ لِيَنْزَلِقَ إِلَى رِقْبَتِهِ فِي الْحَالِ! هَار!»، وَمَنْحَ چُونِ ابْتِسَامَةً وَاسِعَةً وَهُوَ يُنْظِفُ أَصَابِعَهُ عَلَى سِرَاوِيلِهِ، وَأَرْدَفَ: «أَعْلِقْ مَنقَارَكَ أَيُّهَا الْغُرَابُ. دُرٌّ وَقَدْ تَجَدَّ مِنْ تَبَحُّثِ عَنهُ».

وَدَارَ چُونُ.

وَنَهَضَ الْمَغْنِيُّ قَائِلًا وَهُوَ يَضَعُ عَوْدَهُ جَانِبًا: «أَنَا مَانَسُ رَايْدِرِ، وَأَنْتَ نَغْلُ نَدِ سِتَارِكِ، سَنُوَابِنِ (وَيَنْتَرِفَلِ)».

وَقَفَ چُونُ مَشْدُوهُمَا عَاجِزًا عَنِ الْكَلَامِ لِحِظَّةٍ، قَبْلَ أَنْ يَتَدَارَكَ نَفْسَهُ بِمَا يَكْفِي لِأَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ... كَيْفَ عَرَفْتِ...».

قَالَ مَانَسُ رَايْدِرِ: «هَذِهِ حِكَايَةُ لَوْقَتِ آخِرِ. هَلِ رَاقَتِكَ الْأَعْنِيَّةُ يَا فَتَى؟».

- «إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ. سَمِعْتَهَا مِنْ قَبْلِ».

قَالَ مَلِكُ مَا وَرَاءَ الْجِدَارِ بِرَفَقٍ: «لَكِنْ لَا يَهْمُ، فَكُلِّ الْبَشَرَ يُدْرِكُهُمُ الْمَوْتُ، وَأَنَا ذَقْتُ زَوْجَةَ الدُّورِنِيِّ. أَخْبِرْنِي، هَلِ مَا يَقُولُهُ سَيِّدُ الْعِظَامِ صَحِيحٌ؟ هَلِ قَتَلْتَ صَدِيقِي الْقَدِيمَ ذَا النِّصْفِ يَدِ؟».

- «نَعَمْ». وَإِنْ كَانَ هَذَا صَنِيعَهُ أَكْثَرَ مِنْ صَنِيعِي.

بِنَبْرَةٍ حَزِينَةٍ قَالَ الْمَلِكُ: «لَنْ تَعُودَ (بُرْجُ الظَّلَالِ) بِهَيْبَتِهَا السَّابِقَةِ ثَانِيَةً أَبَدًا. كُورِينَ كَانَ عَدُوِّي، لَكِنَّهُ كَانَ أَخِي أَيْضًا ذَاتَ يَوْمٍ. إِذْنِ... هَلِ أَشْكُرُكَ عَلَى قَتْلِهِ أَمْ أَلْعَنُكَ يَا چُونُ سَنُو؟»، وَأَعْطَى چُونِ ابْتِسَامَةً سَاخِرَةً.

لم يبدُ ملك ما وراء الجدار كالملوك على الإطلاق، ولا كهجمي لهذه الدرّجة حتى، مجرد رجل متوسط الطول نازل القوام حاد الملامح، عيناه بَيَّتَانِ ثاقبتان وشعره طويلٌ بَنِيَّ حَالٍ أغلبه إلى الشَّيبِ، لا يعتمر تاجًا ولا تُحيط الحلقات الذّهبيّة بذراعيه أو الجواهر بعنقه، ولا يتحلّى ولو بقطعة من الفضة، يرتدي الصُّوف والجلد، والشّيء الوحيد المميّز في ثيابه هو المعطف الصُّوف الأسود المهترئ، الذي رُتقت تمزّقاته الطويلة بالحرير الأحمر الباهت. أخيرًا قال چون: «يجدرُ بك أن تشكرني على قتل عدوك وتلعنني لقتل صديقك».

صاحَّ أبيض اللّحية بصوت مدوّ: «هار! أحسنت الإجابة!». عبّ مانس رايدر: «أنفقُ معك»، وأشار لچون بالاقتراب وقال له: «إذا أردت الانضمام إلينا فيحسُن أن تعرفنا. الرّجل الذي حسبته أنا هو ستير، ماجنر (ثِن). «ماجنر» معناها «سيّد» في اللّغة القديمة». حدّق عديم الأذنين إلى چون ببرود، على حين التفت مانس إلى الملتحي متابعًا: «والمفترس أكل الدجاج هذا هو رجلي المخلص تورموند، والمرأة...». نهض تورموند مقاطعًا إياه: «مهلاً، لقد دعوت ستير بلقبه، فافعل معي المثل».

ضحك مانس رايدر، وقال: «كما تشاء. چون سنو، أمامك يقف تورموند بليّة العماليق، المهذار، نافخ البوق، وكاسر الجليد، وهو أيضًا تورموند قبضة الرّعد، زوج الدّببة، ملك البتع في (البهو القاني)، كليم الآلهة، وأبو الجيوش». قال تورموند: «هذا يليق بي أكثر. أهلاً بك يا چون سنو. إنني مغرم بالأوراج في الحقيقة، ولكن ليس بأولاد ستارك».

واصل مانس رايدر: «المرأة المبعّجة الواقعة عند المستوقد هي دالا»، فابتسمت الحبلى بخجل بينما أكمل: «عاملها كما تعامل أيّ ملكة، فهي تحمّل طفلي»، ثم التفت إلى آخر اثنين قائلاً: «هذه الجميلة هي أختها فال، والشّاب چارل الواقف إلى جوارها هو أحدث حيواناتها المدلّلة».

قال چارل الأسمر بشراسة: «لستُ حيوانًا مدللاً لأيّ رجل». ردّ تورموند أبيض اللّحية ساخرًا: «وفاًل ليست رجلاً. كان يُفترض أن تلاحظ هذا من قبل يا فتى».

قال مانس زايدِر: «ها نحن أولاءِ إذن يا چون سنو، ملك ما وراء الجدار وبلاطه، إن جازتِ التَّسمية. والآن أعتقدُ أن الوقت مناسب لأن نسمع قليلاً من الكلام منك. من أين أتيت؟».

- «من (ويترفل)، عن طريق (القلعة السوداء)».

- «وما الذي حملك على الإتيان عند (النَّهر اللَّبني) بعيداً عن دفة الدَّيار؟»، ولم ينتظر مانس إجابةً، بل التفت إلى ذي القميص المُخشخِش سائلاً: «كم كان عددهم؟».

- «خمسة، ثلاثة ماتوا وهذا الصَّبي، والأخير تسلَّق جانب جبل لا يستطيع حِصان أن يتبعه عليه».

عادَت عينا رايدر تُلقِيان عينيَّ چون، وسأله: «هل كنتم خمسةً فقط، أم أن مزيداً من إخوتك كامنون هنا أو هناك؟».

- «كنا أربعةً بالإضافة إلى ذي النُّصف يد. كورين كان يُساوي عشرين رجلاً عادياً».

ابتسم ملك ما وراء الجدار لهذا، وقال: «البعض كان يحسب هذا، لكن... صبي من (القلعة السوداء) مع جِوالة من (بُرج الظلال)؟ كيف تأتى هذا؟». كانت كذبة چون حاضرةً، فأجاب: «حضرة القائد أرسلني إلى ذي النُّصف يد لأتعلَّم من خبرته، فأخذني معه في جولته».

عقد الماجر ستيِر حاجبيه لَمَّا سمع الجواب، وقال: «تُسمِّيها جولة... لكن لِمَ يتجولُ الغِربان أعلى (الممر الصَّادح)؟».

هذه المرَّة قال چون الحقيقة: «كانت القرى مهجورةً، كأن شعب الأحرار كلُّه اختفى».

قال مانس رايدر: «اختفى، نعم، وليس شعب الأحرار فحسب. ومَن أخبركم بمكاننا يا چون سنو؟».

قال تورموند باستهانة: «إنه كراستر، وإلَّا فأنا عذراء خجول. قلتُ لك يا مانس إن علينا أن نفصل رأس ذلك المخلوق عن جسده».

حدج الملك الرَّجل الذي يكبره سنًا بضيق قائلاً: «تورموند، حاول أن تُفكِّر قبل أن تتكلَّم ذات يوم. أعلمُ أنه كراستر، لكنني سألتُ چون لأرى إن كان سيقول الحقيقة».

بصقَ تورموند، وقال: «هار! طيّب، هذه غلطي»، وابتسم ابتسامةً كبيرةً في وجهِ چون وخاطبه: «أتري يا فتى؟ لهذا هو الملك لا أنا. يُمكنني أن أغلبه في الشرب والقتال والغناء، وعضوي أكبر من عضوه ثلاث مرّات، لكن مانس أريب. لقد نشأ بين الغربان كما تعلم، والغراب طائر خدّاع».

قال مانس رايدر لذي القميص المُخشخِش: «أريدُ أن أتكلّم مع الفتى وحدنا يا سيّد العظام. اتركونا جميعاً».

سأله تورموند: «ماذا؟ حتى أنا؟».

- «بالذات أنت».

قامَ تورموند قائلاً: «لا آكلُ في مكانٍ لا أجدُ ترحاباً فيه. أنا والدجاج مغادرون»، واختطفَ دجاجةً أخرى من على المستوقد، ودسّها في جيبٍ مخيِّطٍ في بطانة معطفه صائحاً: «هار!»، وخرجَ وهو يلعق أصابعه، وتبعه الآخرون إلى الخارج باستثناء المرأة دالا.

قال رايدر عندما رحلوا: «اجلس إذا أردت. هل أنت جائع؟ تورموند ترك لنا طائرَيْن على الأقل».

- «سيسرُني أن آكل يا جلالة الملك، وأشكرك».

- «جلالة الملك؟»، ردّد الملك مبتسماً. «ليس هذا بالمسمّى الذي يسمعه المرء من شفاه الأحرار كثيراً. إنني مانس عند الغالبية، المانس عند البعض. هل تشرب قرناً من البتّع؟».

- «بكل سرور».

صَبَّ الملك الشَّرابَ بنفسه فيما قَطَّعت دالا الدَّجاجةَ المشويَّتين النَّاضجتين ووضعتَ نصفاً أمام كلِّ منهما، فخلعَ چون قُفازيه وأكل بأصابعه، ممتصّاً كل نسيلةٍ من اللحم عن العظم.

قال مانس رايدر وهو يُمزِّق رغيف خُبز: «تورموند قال الحقيقة، الغراب الأسود طائر خدّاع، هذا صحيح... لكنني كنتُ غراباً عندما لم تكن أكبر من الجنين الذي في بطن دالا يا چون سنو، فاحذر من محاولة خداعي».

- «كما تقول يا جلالة... المانس».

قال الملك ضاحكاً: «جلالة المانس! ولمَ لا؟ لقد وعدتك بحكاية معرفتي إياك، فهل خمّنتها بعد؟».

هَزَّ چون رأسه نفيًا، وقال: «هل أرسلَ ذو القميص المُخشِخِشِ خَبْرًا قبل وصولنا؟».

- «طيرانًا؟ إنا لا نملك غِدْفَانًا مدرَّبةً. لا، لكنني عرفتُ وجهك، لأنني رأيتُه من قبل، رأيتُه مرَّتين».

لم يبدُ الرَّؤْدُ ذا معنى في البداية، لكن چون دَوَّرَه في ذهنه فومضَ الحَلُّ فجأةً، وقال: «عندما كنتُ أخًا في حرس الليل...».

- «أحسنت! نعم، كانت تلك المرَّة الأولى. كنتُ ولدًا صغيرًا وكنتُ أرتدي الأسود، واحدًا من الفرقة المصاحبة لحضرة القائد كورجايل حين ذهبَ لزيارة أبيك في (ويتترفل). كنتُ أمشي على الشُّور حول السَّاحة وصادفتُك مع أخيك روب، وكان الثلج قد سقط في اللَّيلة السَّابِقة، فصنعتما جبالًا عظيمًا منه فوق البوابة، ويبدو أنكما كنتما تنتظران مرور أحد».

قال چون بضحكة ذاهلة: «أذكرُ هذا». أخُ أسود شاب على ممشى الشُّور، نعم... «وأنت أقسمتُ ألا تحكي لأحد».

- «وقد بررتُ بقسمي، هذا القسم على الأقل».

- «ألقينا الثلج على توم السَّمين. كان أبطأ حُرَّاس أبي». يومها طاردهما توم حول السَّاحة حتى احمَّرت وجوه ثلاثتهم كُفَّاح الخريف. «لكنك قلت إنك رأيتني مرَّتين، فمتى كانت الثانية؟».

أجابَ ملك ما وراء الجِدَار بهدوء: «عندما ذهبَ الملك روبرت إلى (ويتترفل) ليجعل أباك يده».

اتَّسعت عينا چون بغير تصديق، وقال: «مستحيل».

- «بل واقع. لمَّا علمَ أبوك بقدم الملك، أرسلَ خَبْرًا إلى أخيه بنچن على (الجِدَار) كي يأتي لحضور المأدبة. ثَمَّة معاملات بين الإخوة السُّود وشعب الأحرار أكثر مما تتصوَّر، لذا فسرعان ما بلغ الخبر مسامعي أيضًا. كانت الفرصة أندر من أن أقاومها. لم يكن عمُّك يعرفني شكلاً، فلم ألق من هذا الجانب، وفكرتُ أن أباك غالبًا لن يتذكَّر غرابًا شابًا قابله بشكل عابر قبل سنوات. أردتُ أن أرى روبرت هذا بأمِّ عيني، ملكًا لملك، وأن أقيِّم عمُّك بنچن كذلك. كان جَوًّا لأول حينئذٍ، وشوكةً في ظهْر قومي جميعًا، وهكذا جهَّزتُ أسرع خيولي وانطلقتُ».

قال چون معترضًا: «لكن (الجِدَار)...».

- «(الجدار) يُمكنه أن يُوقَف جيئًا، لكن ليس رجلًا أوحده. أخذتُ معي عودًا وكيسًا من الفضة، وتسَلَّقتُ الجليد بالقرب من (الرَّابِية الطَّويلة)، ومشيتُ فراسخ قليلةً جنوب أرض (الهدية الجديدة) وابتعتُ حصانًا. في المُجمل تحرَّكتُ أسرع من روبرت، الذي كان يُسافرُ ومعه مركبة كبيرة ثقيلة للحفاظ على راحة ملكته، وعلى بُعد يوم من (وينترفل) قابلتُ رُكبه وانضمتُ إليه. دائمًا ما يضمُّ المُحاربون غير النُظاميين والفُرسان الجائلون أنفسهم إلى الموابك الملكية على أمل العثور على خدمةٍ في حاشية الملك، وقد جعلهم عودي يقبلونني بسهولة»، وضحك مانس مضيئًا: «إنني أعرفُ كلَّ أغنيةٍ بذينة كُتبت شمال (الجدار) أو جنوبه. هكذا إذن، ليلة أولم أبوك لروبرت، كنتُ جالسًا في مؤخرَة القاعة على دِكَّةٍ مع عددٍ من المحاربين غير النُظاميين، أصغى لأورلاند ابن (البلدة القديمة) يعزف على القيثارة السَّامية⁽¹⁾ ويُعني عن الملوك الموتى في أعماق البحر. أكلتُ من طعام أبيك وشربتُ من شرابه، وألقيتُ نظرةً على قاتِل الملك والعفريت... وصرفتُ شيئًا من انتباهي إلى أولاد اللورد إدارد وجراء الذئاب التي تجري في أعقابهم».

- «بايل السَّاعر»، قال چون متذكِّرًا الحكاية التي روتها له إيجريت في (أنياب الصَّقيع)، ليلة أو شكَّ على قتلها.

- «ليتني كنتُ بايل. لن أنكر أن مغامرة بايل ألهمتني مغامرتي... لكني لم أختطف أيًا من أختيك حسبما أذكرُ. بايل كان يكتُب أغانيه، لكني عشتها. إنني أغني الأغاني التي ألفها رجال أفضل مني لا أكثر. مزيد من الشَّراب؟».

- «لا. لو كان أمرك افتضح... وقبضوا عليك...».

هزَّ الملك كتفيه قائلاً: «لقطع أبوك رأسي، على الرغم من أن حقَّ الضيافة كان يحميني بمجرد أن أكلت على مائدته. قوانين الضيافة عتيقة كالبشر الأوائل، ومقدَّسة كشجر القلوب»، وأشار إلى اللوح المنصوب بينهما وعليه قطع الخُبز وعظم الدجاج، وأردف: «هنا أنت ضيفي، وآمن من كلِّ أذى مني... الليلة على الأقل. قل لي الحقيقة إذن يا چون سنو، أنت جبان انشقَّ عن إخوته بدافع الخوف؟ أم أن هناك سببًا آخر أتى بك إلى خيمتي؟».

(1) آلة موسيقية من خيال المؤلف. (المترجم).

سواء أكان محمياً بحقّ الصّيافة أم لم يكن، فيچون يعرف أنه في موقفٍ بالغ الدقّة، كمن يمشي على جليدٍ متعقّن؛ خطوة واحدة خطأ ويسقط ويغوص في مياهٍ برودتها كفيلة بإيقاف قلبه. قال مذكراً نفسه: زن كلّ كلمة قبل أن تنطقها، وأخذ جرعةً طويلةً من البتّع ليكسب لنفسه وقتاً للإجابة، ثم إنه وضع القرن جانباً، وقال: «قل لي لماذا انشقتّ وسأقول لك لماذا انشقتّ».

وكما أملّ چون، ابتسم مانس رايدر، فمن الواضح أن الملك رجلٌ يُحبُّ سماع صوت نفسه، وهكذا قال: «لا شكّ عندي في أنك سمعت قصصاً عن تهريبي من الخدمة».

- «البعض يقول إنه كان من أجل تاج، والبعض من أجل امرأة، وغيرهم يزعم أن دماء الهمج في عروقك».

- «دماء الهمج هي دماء البشر الأوائل، الدماء نفسها التي في عروق آل ستارك. أمّا التاج، فهل ترى واحداً؟».

قال رامقاً دالاً: «أرى امرأة».

أخذها مانس من يدها وجذبها إليه قائلاً: «سيّدتي بريئة من هذا. لقد قابلتها في أثناء عودتي من قلعة أبيك. ذو النصف يد كان منحوتاً من البلوط القديم، لكنني مخلوق من لحم، ومولع للغاية بأطياب النساء... وهو ما لا يجعلني مختلفاً عن ثلاثة أرباع الحرس. هناك رجال ما زالوا يرتدون الأسود وحظوا بعشرة أضعاف النساء اللاتي عرفهن هذا الملك الفقير الواقف أمامك. عليك أن تُخمن ثانيةً يا چون سنو».

فكّر چون لحظةً، ثم قال: «ذو النصف يد قال إنك كنت شغوباً بموسيقى الهمج».

- «كنت وما زلت. هذا أقرب إلى الهدف، نعم، لكن ليس إصابة مباشرة»، ونهض مانس رايدر وحلّ المشبك الذي يُببّت معطفه، ثم بسطه على الدكّة قائلاً: «ما فعلته كان من أجل هذا».

- «من أجل معطف؟».

قال ملك ما وراء الجدار: «المعطف الصّوف الأسود المميّز للإخوان حالفي يمين حرس الليل. ذات يوم ونحن في جولة تقصّ صدنا إلكة كبيرة»

ممتازة، وكنا نسلخها حين اجتذبت رائحة الدّم قَطَّ ظِلٍّ⁽¹⁾ من عرينه. نجحت في طرده، لكن ليس قبل أن يَمْرُقَ معطفي إلى شرائط. هل ترى؟ هنا وهنا وهنا؟»، وقهقهة مردفاً: «ومْرُقَ ذراعي وظهري أيضاً، ونزفت دماً أكثر من الإللكة. تخوِّف إخوتي من أن أموت قبل أن يأخذوني إلى المايستر مولين في (بُرج الظلال)، فحملوني إلى قرية همجيّة، حيث كنا نعلم بوجود حكيمة عجوز تُعالج المرضى والجرحى. هناك عرفنا أنها ماتت، لكن ابنتها اعتنت بي، نظّفت جراحي وخيَّطتها وأطعمتني الثريد وسقّنتي الدّواء حتى صرتُ قادراً على الرُّكوب من جديد، كما أنها رتقت معطفي الممْرُقَ بحريز قرمزي من (آشاي) وجدّته جدّتها في حطام كوج⁽²⁾ جرفه التّيّار إلى (السّاحل المتجمّد). كان أثنى كنوزها وهديتها لي»، وعاد يَضَع المعطف على كتفيه وهو يُوَاصِل: «لكن في (بُرج الظلال) أعطوني معطفاً جديداً من الصُّوف من المخزن، أسود وأسود وموشى بالأسود، ليتماشى مع سراويلي السّوداء وحذائي الأسود وسُترتي وقميصي الأسودين. كان المعطف الجديد خالياً من أيِّ اهتراءٍ أو مزقٍ أو قطع... والأهم أنه خالٍ من الأحمر، كما ذكرني السير دينس ماليستر بصرامةٍ كأنني نسيْتُ، قائلاً إن رجال حرس اللّيل يلبسون الأسود فقط، وإنني يجب أن أحرق معطفي القديم... وفي الصّباح التّالي غادرتُ، إلى مكانٍ ليست القُبلة فيه جريمةٌ وحيث يستطيع الرّجل أن يرتدي أيِّ معطفٍ يشاء»، وأغلق المشبك وجلس ثانيةً متسائلاً: «وماذا عنك يا چون سنو؟».

أخذ چون رشفةً أخرى من البتّع مفكراً: لا توجد إلّا قصّة واحدة قد يصدّقها، ثم إنه قال: «قلت إنك كنت في (ويترفل) ليلة أولم أبي للملك روبرت».

- «هذا ما قلته، لأنني كنتُ هناك».

- «إذن فقد رأيتنا جميعاً، الأمير چوفري والأمير تومن والأميرة مارسلا، وإخوتي روب وبران وريكون، وأختي آريا وسانزا، رأيتهم يسرون في

(1) قَطَط الظلّ اسم يُطلَق على نوع من الأسود الجليّة في عالم الرّواية. (المترجم).

(2) الكوج سفينة ذات قاعٍ مسطحٍ وجوانبٍ مستقيمة، عادةً ما يكون لها شرّاع واحد مربّع، وتُبنى من خشب البلوط. (المترجم).

الممشى في منتصف القاعة وأعيُن الجميع عليهم، ثم يجلسون إلى المائدة المنخفضة قليلاً عن المنصّة، حيث جلسَ الملك والملكة». - «أذكرُ هذا».

مالَ چون إلى الأمام وسأله: «وهل رأيت أين أجلسوني يا مانس؟ هل رأيت أين وضعوا النَّعْل؟». تطلّع مانس رايدر إلى وجه چون طويلاً، ثم إن الملك مدَّ يده قائلاً: «من الأفضل أن نجد لك معطفاً جديداً».

دنيرس

عبر المياه الزرقاء الساكنة جاءت دقات الطبول البطيئة الثابتة وأصوات حركة المجاذيف من القادسين، اللذين يتحرك الكوج العظيم (بالريون) في أثرهما بتأقل وقد امتدت الحبال الثقيلة بينه وبينهما مشدودة عن آخرها، فيما تدلت أشرعتة مرتخية ببؤس من الصواري.

وعلى الرغم من هذا وقفت دنيرس تارجارين أعلى المقدمة تُشاهد تنانيتها يطارد بعضهم بعضاً في زرقه السماء الصافية، شاعرة بسعادة لم تعرف لها مثيلاً.

يُسَمَّى الدوثراكي البحر «الماء المسموم»، لأنهم لا يثقون بأي سائل لا تستطيع جيادهم شربه، ويوم أبحرت السفن الثلاث من (كارث) كنت لتحسب أنهم ذاهبون إلى الجحيم وليس (پنتوس). حدق خيالة دمها الشباب الشجعان إلى الشريط الساحلي المتضائل بأعين بيضاء متسعة تماماً، وكل من الثلاثة مصمم على ألا يُبدي الخوف قبل الاثنين الآخرين، بينما أطبقت وصيفتها إيرري وچيكوي على حاجز المركب بيأس وأفرغت معدتيهما على الجانب كلما ماج الماء، أمّا بقية غالاسار داني الصغير فظلت تحت السطح، مفضلةً صُحبة الخيول المتوترة على العالم المرعب الخالي من اليابسة المحيق بالسفن، وحين اكتنفتهم زوبعة مباغته في اليوم السادس من الرحلة، بلغت الأصوات من خلال الكوات، الخيول ترفس وتصرخ، وراكبوها يُصلون بنبرات راجفة ذليلة كلما ارتفعت (بالريون) أو تمايلت.

لكن لا زوبعة يُمكنها أن تُخيف داني. إنهم يُلقَّبونها بدنيرس وليدة العاصفة، لأنها جاءت العالم باكية في (دراجونستون) البعيدة، بينما تعوي في

الخارج أشرس عاصفة تعرفها ذاكرة (وستروس) كلها، عاصفة عاتية انتزعت الكراجل⁽¹⁾ من على أسوار القلعة وسحقت أسطول أبيها.

كثيراً ما يكون (البحر الضيق) عاصفاً، وفي طفولتها عبرته داني عشرات المرّات، هاربة من مدينة حرة إلى أخرى وسابقة قتلة الغاصب المأجورين بنصف خطوة. إنها تحبّ البحر، وتُعجبها رائحة الهواء المالحة اللاذعة، ورحابة الآفاق التي لا يربطها إلا تقوُّس سماء بلون اللازورد من فوقها، وتجعلها تشعر كم هي ضئيلة لكن حرة، وتُحبّ الدلافين التي تسبح إلى جوار (بالريون) أحياناً وتشقّ الأمواج بذيول كحراب من اللجين، والأسماك الطيارة التي يلمحونها بين الحين والآخر، بل وتُحبّ الملاحين كذلك بأغانيهم وحكاياتهم. ذات مرّة في رحلة إلى (برافوس)، وبينما راقبت الطاقم يُكافح لإنزال شراع أخضر ضخّم وسط عاصفةٍ مشتدة، فكّرت كم سيكون من الجميل أن تكون بحّارة، لكن عندما قالت هذا لأخيها، شدّ فُسيرس شعرها حتى بكت ألماً وصرخ فيها: «أنت من دم التّنين، التّنين لا سمكة عينة».

كان ساذجاً في هذا وأشياء أخرى كثيرة. لو كان أكثر حكمةً وأطول أناةً لكان هو الذي يُبحر غرباً الآن، ليأخذ العرش الذي كان حقّه. لقد تعلّمت أن فُسيرس كان غيبياً متوحّشاً، لكنها لا تزال تفتقده في بعض الأحيان، ليس الرّجل القاسي الضّعيف الذي صارَه قُرب النّهاية، وإنما الأخ الذي كان يترُكها تنسلّ إلى فراشه عندما تفرّغ ليلاً، الصّبي الذي حكى لها عن (الممالك السّبع)، وحدثها عن حياتهما التي ستغدو أفضل كثيراً بمجرد أن يحصل على تاجه.

ظهر الرّبّان عند مرفقها، وقال بالقاليريّة الهجينة المتبّلة بلكنات (پتوس): «ليت (بالريون) هذه قادرة على التّحليق كسميّها يا جلالة الملكة، فما كنا لنتحاج إلى التّجذيف أو القَطْر أو الابتهاال من أجل الرّيح».

أجابت مبتسمةً وقد سرّها أنها كسبت الرّجل: «صحيح أيها الرّبّان».

(1) الكراجل مخلوقات أسطوريّة ذات مظهر مشوّه مخيف، تم تصويرها في منحوتات عدّة، وبالأخص على الجدران الخارجيّة لعددٍ من كنائس العصور الوُسطى، حيث تتخذ شكل ميزاب ناتئ. (المترجم).

الرُّبَّانُ جِرُولِيو پنتوشي عجوز كسيده إيريو موباتيس، وفي البداية كان متوتراً كعذراء في خدرها من حمل ثلاثة تنانين على متن سفينته، وحتى الآن يُعلّق خمسين دلوًا من الماء من الحافة تحسُّبًا لنشوب حريق. أراد جِرُولِيو في أول الأمر أن يوضع التَّنانين في أقفاص، فوافقت داني لتطمئن مخاوفه، لكن بؤسهم في الحبس كان محسوسًا للغاية، حتى إنها سرعان ما غيرت رأيها وأصرّت على تحريرهم.

والآن الرُّبَّانُ جِرُولِيو نفسه مسرور لهذا. حريق واحد صغير اشتعل، إلا أنه أُمخِد بسهولة، وفي مقابل هذا بدا كأن عدد الجرذان على (بالريون) قد قلَّ كثيرًا عمّا كان في أثناء إبحارها تحت اسم (سادوليون)، كما أن أفراد الطاقم، الذين عانوا في البدء من فزع ممتزج بالفضول، بدأوا يُبدون اعتزازًا قويًا بـ«تنانينهم»، وأصبح كل رجل منهم، من الرُّبَّانِ إلى مساعد الطَّبَّاح، يُحبُّ مشاهدة ثلاثتهم يُحلَقون... ولكن ليس أكثر من داني بالطبع.

إنهم أطفال، وإذا كان ما قالته المايجي حقيقةً، فهم الأطفال الوحيدون الذين سأحظى بهم في حياتي كلها.

لفسيريون حراشف بلون القشدة الطازجة، أمّا قرناه وعظم جناحيه وعُرفه الفقري⁽¹⁾ فلونهم ذهبيّ داكن يلتمع كالمعدن في نور الشَّمس، بينما يتألّف ريجال من أخضر الصَّيف وبرونز الخريف، وقد حامّ الاثنان في دوائر واسعة فوق السُّفن، يرتفعان إلى أعلى وأعلى وكل منهما يُحاول أن يرتقي فوق الثَّاني.

تعلمت داني أن التَّنانين تُفضّل أن تُهاجم من أعلى دومًا، فإذا علا أحدهما حتى حجب الشَّمس عن الثَّاني، فإنه يطوي جناحيه وينقضُّ صارخًا، ثم يهوي الاثنان معًا من السَّماء وقد اشتبكا في كرة من الحراشف، يعضّان بفكوكهما ويضربان بذيليهما. حين فعلا هذا أول مرّة ارتاعت داني حاسبةً أن

(1) قياسًا على تكوين تشريحي مشابه في بعض أنواع الديناصورات، فيمكن مقارنة هذا المصطلح إلى العُرف الفقري أو الشُّوكي، نسبةً إمّا إلى العمود الفقري وإمّا إلى الجبل الشُّوكي، وبما أنه في الغالب تكوين عظمي، فالأرجح أن تكون ترجمته العُرف الفقري. (المترجم).

كليهما يُريد أن يَقْتُل أخاه، لكنه كان مجرّد لَعَب، فما إن يَصْطدما بالماء حتى ينفصلا ويرتفعا ثانيةً وهما يَصْرُخَان وَيُفْحَان وقد تصاعَدَ منهما بُخار الماء المالح، وتعود أجنحتهما تُمزّق الهواء. كان دروجون يُحلقُ أيضًا، وإن غابَ عن الأنظار، فلا بُدَّ أنه أمامهم بأميال، أو وراءهم بأميال، يَصْطاد في مكانٍ ما. وابنها دروجون جائع دائمًا... جائع ويكبُرُ بسرعة. عامٌ آخرٌ أو ربما عامان وسيكون كبيرًا بما يكفي للركوب، وحينها لن أحتاج إلى سُفْنٍ لأعبر البحر المالح الشاسع.

لكن الأوان لم يأتِ بعدُ، فحجمُ فُسيريون وريجال لا يتجاوز الكلب الصَّغير، ودروجون لا يكبُرُهما إلا قليلًا، ولا بُدَّ أن أيّ كلب يفوق الواحد منهم وزنًا. إن أغلب أجسامهم أجنحة وأعناق وذبول، ووزنهم أخف مما يبدو، وهكذا على دنيرس تارجارين أن تعتمد على الأخشاب والرياح والأشعة لتحملها إلى الديار.

حتى الآن خدمتها الأخشاب والأشعة كفايةً، لكن الرِّيح المتقلبة غدّرت بهم، فهي هادئة تمامًا منذ ستّة أيام وستّ ليالٍ، وها هو اليوم السَّابع قد حلَّ وما من نفحة هواءٍ واحدة تملأُ أشرعتهم. لحسن الحظّ أن السُّفْن الثلاث التي أرسلها إليها الماچستر إليريو تضمُّ قادسين تجاريين، يحوي كلاهما مئتي مجداف وطاقمًا من الرِّجال مفتولي الأذرع، لكن الكوج العظيم (بالريون) بمثابة أغنيّة نعماتها مختلفة تمامًا. إنها سفينة تُذكرك بالخنازير، شديدة الثقل وعريضة العوارض، عنابرها فسيحة وأشرعتها ضخمة، لكنها -مع كلِّ هذا- بلا حيلة في غياب الرِّيح، وهكذا مدّت (فأجهار) و(ميراكسس) حبالهما لقطرها، إلا أن التقدّم كان في غاية البطء، خصوصًا أن السُّفْن الثلاث مزدحمة عن آخرها بالركابين ومحمّلة بمختلف البضائع الثَّقيلة.

انضمّ إليها السير چورا مورمونت أعلى المقدّمة سائلًا: «لا أرى دروجون. هل تاه ثانيةً؟»

- «نحن التائهون أيها الفارس. دروجون لا يُحبُّ هذا الرِّحف المبتل أكثر مما أحبه». تنبّنها الأسود أكثر جرأةً من الآخرين، فكان أول من يُجرّب الطَّيران فوق الماء، وأول من يُحلق من سفينةٍ إلى أخرى، وأول من يفقد نفسه في سحابةٍ عابرة... وأول من يَقْتُل، فلا يكاد السَّمك الطَّيار يكسر سطح

المياه حتى يتغلّفه لسان من اللّهب، وفي لحظةٍ يُختطف ويُبتلع. سألت داني بفضول: «هل تعرف كم سيبلغ حجمهم؟».

- «في (الممالك السّبع) حكايات عن تنانين تضخّمت حتى صارَ بإمكانها أن تنتزع كراكن⁽¹⁾ عملاقاً من البحر».

صاحكةً قالت داني: «مؤكّد أنه منظر خارق».

قال فارسها المنفي: «هي مجرد حكايات يا كاليسي. إنهم يحكون عن تنانين حكيمة عاشت ألف عام أيضاً».

- «طيّب، كم يعيش التّنين إذن؟»، ورفعت ناظرها إذ دارَ فسيريون على ارتفاع منخفض فوق السّفينة، يخفق جناحاه ببطء فتتحرك الأشرعة المرخية. هزّ السير چورا كتفيه مجيباً: «دورة حياة التّنين الطبيعيّة تفوق الإنسان عدّة مرّات، أو أن هذا ما تقوله الأغاني... لكن أكثر تنانين عرفتها (الممالك السّبع) كانت تنانين عائلة تارجارين التي ربّيت على الحرب، وفي الحرب ماتت. قتل التّنين ليس سهلاً، لكنه ليس مستحيلاً».

كان المرافق ذو اللّحية البيضاء يقف عند تمثال المقدّمة مطوّقاً بيده النّحيلة عصاه الطويلة المصنوعة من خشب الصّلب المتين، وقد التفت إليهما قائلاً: «الرّعب الأسود بالريون كان عُمره مئتي عام حين مات في عهد چهريس المصلح، وكان ضخماً لدرجة القدرة على ابتلاع ثور كامل. التّنانين لا تكف عن النّمو أبداً يا جلالة الملكة، ما دامت تتمنّع بالطعام والحريّة». اسمه الحقيقي آرستان، وإن لقبه بلواس القوي بذى اللّحية البيضاء لشعر وجهه النّاصع، والآن يُناديه الجميع تقريباً بهذا الاسم، وهو أطول قامة من السير چورا، لكن ليس مفتول العضلات مثله، وعينه ذاتا لونٍ أزرق باهت، ولحيته الطويلة بيضاء كالثلج وناعمة كالحرير.

سألت داني بفضول: «الحريّة؟ ماذا تعني؟».

- «في (كينجز لاندنج) أقام أسلافك قلعةً مقبّبة هائلةً لتنانينهم، وسّمّوها (جُب التّنانين). إنها لا تزال قائمةً على (تل رينيس)، لكنها مجرد أطلال الآن».

(1) الكراكن وحش بحري أسطوري عملاق يظهر على سطح البحر كجزيرة، وله أذرع أخطبوطيّة طويلة تلتف حول السفن وتغرقها. (المترجم).

هذا هو المكان الذي سكنته التنانين الملكية في الأيام الخوالي، وكان مسكنًا شاسعًا بحق، أبوابه الحديد شديدة الاتساع حتى إن ثلاثين فارسًا بخيولهم كان يُمكنهم الدُّخول منها متجاورين، وعلى الرغم من هذا لوحظ أن تنانين الجُب لم تَبْلُغ حجم أسلافها قَط، والمَيسِرات يقولون إن هذا بسبب الجُدران المحيطة بها والقُبَّة الضَّخمة فوق رؤوسها.

قال السير چورا: «لو أن الجُدران تُحجِّمنا، لكان الفلاحون كلُّهم ضوَّلاء والملوك بحجم العجائز». لقد رأيتُ رجالًا ضخامًا وُلِدوا في أكوخ متواضعة، وأقرامًا عاشوا في قلاع».

رَدَّ ذو اللحية البيضاء: «البشر بشر والتنانين تنانين».

لا يَكُنُّ الفارس المنفي أيَّ مودَّةٍ للعجوز، وقد جعلَ هذا واضحًا من أول يوم، وهكذا أطلقَ خبيرًا عبَّرَ به عن ازدرائه، وقال متهمكًا: «يا للبلابة! وماذا تعرف أنت عن التنانين على كلِّ حال؟».

- «النَّزْر اليسير، هذا صحيح، لكنني خدمتُ فترةً في (كينجز لاندنج) في إيَّان جلوس الملك إيرس على العرش الحديدي، ومشيتُ تحت جماجم التنانين التي كانت تُزيِّن جُدران قاعة عرشه».

قالت داني: «فسيُرس تكلم عن تلك الجماجم. الغاصب أنزلها وأخفاها لأنه لم يحتمل أن تنظر إليه من فوق وهو على عرشه المسروق»، وأشارت لذي اللحية البيضاء بالدُّنو متسائلةً عن الملك إيرس الثاني الذي مات قبل أن تولد ابنته: «هل حدث أن قابلت السيِّد والدي؟».

- «نعم، نلتُ هذا الشرف العظيم يا جلالة الملكة».

- «وهل وجدته طيبًا رقيقًا؟».

بذلَ ذو اللحية البيضاء قصارى جهده لمواراة مشاعره، لكن ملامحه أفصحت عنها بوضوح إذ أجاب: «جلالته كان... لطيفًا أغلب الوقت».

قالت داني مبتسمةً: «أغلب الوقت لكن ليس كلِّه؟».

- «كان يتعامل بقسوةٍ بالغة مع مَنْ حسبتهم أعداءه».

- «الحكيم لا يجعل من الملك عدوًّا أبدًا. وهل عرفت أخي ريجار

أيضًا؟».

- «ثُمَّ من قالوا إن لا أحد عرفَ الأمير ريجار حقَّ المعرفة، لكنني حظوتُ

برؤيته في المباريات، وكثيرًا ما سمعته يعزف على قيثارته ذات الأوتار الفضّية».

قال السير چورا ساخرًا: «أنت وألف غيرك في أحد احتفالات الحصاد. المرّة القادمة ستدّعي أنك كنت مُرافقه».

- «لست أدّعي شيئًا كهذا أيها الفارس. مُرافق الأمير ريجار كان مايلز موتون، ومن بعده ريتشارد لونماوث. عندما أثبتا كفاءتهما، نصّبهما الأمير فارسين بنفسه، وظلّا رفيقيه القريبين، علاوةً على اللورد كونجتون الشّاب الذي كان عزيزًا عليه أيضًا، لكن أقدم أصدقائه كان آرثر داين».

قالت داني بغبطة: «سيف الصّباح! فسيرس اعتاد أن يتكلّم عن سيفه الأبيض الأعجوبة، وقال إن السير آرثر كان الفارس الوحيد في البلاد الذي بارى أختينا في براعته».

حنى العجوز رأسه قائلاً: «لستُ في مقامٍ يسمح بأن أشكّك في كلام الأمير فسيرس».

ردّت مصحّحةً: «الملك. لقد كان ملكًا مع أنه لم يحكّم قطّ، الملك فسيرس الثّالث»، ثم سأله وقد حيرتها إجابته غير المتوقّعة: «لكن ماذا تعني؟ السير چورا قال في مرّةٍ إن ريجار كان الثّنين الأخير. أفلا يجب إذن أن يكون مُحاربًا بلا نظير يُطلق عليه هذا اللقب؟».

قال ذو اللّحية البيضاء: «يا جلالة الملكة، أمير (دراجونستون) كان مُحاربًا مغوارًا حقًا، لكن...».

قالت حاتّة إياه: «أكمل. يُمكنك أن تُكلّمني بصراحة».

استند العجوز إلى عكازه الخشبي الصّلب، وقال عاقدًا حاجبيه: «كما تأمرين. مُحارب لا نظير له... كلام جميل يا جلالة الملكة، لكن المعارك لا تُربح بالكلام».

علّق السير چورا بخشونة: «المعارك تُربح بالسّيف، والأمير ريجار كان يعرف كيف يستعمل السّيف».

- «نعم أيها الفارس... لكني شهدت مئة مباراة، وحرّوبًا أكثر مما أردت، ومهما كان الفارس قويًّا أو سريعًا أو ماهرًا، فهناك آخرون قادرين على مُضاهاته، ووارد أن يفوز الرّجل في دورة مباريات ويسقط سريعًا في الثّالية،

وقد تعني بقعة زلقة في العُشب الهزيمة، أو ما أكلته على العشاء اللَّيلة السَّابقة، بينما قد يجلب النَّصر تغيُّرٌ في اتِّجاه الرِّيح»، ورمقَ السيرَ چورا مردفًا: «أو عطيةً من ليدي يربطها حول ذراعه».

اربدَّ وجه مورمونت، وقال: «انتبه لكلامك أيها العجوز».

تعلم داني أن آرستان رأى السير چورا يُقاتل في (لانسهورت)، في دورة المباريات التي كسبها مورمونت رابطًا عطيةً واحدةً من الليديهات حول ذراعه. يومها فازَ بالليدي نفسها أيضًا، لينيس سليله عائلة هياتاور، زوجته الثَّانية الجميلة كريمة المحتد... التي دمَّرتَه وهجرتَه ولا تزال ذكرها تُفعمه بالمرارة. وضعتَ يدها على ذراع چورا قائلةً: «تلطف يا فارسي، لم يكن آرستان يقصد إساءةً، إنني واثقة».

ردَّ السير چورا بغلٍ: «كما تقولين يا گاليسي».

عادَت داني تلتفتَ إلى المُرافِق، وقالت: «لستُ أعرفُ إلاَّ القليل عن ريجار، فقط الحكايات التي سمعتها من فُسيرس، لكنه كان ولدًا صغيرًا عندما ماتَ أخونا. كيف كان حقًّا؟».

تأمَّل العجوز لحظةً قبل أن يُجيب: «قديرًا فوق كلِّ شيء، وقويَّ الإرادة، شيمته الثَّاني والوفاء والعزم. ثمة حكاية معروفة عنه... لكن لا شك أن السير چورا يعرفها أيضًا».

- «أريدُ أن أسمعها منك».

قال ذو اللحية البيضاء: «كما تشائين. في صباه كان أمير (دراجونستون) مولعًا بالمطالعة لأقصى حد، وكان يقرأ في سنِّ مبكرةٍ للغاية، لدرجة أن النَّاس قالوا إن الملكة ريبلا حتمًا ابتلعت بعض الكتب وشمعةً حينما كان في بطنها. لم يكثرث ريجار للعب الأطفال الآخرين، وأذهل المايسترات بذكائه، لكن فُرسان أبيه كانوا يقولون ساخرين إن بيلور المبارك وُلدَ من جديد... إلى أن جاءَ يوم وجدَ فيه الأمير ريجار شيئًا في مخطوطاته غيَّره تمامًا. لا أحد يدري ماذا كان. فقط ظهر الصَّبي في السَّاحة فجأةً ذات صباح باكر بينما يرتدي الفُرسان فولاذهم، وتوجَّه مباشرةً إلى السير ويلم داري قيِّم السَّلاح وقال له: أريدُ سيفًا ودرعًا. يبدو أن عليَّ أن أصبح مُحاربًا».

قالت داني مسرورة: «وأصبح حقًا!».

قال ذو اللحية البيضاء: «أصبح بالتأكيد»، وانحنى مضيئًا: «أستمحك العُذر يا جلالة الملكة، إننا نتكلم عن المُحاربين، وأرى أن بلواس القوي قد استيقظَ، ويجب أن أنصرف لخدمته».

أَلَقَتْ داني نظرةً وراءها، ورأت الخصيَّ يتسلَّق السلم الصَّاعد من المخزن في منتصف السفينة برشاقةٍ على الرغم من حجمه. إنه بدين قصير القامة لكن عريض الصدر، يزن زهاء مئتي رطل من الشحوم والعضلات، وتتقاطع على بطنه البني الضخم التُدوب القديمة الباهتة، ويرتدي سراويل فضفاضة ورباط بطن حريريًا أصفر وُصدرةً جلديةً مطعمةً بالحديد، صغيرةٌ للغاية على نحوٍ يُثير الضحك. هدرَ بلواس مكلّمًا الجميع ولا أحد بعينه: «بلواس القوي جائع! بلواس القوي سيأكل الآن!»، والتفت ولمح آرستان أعلى المقدمة، فقال: «ذو اللحية البيضاء! ستُحضِر الطَّعام لبلواس القوي!».

قالت داني للمُرافق: «يُمكنك الذَّهاب»، فانحنى ثانيةً، وانصرف ليُلبِّي حاجات الرِّجل الذي يخدمه.

راقب السير جورًا بتعبير متجهّم على وجهه الجاف الصَّريح. كبير الحجم هو ومتمين البنية، فكّه قويٌّ وكتفاه عريضتان، ولا يُعدُّ وسيماً بحال، لكنه أخلص الأصدقاء الذين عرفتهم داني. قال لها مورمونت عندما خرج ذو اللحية البيضاء من نطاق السَّمع: «من الحكمة ألا تُعَوِّلي كثيرًا على كلام هذا العجوز».

ردّت مذكرةً إياه: «على الملكة أن تُصغي للجميع، الثُّبلاء والعامّة، والأقوياء والمستضعفين، والصَّالحين والفاستدين. قد يُحدِّثك صوت واحد كذبًا، لكن الحقيقة دائمًا موجودة في أصوات الكثيرين». كان هذا شيئًا قرأته في كتاب.

قال المنفي: «اسمعي صوتي إذن يا جلالة الملكة. هذا الأَرستان ذو اللحية البيضاء يتلاعب بك. إنه أكبر سنًا من أن يكون مُرافِقًا، وأفصح في كلامه من أن يكون خادمًا لذلك الخصيِّ الأحمق».

أقرّت لنفسها مجبرةً بأن الأمر يبدو غريبًا حقًا. بلواس القوي عبد سابق،

ترعرعَ وتمرنَ في حلبات القتال في (ميرين)، وقد أرسله الماچستر إليريو لحراستها، أو أن هذا ما يزعمه بلواس، وهي في حاجةٍ إلى حراسةٍ في الواقع. لقد نذر الغاصب على عرشه الحديدي أرضاً ولورديةً للرجل الذي يقتلها، وبالفعل جرت محاولة لاغتيالها بكأس من النبيذ المسموم، وكلما دنت أكثر من (وستروس) ازدادت احتمالات وقوع محاولة ثانية. في (كارث) أرسل الدجّال بيات بري وراءها واحداً من القتلة المأجورين المعروفين باسم الرجال الآسفين، لينتقم للخالدين الذين أحرقتهم في بيتهم الثراب، والرجال الآسفون لا يفشلون أبداً. ولا بدُّ أن غالب الدوثراكي سيكونون ضدها أيضاً، فكلُّ گو كان لدى گال دروجو يقود گالاساره الخاص الآن، ولن يتردد أحدهم في مهاجمة جماعتها الصغيرة فور أن يلمحها، ليُدبِّح ويستعبد قومها ويَجْرِّها هي نفسها إلى (فايس دوثراك) لتأخذ مكانها وسط حيزونات الدوش گالين الذواويات. وكانت تأمل أن زارو زون داكسوس ليس عدوها، لكن التاجر الكارثيني انتهى تنانينها فحسب. ثم إن هناك كويث ابنة الظل، تلك المرأة العجيبة ذات القناع الخشبي الأحمر ووصاياها الملغزة، أهي عدوٌ أيضاً أم مجرد صديقٍ خطير؟ لا تدري داني حقاً.

السير چورا أنقذني من السَّم، وآرستان ذو اللحية البيضاء من المانتيكور⁽¹⁾. لعلَّ بلواس القوي سيُنقذني من القاتل التالي. بلواس ضخَم الجثمان، وذراعه كشجرتين صغيرتين، ومسلح بأراخ معقوف كبير بالغ الحدة حتى إنه يُمكنه أن يحلق به، مع أن احتمال نبوت الشعر من هاتين الوجنتين البتيتين النَّاعمتين ضعيف للغاية... غير أنه يتصرّف بصيانيّة صارخة أيضاً. كحام فهو أقلُّ كثيرًا من المنشود، لكنني ممتنةٌ لأن معي السير چورا وخيالة دمي، وتنانيني، لا تنسي أبداً. مع الوقت سيُصبح التنانين أكثر حُرّاسها مهابةً، تمامًا مثل إجون الفاتح وأختيه قبل ثلاثمئة عام، أمّا الآن فتانينها مصدر خطرٍ عليها أكثر من

(1) المانتيكور في الأساطير الفارسيّة حيوان له رأس إنسان وجسم أسد وجناحان كالوطواط وثلاثة صفوف من الأسنان الحادة كسمكة القرش، أمّا في عالم الرواية فيُطلق على حشرة لها رأس شبيهة بالإنسان وذيل شائك مقوّس مليء بالسَّم، وتستطيع أن تطوي أجنحتها كالجعمران. (المترجم).

حماية لها، ففي العالم قاطبةً ليس هناك إلا ثلاثة تنانين أحياء، تنانينها هي،
أعجوبة ورُعب أثنى من كل كنوز الدنيا.

كانت تتدبّر كلماتها التالفة عندما أحسّت بنفحةٍ باردة على مؤخرة عنقها،
وتحرّكت خُصلة نافرة من شعرها الذهبي الفضي على جبينها، وفي الأعلى
صرّت الأشرطة واهتزّت، وفجأةً سرّت صيحة البحّارة في كل مكانٍ على متن
(بالريون): «الريّح! الريّح! الريّح عادت! الريّح!».

رفعت عينها إلى حيث تموّجت أشرعة الكوج العظيم ورنّت أجراسها،
بينما انشدت الحبال عن آخرها منشدةً الأغنية الجميلة التي تاقوا إليها سنّة
أيام طويلة، واندفع الرّبّان جروليو إلى المقدمة، وشرع من لا يهلّلون سعادةً
منّ الهتوشيين في تسلق الصّواري، وحتى بلواس القوي نفسه أطلق هتافاً
مدوّياً ورقص رقصه صغيرةً.

قالت داني: «الشكر للالهة. أترى يا چورا؟ سُوصل طريقنا من جديد».
قال: «نعم، لكن إلى أين يا مليكتي؟».

هبّت الرّيح طول النّهار بثباتٍ من الشّرق، ثم اشتدّت كثيراً قبيل مغيب
الشّمس في الأفق كشعلة حمراء. ذكّرت داني نفسها قائلةً: ما زلتُ أبعدُ نصف
عالم عن (وستروس)، لكن كل ساعة تُقربني إليها. حاولت أن تتخيّل كيف
ستكون مشاعرها عندما يقع بصرها للمرّة الأولى على الأرض التي وُلدت
لتحكّمها. سيكون أجمل شاطيء رأيتُه على الإطلاق، إنني متأكّدة، فكيف
يُمكن أن يكون غير هذا؟

لكن لاحقاً في الليلة نفسها، بينما محرّت (بالريون) عباب الظلام،
وجلست داني متقاطعة السّاقين تُطعم تنانينها على سريرها في قمرة الرّبّان
-التي أخلاها لها جروليو بكرم قائلاً إن حتى في البحر الملكات لهنّ الأسبقية
فوق الرّبّانة- ارتفعت دقّة حادّة على الباب.

كانت إيرى نائمةً عند قدم السّرير الأصغر من أن يحتوي ثلاثة، والليلة
دور چيكوي في اقتسام الحشية المبطنه بالرّيش مع الكاليسي، لكن الوصيفة
نهضت وذهبت إلى الباب، فيما رفعت داني الغطاء وثبتته تحت إبطها، فقد
كانت عارية ولم تتوقّع زائراً في هذه السّاعة. قالت حين رأت السير چورا
واقفاً في الخارج تحت مصباح متأرجح: «ادخل».

حتى الفارس المنفي رأسه وخطا إلى القمرة قائلاً: «آسفٌ لأني أزعجتُ نومك يا جلالة الملكة».

قالت: «لم أكن نائمةً أيها الفارس. تعال وانظر»، والتقطت قطعةً من لحم الخنزير المملح من الوعاء الذي في حجرها، ورفعتها ليراها تنانينها، فحدق ثلاثهم إليها بجوع. بسطَ ريجال جناحين أخضرين وحركَ الهواء، وتمايلَ عنقُ فُسيريون إلى الأمام والخلف كثعبانٍ شاحبٍ طويلٍ وهو يُراقب حركة يدها، ثم قالت داني بنعومة: «دروجون، دراكارس»، وألقت قطعة اللحم في الهواء. تحركَ دروجون أسرع من كوبرا تنفث الزُعاف، وخرج اللهب هادراً من فمه، برتقاليّاً وقرمزيّاً وأسود، وفحم اللحم قبل أن يبدأ في السقوط، وإذا انغلقت أسنانه السوداء الحادة عليه، اندفع رأس ريجال على مقربةٍ منه، كأنه يُحاول سرقة الجائزة من بين فكّيه أخيه، لكن دروجون ازدرد وصرخ، فلم يستطع التّنين الأخضر الأصغر إلا الفحيح معتظاً.

قالت داني بضيق وهي تضربه على رأسه بقوة: «كفّ عن هذا يا ريجال. لقد أكلت القطعة السّابقة. لن أسمح بأن تكون تنانيني جشعةً»، ثم ابتسمت للسّير چورا قائلةً: «لن أحتاج إلى طهو لحمهم على المستوقد ثانيةً».

- «أرى هذا. دراكارس؟».

أدارَ التّنانين الثلاثة رؤوسهم إثر الكلمة، وأطلق فُسيريون دفقةً من اللهب الدّهبي الباهت جعلت السير چورا يتراجع مسرعاً، فقهقهت داني وقالت: «احذر من هذه الكلمة أيها الفارس وإلا أحرّقوا لحيتك. إنها تعني «نيران التّنين» في المأليريّة الفُصحى. أردتُ أن أنتقي أمراً لن ينطقه أحد مصادفةً».

أوما مورمونت برأسه قائلاً: «هل تسمح جلالة الملكة بأن أحدثها على انفراد؟».

قالت: «بالطبع. إيرى، اتركينا بعض الوقت»، ووضعت يدها على كتف چيكيوي المكشوفة مضيئةً: «وأنت أيضاً يا عزيزتي. السير چورا يُريد أن يُحدّثني».

قالت چيكيوي: «نعم يا داليسي»، ونزلت من السّرير عاريةً متثابّةً، وشعرها الأسود الكثيف متشابكٍ حول رأسها، وارتدت ثيابها بسرعةٍ وخرجت مع إيرى مغلقةً الباب.

أعطت داني التنانين بقیة اللحم ليتشاجروا عليه، وربّبت إلى جوارها على السّرير قائلة: «اجلس أيها الفارس العزيز وأخبرني بما يُقلِّقك».

جلس السير چورا مجيبًا: «ثلاثة أشياء: بلواس القوي، وهذا الأَرستان ذو اللّحية البيضاء، وإلريو موباتيس الذي أرسلهما».

ثانية؟ سحبت داني الغطاء إلى أعلى أكثر وثبتت أحد طرفيه على كتفها سائلة: «ولم؟».

قال الفارس المنفيّ بينما بدأ فُسيريون وريجال يشتبكان: «دجالو (كارث) قالوا لك إنك ستعرفين ثلاث خيانات».

ردّت داني التي لم تنس: «واحدة من أجل الدّم، وواحدة من أجل الذهب، وواحدة من أجل الحُب. ميري ماز دور كانت الأولى».

- «أي أن هناك خائنين آخرین... والآن يظهر هذان الاثنان. أرى أن هذا مُقلِّق، نعم. لا تنسي أبدًا أن روبرت عرض اللوردية على من يقتلك».

مالت داني إلى الأمام وجذبت ذيل فُسيريون لتبعده عن أخيه. انحسر غطاؤها عن صدرها مع حركتها، فعادت تسحبه سريعًا وتُغطّي نفسها، وقالت: «لقد مات الغاصب».

رفع السير چورا رأسه إليها لتلتقي عيناه الدّاكتنان عينيها، وأضاف: «لكن ابنه يحكم في مكانه، والابن المطيع يُسدّد ديون أبيه، حتى ديون الدّم».

- «ربما يُريد هذا الصّبي چوفري مماتي... إذا تذكّر أنني حيّة، لكن ما علاقة هذا بلواس و آرستان؟ العجوز لا يحمل سيفًا حتى كما رأيت بنفسك».

- «أجل، ورأيت البراعة التي يتعامل بها بعُكازه. أتدكرين كيف قتل المانتيكور في (كارث)؟ كان من الممكن أن يسحق عنقك بالبساطة نفسها».

أشارت قائلة: «كان ممكنًا لكنه لم يحدث. المانتيكور كان سيقتلني بسّمه، وهو أنقذ حياتي».

- «گاليسي، هل خطر لك أن ذا اللّحية البيضاء وبلواس كانا متواطئين مع القاتل؟ قد تكون كلها مجرد حيلة لكسب ثقتك».

جعلت ضحكتها المفاجئة دروجون يهسّ، وحدت بفُسيريون إلى الوثوب في الهواء ليقبع فوق الكوة، بينما قالت هي: «الحيلة انطلت تمامًا إذن!».

لم يُبَادِلْهَا الفارس المنفِيُّ الابتسام، بل قال: «هذه سُفنُ إيريو، وهؤلاء ربابنته وبَحَّارته... وبلواس القوي وأرستان رجلاه أيضًا لا رجلاك!».
- «الماجستير إيريو حماني في الماضي. بلواس يقول إنه بكى لَمَّا علم بموت أخي».

- «نعم، لكن هل بكى فُسِيرَس أم الخُطَط التي وضعها معه؟».
- «خُطَطه ليست في حاجةٍ إلى تغيير. الماجستير إيريو صديق لعائلة تارجارين، وثري...».

- «إنه لم يولد ثريًا، وفي العالم الذي عرفته لا أحد يُثْرِي لأنه شخص صالح. الدَّجَالون قالوا إن الخيانة الثانية ستكون في سبيل الذهب، فما الذي يُجْبِئُه إيريو موباتيس أكثر من الذهب؟».

في الجهة الأخرى من القمرة تحرَّك دروجون بتوتُّرٍ وصعد البُخار من منخريه، فيما أجابت داني: «جلده. ميري ماز دور خانتني فأحرقتها».

- «ميري ماز دور كانت تحت رحمتك، أمَّا في (بتوس) فستكونين أنتِ تحت رحمة إيريو موباتيس. هذا غير ذلك. إنني لا أقل عنك معرفةً بالماجستير، وأعلمُ أنه رجل مخادع، وذكي...».

- «وأنا أحتاجُ إلى رجال أذكيا حولي إذا أردتُ الفوز بالعرش الحديدي».
قال السير چورا ساخرًا: «بائع التَّبِيد الذي حاول أن يُسَمِّمَكَ كان ذكيًا أيضًا، والأذكيا يحيكون أطمح الخُطَط».

سحبت داني ساقها وراء الغطاء قائلةً: «أنت ستحميني، أنت وخيالة دمي».

- «أربعة رجال؟ غاليسي، أنت مؤمنة بأنك تعرفين إيريو موباتيس، ليكن، ومع ذلك تُصرِّين على أن تُحيطي نفسك برجال لا تعرفينهم، كذلك الخصي المنفوخ وأكبر مُرافقي العالم سنًا. تعلِّمي من بيات پري وزارو زون داكسوس».

ذكَرت داني نفسها في قرارها: إنه حَسَن النِّيَّة، يفعل كلُّ ما يفعله بدافع الحُب. «يبدو لي أن الملكة التي لا تثق بأحد حمقاء كالملكة التي تثق بالجميع. كل رجل أقبه في خدمتي مجازفة، أفهمُ هذا، لكن كيف سأربحُ (الممالك السَّبْع) دون مجازفات؟ هل سأغزو (وستروس) بفارسٍ منفِيٍّ واحد وثلاثة خيالة دم؟».

قال ضياغطاً أسنانه بعناد: «لن أنكر أن طريقك محفوف بالمخاطر، لكن إذا وثقت بكلِّ كذابٍ ومتآمرٍ يقابلُك فيه بلا تفكيرٍ، سينتهي بك الأمر كأخيك». «أغضبها مكابرتي، وقالت لنفسها: يُعاملني كأني طفلة، ثم إنها ردت: «بلواس القوي لا يستطيع أن يتآمر لمجرد سرقة وجبة إفطار، وما الأكاذيب التي أخبرني آرستان ذو اللحية البيضاء إياها؟».

- «إنه ليس كما يتظاهر، ويُخاطبك بجرأة لا تُراود أيَّ مُرافقٍ».

- «لقد تكلم بصراحةٍ بأمر مني، وكان يعرف أخي».

- «كثيرون للغاية عرفوا أخيك. يا جلالة الملكة، في (وستروس) لحضرة قائد الحرس الملكي مكان في المجلس الصَّغير، ويخدم الملك بعقله كما يفعل بسلاحه. إذا كنت أولُ فرسانِ حرسك الملكي، فأناشذك أن تسمعيني، فعندي خطةٌ أودُّ أن أشرحها لك».

- «خطةٌ؟ أخبرني».

- «إليريو موباتيس يُريدك في (بتتوس) تحت سقفه، ليكن، اذهبي إليه... لكن في الوقت الذي يُناسبكِ وليس وحدك. لنرمدى إخلاص و طاعة رعاياك الجدد هؤلاء. مُري جروليو بتغيير المسار إلى (خليج النَّحاسين)».

لم يُرقِ داني وقع الكلام على الإطلاق، فكلُّ ما سمعته عن أسواق اللّحم البشري في مُدن الرِّقيق العظيمة (يونكاي) و(ميرين) و(أستاپور) رهيب مخيف. «وماذا سأجد في (خليج النَّحاسين)؟».

قال السير چورا: «جيشًا. إذا كان بلواس القوي يُعجبك لهذه الدَّرجة، فيمكنك أن تشتري مئاةٍ مثله من حلبات القتال في (ميرين)... لكن (أستاپور) هي الوجهة التي أنصحُ بالإبحار إليها، فهناك يُمكنك أن تشتري جُنْدًا مطهَّرين».

- «العبيد أصحاب القبعات البرونز المدبَّبة؟». كانت قد رأت حرسًا من هؤلاء المطهَّرين في المُدن الحُرَّة، يقفون على أبواب الماچسترات والأركونات⁽¹⁾ والحُكَّام. «ولماذا أحتاجُ إلى جُنْدٍ مطهَّرين؟ إنهم لا يركبون الخيول حتى، ومعظمهم بدينون».

(1) الأركون كلمة يونانية قديمة تعني حرفياً «الحاكم»، وإن كانت قد استُخدمت مع عددٍ مختلف من أصحاب المناصب الرِّسميَّة وكبار التُّجَّار في روما القديمة والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، كما استخدمها العرب للإشارة إلى العظيم من الدهقان الفُرس. (المترجم).

- «المطهَّرون الذين رأيتهم في (پنتوس) و(مير) حرس بيوت. هذه خدمة ناعمة، والمخصَّصون يجنحون إلى الامتلاء في جميع الأحوال، فالطعام هو المتعة الوحيدة المسموحة لهم. الحُكم على كلِّ الجُند المطهَّرين من خلال بضع حرس بيوت كالحكم على كلِّ مُرافقي الفُرسان من خلال آرستان ذي اللحية البيضاء يا جلالة الملكة. هل تعرفين حكاية الثلاثة آلاف كُوهوري؟»
انزلق الغطاء عن كتف داني، فعادت تُتَبَّه في مكانه مجيبة: «لا».

- «كان هذا قبل أربعمئة عام أو أكثر، في بداية خروج الدوثرافي من الشَّرق ناهيين ومُحرقين كلَّ بلدةٍ ومدينةٍ في طريقهم. الكال الذي يقودهم كان اسمه تيمو، ولم يكن غالاساره بحجم غالاسار دروجو، لكنه كان كبيرًا بما فيه الكفاية، يضمُّ خمسين ألفًا على الأقل، نصفهم مُحاربون ترنُّ الأجراس في شعرهم المضفر. علِم الكُوهوريون أنه قادم إليهم، فحصَّنوا أسوارهم وضاعفوا أعداد حرسهم، وعلاوةً على هذا استأجروا اثنتين من الجماعات الحُرَّة، الرِّايات اللامعة والأبناء الثَّانين، وكفكرة متأخرة أرسلوا رجلًا إلى (أستاپور) ليشتري ثلاثة آلاف مطهَّر، لكن مسيرة العودة إلى (كُوهور) استغرقت وقتًا طويلاً، ومع دنوِّهم رأوا الدُّخان والغبار وسمعوا جلبة المعركة. كانت الشَّمس قد غربت عندما بلغ المطهَّرون المدينة أخيرًا، والغربان والذُّباب تلتهم وليمةً أسفل الأسوار مما تبقي من سلاح الخيالة الكُوهوري، وقد فرَّ الأبناء الثَّانون والرِّايات اللامعة كما يفعل المرتزقة دائمًا عند غياب الأمل في النَّصر، وعاد الدوثرافي مع انتشار الظلام إلى مخيماتهم ليشربوا ويرقصوا ويحتفلوا، إلا أن الشُّك لم يُراود أحدًا في عودتهم في اليوم التَّالي لتحطيم بؤابة المدينة واقتحام الأسوار، توطئةً لأن يغتصبوا ويسلبوا ويستعبدوا كما يشاؤون. لكن حين بزغ الفجر وخرج تيمو وگالاساره من معسكرهم، وجدوا ثلاثة آلاف جُندي مطهَّر في وضع الدِّفاع أمام البوَّابات، وفوق رؤوسهم تخفق راية الكبش الأسود. كان من الممكن تطويق هذه القوَّة الصَّغيرة بسهولة، لكنك تعرفين الدوثرافي، وبالنسبة لهم هؤلاء رجال على أقدامهم، ومن على أقدامهم صالحون فقط لأن يُدعسوا بالخيول. هكذا هجم الدوثرافي، فضمَّ المطهَّرون تُروسهم معًا وخفضوا حراهم ووقفوا ثابتين، ضد عشرين ألفًا من الصَّارخين الرِّثَّانين ووقفوا ثابتين. ثماني عشرة مرَّة هاجم

الدوثرافي وخطموا أنفسهم على تلك الثروس والحراب كالموج على ساحل من الصخر، وثلاث مرّات جعلَ تمو رُماته يدورون حولهم ممطرين الثلاثة آلاف بالسّهام، لكن المطهّرين رفعوا تُروسهم فوق الرُّؤوس ببساطة حتى تجاوزتهم الزُّوبعة. في النهاية لم يتبقّ منهم إلا ستمئة... على حين افترشت جُثث أكثر من اثني عشر ألفاً من الدوثرافي أرض ميدان المعركة، بما فيها كآل تمو نفسه، وخيالة دمه وگوهاته وأبنائه كلهم. في صباح اليوم الرّابع قاد الكآل الجديد النَّاجين أمام بوابات المدينة في موكب مهيب، وواحدًا تلو الآخر قطع كلُّ رجلٍ جديسته وألقاها عند أقدام الثلاثة آلاف. منذ ذلك الحين وحرس المدينة في (كوهور) من المطهّرين وخدمهم، وكلُّ منهم يحمل حربةً طويلةً تتدلّى منها جديلة من الشّعر البشري. هذا ما ستجدينه في (أستاپور) يا جلالة الملكة. ارسى هناك وواصلِي الطريق إلى (پنتوس) على اليابسة. سيستغرق وقتًا أطول، نعم... لكن حين تأكلين العيش والملح مع الماچستر إيريوي، سيكون وراءك ألف حارس لا أربعة فقط.

ثمّة حكمة في كلامه، نعم، لكن... «كيف سأشتري ألفاً من الجنود العبيد؟ إنني لا أملك شيئاً ذا قيمة إلا التّاج الذي أعطتني إياه أخوة التورمالين».

- «التنانين ستكون أعجوبةً كبرى في (أستاپور) كما كانت في (كآرث)، وربما يُمطرك النَّحاسون بالهدايا كما فعل الكآرثين... وإن لم يفعلوا، فهذه السّفن تحمل أكثر من الدوثرافي وخيولهم، وقد دخلتُ المخازن ورأيتُ بنفسِي أنها حملت مختلِف البضائع من (كآرث)، من لفافات الحرير وجلد التّمر إلى منقوشات اليشب والكهرمان وجرار الزّعفران والمُر... العبيد رخيصون يا جلالة الملكة، أمّا جلد التّمر فباهظ».

قالت معترضةً: «جلد التّمر هذا ملك إيريوي».

- «وإيريوي صديق لعائلة تارجارين».

- «هذا سبب أدعى لآلٍ أسرق بضائعه».

- «وما جدوى الأصدقاء الأثرياء إذا لم يضعوا ثرواتهم تحت تصرّفك يا مولاتي؟ إذا رفض الماچستر إيريوي، فهو زارو زون داكسوس لكن أكثر بدانةً فحسب، وإذا كان مخلصاً حقاً في دعمه قضيتك، فلن يرضنّ عليك بحمولة ثلاث سّفن من البضائع. هل من فائدة أفضل لجلد التّمر من شراء بذرة أولى لجيشك؟».

هذا صحيح. قالت شاعرةً بحماستها تتصاعد: «تلك المسيرة الطويلة ستكون لها مخاطرها...».

- «البحر له مخاطره أيضًا. القراصنة يجوبون الطريق الجنوبي بحثًا عن ضحايا، و(البحر الدّاخن) شمال (فاليريا) تَسْكُنُه الشّياطين. قد تُغرِقنا العاصفة التّالية أو تُشجّتنا، وقد يسحبنا كراكن تحت الماء... أو قد نجد أنفسنا عالقين بلا ريح ثانية، ونموت عطشًا ونحن ننتظر عودتها. المسيرة ستكون لها أخطار مختلفة يا مولاتي، لكنها ليست أعظم».

- «لكن ماذا لو رفض الرّبّان جروليو أن يُعيّر مساره؟ وماذا سيفعل آرستان وبلواس القوي؟».

نهض السير چورا قائلاً: «ربما حان الوقت لأن تعرفي». ردّت وقد حزمت أمرها: «نعم، سأفعل هذا!»، وأزاحت الغطاء ووثبت من السّيرير مواصلةً: «سأرى الرّبّان في الحال وأمره بأن يتّجه إلى (أستاپور)»، ومالت على صندوقها ورفعت غطاءه وأطبقت على أول ثوب وجدته، السّراويل الفضفاضة المصنوعة من الحرير الرّملي، وقالت لچورا أمرّة وهي تسحبها على وركيها: «ناولني حزام الرّصائع»، وبدأت تلتفت مضيفةً: «وصدرتي...».

وطوّقها السير چورا بذراعيه.

- «أوه». لم تجد داني وقتًا لأن تقول إلّا هذا قبل أن يسحبها إليه ويلصق شفثيه بشفثيها. كانت رائحته عرقًا وملحًا وجلدًا، وانغرسّت البروزات الحديد في سترته الجليدية الضيّقة في ثدييها العاريين وهو يضمّها إليه بقوة ساحقة، وقد أمسكتها يد من كتفها وانزلت الأخرى على عمودها الفقري إلى أسفل ظهرها، وانفتح فمها للسانه على الرغم من أنه لم يتلقّ منها الأمر. لحيته شائكة لكن فمه حلو. الدوثرافي لا يُطلقون لحاهم، بل شوارب طويلة فقط، وگال دروجو هو الوحيد الذي قبلها في حياتها كلها. لا يجدرُ به أن يفعل هذا. إنني ملكته ولستُ امرأته.

كانت قبلةً طويلةً، وإن لم تدر داني كم دامت، ولمّا انتهت رفع السير چورا يديه عنها فأخذت خطوةً سريعةً إلى الوراء قائلةً: «لم... لم يكن يجب أن...». أنهى عبارتها وعيناه على ثدييها: «لم يكن يجب أن أنتظر كلّ هذا الوقت».

كان يجب أن أقبلك في (كارث)، في (فايس تولورو)، كان يجب أن أقبلك في (الففر الأحمر) كل ليلة وكلّ نهار. أنت مخلوقة لأن تُقبلي، كثيرًا وجيدًا». غطت داني ثدييها بيديها قبل أن تخونها حلمتها، وقالت: «أنا... لم يكن هذا لائقًا. إنني ملكتك».

- «ملكتي، وأشجع وأعذب وأجمل امرأة رأيتها. دنيرس...».

- «جلالة الملكة!».

- «جلالة الملكة، التّنين له ثلاثة رؤوس، أتذكّرين؟ إنك تتساءلين عن هذا منذ سمعته من الدّجالين في بيت العُبار. حسن، إليك ما يعنيه: بالريون وميراكسس وفاجهار، التّنانين التي امتطأها إجون وريينس وفيزينيا، تّنين عائلة تارجارين ذو الثلاثة رؤوس، ثلاثة رؤوس وثلاثة راكبين».

قالت داني: «نعم، لكنني أخويّ ماتا».

- «ريينس وفيزينيا كانتا زوجتيّ إجون وأختيه. أنت بلا إخوة، لكن يُمكنك أن تتّخذي زوجين، وأقول لك بكل صدق يا دنيرس إنك لن تجدي رجلًا في العالم كله بنصف إخلاصي لك».

بران

ارتفع جدار الأخدود من الأرض بزواوية تميل بحدّة، مساحة طويلة من التربة والصّخر تمتدّ متخذةً شكل المخلب، وتشبّث بمنحدراتها السفلى أشجار الصّنوبر والرّعور البرّي والدردار، وإن تجرّد أعلاها من كلّ زرع، وبدأ خطّ القمّة عاريًا قاسيًا تحت السّماء المكفّهرة.

كان يحسّ بالحجارة العالية تُناديه، وإلى أعلى أتجه متواثبًا، بتمهّل في البداية ثم أسرع وأعلى، تنهب قوائمه القويّة المنحدر نهبًا. خرجت الطيور مفزوعةً من وسط الأغصان فوق رأسه إذ مرّ بها مسرعًا، وحلّقت إلى الأعالي ضاربةً الهواء بعنف، وتناهى إلى سمعه هفيف الرّيح بين أوراق الشّجر والسّناجب تتبادل الصّرير، بل والصّوت الذي صدر من كوز صنوبر إذ سقط على أرض الغابة، بينما أحاطت به الرّوائح من كلّ صوبٍ كأغنيّة، أغنيّة ملأت العالم الأخضر الطيّب.

تطائر الحصى من تحته وهو يقطع الأقدام القليلة الأخيرة ليقف على القمّة، حيث قرص الشّمس الأحمر الضّخم المعلق فوق الصّنوبرات الطويلة، ومن تحته تمتدّ الأشجار والتّلال وتمتدّ متجاوزةً مدى بصره وشّمه، وبعيدًا في الأعلى راحت حدأة تدور وقد بدا لونها داكنًا تحت السّماء الوردية.

أمير. تردّد الصّوت البشري في عقله فجأةً، لكنه شعر بما في قوله من صواب. أمير الأخضر، أمير (غابة الذّئاب). إنه قويٌّ وسريعٌ وضارٍ، وكل مخلوق يسكن العالم الأخضر الطيّب يفتر منه خوفًا.

بعيدًا في قاع الغابة في الأسفل تحرك شيء ما وسط الأشجار، ومضة رمادية لم يكد يلمحها حتى اختفت، وإن كانت كافيةً لأن يُرهف أذنيه. ثم

إن جسمًا آخر انسلَّ بالقرب غدِير أخضر سريع واندفعَ يجري، فأدركَ ماهيته في الحال. ذئاب. إنهم أولاد عمومته الصغار، يُطاردون فريسةً ما، والآن بدأ الأمير يرى مزيدًا منهم، ظلالًا على أقدام شهباء رشيقة. قطع.

هو أيضًا كان له قطيعه ذات يوم. خمسة كانوا، وسادسًا بمنأى عنهم، وفي مكان ما في أعماقه تقبع الأصوات التي أطلقها البشر عليهم للتمييز بينهم، وإن لم يكن بالأصوات يعرف إخوته وأخته، وإنما يتذكّرهم بروائحهم. إن روائحهم جميعًا متشابهة، ورائح قطع، لكن لكل منهم رائحته المختلفة أيضًا. أحسَّ الأمير بأخيه الغاضب ذي العينين الخضراوين المتقدتين قريبًا، على الرغم من أنه لم يره ويصطدّ معه منذ فترةٍ طويلة، غير أن غروب كل شمس يُباعد المسافة بينهما أكثر، وقد كان آخر أشقائه، والآخرون تفرّقوا وتشتّتوا بعيدًا كأوراق شجر ذرّتها الرّيح.

ما زال يشعُر بهم أحيانًا، كأنهم لم يُفارقوه ولا يحجُبهم عن بصره إلا جُلُود حجري أو مجموعة من الأشجار، ولئن كان لا يستطيع أن يشمّهم أو يسمع عوّاهم ليلاً، فإنه يستشعر وجودهم وراء ظهره... كلهم إلا الأخت التي فقدوها. تهذّل ذيله لمّا تذكّرها. أربعة الآن، أربعة لا خمسة، أربعة وواحد آخر، الأبيض الذي بلا صوت.

هذه الغابة تنتمي إليهم؛ المنحدرات المكسوّة بالثلوج والتلال الحجريّة، والصنوبرات الخضراء الضخمة، والسنديانات ذات الأوراق الذهبيّة، والنهيرات الدافقة والبُحيرات الزرقاء التي تتحسّس ضفافها أصابع الصقيع الأبيض. لكن أخته تركت البراري لتمشي في أبهاء صخر الإنسان التي يحكمها صيادون من نوع آخر، وحال دخول تلك الأبهاء يغدو العثور على طريق العودة عسيرًا. الأمير الذئب يذكّر.
تغيّر اتجاه الرّيح بعتّة.

غزال، وخوف، ودم. أيقظت رائحة الطريدة جوعه، ودارَ الأمير متشمّمًا الهواء ثانيةً، ثم انطلقَ يعدو على القمّة وقد تفرّق فكاه. كان جانب الأخدود البعيد أكثر تحدّرًا من الذي صعدَ عليه، لكنه مرقّ بأقدام واثقة فوق الأحجار والجذور والأوراق المتعفنة، ونزل المنحدر واندفعَ بين الأشجار، تطوي وثباته الطويلة الأرض وتجتذبه الرّائحة فيُسرع أكثر وأكثر.

وجد الغزاة تُحتَضِرُ مفترشةً الأرض عندما بلغها، وقد أحاطَ بها ثمانية من أولاد عمومته الرَّماديين الصُّغار، وبدأ رأسا القطيع يلتهما وجبتهما، الذكر أولاً ثم أنثاه، يتبادلان تمزيق اللحم من أسفل بطن الضحية الأحمر، فيما ينتظر الآخرون كلهم بصبر، باستثناء ذيل القطيع الذي أخذ يدور بحذر على بُعد خطوات قليلة من البقية، خافضاً ذيله وهو يعلم أنه آخر الأكلين، أيًا كان ما سيتركه له إخوته.

كان الأمير يتحرّك في اتجاه الرّيح، فلم يشعروا به حتى حطّ على جذع شجرة ساقط على بُعد ستّ وثباتٍ من حيث يأكلون. رآه الذيل أولاً فأطلق أنيناً مثيراً للشفقة وانسل مبتعداً، بينما التفت إخوته في القطيع إثر الصّوت وكشفوا أسنانهم زائمين، جميعهم عدا قائدَيْهم الذكر والأنثى.

أجاب الذئب الرّهب الزّوم بزمجرةٍ واطئةٍ مُنذرة وكسّر لهم عن أنيابه. إنه يفوق أولاد عمومته حجماً، أكبر مرّتين من الذيل الهزيل ومرّة ونصفاً من رأسيّ القطيع. هكذا وثبّ وسطهم، ونكص ثلاثة منهم وذابوا بين الشجيرات، بينما هاجمه رابع بأسنان تعضّ الهواء، فصدّ الهجوم مباشرةً، وأطبق على ساق الذئب بفكيه عندما تصادما، وطوّحه بعيداً لينهض وهو ينجح ويعرج.

عندئذٍ لم يعد هناك من يواجهه إلا الذئب الرّئيس، الذكر الأشهب الكبير بخطمه المخضب بالدماء الطازجة من بطن الغزاة اللين. كان على خطمه شيء من البياض أيضاً، يدل على كونه ذئباً عجوزاً، لكن حين فغر فاه سالّ اللعاب الأحمر من بين أسنانه.

فكر الأمير: إنه لا يعرف الخوف، مثلي تماماً. سيكون قتالاً جيّداً، ولم يلبث كلاهما أن انقضّ على الآخر.

طويلاً تقاتلاً، يتدحرجان معاً فوق الجذور والأحجار والأوراق الساقطة وأحشاء الفريسة الممزّقة، ينهش كل منهما الثّاني بالسّنّ والمخلب، ينفصلان ويدوران حول بعضهما بعضاً قبل أن يُعاودا الانقضاض. صحيح أن الأمير أكبر حجماً وأقوى كثيراً، لكن ابن عمّه لديه قطع، وقد أخذت الأنثى تطوف حولهما وهي تنشق وتزوم، وكلما تقهقر ذكرها المدمى تقدّمت معترضةً الطريق بينهما، وبين الفينة والفينة كان أحد الذئاب الأخرى يندفع كالسهم ليقتضم ساقاً أو أذنًا بينما الأمير ملتفت عنه، وقد أغضبه أحد مهاجميه لدرجة

أنه دارَ بثورةٍ سوداءٍ ومزَّق حَلَقَه، وبعدها حافظُ الآخرون على مسافةٍ بينهم وبينه.

وإذ انسحبَ آخرُ خيوطِ الضَّوءِ الأحمر من وسط غصون الشَّجر بأخضرها وذهبيَّها، استلقى الذئب العجوز في الثرى منهكًا، وتدرج ليكشف حلقه وبطنه. إنه الاستسلام.

تشممه الأمير ولعق الدَّماء من الفرو واللحم الممزَّقين، ولمَّا أصدر الذئب العجوز أنينًا خافتًا، استدار الذئب الرَّهيب وانصرف عنه. إنه جائع للغاية الآن، والفريسة له.

- «هودور».

جعلَه الصَّوت المفاجئ يتوقَّف ويُزَمجر، ورمقته الذئب الأخرى بأعينٍ خضراء وصفراء يلتمع فيها البصيص الأخير من نور النَّهار. لا أحد غيره سمعه. إنه كرياح غريبة تهبُّ في أذنيه وحدهما. دفن فكَّه في بطن الغزاة ومزَّق ملء فمه من اللحم.

- «هودور، هودور».

لا، لا، لن أعود. خطرت الفكرة للصبِّي لا الذئب الرَّهيب. كانت الغابة تُظلم باطرادٍ من حوله، إلى أن لم يتبقَّ غير ظلال الأشجار وبريق أعين أولاد عمومته... وعبر هذه الأعين ووراءها أبصرَ وجه رجل كبير تعتليه ابتسامة عريضة، وقبوا حجريًا لوَّثت جُدرانه رُقع النَّطرون، وتلاشى مذاق الدَّم الحار الغني من على لسانه. لا، لا تُعدني، لا تُعدني، أريدُ أن أكل، أريدُ أن أكل، أريدُ... أريدُ...

- «هودور، هودور، هودور، هودور، هودور». أخذ هودور يترنم بالكلمة

وهو يهزُّه برفق من كتفيه، جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا. كان يُحاول أن يكون رقيقًا كديدنه الدَّائم، لكن هودور يُناهز الأقدام السُّبعة طولًا، وأقوى مما يُدرك، فجعلت يده الضَّخمتان أسنان بران تصطك، ليصبح بغضب: «لا! هودور، دعني، أنا هنا، أنا هنا».

توقَّف هودور وقد بدا عليه الحرج، وغمغم: «هودور؟».

الغابة والذئب اختفت، وعاد بران مجددًا إلى القبو الرطب تحت بُرج حراسةٍ عتيق لا بُدَّ أنه مهجور منذ ألوف السنين. إنه لا يُعدُّ بُرجًا حقًا الآن،

وحتى أحجاره المتهدّمة نمت عليها الطّحالب وفروع اللّباب بكثافة،
جاعلةً رؤيتها عصيَّةً ما لم تكن واقفاً أمامها مباشرةً. سمّى بران المكان «بُرج
الحُطام»، لكن ميرا هي من عثرت على الطريق إلى القبو في الأسفل.

قال چوچن ريد: «غبت طويلاً». إنه في الثالثة عشرة من العمر، يكبر بران
بأربعة أعوام فقط، ولا يكبره حجماً كثيراً أيضاً، وربما يفوقه طولاً ببوصتين
أو ثلاث فقط، إلا أن أسلوبه الرّصين في الكلام يجعله يبدو أكبر سنّاً وأكثر
حكمةً مما هو فعلاً، وفي (ويترفل) سمّته العجوز نان «الجَد الصّغير».

قال له بران عابساً: «أردتُ أن أكل».

- «ميرا ستعود قريباً بالعشاء».

- «سممتُ الضّفادع». ميرا من آكلي الضّفادع في (العنق)، لذا فلا يعتقد
بران أن بإمكانه أن يلومها حقاً على صيدها بكثرة، ومع ذلك... «أردتُ أن أكل
الغزاة». تذكر مذاقها لحظة، الدّم واللّحم النّيء الغني، وامتلاً فمه باللّعاب.
لقد قاتلتُ من أجلها وفزتُ، قاتلتُ فزتُ.

- «هل علمت الأشجار؟».

احمرّ وجه بران خجلاً. دائماً ما يقول له چوچن أن يفعل أشياء معيّنة
عندما يفتح عينه الثالثة ويرتدي جِلدة سمر؛ يخدش لحاء شجرة، أو يصطاد
أرنباً ويرجع حاملاً إياه بين فكّيه دون أن يأكله، أو يدفع عدداً من الأحجار
مكوّناً صفّاً. أشياء سخيفة. «نسيتُ».

- «دائماً تنسى».

إنه مُحق. دائماً ينوي بران أن يُنقذ الأشياء التي يطلبها چوچن، لكنها لا
تبدو مهمّةً على الإطلاق حالماً يُصبح ذبّاً، فهناك دائماً أشياء أخرى يراها
ويشتمها، عالم أخضر كامل يرمح فيه ويصطاد... ناهيك بمقدرته على
الجري! لا شيء في الدُّنيا أفضل من الجري، ما لم يكن الجري وراء فريسة.
قال للّصبي الذي يكبره: «كنتُ أميراً يا چوچن، كنتُ أمير الغابة».

قال چوچن مذكراً إياه برفق: «أنت أمير فعلاً. تذكر هذا، أليس كذلك؟ قل
لي من أنت».

- «أنت تعرف». مع أن چوچن صديقه ومعلمه، لكن أحياناً ما تُرأود بران
الرّغبة في أن يلطمه.

- «أريدك أن تقولها. قُل لي مَنْ أنت».

قال بوجوم: «بران». بران المكسور. «براندون ستارك». الصَّبِي العاجز. «أمير (ويتترفل)... (ويتترفل) التي احترقت وتهدمت وشُرِدَ أهلها وقُتِلوا، وحُطِّمَت صُوباتها الرُّجائِيَّة، وفارَت المياه السَّاخنة من جُدرانها المتصدِّعة لتتبخَّر في السَّمس. كيف يُمكن أن تكون أميراً على مكانٍ قد لا تراه ثانيةً أبداً؟ حَتَّه چوچن: «ومَنْ سَمِر؟».

رَدَّ مبتسماً: «ذئبي الرَّهيب، أمير الخُصرة».

- «بران الصَّبِي وسَمِر الذئب. أنتما اثنان إذن؟».

تنهَّد مجيئاً: «اثنان، وواحد». إنه يكره چوچن حقاً عندما يتحامق هكذا. في (ويتترفل) أرادني أن أرى أحلام الذئب في نومي، والآن وقد عرفتُ كيف أفعَلها أجده يُعيدني منها دوماً.

- «تذكّر هذا يا بران، تذكّر نفسك وإلا استحوذَ عليك الذئب. في أثناء التحامكما لا يكفي أن تجري وتصيد وتعوي في جِلدة سَمِر».

فكَّر بران: لكنه يكفي. إنه يُحبُّ أن يرتدي جِلدة سَمِر أكثر من جِلدته هو. ما فائدة أن تكون مبدلاً للجلود إذا لم يكن ممكناً أن ترتدي الجِلدة التي تُريدها؟

- «هل ستتذكّر؟ والمرّة القادمة علم الشَّجرة، أيّ شجرة، لا فرق، المهمُّ أن تفعلها».

- «سأفعلُ، سأتذكّر. يُمكنني أن أعود وأفعل هذا الآن إذا أردت. لن أنسى هذه المرّة». لكني سأكلُّ غزاليّتي أولاً، وأتساجرُ مع تلك الذئب الصَّغيرة قليلاً.

هَزَّ چوچن رأسه نفيّاً، وقال: «لا. الأفضل أن تبقى وتأكُل، تأكُل بفمك أنت. الوازج لا يُمكنه أن يتغذى على ما يأكله حيوانه».

متمعضاً فكَّر بران: ومن أين لك بهذه المعرفة؟ إنك لم تكن وارِجاً قطُّ، ولا تعلم معنى أن يكون المرء واحداً.

نهَض هودور فجأةً فكاد يخط رأسه في السَّقْف المقوَّس، وصاح: «هودور!» وهو يهرع إلى الباب، الذي دفعته ميرا قبل أن يبلغه ودخلت إلى ملجأهم، فردَّد صبيُّ الاسطبل المبتسم ملء شِدقيه: «هودور، هودور».

ميراريد في السادسة عشرة من عُمرها، امرأة ناضجة، لكنها لا تفوق أباها طولاً، وقد قالت لبران ذات مرّة حين سألتها عن طولها إن شعب المستنقعات كلّ صغير الحجم هكذا. شعرها بُنيّ وعيناها خضراوان، وصدرها مسطح كالفتيان، وتمشي برشاقة ناعمة لا يملك بران معها إلا أن يُراقبها ببغطة، كما أنها مسلّحة بخنجر ماض طويل، وإن كانت طريقته المفضّلة في القتال هي رُمح صيد الضفادع الرّفع ذو الشعب الثلاث في يد، وفي اليد الأخرى شبكة مجدولة بإحكام.

- «مَن جائع؟»، سألت رافعة صيدها، سمكتي ترويت فضيّن صغيرتين وستّ ضفادع خضراء سمينة.

قال بران: «أنا». ولكن ليس للضفادع. في (ويتترفل)، قبل ما حدث من أشياء سيّئة، اعتادَ الدرّ والدر أن يقولوا إن أكل الضفادع يصبغ الأسنان بالأخضر ويجعل الطحالب تنمو تحت الإبطين. تساءل إن كان الوالدران قد ماتا. إنه لم يرَ جثتيهما في (ويتترفل)... لكن الجثث كانت كثيرة حقاً، ثم إنهم لم يبحثوا داخل المباني.

- «علينا أن نطعمك إذن. هلاً ساعدتني في تنظيف الصّيد يا بران؟».

أوماً برأسه إيجاباً. من الصّعب أن يظل كاسف البال في وجود ميراء، فهي أكثر مرحاً بكثير من أخيها، وتعرف كيف تجعله يبتسم دائماً، ولا شيء يُخيفها أو يُغضبها أبداً... باستثناء چوچن أحياناً. چوچن ريد يُمكنه أن يُخيف أيّ أحد تقريباً. إنه يرتدي ثياباً كلها خضراء، وعيناها قاتمتان كالطحالب، ويرى أحلاماً خضراء تتحقّق. مع أنه حلم بموتي وها أنا حي. لكنه بشكلٍ ما يُعدُّ ميتاً بالفعل.

أرسل چوچن هودور ليجمع الحطب، وأوقد لهم ناراً صغيرة فيما انهمك بران وميراء في تنظيف الضفادع والسّمكتين. استخدمتا خوذتا ميراء كإناء طهوء، وقطعا لحم الصّيد إلى مكعبات صغيرة ألقياها في الماء مع القليل من البصل البرّي الذي اقتطفه هودور، لعمل يخنة الضفادع، التي لم تكن شهيةً كلحم الغزلان، لكن بران قرّر وهو يأكل أنها ليست سيّئة كذلك، وقال: «شكراً يا ميراء، يا سيّدتني».

- «على الرّحّب والسّعة يا سموّ الأمير».

أعلنَ چوچن: «علينا أن نتحرَّك عندما يحلُّ العَد». رأى بران ميرا تتوتَّر وهي تسأل: «هل رأيت حُلماً أخضر؟» - «لا».

قالت أخته: «لماذا نُغادرِ إذن؟ (بُرج الحُطام) مكان مناسب لنا. ليست هناك قُرى قريبة، والغابة ملأى بالصَّيد، والنُّهيرات والبُحيرات المجاورة تزخر بالسَّمك والضَّفادع... ومَن سيَعثر علينا هنا على كلِّ حال؟» - «إننا لسنا حيث ينبغي أن نكون».

- «لكنه مكان آمن».

- «أعرفُ أنه يبدو آمناً، لكن لكم من الوقت؟ لقد دارت معركة في (ويتترفل)، ونحن رأينا الموتى. المعارك تعني الحروب، فإذا داهمنا جيش ما على غفلة...».

قال بران: «قد يكون جيش روب. روب سيعود قريباً من الجنوب، إنني متأكَّد، سيعود ومعه جميع حملة رايته ويطرُد الرِّجال الحديديين».

ردَّ چوچن: «المَيستر لم يذكُر شيئاً عن روب وهو في الرَّمق الأخير. قال إن الحديديين على (السَّاحل الحجري)، وفي الشَّرْق نغل بولتون. (خندق كايِلن) و(ربوة الغابة) سقطتا، ووريث عائلة سروين مات، وكذا أمين القلعة في (مربَّع تورين). قال إن الحرب في كلِّ مكان، وإن كلَّ رجلٍ يُقاتِل جاره». قالت أخته: «سبق أن تناقشنا في هذا. أنت تُريد الذهابَ إلى (الجدار) وغُرابك ذي الثَّلاث أعين، لا بأس، لكن (الجدار) بعيد جدًّا عن هنا، وبران لا يعتمد إلَّا على ساقِي هودور. لو كنا نمتطي الخيول...».

قاطعها چوچن محتدًّا: «لو كنا نسورًا لطرنا، لكننا لا نملك أجنحةً أو خيولاً».

قالت ميرا: «ثمة خيول يُمكننا أن نحصل عليها. حتى في قلب (غابة الذئاب) هناك حطَّابون ومزارعون وصيَّادون، ولا بُدَّ أن بعضهم يملك خيولاً».

- «وإذا كانت لديهم خيول، فهل نسرقها؟ أنحن لصوص؟ آخر شيءٍ نريده أن يُطارِدنا أحد».

- «من الممكن أن نشترِها أو نُقايض شيئاً بها».

- «انظري إلينا يا ميرا. صبيّ قعيد معه ذئب رهيب وعملاق ساذج واثان من شعب المستنقعات على بُعد ألف فرسخ من (العُتق). سيتعرّفوننا ويتشهر الخبر. ما دامَ بران ميتًا فهو في أمان، لكن حَيًّا سيُصبح طريدةً لكل من يُريده أن يموت حقًا»، وذهبَ چوچن إلى النَّار لينخس الجمر بعضا مواصلاً: «في مكانٍ ما شمالًا ينتظرنا العُراب ذو الأعين الثلاث. بران في حاجةٍ إلى معلّمٍ أمهر مني».

سألته أخته: «كيف يا چوچن؟ كيف؟».

أجابَ: «سيرًا على الأقدام، خُطوةٌ خُطوةٌ».

- «الطريق من (القلعة الرّماديّة) إلى (ويتترفل) امتدّ بلا نهاية، وكنا راكبين وقتها، وأنت تریدنا أن نقطع طريقًا أطول على أقدامنا دون أن ندرى أين ينتهي حتى. تقول إنه وراء (الجدار)، منطقة لم يسبق لي أو لك الذهاب إليها، لكنني أعرفُ أن وراء (الجدار) مكان واسع يا چوچن. هل هناك غِربان كثيرة بثلاث أعين أم واحد فقط؟ كيف نعثُر عليه؟».

- «قد يعثر هو علينا».

قبل أن تردّ ميرا أتاها الصّوت، عوّاء ذئبٍ بعيد حملةٍ إليهم اللّيل، فسألَ چوچن مصغيًا: «سمر؟».

أجابَ بران الذي يعرف صوت ذئبه الرّهيب: «لا».

قال الجَدُّ الصّغير: «أأنت واثق؟».

- «واثق». كان سمر قد ارتحلَ بعيدًا اليوم، ولن يرجع قبل الفجر. ربما يرى چوچن أحلامًا خضراء، لكنه يجهل الفارق بين الذئب والذئب الرّهيب. سألَ نفسه عن سبب إصغائهم المستمر لچوچن. إنه ليس أميرًا كبران، ولا كبيرًا قويًا كهودور، ولا صيّاذاً بارعًا كميرا، وعلى الرغم من كلِّ هذا يُملي چوچن عليهم ما يفعلونه على الدّوام. قال بران: «علينا أن نسرق الخيول كما تُريد ميرا»، وفكّر لحظةً قبل أن يُضيف: «أو يُمكننا أن نسرق قاربًا ونبحر في (السكين الأبيض) إلى بلدة (الميناء الأبيض). ذلك اللورد البدين ماندرلي يحكّم هناك، وكان ودودًا في مادبة الحصاد. أرادَ أن يبنّي سفنًا، ولربما بنى عددًا منها بالفعل. يُمكننا أن نبحر إلى (ريقررن) ونُعيد روب وجيشه إلى الدّيار، ولن يهَمَّ عندها من يعرف أي حي. روب لن يسمح لأحدٍ بإيذائنا».

تجشأ هودور قائلاً: «هودور، هودور، هودور».

بدا أنه الوحيد الذي راقته خطّة بران، أمّا ميرا فابتسمت له، بينما عبسَ
چوچن. إنهما لا يُصغيان لما يُريده أبداً، رغم أن بران من آل ستارك، علاوةً
على كونه أميراً، وآل ريد أولاد (العنق) حملة راية آل ستارك.

قال هودور متميلاً: «هوووودور، هوووووودور، هوووووودور، هوووووودور،
هودور، هودور، هودور». أحياناً يُحبُّ أن يفعل هذا، يُرَدِّد اسمه بطرائق
مختلفة، يُرَدِّده مراراً ومراراً ومراراً، وفي أحيانٍ أخرى يظلُّ ساكناً تماماً
لدرجة أنك تنسى أنه موجود. مع هودور لا يُمكنك أن تتيقن من شيءٍ أبداً.
«هودور، هودور، هودور!».

أدرك بران أنه لن يتوقّف، فقال: «هودور، لِمَ لا تخرُج وتتمرن بسيفك؟».
كان صبيُّ الاسطبل قد نسي سيفه، لكنه تذكّره الآن، فتجشأ ثانيةً وقال:
«هودور!»، والتقط السيف. إن معهم ثلاثة سيوف أخذوها من على القبور
في سراديب (ويترفل)، حيث اختبأ بران وأخوه ليكون من رجال ثيون
جرايچوي الحديديين. أخذ بران سيف عمّه براندون، وميرا السيف الذي
وجدته على رُكبتَي جدّه اللورد ريكارد، أمّا سيف هودور فأقدم كثيراً، قطعة
ضخمة ثقيلة من الحديد، وإن أصبح ثلماً بعد قرونٍ من الإهمال، وانتشر
فيه الصّدأ في غير موضع. أحياناً لا ينفكُّ يضرب به ساعاتٍ متواصلة، وثمة
شجرة عفنة بالقرب من الحجارة المتداعية عزقها حتى كادَ يُمزقها إرباً. حتى
عندما خرج ظلُّوا يسمعونهُ عبر الجدران يهدر: «هودور!» وهو يهوي على
شجرته ضرباً. لحسن الحظّ أن غابة الذئاب (شاسعة حقاً، وليس محتملاً أن
هناك أحداً في الجوار يسمعه.

قال بران: «چوچن، ماذا قصدت بكلامك عن المعلم؟ أنت معلّمِي.
أعرفُ أنني لم أضع علامةً على الشجرة، لكنني سأفعلُ المرّة القادمة. عيني
الثالثة انفتحت كما أردت...».

- «انفتحت عن آخرها، حتى إنني أخشى أن تسقط فيها وتعيش بقيّة
حياتك ذئباً في الغابة».

- «لن يحدث، أعدك».

- «الصَّيْبِي يَعِدُ، لَكِنْ هَلْ سَيَتَذَكَّرُ الذُّئْبُ؟ إِنَّكَ تَجْرِي مَعَ سَمَرٍ، تَصْطَادُ مَعَهُ، تَقْتُلُ مَعَهُ... لَكِنَّكَ تَخْضَعُ لِإِرَادَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَخْضَعُ لِإِرَادَتِكَ».

متذمراً قال بران: «إني أنسى فقط. أنا في التاسعة لا أكثر، لكنني سأتحسّن عندما أكبر. حتى فلوريان المهرج والأمير إيمون الفارس التنين لم يكونا فارسين عظيمين وهما في التاسعة!».

قال چوچن: «هذا صحيح، وكلام حكيم، لو أن ساعات النهار كانت أطول... لكنها ليست كذلك الآن. أعرف أنك طفل الصَّيْف. قُل لي كلمات عائلة ستارك».

- «الشتاء قادم». مجرد قول العبارة أشعر بران بالبرد.

أوماً چوچن برزانه، وقال: «لقد حلمتُ بذئبٍ مجنَّحٍ مقيّدٍ إلى الأرض بسلاسل من حجر، وذهبتُ إلى (وينترفل) لأحرّره. أنت تخلّصت من قيودك، لكنك ما زلت لا تستطيع الطيران».

- «علمني إذن! أنت نبيّ أخضر». ما زال بران يخشى الغراب ذو الأعين الثلاثة الذي يسكن أحلامه أحياناً، ينقرّ الجلد بين عينيه بلا هواده ويقول له أن يطير.

قال چوچن: «لا، بل مجرد صبيّ يحلم. الأنبياء الأخضر كانوا أقوى من هذا، وكانوا أوراخاً أيضاً مثلك، وأعظمهم كان يستطيع أن يرتدي جلد أبيض مخلوقٍ يطير أو يسبح أو يزحف، وينظر عبر أعين أشجار الويروود كذلك، ليرى الحقائق المتوارية تحت قشرة العالم. الآلهة تمنح مواهب كثيرة يا بران. أختي صيّادة، وقد وهبت لها القدرة على الجري بسرعة أو الوقوف بثبات تام حتى يبدو كأنها اختفت، ولديها عينان ثاقبتان وأذنان حادّتان ويدان ثابتتان تحملان الرّمح والشبكة. أنا لا أستطيع أن أفعل تلك الأشياء، ولا أنت، لكن الآلهة أعطتني الأحلام الخضراء، وأنت أعطتني... يمكنك أن تصبح أعظم مني بكثير يا بران. أنت الذئب المجنّح، ولا أحد يدري المسافات التي يمكنك أن تحلقها... إذا كان لديك من يعلمك. كيف يمكنكني مساعدتك على إتقان موهبة لا أفهمها؟ إننا نتذكّر البشر الأوائل في (العنق)، وأطفال الغابة الذين كانوا أصدقاءهم... لكن كثيراً جدّاً من المعارف طواه النسيان، وكثيراً جدّاً لم نتعلّمه قطّ».

التقطت ميرا يد بران قائلة: «إذا بقينا هنا دون أن نزعج أحداً، ستكون آمناً حتى تنتهي الحرب، لكنك لن تتعلم إلا ما يستطيع أخي تلقينك إياه، وها أنت قد سمعت ما لديه. وإذا تركنا هذا المكان للبحث عن ملاذ في (المستوقد الأخير) أو وراء (الجدار)، فخطر أن يُقبض علينا قائم. أعرف أنك مجرد صبي، لكنك أميرنا أيضاً، ابن سيدنا ووريث ملكنا الشرعي، وقد أقسمنا لك على الولاء باليابسة والماء، والبرونز والحديد، والجليد والنار. المخاطرة مخاطرتك يا بران مثلما الموهبة موهبتك، ولذا فأرأيي أن القرار ينبغي أن يكون قرارك كذلك. نحن خادمك وطوع بنانك»، وابتسمت ابتسامة واسعة مردفة: «في هذا الأمر على الأقل».

قال بران: «أتعنين أنكما ستُنفذان ما أقوله؟ حقاً؟».

أجابت الفتاة: «حقاً يا أميري. ففكر جيداً إذن».

حاول بران أن يتفكر في الأمر بروية كما كان أبوه ليفعل.

هوثر باقر العاهرة ومورس آكل الغراب عمّا چون الكبير رجلان عيفان، لكنه يعتقد أنهما مخلصان، وآل كارستارك أيضاً. كان أبوه يقول دائماً إن (كارهولد) قلعة قوية. قد نكون آمين مع آل أومبر أو آل كارستارك.

أو يُمكنهم الذهاب جنوباً إلي اللورد ماندرلي البدين. في (وينترفل) كان يضحك كثيراً، ولم يرمق بران قط بنظرات الشفقة كاللوردات الآخرين. قلعة عائلة سروين أقرب من (الميناء الأبيض)، لكن المايستر لوين قال إن كلاي سروين مات. خطر له فجأة أن آل أومبر وكارستارك وماندرلي قد يكونون موتى بدورهم، المصير نفسه الذي سيلقاه إذا أوقع به الرجال الحديديون أو نغل بولتون.

إذا ظلوا هنا، مختبئين أسفل (برج الحطام)، فلن يجدهم أحد، وسيبقى حياً... وقعيداً.

أدرك بران أنه يبكي، فقال لنفسه: صبيٌ سخيف. أينما ذهب، سواء أكان إلى (كارهولد) أو (الميناء الأبيض) أو (قلعة المياه الرمادية)، سيكون الولد العاجز نفسه عندما يصل. هكذا كور قبضتيه وقال لهما: «أريد أن أطيّر أرجوكم، خذاني إلى الغراب».

دافوس

عندما صعدَ إلى سطح السفينة، كان رأس جزيرة (دريفتمارك) الطويل يتقلص من ورائهم، بينما ارتفعت (دراجونستون) من البحر أمامهم، وانبعثَ خيط من الدخان الرمادي الباهت من قمة الجبل ليُعيّن مكان الجزيرة. (دراجونمونت) مضطرب هذا الصباح، أو أن مليساندرا تحرق أحدًا آخر. لازمت مليساندرا أفكاره طويلاً فيما شقت (رقصة شاياًلاً) مياه (الخليج الأسود)، وعبرت (الحلقوم) مبدلةً مسارها عدة مرّاتٍ مع هبوب رياح معاكسة خبيثة، وذكرته النار العظيمة المشتعلة أعلى بُرج الحراسة في قلعه (التصل)، في أقصى شبه جزيرة (خطاف ماسي)، بالياقوتة التي تُتّبها على حلقها، وكلما اصطبغ العالم بالأحمر عند مطلع الفجر ومغيب الشمس، انطلى السحاب المزجى في السماء بلون الحرير والساتان في فستانها الذي يهف كلما تحرّكت.

ستكون منتظرةً في (دراجونستون) أيضاً، منتظرةً بكلّ جمالها وكلّ سطوتها، منتظرةً مع إلهها وظلالها ومليكه. دائماً بدت الرّاهبة الحمراء مخلصّةً لستانيس... حتى الآن. قال لنفسه: لقد أخضعته كما يخضع الرجل حصانه لإرادته، وسوف تمتطيه إلى سلطتها المنشودة إذا أرادت، ومن أجل هذا سلّمت أبنائي إلى النار. سأنتزع قلبها من صدرها وأرى كيف يحترق، ومَسَّ مقبض الخنجر اللايسيني الفاخر الطويل، الذي أهدها الرّبّان إياه.

كان الرّبّان كريماً معه للغاية. اسمه كوران ساثماتنس، لايسيني مثل سالادور سان الذي يملك هذه السفينة، وفي عينيه الرّزقة الشّاحبة التي تراها بكثرة في أعين أهل (ليس)، وإن كان وجهه هزياً نحلّه التّعريض المتواصل

للأجواء، إذ قضى سنوات طويلة في التجارة في (الممالك السبع)، وحين علم أن الرّجل الذي انتشلّه من البحر هو فارس البصل الشّهير، أخلّى له قمرته وأذن له في ارتداء ثيابه وأعطاه حذاءً جديدًا ناسبَ مقاسه تقريبًا، كما أصرَّ على أن يُشاركه دافوس طعامه الخاص، مع أن هذا أدّى إلى نتائج غير مرغوبة، لأن معدته لم تحتَمِلِ الحلزونات وأسماك الشَّلِق⁽¹⁾ وغيرها من الأطعمة الدّسمة التي يستطِيبها الرُّبّان كوران كثيرًا، وبعد وجبته الأولى على مائدته أمضى بقية اليوم يفرغ أحشاه من فتحةٍ أو أخرى من فوق حاجز السّفينة.

تعاطمت (دراجونستون) كلما ضربت المجاذيف الماء، واستطاع أن يميّز شكل الجبل، وإلى جانبه القلعة السوداء الهائلة بكرّاجلها وبروجها المنحوتة لتبدو كالتنانين، فيما نثر تمثال مقدّمة (رقصة شايبالا) ألسنة من الرّذاذ المالح وهو يشقّ الأمواج المصطخبة. استند دافوس بثقله كله إلى الحاجز شاعرًا بالامتنان لمتانته. لقد أضعفته تجربته كثيرًا، فإذا وقف طويلًا تهتّر ساقاه، وأحيانًا يسقط ضحيّة لنوباتٍ في غاية العُنف من السُّعال ويخرُج منه البلغم داميًا، لكنه يظلُّ يقول لنفسه: لا داعي للقلق. لا بدّ أن الآلهة لم تُفدني من النَّار والبحر كي تقتلني بالإسهال.

بينما أصغى إلى دقات طبلة رئيس المجدّفين، وطنطنة الشّراع المشدود، وتخويض المجاذيف وصريرها، عادت به الذاكرة إلى شبابه، وكيف أيقظت هذه الأصوات نفسها الرُّعب في قلبه في أكثر من صباح غائم. كانت تُندِر باقتراب رجال السير تريستيمون العجوز من خُفر البحر، وأيام جلوس إيرس تارجارين على العرش الحديدي كان خُفر البحر يعنون الموت لأيّ مهرب.

لكن هذا كان في حياةٍ أخرى، قبل سفينة البصل، قبل (ستورمز إند)، قبل أن يقصّر ستانيس أصابعي. كان هذا قبل الحرب والمذنب الأحمر، قبل أن أصبح فارسًا ويصير اسمي سيورث. كنتُ رجلًا مختلفًا في تلك الأيام، قبل أن يرفعني اللورد ستانيس عاليًا.

أخبره كوران بنهاية آمال ستانيس ليلة اشتعل النَّهر، وبأن جيش لانستر

(1) الشَّلِق أو الجلكى نوع من الأسماك يشبه ثعابين الماء، له فم حادّ الأسنان ليمتصّ دماء الأسماك الأخرى. (المترجم).

هاجمه من المؤخرة، وتخلّى عنه حملة رايته المتلونون وهو في أمس الحاجة إليهم، وأضاف الرّبّان: «هناك من شهدوا شبح الملك رنلي أيضًا، يُعمل سيفه ميمناً ويساراً وهو يقود طليعة اللورد الأسود. يقولون إن النار الشعواء أُلقت وهجاً شبيحاً على درعه الخضراء، وأتقدت قرون خوذته بلهب ذهبي».

شبح رنلي. تساءل دافوس إن كان أبنائه سيعودون كأشباح أيضًا. لقد رأى في ترحاله في البحار أغرب الأشياء طرّاً، فلا يُمكنه أن يقطع بأن الأشباح لا وجود لها. سأل الرّبّان: «ألم يحفظ أيّهم عهده؟».

- «قلائل، أغلبهم من أقرباء الملكة. استطعنا أن نأخذ كثيرين ممن يضعون رمز الثعلب والزهور، وإن ترك على الشاطئ أضعافهم ممن يضعون مختلف الرموز. اللورد فلورنت هو يد الملك في (دراجونستون) الآن».

ارتفع الجبل أكثر متوجّاً بالدخان الشاحب، وردد الشراع أنشودته على دقات الطبل وتحركت المجاذيف بنعومة، ولم يمض وقت طويل حتى انفتح ثغر الميناء أمامهم. خاو تماماً. تذكر دافوس كيف كان سابقاً، عندما ازدحمت السفن على الأرصفة كلها وتمايلت في مراسيها عند حاجز الأمواج. رأي (فاليريان) سفينة سالادور سان راسية على الرصيف الذي كانت تحتله (الثورة) وأخواتها من قبل، وعلى جانبيها سفن لايسينية أخرى ذات أبدان مخططة، وعبثاً بحث عن أي علامة على وجود (الليدي ماريا) أو (الطيف). أنزلوا الشراع وهم يدخلون الميناء ليرسوا بواسطة المجاذيف فقط، وبينما يربطون الحبال بالرصيف جاءه الرّبّان قائلاً: «سيرغب أمير في رؤيتك في الحال».

استولت نوبة من السعال على دافوس حين حاول الإجابة، فتمسك بالحاجز وبصق من فوقه، ثم قال بصوت مبوح: «الملك، يجب أن أذهب إلى الملك». فأينما كان الملك سأجد مليساندرا.

ردّ كوران ساثمانتس بحزم: «لا أحد يذهب إلى الملك. سالادور سان سيُخبرك. هو أولاً».

كان دافوس أضعف من أن يتحدّاه، ولم يستطع إلا الإيماء برأسه. لم يكن سالادور سان على متن (فاليريان)، ووجداه على رصيف آخر يبعد رُبع ميل، في مخزن كوج بنتوشي كبير البطن اسمه (الحصاد الوفير)،

يَجْرُدُ الحَمُولَةَ مع خَصِيَّيْنِ، يَحْمِلُ أَحَدُهُمَا مُصْبَاحًا وَالثَّانِي لَوْحًا مِنَ الشَّمْعِ وَمِنقَاشًا. «37، 38، 39»، كان الشَّقِي العَجُوزَ يَعدُّ عَندما نَزَلَ دَافُوسُ وَالرَّبَّانُ مِنَ الكُوءِ، وَقد ارْتَدَى سُتْرَةٌ قَصِيرَةٌ ضَيِّقَةٌ بِلَوْنِ الخَمْرِ، وَحِذاءٌ عَالي الكَعْبينِ مِنَ الجِلْدِ الأَبْيَضِ المَزخَرَفِ بِأشْكالٍ مَلُولِبَةٍ مِنَ الفِضَّةِ. خَلَعَ سَدادَةَ جِرَّةٍ وَتَشَمَّمْ مَحتوياتها وَعَطَسَ، قَبْلَ أن يَقولَ: «طَحَنَ خَشَنَ، وَمِن الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ حَسبِما قَرَّرَ أنْفِي. فَاتُورَةُ الرِّسُو تقولُ إن الجِرارَ عَدَدُها ثَلاثُ وَأَربَعونَ، فَأين ذَهَبَتْ البَقِيَّةُ يا تُرى؟ هَلْ يَحسبُ هَؤُلاءِ الپِنْتوشِيونُ أنِّي لَنْ أَعُدَّها؟»، وَتَوَقَّفَ فَجأَةً لَمَّا رَأى دَافُوسَ، وَقالَ: «هَلْ يَلسَعُ الفِلفَلُ عَينِي أم أَنها الدُّمُوعُ؟ أَهَذا فَارَسُ البَصَلاتِ الَّذي يَقِفُ أَمامِي؟ لا، كَيفَ يُمكنُ هَذا؟ الكَلُّ يَقولُ إن صَديقِي العَزيزَ دَافُوسَ ماتَ في النَّهْرِ المَشْتَعَلِ، فَلِمَ عادَ لِيلاحِيقَني؟».

- «لَسْتُ شَبَحًا يا سالا».

قال سالادور سان: «وماذا تكون غير هذا؟ فارسي البصلي لم يكن نحيلًا شاحبًا مثلك قط»، ثم إنه شقَّ طريقه بين جرار التوابل ولفائف الأقمشة التي تملأ مخزن السفينة التجارية، واحتوى دافوس بين ذراعيه بقوة شديدة، وطبع قبلة على كل من خديه وثالثة على جبهته، قبل أن يتابع: «ما زلت دافئا أيها الفارس، وأشعر بقلبك يدق في صدرك. أحلم هذا أم حقيقة؟ البحر الذي ابتلعك بصقك ثانية».

تذكر دافوس ذا الوجه المرقع، مهرج الأميرة شيرين الأبله. هو أيضًا غاص في البحر، ولما خرج منه كان قد فقد صوابه تمامًا. هل طارَ صوابي بدوري؟ سعل في يده المقفزة، وقال: «سبحت تحت السلسلة، وجرفتي التيار إلى أحد رماح ملك شعب البحار. كنت لأموت هناك لولا أن (رقصة شايبالا) انتشلتني».

وضع سالادور سان ذراعه حول كتفي الربان قائلاً: «أحسنتم صنعا يا كوران. أعتقد أنك تستحق مكافأة سخية. مايزو مار، كُن خصيًا مطيعًا واصحب صديقي دافوس إلى قمره مالك السفينة، وأحضر له نبيذًا ساخنًا بالقرنفل، فصوت هذا السعال لا يروقني. اعصر عليه القليل من الليمون الأخضر أيضًا، واجلب جُبنةً بيضاء ووعاءً من الزيتون الأخضر المشقوق الذي أحصيناه قبل قليل. سأنضم إليك قريبًا يا دافوس، بمجرد أن أفرغ من

الكلام مع رُبَّاننا الطَّيِّب. أعرِفُ أنكَ سَتُسَامِحَنِي، لكن لا تَأْكُلِ الزَّيْتُونَ كُلَّهُ وإِلَّا غَضِبْتُ عَلَيْكَ!».

ترك دافوس أكبر الخَصِيَّيْنِ سِنًا يَصْحَبُهُ إِلَى قَمْرَةٍ مَتْرَفَةٍ التَّائِثِ فِي مَوْخِرَةِ السَّفِينَةِ؛ البُسْطِ سَمِيكَةٍ تَغْوِصُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، وَرُجَاجِ النَّوَافِذِ مَلَوْنِ، وَأَيٌّ مِنْ الْمَقَاعِدِ الْجِلْدِيَّةِ الصَّخْمَةِ يَكْفِي لِأَنْ يَجْلِسَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ دَاوُوسَ بِرَاحَةٍ تَامَةٍ. وَصَلَتِ الْجُبْنَةُ وَالزَّيْتُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ، بِالإِضَافَةِ إِلَى كُوبِ مِنَ النَّبِيذِ الْأَحْمَرِ السَّاخِنِ أَمْسَكَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَشَفَ مِنْهُ بِأَمْتِنَانِ، فَبَدَأَ يَشْعُرُ بِتَحْسُنٍ طَيفِيفٍ إِذْ انْتَشَرَ الدَّفْعُ فِي صَدْرِهِ.

لم يغب سالادور سان طويلًا، وقال عندما دخلَ القمرة: «أرجو أن تُسَامِحَنِي عَلَى هَذَا النَّبِيذِ يَا صَدِيقِي. هُوَ لَاءِ الْبِنْتُوشِيُونِ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا بُولَهُمْ نَفْسَهُ لَوْ كَانَ لُونُهُ أَرْجَوَانِيًّا».

قال دافوس: «سَيُسَاعِدُ صَدْرِي. كَانَتْ أُمِّي تَقُولُ إِنَّ النَّبِيذَ السَّاخِنَ أَفْضَلَ مِنَ الْكَمَّادَاتِ».

- «أظنُّ أنكَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْكَمَّادَاتِ أَيْضًا. جَلُوسِكَ عَلَى الرُّمَحِ طِيلَةٌ هَذَا الْوَقْتِ، يَا لِلْسَّمَاءِ! مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا الْمَقْعَدِ الْوَثِيرِ؟ إِنْ فَلَقْتَنِي مَوْخِرَتَهُ ضَخْمَتَانِ حَقًّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟».

سأله دافوس بين رشفتين: «مَنْ؟».

- «إِلِيرِيو موباتيس. إنه حوت ذو شوارب حَقًّا. هَذِهِ الْمَقَاعِدُ مَفْصَلَةٌ عَلَى مِقَاسِهِ، مَعَ أَنَّهُ نَادِرًا مَا يُبَارِحُ (بِنْتُوس) لِيَجْلِسَ عَلَيْهَا. أَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّجُلَ الْبَدِينِ يَجْلِسُ بِرَاحَةٍ دَائِمًا، لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مَعَهُ وَسَادَتَهُ أَيْنَمَا ذَهَبَ».

تساءل دافوس: «وَكَيْفَ تَحَصَّلْتَ عَلَى سَفِينَةٍ بِنْتُوشِيَّةٍ؟ هَلْ عُدْتَ إِلَى الْقَرَصَنَةِ يَا سَيِّدِي؟»، وَوَضَعَ كُوبَهُ الْخَالِي جَانِبًا.

- «لَا تَفْتَرِي عَلَيَّ. مَنْ عَانَى مِنَ الْقَرَاصِنَةِ أَكْثَرَ مِنْ سَالَادُورِ سَانَ؟ إِنْ نِي لَا أُطَلِّبُ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مُسْتَحَقٌّ لِي. أَوْه، صَحِيحٌ أَنْ لِي دَيْنٌ كَبِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ، لَكِنِّي لَا أَفْتَقِرُ إِلَى التَّعَقُّلِ، وَهَكَذَا بَدَلًا مِنَ التُّقُودِ أَخَذْتُ وَثِيقَةً أُنِيقَةً فِي غَايَةِ الرَّقَّةِ، تَحْمَلُ اسْمَ وَخْتِ الْمَلِكِ أَلِسْتِرِ فِلُورِنْتِ يَدِ الْمَلِكِ. لَقَدْ سُمِّيتُ سَيِّدًا لـ (الخليج الأسود)، وَلَيْسَ مَسْمُوحًا لِأَيِّ مَرْكَبٍ بِعُبُورِ الْمِيَاهِ الْوَاقِعَةِ تَحْتَ سِيَادَتِي دُونَ إِذْنٍ مِنْ سِيَادَتِي، نَعَمْ، لِذَا عِنْدَمَا يُحَاوِلُ هُوَ لَاءِ الْخَارِجُونَ عَنِ الْقَانُونِ الْعُبُورَ

خلسةً في ظلام الليل ليتفادوا رسومي وجماركي القانونيّة، فهم ليسوا أفضل من المهريين، ومن حقّي تمامًا أن أصادر مراكبهم»، وضحك القرصان العجوز مردفًا: «لكني لا أقطع أصابع أحد، فما فائدة الأصابع المبتورة؟ إنني لا آخذ إلا السفن أو الحمولات أو فديةً صغيرةً، لا شيء مغالى فيه»، ثم رمق دافوس بنظرة حادة، وقال: «إنك لست بخير يا صديقي. هذا الشعال... كما أنك نحلت للغاية لدرجة أنني أرى عظامك تحت جلدك، لكنني لا أرى كيس عظم الأصابع الصّغير إياه...».

جعلت العادة القديمة دافوس يمدُّ يده إلى الجراب الجلدي الذي لم يُعد هناك وهو يقول: «فقدته في النَّهر». حَظي.

قال سالادور سان بكابة: «النَّهر كان رهيبًا. حتى من موقعي في الخليج رأيتُ وارتجفتُ».

سعل دافوس وبصق وسعل مجدّدًا، قبل أن يقول أخيرًا بصوتٍ مبسوح: «رأيتُ (بنا السوداء) تحترق، و(الثورة) أيضًا. ألم تنجح أيُّ من سفننا في الهرب من النَّار؟». كان جزء منه لا يزال متمسكًا بالأمل.

- «(اللورد ستفون) و(چنا الشّعاء) و(السيف السّريع) و(اللورد الضّاحك) وقلائل غيرها كانت بعيدةً عن بول الپاير ومانسرات، نعم. إنها لم تحترق، لكنها لم تستطع الهرب أيضًا في وجود السلسلة المرفوعة. البعض استسلم، لكن غالبية السفن واصلت الإبحار في (النَّهر الأسود) بعيدًا عن القتال، ثم أغرقها أطقمها كي لا تقع في أيدي رجال لانستر. ما زالت (چنا الشّعاء) و(اللورد الضّاحك) تُمارسان القرصنة في النَّهر حسبما سمعتُ، لكن من يُمكنه الجزم بصحة هذا؟».

- «و(الليدي ماريّا)؟ و(الطيف)؟».

وضع سالادور سان يده على ساعد دافوس واعتصره مجيبًا: «لا، هاتان لم تعودا، لا. آسف يا صديقي. ابنك دايل وآلارد كانا رجلين صالحين، لكن يُمكنني أن أخبرك بما يُعطيك شيئًا من العزاء. ابنك الصّغير دقان كان بين من انسحبوا في النهاية. الصّبي الشجاع لم يُفارق الملك لحظةً، أو أن هذا ما يُقال».

كان دافوس يخشى السُّؤال عن دقان، فاكتنّفه الدُّوار لحظةً وسرى في

كيانه ارتياح محسوس للغاية، وقال: «(الأم) رحيمة. يجب أن أذهب إليه يا سالا، يجب أن أراه».

قال سالادور سان: «نعم، وأعلم أنك ستُريد الإبحار إلى (رأس الغضب) أيضًا، لترى زوجتك وابنيك الصَّغيرين. أعتقد أنك في حاجةٍ إلى سفينةٍ جديدة».

- «جلالته سيُعطيني سفينةً».

هَزَّ اللايسيني رأسه نفيًا، وقال: «من السُّفن لا يملك جلالته شيئًا، لكن سالادور سان يملك الكثير. سُفن الملك احترقت في النَّهر، أمَّا سُفني فلا. ستَحْضُل على سفينةٍ يا صديقي القديم وتُعاود الإبحار لحسابي، أليس كذلك؟ وستَدْخُل (برافوس) و(مير) و(فولانتيس) مستترًا تحت جُحجُح الظلام وتَخْرُج ثانيةً ومعك الحرير والتَّوابل. ستمتلى أكياس نقودنا عن آخرها، نعم».

- «هذا لطف منك يا سالا، لكن واجبي لمليكي وليس لأكياس نقودك. سوف تستمرُّ الحرب، وستانيس لا يزال الوريث الشَّرعي بموجب قوانين (الممالك السَّبع) كلها».

- «كُلُّ القوانين لا نفع منها عندما تحترق السُّفن كُلُّها في رأبي، أمَّا ملكك فأخشى أنك ستجده مختلفًا عمَّا عرفته. منذ المعركة وهو لا يرى أحدًا، وإنما يجلس واجمًا في طبلته الحجريَّة، والملكة سيليس تعقد البلاط نيابةً عنه مع عمَّها اللورد أَلستر الذي نَصَّب نفسه يد الملك. لقد أعطت ختم الملك لهذا العم ليضعه على الرِّسائل التي يكتبها، حتى على وثيقتي الجميلة، لكن المملكة التي يحكُمُها صغيرة فقيرة وعرة، نعم. ليس هناك ذهب، ولو قدر قليل يُسَدِّدان به لسالادور سان المخلص جزءًا من حقِّه، ولا يوجد فُرسان إلا من أخذناهم في النَّهاية، ولا سُفن إلا سُفني الشُّجاعة القليلة».

هاجم سُعال مزلزل دافوس فجأةً وجعله ينثني على نفسه، فتحرك سالادور سان ليُساعده، لكنه أشار له بالبقاء في مكانه، وبعد قليل توقَّف السُّعال وسأل بصوتٍ أجش: «لا أحد؟ ماذا تعني بأنه لا يرى أحدًا؟». كان لصوته وقع ثقيل رطب في أذنيه، ومرَّةً أخرى عادَ رأسه يدور وتموجت القمره من حوله.

- «لا أحد غيرها»، أجاب سالادور سان، ولم يكن على دافوس أن يسأل من يقصد. «إنك تُتعب نفسك يا صاح، كما أنك في حاجةٍ إلى فراش وليس

إلى سالادور سان، فراش والكثير من الأغطية، وكمّادة ساخنة تضعها على صدرك، والمزيد من التبيد بالقرنفل». هزّ دافوس رأسه رفضاً، وقال: «سأكون بخير. أخبرني يا سالا. يجب أن أعرف. لا أحد غير مليساندر؟».

رمقه اللإيسيني بنظرة شكّ طويلة، قبل أن يتابع على مضض: «الحرس يمنعون أيّ أحدٍ آخر من الدّخول عليه، حتى ملكته وابنته الصّغيرة، والخدم يجلبون إليه وجباتٍ لا يأكلها»، ومال إلى الأمام وخفض نبرته مواصلاً: «سمعتُ كلاماً غريباً عن النيران الجائعة في باطن الجبل، وكيف ينزل ستانيس والمرأة الحمراء عندها لمراقبة اللهب. يقولون إن هناك آباراً وسلالم سرّية تُفضي إلى قلب الجبل، إلى أماكن ساخنة لا يقدر إلّاها على الاقتراب منها دون أن يحترق. حكايات كهذه أكثر من كافية لأن تُرعب رجلاً عجوزاً مثلي، لدرجة أنني لا أقوى أحياناً على تناول طعامي».

مليساندر. قال دافوس مرتجفاً: «المرأة الحمراء فعلت هذا به، أرسلت النار لتلتهمننا، لتعاقب ستانيس على تنحيته إياها جانباً، لتعلّمه أن لا أمل له في النّصر دون شعوذتها».

التقط اللإيسيني زيتونةً كبيرةً من الوعاء الموضوع بينهما وهو يقول: «لست أول من يقول هذا يا صديقي، لكن لو كنتُ مكانك لما قلته بصوتٍ مسموع. (دراجونستون) تعجّ رجال الملكة، أوه، نعم، وهؤلاء آذانهم حادّة وسكاكينهم أكثر حدّة»، ثم ألقى الزيتونة في فمه.

قال دافوس: «أنا أيضاً معي سكين، الرّبّان كوران أهداني إياه»، وسحب الخنجر ووضعها على المائدة بينهما مكّاملاً: «سكين أقطع به قلب مليساندر من صدرها، إذا كان لها قلب».

بصق سالادور سان نواة الزيتونة، وقال: «دافوس، عزيزي دافوس، يجب ألا تقول كلاماً كهذا، حتى ولو على سبيل الدّعاية».

- «ليست دّعاية. إنني أنوي أن أقتلها». إذا كانت قابلةً للقتل بأسلحة الفانين. إنه ليس واثقاً بأن هذا ممكن، فقد رأى المايستر كرسن يدسّ السّم في نبيذها، بعينه رآه، لكن حين شرب كلاهما من الكأس المسمومة كان

المايستر هو من لقي حتفه لا الراهبة الحمراء. أمّا طعنة في القلب... حتى الشياطين يُمكن أن يقتلها الحديد البارد كما يقول المغنون.

قال سالادور سان محدّرًا: «خطير كلامك هذا يا صديقي. أظن أنك ما زلت مريضًا من البحر. الحمى طبخت عقلك، نعم. الأفضل أن تستريح في سريرك طويلًا حتى تُصبح أقوى».

تقصد حتى تضعف عزيمتي. نهض دافوس شاعرًا بأنه محموم حقًا وقد دار رأسه بعض الشيء، غير أنه لم يكثر، وقال: «أنت عجوز شقي خداع يا سالادور سان، لكنك تظل صديقًا وفيًا».

ملس اللايسيني على لحيته الفضيّة المدببة قائلاً: «إذن ستبقى مع هذا الصديق الرائع، أليس كذلك؟».

سعل وأجاب: «بل سأذهب».

- «تذهب؟ انظر إلى نفسك! إنك تُعاني من السعال والرعدة، فضلًا عن نحولك وضعفك. إلى أين ستذهب؟».

- «إلى القلعة. فراشي هناك، وابني أيضًا».

قال سالادور سان بريبة: «والمرأة الحمراء، هي أيضًا في القلعة».

دس دافوس الخنجر في غمده مجيبًا: «هي أيضًا».

- «أنت مهزّب بصل. ماذا تعرف عن التسلل والطعن؟ كما أنك مريض ولا تستطيع أن تُمسك الخنجر حتى. أتدري ماذا سيحدث لك إذا قبضوا عليك؟ بينما كنا نحترق في النّهر، كانت الملكة تحرق الخونة هنا. قالت إنهم خدم الظلام، هؤلاء المساكين، والمرأة الحمراء غنت والنار تشتعل».

لم يندهش دافوس، وفكر: كنت أعلم، كنت أعلم قبل أن يُخبرني، ثم إنه قال مخمّنًا: «أخذت اللورد صنجلاس من الرّنازين، وأبناء هوبارد رامبتون».

- «بالضبط، وأحرقتهم كما ستحرقك. إذا قتلت المرأة الحمراء سيحرقونك انتقامًا لها، وإذا فشلت في قتلها سيحرقونك لأنك حاولت. ستغني هي وتصرخ أنت، ثم ستموت، وأنت عدت إلى الحياة لتؤك!».

قال دافوس: «وهذا هو السبب، أن أفعل ذلك، أن أضع نهاية لمليساندرا الآشايّة وكل أفعالها. لماذا بصفتي البحر إن لم يكن لهذا؟ أنت تعرف (الخليج الأسود) مثلي تمامًا يا سالا، ولا ربّان يتمتع بأيّ وعي يقود سفينته

بين رماح ملك شعب البحار ويُجَازِفُ بتمزيق قاعها. لم يكن من المفترَض أن تدنو (رقصة شايلالا) مني قَطَّ».

مصراً قال سالادور سان بصوتٍ مرتفع: «كانت ريحاً، ريحاً قويّةً لا أكثر، دفعتها جنوباً أبعد من اللازم».

- «ومن أرسلَ الرِّيحَ؟ سالا، لقد خاطبتني أمنا بنفسها».

رمقه اللايسيني العجوز بلا فهم قائلاً: «أمك ماتت...».

- «(الأم)، التي وهبت لي سبعة أبناء ومع ذلك تركتهم يُضربون النَّارَ فيها. لقد كلمتني، قالت إننا اجتلبنا النَّارَ. ونحن أيضاً من اجتلب الظلال. لقد جذفتُ بمليساندرا إلى أعماق (ستورمز إند) وشهدتها تلد هولاً». ما زال يراه في كوابيسه، يرى اليدين السوداوين النَّاحلتين تدفعان فخذيهما بينما يتملص الظل من رَحِمها المنتفخة. «مليساندرا قتلت كرسن واللورد رنلي ورجلاً شجاعاً اسمه كورتناي پنروز، وقتلت أبنائي أيضاً، وحن الوقت لأن يقتلها أحد».

قال سالادور سان: «أحد، نعم، مفهوم، أحد، ولكن ليس أنت. أنت ضعيف كطفل ولست مُحارباً. أتوسّلُ إليك أن تبقى. سنتكلم أكثر وتأكّل، ولربما نُبحرُ إلى (برافوس) ونستأجر رجلاً بلا وجهٍ يقتلها، اتفقنا؟ لكن أنت لا، عليك أن تبقى وتأكّل».

فكّر دافوس مرهقاً: إنه يُصعبُ الأمر كثيراً، وهو صعبٌ بشكلٍ مهلك أصلاً. «الانتقام كامن في أحشائي يا سالا، ولا يدع مجالاً للطعام. دعني أذهب الآن. من أجل صداقتنا، تمنّ لي الحظ ودعني أذهب».

قام سالادور سان قائلاً: «أخشى أنك لست صديقاً حقاً. من سيعود برمادك وعظامك إلى السيّدة زوجتك عندما تموت، ويقول لها إنها فقدت زوجها وأربعة من أبنائها؟ ليس هناك إلا سالادور سان العجوز الحزين. لكن ليكن أيها السير الفارس الشجاع، اهرع إلى قبرك. سأجمع عظامك في جوالٍ وأعطيتها للأبناء الذين ستتركهم، ليضعوها في أكياس صغيرة حول أعناقهم»، ولوّح غاضباً بيده التي تُزيّن الخواتم أصابعها كلّها مضيئاً: «اذهب، اذهب، اذهب، اذهب، اذهب، اذهب!».

لم يرغب دافوس في أن يُغادر هكذا، فقال: «سالا...».

- «اذهب! أو أبق، هذا أفضل، لكن إن كنت ستذهب فاذهب».

وذهب دافوس.

كانت مشيته من (الحصاد الوفير) إلى بؤابة (دراجونستون) طويلة وحيدة. الشوارع المجاورة لرصيف الميناء، التي احتشدت من قبل بالجنود والبحارة والعامّة، صارت مهجورة خاوية، والآن تجري الجرذان هنا وهناك حيث اعتاد أن يخطو حول الخنازير الصارخة والأطفال العراة. أحس بساقيه من تحته كالعجين، وثلاث مرّات أضناه السعال العنيف لدرجة أنه اضطرّ لأن يتوقّف ويرتاح، لكن أحدًا لم يجرى لمساعدته أو يختلس مجرد نظرة من نافذة ما ليرى ما الأمر. مصاريع النوافذ كلها مغلقة، والأبواب موصدة، وعلى أكثر من نصف البيوت لا حت علامات الحداد. آلاف أبحر وافي (النهر الأسود)، ومئات عادوا. أولادي لم يموتوا وحدهم، وعسى (الأم) أن ترحمهم جمعاء. وجد بؤابة القلعة مغلقة بدورها حين بلغها، فدقّ على الخشب المطعم بالحديد بقبضته، فلمّا لم يجد استجابة راح يركلها مرّة تلو المرّة، وأخيرًا ظهر رأس جندي يحمل نسيابيّة على قمّة الحصن الأمامي، ونظر إلى أسفل من بين كزجلين شاهقين قائلاً: «من هناك؟».

رفع رأسه وكوّر يديه حول فمه صائحًا: «السير دافوس سيورث، هنا لأرى جلالته».

- «هل أنت سكران؟ كُفّ عن الدقّ وارحل من هنا».

لقد حذره سالادور سان، وهكذا جرّب دافوس مسلّكًا آخر، وقال: «أرسل في طلب ابني دقان إذن، مُرافق الملك».

قطب الحارس جبينه قائلاً: «قلت ما اسمك؟».

صاح: «دافوس، فارس البصل».

اختفى الرّأس، ثم عاد بعد لحظات ليقول: «ارحل. فارس البصل مات في النهر، سفينته احترقت».

- «سفينته احترقت، لكنه عاش، وها هو ذا واقف أمامك. أما زالّ چايت قائد حرس البؤابة؟».

- «من؟».

- «چايت بلاكبري. إنه يعرفني جيّدًا».

- «لم أسمع به من قبل. غالباً مات».

- «اللورد تشيترينج إذن».

- «هذا أعرفه. لقد احترقَ في (النَّهْر الأسود)».

- «ويل وجه الحُطَّاف؟ هال الخنزير؟».

أجابَ حامل النُّشَابِيَّةِ، وإن أفصحت ملامحه عن شَكِّ مفاجئ: «مات ومات. انتظر هنا»، واختفى من جديد.

وانتظرَ دافوس، وكالمخدر قال لنفسه: رحلوا، كلُّهم رحلوا. استرجع ذهنه هال البدين وبطنه الأبيض الذي كان يلوح دوماً من تحت سترته المتسخة بالدهون، والنَّدْبَةُ الطَّوِيلَةُ التي تركها حُطَّاف السَّمَكِ على وجه ويل، والطَّرِيقَةُ التي كان چايت يرفع بها قُبْعَتَهُ دائماً لِيُحَيِّيَ الإناث، سواء أكنَّ في الخامسة من العُمُر أم الخمسين، من عليه القوم أم العوام. غرقوا أو احترقوا مع آبائناي وألْفٍ غيرهم، رحلوا لِيُصِّبُوا مَلَكاً في الجحيم.

عادَ الحارس فجأةً، وقال: «دُر إلى الباب الجانبي وسيدخلوك».

فعلَ دافوس كما قيلَ له. كان الحرس الذين أدخلوه غرباء عنه، يحملون الحِراب، وعلى صدورهم الثَّعْلَبَ والزُّهور رمز عائلة فلورنت. لم يصحبوه إلى بُرْج (الطَّبْلَةُ الحَجْرِيَّة) كما تَوَقَّع، وإنما مرُّوا به تحت القنطرة المسماة (ذيل التَّيْنِ) ودخلوا (حديقة إجون)، حيث قال قائدهم: «انتظر هنا».

سأله دافوس: «هل عرف جلالته أنني عدتُ؟».

قال الرَّجُل: «فلتحل بي اللعنة إن كنتُ أعلم. قلتُ انتظر»، وأخذَ حاملي

الحِراب وانسحبَ.

تنفوح في (حديقة إجون) رائحة صنوبرية سارّة، وترتفع فيها الأشجار الدَّاكِنَةُ الطَّوِيلَةُ في كلِّ جانب، بالإضافة إلى الورد البرِّي وأسيجة الشُّجيرات العالية، وتُقعَة موحلة ينمو فيها الثُّوت الأحمر.

لماذا أتوا بي هنا؟

ثم إنه سمعَ رنين أجراس خافتاً وضحكةً طفوليَّةً، وفجأةً وثبَ المهرج ذو الوجه المرقَّع من بين الشُّجيرات، يَجُرُّ ساقيه بأسرع ما يُمكنه، وفي أعقابهِ تعدو الأميرة شيرين هاتفَةً: «عُد إلى هنا! عُد إلى هنا يا رُقَّع!».

توقَّف المهرج على حين غرَّةٍ عندما رأى دافوس، وراحت الأجراس في

خوذته الصَّفِيح ذات القرون تُجَلِّجَل، تينجا-لينج، تينجا-لينج، وأخذ يتوآب من ساقٍ إلى أخرى معنيًا: «دمٌ مهرجٌ، ودمٌ ملك، ودمٌ على فخذ البتول، لكن للضيوف السَّلاسِل، للعريس السَّلاسِل، أجل، أجل، أجل». كادت شيرين تلحق به عندئذٍ، لكنه ففزَ في اللحظة الأخيرة فوق رُقعةٍ من السَّرخس واختفى وسط الأشجار، فانطلقت الأميرة وراءه من فورها، وجعل منظرهما دافوس يتسم.

كان قد التفت ليسأل في يده المقفزة، عندما اندفع جسد صغير آخر من بين الشجيرات وارتطم به مباشرة لیسقطه أرضًا. سقط الصَّبي أيضًا، لكنه عاد يقوم في اللحظة نفسها تقريبًا، وقال بنبرة أمرة وهو ينفض ملابسه: «ماذا تفعل هنا؟». كان الشعر الأسود الفاحم ينسدل حتى ياقته، وتألقت عيناه بزرقه مدهشة. «لا يجدر بك أن تعترض طريقي وأنا أجري».

قال دافوس: «نعم، لا يجدر بي هذا»، ثم إن نوبةً أخرى من السعال استولت عليه وهو يكافح للنهوض. أخذ الصَّبي من ذراعه وسحبته حتى وقف، وقال: «أأنت مريض؟ هل أستدعي المايستر؟».

هزَّ دافوس رأسه نفيًا قائلاً: «إنه مجرد سعال، سوف يُمُر». قال الصَّبي وقد صدَّقه: «كنا نلعب (وحوش وعذارى)، وكنت أنا الوحش. إنها لعبة طفوليَّة، لكن ابنة عمِّي تُحبُّها. ما اسمك؟».

- «السير دافوس سيورث».

حدَّجه الصَّبي بنظرة مرتابة، وقال: «أأنت واثق؟ إنك لا تبدو كالفرسان».

- «أنا فارس البصل يا سيدي».

لمعت المعرفة في العينين الزرقاوين، وسأل الصَّبي: «صاحب السفينة السوداء؟».

- «أتعرف تلك الحكاية؟».

قال الصَّبي: «جلبت سمكًا لعمِّي ستانيس ليأكله قبل أن أولد، حين كان اللورد تايرل يُحاصره»، وشدَّ قامته الطويلة مردفًا: «أنا إدريك ستورم، ابن الملك روبرت».

- «أنت هو بالطبع». كان دافوس قد أدرك هويّة الصّبي في الحال تقريبًا، فمع أن له أذنيّ عائلة فلورنت البارزتين، إلا أن كلاً من شعره وعينيه وفكه وعظم وجنتيه يحملون طابع عائلة باراثيون بوضوح.

سأله إدريك ستورم: «هل كنت تعرف أبي؟».

- «رأيتُه مرّاتٍ عديدة في أثناء زيارتي لعَمِّك في البلاط، لكننا لم نتكلّم قطّ».

قال الصّبي بفخر: «أبي علّمني القتال، وكان يأتي ليراني كلّ عام تقريبًا، وأحيانًا كنا نتمرّن معًا. في يوم ميلادي الأخير أرسل لي مطرقةً حربيّةً مثل مطرقتِه تمامًا، لكن أصغر حجمًا، وإن كانوا جعلوني أتركها في (ستورمز إند). أصحیح أن عمّي ستانيس قطع أصابعك؟».

- «المفصل الأخير فقط. ما زالت لديّ أصابع، لكن أقصر».

- «أرني».

خلع دافوس قفّازه، فأمعن الصّبي النّظر إلى يده متسائلًا: «ألم يُقصر إبهامك؟».

سعلَ وأجاب: «نعم، هذا تركّه لي كاملاً».

أعلن الصّبي: «لم يكن يجدرّ به أن يقطع أيّا من أصابعك. كان قرارًا سيّئًا».

- «كنتُ مهزّبًا».

- «نعم، لكنك هزّبت له السّمك والبصل».

قال وهو يرتدي القفّاز مجدّدًا: «اللورد ستانيس نصّبني فارسًا مقابل

البصل، وقطّع أصابعي مقابل التّهريب».

- «لم يكن أبي ليقطع أصابعك».

- «كما تقول يا سيّدي». روبرت كان رجلًا مختلفًا عن ستانيس، هذا

صحيح، والصّبي مثله، نعم، ومثل رنلي أيضًا. أصابه هذا الخاطر بالتّوتّر.

كان الصّبي على وشك أن يقول شيئًا، حين سمعوا وقع أقدام، فالتفت

دافوس ليرى السير أكسل فلورنت يقطع الممرّ المفضي إلى الحديقة مع دستة

من الحُرّاس الذين يرتدون الشّترات الطويلة المبطّنة وعلى صدورها قلب إله

الضياء النّاري. فكر دافوس: رجال الملكة، وتملّكته نوبة سُعالٍ أخرى.

السير أكسل قصير القامة مفتول العضلات، ذراعاه سميكتان وساقاه

مقوستان، وينمو الشعر من أذنيه. هو عمُّ الملكة الذي خدم أمينًا للقلعة في (دراجونستون) طيلة عقدٍ كامل، وعامل دافوس دائمًا بلطفٍ شديد، إذ يعلم أنه ممن يتمتَّعون بحظوة اللورد ستانيس، لكن الآن لم يكن هناك لُطف أو دفء في نبرته وهو يقول: «السير دافوس، وناجٍ من الغرق كذلك. كيف يُمكن هذا؟».

- «البصل يطفو على سطح الماء يا سيّدي. هل جئت لتأخذني إلى الملك؟».

قال السير أكسل: «جئتُ لآخذك إلى الزنازين»، وأشار لرجاله متابعًا: «اقبضوا عليه وخذوا خنجره. إنه ينوي أن يطعن به سيّدتنا».

چایمی

كان چایمی أول من لمح الخان الذي يُعانيق مبناه الرئيس الشاطئ الجنوبي حيث ينعطف النهر، وتمتد أجنحته الطويلة الواطئة بمحاذاة الماء، كأنها ترنو إلى احتضان المسافرين في اتجاه المجرى، وقد شيد الطابق السفلي من الحجارة الرمادية، والعُلوي من الخشب المطلي بالجير الأبيض، والسقف من ألواح الأردواز. رأى چایمی اسطبلًا أيضًا، وكرمةً اكتظت فيها فروع العنب، وبينما اقتربوا قال: «لا دُخان يخرج من المداخن، ولا أضواء في النوافذ».

قال السير كليوس فراي: «كان الخان مفتوحًا عندما مررتُ من هذا الطريق آخر مرة. يصنعون مزرًا لا بأس به، ولعل القليل منه لا يزال في الأقبية».

قالت بريان: «قد يكون هناك ناس، محبثون أو موتى».

سألها چایمی: «أتخشين بضع جُثثٍ يا هذه؟».

رمقته بغيظٍ قائلةً: «اسمي...».

- «... بريان، نعم. ألا تؤدِّين أن تنامي في فراش ولو ليلةً يا بريان؟ سنكون

آمنين هنا أكثر من النهر المفتوح، وربما يكون من المفيد أن نعرف ماذا حدث هنا».

لم تُجبه، لكن بعد برهة دفعت ذراع الدفة لتوجه القارب نحو الرصيف الخشبي البالي، فتحرك السير كليوس ليُنزل الشراع، وحين احتك القارب بالرصيف بهدوءٍ نزل يربطه إليه بالحبل، ونزل چایمی وراءه بصعوبةٍ بسبب سلاسله.

عند نهاية الرصيف كان لوح خشبي متقشر يتأرجح من عمودٍ حديد، وقد رُسم عليه ملك راعٍ على ركبتيه ويضمُّ يديه معًا دلالةً على الإذعان. ألقى چایمی نظرةً واحدةً على الصورة وأطلق ضحكةً عاليةً قائلاً: «لم نكن لنجد خانًا أفضل».

سألته الفتاة بريية: «ألهدا المكان أهميَّة خاصَّة؟».

أجابها السير كليوس: «إنه (خان الملك الرَّاع) يا سيِّدتي، مُقام على البُقعة ذاتها التي حنى فيها آخر الملوك في الشَّمال هامته أمام إجون الفاتح ليُعرب عن خضوعه. أعتقُد أنه هو المرسوم على اللَّافنة».

قال چاييمي: «جلبَ تورين قوَّاته جنوبيًّا عقب سقوط الملكين في حقل النَّيران، لكنه اختارَ سبيل الحكمة لَمَّا رأى تَنينَ إجون وحجم جيشه، وركعَ على رُكبتيه الجليديَّتين»، ثم إنه بترَ حكايته حين تردَّد صهيل حصان، وقال: «خيول في الاسطبل، واحد على الأقل». وواحد يكفيني للفرار من هذه الفتاة. «لنرَ مَنْ هنا»، ودون أن ينتظر إجابةً قطع الرَّصيف وسلاسله تُصلِّص، ودفَع باب الخان بكتفه...

... ووجدَ نفسه في مواجهة نُشايَّةٍ محشوة، يقف وراءها صبيٌّ ممتلئ في الخامسة عشرة من العُمر يسأل بلهجةٍ أمرَّة: «أسد أم سمكة أم ذئب؟». ردَّ چاييمي سامعًا رفيقيه يُقبلان من ورائه: «كنا نأمل في ديك. النُّشايَّة سلاح الجُبَّناء».

- «لكن يُمكنها أن تغرس سهمًا في قلبك رغم ذلك».
- «ربما، لكن قبل أن تحشوها ثانيةً سيَّسكب ابن عمِّتي هذا أحشاءك على الأرض».

قال السير كليوس: «لا تُرهِّب الصَّبي».
وقالت الفتاة: «إننا لا نُنشد الأذى، ومعنا مال لشراء الطَّعام والشراب»، وأخرجت قطعةً فضيَّةً من جرابها.
بسكُّ تطلَّع الصَّبي إلى العُملة، ثم إلى قيود چاييمي، وتساءل: «لماذا يرتدي الحديد؟».

قال چاييمي: «قتلتُ بضع رُماة نُشايَّة. ألدِكم مزر؟».
أجابَه الصَّبي: «نعم»، ثم خاطبَ رفيقيه قائلاً: «حِلاَّ حزامي سيفيكما واترُكاهما يسفطان، ولربما نُطعمكم»، ودارَ حولهم ليُلقي نظرةً عبر زُجاج النَّافذة السَّميك ذي الشَّكل الماسي، ليرى إن كان هناك المزيد منهم في الخارج، قبل أن يقول: «هذا الشَّراع عليه رمز تلي».

قالت بريان: «أتينا من (ريفررَن)»، وحلّت إيزيم حزامها وتركته يسقط أرضاً، وحذا السير كليوس حذوها.

خرج رجل شاحب ذو وجهٍ سمين ممتلئٍ بالبثور من باب القبو حاملاً ساطور جزارٍ ثقيلاً، وقال: «ثلاثة؟ لدينا لحم خيل يكفي ثلاثة». كان الحصان عجوزاً ولحمه قاس، لكنه ما زال طازجاً.

سألته بريان: «أهنك خُبز؟».

- «خُبز يابس وكعك شوفان بائت».

قال چايمي بابتسامه واسعة: «صاحب خان أمين! كلهم يُقدّم الخُبز البائت واللحم القاسي، لكن أغلبهم لا يُقرُّ بهذا من تلقاء نفسه».

- «لستُ صاحبِ الخان. لقد دفتته وراء المبنى، هو وامرأته».

- «هل قتلتهما؟».

ردّ الرّجل بحدّة: «وهل سأخبركم لو أنني فعلت؟ كان هذا من صنّع الذئاب غالباً، أو الأسود، لكن ما الفرق؟ أنا وزوجتي وجدناهما ميتين، وفي رأينا المكان ينتمي إلينا الآن».

سأله السير كليوس: «أين زوجتك تلك؟».

ضيق الرّجل عينيه ورمقه بشكٍ قائلاً: «ولماذا تُريد أن تعرف؟ إنها ليست هنا... وأنتم كذلك لن تكونوا هنا ما لم يرقني مذاق فضتكم».

ألقت له بريان العُملّة، فالتقطها في الهواء وعَضّها، ثم دَسّها في جيبه.

أعلن الصّبي ذو الشّابّيّة: «معها المزيد».

- «بالأكيد. انزل إلى القبو واعثر لي على بعض البصل يا ولد».

رفع الصّبي الشّابّيّة على كتفه، ورمقهم بنظرة عابسةٍ أخيرة، ثم اختفى في القبو.

سأل السير كليوس: «أهو ابنك؟».

- «مجرّد صبيٍّ أخذناه أنا والرّوجة ليقيم معنا. كان لدينا ابنان، لكن الأسود قتلوا واحداً والثّاني مات بالسّيلان، والصّبي فقد أمّه على يد الممثّلين السّفّاحين. في هذه الأيام يحتاج المرء إلى من يحرسه وهو نائم»، ولوّح بالسّاطور نحو الموائد مردفاً: «فلتجلسوا».

كان المستوقّد بارداً، لكن چايمي انتقى الكرسي الأقرب إلى الرّماد ومدّ

ساقيه الطويلتين تحت المائدة، يُصاحِب صليل السلاسل كلَّ خلجةٍ من خلجاته. صوت مزعج. قبل نهاية هذا الأمر سألف هذه السلاسل حول عنقها وأرى كم تروقها ساعتها.

شوى الرّجل الذي ليس صاحب الخان ثلاث شرائح ضخمةً من لحم الحصان على الفحم، وحمّر البصل في دهن اللحم المقدّد، وهو ما عوّض عن كعكات الشوفان البائتة إلى حدّ كبير، وشربَ چايمي وكليوس المِزر، وبريان كوبًا من عصير التفّاح. حافظ الصّبي على مسافةٍ بينه وبينهم، وجثم فوق برميل العصير وعلى رُكبتيه النّشابية محشوة ومصليّة، بينما أخذ الطاهي دورقًا من المِزر وجلس معهم موجّهاً سؤاله إلى السير كليوس وقد حسبه قائدهم: «ما الأخبار في (ريقرن)؟».

رمق السير كليوس بريان قبل أن يُجيب: «اللورد هو ستر يُحتصر، لكن ابنه يُدافع عن مخاضات (الفرع الأحمر) ضد جنود لانستر، ودارت عدّة معارك».

- «المعارك في كلِّ مكان. إلى أين أنتم متّجهون أيها الفارس؟».

مسح السير كليوس الدهن عن شفتيه مجيبًا: «كينجز لاندنج».

أطلق مضيفهم نخيرًا ساخرًا، وقال: «إنكم حمقى إذن. آخر ما سمعته أن الملك ستانيس خارج أسوار المدينة بالفعل. يقولون إن معه مئة ألف رجل وسيف مسحور».

لفّ چايمي يديه حول السلسلة التي تُقيّد معصميه، وشدّها عن آخرها وهو يتمنّى لو أنه بالقوّة الكافية لكسرها إلى نصفين. كنتُ لأري ستانيس أين يُعْمِد سيفه المسحور.

واصل الرّجل: «لو كنتُ مكانكم لنأيتُ بنفسِي عن (طريق الملوك) قدر الإمكان. الأوضاع عليه سيئة للغاية حسبما سمعتُ، الذئاب والأسود يجوبونه، وعصابات الرّجال المكسورين⁽¹⁾ تفترس كلَّ من يسقط في براثنها».

(1) الرّجال المكسورون هم المجنّدون إلزاميًا الذين يتهربون من الخدمة ولا يعودون إلى ديارهم، وإنما يُكوّنون عصابات من الخارجين عن القانون، وفي عالم الواقع ظهر المصطلح قديمًا في أيرلندا وسكوتلندا وصفًا لمن يتخلّون عن ولائهم لقبائلهم. (المترجم).

أعلن السير كليوس فراي باحتقار: «هؤلاء حشرات لا تجسُر على اعتراض طريق المسلّحين».

- «معدرةٌ يا سيّدي، لكنني أرى رجلاً مسلّحاً واحداً يُسافر مع امرأةٍ ورجلٍ مكبّل».

رَمَقَتْ بريان الطّاهي بنظرةٍ مكفهرّة، ففكّر چايمي وهو يشدُّ السِّلْسِلَة مجدّداً: الفتاة تكره حقّاً أن يُذكرها أحدٌ بأنها فتاة. كان يحسُّ ببرودة وصلابة الحلقات على لحمه، بقسوة الحديد الذي لا يلين، وبالألَم في معصميه اللذين حَكَّتْهُمَا الأغالل حتى سحجَتَهُمَا.

قالت الفتاة لمضيفهم: «أنوي أن أتبع (الثالوث) إلى البحر. سنجد خيلاً في (بركة العذارى) ونسلك طريق (وادي الغسق) و(روزبي). سيّيقينا هذا بعيداً عن المناطق التي يسوء فيها القتال».

قال الرّجل وهو يهزُّ رأسه نفيّاً: «لن تَبْلُغُوا (بركة العذارى) عن طريق النّهر أبداً. هناك قاربان احترقا وغرقا على بُعد أقلّ من ثلاثين ميلاً من هنا، والمجرى ممتلئ بالغريرين حولهما، وثمّة جُحَر للخارجين عن القانون الذين يتصيّدون كلّ من يَمُرُّ بهم، والمزيد منهم في اتّجاه التّيّار حول (الأحجار المنثورة) و(جزيرة الأيائل الحمراء)، كما شوهد سيّد البرق في تلك الأنحاء أيضاً. إنه يَعْبُر النّهر أينما شاء، يذهب في هذا الطّريق وذلك ولا يستقرُّ أبداً».

سأله السير كليوس: «ومن سيّد البرق هذا؟».

- «اللورد بريك، بعد إذنك أيها الفارس. يُطلِقون عليه هذا اللّقِب لأنه يضرب بسُرعةٍ خاطفةٍ كالبرق من سماءٍ صافية. يُقال إنه لا يموت».

فكّر چايمي: كلهم يموتون عندما تغرس سيفاً فيهم، وسأل الرّجل «أما زال ثوروس المايري يركب معه؟».

- «نعم، السّاحر الأحمر. سمعتُ من يقول إنه يملك قُوَى غريبة».

كان يملك قوّة مباراة روبرت شراباً بشرابٍ على الأقلّ، وقلائل يُمكنهم أن يَزْعُمُوا هذا. كان چايمي قد سمع ثوروس يقول لروبرت ذات مرّة إنه أصبح راهباً أحمر لأن ثيابه الحمراء تُخفي بُقع التّيّد جيّداً، فتفجّرت ضحكة روبرت مدوِّيةً لدرجة أنه بصق ما في فمه من شرابٍ على فُستان سِرسِي. «لا أرغبُ في الاعتراض بتاتاً، لكن ربما لا يكون (الثالوث) أسلم الطّرق».

قال الطَّاهِي: «أَتَّقُ معك. حتى إذا تجاوزتم (جزيرة الأيائل الحمراء) ولم تُقابِلوا اللورد بريك والسَّاحِر الأَحْمَر، تظلُّ أمامكم (مخاضة الياقوت). آخر ما سمعته أن ذئاب اللورد عَلفَةٌ يُسَيِّطِرُون عليها، لكن ذلك كان منذ فترة، وربما يكون الأسود قد أخذوا مكانهم الآن، أو اللورد بريك، أو أي أحد».

قالت بريان: «أو لا أحد».

- «إذا أرادت سيدي أن تُراهن بجلدها على هذا فلن أُنْعَمها... لكن لو كنْتُ مكانكم لتركْتُ هذا النَّهْر وتحرَّكتُ بَرًّا. إذا بقيتم بعيدًا عن الطرق الرِّئيسة واستترتم تحت الأشجار ليلاً وتواريتم عن الأنظار... حسن، لن أرغب في الذَّهاب معكم وقتها أيضًا، لكنكم ستحظون بفرصة على الأقل».

لاحت الرِّبِّيَّة على الفتاة الكبيرة وهي تقول: «سنحتاج إلى خيول».

أشارَ چايمي قائلًا: «ثُمَّة خيول هنا. سمعتُ واحدًا في الاسطبل».

قال صاحب الخان الذي ليس صاحب خان: «نعم، ثلاثة، لكنها ليست للبيع».

ضحكَ چايمي رغمًا عنه، وقال: «بالطبع، لكنك سترينا إياها مع ذلك».

قطبت بريان وجهها، لكن الرَّجُل الذي ليس صاحب خان لاقى نظراتها دون أن يظرف له جفن، وبعد هنيهة قالت على مضض: «أرني»، ونهضَ أربعتهم من على المائدة.

وشت رائحة الاسطبل بوضوح بأنه لم يعرف النَّظافة منذ مدَّة طويلة، وعَجَّ القَشُّ بمئات الذبابات السوداء السَّمِينة، التي تطنُّ من مربطٍ إليَّ مربطٍ وتزحف على روث الخيل المكوَّم في كلِّ مكان، وإن لم يكن هناك إلا ثلاثة أحصنة صنعت ثلاثيًا متناقضًا، فأحدها حصان حرث بئِّي ثقيل، والثاني أبيض مخصيٌّ طاعن في السنِّ وإحدى عينيه مُطفأة، والثالث جواد فارس مرقط بالرمادي وتبدو عليه الجرأة. قال صاحب الخيول المزعوم: «إنها ليست للبيع بأيِّ ثمن».

سألته بريان: «كيف تحصَّلت على هذه الخيول؟».

- «حصان الحقول كان مربوطًا هنا عندما وصلتُ وأنا والرَّوْجَة إلى الخان، بالإضافة إلى الذي أكلتموه، والمخصيُّ أتى متسكِّعًا ذات ليلة، والفرس أمسك بها الصَّبي وهي تجري حُرَّةً بسرَّجها ولجامها. سأريكم».

كان السَّرج الذي أراهـم إياه مزِينًا بزخرفة فضِيَّة، أمَّا كسوته فكانت في الأصل ذات مربَّعات من الوردى والأسود، لكن معظمها الآن مصطبغ بالبني. لم يتعرَّف چايـمي الألوان الأصليَّة، وإن تعرَّف بُقـع الدَّم بسهولة، وغمغم: «لن يعود صاحبها ليستردها قريبًا»، وفحص قوائم الفرس وأحصى أسنان الحصان المخصي، ثم قال لبريان: «انقديه قطعة ذهبيةً مقابل الفرس إذا أضاف السَّرج، وقطعة فضيَّة لحصان الحرث، أمَّا الأبيض فحريٌّ به أن يدفع لنا لأننا سنُخلِّصه منه».

قالت الفتاة: «لا تتكلَّم بهذه الخشونة عن حصانك أيها الفارس»، وفتحت كيس التُّقود الذي أعطتها الليدي كاتلين إياه، وأخرجت ثلاثة تنانين ذهبيَّة قائلَّة للرَّجل: «سأدفعُ تينينًا مقابل كلِّ واحد».

حدَّق إلى الذهب ومدَّ يده إليه، ثم إنه تردَّد وسحبها قائلاً: «لا أدري. لا يُمكنني أن أركب تينينًا ذهبيًّا إذا أردتُ الابتعاد، أو أكل واحدًا إذا جعتُ».

- «يُمكنك أن تأخذ قاربنا أيضًا، وتُبحر في هذا الاتجاه أو ذاك كما تُريد».

قال الرَّجل: «دعيني أتذوق هذا الذهب»، والتقطَّ واحدةً من العُمـلات من راحة يدها وعَضَّها، قبل أن يُردف: «همم، حقيقي على ما يبدو. ثلاثة تنانين والقارب؟».

قال چايـمي باستخفاف: «إنه يحتال عليك يا هذه».

خاطبت بريان مضيفهم متجاهلةً چايـمي: «أريدُ مؤنًا أيضًا، أيًّا كان ما لديك وتستطيع الاستغناء عنه».

ردَّ الرَّجل: «لدينا المزيد من كعك الشوفان»، والتقطَّ التينين الآخرين من يدها وهزَّ التُّقود في قبضته مبتسمًا للصوت الذي أصدرته، وأضاف: «نعم، وهناك سمك مملح مدخَّن، لكنه سيُكلِّفكم القليل من الفضة، والأسرة كذلك. لا بُدَّ أنكم ستريدون قضاء الليل».

قالت بريان من فورها: «كلا».

عبس الرَّجل في وجهها قائلاً: «اسمعي يا امرأة، لستم ترغبون في التَّجوال ليلاً في أنحاء غريبة على خيول لا تعرفونها. قد تجدن أنفسك فجأةً في مستنقع أو تكسرين ساق حصانك».

- «سيكون القمر ساطعًا اللَّيلة، ولن نجد صعوبةً في العثور على الطَّريق».

فَكَرَّ مَضِيْفُهُمْ لِحِظَّةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: «إِذَا كُنْتَ لَا تَمْلِكِينَ الْفِضَّةَ، فَلرَبْمَا تَكْفِي حِفْنَةً مِنَ الْقِطْعِ النَّحَاسِيَّةِ لِاسْتِئْجَارِ تِلْكَ الْأَسْرَةِ وَغَطَاءِ أَوْ اثْنَيْنِ لِلدَّفْعِ. إِنِّي لَا أُطْرِدُ الْمَسَافِرِينَ إِذَا كُنْتَ تَفْهَمِينَ مَا أَعْنِيهِ».

قَالَ السَّيْرُ كَلْيُوسُ: «اتَّفَاقٌ عَادِلٌ لِلْغَايَةِ».

أَضَافَ الرَّجُلُ: «الْأَغْطِيَّةُ مَغْسُولَةٌ أَيْضًا. زَوْجَتِي تَأَكَّدْتُ مِنْ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُغَادِرَ. وَلَنْ تَجِدُوا بَرِغُوثًا وَاحِدًا فِيهَا أَيْضًا، لَكُمْ كَلْمَتِي»، وَعَادَ يَهْزُ الْعُمَلَاتِ وَيَبْتَسِمُ.

بَدَأَ الْإِغْرَاءَ وَاضْهَحًا عَلَى السَّيْرِ كَلْيُوسَ، الَّذِي قَالَ لِبِرْيَانَ: «النُّومُ فِي فِرَاشٍ حَقِيقِي سَيَكُونُ مَفِيدًا لَنَا جَمِيعًا يَا سَيِّدَتِي، وَغَدًا سَنَقْطَعُ مَسَافَةً أَطْوَلَ حَالِمًا نُجَدِّدُ طَاقَتَنَا»، وَنَظَرَ إِلَى ابْنِ خَالِهِ نَاشِدًا تَأْيِيدَهُ.

- «لَا يَا ابْنَ الْعَمَّةِ، الْفِتَاةُ عَلَى حَقِّ. عَلَيْنَا وَعُودٌ يَجِبُ أَنْ نَفِي بِهَا وَأَمَامَنَا فِرَاسِخٌ طَوِيلَةٌ نَقْطَعُهَا. يَجِبُ أَنْ نَسْتَأْنِفَ الْحَرَكَةَ».

- «لَكِنَّكَ قَلْتَ بِنَفْسِكَ...».

- «وَقْتَهَا». حِينَ حَسِبْتُ الْخَانَ مَهْجُورًا. «أَمَّا الْآنَ فَمَعْدَتِي مَمْتَلِئَةٌ، وَالرُّكُوبُ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ أَنْسَبُ شَيْءٍ لِي»، ثُمَّ ابْتَسَمَ لِلْفِتَاةِ قَائِلًا: «لَكِنْ مَا لَمْ تَكُونِي تَنْوِينِ تَحْمِيلِي عَلَى ظَهْرِ حِصَانِ الْحَرِثِ كَجُوَالٍ مِنَ الدَّقِيقِ، فَعَلَى أَحَدِهِمْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا بِشَأْنِ هَذِهِ الْأَصْفَادِ. مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَرْكَبَ الْمَرْءُ وَقَدَمَاهُ مَقِيدَتَانِ مَعًا بِسَلْسَلَةٍ».

حَدَّثَتْ بِرْيَانَ إِلَى السَّلْسَلَةِ بِحَاجِيْنِ مَعْقُودَيْنِ، فِيمَا فَرَكَ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ صَاحِبَ خَانَ ذِقْتِهِ، وَقَالَ: «هَنَّاكَ وَرَشَةُ حِدَادَةٍ وَرَاءَ الْإِسْطَبْلِ».

قَالَتْ: «أَرْنِي».

عَقَّبَ جَايْمِي: «نَعَمْ، وَبِأَسْرَعٍ مَا يُمَكِّنُ، لِأَنَّ الْخِرَاءَ كَثِيرَ هَنَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أُخْطُو فِيهِ»، وَسَدَّدَ نَظْرَةً حَادَّةً إِلَى الْفِتَاةِ مَتَسَائِلًا إِنْ كَانَتْ ذَكِيَّةً بِمَا يَكْفِي لِأَنَّ تَفْهَمُ تَلْمِيحَهُ.

كَانَ يَأْمَلُ أَنْ تَضْرِبَ قَبُودَ مَعْصَمِيهِ كَذَلِكَ، لَكِنْ بَرِيَانَ ظَلَّتْ مَحْتَفِظَةً بِشُكُوكِهَا، وَاکْتَفَتْ بِأَنْ فَصَلَّتِ السَّلْسَلَةَ الَّتِي تَرْتَبِطُ كَاحْلِيهِ بِنِصْفِ دَسْتِهِ مِنْ الضَّرْبَاتِ الْقَوِيَّةِ بِمِطْرَقَةِ الْحَدَّادِ عَلَى الْجَانِبِ الثَّلْمِ مِنْ إِزْمِيلِ فُولَاذِي، وَلَمَّا اقْتَرَحَ أَنْ تَضْرِبَ سَلْسَلَةَ الْمَعْصَمِينَ أَيْضًا تَجَاهَلْتَهُ.

- «على بُعد ستة أميال في اتجاه المصب سترون قريةً محترقةً»، قال مضيفهم وهو يُساعدهم على تثبيت السُّروج على الخيول وتحميلها بالمؤن، موجِّهاً إرشاداته لبريان هذه المرّة. «الطريق ينفصل هناك. إذا انعطفتم جنوباً، ستُمرُّون بمنزل السير وارن الحجري ذي البُرج. السير وارن نفسه رحلَ ومات، فلا يُمكنني الجزم بمن يسكن المنزل الآن، لكنه مكان من الأفضل تلافيه تمامًا. الأفضل أن تسلكوا الدُّرب عبر الغابة نحو الجنوب الشرقي».

أجابت: «سنفعل. لك شكرى».

فكر چايمي: والأهمُّ أن له ذبيك، لكنه احتفظَ بالخاطر لنفسه، فقد ستمَّ تجاهل هذه البقرة الكبيرة القبيحة إياه.

أخذت بريان حصان الحقول لنفسها، وأعطت الفرس للسير كليوس، وكما توقعَدت كان الحصان المخصيُّ الأعمى في إحدى عينيه من نصيب چايمي، وهو ما وضع نهايةً لأيِّ تفكيرٍ في وكز حصانه والانطلاق تاركًا الفتاة تتخبَّط في العُبار.

خرج الرّجل والصّبي لرؤيتهم وهم يرحلون، وتمنّى لهم الأول حظًا سعيدًا وقال لهم أن يعودوا في أوقات أفضل، فيما وقفَ الثاني صامتًا ونُشايّته تحت ذراعه. خاطبه چايمي قائلاً: «تمرّن على الحربة أو المدقّة، كلتاها أفضل لك»، لكن الصّبي رمقه بارتياب، فقال لنفسه: هذا جزء النّصائح الودود، وهزّ كتفيه ودارَ بحصانه ولم يُلقي نظرةً أخرى وراءه.

لم يكفّ السير كليوس عن الشّكوى وهم يُغادرون، وظلَّ ينعى فراشه الرّيش الضّائع بينما تحرّكوا شرقًا بمحاذاة النّهر الذي أضاءه القمر. (الفرع الأحمر) عريض هنا للغاية، وإن كان ضحلًا وتكتسي ضفافة بالطمي وأحراج القصب. سارَ حصان چايمي متهاديًا، غير أن عين الحيوان المسكين العمياء تجعله يجنح بين الحين والآخر إلى الانحراف عن الطريق، وعلى الرغم من هذا أحسَّ چايمي بالسرور لامتطائه حصانًا من جديد، إذ لم يمتطِ واحدًا منذ أردى رُماة روب ستارك جواده الحربي من تحته في (الغابة الهامسة).

حين بلغوا القرية المحترقة واجههم خيار بين سبيلين لا يُيسّر أحدهما بأنه أفضل من الآخر، وكلاهما مليء بأخاديد ضيقة عميقة حفرتها عربات المزارعين الذين ينقلون غلالهم إلى النّهر. يتّجه أحدهما إلى الجنوب الشرقي

وسرعان ما يتوارى وسط الأشجار التي يرونها من بعيد، ويمضي الآخر ذو التربة الحجرية نحو الجنوب كسهم مستقيم. تأملتُهما بريان وهلةً، قبل أن تُوجّه حصانها إلى الطريق الجنوبي، الشيء الذي أدهشَ چايمي وسرّه، إذ كان ليُتخذ القرار نفسه، أمّا السير كليوس فقال محتجًا: «لكن هذا هو الطريق الذي حدّرنا منه صاحب الخان».

قالت بريان: «لم يكن صاحب خان. لقد أبدى اهتمامًا كبيرًا باختيارنا الطريق، وهذه الغابات... إنها أماكن سيئة السمعة، ومعروفة بكونها أوكارًا للخارجين عن القانون. محتمل أنه كان يُحُثُّنا على المضي إلى فح».

قال چايمي لابن عمته مبتسمًا: «فتاة ذكية. تخميني أن مضيفنا لديه أصدقاء ينتظروننا على الطريق، الأصدقاء الذين عطرت خيولهم الاسطبل».

أضافت الفتاة: «وربما كان يكذب بشأن النهر أيضًا، كي يُجبرنا على أخذ هذه الخيول، لكنني لا أستطيع المجازفة. سيكون هناك جنود عند (مخاضة الياقوت) ومفترق الطرق».

منحها چايمي ابتسامة قاسية مفكرًا: قد تكون قبيحة، لكنها ليست غبيةً تمامًا.

حدّتهم الضوء الضارب إلى الحمرة الآتي من نوافذ برج المنزل الحجري من وجوده من بعيد، فقد أدّتهم بريان إلى الحقول، و فقط عندما صار المكان وراءهم بمسافة طويلة عادوا إلى الطريق من جديد.

انقضى نصف الليل قبل أن تقول الفتاة أخيرًا إنهم يستطيعون التوقف بأمان، وعندئذ كان ثلاثتهم يترنحون فوق سروجهم بالفعل.

أوا إلى بستان صغير من شجر السنديان والدردار يُجاور جدولًا راكدًا، لكن الفتاة لم تسمح بإشعال نار، وتناولوا عشاءً تأخر إلى منتصف الليل، ولم يتعدّ كعكات الشوفان والسّمك المملح. كانت الليلة هادئةً بشكل غريب، من فوقهم هلالٌ تحيط به النجوم في سماء كأنها من الصوف الأسود الناعم، وفي مكان ما بعيد تعوي بضعة ذئاب جعلت أحد أحصنتهم يصهل بتوتّر، لكن فيما عدا هذا لم يسمعوا صوتًا آخر. لم تمسّ الحرب هذا المكان. إنه مسرور لكونه هنا، مسرور لأنه حي، مسرور وقد بدأ رحلة العودة إلى سرسي.

قالت بريان للسير كليوس: «سأخذ المناوَبَة الأولى»، وسرعان ما كان فراي يغطُّ في النَّوم.

جلسَ چایمی مسندًا ظهْره إلى جذع شجرة سنديان، يتساءل عمَّا تفعله سرسي وتيريون الآن، ثم إنه سأل: «ألديك أشقاء يا سيّدي؟». ضيقت بريان عينيها بشكٍّ مجيئةً: «لا. أبي لم يُنجب غيري من أبن... أطفال».

قهقهة چایمی قائلاً: «كنتِ ستقولين «أبناء». هل يعتبركِ ابناً؟ إنكِ نوع غريب من البنات بالتأكيد».

بلا رَدٍّ أشاحت بجسدها عنه وأطبقت على مقبض سيفها بإحكام، فقال لنفسه: يا لها من مخلوقة تَعَسَة. إنها تُذكره بتيريون على نحو عجيب، مع أن الاثنين يبدوان على طرفي التقيض تمامًا للوهلة الأولى، لكن ربما كان التفكير في أخيه هو ما حدا به إلى أن يقول: «لم أقصد إهانةً يا بريان، اغفري لي».

- «جرائمك ليست قابلةً للغفران يا قاتل الملك».
شدَّ چایمی سلسله بترأخ قائلاً: «هذا الاسم ثانيةً. لماذا أُثير حنقك لهذه الدرجة؟ إنني لم أمسك بأذى قط على حدِّ علمي».
- «لكنك أذيت آخرين، من أقسمت على حمايتهم، الضعفاء والأبرياء...».
- «والملك؟». دائماً ما يعود الأمر إلى إيرس. «لا تُحاولي الحكم على ما لا تفهمينه يا هذه».

- «اسمي...».
- «... بريان، نعم. هل سبق أن قال لك أحد إنكِ مملّة علاوةً على كونكِ قبيحة؟».

- «لن تستفزّ غضبي يا قاتل الملك».
- «أوه، قد أفعل إذا اهتممت بالمحاولة».
- «لماذا حلفت اليمين؟ لماذا ارتديت المعطف الأبيض إذا كنت تنوي أن تخون كلَّ ما يُمثله؟».

لماذا؟ ماذا يُمكنه أن يقول وتكون قادرةً على استيعابه؟ «كنتُ صبيّاً في الخامسة عشرة، وكان شرفاً عظيماً لواحدٍ في هذه السنِّ الصّغيرة».

قالت باستهزاء: «هذه ليست إجابة».

والحقيقة لن تروقك.

لقد انضمَّ إلى الحرس الملكي من أجل الحُب بالطَّبع.

كان أبوهما قد استدعى سرسي إلى البلاط وهي في الثانية عشرة من عمرها، على أمل أن يُرتَّب لها زواجًا ملكيًّا، فرفض كل من طلبوا يدها، وفضَّل أن يحتفظ بها معه في (بُرج اليد) بينما تكبر وتُصبح أكثر أنوثَةً وفتنةً. لا بُدَّ أنه كان ينتظر أن يَنْضَج الأمير فُسيرس، أو ربما كان ينتظر أن تموت زوجة ريجار في فراش الوضع، فالصَّحَّة لم تكن قَط من الأشياء التي تمَّتعت بها إليها الدورنيَّة.

في تلك الأثناء كان چايمي قد قضى أربع سنواتٍ مُرافِقًا للسير سَمنر كراكهول، وأثبتَّ جدارته بالفروسية في القتال ضد أخوة غابة الملوك، لكن حين قام بزيارةٍ عابرةٍ إلى (كينجز لاندنج) في طريق عودته إلى (كاسترلي روك) - بغية أن يرى أخته تحديدًا - انتحَّت به سرسي جانبًا وهمست له أن اللورد تايوين ينوي تزويجه بلايسا تلي، بل ودعا اللورد هوستر إلى المدينة بالفعل للاتِّفاق على المهر، لكن إذا ارتدى چايمي أبيض الحرس الملكي، فيمكنه أن يكون بالقرب منها دائمًا. كان السير هارلان جرانديسون العجوز قد مات في نومه، الشَّيء الملائم تمامًا لشخص رمزه أسد نائم، فأصبح إيرس في حاجةٍ إلى شابٍّ يحلُّ محله، فلم لا يأتي أسد يزأر بدلًا من أسدٍ يغط؟

قال چايمي معترضًا: «لن يُوافق أبي أبدًا».

- «الملك لن يَطْلُب رأيَه، وحالما يتِمُّ الأمر لن يستطيع أبي الاعتراض، علنًا على الأقل. تذكر أن إيرس أمرَ بقطع لسان السير إلين باين لمجرد أنه قال إن اليد هو من يحكِّم (الممالك السَّبع) حقًّا. كان قائد حرس اليد، ومع ذلك لم يجرؤ أبي على التَّدخُّل، وهذا أيضًا لن يستطيع التَّدخُّل فيه».

- «لكن هناك (كاسترلي روك)...».

- «أصخرة تُريد أم تُريدي أنا؟».

تذكر تلك اللَّيلة كما لو كانت البارحة. أمضيها في خانٍ قديم في (زُقاق الحشنان) بعيدًا عن الأعين المنتبهة، وقد أتته سرسي مرتدية ثياب خادمةٍ بسيطة، وبشكلٍ ما أثَّره هذا أكثر. لم يرها چايمي متَّقدة العاطفة والرَّغبة هكذا

قبلها قُط، وكلما غابَ في النَّوم أيقظته من جديد، ولمَّا جاء الصُّباح كانت (كاسترلي روك) تبدو ثَمناً بسيطاً لبقائه قريباً منها على الدَّوام، وهكذا أعطاهما موافقته ووعدت هي بأن تتولَّى الباقي.

وبعد دورة قمر واحدة وصلَ عُداف إلى (كاسترلي روك) يحمل بلاغاً باختياره فارساً في الحرس الملكي، وأمراً بتقديم نفسه للملك في دورة المباريات العظيمة التي سَتقام في (هارنهال)، ليحلف اليمين ويرتدي المعطف الأبيض.

لكن لئن خلصه تقلده حراسة الملك من لايسا تلي، فإن شيئاً غير هذا لم يمض كما كان مخططاً. لم يُصب أباه غضب مشابه من قبل على الإطلاق، ومع أنه لم يستطع الاعتراض علناً - كما قدَّرت سرسي فأصابت - فقد تنحى عن اليدوية بحجةٍ واهيةٍ وعادَ إلى (كاسترلي روك) آخذاً ابنته معه، وبدلاً من أن يُصبحا معاً تبادلَ چاييمي وسرسي الأماكن لا أكثر، ووجد نفسه وحيداً في البلاط، يَحرس ملكاً مجنوناً بينما توالى أربعة رجال أدنى من أبيه على شغل منصبه الشائك، دون أن يُدانيه أحدهم. بسرعةٍ بالغة ارتفع الأيدي وسقطوا لدرجة أن چاييمي يتذكَّر رموزهم أكثر من وجوههم. اليد ذو رمز قرن الوفرة⁽¹⁾ واليد ذو رمز الجرافين⁽²⁾ الرَّاقصة كان مصيرهما المنفى، أمَّا اليد ذو رمز الصَّولجان والخنجر فقد غَمِس في النَّار الشعواء واحترق حيّاً. اللورد روزارت كان آخرهم، رمزه مشعل متقد، وهو الخيار المؤسف نظراً لمصير سلفه، لكن ترقية الخيميائي إلى المنصب عادت بشكل كبير إلى مشاركته الملك ولعه بالنَّار. كان حريّاً بي أن أغرق روزارت بدلاً من بقر بطنه.

كانت بريان لا تزال تنتظر إجابته، فقال چاييمي: «لست كبيرة بما يكفي لأن تكوني قد عرفت إيرس تارجارين...».

قاطعته رافضةً أن تسمعه: «إيرس كان مجنوناً ومتوحشاً، لا أحد يُنكر هذا أبداً، لكنه كان الملك المتوج، وأنت أقسمت على حمايته.».

(1) قرن الوفرة رمز إقطاعي قديم، تعود أصوله إلى الأساطير الإغريقية، وهو عبارة عن قرن مليء عن آجره بالزهور والفاكهة والحلوى وغيرها مما يدل على الوفرة والخصوبة. (المترجم).

(2) الجريفيين حيوان أسطوري له جسم أسد ورأس وجناح عقاب. (المترجم).

- «أعرفُ علامَ أقسمتُ». -
 - «وتعرف الذي فعلته». كانت تقف مرتفعةً فوقه، الاستنكار متجسّد في
 ستة أقدام من العبوس والنَّمس وأسنان الحصان.
 - «نعم، والذي فعلته أيضًا. كلانا قاتل ملك إذا كان ما سمعته صحيحًا». -
 - «لم أمسّ رنلي بسوء، وسأقتلُ مَنْ يقول العكس». -
 - «ابدئي بكليوس إذن، ويبدو أنك ستقتلين كثيرين بعده حسب ما قاله
 لي».

- «أكاذيب. اللبدي كاتلين كانت حاضرةً عندما قُتل جلالته ورأت بنفسها.
 كان هناك ظل، والشموع تذبذبت وأصبح الهواء باردًا، وكان هناك دم...».
 قاطعها ضاحكًا: «أوه، رائع. أعترفُ بأنك أسرع بديهتهً مني. حين وجدوني
 واقفًا فوق جثة مليكي الميت لم يخطر لي أن أقول: لا، لا، لم يكن أنا، كان
 ظلًا، ظلًا باردًا رهيبًا»، وضحك ثانيةً وتابع: «أخبريني بالحقيقة، من قاتل
 ملك لآخر، هل دفع لك آل ستارك لتفتحي عنقه؟ أم أنه ستانيس؟ هل نبذك
 رنلي؟ أهذا ما حدث؟ أم كان نزيك القمري السبب؟ لا يُفترض أن يُعطي
 أحد فتاة سيفًا وهي تنزف».

حسبَ چايمي لحظةً أنها ستضربه. خطوة أخرى وسأختطفُ هذا الخنجر
 من غمدها وأغرسه في رَحمها. سحبَ ساقه تحته استعدادًا للانقضاض، لكن
 الفتاة لم تتحرّك، وقالت: «إنها هبة نادرة ثمينة أن يكون المرء فارسًا، والأندر
 والأثمن أن يكون فارسًا في الحرس الملكي، هبة تمنح لقلائل، هبة ازدريتها
 ولوئتها».

هبة تتحرّقين رغبةً فيها يا هذه ولا يُمكنك أن تنالها أبدًا. «لقد استحققتُ
 فُروسيّتي ولم أَمَح شيئًا. في الثالثة عشرة، وأنا مجرد مُرافق، فزتُ في
 الالتحام الجماعي في دورة مباريات، وفي الخامسة عشرة قاتلتُ مع السير
 آرثر داين ضد أخوة غابة الملوك، ونصّبني فارسًا في ميدان المعركة. ذلك
 المعطف الأبيض هو الذي لوّثني لا العكس، فاعفني من حسدك. الآلهة هي
 التي لم تخلقك بقضيب وليس أنا».

النظرة التي رمته بها بريان لحظتها كانت ملأى بالاحتقار، حتى إنه قال
 لنفسه: كان ليُسعدها أن تمزّقني إربًا لولا قسّمها الغالي. لا بأس، لقد اكتفيتُ

من الورع الواهن وحُكم العذراوات عليّ. ابتعدت الفتاة دون أن تنبس بكلمة، وتكوّر چایمی تحت معطفه متمنياً أن يحلم بسرسي.

لكن من رآه حين أغلق عينيه كان إيرس تار جارين، يذرع قاعة العرش جيئةً وذهاباً وحده ويخمش يديه المتقرّحتين الدّاميتين، إذ كان الأحمق يجرح نفسه دائماً بنصال وبروزات العرش الحديدي. دخل چایمی بهدوءٍ من باب الملك مرتدياً درعه الذهبية وسيفه في يده. الدرّع الذهبية لا البيضاء، لكن لا أحد يتذكر هذا أبداً. ليتني خلعتُ ذلك المعطف الملعون أيضاً.

عندما رأى إيرس الدّماء على نصله، طالب بأن يعرف إن كانت دماء اللورد تايوين، وقال: «أريدُ هذا الخائن ميتاً، أريدُ رأسه، ستُحضر لي رأسه أو تحترق مع الباقين كلهم، مع الخونة كلهم. روزارت يقول إنهم داخل الأسوار! لقد ذهب ليستقبلهم استقبالاً حاراً. دم من هذا؟ دم من؟».

وأجاب چایمی: «روزارت».

اتّسعت العينان الأرجوانيتان عن آخرهما لحظتها، وتدلّى الفكّ الملكي من الصّدمة. فقد إيرس القدرة على التّحكّم في مصارينه، ودارَ واندفع نحو العرش الحديدي، وتحت أعين الجماجم الجوفاء على الجدران دفع چایمی آخر ملوك التّنانين بجسده من على الدّرجات، وقد أخذ يصرّخ بأعلى صوته كالخنازير وفاحت منه رائحة المراحيض. شقُّ واحد عبر حلّقه كان كل ما تطلّبه إنهاء الأمر، حتى إنه يذكّر أنه فكّر وقتها: منتهى السّهولة. المفترض أن يموت الملك بصعوبة أكبر. على الأقل حاول روزارت أن يُقاومه، مع أن الحقّ يُقال إنه قاتل كخيميائي لا كمحارب. غريب أنهم لا يسألون عن روزارت أبداً... لكن بالطبع، فلم يكن له شأن يذكّر، كان من العامّة ولم يمس على يدويته أكثر من أسبوعين، مجرد نزوة مجنونة أخرى للملك المجنون.

اقتحم اللورد إيس وسترلينج واللورد كراكهول وآخرون من فرسان أبيه القاعة في الوقت المناسب ليروا النّهاية، فلم يكن لدى چایمی سبيل للاختفاء تاركاً متبجّحاً ما يسرق الثّناء أو اللّوم. أدرك في الحال أنه سيكون اللّوم كما أفصحت النظرات التي سلّطوها عليه... ولكن ربما كانت نظرات خوف. سواء أكان لانستر أم لا، فهو واحد من حرس إيرس السّبعة.

- «القلعة لنا أيها الفارس، والمدينة»، أخبره رولاند كراكهول، وهو

ما حملَ قَدْرًا من الصَّحَّة. كان الموالون لعائلة تارجارين ما زالوا يموتون على السَّلالِم الملتقَّة وفي مستودَع السَّلاح، وجريجور كليجاين وأموري لورك ورجالهما يتسلَّقون جُدران (حصن مييجور)، وند ستارك يقود رجاله السَّماليَّين عبر (بوابة الملك)، لكن كراكهول لم يكن ليُدري شيئًا من هذا. لم تبدُ عليه الدَّهشة لعثورهم على إيرس قتيلاً، فچايمي ابن اللورد تايوين من قبل أن يُصبح فارسًا في الحرس الملكي بزمن طويل.

قال بنبرة أَمرة: «قلْ لهم إن الملك المَجنون مات، وابقِ على حياة من يستسلم ووضعه في الحبس».

- «هل أعلنُ ملكًا جديدًا أيضًا؟»، سألَ كراكهول، وقرأ چايمي السُّؤال بوضوح: هل سيكون أباك أم روبرت باراثيون؟ أم أنك تنوي أن تُنصَّب ملكَ تنانين جديدًا؟ ففكر لحظةً في الصَّبي فسيرس الذي فرَّ إلى (دراجونستون)، وفي إجون طفل ريجار الرَضيع الذي لا يزال في (حصن مييجور) مع أمه. تارجارين جديد ملكًا وأبي يده. سوف تعوي الذئاب ويختنق سيّد (أراضي العواصف) من فرط الثَّورة. أحسَّ بالإغراء برهَّة، إلى أن ألقى نظرةً أخرى على الجثَّة التي تفتش الأرض في بركةٍ متَّسعة من الدَّم، وفكَّر: دمه يجري في عروق الاثنين. هكذا قال لكرakahول: «أعلن من تشاء»، ثم إنه تسلَّق العرش الحديدي وجلسَ واضعًا سيفه على رُكبتيه، ليرى من سيأتي ليستحوذ على المملكة.

ومَن أتى كان إدارد ستارك.

أنت أيضًا لم يكن لديك الحقُّ في الحُكم عليَّ يا ستارك.

في أحلامه جاء الموتى مشتعلين، يكتسون بدوَّامات من اللهب الأخضر، ورقصَ چايمي حولهم بسيفٍ ذهبي، لكن كلما أسقطَ واحدًا قامَ اثنان وأخذوا مكانه.

أيقظته بريان بوكزة من حذائها في ضلوعه. كان العالم لا يزال أسود وبدأ المطر يهطل، وتناولوا إفطارًا من كعك الشوفان والسَّمك المملح والقليل من الثَّوت الأسود الذي قطفه السير كليوس، وعادوا يتحرَّكون قبل أن تُشرق الشمس.

تيريون

دخلَ الخصيُّ من الباب وهو يُدندنُ لنفسه بتنعيم ريك، وقد ارتدى ثوبًا فضفاضًا من الحرير الخوشي وفتحَ منه رائحة الليمون، ولمَّا رأى القزم جالسًا عند المستوقد توقّف وتسمّر في مكانه، وخرجت منه كلمة «لورد تيريون» بنبرة كالصّير امتزجت بقهقهة عصبية.

- «ما زلت تذكّرني إذن؟ كنتُ قد بدأتُ أتساءل».

منحه فارس أكثر ابتساماته لزوجة، وقال: «رائع حقًا أن أراك استرددت قوتك وعافيتك، لكنني أعتزُّ بأنني لم أتوقّع أن أجدك في مسكني المتواضع».

- «إنه متواضع بالفعل، متواضع بصورة مغالى فيها والحق يُقال». انتظر تيريون حتى استدعى أبوه فارس قبل أن ينسلَّ إلى مسكنه، مكان صغير فقير لا يتعدى ثلاث عُرفٍ ضيقة بلا نوافذ تحت سور القلعة الشمالي. «كنتُ أملُ أن أكتشف سلاسلًا من الأسرار المسيلة للعباب أتسلّى بمطالعتها بينما أنتظر، لكن ليست هناك ورقة واحدة في المكان كله». لقد بحثَ عن ممراتٍ خفية أيضًا، عالمًا أن العنكبوت يستخدم طرقًا للخروج والدخول دون أن يراه أحد، لكنه لم يُفلح في العثور على شيء. «وجدتُ ماءً في إبريقك بحقّ الآلهة، ماءً! وعُرفة نومك ليست أعرض من تابوت، وهذا الفراش... أهو مصنوع من الحجر فعلاً أم أن هذا ملمسه فقط؟».

أغلق فارس الباب وأنزل المزلاج قائلاً: «آلام الظهر تُزعجني أيما إزعاج يا سيّدي، وأفضّل النّوم على سطح صُلب».

- «حسبتك رجلًا يُفضّل النّوم على حشّية من الرّيش».

- «إنني مليء بالمفاجآت. أنت غاضب مني لأنني تخلّيتُ عنك بعد المعركة؟».

- «نعم، تصرّف كهذا جعلني أعتبرك أحد أفراد عائلتي».

- «لم يكن غياب الحب هو السبب يا سيّدي العزيز، لكنني في موضع حسّاس للغاية، كما أن ندبتك بشعة المنظر للغاية...»، وارتجف بشكلٍ مبالغ فيه مضيئاً: «... وأفك المسكين».

حكّ تيريون الجلبة التي تكوّنت على جرحه بضيق، وقال: «ربما عليّ أن أصنع واحداً جديداً من الذهب. هل تقترح نوعاً معيّنًا من الأنوف يا فارس؟ واحداً مثل أنفك أتشمّم به الأسرار؟ أم أقول للصّاعغ إنني أريد أنف أبي؟»، وابتسم متابعاً: «والدي النبيل يكدح بمنتهى الهمة لدرجة أنني أراه بالكاد الآن. أخبرني، أصبح أنه سيُعِيد المايستر الأكبر پايسل إلى المجلس الصّغير؟».

- «صحيح يا سيّدي».

- «وهل أدين لأختي الجميلة بالشكر لهذا؟». پايسل صنيعة أخته، وقد جرّده تيريون من منصبه ولحيته وكرامته، وألقى به في ززانية سوداء.

- «على الإطلاق يا سيّدي. اشكر رؤساء المايسترات في (البلدة القديمة)، الذين أصرّوا على إعادة پايسل إلى منصبه، بما أن مجمع المايسترات وحده يقدر على تنصيب المايستر الأكبر وتنحيته».

حمقى. «أذكر أن جلاّد ميّجور المتوحّش نحى ثلاثة ببلطته».

- «مضبوط، وإجون الثاني أطعم المايستر الأكبر چيرارديس لتئينه».

- «للأسف لا أملك أيّ تنانين. ربما كان يُمكنني أن أغمس پايسل في التّار الشعواء وأشعله. هل كانت (القلعة) تُفضّل ذلك؟».

قال الخصيّ «على الأقل كان سيعدّ تماشيًا مع التّقاليد»، وأطلق ضحكة مكتومة قبل أن يتابع: «لكن العقول الأكثر حكمة غلبت على غيرها لحسن الحظ، وتقبّل المجمع خلع پايسل كأمر واقع وشرع في اختيار خلفه، وبعد المشاورات اللازمة بشأن كل من المايستر توركين ابن الإسكافي والمايستر إريك ابن الفارس الجوّال، وهو ما أعرب عن قناعة جماعتهم بأن الكفاءة تسبق المكانة، كان المجمع على وشك أن يرسل لنا المايستر جورمون، وهو تايرل من (هايجاردن)، فلمّا أخبرتُ أباك تصرّف في الحال».

يعلم تيريون أن المجمع ينعقد وراء الأبواب المغلقة في (البلدة القديمة)، ويفترض أن يحفّ مداولاته الكتمان. إذن لفارس طيور صغيرة في (القلعة) أيضًا. قال: «مفهوم. وهكذا قرّر أبي أن يقطف الوردة قبل أن تتفتح»، وضحك مرغمًا قبل أن يُردف: «پايسل مخلوق حقير، لكن حقيرًا مخلصًا لآل لانستر أفضل من حقير مخلص لآل تايرل، أليس كذلك؟».

قال فارس بعدوبة: «لطالما كان المايستر الأكبر پايسل صديقًا لعائلتك. قد يُعزّيك أن تعرف أن السير بوروس بلاونت سيتقلد منصبه من جديد بدوره». كانت سرسي قد جرّدت السير بوروس من معطفه الأبيض، لإخفاقه في الموت دفاعًا عن الأمير تومن عندما قبض برون على الصبي على طريق (روزبي). لم يكن الرّجل صديقًا لتيريون، لكن لا بُدّ أنه يكره سرسي أكثر بعد ما حدث. أفضل من لا شيء على ما أظنّ. قال باستهانة: «بلاونت مجرد جبان متبجّح».

- «حقًا؟ يا للسّماء. لكن العُرف جرى على أن يخدم فرسان الحرس الملكي مدى الحياة. ربما يُثبت السير بوروس شجاعته في المستقبل، ولا شكّ أنه سيظلّ مخلصًا للغاية».

قال تيريون بلا مواربة: «لأبي».

- «ما دُمنّا نتكلّم عن الحرس الملكي... تُرى ألهذه الزّيارة المفاجئة المبهجة علاقة بالسير ماندون مور الشّجاع الذي سقط في المعركة؟»، ولمس الخصيُّ على وجنته المدهونة بالمساحيق مواصلاً: «رجلك برون يبدو مهتمًا به للغاية هذه الأيام».

كان برون قد اكتشف كلّ ما أمكّنه عن السير ماندون، لكن لا ريب في أن فارس يعرف أكثر بكثير... فقط لو يختار أن يبوح به. قال تيريون بحذر: «الرّجل كان بلا أيّ أصدقاء على ما يبدو».

قال فارس: «للأسف، أوه، للأسف. قد تجد بضعة أقارب إذا بحثت جيّدًا في (الوادي)، أمّا هنا... لقد أحضره اللورد آرّن معه إلى (كينجز لاندينج)، وخلع روبرت عليه معطفه الأبيض، لكن لا هذا ولا ذاك أحبّه كثيرًا، كما أنه لم يكن من النّوع الذي يُهلّل له العامّة في المباريات على الرغم من بأسه الأكيد، وحتى إخوته في الحرس الملكي لم يشعروا نحوه بالمودّة قط، حتى

إن السير باريستان سُمعَ وهو يقول في مرّةٍ إن الرّجل بلا أصدقاءٍ إلّا سيفه ولا حياةٍ إلّا واجبه... مع أنني لا أظنُّ أن كلام سلمي كان إطرأً بالكامل، الشّيء الذي ستجده غريباً عندما تُفكّر فيه، أليس كذلك؟ لأن المفترَض أن تكون هذه المميّزات هي ما نرغب فيه بالتّحديد في رجال الحرس الملكي، أن يعيشوا من أجل مليكهم لا من أجل أنفسهم. في هذا الصّوّء يكون السير ماندون الفارس الأبيض المثالي، وقد مات كما ينبغي أن يموت فارس الحرس الملكي، حاملاً سيفه في يده دفاعاً عن واحدٍ من أهل الملك»، ومنحه الخصيّ ابتساماً لزجةً وراقبه بنظراتٍ حادّة.

تقصد محاولاً أن يغتال واحداً من أهل الملك. تساءلَ تيريون إن كان فارس يعرف أكثر مما أفصحَ به، فلا شيء سمعه الآن جديداً، وپرون عادَ مردّداً الكلام نفسه. إنه في حاجةٍ إلى ما يربطه بسرسي، إلى ما يدل على أن السير ماندون كان أجير أخته. فكر بمرارة: لكن ما كل ما نتمناه ندرّكه، وهو ما ذكره...

- «لم آتِ بشأن السير ماندون».

قال الخصيّ: «بالتأكيد»، وقطعَ الغرفة إلى حيث وُضِعَ إبريق الماء، وسألَ وهو يملأ كوباً: «هل أقدم لك القليل من الماء يا سيّدي».

- «لا. أريدك أن تقدّم لي خدمة»، وطوى تيريون يديه متابعاً: «أريدك أن تُحضّر لي شاي».

رشفَ فارس من الماء، ثم قال: «أهذه فكرة سديدة يا سيّدي؟ الصّغيرة الحُلوة العريزة، سيكون مؤسفاً للغاية لو شقّها أبوك».

لم تُفاجئه معرفة فارس، لكنه أجاب: «لا، ليست فكرةً سديدة، بل جنون مُطبق. أريدُ أن أراها مرّةً أخيرةً قبل أن أصرفها، فلن أحتمل أن تبقى قريبةً هكذا».

- «مفهوم».

وأنتى لك أن تفهم؟ كان قد رآها بالأمس، تصعد الدّرجات الملتفة حاملةً دلوًا من الماء، وشاهدَ فيما عرضَ فارس شاب أن يحمل الدّلّو الثّقل عنها، فابتسمت له ومسّت ذراعها بطريقةٍ ألّهبتَ غيرة تيريون. مرّ كل منهما بالآخر على مسافةٍ بوصاتٍ معدودة، هو نازل وهي صاعدة، دانية منه للغاية حتى إنه

اشتَمَّ رائحة شعرها النَّظِيفَةَ النَّقِيَّةَ. بانحناءٍ صغيرةٍ قالت له: «سيدي»، وأرادَ لحظتها أن يمدَّ يده ويضمِّمَها إليه ويُقبِّلها في مكانها، لكنه لم يستطع إلا أن يومئ برأسه بحركة متصلِّبة ويواصل طريقه.

قال لفارس: «رأيتها عدَّة مرَّات، لكني لا أجرؤ على مخاطبتها. لديَّ شكٌّ في أن تحرُّكاتي كلها مراقبة».

- «لم تُجانِبك الحكمة في شكوكك هذه يا سيدي العزيز».

مال برأسه متسائلاً: «مَن؟».

- «الإخوة كتلبلاك يُقدِّمون تقاريرهم لأختك الجميلة باستمرار».

- «عندما أفكَّر في الأموال التي دفعتها لهؤلاء الملاعين... هل تعتقد أن

مزيداً من الذهب سيستميلهم عن جانب عن سرسي؟».

- «هناك فرصة دائماً، لكني لا أنصح بالرهان على قوتها. إنهم فرسان

الآن، الثلاثة، كما أن أختك وعدتهم بالمزيد من الترقِّي»، وتفجَّرت ضحكة

خبيثة قصيرة من بين شفَتَي الخصيِّ قبل أن يكمل: «وأكبرهم، السير أوزموند

فارس الحرس الملكي، يحلِّم ب... امتيازات أخرى... لا شكَّ لديَّ في

استطاعتك أن تُساوي ما تدفعه الملكة عملةً عملةً، لكن لديها كيس نقودٍ آخر

لا يُنضب أبداً».

بحقَّ الجحائم السَّبْع! «هل ترمي إلى أن سرسي تُضاجع أوزموند

كتلبلاك؟».

أجاب فارس: «أوه، لا، على الإطلاق. فعل كهذا سيكون في غاية

الخطورة، أليس كذلك؟ لا، الملكة تُلمِّح فحسب... ربما غداً، أو بعد

الزَّفاف... ثم ابتسامه، همسة، دُعاة بذيئة، ثدي يمسُّ كُمَّه سريعاً حين يمرُّ

أحدهما بالآخر... ويبدو أن هذا كافٍ. لكن ماذا يعرف خصيِّ مثلي عن تلك

الأشياء؟»، ومرَّ طرف لسانه على شفته السفلى فبدا كحيوان وردي خجول.

إذا استطعتُ أن أدفعهما إلى ما هو أكثر من الملاطفة المستترة، أن أرتب

لأن يضبطهما أبي في الفراش معاً... تحسَّس تيريون الجلبة على أنفه بأصابعه

عاجزاً عن التَّفكير في وسيلة لتنفيذ هذا، لكن لعل فكرة ما تأتيه لاحقاً. «هل

الإخوة كتلبلاك الوحيدين؟».

- «ليت هذا كان صحيحاً يا سيدي، لكني أخشى أن هناك أعيناً كثيرة

عليك. إنك... كيف أقولها؟ لافت للأنظار؟ ويؤسفني أن أقول لك إنك لست محبوبًا كثيرًا. أبناء چانوس سلينت سيُسعدهم أن يشوا بك انتقامًا لأبيهم، واللورد پيتر له أصدقاء في نصف مواخير المدينة، وإذا تصرفت برعونةٍ وُزرت أحدها فسيعرف في الحال، وسرعان ما سيعرف السيّد والدك بدوره».

الأمر أسوأ مما خشيتُ. «وماذا عن أبي؟ من يتجنّس عليّ لحسابه؟».

هذه المرّة أطلق الخصيُّ ضحكةً عاليةً، وقال: «أنا بالطبع يا سيّدي».

ضحكٌ تيريون أيضًا. إنه ليس بالحماقة التي تجعله يثق بڤارس أكثر من القدر الصّورري، لكن الخصيُّ يعرف ما يكفي بالفعل عن شيّ لأن يجعلها تتدلّى من حبل المشنقة. هكذا قال: «ستُحضر لي شيّ عبر الجدران، بعيدًا عن الأعين، كما فعلت من قبل».

نفضَ ڤارس يديه قائلاً: «أوه، لا شيء يسُرني أكثر يا سيّدي، لكن... الملك ميچور لم يرغب في وجود أيّ جردان داخل جدرانها، إذا كنت تفهم ما أعنيه، وتطلب سببًا سرّيّة للخروج تحسبًا لأن يُحاصره أعداؤه، لكن هذا الباب لا يتصل بأيّ ممرّاتٍ أخرى. يُمكنني أن أسرق فتاتك شيّ من الليدي لوليس بعض الوقت بالتأكيد، غير أنني لا أعرف وسيلةً لإحضارها إلى غرفة نومك دون أن يرانا أحد».

- «أحضرها إلى مكان آخر إذن».

- «لكن أين؟ ليس هناك مكان آمن».

قال تيريون: «بل هناك»، وانفجرت شفتاه عن ابتسامةٍ عريضةٍ وهو يُضيف: «هنا. أعتقد أن الوقت حان لاستغلال هذا الفراش الصّلب كالصّخر في أشياء أفضل».

فغرّ الخصيُّ فاه، ثم إنه قهقهة وقال: «لوليس تتعب بسرعة هذه الأيام بما أنها حيلي، وأظن أنها ستكون قد غابت في التّوم وقت طلوع القمر».

نزل تيريون من مقعده قائلاً: «عند طلوع القمر إذن. جهّز القليل من التّببذ ووضّع كوبيّن نظيفين».

انحنى ڤارس مجيبًا: «كما يأمر سيّدي».

مرّت بقيّة النهار ببطء دودةٍ تزحف في العسل الأسود.

صعدَ تيريون إلى مكتبة القلعة، وحاولَ أن يُلهي نفسه بقراءة (تاريخ الحروب الروميّة) لبلديكار، وإن ظلَّ يتخيّل ابتسامة شاي حتى أصبح يرى صور الأفيال بالكاد. مع حلول الأصيل نَحَى الكتاب جانبًا وطلبَ حمّامًا، وأخذَ يدعك نفسه إلى أن فترَ الماء، ثم أمرَ بود بتشذيب لحيته التي تُزعجه كثيرًا، فهي كتلة متشابكة من الشّعر الأصفر والأبيض والأسود الخشن، ومع أن الفُبح لا يُفارق منظرها إلا نادرًا، فإنها تُساعد على إخفاء شيءٍ من وجهه، وهذه فائدة لا شكَّ فيها.

عندما نظفَ جسده وتورّد وصارت لحيته مشدّبةً قدر الإمكان، تطلّع تيريون إلى خزانة ملابسه، وانتقى سراويل ضيّقةً من الساتان بلون عائلة لانستر القرمزي، ومعها أفضلُ سُترَةٍ عنده، تلك المفصّلة من المخمل الأسود الثّقيل والمطمّعة برؤوس الأسود، وكان ليرتدي سلسلته ذات الأيدي الذهبية أيضًا لو لم يسرقها أبوه وهو في فراش الموت. فقط حين ارتدى ثيابه كاملةً أدرك مدى حماقته. بحقّ الجحائم السبع أيها القزم، هل فقدت عقلك مع أفك؟ كلٌّ من يراك سيتساءل لماذا ارتديت ثياب البلاط في زيارتك إلى الخصي. أطلق سبَابًا وخلعَ ملابسه ليلبس غيرها، واختارَ شيئًا أكثر تواضعًا هذه المرّة؛ سراويل سوداء من الصّوف وقميصًا أبيض قديمًا وسُترَةٍ من الجلد البنيّ الباهت، وفيما انتظرَ طلوع القمر قال لنفسه: لا يهمُّ. مهما ارتديت ستبقى قزمًا، لن تبلغَ قامة ذلك الفارس على السّلالم أبدًا، ولن تتمتعَ بساقيه الطويلتين المستقيمتين وبطنه القوي وكتفيه الرّجوليتين.

كان القمر يختلس النّظر من فوق أسوار القلعة، عندما قال لپودريك باين إنه ذاهب لزيارة فارس، فسأله الصّبي: «هل ستتأخّر يا سيّدي؟».

- «أوه، أتمنّى هذا».

لم يكن لدى تيريون أمل في الحركة دون أن يُلاحظه أحد نظرًا لازدحام (القلعة الحمراء) الشّديد. وقف السير بالون سوان يحرس الباب، بينما وقف السير لوراس تايرل عند الجسر المتحرّك، فتوقّف ليتبادل عبارات المجاملة معهما، وقد بدا غريبًا أن يرى فارس الرّهور يرتدي ثيابًا بيضاء بالكامل الآن وقد كان يبدو ملوّنًا دائمًا كقوس قزح. سأله تيريون: «كم عمرك يا سير لوراس؟».

- «سبعة عشر عامًا يا سيّدي».

عُمره سبعة عشر عامًا، وجميل المِحيًا، وأسطورة بالفعل. نصف فتيات (الممالك السبع) يُردن مضاجعته، وكل الصبية يُريدون أن يكونوا مثله. «إذا سمحت لي بالسؤال أيها الفارس، لماذا يختار أحد الانضمام إلى الحرس الملكي في سن السابعة عشرة؟».

أجاب السير لوراس: «الأمر إيمون الفارس الثنين حلف اليمين وهو في السابعة عشرة، وأخوك چايمي كان أصغر منه».

- «أعرف أسبابهما، لكن ما أسبابك أنت؟ شرف الخدمة جنبًا إلى جنب مع مغاوير مثل مرين ترانت وبوروس بلاونت؟»، وأعطى الصبي ابتسامة ساخرة مردفًا: «أن تحمي حياة الملك معناه أن تتنازل عن حياتك، تُسقط حَقَّك في أراضيكَ وألقابك، وتتخلَّى عن الأمل في الزواج والذرية...».

قال السير لوراس: «عائلة تايرل ستستمرُّ من خلال أخوي، وليس من الضروري أن يتزوَّج الابن الثالث أو يُنجب».

- «ليس ضروريًا، لكن البعض يجده شيئًا جميلًا. وماذا عن الحب؟».

- «عندما تغيب الشمس فلا يُمكن لشمعة أن تحل محلها».

مالَ تيريون برأسه مبتسمًا، وقال: «أهذا بيت من أغنيَّة؟ نعم، إنك في السابعة عشرة حَقًّا، أرى هذا الآن».

توتَّر السير لوراس وسأله: «هل تسخر مني؟».

فتى قصير الفتيْل. «كلا. سامحني إذا أسأتُ إليك. كانت لي حبيبة ذات يوم، وكانت لنا أغنيَّتنا». عشقتُ بنتًا بهيَّةً كالصيف، في شعرها نور الشمس. تمتى تيريون للسير لوراس أمسيَّةً طيِّبةً وواصلَ طريقه.

بالقرب من الأوجرة كانت مجموعة من المسلَّحين تُقاتل زوجين من الكلاب، فتوقَّف تيريون بما يكفي لأن يُشاهد الكلب الصغير يُمزَّق نصف وجه الكبير، وريح قليلًا من الضحكات الخشنة عندما قال إن الكلب الخاسر أصبح يُشبه ساندور كليجاين، ثم إنه واصلَ طريقه وهو يتمنى أن يكون قد جرَّدهم من ارتيابهم، وأتجه إلى السور الشمالي ونزلَ السلالَم القصيرة إلى مسكن الخصيِّ الفقير.

انفتح الباب وهو يرفع يده ليُدقِّقه، ودخلَ تيريون قائلاً: «فارس؟ أنت هنا؟». شمعة وحيدة كانت تُنير العتمة مطيِّبةً الهواء بعطر الياسمين.

بتؤدّةٍ خرجت امرأة إلى الضّوء، امرأة ممتلئة لدنة يبدو عليها الوقار، وجهها مستدير متورّد، وشعرها فاحم كثيف، ولمّا جفلَ تيريون لمرآها قالت: هل أزعجك شيء؟».

أدرک مغتاضاً أنه فارس، وقال: «أشعرتني بالرّعب لحظةً وقد حسبتُ أنك جلبت لي لوليس وليس شي! أين هي؟».

وضعت يديها على عينيه من ورائه قائلةً: «هنا يا سيدي. هل يُمكنك أن تُخمن ما أرتديه؟».

- «لا شيء؟».

مطت شفيتها بتبرّم مصطع وأزاحت يديها بحركة حادّة قائلةً: «أوه، كم أنت ذكي! كيف عرفت؟».

- «لأنك جميلة جدًا وأنت ترتدين اللا شيء».

- «أأنا كذلك؟ أأنا كذلك حقًا؟».

- «أوه، بكل تأكيد».

- «ألا يجدر بك أن تضاجعني إذن بدلًا من الكلام؟».

- «يجب أن نتخلص من الليدي فارس أولاً. لست من الأقزام الذين

يريدون جمهورًا يُسجّعهم».

قالت شي: «لقد رحل».

التفت تيريون يُلقي نظرةً، وكان صحيحًا أن الخصي اختفى بالفعل بفستانه

وشعره المستعار. الأبواب الخفية في مكان ما هنا لا شك. لم يملك وقتًا أطول

للتفكير قبل أن تُدير شي رأسه لتقبّله. أحسّ بثغرها مبتلًا جائعًا، ولم يبدُ أنها

ترى ندبته على الإطلاق، أو الجلبة المسحوجة التي احتلت مكان أنفه. بشرتها

كانت حريزًا دافئًا تحت أصابعه، وحين مسّ إبهامه حلمتها اليسرى تصلبت في

الحال، وبين القبلات استعجلته قائلةً وهو يحلّ أربطة سراويله: «أسرع، أوه،

أسرع، أسرع، أريدك في داخلي، في داخلي، في داخلي». لم يجد وقتًا لأن

يخلع ثيابه كما ينبغي، إذ سحب شي ذكره من سراويله، ثم دفعته ليستلقي

على الأرض وركبت فوقه. صرخت لَمّا دفع نفسه بين شفريها وامتنطت بحرارة

جياشة، وكلما نزلت عليه بكلّ عنفوانها قالت متأوّهة: «عملاقي، عملاقي،

عملاقي». كان تيريون مهتاجًا لدرجة أن الفورة باغتته بعد الدفعة الخامسة،

لكن لم يَلْحَ على شَيءٍ أنها تُمانع، ورسمت على شفيتها ابتسامةً خبيثةً لَمَّا أَحسَّت بانفجاره، ومالت إلى الأمام لتمسح عرق جبهته بشفتيها متممةً: «عملاقي اللانستر. ابق في داخلي أرجوك. أحبُّ أن أشعرك هناك».

لم يتحرَّك تيريون إلا ليضع ذراعيه حولها مفكرًا: إحساس رائع أن أضُمَّها، فكيف يُمكن أن يكون جزء شيءٍ بهذه الحلاوة الشَّقِّ؟ ثم إنه قال لها: «شَيءٍ يا حلوتي، يجب أن تكون هذه آخر مرَّةٍ لنا معًا. الخطر شديد. إذا اكتشف السيِّد والدي...».

- «أحبُّ نديتك»، قالت ممرِّرةً إصبعها عليها. «تجعلك تبدو قويًّا وشرسًا جدًّا».

قال ضاحكًا: «قبيحًا جدًّا تقصدين».

قالت: «لن يكون سيدي قبيحًا في عيني أبدًا»، ولثمت الجُلبة التي غطت جَدعة أنفه المتهتكة.

- «ليس وجهي ما يجب أن يُقلِّقك، بل أبي...».

- «إنه لا يُخيفني. هل سيُعيد سيدي فساتيني الحرير وجواهري؟ سألتُ فارس إن كان يُمكن أن آخذها عندما جُرحت في المعركة، لكنه رفض أن يُعطيني إياها. ماذا كان سيحدث لها إذا مُتَّ؟».

- «لكنني لم أمُت، إنني هنا».

تلوَّت فوقه مبتسمةً، وقالت: «أعرفُ هذا، في المكان الذي تنتمي إليه»، ثم مطَّت شفيتها متسائلةً: «لكن إلى متى عليَّ أن أبقى مع لوليس ما دُمت قد استرددت عافيتك؟».

- «هل سمعتِ ما قلته؟ يُمكنك البقاء مع لوليس إذا أردتِ، لكن الأفضل أن تتركي المدينة».

قالت: «لا أريدُ أن أغادر. لقد وعدتني بأن تنقلني إلى إيوانٍ جديد بعد المعركة»، واعتصرته بفرجها برفق فبدأ ينتصب ثانيةً في داخلها بينما واصلت: «وقلتِ إن اللانستر سيُدِّد ديونه دائمًا».

- «شَيءٍ، بحقِّ الآلهة اللعينة، توقَّفي عن هذا وأنصتي إليَّ. يجب أن ترحلي. المدينة مليئةٌ برجال تايرل الآن، وأنا تحت مراقبةٍ لصيقة. إنكِ لا تُدرِكين الخطر».

- «هل يُمكنني حضور مأدبة زفاف الملك؟ لوليس لن تذهب. قلتُ لها

إن لا أحد سيغضبها في قاعة العرش، لكنها بلهاء لأقصى درجة»، ونزلت من عليه لينزلق من داخلها بصوتٍ ناعم، وتابعت: «سايمون يقول إنهم سيقيمون سابقاً للمغنيين، وسيكون هناك حواة، ونزال بين المهرَّجين كذلك». كان تيريون قد نسي أمر مغني شاي الملعون ثلاثاً، فقال: «كيف تكلمت مع سايمون؟».

- «حكيتُ لليدي تاندا عنه، واستأجرته ليعني للوليس. الموسيقى تُهدِّئها عندما يشرع الجنين في الرُّكل. سايمون يقول إنه سيكون هناك دُب راقص في الاحتفال، ونيذ من (الكرمة). لم أرَ دبةً تُرقص من قبل». - «رقصها أسوأ من رقصي». ما يهْمُه هو المغني لا الدب. كلمة واحاة طائشة في الأذن الخطأ معناها أن تُشنق شاي.

استطردت بحماسة: «سايمون يقول إنهم سيقدِّمون سبعةً وسبعين طبقاً، ومئة حمامة في كعكةٍ ضخمة. عندما يفتحون قشرة الكعكة ستنبثق الحمامات منها وتطير».

- «وبعدھا ستجثم على عوارض السَّقْف وتُمطر الضيوف بالغاظ». سبق تيريون أن عانى من كعكات زفافٍ مشابهة، ولطالما ارتاب في أن الحمامات تتعمد أن تتبرَّز عليه هو بالذات.

- «ألا يُمكنني أن أرتدي الحرير والمخمل وأذهب باعتباري ليدي لا خادمة؟ لا أحد سيعرف أنني لست منهم».

الكلُّ سيعرف أنك لست منهم. «قد تتساءل الليدي تاندا كيف حصلت خادمة ابنتها على هذه الجواهر كلها».

- «سايمون يقول إنه سيكون هناك ألف من الضيوف، فلن تراني على الإطلاق. سأجدُ مكاناً في رُكنٍ مظلم تحت الملح⁽¹⁾، لكن كلما نهضت للذهاب إلى المراض سأستسلل وأقابلك»، وطوّقت ذكره بيدها وحركت يدها عليه مواصلةً: «لن أرتدي ثياباً داخليةً تحت فُستاني كي لا يضطرَّ سيدي

(1) على غرار العادة في القرون الوسطى، يوضع الملح في منتصف المائدة، بحيث يجلس كبير القوم وعائلته فوق الملح، أي في اتجاه رأس المائدة، فيما يجلس الضيوف وغيرهم تحت الملح. (الترجم).

إلى خلعه»، وداعبته أصابعها من أعلى إلى أسفل وهي تُضيف: «أو يُمكنني أن أفعل هذا إذا أحبَّ»، وأخذته في فمها.

سرعان ما أصبح تيريون مستعدًا من جديد، وهذه المرّة استمرّ فترة أطول كثيرًا، ولمّا فرغَ عادتْ شاي تضمُّ جسدها إليه وكوّرت نفسها تحت ذراعه قائلةً: «ستدعني أذهب، أليس كذلك؟».

قال متذمّرًا: «شاي، لن تكوني في أمان».

مرّ بعض الوقت دون أن تنفّوه بشيء. حاولَ تيريون أن يتكلّم عن أمور أخرى، لكنه واجهَ جدارًا من الكياسة الجامدة، جليديًا قاسيًا كـ(الجدار) الذي سارَ على قمّته ذات يوم في الشّمال. فكّر متعبًا وهو يُراقب ذؤابة الشّمعة تتذبذب توطئةً للانطفاء: كيف أمكّنتي أن أسمح لهذا بالحدوث ثانية بعد تايشابح حقّ الآلهة؟ أنا أحمق كبير كما يظنُّ أبي حقًا؟ بكلِّ سرور كان ليمنحها الوعد الذي تنشّده، وبكلِّ سرور كان ليصطحبها إلى غرفته متأبّطًا ذراعها ويترُكها ترتدي الحرير والمخمل اللذين تُحبُّهما حبًّا جمًّا، ولو كان الأمر بيده لجلست إلى جواره في مأدبة زفافٍ چوفري ورقصت مع كل ما تشاء من دبية، لكنه لن يحتمل أن يراها مشنوقةً.

عندما انطفأت الشّمعة حلّ تيريون نفسه منها ونهضَ يُشعلُ أخرى، ثم إنه قامَ بدورةٍ حول الغُرفة ناقراً على كلِّ حائط بحثًا عن الباب الخفي، فيما جلستْ شاي تضمُّ ساقها وتُحيطهما بذراعيها، وأخيرًا قالت: «السّلام السّرّيّة تحت الفراش».

رمقها مشكّكا، وقال: «الفراش؟ إنه من الحجر المصمت، ويزن نصف طن».

- «ثمّة موضع يضغط عليه فارس فيرتفع الفراش على الفور. سألته كيف فقال إنه السّحر».

ابتسمَ تيريون ساخرًا، وغمغمَ: «نعم، تعويذة طيران».

قامتْ شاي قائلةً: «يجب أن أعود. أحيانًا يرُكل الجنين فتستيقظ لوليس وتناديني».

قال واضعًا الشّمعة: «المفترض أن يعود فارس قريبًا. إنه يتنصّت على كلِّ كلمةٍ نقولها غالبًا». كانت هناك بقعة مبتلة على مقدّمة سراويله، لكن من غير

المحتمل أن يُلاحظها أحد في الظلام. هكذا قال لشاي أن ترتدي ملابسها وتنتظر الخصي.

قالت: «سأنتظره. أنت أسدي، أليس كذلك؟ عملاقي اللانستر».
- «بلى، وأنت...».

- «... عاهرتك»، ووضعت إصبعًا على شفتيه مردفة: «أعرفه أريد أن أكون سيّدتك لكنني لن أكون أبدًا، وإلا لأخذتني إلى المأدبة. لا يهم، أحب أن أكون عاهرتك يا تيريون. احتفظ بي فقط يا أسدي، وحافظ على سلامتي». قال: «سأفعل»، وفي أعماقه صرّخ الصّوت: أيها الأحمق! أيها الأحمق! لماذا قلت هذا؟ لقد أتيت إلى هنا لتصرفها! لكن بدلًا من أن يصرفها قبلها مرّة أخرى.

بدا طريق العودة طويلًا موحشًا. كان بودريك باين نائمًا في سريره النقال عند قدم سرير تيريون، الذي أيقظه قائلاً: «برون».

فرك بود عينيه مهممًا: «السير برون؟ أوه، هل أحضره يا سيّدي؟».

قال تيريون: «لا، لقد أيقظتك لتسامر حول ما يرتديه من ثياب»، لكن سخريته كانت بلا طائل، إذ حملق بود إليه مرتبكا، إلى أن رفع يديه قائلاً: «نعم، أحضره، اجلبه، الآن».

ارتدى الصّبي ملابس مسرعا وهرع من الغرفة، وسأل تيريون نفسه وهو يضع معطف نوم ويصّب لنفسه كأس نبيذ: أنا مخيف لهذه الدرّجة حقًا؟ كان يشرب كأسه الثالثة وقد انقضى نصف اللّيل بالفعل قبل أن يرجع بود وفي أعقابه المرتزق، الذي قال وهو يجلس: «أمل أن الفتى لديه سبب وجيه لجرّي من عند شاتايا».

ردّد تيريون بضيق: «شاتايا؟».

قال برون: «من الرائع أن يكون المرء فارسًا. لا مزيد من البحث في المواخير الرخيصة في نهاية الشارع»، وأضاف ببسمة عريضة: «الآن هناك آلايا وماري في الفراش الرّيش نفسه، وبينهما السير برون».

اضطرّ تيريون لأن يتلع ضيقه، فيرون لديه الحق في افتراض آلايا كأيّ رجل آخر، ومع ذلك... لم أمسّها قط رغم توقي لأن أفعل، لكن برون لا يعلم ذلك. كان يجب أن يُقّي قضيبه بعيدًا عنها. إنه لا يجرؤ على زيارة ماخور

شأتايا، فبمجرّد أن يفعل ستتأكّد سرسي من أن يعرف أبوه، وتُعاني يايا مما هو أكثر من الجلد هذه المرّة. كان قد أرسل إلى الفتاة قلادة من الفضة واليشب وزوجين من الأساور على سبيل الاعتذار، لكن بخلاف هذا... لا جدوى من هذا. قال تيريون بإرهاق وهو يدفع شعوره بالذنب جانبًا: «هناك مطرب يُسمّي نفسه سايمون لسان الفضة، يُعني لابنة الليدي تاندا أحيانًا». - «ماذا عنه؟».

أراد أن يقول: اقتله، لكن الرّجل لم يفعل أكثر من ترديد بعض الأغاني... وملء رأس شي الجميل بخيالات الحمائم والذبّبة الرّاقصة. بدلًا من هذا قال: «اعثر عليه، اعثر عليه قبل أن يسبقك أحد آخر إليه».

آريا

سمعت الغناء وهي تنبش الأرض بحثًا عن الخضراوات في حديقة رجلٍ
ميت.

تجمدت آريا في مكانها بصلابة الحجر وأرهفت السمع، وقد نسيت
الجزرات الثلاث الهزيلة في يدها فجأةً. خطرَ بيالها الممثلون السّفاحون
ورجال روس بولتون، وقالت لنفسها شاعرةً بقشعريرة الخوف تسري على
عمودها الفقري: ليس هذا عدلاً، ليس عندما عثرنا على (الثالوث) أخيراً،
ليس ونحن نحسب أننا شارفنا على برِّ الأمان.
لكن لماذا يُعني الممثلون؟

كانت الأغنية تنساب من جهة منبع النهر، من مكانٍ ما وراء المرتفع
الصغير شرقاً.

- «إلى (بلدة النوارس) سأذهب لأرى فتاتي رائعة الجمال، هاي هو، هاي
هو».

نهضت آريا والجزر في يدها، وقد بدا لها أن المغنيّ قادم على طريق النهر،
وأدركت من النظرة على وجه هوت باي وهو واقف وسط ثمار الكرنب أنه
سمعه أيضاً، أمّا جندري فكان قد خلد إلى النوم في ظلّ الكوخ المحترق ولا
يُمكنه أن يسمع شيئاً.

- «وأسرق منها قبلةً بنصل سيفي، هاي هو، هاي هو».
خيلَ إليها أنها تسمع أنغام قيثارة خشبية أيضاً، يطغى عليها خرير النهر
الناعم.

بصوتٍ مبسوح قال هوت پاي وهو يحتضن الكرب بين ذراعيه: «هل تسمعين؟».

قالت له: «اذهب وأيقظ جندري. هُزَّه من كتفه ولا تُحدِثِ جلبةً». من السهل أن توقظ جندري، على عكس هوت پاي الذي ينبغي أن تزعق فيه وتركله حتى يصحو.

- «سأجعلها حبيبتي ونستريح بين الظلال، هاي هو، هاي هو».
أخذ صوت الأغيثة يعلو مع كل كلمة، وفتح هوت پاي ذراعيه ليسقط الكرب أرضاً بصوتٍ مكتوم، وقال: «يجب أن نختبي!».

أين؟ كان الكوخ المحروق وحديقته المتخمة بالنباتات يُطلان على ضفاف (الثالوث) مباشرة، وثمة أشجار صَفصاف قليلة نامية على حافة النَّهر، ووراءها ترتفع أحراج القصب من المياه الصَّحلة الموحلة، لكن معظم الأرض في الجوار مفتوح مكشوف تمامًا. ما كان يجب أن نخرج من الغابة، كنتُ أعرف. لكنهم كانوا يتصوِّرون جوعًا، ووجدوا إغراء الحديقة أقوى من مقاومتهم، خصوصًا أن الخبز والجُبنة اللذين سرقوهما من (هارنهال) نفدا تمامًا قبل ستَّة أيام وهم في أعماق الغابة. قالت وقد حزمت أمرها: «خذ جندري والخيول وراء الكوخ». ما زال جزء من جدار واحد قائمًا، وربما يكون كبيرًا بما فيه الكفاية لمواراة ثلاثة خيولٍ وصبيِّين... إذا لم تصهل الخيول وإذا لم يأت ذلك المغنيُّ للتفتيش في الحديقة.

- «وماذا عنك؟».

- «سأختبي عند الشجرة. إنه بمفرده غالبًا، وإذا أزعجني سأقتله. اذهب!».
وذهب هوت پاي، على حين سحبت آريا السيف المسروق من فوق كتفها. كانت قد ثبتت العمد بشكل مائل على ظهرها، فهذا السيف الطويل مصنوع لرجل بالغ، ويظل يرتطم بالأرض إذا وضعت على وركها. كما أنه ثقيل للغاية، فكرت مفتقدة إرتها مثلما تشعر كلما استلَّت هذا الشيء المرهق، لكنه سيف ويُمكنها أن تقتل به، وهذا يكفي.

بخفةٍ تحرَّكت إلى الصَّفصافة العجوز الكبيرة التي ترتفع إلى جوار انحناء الطريق، حيث جثت على رُكبةٍ واحدة في العُشب والوحل وراء حجابٍ من

الأغصان المتدلّية إلى الأرض، وصلّت فيما اقترب صوت المغني أكثر: أيتها
الآلهة القديمة، يا آلهة الأشجار، أخفني عنه واجعله يمرّ دون أن يراني .
وفي اللحظة التّالية ارتفع سهيل حصان وبتّر الرّجل أغنيته، فأدرّكت أنه سمع،
لكنها فكرت: لعلّه وحده، وإذا كان معه آخرون فربما يخافوننا كما نخافهم.
قال صوت رجل: «هل سمعت هذا؟ يبدو أن هناك شيئاً وراء ذلك
الجدار».

أجاب صوت ثانٍ أعمق: «ما مصدره في رأيك أيها القوّاس؟».
قالت آريا لنفسها وهي تعصّ شفّتها: اثنان إذن. لم يكن بإمكانها رؤيتهما
حيث ركعت بسبب الشّجرة، لكنها سمعتهما بوضوح.
- «دُب»، ردّ صوت ثالث، أم أنه الأول؟
قال الصّوت العميق: «الدّبة لحمها كثير، وشحمها أيضاً في الخريف⁽¹⁾.
مذاقها طيّب إذا طهيّت كما ينبغي».
- «قد يكون ذئباً أو أسداً».
- «بقدمين أم أربع؟».
- «لا فرق، أليس كذلك؟».
- «ليس على حدّ علمي. ماذا ستفعل بكلّ هذه السّهام أيها القوّاس؟».
- «سأطلق بعضها وراء الجدار، وسرعان ما سيظهر المتواري هناك أيّاً
كان. شاهد وستري».

- «لكن ماذا لو كان رجلاً أميناً؟ أو امرأة مسكينةً وولدها؟».
- «إذا كان رجلاً أميناً فسيخرج ويُرينا وجهه. الخارجون عن القانون فقط
يتسلّلون ويتوارون».
- «أجل، هذا صحيح. فلنطلق سهامك إذن».
هبت آريا واقفةً من فورها، وصاحت: «لا!». رأت أنهم ثلاثة. ثلاثة فقط.
كان سيريو يستطيع أن يُقاتل أكثر من ثلاثة، وهي معها هوت باي وجندري،
فربما يُسانداها. لكنهما صبيّان، وهؤلاء رجال.

(1) قبل نهاية الصّيف مباشرةً تبدأ الدّبة في اختزان الدّهون في أجسامها كي تزداد في الحجم
والثقل، استعداداً للحياة على هذه الدّهون في أثناء بيّاتها الشتوي. (المترجم).

كانوا على أقدامهم، لوَّث السَّفر ثيابهم ولطَّخت الأوحال أحذيتهم. تعرَّفت المغنِّي عن طريق القيثارة الخشبيَّة التي يضمُّها إلى سترته الجلدية كما تضمُّ الأم رضيعها، ووجدته رجلاً صغير الحجم يوحى منظره بأنه في الخمسين من العُمر، له فم كبير وأنف حاد وشعر بُني بدأ ينحسر عن رأسه، ويرتدي ثياباً خضراء مرتوقة هنا وهناك برُّقع من الجِلد القديم، ويُعلّق على وركه زوجين من سكاكين الرِّماية، وعلى ظهره بلطة لقطع الأشجار.

الرَّجل الواقف إلى جواره يفوقه طولاً بقدم كامل وله سيماء الجنود، ومن الحزام المطعَّم بالحديد الذي يتمنطق به يتدلَّى سيف طويل وخنجر، بينما خيَّطت صفوف من الحلقات الفولاذية المتداخلة على قميصه، وغطى رأسه بخوذة حديد قصيرة ذات شكل مخروطي، أسنانه نخرة ولحيتة بيَّنة كثَّة، أمَّا ما يلفت الأنظار فهو معطفه الأصفر ذو القلنسوة، معطف سميك ثقيل مبقَّع هنا بالعثب وهناك بالدَّم، مهترئ من أسفل ومرقَّع بجِلد الغزلان على الكتف اليمنى، ويجعل الرَّجل الكبير يبدو كأنه طائر أصفر ضخم.

ثالث الثلاثة شاب رفيع كقوسه الطويل، مع أنه لا يُناهزه طولاً، شعره أحمر ووجهه منمَّش، ويرتدي درعاً مطعَّماً بالحديد وحذاءً عالي الرِّقبة وقفازين من الجِلد بلا أصابع، وعلى ظهره كنانة فيها سهام مزوَّدة بريش الإوز الرَّمادي، وستة من هذه السَّهام كانت مغروسةً في الأرض أمامه الآن كأنما تصنع سياجاً صغيراً.

رمقها الرَّجال الثلاثة وهي واقفة على الطَّريق وسيفها في يدها، ثم نقر المغنِّي وترًا في قيثارته بفتور وقال: «ضَع هذا السَّيف يا ولد ما لم تكن تريد أن تُجرَح. إنه كبير عليك للغاية، كما أن أنجاي يُمكنه أن يغرس ثلاثة سهامٍ فيك قبل أن تبُلغنا».

قالت آريا: «لن يستطيع، وأنا فتاة!».

انحنى المغنِّي قائلاً: «أنتِ فتاة. تقبَّلي اعتذاري».

- «واصلوا طريقكم، اذهبوا من هنا وتابعوا الغناء كي نعرف مكانكم،

ارحلوا واتركونا ولن أقتلكم».

ضحك القوَّاس ذو التَّمش، وقال: «هل سمعت يا ليم؟ لن تقتلنا».

ردَّ ليم، الجُندي الكبير صاحب الصَّوت العميق: «سمعت».

قال المغنّي: «أيتها الصّغيرة، تخلي عن هذا السّيف وسنأخذك إلى مكان آمن ونضع القليل من الطّعام في بطنك. ثمّة ذئاب في هذه الأنحاء، وأسود، وأشياء أسوأ. إنه ليس بالمكان الذي تتجوّل فيه فتاة صغيرة وحدها».

- «ليست وحدها»، قال جندري وهو يخرج على حصانه من وراء جدار الكوخ، ووراءه هوت باي يقود حصانها. في قميص الحلقات المعدنيّة الذي يرتديه، وبالسّيف الذي يحمله، كاد جندري يبدو كرجل بالغ، أمّا هوت باي فبدأ كهوت باي. «افعلوا كما قالت واتركونا وشأننا».

قال المغنّي: «اثنان وثلاثة. أهذا كل شيء؟ وخيول كذلك، خيول جميلة من أين سرقتها؟».

ردّت آريا وهي تُراقبهم بحذر: «إنها خيولنا». تبينّت أن المغنّي يُشئت انتباهها بكلامه، لكن القوّاس هو الخطر الحقيقي. إذا سحب سهمًا من الأرض...

سأل المغنّي الصّبيّين: «هلاً أخبرتمونا بأسمائكم على الأقل؟».

أجاب هوت باي من فوره: «أنا هوت باي».

قال الرّجل مبتسمًا: «نعم، وخير لك. المرء لا يلتقي أحدًا له اسم لذيذ كالفتير الساخن كل يوم. وبمّ يدعى صديقك؟ ريشة الضّان والكتكوت؟».

حدّجه جندري بعبوسٍ من فوق سرّجه قائلاً: «ولمّ أخبركم باسمي وأنا لا أعرف أسماءكم؟».

- «حسنٌ، أنا توم ابن بلدة (الجداول السّبعة)، لكنهم يُلقّبوني بتوم سبعة أوتار، أو بتوم أبي السّبعات. هذا الجلف الكبير ذو الأسنان البيّنة هو ليم، اختصارًا لليم ذي المعطف اللّيموني، فمعطفه أصفر كما ترون، وليم لا ذع اللّسان حقًا. وهذا الرّفيق الشّاب اسمه أنجاي، أو القوّاس كما نحبّ أن ندعوه».

سأل ليم بالصّوت العميق الذي سمعته آريا من بين أغصان الصّفصافة: «والآن من أنتما؟».

لم تكن تنوي الإفصاح عن اسمها الحقيقي بهذه البساطة، فقالت: «الكتكوت إذا أردت، لستُ أبالي».

ضاحكًا قال الرّجل الكبير: «كتكوت يحمل سيفًا، شيء لا يراه المرء كثيرًا».

قال جندري حاذيًا حذو آريا: «أنا الثور»، ولم تستطع أن تلمه على تفضيل الثور على اسم كريشة الضأن.

داعبَ توم أوتار قيثارته قائلاً: «هوت پاي والكتكوت والثور. هل هربتم من مطابخ اللورد بولتون؟».

سألته آريا بتوتر: «كيف عرفت؟».

- «إنك تضعين رمزه على صدرك أيتها الصغيرة».

كانت قد نسيت هذا لحظةً، لكنها لا تزال ترتدي تحت معطفها سُترة الخدم الأنيقة، وعلى صدرها رجل (معقل الخوف) المسلوخ. «لا تُنادني بالصغيرة!».

قال ليم: «ولمَ لا؟ أنتِ صغيرة بالفعل».

- «إنني أكبر مما كنتُ، ولستُ طفلةً!». الأطفال لا يقتلون، وهي قتلت.

- «أرى هذا أيتها الكتكوت. لا أحد منكم طفل ما دمتم من أتباع بولتون».

قال هوت پاي الذي لا يعرف متى ينبغي أن يصمتَ أبدًا: «لم نكن كذلك قطُّ، بل كنا في (هارنهال) قبل أن يأتي لا أكثر».

قال توم: «أنتم من أشبال الأسد إذن، أليس كذلك؟».

- «ولا هذا أيضًا. إننا لا نتبع أحدًا، فمن تتبعون أنتم؟».

أجابَ آنجاي القوَّاس: «نحن رجال الملك».

قالت آريا بجبينٍ مقطبٍ: «أي ملك؟».

أجابها ليم ذو المعطف الأصفر: «الملك روبرت».

ساخرًا قال جندري: «ذلك السُّكير؟ لقد مات، قتله خنزير برِّي، الكلُّ

يعلم هذا».

قال توم سبعة أوتار: «نعم يا فتى، للأسف»، وداعبَ قيثارته بنغمةٍ حزينة.

لم تحسب آريا أنهم من رجال الملك على الإطلاق. إنهم يبدوون

كالخارجين عن القانون بهذه الثياب البالية المهترئة، ثم إنهم لا يمتطون

خيولًا، ورجال الملك لا بُدَّ أن يمتطوا الخيول.

لكن هوت پاي اندفعَ يقول بحماسة: «إننا نبحت عن (ريشررن). هل

تعلمون كم يومًا تَبعدُ؟».

أرادت آريا أن تقتله لحظتها، وقالت له معنفةً: «اخرس وإلا حشوتُ فمك الأحمق الكبير بالصُّخور!».

قال توم: «بينكم وبين (ريفررن) طريق طويل في اتجاه منبع النهر، طريق طويل سيُصيبكم بالجوع. ربما ترغبون في وجبة ساخنة قبل أن تتحرَّكوا. ثمَّة خان ليس بعيداً عن هنا، يتولَّى أمره أصدقاء لنا. يُمكننا أن نتقاسم القليل من المِزر والخُبز بدلاً من أن نتشاجر».

- «خان؟». جعلت فكرة الطعام الساخن بطن آريا يُقرقر، لكنها لا تثق بتوم هذا، فليس كلُّ من يُخاطبك بوُدِّ صديقك. «تقول إنه قريب؟».

- «على بُعد ميلين في اتجاه المنبع، فرسخ على الأكثر».
لاحت على وجه جندري الريبة التي تشعُر بها وهو يسأل بحذر: «ماذا تعني بالأصدقاء؟».

- «أصدقاء. هل نسيت معنى الأصدقاء؟».

قال توم: «صاحبة الخان اسمها شارنا. أي نعم هي لاذعة اللسان وحادة النظرات، لكنها طيبة القلب ومغرمة بالفتيات الصغيرات».
ردَّت غاضبةً: «لستُ فتاةً صغيرة! من هناك غيرها؟ قلت إنهم أصدقاء لا صديقة واحدة».

- «زوج شارنا وصبيُّ أخذاه يُقيم معهما. لن يُؤذوكم، وثمَّة مزر إذا كنتم كباراً بما يكفي للشرب، وخُبز طازج وربما القليل من اللحم»، وألقى توم نظرة نحو الكوخ مكملاً: «بالإضافة إلى ما سرقتموه من حديقة بايت العجوز».
قالت آريا: «لم نسرق شيئاً».

- «هل أنتِ ابنة بايت العجوز إذن؟ أو أختها؟ أو زوجته؟ لا تكذبي عليَّ أيتها الكتكوت، فقد دفنتُ الرَّجل بنفسي، هناك تحت هذه الشجرة التي كنتِ تحبِّئين وراءها، كما أنكِ لا تُشبهينه»، وعزف نغمة حزينة على القيثارة متابعاً: «دفتنا كثيراً من الرجال الصالحين خلال العام الماضي، لكن لا رغبة لدينا في دفنكم، أقسم بقيثارتي. أرها أيها القوَّاس».

تحركت يد القوَّاس بسرعة لم تُصدِّقها آريا. مرق السَّهم مهسَّساً إلى جوار رأسها على بُعد بوصة واحدة من أذنها، وانغرس في جذع الصَّفصافة وراءها، وعندئذٍ كان القوَّاس قد ثبَّت سهمًا ثانيًا في وتره وسحبَه. كانت تحسب أنها

تفهم ما عناه سيريو بقوله «بسرعة الثعبان، بنعومة الحرير الصّيفي»، إلا أنها أدركت الآن مدى جهلها وقد أخذ السّهم يهتزُّ وراءها مصدرًا طنينًا كالنحل. قالت: «أخطأت التصويب».

ردّ أنجاي: «حمقاء إذا كنتِ تحسبين هذا. السّهام تذهب حيثما أرسلها». أمّن ليم ذو المعطف اللّيموني على كلامه بقوله: «بكلّ تأكيد». كانت دسته من الخطوات تفصل بين القوّاس ورأس سيفها. أدركت آريا أن لا فرصة لديهم وهي تتمنى لو أنها تملك قوسًا كهذا وتتمتع بمهارة استخدامه، فخفضت سيفها الطويل الثّقل ببطء متجهّم إلى أن مسّ رأسه الأرض، وقالت مدعنةً وإن حاولت إخفاء الشكوك في قلبها وراء الكلمات الجريئة: «سنأتي لنرى ذلك الخان، لكنكم ستمشون أماننا ونركب خلفكم لنرى ما تفعلونه».

انحني توم سبعة أوتار بشدّة قائلاً: «أمامكم، خلفكم، لا فرق. هيا بنا، لنرهم الطريق. أنجاي، التقط هذه السّهام، فلن نحتاج إليها هنا». أغمدت آريا سيفها وعبرت الطريق إلى حيث صديقها على حصانيتها محافظةً على مسافة بينها وبين الأعراب الثلاثة، وقالت وهي تثب على سرجها: «هوت پاي، خذ الكرنب والجزر».

لم يُجادلها هذه المرّة، وتحركوا كما أرادت، راكبين أحصنتهم بتوذة على الطريق المحفّر، ويسبقهم الثلاثة السّائرون بنحو دسته خطوات، لكن لم يمض وقت طويل قبل أن يجدوا أنفسهم وراءهم مباشرةً بشكلٍ ما. مشى توم أبو السّبعات بتأنّ ضارباً أوتار قيثارته الخشبيّة، وسألهم: «هل تعرفون أيّ أغان؟ كم أحبُّ أن أغنّي مع أحدٍ حقًا. ليم صوته ناشز، وصبيّنا القوّاس لا يعرف إلا أغاني أهل (التخوم)، وكلُّ منها طوله مئة بيت».

قال أنجاي بكياسة: «في (تخوم دورن) نغني الأغاني الحقيقيّة».

ردّت آريا: «الغناء حماقة، مصدر ضوضاء. لقد سمعناكم من مسافةٍ طويلة، وكان يُمكن أن نقتلكم».

باحث ابتسامه توم بأنه يُخالِفها الرّأي، وقال: «ثمة أشياء أسوأ من الموت وعلى شفّتك أغنيّة».

قال ليم بتبرُّم: «لو أن هناك ذئبًا في هذه الأنحاء لعرفنا، أو أسودًا. هذه غاباتنا».

قال جندرى: «لكنكم لم تعرفوا أننا موجودون». أجابته توم: «لا تكن واثقًا لهذه الدرجة يا فتى. أحيانًا يعرف المرء أكثر مما يقوله».

اعتدل هوت پای فوق سرجه قائلاً: «أعرف أغنيّة الدُّب، جزءًا منها على الأقل».

جرت أصابع توم على الأوتار، وقال: «لنسمعها إذن يا صبيّ الفطائر»، ورفع رأسه وعقيرته منشداً: «كان هناك دُب، دُب، دُب! كله أسود وبني ومغطى بالشعر...».

انضمَّ إليه هوت پای بشوق، بل وراح يتمايل فوق حصانه مع الإيقاع بعض الشيء، وحدّقت آريا إليه مندهشةً من صوته الجميل وغناؤه السليم، وفكرت: لم أكن أعرف أنه يُجيد شيئاً إلاّ الحَبز.

بعد مسافة قصيرة كان غدیر صغير يصبُّ في (الثالوث)، وبينما عبوه دفع الغناء بطةً إلى الخروج من بين أعواد القصب، فتوقّف آنجاي في مكانه وخلع قوسه وثبّت فيه سهمًا، وأسقطها في المياه الموحلة على مسافة ليست بالبعيدة عن الضفّة، ثم خلع ليم معطفه الأصفر وخاض في الماء الذي بلغ رُكبتيه ليأخذ الطائر مدمدماً بعبارات الشكوى.

سأل توم آنجاي وهما يُشاهدان ليم يسبُّ ويلعن: «هل تعتقد أن شارنا لديها ليمون في القبو؟»، وأضاف بتوق: «ذات مرّة طهت لي فتاة دورنيّة بطةً بالليمون».

واصل توم وهوت پای أغنيتهما على الجانب الآخر من الغدير، وقد تدلّت البطة من حزام ليم تحت معطفه الأصفر. بشكل ما جعل الغناء المسافة تبدو أقصر من ميلين، وسرعان ما لاح الخان أمامهم، يرتفع على ضفّة النهر حيث ينحني انحناءة كبيرة إلى الشمال. زرّت آريا عينيها راميةً إياه بارتياب، وإن اضطرت لأن تعترف لنفسها بأن المكان لا يبدو كوكر للخارجين عن القانون على الإطلاق، بل يبدو عائليًا أنيسًا بطابقه العلوي المطلي بالجير الأبيض وسقفه المكسو بألواح الأردواز والدُّخان الذي يتصاعد متكاسلاً

من المدخنة. رأت اسطبلًا وعدداً من المباني الخارجية الأخرى تُحيط به، وكرمة عنب في المؤخرة، بالإضافة إلى أشجار التفاح وحديقة صغيرة، كما أن المبنى له مرصاه الخاص الذي يشقُّ مياه النَّهر و...

نادت بصوتٍ واطىءٍ مُلح: «جندي، إن لديهم قاربًا. يُمكننا أن نُبحر بقيَّة الطريق إلى (ريفررن)، سيكون هذا أسرع من ركوب الخيل على ما أظنُّ». بدا مرتابًا وهو يسألها: «هل سبق لكِ الإبحار بقارب؟».

- «سرفع الشُّراع وتدفعه الرِّيح».

- «وماذا لو كانت الرِّيح تهبُّ في الاتجاه الآخر؟».

- «سُجِّدْ إذن».

قال جندي عاقدًا حاجبيه: «ضد التِّيَّار؟ أَلن يجعل هذا الحركَّة بطيئةً؟ وماذا لو انقلب القارب وسقطنا في الماء؟ إنه ليس قاربنا على كل حال، بل قارب الخان».

فكَّرت: يُمكننا أن نأخذه، لكنها مضغت شفتها ولم تقل شيئًا. ترجَّلوا أمام الاسطبل، ومع أنهم لم يروا خيولاً أخرى، إلَّا أن آريا لاحظت روئًا حديثًا في كثير من المرابط، فقالت بحذر: «على أحدنا أن يحرس الخيول». سمعها توم وقال: «لا داعي لهذا أيتها الكتكوت. تعالوا وكُلوا. الخيول ستظلُّ آمنة».

قال لها جندي متجاهلاً المغني: «سأبقى. لتأتي وتناديني بعدما تأكلين». أومأت برأسها وتحركت وراء هوت باي وتوم. كان سيفها لا يزال في غمده على ظهرها، وأبقت يدها قريبةً من مقبض الخنجر الذي سرقته من رويس بولتون، تحسبًا لأن تجد في الدَّاخل ما لا يروقها.

على اللَّافة الملوَّنة فوق الباب كانت صورة لملكٍ قديم راعع على رُكبتيه، وفي الدَّاخل كانت القاعة العامَّة، حيث وقفت امرأةً قبيحة طويلة القامة للغاية وذات ذقنٍ مليءٍ بالأكياس الذهبيَّة واضعةً يديها على وركيها، تُحمَلق إليهم وتقول بحدَّة: «لا تقف مكانك هكذا يا ولد، أم أنك فتاة؟ إنكِ تسدِّين بابي في الحاليتين، فادخلي أو اخرجي. ليم، ماذا قلتُ لك عن أرضيَّتي؟ حذاؤك ملوَّث بالوحل».

- «اصطدنا بطَّة»، ردَّ ليم رافعًا إياها كراية سلام.

اختطفَت المرأة الطائر من يده قائلةً: «تعني أن أنجاي اصطاد بطةً. اخلع حذاءك. أنت أطرش أم غبي فقط؟»، والتفتت عنه زاعقةً: «يا زوجي! اصعد، لقد عاد الأولاد! يا زوجي!».

جاء من على سلالم القبور رجل يرتدي إزارًا متسخًا. كان أقصر قامَةً من المرأة، ووجهه الممتلئ ذو بشرةٍ متهدّلةٍ مصفرةٍ لا تزال عليها آثار مرضٍ جلدي ما. قال متذمّرًا: «أنا هنا يا امرأة. كفى زعيقًا. ما الأمر؟». قالت مناولةً إياه البطة: «علّق هذه».

حرّك أنجاي قدميه متململاً، وقال: «كنا نُفكّر في أكلها يا شارنا، مع اللّيمون إذا كان لديكٍ بعضه».

- «ليمون؟ ومن أين لي بالليمون؟ هل تحسب أننا في (دورن) أيها الأبله المنمّش؟ هلمّ، تسلق شجرة الليمون واقتطف لنا بضع ثمار، ولا تنس الزيتون والزّمان أيضًا»، ولوّحت المرأة بإصبعها في وجهه مضيفةً: «يُمكّني أن أطهوها بمعطف ليم إذا أردت، لكن ليس قبل أن تبقى معلقةً عدّة أيام. ستأكلون الأرناب أو لن تأكلوا شيئًا. الأرناب المشويّة على الأسيّاخ أسرع إذا كنتم جائعين، أو ربما تُحبّونها في يخنة مع المِزر والبصل».

قالت آريا وهي تكاد تحسّ بمذاق الأرناب على لسانها بالفعل: «لا نملك نقودًا، لكن معنا بعض الجِزر والكرنب يُمكننا أن نُقايضك به».

- «حقًا؟ وأين هو؟».

- «هوت پاي، أعطها الكرنب»، قالت آريا، فأطاعها الصّبي، وإن اقترب من المرأة بحذر شديد كأنها رورج أو العضاض أو فارجو هوت.

فحصت المرأة الخضراوات بإمعان، والصّبي بإمعانٍ أكثر، وتساءلت: «أين هذا الذي يُسمّي نفسه كالمخبوزات؟».

- «هنا، أنا، إنه اسمي، وهي... آه... اسمها الكتكوت».

- «ليس تحت سقفي. إنني أطلق على ضيوفني وأطعمتي أسماءً مختلفةً كي أميّز بينهم. يا زوجي!».

كان الزّوج قد خرج، لكنه عادَ مسرعًا إلى الدّاخل إثر نداءها، وقال: «علّق البطة. ما الأمر الآن يا امرأة؟».

قالت امرأةً: «اغسل هذه الخضراوات. ليجلس بقيتكم بينما أجهّز الأرناب،

وسيجلب لكم الصَّبِي الشَّرَاب»، ورمقت آريا وهوت پاي من فوق أنفها الطويل مردفةً: «ليس من عادتي أن أقدم المِزر للأطفال، لكن عصير التَّفَاح نَفَدَ، وليست هناك بقرة نحلبها، ومياه النَّهْر مذاقها كالحرب مع كلِّ الجُثث الطَّافية فيها. إذا قَدَّمْتُ لكما حَسَاءً مليئًا بالذُّباب الميت، فهل تشرباه؟».

أجاب هوت پاي: «آري ستشربه... أقصد الكتكتوت».

أضاف أنجاي ببسمةٍ خبيثة: «وليم أيضًا».

قالت شارنا: «لا تكثر لليم، سنقدم المِزر للجميع»، وأسرعت متجهةً إلى المطبخ.

جلس أنجاي وتوم سبعة أوتار إلى المائدة المجاورة للمستوقد، فيما علّق ليم معطفه الأصفر الكبير على مشجب، وألقى هوت پاي جسده على دِكَّة المائدة الأقرب إلى الباب، ودَسَّت آريا نفسها إلى جواره.

خلع توم القيثارة وبدأ يُعَنِّي باحثًا ببطءٍ عن لحن يتماشى مع الكلمات: «على طريق الغابة خان وحيد، وزوجة صاحبه قبيحة كالعلجوم...».

قال ليم محذرًا: «أخرس وإلا لن نأكل تلك الأرانب. أنت تعرفها».

مالت آريا على هوت پاي وسألته: «هل تستطيع الإبحار بقارب؟»، لكن قبل أن يُجيب ظهر صبي غليظ البنية في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر حاملاً دوارق المِزر، فالتقط هوت پاي واحدًا باشتياق بكلتا يديه، ولمّا رشف منه رأت آريا فمه يتسع بابتسامةٍ لم تر مثيلتها على وجهه من قبل، وسمعته يهمس: «مِزر وأرانب!».

صاح أنجاي القوَّاس بمرح رافعًا نخبًا: «في صحّة جلالته، عسى أن يحمي (السبعة) الملك!».

تمتَم ليم: «أو دستة الملوك الذين في البلاد»، وشرب ومسح الرِّغوة عن فمه بظَهْر كَفه.

اندفع الزَّوج من الباب الأمامي وقد ملأ إزاره بالخضراوات المغسولة، وأعلن كأنهم يجهلون هذا: «هناك خيول غريبة في الاسطبل».

رَدَّ توم منحياً القيثارة الخشبيّة جانبًا: «نعم، وخيول أفضل من الثلاثة التي تخلّيت عنها».

أسقط الزَّوج الخضراوات على مائدةٍ بضيق، وقال: «لم أتخل عنها، بل

بعثها بئمن مناسب، وحصلتُ على قاربٍ أيضًا، وعلى كلِّ حالٍ كان المفترَضُ أن تعودوا بها».

مصغيةٌ قالت آريا لنفسها: كنتُ أعرفُ أنهم خارجون عن القانون، ومدَّت يدها تحت المائدة لتحسَّس مقبض خنجرها كأنما تتأكَّد من أنه لا يزال في مكانه. إذا حاولوا سرقتنا سيأسفون.

قال ليم: «لم يَمُرُّوا من طريقنا».

- «لكني أرسلتهم، فلا بُدَّ أنكم كنتم سكارى أو نيامًا».

قال توم: «نحن؟ سكارى؟»، وشرب جرعةً طويلةً من المِزر قبل أن يُتابع: «مستحيل».

خاطبَ ليم الزَّوج قائلاً: «كان يُمكن أن تأخذوها بأنفسكم».

- «أنا والفتى فقط؟ قلتُ لكم مرَّتين إن الزَّوجة كانت قد ذهبَت إلى (سهل الجِملان) لتولِّد تلك الفتاةِ فِرن، وغالبًا واحد منكم هو من زرع النَّعل في بطن المسكينة»، ورمقَ توم بنظرةٍ حادَّةٍ مواصلاً: «أراهنُ أنه أنت، بقيشارتك هذه، تُردِّد الأغانى الحزينة لتجعل فِرن المسكينة تخلع ثيابها الدَّاخِليَّة».

قال توم: «إذا جعلت أغنيَّةً فتاةً تخلع ثيابها لتسُعر بقُبلة الشَّمس الدَّاخِلة على جِلدها، فهل هذه غلطة المعنيِّ؟ كما أنها كانت تشتهي أنجاي، وسمعتها تسألُه: هل يُمكنني أن أَلمس قوسك؟ أو ووه، إنه أَملس وشديد للغاية. هل يُمكنني أن أسحبه؟».

أطلقَ الزَّوج نخير سخرية، وقال: «أنت وأنجاي سيَّان. إنكم ملومون مثلي تمامًا على خسارة تلك الخيول. لقد كانوا ثلاثةً، فماذا يفعل رجل واحد ضد ثلاثة؟».

قال ليم متهكِّمًا: «ثلاثة، منهم امرأةٌ ورجل مكبَّل بالحديد كما قلت بنفسك».

انقلبت سحنة الزَّوج وهو يردُّ: «امرأة كبيرة ترتدي ثياب الرِّجال، والمكبَّل... لم تُرَّقني نظرات عينه».

ابتسم أنجاي رافعًا ورق المِزر: «عندما لا تروقني نظرات أحد أغرسُ سهمًا في عينه».

تذكرت آريا السهم الذي شقَّ الهواء إلى جوار أذنها مباشرةً، وتمنت لو أنها تُجيد الرماية.

لم يبدُ التأثر على الزوج، وقال: «اصمت عندما يتكلم من هم أكبر منك. اشرب مزرك واحفظ لسانك، وإلا جعلتُ الزوجة تضربك بالملعقة الكبيرة.» - «من هم أكبر مني يتكلمون أكثر من اللازم، ولا أحتاج لأن تُخبرني أن اشرب مزري»، وأخذ جرعةً كبيرةً ليُريه ما يعنيه.

فعلت آريا مثله. بعد أيام الشرب من الجداول والبرك ثم مياه (الثالوث) الموحلة، كان مذاق المزر حلوًا كرشفات النّبيذ الصّغيرة التي كان أبوها يسمح لها بها، ومن المطبخ أتت رائحة سيّلت لعابها، لكن القارب ظلّ مسيطرًا على أفكارها. الإبحار به سيكون أصعب من سرقة. إذا انتظرنا حتى يناموا...

رجع الصّبي بأرغفة كبيرة من الخبز المستدير، فمزقت آريا قطعةً بجوع والتهمتها كالمساكير، على الرغم من كون الخبز جامدًا وسميكًا ومكتئلاً إلى حدّ ما، ومحروق القاعدة كذلك.

أبدى هوت پاي امتعاضه بمجرد أن تذوّقه، وقال: «هذا الخبز سيّئ، محروق وجامد أيضًا».

قال ليم: «سيكون أفضل حين تغمسه في اليخنة».

علّق آنجاي: «ليس أفضل، لكنه لن يكسر أسنانك».

قال الزوج: «كلوه أو جوعوا. هل أبدو كخبّاز؟ أوذ أن أراك تصنع خبزًا أفضل».

قال هوت پاي: «أنا أستطيع. الأمر سهل. لقد عجنته أكثر من اللازم، ولهذا مضغه صعب»، وأخذ رشفةً أخرى من المزر وبدأ يتكلم بهيام عن الخبز والفتير والكعك، الأشياء التي يُحبّها، بينما أعربت عينا آريا عن استهجانها. جلس توم قبالتها قائلاً: «أيّتها الكتكوت، أو آري، أو أيّا كان اسمك، هذه من أجلك»، ووضع قطعةً منسخةً من ورق الرقوق على المائدة بينهما. رمقتها بشكّ متسائلةً: «ما هذا؟».

- «ثلاثة تنانين ذهبيّة. نريد أن نشترى خيولكم».

نظرت إليه قائلةً ببطء: «إنها خيولنا».

- «تعنين أنكم سرقتموها بأنفسكم، أليس كذلك؟ لا عار في هذا يا فتاة،

فالحرب تصنع لصوِّصًا من شُرْفَاءِ كَثْرٍ، ونقرَ على الرِّقِ المطوي بأصابعه متابعًا: «سأدفعُ سعرًا ممتازًا، أعلى مما يستحقُّ أيُّ حصان في الواقع». أمسك هوت پاي الرِّق وبسطه، ثم صاحَ بتدُّمٍ: «لا يوجد ذهب، إنها مجردُ كتابة».

قال توم: «نعم، وأنا أسفُّ لهذا، لكننا ننوي أن نُسدِّد هذا الدَّين بعد انتهاء الحرب، لكِ كلمتي كأحد رجال الملك». دفعتُ آريا نفسها إلى الوراء ونهضت قائلة: «لستم رجال الملك، بل لصوص».

- «إذا قابلتِ لصًّا حقيقيًّا من قبل لعلمتِ أنهم لا يدفون أبدًا، ولا حتى بالورق. إننا لن نأخذ خيولكم من أجل أنفسنا أيتها الصَّغيرة، بل في سبيل البلاد، كي تتحرَّك أسرع ونخوض المعارك التي يجب أن نخوضها، معارك الملك، فهل تأبين هذا على الملك؟».

كانت أعين الجميع عليها، القوَّاس وليم الكبير والزَّوج بوجهه الشَّاحب ونظراته المراوغة، وحتى شارنا التي وقفت عند باب المطبخ مضيقَّة عينيهَا. سيأخذون أحصنتنا مهما قلتُ، وسنضطرُّ إلى الذَّهاب إلى (ريقرن) سيرًا، إلَّا إذا... اختطفتُ آريا الرِّق من يدهوت پاي، وقالت: «لا تُريد ورقًا. يُمكنكم أن تأخذوا الخيول مقابل القارب الذي في الخارج، لكن فقط إذا أريتمونا كيف نُبحر به».

حدَّق إليها توم سبعة أوتار لحظةً، ثم التوى فمه الواسع القبيح بابتسامةٍ مستاءة، قبل أن ينفجر ضاحكًا وينضمَّ إليه أنجاي، وخلال ثوانٍ كان الجميع يضحكون، ليم ذو المعطف اللِّيموني وشارنا وزوجها، وحتى الصَّبي الذي خرج من وراء البراميل حاملًا نُسائيَّة تحت ذراعه.

أرادتُ آريا أن تصرِّخ فيهم، لكن بدلًا من هذا بدأتُ تبسم...

- «خيَّالة!»، جلجلتُ صيحة جندي الجزعة، وانفتح الباب بعنفٍ ودخل يقول لاهثًا: «جنود قادمون على طريق النَّهر، دسَّته منهم».

وثب هوت پاي من مكانه مسقطًا دورقه، لكن انزعاجًا لم يبدُ على توم والآخرين، وقالت شارنا: «لا داعي لسكب هذا المِزر الممتاز على أرضيَّتي. اجلس واهدأ يا ولد، فالأرانب في الطَّريق، وأنتِ أيضًا يا بنت. أيَّا كان ما

تعرّضتم إليه من أذى فقد انتهى تمامًا. إنكم مع رجال الملك الآن، وسنحافظ على سلامتكم قدر استطاعتنا».

كانت إجابة آريا الوحيدة أنها مدّت يدها من فوق كتفها إلى سيفها، لكن قبل أن تسحب نصفه أطبقَ ليم على معصمها قائلاً: «لا مزيد من هذا»، ولوى ذراعها حتى انفتحت يدها، وأحسّت بأصابعه يابسة الجلد وقويّة على نحو مخيف، وفي أعماقها قالت: مرّةً أخرى! ما حدث في القرية يحدث مرّةً أخرى، يوم تشيزويك وراف والجبل راكب الخيول. سيسرقون سيفها ويجعلونها تعود فأراً مذعوراً. قبضت يدها الحرّة على دورقها ولوّحت به في وجه ليم ليتناثر المزّر من فوق الحافة في عينيه، وسمعت أنفه ينكسر ورأت الدّم ينبثق منه، وحين جأر ألماً ورفع يديه إلى وجهه تحرّرت وعصرحت مندفعةً: «اهربا!».

لكن ليم عادَ يُمسكها على الفور، وقد جعلت ساقاه الطّوليتان خُطوةً واحدةً منه تُساوي ثلاثاً منها. تلوّت وركلت، لكنه رفعها عن الأرض بمنتهى البساطة وعلّقها في الهواء بينما سألت الدّماء على وجهه، وصاح فيها وهو يرُجّها: «توقّفي أيتها الحمقاء الصّغيرة، توقّفي الآن!».

تحرّك جندري لِيُساعدَها، لكن توم أبو السّبعات حالَ بينهما وخنجره في يده.

عندئذٍ كان أوان الفرار قد فات، وسمعت في الخارج أصوات خيولٍ ورجال، وبعد هنيهةٍ دخلَ رجل متبخّراً من الباب المفتوح، تايروشي أكبر حجماً من ليم نفسه، لحيته كبيرة كثيفة اصطبغت أطرافها بالأخضر اليانع، وإن بدأ لوونها يحول إلى الرّمادي، ومن ورائه جاءَ رجلان يحمل كلُّ منهما نِشائيّةً، ويُساعدان ثالثاً جريحاً على المشي بينهما، وسرعان ما دخلَ آخرون...

لم ترَ آريا قطَ رجالاً تبدو عليهم وعناء الطّريق كهؤلاء، على حين بدت الشّيوف والفؤوس والأقواس التي حملوها في حالة ممتازة. حدّجها واحد أو اثنان منهم بنظرات الفضول وهم يدخلون، لكن أحداً لم يقل شيئاً، وتسمّم رجل أعور يعتمر خوذةً قصيرةً صدئةً الهواء وابتسم، وصاح قوّاس ذو شعر أصفر خشن طالباً المزّر، وبعدهما دخلَ حامل حربةٍ يضع خوذةً ذات ريشة أسد، ورجل أكبر سنّاً يُعرّج، ومرتزق براقوسي، و...

همست آريا: «هاروين؟». إنه هو! تحت اللحية والشعر المتشابك كان وجه ابن هالن الذي اعتاد أن يقود حصانها القزم حول الساحة، ويتمرن على الطاوس⁽¹⁾ مع چون وروب، ويسرف في الشراب في أيام الاحتفالات. إنه أكثر نحولا، وبشكل ما أصلب، وفي (ويتترفل) لم يكن يُطلق لحيته قط، لكنه هو، رجل أبيها. تلوت وألقت نفسها إلى الأمام محاولة التملص من قبضتي ليم الحديديتين، وصاحت: «هاروين! هاروين! إنها أنا! ألا تعرفني؟ ألا تعرفني؟». غلبتها الدموع، ووجدت نفسها تبكي كالرضع، كأنها بنت صغيرة حمقاء. «هاروين، إنها أنا!».

انتقلت عينا هاروين من وجهها إلى الرجل المسلوخ على صدرها، ثم قال مقطبا جبينه بريية: «كيف عرفت اسمي؟ الرجل المسلوخ... من أنت؟ خادم ما عند اللورد علقه؟».

مرّت وهلة دون أن تعرف كيف تُجيب. لقد حملت أسماء كثيرة للغاية، فهل كانت آريا ستارك محض أضغاث أحلام؟

قالت متشنقة: «أنا فتاة. كنت ساقية اللورد بولتون، لكنه كان سيتركني للكيش، فهربت مع جندي وهوت باي. لا بُدَّ أن تعرفني! كنت تقود حصاني القزم وأنا صغيرة».

أُسعت عيناه عن آخرهما، وبصوتٍ مختنقٍ قال: «بحقّ الآلهة! آريا المُداسة؟ ليم، دعها».

أسقطها ليم بفظاظه قائلاً: «لقد كسرت أنفي. من هذه بحقّ الجحائم السبع؟».

ركع هاروين على ركبته أمامها مجيئاً: «بنت اليد، آريا ستارك ابنة (ويتترفل)».

(1) الطاوس مجسم على شكل إنسان، يُستخدم في التدريب على النزال، وعادة ما يُبنت تُرس في إحدى يديه، وفي الثانية سيف أو رُمح غير حاد. (المترجم).

كاتلين

عرفت أنه روب لحظة أن سمعت الكلاب ثور في الأوجرة.
لقد عادَ ابنها إلى (ريفررن) ومعه جراي ويند، فلا شيء سوى رائحة
الذئب الرهيب الرمادي الكبير يُمكنه أن يُصيب كلاب الصيد بهذه التوبة من
العواء والنباح الهائج. قالت لنفسها بيقين: سوف يأتيني. لم يعد إدميور إليها
بعد زيارته الأولى، مفضلاً قضاء وقته في صُحبة مارك بايپر وپاتريك ماليستر،
والاستماع إلى أشعار رايموند الناظم عن معركة (الطاحونة الحجرية). لكن
روب ليس إدميور، روب سيراني.

كان المطر يهطل منذ أيام بلا انقطاع، سيل بارد مدرار صنع جَواً من الكآبة
وأمّ مزاج كاتلين، وأبوها يزداد ضعفاً وهدياناً كلَّ يوم، لا يفوق إلا لِيَتِمَّتْ
باسم تانسي ويتوسل المغفرة، على حين يتجنبها إدميور تماماً، ويصترُ السير
دزموند جرل على حرمانها من حُرِّيَّة الحركة في القلعة، على الرغم من أنه لا
يبدو راضياً عن هذا على الإطلاق. وحدها عودة السير روبن رايجر ورجاله
منهكين ومبتلين عن آخرهم نجحت في جعل صدرها ينشرح بعض الشيء.
حزرت أنهم رجعوا سائرين، وأسرَّ لها المايستر فأيمان بأن قاتل الملك تمكن
بوسيلة ما من إغراق قادسهم والفرار، لكنه رفض حين طلبت أن تتكلم مع
السير روبن لتعرف أكثر عما حدث.

شيء آخر كان على غير ما يُرام أيضاً. يوم عادَ أخوها، بعد ساعات قليلة من
شجارهما، سمعت كاتلين أصواتاً غاضبةً آتيةً من الساحة في الأسفل، ولما
صعدت إلى السطح لثُلقي نظرةً رأت مجموعاتٍ من الرِّجال المحتشدين عند
البوابة الرئيسية على الجانب الآخر من القلعة، وخيولاً تُقاد من الاسطبلات

مجهّزةً بسروجها وألجمتها، كما سمعت زعيماً وإن كانت أبعد من أن تُمَيِّز الكلام. لمحت واحدةً من رايات روب البيضاء ملقاة على الأرض، ودار واحد من الفُرسان بحصانه ودعس الذئب الرّهيب وهو يندفع إلى البوابة، وتبعه آخرون كثر. هؤلاء رجال قاتلوا مع إدميور عند المخاضات، فما الذي أغضبهم لهذه الدرّجة؟ هل أساء إليهم أخي بشكل ما أو أهانهم؟ خيّل إليها أنها تعرّفت السير پروين فراي الذي سافرَ معها إلى ومن (جسر العلقم) و(ستورمز إند)، وأخاه النّعل غير الشّقيق مارتن ريفرز أيضاً، لكن من موقعها هذا كان من الصّعب أن تتأكّد. تدفّق نحو أربعين رجلاً خارجين من بوّابة القلعة، لأيّ غايةٍ لا تدري.

ولم يعودوا، ولا قبل المايستر فايمان أن يُخبرها بهويّتهم وأين ذهبوا وسبب غضبتهم الشّديدة، وقال لها: «إنني هنا لأرعى أباك لا غير يا سيّديتي. أخوك سيصبح سيّد (ريقررن) قريباً، وسيُخبرك بما يرغب في أن تعرفه». لكن روب عادَ من الغرب، عادَ ظافراً. سيسامحني، لا مناص من أن يُسامحني. إنه ابني، وآريا وسانزا من دمه كما هما من دمي. سيطلق سراحي من هذا السّكن، وعندها سأعرف ما جرى.

كانت قد تحمّمت وبدلت ثيابها ومشطت شعرها الكستنائي حين جاءها السير دزموند قائلاً: «الملك روب عادَ من الغرب يا سيّديتي، ويأمر بأن تمثلي أمامه في القاعة الكُبرى».

ها هي اللّحظة التي حلّمت بها وتهيّيتها. هل فقدتُ ابنين أم ثلاثة؟ قريباً جدّاً ستعرف الإجابة.

وجدوا القاعة مزدحمةً عند دخولهم، وكلُّ الأعيُن على المنصّة، لكن كاتلين عرفت بعضهم من ظهره؛ قميص الليدي مورمونت المعدني المرّقع، وچون أومبر الكبير وابنه بقامتيهما الأطول من كل من عداهما في القاعة، واللورد چيسون ماليستر بشعره الأبيض وخوذته المحنّحة تحت إبطه، واللورد تايتوس بلاكوود بمعطفه المبهّر المفصّل من ريش الغدافان... نصفهم يُريد أن يسنّفني الآن، والنّصف الآخر قد يُشيع ببصره عني على أفضل تقدير. راودها إحساس مزعج أيضاً بأن هناك شيئاً ما ناقصاً.

كان روب واقفاً على المنصّة، ولدى مرآه أحسّت كاتلين بوخزٍ في قلبها

وقد أدركت علي حين غرّة أنه لم يُعد صبيّاً. إنه في السادسة عشرة الآن، رجل ناضج. انظري إليه! الحرب أذابت كل ما في ملامحه من نومةٍ وجعلته قاسياً ناحلاً، وقد حلق لحيته وترك شعره الكستنائي ينسدل على كتفيه. كانت الأمطار الأخيرة قد أصابت قميصه المعدني بالصدأ، وخلفت بقعاً بيّنة على بياض معطفه وسُترته الطويلة - أو ربما تكون بُقع دم - وعلى رأسه استقرّ تاجه ذو البروزات المدبّبة كالسُيوف، الذي سبّكوه له من البرونز والحديد. يعتمره براحة أكثر الآن، يعتمره كملك.

وقف إدميور أسفل المنصّة المزدحمة حانئاً رأسه بتواضع فيما أثنى روب على انتصاره. «... سقط على (الطاحونة الحجرية) لن يُنسى أبداً. لا عجب أن اللورد تايوين هرب ليُقاتل ستانيس وقد اكتفى من أبناء الشّمال والنّهر». أشاعت كلماته الضّحك والصّياح المؤيّد، لكن روب رفع يده أمراً بالصّمت، وتابع: «لكن لكم أن تثقوا بأن جيش لانستر سيزحف ثانية، وعلينا أن نربح المزيد من المعارك قبل أن نوّمن المملكة تماماً».

بصوتٍ جهوري هتفّ جون الكبير: «الملك في الشّمال!»، ورفع قبضته المدرّعة بالحلقات المعدنيّة في الهواء، فأجاب لوردات النّهر هاتفين: «ملك الثّالوث!»، وسرعان ما ارتفع دقّ الجموع الموائد بقبضاتهم والأرض بأقدامهم، وسادّ القاعة هدير يصمّ الأذان.

قلائل لاحظوا كاتلين والسير دزموند وسط الضّجيج، لكنهم وكزوا جيرانهم منبهين، وبتؤدّة سرى الصّمت من حولها، لكنها ظلت رافعة رأسها وتجاهلت النظرات. فليقولوا ما يُريدون، لا يهمني إلّا حكم روب.

بثّ فيها مرأى وجه السير برايندن تلي الصّخري الرّاحة، وأبصرت صبيّاً لا تعرفه يبدو أنه يتصرّف باعتباره مُرافق روب، ووراءه وقف فارس شاب يرتدي سُترَةً طويلةً بلون الرّمْل مرصّعةً بالأصداف، وفارساً أكبر سنّاً معطفه مخطط بالأخضر والفضي، وعليه ثلاث منارات سوداء صغيرة على منحى بلون الرّعفران. بين الاثنين كانت امرأةٌ وسيمة تكبرهما وفتاةٌ حسناء تبدو أنها ابنتها، بالإضافة إلى فتاةٍ أخرى تُقارب سانزا في السنّ. تعلم كاتلين أن الأصداف رمز واحدةٍ من العائلات الصّغيرة، أمّا رمز الفارس الكبير فلم تتعرفه. أمّ أسرى؟ لماذا يجلب روب أسراه إلى المنصّة؟

دَقَّ أوثيرايدس واين الأرض بعصاه إذ تقدَّم السير دزmond بها. إذا نظرَ إليَّ روبٍ مثلما فعلَ إدميور، فلا أدري ماذا سأفعلُ. لكن بدا لها أن ما تراه في عينيَّ ابنها ليس غضبًا، بل شيء آخر... أهو التَّهَيُّبُ ربما؟ لا، غير معقول. ما الذي يخشاه هو؟ إنه الذئب الصَّغير، ملك الشَّمال والنَّهر.

عُمُّها كان أول من حيَّها. كديده كسمكة سوداء، لم يُبالِ السير برايندن بأراء الآخرين، ووثب من فوق المنصَّة واحتوى كاتلين بين ذراعيه، ولمَّا قال: «جميل أن أراك في بيتكِ يا كات»، كافحت للحفاظ على ثباتها، واكتفت بأن همست: «وأنت أيضًا».

- «أمِّي».

رفعت كاتلين عينيها إلى ابنها الملك، وقالت: «جلالة الملك، لقد صليتُ من أجل عودتك سالمًا. سمعتُ أنك أصبت».

- «اخترق سهم ذراعي في أثناء اقتحامنا (الجُرف)، لكن الجرح يندمل جيّدًا، وقد حظيتُ بأفضل عناية».

- «الشُّكر للآلهة». التقطت كاتلين نفسًا عميقًا، وقالت نفسها: قولها، لا سبيل لتلافي هذا، ثم إنها قالت لابنها: «لا بُدَّ أنهم أخبروك بما فعلته. هل ذكروا لك أسبابي؟».

- «من أجل الفتاتين».

- «كان لديّ خمسة أطفال، والآن لديّ ثلاثة».

- «نعم يا سيّدي»، قال اللورد ريكارد كارستارك وهو يدفع چون الكبير بكتفه ويتخطاه، وقد بدا كشبح جهيم بقميصه المعدني الأسود ولحيته الشَّابثة المشعثة ووجهه البارد المنقبض. «وأنا لديّ ابن واحد وقد كان لديّ ثلاثة. لقد سرقت مني انتقامي».

واجهته كاتلين بهدوءٍ قائلةً: «لورد ريكارد، موت قاتل الملك لم يكن سيّعاً ابنيك إلى الحياة، لكن حياته قد تعني حياة ابنتي».

لم يتأثر اللورد، وقال: «چايمي لانستر استغفلك، اشتريت زكبيّة من الكلام الفارغ لا أكثر. ولداي تورين وإدارد استحقَّ أفضل من هذا منك».

دمدم چون الكبير وهو يعقد ذراعيه الضَّخمتين على صدره: «دعها وشأنها يا كارستارك. كان تصرُّفًا طائشًا من أم. النِّساء مخلوقات هكذا».

التفت اللورد كارستارك إلى اللورد أومبر بحركةٍ حادّة، وقال: «تصرّفًا طائشًا من أم؟ إنها خيانة».

- «كفى!». في هذه اللحظة بدا روب مثل براندون أكثر من أبيه. «لا أحد يتّهم سيّدة (ويتترف) بالخيانة في حضوري يا لورد ريكارد»، والتفت إلى كاتلين قائلاً بنبهة أرق: «لو كان بإمكانني أن أعيد قاتل الملك إلى أغلاله بمجرد التّمنّي لفعلتُ. لقد حرّرتّه دون معرفتي أو إذني... لكنني أعرفُ أنكِ فعلتِ ما فعلتِ بدافع الحُب، من أجل آريا وسانزا، ومن فرط حُزنكِ على بران وريكون. الحُب ليس حكيماً دائماً كما تعلّمتُ، ويُمكنه أن يقودنا إلى حماقاتٍ كبيرة، لكننا تتبع قلوبنا... أينما أخذتنا، أليس كذلك يا أمّاه؟».

أهذا ما فعلته؟ «إذا قاذني قلبي إلى حماقة، فيُسعِدني أن أكفر عنها للورد كارستارك ولك بأيّ وسيلة».

لم يُبارح وجه اللورد ريكارد شيء من جموده وهو يردُّ: «هل سيُدفع تكفيرك تورين وإدارد في قبريهما البارين حيث وضعهما قاتل الملك؟»، ودفع نفسه بين چون الكبير ومج مورمونت وغادر القاعة. لم يتحرّك روب ليستبقه، وقال: «سامحيه يا أمّي».

- «إذا سامحتني أنت».

- «لقد سامحتكِ بالفعل. إنني أعلمُ معنى الحُب الجَم الذي يجعل المرء عاجزاً عن التّفكير في شيءٍ آخر».

حنت كاتلين رأسها قائلة: «أشكر». لم أفقد هذا الطّفّل على الأقل. تابع روب: «يجب أن أتكلّم معكِ ومع خالي وعمّك، عن هذا... وأشياء أخرى. أعلن الانصراف أيها الوكيل».

دقّ أوثيرايدس واين الأرض بالعصا ورفع عقيرته صارفاً الحاضرين، فبدأ السّماليّون ولوردات التّهر يتحرّكون صوب الأبواب. عندئذٍ فقط أدركت كاتلين الشّيء الغائب الذي أثار توجّسها. الذئب، الذئب ليس هنا. أين جراي ويند؟ إنها تعلم أن الذئب الرّهيب عاد مع روب، فقد سمعت هياج الكلاب، لكنه ليس في القاعة، ليس إلى جوار ابنها حيث ينتمي.

لكن قبل أن تستطيع أن تسأل روب، وجدّت نفسها محاطةً بدائرةٍ من المؤيدين. أخذت الليدي مورمونت يدها وقالت: «سيّدتِي، لو كانت اثنتان

من بناتي أسيرتَيْن عند سرسي لانستر لفعَلْتُ المِثْلَ»، أمَّا چون الكبير الذي لا يعترف بأداب السُّلوك فقد رفعها عن الأرض واعتصرَ ذراعَيْها بيديه الضَّخمتين المشعرتين، وقال لها: «ذُبُك الصَّغِير عَقَرَ قَاتِل المَلِك مرَّةً، وسيفعلها مجدِّداً إذا دَعَت الحاجة»، على حين خاطبها جالبارت جلوفر واللورد چيسون ماليستر ببرودٍ أكثر، وچونوس براكن بصرامَةٍ تكاد تكون جليديَّةً، وإن لم تفقتر كلماتهم إلى الكياسة.

في النِّهاية وقفَ أخوها أمامها، وقال: «أنا أيضاً أصلي من أجل فتاتيك يا كات. أملُ أنك لا تُشكِّين في هذا».

فَبَلَّتْه وقالت: «بالطبع لا، ولأجل هذا أحبُّك».

حين انتهى الكلام كله، خلَّت قاعة (ريفررن) الكُبرى إلَّا من روب وأولاد تلي الثلاثة والغُرباء الستَّة الذين لم تتعرَّفهم كاتلين، ورمقتهم بفضولٍ متسائلةً: «سيِّدتي، أيها الفارسان، أنتم مناصرون جُدد لقضيَّة ابني؟».

أجابها الفارس الشَّاب ذو الأصداف: «جُدد، وإن لا تَنقُصنا البسالة الشَّديدة أو الثَّبات على العهد، كما أملُ أن نُثبت لك يا سيِّدتي».

بدا روب متوتِّراً وهو يقول: «أمَّاه، اسمحي لي بأن أقدم لك الليدي سيبل زوجة اللورد جاون وسترلينج سيِّد (الجُرف)»، فتقدَّمت المرأة برصانةٍ بينما تابع: «زوجها كان ممن أسرناهم في (الغابة الهامسة)».

وسترلينج، نعم. على رأيهم ستُّ أصداف بيضاء على خلفيَّة رمليَّة، عائلة صغيرة مقسمة على الولاء لآكل لانستر.

أشارَ روب للأخريين بالتَّقدُّم واحداً تلو الآخر، وقَدَّم كلاً منهم: «السير رولف سپايسر، أخو الليدي سيبل. كان أمين القلعة في (الجُرف) حين أخذناها».

حنى فارس المنارات رأسه، ورأت كاتلين أنه قصير مكننز، له أنف مكسور ولحية مشدَّبة بعناية، وتبدو عليه القوة.

- «أولاد اللورد جاون والليدي سيبل. السير راينالد وسترلينج».

ابتسم فارس الأصداف من تحت شاربه الكث، ولاحظت كاتلين صلابته على الرغم من شبابه ونحوه، وأسنانه النَّضيدة وشعره البني المحمر الكثيف. - «وإلينا».

انحنت الفتاة انحناءً صغيرةً.

- «ورولام وسترلينج، مُرافقي».

بدأ الصَّبي يركع، ثم لاحظ أن لأحد آخر ركع، فانحني بدلاً من هذا.

قالت كاتلين: «لي الشرف». أي يمكن أن روب ربح ولاء (الجُرف)؟ إذا كان

هذا صحيحًا، فلا غرو أن آل وسترلينج هنا معه، ف(كاسترلي روك) لا تدع

خيانةً كهذه تمرُّ مرور الكرام أبدًا، ليس منذ بلغ تايوين لانستر سنَّ الحرب...

تقدّمت الفتاة الشَّابة أخيرًا والحياء الشَّدِيد يُكَلِّل مُحَيَّاهَا الجميل، والتتقطَّ

روب يدها قائلاً: «أمّاه، لي عظيم الشرف أن أقدم لك الليدي چاين وسترلينج،

ابنة اللورد جاون الكُبرى و... آه... السيِّدة زوجتي».

الخاطر الأول الذي مرقَّ في عقل كاتلين كان: لا، غير ممكن، إنك مجرد

طفل.

والخاطر الثَّاني كان: كما أنك تعهدت بالزَّواج بأخرى.

والثَّالث كان: لتر حمنا (الأم) يا روب، ماذا فعلت؟

عندها فقط أتاها الفهم متأخرًا. حماقات في سبيل الحُب؟ يا للحدق الذي

نصبَ به الشُّرك. الآن يبدو أنني سامحته بالفعل. امتزج استياؤها بإعجاب

يشوبه الحُزن. لقد قدّم المسرحية بدهاءٍ يليق بممثلٍ محترف... أو ملك. لم

تر كاتلين خيارًا غير أن تلتقط يدَي چاين وسترلينج، وبلهجة خرجت منها

أكثر جفافًا مما نوت قالت: «لديّ ابنة جديدة»، وقبّلت الفتاة المرعوبة على

وجنتيها متابعَةً: «مرحبًا بك في دفء دارنا».

- «أشكرك يا سيِّدتي، وأقسم لك أن أكون زوجةً صالحَةً ومخلصةً لروب،

وأن ألوذ بالحكمة كملكيةٍ قدر استطاعتي».

ملكة، نعم، هذه الصَّغيرة ملكة، يجب أن أتذكَّر هذا. إنها جميلة بلا شك،

بسَّعرها البنيُّ الصَّارب إلى الحُمره ووجهها ذي شكل القلب وتلك الابتسامة

الخجول، ولاحظت كاتلين أنها قويَّة الوركين رغم نحولها. على الأقل لب ن

تجد مشكلةً في حمل الأطفال.

تدخّلت الليدي سبيل قبل أن يُقال المزيد قائلةً: «مصاهرنا عائلة ستارك

شرف لنا يا سيِّدتي، لكننا متعبون للغاية، فقد قطعنا طريقًا طويلًا في وقتٍ

قصير. هل تسمحين لنا بالخلود إلى مسكننا كي تقضي بعض الوقت مع ابنك؟».

قال روب: «فكرة طيِّبة»، ولثمَ چاين قبل أن يُضيف: «سيجد لكم الوكيل مسكنًا لائقًا».

قال السير إدميور تلي متطوِّعًا: «سأصحبكم إليه».

رَدَّت الليدي سييل: «نشكرك للطفك».

سأل الصَّبي رولام: «أيجب أن أذهب أيضًا؟ إنني مُرافِقك».

ضحكَ روب مجيِّبًا: «لكنني لا أحتاجُ إلى مُرافقةِ الآن».

- «أوه».

قال السير راينالد ذو الأصداف: «جلالته قضى ستة عشر عامًا دونك يا رولام. أعتقدُ أنه يستطيع الحياة في غيابك بضع ساعاتٍ أخرى»، وأخذَ أخاه الصَّغير بحزم من يده وخرجَ به من القاعة.

قالت كاتلين حينما خرجوا من مجال السَّمع: «زوجتك جميلة، ويبدو أن آل وسترلينج جديرون بك... لكن اللورد جاون مقسم على الولاء لتايوين لانستر، أليس كذلك؟».

- «بلى. چيسون مالستر أسره في (الغابة الهامسة) ومتحفِّظ عليه في (سيجارد) منذ ذلك الحين حتى تُدفع فديته، لكنني سأطلقُ سراحه الآن بالطبع، مع أنه قد لا يرغب في الانضمام إليَّ. أخشى أننا تزوّجنا دون موافقته، وهذه الزَّيجة تضعه في خطرٍ بالغ. (الجرف) ليست قلعةً قويَّةً، وقد تخسر چاين كلَّ شيء بسبب حُبِّها لي».

قالت برفق: «وأنت خسرت آل فراي».

جهرت اختلاجة ملامحه بمشاعره كلِّها. الآن تفهم كاتلين الأصوات الغاضبة، ولماذا أسرعَ پروين فراي ومارتن ريفرز ورجالهما بالمغادرة واطئين راية روب.

- «هل لي أن أسأل كم جُنديًا جاءوا مع عروسك يا روب؟».

أجابها بصوتٍ كثيبٍ كما ينبغي أن يكون: «خمسون، ودسته من الفُرسان».

عقب الاتفاق على القران في (التوأمتين)، أرسلَ اللورد والدر فراي العجوز

مع روب ألفاً من الفُرسان ونحو ثلاثة آلاف من المُشاة. «چاين ذكِيَّة بقدر ما هي جميلة، وحنون أيضاً، قلبها طيب».

إنك في حاجة إلى الشُيوف لا القلوب الطيبة. كيف أمكنك أن تفعل هذا يا روب؟ كيف تصرّفت بهذا الطيش والحرق؟ كيف تكون... تكون... صغيراً للغاية هكذا... لكن التائب لن يُجدي نفعاً الآن، لذا اكتفت بقولها: «أخبرني كيف حدث هذا».

أجاب روب مبتسماً: «أخذتُ قلعتها وأخذت قلبي. حامية (الجرف) كانت ضعيفة، فاقترحمناها ذات ليلة. قادَ الدر الأسود وچون الصّغير فرقتين من متسلّقي الأسوار، فيما حطّمتُ البوابة بالمِدك، وأصبتُ بسهم في ذراعي قبيل تسليم السير رولف القلعة لنا. بدا الجرح طفيفاً في البداية، لكنه تقيح، فأخذتني چاين إلى فراشها وداوتني حتى مرّت الحمى، وكانت معي حين أتاني چون الكبير ب... بأخبار وينترفل، بران وريكون». بدا أنه يجد صعوبة في نطق اسمي أخويه. «ليلتها... واستني چاين يا أمي».

لم تحتج كاتلين إلى أن يُخبرها ابنها بنوع الموساة التي قدّمها له چاين وسترلينج، وقالت: «وفي اليوم التّالي تزوّجتها».

نظرَ في عينيها بفخر وبؤس في آن واحد قائلاً: «كان التّصرّف الشّريف الوحيد. إنها رقيقة وعذبة يا أمّاه، وستكون زوجةً صالحةً لي».

- «ربما، لكن هذا لن يُرضي اللورد فراي».

قال ابنها مغتمّاً: «أعرف. لقد أسأتُ التّصرّف في كلِّ شيءٍ إلاّ المعارك، ليس كذلك؟ كنتُ أحسبُ أن المعارك هي الجزء الصّعب، لكن... لو أنني أنصتُ إليك واحتفظتُ بشيون رهينةً، لكنّ ما زلتُ أحكمُ الشّمال، ولكان بران وريكون حيّين وآمنين في (وينترفل)».

- «ربما، وربما لا. من الممكن أن اللورد بالون كان سيُغامر بالحرب وقتها أيضاً. آخر مرّة حاول أن يربح تاجاً خسرَ ابنين، فلعلّه حسبها صفقةً رابحةً أن يخسر واحداً فقط هذه المرّة»، ومسّت ذراعه سائلةً: «ماذا حدث مع آل فراي بعد زواجك؟».

هزّ روب رأسه مجيباً: «مع السير ستقرون كان ممكناً أن أقدم ترضيةً ما، لكن السير رايمان عنيد كالثيران، ووالدر الأسود... إنهم لم يُطلقوا عليه هذه

الكنية للون لحيته، أو كد لك. لقد تمادى لدرجة أن قال إن أخواته لن يرفضن الزواج بأرمل. كنت لأقتله لقوله هذا لولا أن چاين توسلت له الرحمة».

- «لقد وجهت إهانة عظيمة لعائلة فراي ياروب».

- «لم تكن هذه نيتي قط. السير ستقرون مات في سبيلي، وأوليغار كان أخلص مُرافقٍ يرغب فيه ملك. طلب أن يبقى معي، لكن السير رايمان أخذه مع الباقيين، قوتهم كلها. چون الكبير حثني على مهاجمتهم...».

- «تقاتل رجالك وسط أعدائك؟ لكنت في ذلك نهايتك».

- «نعم. خطر لي أن نرتب زيجاتٍ أخرى لبنات اللورد والدر. السير وندل ماندرلي عرض أن يأخذ واحدة، وچون الكبير يقول لي إن عمي راغبان في الزواج ثانية. إذا تحلى اللورد والدر بالمرونة...».

- «لكنه ليس مرناً على الإطلاق. إنه متكبر وسريع الغضب لأقصى حد، وأنت تعلم هذا. الرجل أراد أن يكون جداً لملك، ولن تُرضيه بأن تعرض عليه قاطعي طريق هرمين والابن الثاني لأسمن رجل في (الممالك السبع). إنك لم تنكح عهدك فحسب، بل أهنت شرف (التوأمتين) باختيارك عروساً من عائلة أدنى».

ردّ روب محتدًا: «آل وسترلينج دماؤهم أنقى من آل فراي، سُلالتهم قديمة منحدره من البشر الأوائل. أحياناً كان ملوك (الصخرة) يُصاهرونهم قبل الغزوة، وهناك چاين وسترلينج أخرى تزوجها الملك ميجور قبل ثلاثمئة عام».

- «وكلُّ هذا سيسكب المزيد من الملح على جرح اللورد والدر. لطالما ألهمت صدره حقيقة أن العائلات الأقدم تتعالى على آل فراي باعتبارهم مُحدثي نعمة، وعلى حدّ كلامه فقد عانى إهاناتٍ مشابهة من قبل. چون آرَن عزف عن أخذ كذا حفيدٍ له ربيبا، وأبي رفض عرض زواج إدميور بواحدة من بناته»، وأشارت برأسها لأخيها وهو يُعاود الانضمام إليهم.

قال برايندن السمكة السوداء: «جلالة الملك، من الأفضل أن نستكمل الحديث بعيداً عن الأسماع».

بدا صوت روب متعباً وهو يردُّ: «نعم. يُمكنني أن أقتل من أجل كوبٍ من النبيذ. إلى غرفة الاجتماعات إذن».

بينما بدأوا يصعدون السَّلام، أَلَقَتْ كاتلين السُّؤال الذي أزعجها منذ دخلت القاعة: «روب، أين جراي ويند؟».

- «في السَّاحة، يلتهم فخذ ضأن. قلتُ لقيِّم الأوجرة أن يُطعمه».

- «كنتُ تُبقيه إلى جانبك دائماً».

- «القاعة ليست مكاناً لذئب، إنه يتوتَّر كما رأيتُ ويظلُّ يُزْمَجِر. لم يكن يجدرُ بي أن آخذه معي إلى المعركة. لقد قتلَ رجالاً كثيرين ولم يُعدَّ يخشى البشر. چاين تضطرب في حضوره وأمُّها مرعوبة منه».

وها هو كبد الحقيقة. «إنه جزء منك يا روب. الخوف منه يعني الخوف منك».

بنبرةٍ مستاءة قال روب: «لستُ ذئباً يا أمِّي مهما سمُّوني. جراي ويند قتلَ رجلاً في (الجُرف)، وآخر في (أشمارك)، وستَّة أو سبعة في (أو كسكروس). لو أنكِ رأيتِ...».

قاطعته بحدَّة: «رأيتُ ذئب بران يُمزَّق عُنق رجلٍ في (ويتترفل) وأحببته لهذا».

- «هذا أمرٌ مختلف. رجل (الجُرف) كان فارساً عرفته چاين طيلة حياتها، فلا يُمكنك أن تلومها على خوفها. وجراي ويند لا يحبُّ خالها كذلك، ويُكسِّر عن أنيابه كلما اقترب السير رولف منه».

سرتَ فيها قشعريرة باردة حدت بها إلى أن تقول: «اصرف السير رولف في الحال».

- «إلى أين؟ أعيده إلى (الجُرف) كي يُعلِّق آل لانستر رأسه على خازوق؟ چاين تُحبُّه، إنه خالها، وفارس لا بأس به علاوةً على ذلك. إنني في حاجةٍ إلى رجال أكثر مثل السير رولف، لا أقل، ولن أنفيه لمجرد أن ذئبي لا تروقه رائحته».

توقفتُ وأمسكتُ ذراعه قائلةً: «روب، قلتُ لك من قبل أن تُبقي ثيون جرايچوي قريباً منك ولم تُصغ، فأصغ الآن. اصرف هذا الرَّجل. لا أقولُ أن تنفيه، ولكن جد تكليفاً ما يحتاج إلى رجلٍ شجاع، واجباً شريفاً لا يهْمُ ماذا يكون... لكن إياك أن تجعله يبقى بالقرب منك».

قال مقطباً جبينه: «هل عليّ أن أجعل جراي ويند يتشَمَّ فرساني كلهم؟ قد يكون هناك آخرون لا يُحبُّ روائحهم».

- «أَيُّ رَجُلٍ لَا يُحِبُّهُ جِرَائِي وَيَنْدَهُ رَجُلٌ لَا أُرِيدُهُ قَرِيبًا مِنْكَ. هَذِهِ الذَّنَابُ لَيْسَتْ مَجْرَدَ ذُنُوبٍ يَا رُوبَ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَعِيَ هَذَا. أَتَصَوَّرُ أَنَّ الْإِلَهَةَ هِيَ مَنْ أَرْسَلَتْهَا إِلَيْنَا، آلِهَةُ أَبِيكَ، آلِهَةُ الشَّمَالِ الْقَدِيمَةِ. خَمْسَةُ جِرَاءٍ يَا رُوبَ، خَمْسَةُ لِأَطْفَالِ سِتَارِكِ الْخَمْسَةِ».

- «سِتَّةٌ. كَانَ هُنَاكَ ذَنْبٌ لِحِوْنٍ أَيْضًا. تَذَكَّرِي أَنِّي مَنْ عَثَرَ عَلَيْهَا، وَأَعْرِفُ عِدْدَهَا وَمَنْ أَيْنَ جَاءَتْ. لَقَدْ اعْتَدْتُ أَنْ أَشَارِكُكَ التَّصَوُّورَ، أَنَّ الذَّنَابَ تَحْرُسُنَا وَتَحْمِينَا، إِلَى أَنْ...».

- «إِلَى أَنْ...؟».

زَمَّ فَمَهُ مَوَاصِلًا: «إِلَى أَنْ أَخْبَرُونِي أَنَّ ثِيُونَ قَتَلَ بَرَانَ وَرِيكُونَ. بِمَنْ نَفَعَهُمَا ذُبَاهُمَا سَاعَتَهَا؟ إِنْ نِي لَمْ أَعُدْ صَبِيًّا يَا أُمَّاهُ، إِنْ نِي مَلِكٌ وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْمِي نَفْسِي»، وَتَنَهَّدَ مَضِيفًا: «سَاجِدُ تَكْلِيفًا مَا لِلسَّيْرِ رُولْفَ، حُجَّةٌ مَا أَصْرَفَهُ بِهَا، لَيْسَ بِسَبَبِ رَائِحَتِهِ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِكَ. لَقَدْ عَانَيْتِ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ».

شَاعِرَةٌ بِالرَّاحَةِ، قَبَّلَتْهُ كَاتَلِينَ عَلَى خَدِّهِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ أَخُوهَا وَعَمُّهَا مَنْحَنِي السَّلَالِمِ وَيْرِيَا، وَأَحْسَتْ لِحِظَّةِ بَأَنَّهُ صَغِيرَهَا مِنْ جَدِيدٍ وَلَيْسَ مَلِيكَهَا.

تَقَعُ عُرْفَةُ اجْتِمَاعَاتِ اللُّورْدِ هُوسْتَرِ الْخَاصَّةِ فَوْقَ الْقَاعَةِ الْكُبْرَى، وَتَصْلُحُ أَكْثَرَ لِلْمُنَاقَشَاتِ السَّرِيَّةِ. جَلَسَ رُوبٌ عَلَى الْمَقْعَدِ الْعَالِيِّ وَخَلَعَ تَاجَهُ وَوَضَعَهُ إِلَى جَوَارِهِ عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَمَا دَقَّتْ كَاتَلِينَ الْجَرَسَ طَالِبَةً النَّبِيذِ، وَحِشًا إِدْمِيورَ أَذْنَ عَمِّهِ بِالْحِكَايَةِ الْكَامِلَةِ لِمَعْرَكَةِ (الطَّاحُونَةِ الْحَجْرِيَّةِ). فَقَطَّ بَعْدَ أَنْ جَاءَ الخدم وَذَهَبُوا تَنْحَنَحَ السَّمَكَةِ السُّودَاءِ، وَقَالَ: «أُظُنُّ أَنَّنَا سَمِعْنَا مَا يَكْفِي مِنْ تَبَاهِيكَ يَا ابْنَ أَخِي».

قال إدميور مبهورًا: «تباهي؟ ماذا تعني؟».

أجاب السَّمَكَةُ السُّودَاءُ: «أعني أنك مدين بالشُّكر لجلالته على حِلْمِهِ. لَقَدْ شَارَكَ فِي تِلْكَ الْمَهْزَلَةِ فِي الْقَاعَةِ فَقَطَّ كِي لَا يُخْزِيكَ أَمَامَ قَوْمِكَ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَسَلَخْتُكَ لِعِبَائِكَ بَدَلًا مِنْ مَدِيحِ الْحَمَاقَةِ الَّتِي ارْتَكَبْتَهَا عِنْدَ الْمَخَاضَاتِ».

قال إدميور بغضب: «هناك رجال صالحون ماتوا دفاعًا عن المخاضات يا عمي. أيجب ألاَّ يُحَقِّقَ أَحَدُ الْإِنْتِصَارَاتِ إِلَّا الذَّنْبُ الصَّغِيرَ؟ هَلْ سَرَقْتُ مَجْدًا كَانَ يَخْصُكَ يَا رُوبَ؟».

رَدَّ رُوبُ بِنْبِرَةِ جَلِيدِيَّةَ: «يا جلاله الملك. لقد اتَّخَذْتَنِي مَلَكًا لَكَ يا خالِي،
أم أنكَ نَسِيتَ هَذَا أيضًا؟».
قال السَّمَكَةُ السَّوْداءُ: «أوامرِكَ كانت أن تُدافعَ عن (ريقررن) لا أكثر يا
إدميور».

- «وقد دافعتُ عن (ريقررن)، وأدَمِيتُ أنْفَ اللوردِ تايوِينِ...».
قال رُوبُ: «نعم، لكن أنفًا داميًا لن يربح الحرب، أليس كذلك؟ هل سألتَ
نفسكَ لماذا ظللنا في الغرب طيلة هذه المَدَّةِ بَعْدَ (أو كسكروس)؟ إنكَ تعلم
أن رجالي لا يكفون لتهديد (لانسپورت) أو (كاسترلي روك)».
- «كانت هناك قلاعٌ أخرى... ذهب، ماشية...».
بدهشةٍ قال رُوبُ: «تظنُّ أننا بقينا كي نسلب وننهب؟ يا خالِي، لقد أردتُ
اللوردِ تايوِينِ أن يذهبَ غربًا».

قال السير برايندن: «كنا كلنا على متن الخيول، وجيش لانستر أغلبه مُشاة.
كانت خَطَّتْنا أن بُدِّدَ طاقةٌ وموارد اللورد تايوِينِ في مناورات بطول السَّاحِلِ،
ثم ننسلُّ من ورائه لنتخذَ موقعًا دفاعيًّا قويًّا على (طريق الذهب)، في بُقعةٍ
وجدَها كشافتي حيث الأرضُ في صالحنا تمامًا. لو كان قد هاجمنا هناك
لدفعَ ثمنًا فادحًا، وإذا لم يُهاجمَ لظلَّ عالقًا في الغرب، على بُعد ألف فرسخ
عن المكان الذي يجب أن يكون فيه، وفي الحالتين كنا ستعيَّش على أرضه
بدلًا من أن يتعيَّش هو على أرضنا».

أضافَ رُوبُ: «كان اللورد ستانيس على وشك الكَرِّ على (كينجز
لاندينج)، توطئةً لأن يُخلِّصنا من چوفري والملكة والعِفريتِ بضربةٍ داميةٍ
واحدة، وبعدها كان من الممكن أن نعقد اتفاق سلام».

نقلَ إدميور عينيه بين عمِّه وابن أخته قائلاً: «لم يُخبرني أحد».
قال رُوبُ: «أخبرتكَ أن تُدافعَ عن (ريقررن). ما الجزء الذي لم تفهمه من
هذا الأمر؟».

قال السَّمَكَةُ السَّوْداءُ: «عندما أوقفت اللورد تايوِينِ على (الفرع الأحمر)
أخبرته بما يكفي لأن يبلِّغه الخيالة القادمون من (جسر العلقم) ويبلغوه بما
يحدث في الشَّرْقِ، وهو ما جعله يدور بجيشه في الحال وينضمُّ إلى مائيس
روان ورائدل تارلي عند منابع (النَّهر الأسود)، ثم يزحف حثيثًا إلى (شَلالات

الحاوي)، حيث وجدَ مايس تايرل واثنين من أبنائه بجيش عظيم، وأسطولٍ من الصّنادل عبروا به النَّهر وترجّلوا على بُعدِ نصفِ يومٍ من المدينة، وهاجموا ستانيس من المؤخّرة».

تذكّرت كاتلين بلاط الملك رنلي كما رأته في (جسر العلقم)؛ ألف وردة ذهبية تُرفرف في الرّيح، وابتسامه الملكة مارچري الخجول وكلماتها الرّقيقة، وأخوها فارس الزّهور بالصّمّادة الدّامية حول صُدغيه. إذا كان يجب أن نسقّط بين ذراعَي امرأةٍ يا بُني، فلمَ لم تكن مارچري تايرل؟ ثروة وقوّة (هايجاردن) كانت لتصنع كل الفارق في القتالات المقبلة. ولربما أحبّ جراي ويند رانحتها أيضًا.

قال إدميور بوجه ممتنع: «لم أقصد قط... قط يا روب. يجب أن تتركني أعوضك. سأقوّد الطليعة في المعركة التّالية».

على سبيل التّعويض يا أخي أم سعيًا إلى المجد؟

قال روب: «المعركة القادمة. نعم، ستدور قريبًا. بمجرد أن يتزوّج چوفري سيعود جيش لانستر إلى الميدان ضدي لا شك، وهذه المرّة سيكون معه جيش تايرل، وربما أضطرّ إلى قتال جيش فراي أيضًا إذا نفذ والدر الأسود ما يُريده...». خاطبت كاتلين ابنها قائلة: «ما ذامّ ثيون جرايچوي جالسًا على مقعد أبيك ودم أخويك يُلطخ يديه، فيجب أن ينتظر هؤلاء الأعداء الآخرون. واجبك الأول أن تدافع عن قومك وتستردّ (وينترفل) وتعلّق ثيون في قفص غربان ليموت ببطء، وإلاّ اخلع هذا التّاج بلا رجعةٍ يا روب، لأنّ النّاس سيعلمون أنك لست ملكًا حقًا على الإطلاق».

استشفت من الطّريقة التي رمقها روب بها أن وقتًا طويلًا قد مرّ منذ جرؤ أحد على مخاطبته بهذه الخشونة، وقد أجابها بلهجةٍ حملت لمحةً من الدّفاعيّة: «عندما أخبروني بسقوط (وينترفل) أردت أن أتوجّه شمالًا من فوري، أردت أن أحرّر بران وريكون، لكنني ظننت... لم أتصوّر قط أن ثيون قد يمسهما بأذى، حقًا، ولو أنني...».

قالت كاتلين: «فات أوان «لو» وأوان الإنقاذ، ولم يتبقّ إلّا الانتقام».

- «آخر ما سمعناه من الشّمال أن السير رودريك هزم قوّة من الرّجال الحديديّين قُرب (مرّبع تورين)، ويحشد جيشًا في (قلعة سروين) لاسترداد

(ويترفل)، وربما يكون قد نجحَ في هذا بالفعل. لم تصلنا أخبار منذ فترة طويلة. وماذا عن (الثالوث) إذا اتَّجَهْتُ شمالاً؟ لا يُمكنني أن أطلب من سادة النَّهر أن يهَجُرُوا قومهم».

- «لا، دعهم يحمونهم واستعدِ الشَّمال برجال الشَّمال».

سألَ أخوها إدميور: «وكيف نَعْبُرُ برجال الشَّمال إلى الشَّمال؟ آل جرايچوي يُسَيِّطرون على (بحر الغروب) وعلى (خندق كايِلن) أيضًا، ولا جيش نجحَ في اقتحام (الخندق) من الجنوب من قبل قَط. مجردَ الزَّحف ضدها جنون. سنعلق على الدَّرب العالي، بين الحديدِيَّين من أمامنا وآل فراي الغاضبين من خلفنا».

قال روب: «لا بُدَّ أن نربح آل فراي ثانيةً. في وجودهم ستكون لدينا فرصة في النَّصر مهما كانت صغيرة، ودونهم لا أرى أملًا. إنني مستعدُّ لأن أعطي اللورد والدر ما يَطلبه أيًّا كان... اعتذارًا، تكريمًا، ذهبًا، أرضًا... لا بُدَّ أن هناك شيئًا يُداوي كبرياءه العريضة».

قالت كاتلين: «ليس شيئًا، بل شخص».

چون

قال تورموند ونُذِف الثَّلَج تَرَقُّطٌ وجِهُهُ العَرِيضُ وتذوب في شَعْرِهِ ولحيتِهِ:
«أترى الأحجام؟».

أتى العمالقة متمائلين ببطءٍ على متون الماموثات المازة في أزواج،
ونكص حصان چون وقد هالته غرابة المنظر، التي جعلت من الصَّعب أن
تُحدِّد إن كان خوفه من الماموثات أم راكبيها، وحتى جوست تراجع خطوةً
وكشف أسنانه في زمجرة صامتة. الذئب الرَّهيب كبير، لكن الماموثات أكبر
مرارًا، وهناك الكثير والكثير منها.

التقط چون عنان الحصان وثبته في مكانه، كي يُحصي العمالقة الخارجين
من وسط الثُلوج المتساقطة والغيوم الباهتة التي تدور بطول ضفاف (النَّهر
اللِّبني). كان قد عدَّ أكثر من خمسين عندما قال تورموند شيئًا شتت انتباهه،
ففكر: لا بدَّ أنهم مئات. مهما مرَّ به من أعدادهم بدا أن هناك المزيد والمزيد.
في قصص العجوز نان العمالقة بشر أكبر حجمًا من المألوف، يعيشون في
قلاع هائلة ويُقاتلون بسيوفٍ ضخمة ويمشون بأحذية كبيرة يُمكن أن يختبئ
صبيٌّ في فردةٍ منها، لكن هؤلاء مختلفون، أقرب إلى الذئب من الإنسان،
وعلى أجسادهم كسوة من الصُّوف كالماموثات التي يمتطونها، ومن الصَّعب
أن تُحدِّد أطوالهم بدقةٍ وهم راكبون. عشرة أقدام ربما، أو اثنا عشر قدمًا، ربما
أربعة عشر على الأكثر. صدورهم المقوسة تُشبه إلى حدِّ ما صدور البشر، لكن
أذرعهم طويلة للغاية، وأسفل جذوعهم يبدو أعرض مرَّةً ونصفًا من أعلاها،
ولئن كانت سيقانهم أقصر من أذرعهم، فإنها غليظة للغاية، بينما لا يتعلون
أحذيةً في أقدامهم العريضة المفطحة ذات البروزات السوداء الصُّلبة. لاحظ

چون أيضًا أنهم بلا أعناق، بل تَبْرُز رؤوسهم الثَّقيلة الضَّخمة من بين لوحَي الكتفين مباشرةً، ووجوههم مضغوطة قاسية الملامح، فيها أعين خرزية ضئيلة كأعين الجرذان، تكاد لا تُرى وسط طَيَّات البشرة ذات التواءات الكثيرة، ويبدو من تشقُّهم المتواصل أنهم يستعوضون عن محدودية رؤيتهم بالشم. تبينَ چون أنهم لا يرتدون الجلود، بل يُعْطِهم شعر أشعث، كثيف تحت الخاصرة وأخف فوقها، وقد فاحت منهم رائحة خانقة، لكن ربما تكون الماموثات مصدرها. ونفخَ چورامون في بوق الشتاء وأيقظَ العماليق من قلب الأرض. بحثَ بعينيه عن سيوفهم العظيمة التي يبلغ الواحد منها الأقدام العشرة طولاً ولم يرَ إلا الهراوات، أغلبها مجرد فروع أشجار ميتة لا تزال على بعضها بضع غصون مكسرة، فيما ثبتت عدد منهم كرات حجرية بأطراف الفروع لعمل مدقات ضخمة. لا تذكر الأغنية إن كان البوق يُمكنه أن يُنمهم من جديد.

بدا أحد العمالقة المقتربين أكبر سناً من الآخرين، فروته رمادية وخطها البياض، والماموث الذي يمتطيه - الأكبر من غيره أيضاً - صوفه رمادي وأبيض كذلك. رفع تورموند صوته موجَّهاً إليه كلماتٍ خشنة متلاحنة بلغة لم يفهمها چون، فافترقت شفتا العملاق لتكشفا عن أسنان مربعة بالغة الكبر، وأصدر صوتاً هو مزيج من التجشؤ والدمدمة، وبعد لحظات أدرك چون أنه يضحك. التفت الماموث برأسه الهائل يُلقى عليهما نظرةً عابرةً وأحد نابيه الضَّخمين يمرُّ فوق رأس چون، وخلفت الدابة الثَّقيلة آثار أقدامها الضَّخمة في الطمي الطَّري والثُّلوج الحديثة على جانب النَّهر. صاحَ العملاق برداً ما من أعلى باللغة الخشنة نفسها التي استخدمها تورموند، فسأله چون: «أهذا ملكهم؟».

- «العمالقة لا ملوك لهم، تماماً كالماموثات أو دببة الثُّلوج أو حيتان البحر الرَّمادي العظيمة. هذا ماج مار تون دوه ويح، ماج الجبار. يُمكنك أن تركع له إذا أردت، لن يُمانع. لا بُدَّ أن رُكبتك اعتادت الرُّكوع وتوقان إلى ملك تشيان أمامه. لكن حذار من أن يدهسك، فالعمالقة نظرهم ضعيف، وربما لا يلحظ وجود غراب صغير عند قدميه بعيداً في الأسفل».

- «ماذا قلت له؟ أهذه اللغة القديمة؟».

- «نعم. سألتُه إن كان هذا أباه الذي يمتطيه. إنهما متشابهان للغاية، لكن رائحة أبيه أفضل.»
- «وماذا قال لك؟»

كشفت ابتسامة تورموند قبضة الرعد عن أسنان متفارقة وهو يُجيب:
«سألني إن كانت ابنتي راكبةً إلى جوارِي، تلك ذات الوجنتين النَّاعمتين المتورِّدتين»، ونفض الثلج عن ذراعيه وأدارَ حصانه متابعًا: «ربما لم يرَ رجلًا بلا لحيةٍ من قبل. هيا، سنرجع. مانس يغضب بشدة إذا لم يجدني في مكاني المعتاد.»

دارَ چون وتبعَ تورموند العائد إلى رأس الطَّابور، وقد أحسَّ بثقل معطفه الجديد على كتفيه. كان مفصلاً من جلد الخراف غير المدبوغ، بحيث يُرتدى الوجه الصُّوف إلى الدَّاخل كما اقترحَ الهمج، ويحميه لدرجة لا بأس بها من الثلوج ويُدفئه جيِّدًا ليلاً، لكنه احتفظ بمعطفه الأسود مطويًا تحت سرجه كذلك. سأل تورموند وهما راكبان وجوست يتواثب بصمتٍ إلى جوارهما تاركًا آثار أقدامه في الثلج: «أصحيح أنك قتلت عملاقةً ذات مرَّة؟»

- «ولماذا تشك في كلام رجلٍ قويِّ مثلي؟ كنا في الشتاء وكنتُ غلامًا، وأحمق كما الغلمان جميعًا. ابتعدتُ كثيرًا وماتَ حصاني، ثم باغتني عاصفة، عاصفة حقيقية وليس قليل من الرِّذاذ مثل هذا، هار! أدركتُ أنني سأجمدُ حتى الموت قبل أن تمرَّ، فعرثتُ على عملاقة نائمة وشققتُ بطنها وزحفتُ إلى داخله، ورغم أنها دفأنتني بما فيه الكفاية فالرائحة كادت تقتلني. أسوأ ما في الأمر أنها استيقظت عندما جاءَ الربيع وحسبني صغيرها، وأرضعتني طيلة ثلاثة أعمار كاملة قبل أن أستطيع الهرب، هار! ما زلتُ أفتقدُ مذاق لبن العمالقة أحيانًا.»

- «كيف قتلتها إذن ما دامت أَرْضعتك؟»

- «لم أقتلها، لكن لا تُثرثر عن هذا. تورموند بلية العماليق وقعها أفضل من تورموند رضيع العماليق، وهذه هي الحقيقة الخالصة.»

- «كيف حصلت على ألقابك الأخرى إذن؟ مانس دعاك بنافخ البوق، ليس كذلك؟ وسيد البتع في (البهو القاني)، وزوج الدِّببة، وأبي الجيوش.»
كان الجزء الخاص بالْتفخ في البوق هو ما يهْمُ چون حقًا، لكنه لم يجرؤ على

السؤال الصريح. ونفخَ چورامون في بوق الشتاء وأيقظَ العماليق من قلب الأرض. هل أتوا من الأرض حقاً هم وماموثاتهم؟ هل عثرَ مانس رايدر على بوق چورامون وأعطاه لتورموند قبضة الرعد لينفخ فيه؟

قال تورموند: «أكل الغربان فضولثيون هكذا؟ حسن، سأحكي لك الحكاية. كان هذا في شتاء آخر، أكثر برودة من الذي قضيته في بطن العملاقة، والتَّلج يسقط ليلَ نهار في نُدْف كبيرة كراسك، لا كهذه الرُقاقات الصَّغيرة. ليلتها سقطت الثلوج بغزارة دفنت القرية حتى نصفها، وكنت في بهوي القاني بلا صُحبة إلا برميل من البتع ولا شيء أفعله غير أن أشربه، وكلما شربت أكثر فكَّرتُ في تلك المرأة التي تعيش على مقربة مني، امرأة قويَّة رائعة ولها أكبر ثديين رأيتهما في حياتي كلها. كانت حادَّة الطباع تلك المرأة، أوه، لكن دافئة أيضاً، وفي جوف الشتاء يحتاج الرَّجل إلى الدَّفء. كلما شربتُ أكثر فكَّرتُ فيها، وكلما فكَّرتُ فيها أحسستُ بَعْضوي ينتصب أكثر، حتى لم أعد أستطيع الاحتمال، وبكلِّ حُمقٍ دثرتُ نفسي بالفرو من رأسي إلى قدمي ولففتُ وجهي بالصُّوف وخرجتُ ذاهباً إليها. كان التَّلج ينهمر بشدَّة فضلتُ طريقتي مرَّةً أو مرَّتين، وهبت الرِّيح ناخرة جسدي حتى جمَّدت عظامي، لكنني بلغتها أخيراً وأنا ارتدي أكوام ملابسي. كانت نائرة تماماً، وقاومتني بمنتهى الضراوة حين وضعتُ يدي عليها، وبذلتُ أقصى جهدي حتى حملتها إلى داري وخلعتُ ما عليها من أصواف، لكن لَمَّا فعلت هذا، أوه، وجدتها أكثر سخونة مما أذكرُ، وأمضينا وقتاً جميلاً قبل أن أخلد إلى التَّوم. في الصَّباح التَّالي استيقظتُ لأجد التَّلج توقَّف والشمس ساطعةً، وإن لم أجد نفسي في حالة تسمح بالاستمتاع بالطقس، جسدي كله جروح وخدوش، وعضوي نصفه مقضوم، وعلى الأرض فروة دُبَّة. سرعان ما شاعت بين شعب الأحرار حكايات عن دُبَّة صلعاء في الغابة، ومعها أغرب دَيْسَمِين رأهما أحد، هار!»، وربَّت على فخذة اللِّحيم مكملاً: «ليتني أعتُرُ عليها مجدداً. كان التَّوم معها رائعاً تلك الدُبَّة، ولم تُقاتلني امرأة مثلاً قط، أو تمنحني أبناء أقوياء».

قال چون مبتسماً: «وماذا يُمكنك أن تفعل إذا عثرت عليها؟ قلتُ إنها قضمت عُضوك».

ردَّ تورموند: «نصفه فقط، ونصف عضوي أطول من عُضو أيِّ رجلٍ

مرّتين»، ثم إنه أضاف ساخراً: «أما أنت... أضحیحُ أنهم يقطعون أعضاءكم عندما يقبلونكم على (الجدار)؟».

أجابَ چون شاعرًا بالإهانة: «كلا».

- «أعتقدُ أن ما يُقال صحيح، وإلا لماذا ترفضُ إيجريت؟ لا يبدو لي أنها ستقومك إطلاقاً. الفتاة تُريدك في داخلها، ما أوضح هذا».

ما أوضحه حقاً، ويبدو أن نصف الطابور رآه. أشاح چون بوجهه وأمعن النظر إلى الثلوج المتساقطة كي لا يرى تورموند احمراره، وذكر نفسه: أنا رجل في حرس الليل. لماذا يشعرُ إذن كأنه عذراء تكاد تذوب حياءً؟

إنه يقضي معظم النهارات مع إيجريت، ومعظم الليالي كذلك، إذ لم يفعل مانس رايدر غياب ثقة ذي القميص المُخشخش بـ«الغراب المارق» كما أطلق عليه، وبعد أن أعطى چون معطفه الجديد المصنوع من جلد الخراف اقتراح عليه أن يركب في صُحبة تورموند بليّة العماليق، فوافق چون بكل سرور، وفي اليوم التالي تركت إيجريت ورايك ذو الحربة الطويلة مجموعة ذي القميص المُخشخش إلى مجموعة تورموند بدورهما، وقالت له الفتاة: «الأحرار يركبون مع من يُريدون، ولقد سئمتنا من جوال العظم هذا».

كلما خيموا ليلاً وضعت إيجريت جلود نومها إلى جواره، سواء أكان قريباً من النار أو بعيداً عنها جداً، وفي مرّة استيقظ ليجدها ضمت نفسها إليه ووضعت ذراعها على صدره، فظلّ مستلقياً في مكانه فترةً طويلةً يُصغي إلى أنفاسها ويُحاول تجاهل الحرارة بين ساقيه. أحياناً يتقاسم الجوّالة جلود النّوم طلباً للدّفء، لكنه لا يظنُّ أن إيجريت تشدُّ الدّفء فحسب. بعد تلك الليلة اعتاد أن يستغلّ جوست في إبقائها بعيداً. كانت العجوز نان تحكي عن الفُرسان والليديبات الذين ينامون في سرير واحد وبينهم سيف من أجل الحفاظ على الشّرف، وخطر له أن هذه هي المرّة الأولى التي يحلُّ فيها ذئب رهيب محل سيف.

ومع ذلك ظلت إيجريت تُثابر. في اليوم قبل السّابق أخطأ چون وقال أمامها إنه يتمنى لو أن معه ماءً ساخناً للاستحمام، فردّت في الحال: «البارد أفضل إذا كان لديك من يُدفئك بعدها مباشرةً. النّهر لم يتجلّد عن آخره، يُمكنك أن تنزل».

قال ضاحكاً: «أتريدان أن أموت متجمّداً؟».

- «هل يخشى الغربان كلهم القشعريرة؟ قليل من الجليد لن يفتلك،
وسأنزّل معك لأثبت لك».

- «ونركب بقية اليوم بثياب مبتلة تتجمّد على جلدنا؟».

- «چون سنو، أنت لا تعلم شيئاً. لن تنزل بثيابك».

- «لن أنزل على الإطلاق»، قال بحسم قبل أن يتظاهر بأنه سمع تورموند
قبضة الرّعد يزق منادياً إياه.

بدا أن الهمج يعدّون إيجريت رائعة الجمال بسبب شعرها، فالشعر الأحمر
نادر بينهم، ويقولون إن أصحابه قبلتهم النار، وهو الشيء المفترض أنه يجلب
الحظ. وقد تكون إيجريت محظوظة، وشعرها بالتأكيد أحمر، لكنه متشابك عن
آخره، حتى إن چون أراد أن يسألها إن كانت تمسّطه كلما تغيّرت الفصول فقط.
يعلم أن الفتاة كانت ستعدّ تقليديّة تماماً لو أنها في قلعة أحد اللوردات،
بوجهها الرّيفي المستدير وأنفها الأفطس وأسنانها المعوجّة نوعاً وعينها
المتباعدين كثيراً. لاحظ چون كلّ هذا حين رآها أول مرّة وكان خنجره
على عنقها، وإن بدأ يلاحظ أشياء أخرى في الفترة الأخيرة، فعندما تبسم لا
يبدو اعوجاج أسنانها مهمّماً، وربما تكون عيناها متباعدين كثيراً لكن لونها
الرّمادي المائل إلى الزّرقه جميل وفيهما حياة أكثر مما رأى في أيّ عين.
أحياناً تُعني بصوت خفيض مبوح يُحرّكه، وأحياناً تجلس عند نار الطهو
محتمنة رُكبتها، فتوقظ أصدااء اللهب في شعرها الأحمر وتتطلّع إليه مبتسمة
لا أكثر... هذا أيضاً يُحرّك فيه بضعة أشياء.

لكنه من رجال حرس الليل وحلف اليمين. لن أتخذ لنفسه زوجة، أو
أملك أرضاً، أو أنجب أبناءً. لقد ردّد الكلمات أمام شجرة اليرود، أمام
آلهة أبيه، ولا يُمكنه أن يتراجع فيها... تماماً كما لا يُمكنه أن يعترف بسبب
إحجامه لتورموند قبضة الرّعد وأبي الدّبية.

- «ألا تروك الفتاة؟»، سأله تورموند وهما يَمُرّان بعشرين من الماموثات.

التي تحمل همجاً في أبراج خشبيّة طويلة بدلاً من العمالقة.

- «ليس هذا، لكني...». ماذا أقول ويصدّقه؟ «... لكني ما زلتُ صغيراً

على الزّواج».

رَدَّ تورموند ضاحكًا: «الزَّواج؟ من قال شيئًا عن الزَّواج؟ أيجب أن يتزوَّج الرَّجُل كلَّ فتاةٍ يُعاشِرُها في الجنوب؟».

أَحْسَ چون بوجهه يتورَّد خجلًا ثانيةً، وقال: «لقد دافعت عني بكلامها لَمَّا أَرَادَ ذو القميص المُخشِخِش أن يَتَّقُلني، ولا أَرغبُ في تلوِثِ شرفِها».

- «أنت رجل حُر الآن، وإيجريت امرأة حُرَّة، فما الذي يُلَوِّثُ الشَّرْفَ في نومكما معًا؟».

- «قد تحمل مني».

- «نعم، وأتمنى هذا. ولد قوي أو بنت نشيطة ضحوك قَبَلتِها النَّارُ، ما الضَّررُ في هذا؟».

خذله الكلام لحظةً قبل أن يُجيب: «هذا الولد... هذا الطُّفل سيكون نغلاً».

- «وهل التُّغول أضعف من الأطفال الآخرين؟ أو أكثر عُرضَةً للمرض أو الفشل؟».

- «لا، لكن...».

- «أنت نفسك نغل، وإذا لم تكن إيجريت تُريد طفلاً، فستذهب إلى واحدة من ساحرات الغابة وتشرب كوبًا من شاي القمر يُجهِضها. لا علاقة لك بالأمر بمجرد أن تزرع البذرة».

- «لن أنجب نغلاً أبدًا».

هَزَّ تورموند رأسه الأشعث قائلاً: «يا لكم من حمقى أيها الرُّكَّع. لماذا اختطفت الفتاة إذن ما دمت لا تُريدها؟».

- «اختطفتها؟ إنني لم...».

- «بل فعلت، قتلت الاثنين اللذين كانا معها وأخذتها معك، فماذا تُسمِّي هذا؟».

- «أخذتها سجينَةً».

- «لكنك جعلتها تستسلم لك».

- «نعم، ولكن... تورموند، أقسمُ لك أنني لم ألمسها».

قال تورموند: «أنت واثق بأنهم لم يقطعوا عُضوك؟»، وهزَّ كتفيه كأنما يقول إنه لن يستوعب هذا الجنون أبدًا، وأضاف: «حسن، أنت رجل حُر الآن،

وإذا كنت لا تُريد الفتاة، فأنصحك بأن تجد لنفسك دُبَّةً. إذا أهمل الرَّجُل استخدام عُضوه فإنه يظلُّ يتضاءل ويتضاءل، إلى أن يأتي يوم ويُريد أن يتبَّول فلا يجده».

لم يجد چون ردًّا. لا عجب أن أهل (الممالك السَّبْع) يعدُّون الأحرار إنسًا بالكاد. إنهم لا يعرفون القوانين أو الشَّرَف أو حتى أصول الكياسة البسيطة، يسرق بعضهم من بعض بلا نهاية، ويتوالَّدون كالذَّواب، ويؤثرون الاغتصاب على الزَّواج، ويملاؤن العالم بالأطفال غير الشَّرِعيِّين. ومع ذلك وجدَّ شغفه يتنامى بتورموند بلية العماليق على الرغم من كلِّ هرائه وأكاذيبه، ورايك ذي الحربة الطويلة أيضًا... وإيجريت... لا، لن أفكر في إيجريت.

لكن مع أشباه تورموند وذي الحربة الطويلة كانت أنواع أخرى من الهَمَج، رجال مثل ذي القميص المُخشِخِش والبكاء بإمكانهم أن يُردوك قتيلًا بمنتهى البساطة، بخلاف هارما رأس الكلب، المرأة القصيرة البدينة ذات الوجنتين الشَّبهيتين بشرائح اللَّحم الأبيض، التي تبغض الكلاب وتقتل واحدًا كل أسبوعين لتُعلِّق رأسه على رايتها، وستير ماجنر (ثِن) الأصلم، الذي يعتبره قومه إلههم أكثر من سيِّدهم، وفارامير ست جلود، الرَّجُل الصَّغير الشَّبه بالفأر الذي يمتطي دُبُّ ثلوج أبيض ضاربيًا يرتفع ثلاثة عشر قدمًا إذا وقف على قائمته الخلفيتين، وأينمًا ذهب الدُّب وفارامير تبعتهما ثلاثة ذئاب وقطَّ ظل. وجدَّ چون نفسه في حضوره مرَّةً واحدةً، وهذه المرَّة الوحيدة كانت تكفي، فمجرد منظره جعل الشُّعيرات الدَّقيقة على مؤخِّرة عنقه تنتصب، تمامًا كما حدث مع جوست حينما رأى الدُّب والقط الأبيض والأسود الطويل.

وثمة أناس أضرى من فارامير أتوا من أقصى شمال (الغابة المسكونة) وأودية (أنياب الصَّقيع) الخفية وأماكن أخرى أغرب، ناهيك بأهل (السَّاحل المتجمِّد) الذين يركبون عربات مصنوعة من عظام الفظ⁽¹⁾ وتجربها قطعان من الكلاب الشَّرسة، وعشائر الأنهار الجليدية الرهيبة التي يُقال إنها تلتهم اللَّحم البشري، وسُكَّان الكهوف ذوي الوجوه المصبوغة بالأزرق والأرجواني

(1) الفظ حيوان بحري شبيه بالفقمة، يتميَّز بشاربه الكثيف وفمه العريض الذي يخرج منه زوج من الأنياب العاجية الحادة. (المرجم).

والأخضر. بأُمِّ عينيه رأى چون رجال قبيلة ذوي الحوافر يمضون في طابور بأقدام حافية باطنها صُلب قاس كالجلد المقوّى بالزيت المغلي، لكنه لم يرَ أيَّ سنّارات أو جراميكينات⁽¹⁾، وإن لم يكن من المستبعد أن يزعم تورموند أنه تناول بعضها على العشاء.

قدّر چون أن نصف من في جيش الهمج عاشوا حياتهم كلّها دون أن يلمحوا (الجدار) ولو من بعيد، ومعظمهم لا يتكلّم اللغة العاميّة، وإن لم بهمّ هذا كثيرًا بما أن مانس رايدر يُجيد اللّغة القديمة، بل ويُغني بها وهو يُداعِب عوده ويملأ الليل بموسيقى برّية غريبة.

قضى مانس سنينًا يحشد هذا الجيش العظيم الذي يمضي متهاديًا، يتكلّم مع أمّهات القبائل وزعمائها، ويضمُّ قريةً بالكلمات المعسولة وأخرى بالغناء وثالثةً بحدّ السيف، ويعقد السّلام بين هارما رأس الكلب وسيّد العظام، وبين قبيلتي ذوي الحوافر وعدائي الليل، وبين ساكني (السّاحل المتجمّد) الأفظاظ وعشائر آكلي لحوم البشّر، مطرّفًا مئة خنجر معًا وصانعًا منها حربًا واحدةً عظيمةً ينوي أن يسدّها إلى قلب (الممالك السّبع). إنه لا يعتمر تاجًا أو يحمل صولجانًا، ولا يرفل في ثياب من الحرير والمخمل، لكن من الجليّ تمامًا لچون أنه ملك فعلاً لا مجرد اسم.

لقد انضّم چون إلى الهمج بأمر من كورين ذي النّصف يد، الذي قال له في اللّيلة السّابقة لموته: «اركب معهم، كلّ معهم، قاتل معهم، وراقب». كان ذو النّصف يد قد حَمَن أن الهمج قد نزحوا إلى (أنياب الصّقيع) الكئيبة المقفرة بحثًا عن سلاح ما، قوّة ما، شعوذة رهيبة ما تُمكنهم من اختراق (الجدار)... لكن إذا كانوا قد عثروا عليها، فلا أحد يتباهى بها على الملأ أو يُريها لچون، ولا أسرّ له مانس رايدر بأيّ من حُططه أو ترتيباته، حتى إنه لم يرَ الرّجل إلّا من بُعد منذ تلك اللّيلة الأولى.

سأقتله إذا لم يكن هناك مناص. لم تُشعر الفكرة چون بأيّ سرور، فلا شرف في قتله كتلك، كما أنها ستعني موته أيضًا، لكنه لن يسمح أبدًا للهمج

(1) السنارك والجراميكين مخلوقان خياليّان يرد ذكرهما في الحكايات الشّعبيّة في (وستروس)، الأول وحش ليس له وصف محدّد، والثاني يُقال إنه يُحقّق الأمانى بالسّحر. (المترجم).

باختراق (الجدار) وتهديد (ويتترفل) والشَّمال، و(الرَّوابي) و(العُدْران)، و(الميناء الأبيض) و(السَّاحل الحجري)، وحتى (العُنق). طيلة ثمانية آلاف عام ورجال عائلة ستارك يعيشون ويموتون للذود عن قومهم ضد المغيرين المخرَّبين... وسواء أكان ولدًا غير شرعي أم لم يكن، فالدماء نفسها تتدفَّق في عروقه. ثم إن بران وريكون مازالوا في (ويتترفل)، و(المايستر لوين) والسير رودريك والعجوز نان وفارلن قيَّم الوجار ويمكن في ورشته وجايچ أمام أفرانه... جميع من عرفتهم في حياتي كلها، جميع من أحببتهم. إذا تحمَّ أن يقتل چون رجلاً بدأ يُعجَب به ويكاد يُجِبُّه لإنقاذهم من الوقوع تحت رحمة ذي القميص المُخشِخِش وهارما رأس الكلب وماجنر (ثِن) عديم الأذنين، فهذا ما سيفعله بالضبط.

وعلى الرغم من ذلك يُصَلِّي لآلهة أبيه كي تُغنيه عن تلك المهمة الكريهة. الجيش يزحف ببطءٍ بالغ، تُثقله قُطعان الهمج وأطفالهم وكنوزهم القليلة الرخيصة، وقد أبطأ هطول الثلوج حركته أكثر. كان معظم الطابور قد خرج من بين التلال، ويتصبَّب بطول ضفة (النَّهر اللَّبني) الغريئة كالعسل ذات صباح شتويٍّ بارد، متبِّعًا مسار النَّهر إلى قلب (الغابة المسكونة).

يُعرف چون أن في مكان ما قريب أمامهم تقبع (قبضة البشر الأوائل) شامخة فوق الأشجار، أويَّة ثلاثمئة من إخوان حرس الليل السُّود المدجَّجين بالسَّلاح، معهم خيولهم وينتظرون. كان الدُّب العجوز قد أرسل كشافًا غير ذي النَّصف يد، ولا بُدَّ أن چارمان بكويل أو ثورين سمولود قد عادَ حاملًا نبأ القادمين من وسط الجبال.

لكن مورمونت لن يهرب. إنه عجوز جدًّا وقطع شوَّطًا طويلًا. سيضرب ضربته بلا اعتبار للأعداد. ذات يوم قريب سيسمع أبواق الحرب تصدح ويرى كوكبة من الخيالة المنقَّضين عليهم، تُرْفرف معاطفهم السُّوداء وراءهم ويلمع الفولاذ البارد في أيديهم. لا أمل لثلاثمئة رجل في دحر جيش يفوقهم مئة مرَّة بالطبع، لكن چون لا يحسب أن من الضَّروري أن يُجهزوا عليهم جميعًا. لن يحتاج مورمونت إلى قتل ألف منهم، بل واحد فقط. وحده مانس الذي يشدُّ وثاقهم.

كان ملك ما وراء الجدار يبذل قصارى جهده، لكن الهمج يظلُّون بعيدين أشدَّ البُعد عن الانضباط، وفي هذا تكمن نُقطة ضَعفهم. هنا وهناك في حُط

زحفهم الثُّعْبَانِي الذي يمتدُّ فِرَاسِخَ طَوِيلَةٍ نَمَّةٍ مُحَارِبُونَ يُبَارُونَ أَيًّا مِنَ الْحَرَسِ فِي بَأْسِهِمْ، لَكِنْ ثَلْثُهُمْ مَوْزَعٌ عَلَى طَرَفَيْ الطَّابُورِ، مَعَ هَارِمَا رَأْسِ الْكَلْبِ فِي الطَّلِيعةِ، وَمَعَ حُرَّاسِ الْمُؤَخَّرَةِ الضَّارِبِينَ وَالْعِمَالِقَةَ وَالثَّيْرَانَ الْبَرِّيَّةَ وَقَازِفَاتِ النَّارِ. الثُّلُثُ الثَّانِي يَرْكَبُ مَعَ مَانَسٍ نَفْسَهُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْقَلْبِ، وَيَحْرُسُ الْمَرْكَبَاتِ وَالْمِزْلِجَاتِ وَالْعَرَبَاتِ الْمَجْرُورَةَ بِالْكَلابِ، الَّتِي تَحْمِلُ الْجِزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ مَوْنِ الْجَيْشِ، كُلٌّ مَا تَبَقَّى مِنْ حِصَادِ الصَّيْفِ الْمَنْصَرِمِ. أَمَّا الثُّلُثُ الْأَخِيرُ فَمَقْسَمٌ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةٍ تَحْتَ قِيَادَةِ ذِي الْقَمِيصِ الْمُخْشِخِشِ وَچَارِلِ وَتُورْمُونِدِ بَلِيَّةِ الْعِمَالِقِ وَالْبِكَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ، وَيَعْكُفُ أَفْرَادَهَا عَلَى الْاِسْتِقْصَاءِ وَجَمْعِ الْمَوَارِدِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْهَرُولَةِ بِطُولِ الطَّابُورِ بِلَا نِهَآيَةٍ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ حَرَكَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّظَامِ.

الْأَكْثَرُ أَهْمِيَّةً أَنْ وَاحِدًا لَا أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مِئَةٍ هَمَجِي يَرْكَبُ حِصَانًا. سَيُضْعَعُ الذُّبُّ الْعَجُوزَ صَفُوفَهُمْ كَالْفَأْسِ فِي الْعَجِينِ. وَعِنْدَمَا يَحْدُثُ هَذَا سَيُضْطَرُّ مَانَسٌ إِلَى مِطَارَدَةِ الْمُهَاجِمِينَ بَمَنْ مَعَهُ فِي الْقَلْبِ فِي مَحَاوَلَةٍ لِتَخْفِيفِ وَطْأَةِ التَّهْدِيدِ، فَإِذَا سَقَطَ فِي الْقِتَالِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَ هَذَا، سَيَقْمِي (الْجِدَارِ) أَمَّا مِئَةُ سِنَةٍ أُخْرَى فِي تَقْدِيرِ چُونِ. أَمَّا إِذَا لَمْ يَسْقُطْ...

بَسَطَ أَصَابِعَ يَدِهِ الْمَحْرُوقَةَ وَقَبْضَهَا. كَانَ سَيْفُهُ التَّغْلُ الْعَظِيمِ⁽¹⁾ (الْمَخْلَبِ الطَّوِيلِ) مَعْلَقًا مِنَ السَّرْجِ، وَالْقَبِيعةِ الْمَنْحُوتَةِ عَلَى شَكْلِ رَأْسِ ذئبٍ وَالْمَقْبِضِ الْجَدْلِيِّ اللَّيِّنِ فِي مِتْنَاوَلِهِ بِسَهُولَةٍ.

حِينَ لِحَقًا بِمَجْمُوعَةِ تُورْمُونِدِ بَعْدَ سَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ كَانَ التَّلْجُ يَسْقُطُ بِغِزَارَةٍ، وَقَدْ اخْتَفَى چُوسْتٌ خِلَالَ الطَّرِيقِ وَذَابَ فِي بِيَاضِ الْغَابَةِ إِذْ اشْتَمَّ رَائِحَةَ فَرِيسَةٍ مَا. سَيَرْجِعُ الذُّبُّ الرَّهِيْبُ وَقَدْ أَنْ يُحَيِّمُوا اللَّيْلَةَ، أَوْ عِنْدَ الْفَجْرِ عَلَى الْأَكْثَرِ. مَهْمَا ابْتَعَدَ چُوسْتٌ فَإِنَّهُ يَعُودُ دَوْمًا... وَإِيْجْرِيَتْ أَيْضًا عَلَى مَا يَبْدُو.

سَأَلَتْهُ الْفَتَاةَ لَمَّا رَأَتْهُ: «هَلْ تُصَدِّقُنَا الْآنَ يَا چُونِ سَنُو؟ هَلْ رَأَيْتَ الْعِمَالِقَةَ وَالْمَامُوثَاتِ؟».

(1) السَّيْفُ التَّغْلُ مِصْطَلَحٌ يُطْلَقُ فِي الْعَالَمِيِّ الْوَاقِعِ وَالرَّوَايَةِ عَلَى السَّيْفِ الَّذِي يَقَعُ حِجْمُهُ بَيْنَ السَّيْفِ الطَّوِيلِ وَالسَّيْفِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُحْمَلُ بِالْيَدَيْنِ، وَيُطْلَقُ عَلَيْهِ أَيْضًا «يَدٌ وَنِصْفٌ». يُلَاحِظُ أَنَّ (الْمَخْلَبَ الطَّوِيلَ) أَقْرَبَ إِلَى السَّيْفِ الْعَظِيمِ، وَلَكِنْ يُحْمَلُ بِيَدٍ وَاحِدَةٍ. (الْمُتَرْجِمُ).

صاح تورموند قبل أن يُجيب: «هار! الغراب واقع في الحُب، ويُريد أن يتزوَّج!».

قال رايك ذو الحربة الطويلة ضاحكًا: «عملاقة؟».

هدر تورموند: «لا، ماموثة! هار!».

خَبَّتْ فَرَسَ إيجريت إلى جوار چون وهو يُبطئ حركة حصانه. تَزَعُمُ الفتاة أنها تكبره بثلاثة أعوام، مع أن قامتها أقصر منه بنصف قدم، لكن أيًّا كانت سِنُّها فالفتاة قويَّة وخشنة حقًّا. كان ثعبان الحجر قد دعاها بالزَّوجة الحربة حين أسراها في (الممر الصَّادح)، لكنها ليست متزوَّجةً، وسلاحها المفضَّل قوس قصير مصنوع من القرون وخشب الويرود، وعلى الرغم من هذا يُناسِبها لقب الزَّوجة الحربة تمامًا. إنها تُذكِّره بعض الشَّيء بأخته آريا، وإن كانت آريا أصغر وغالبًا أضعف، فمن الصَّعب أن تعرف إن كانت إيجريت نحيلة أم ممتلئة تحت كلِّ ما ترتديه من فرو وجلود.

سألته: «أتعرف (آخر العملاقة)؟»، ودون أن تنتظر جوابًا قالت: «غناؤها يتطلَّب صوتًا أعمق من صوتي»، ثم إنها شرَّعت في الغناء: «أوووووه، أنا آخر العملاقة، وشعبي اختفى من الأرض».

سمع تورموند الكلمات فابتسم ابتسامَةً واسعةً، ورفع عقيرته وسط الثُّلوج: «آخر عمالقة الجبال العظام، الذين سادوا العالم وأنا في المهدي». انضمَّ رايك ذو الحربة الطويلة إليهما مغنِّيًا: «أوه، سرق الضُّئال غاباتي، سرقوا الأنهار والوديان».

ردَّت عليه إيجريت وتورموند بصوتين جهوريَّين: «وشيدوا جدارًا عظيمًا في سُهولي، وصادوا كلَّ السَّمك من الغدران».

أضاف توريج ودورموند ابنا تورموند صوتيهما العميقين إلى الأغنية، ثم ابنته موندا والبقية، وبدأ آخرون يقرعون تروسهم الجلدية بالحرايب صانعين نغمةً خشنةً، إلى أن هيمنَ الغناء على المجموعة كلها.

في أبهاء من الحجر نيرانهم العظيمة موقدة
في أبهاء من الحجر يدقون الحرايب القاطعات
بينما أمشي وحيدًا في الجبال

ولا صديق لي إلا العبرات
يُطارِدونني ليلاً بالمشاعل
ويُطارِدونني بالكلاب إذا أتى النَّهار
فلن يعرف الضُّئال أبداً معنى الشُّموخ
ما دامَّ العمالقة يمشون في الثُّور
أووووووه، أنا آخر العمالقة
فاحفظوا كلمات أغنيتي
فلمَّا أرحلُّ سيدوي الغناء
وطويلاً طويلاً سيسود الهدوء

كانت الدُّموع تجري على وجنتيَّ إيجريت حين انتهت الأغنيَّة.
قال چون: «لماذا تبكين؟ إنها مجرد أغنيَّة. هناك المئات من العمالقة، لقد رأيتهم لتويَّ».

ردَّت مغضبةً: «أوه، مئات. لست تعلم شيئاً يا چون سنو، أنت... چون!».
التفت چون مع صوت الأجنحة المفاجئ، وفي لحظة ملأ الرِّيش الرَّمادي
المزرق بصره، وانغرست المخالب الحادَّة في وجهه، ومرقَّ الألم الأحمر
الممضُّ فيه كالرُّمح والجناحان يضربان رأسه. رأى المنقار، لكن الوقت لم
يُسعفه برفع يده أو استلال سلاحه، وسقط چون إلى الورا وقد انخلعت
قدمه من ركاب حصانه الذي اندفع يجري مذعوراً، فوجد نفسه يسقط، وعلى
الرغم من هذا ظلَّ النَّسر متشبَّهاً بوجهه، تخمسه مخالبه وهو يضرب بجناحيه
ويصرُخ ويَنقر. انقلب العالم رأساً على عقب في فوضى من الرِّيش ولحم
الخيال والدَّم، ثم ارتطم بالأرض.

أدرك بعدها أنه واقع على وجهه، وفي فمه مذاق الوحل والدَّم، بينما تميل
إيجريت فوقه بوضع دفاعي وفي يدها خنجر من العظم. ظلَّ يسمع خفقان
الجناحين لكنه لم ير النَّسر نفسه، وقد اسودَّ نصف عالمه. بجزعٍ مباغت رفع
يده إلى وجهه قائلاً: «عيني».

- «إنها دماء لا أكثر يا چون سنو. لقد أخطأ العين، لكنه مزق جزءاً من

الجلد».

كان وجهه ينبض ألماً، وبينما مسح الدّم عن عينه اليسرى، رأى باليمنى تورموند يهدر غاضباً، ثم سمع حوافر خيول وصياحاً وخشخشة عظامٍ قديمة جافّة.

جارّ تورموند: «مُرْ غراب الجحيم هذا بالتّوقّف يا جوال العظم!». ردّ ذو القميص المُخشخِش مشيراً إلىّ جون: «هذا هو غراب الجحيم! ينزف في الوحل ككلبٍ غادر!»، وخطّ النّسر على جمجمة العملاق المكسورة التي يعتمرها كخوذةٍ وهو يُردّف: «إنني هنا من أجله». قال تورموند: «تعالَ وخذْه، لكن خيراً لك أن تأتي حاملاً سيفك لأنك ستجد سيفي في يدي. ربما أسلُحُ لحمك عن عظامك وأصنُعُ من جمجمتك مبولّةً! هار!». مبولّةً!

– «عندما أخزك ويتسرّب الهواءُ كلّه من داخلك، ستقلّصُ إلى حجم هذه الفتاة أو أصغر. تنحّ جانباً وإلاّ أخبرتُ مانس».

نهضت إيجريت متسائلةً: «ماذا؟ مانس هو من يُريده؟».

– «هذا ما قلته، أليس كذلك؟ اجعليه يقف على قدميه السّوداوين».

عقدَ تورموند حاجبيه قائلاً لـجون: «الأفضل أن تذهب ما دامّ المانس هو من يُريدك».

ساعدته إيجريت على التّهوض قائلةً: «إنه ينزف كخنزيرٍ مذبوح. انظر ما فعله أورل بوجهه الجميل».

هل تعرف الطيور الكراهية؟ لقد قتلَ جون الهمجيّ أورل، لكن جزءاً من الرّجل ظلّ حيّاً في النّسر. كانت العينان الذهبيّتان ترمّقانه بحقدٍ بارد، بينما أخذَ الدّم يجري في عينه اليسرى واشتعلت وجته ألماً، ولمّا مسّها رأى قفازَه الأسود ملطّخاً بالأحمر. قال لذي القميص المُخشخِش: «سأتي. دعني أمسك حصاني». الحقيقة أنه لم يكن يُريد الحصان لحظتها بقدر ما أراد جوست، لكن الذّئب الرّهيب كان غائباً عن الأنظار. قد يكون على بُعد فراسخٍ عديدة من هنا، يُمرّقُ عُنقُ الكِمة ما. ولعلّ في هذا خير.

نكصَ الحصان منه عندما اقتربَ وقد أخافه منظر الدّم على وجه جون لا ريب، لكنه هدّأه بكلماتٍ رقيقةٍ قليلة حتى اقتربَ واستطاع أن يلتقط العنان، وحين وثب فوق السّرج أحسّ برأسه يدور. يجب أن أجد من يعتني بالجرح،

لكن ليس على الفور. فليز ملك ما وراء الجدار ما فعله نَسره بي. فتح يُمناه وأغلقها ثم مَدَّها إلى (المخلب الطويل) وثَبَّت السيف النُّغل وراء كتفه، قبل أن يدور بالحصان ويعود إلى حيث ينتظر سيّد العظام وفرقته. إيجريت أيضًا كانت منتظرةً على حصانها وقد تصدّرت ملامحها نظرة مشاكسة، وقالت: «أنا أيضًا قادمة».

قال ذو القميص المُخشِش وعظام واقفي صدره تُصادم بعضها بعضًا: «أذهبي من هنا. لقد أرسلتُ من أجل الغراب المارق لا غير».

- «المرأة الحرة تركب حيثما شاءت».

كانت الرِّيح تذرو الثلج في عينيّ چون وتجمّد الدماء على وجهه، فقال: «هل ستتكلّم أم نتحرّك؟».

أجاب سيّد العظام: «ستحرّك».

خيّمت الكآبة على رحلتهم. هرولوا مسافة ميلين في اتّجاه حركة الطّابور وسط دوّامات الثلج، ثم مرّوا عبر غابةٍ من عربات الأمتعة، وخاضوا في (النَّهر اللبني) حيث يعقد أنشوطه واسعةٌ نحو الشرق. كانت قشرة رقيقة من الجليد تُغطّي المنطقة الضّحلة من النَّهر، وقد راحت حوافر الخيول تسحقها إلى أن بلغوا منطقة أعمق على بُعد عشر ياردات.

بدا كأنّ الثلوج تنهمر بسرعة أكبر على الضّفة الشّرقية، وأخذت تتجمّع في أكوام عالية. حتى الرِّيح أبرد. وعلاوةً على كلّ هذا كان اللّيل يدنو.

حتى وسط الثلوج الهابّة لم يكن هناك سبيل لأن يُخطى تعرّف التّل الأبيض الكبير السّامي فوق الأشجار. (قبضة البشر الأوائل). سمع چون صريخ النّسر آتيا من أعلى، وتطلّع إليه غُداً من فوق فرع شجرة صنوبر جُندي ونعب وهو يمرّ. هل نفذ الدّب العجوز هجومه؟ لكن بدلاً من تقارع الفولاذ وطنين السّهام لم يسمع چون إلّا الصّوت الخافت لانسحاق قشرة الجليد تحت حوافر حصانه.

بصمتٍ داروا حول التّل حتى المنحدر الجنوبي حيث يسهل الصُّعود أكثر، وهناك عند السّفح رأى چون الحصان الميت الملقى نصف مدفون في الثلج، وقد خرجت أحشاؤه من بطنه وتدلّت كعثابين متجمّدة، واختفت إحدى

سَيَقَانَهُ. خَطَرَ لِحْيُونَ أَوْلاً أَنهَا الذَّنَابُ، لَكِن سِرْعَانَ مَا أُدْرِكَ خَطَأَ الْخَاطِرِ، فَالذَّنَابُ تَأْكُلُ مَا تَقْتُلُهُ.

ارْتَمَى الْمَزِيدُ مِنَ الْخِيُولِ عَلَى الْمُنْحَدَرِ بِقَوَائِمِ مَلْتَوِيَةٍ عَلَى نَحْوِ بَشَعٍ وَأَعْيُنِ مَيْتَةٍ تُحْمَلِقُ إِلَى الْفِرَاقِ، فَانْقَضَّ الْهَمَجُ عَلَيْهَا كَسْرَبٍ مِنَ الذَّبَابِ، يُجَرِّدُونَهَا مِنَ الشُّرُوجِ وَالْأَلْجَمَةِ وَالْأَجْرَبَةِ وَالذُّرُوعِ، ثُمَّ يُقَطِّعُونَ لِحْمَهَا بِفَوْوسٍ حَجْرِيَّةٍ.

قَالَ ذُو الْقَمِيصِ الْمُخْشِخِشُ: «إِلَى أَعْلَى. مَانَسٌ عَلَى الْقَمَّةِ».

تَرَجَّلُوا خَارِجَ الشُّورِ الدَّائِرِيِّ وَاعْتَصَرُوا أَجْسَادَهُمْ لِيَمُرُّوا مِنْ ثَغْرَةٍ مَعْوَجَةٍ فِي الْحَجَرِ. كَانَتْ جِنَّةٌ حِصَانِ بَنِي أَشْعَثٍ مَخُوزَقَةٌ عَلَى الْعِصِيِّ الْمَدْبُوبَةِ الَّتِي أَمَرَ الذَّبَّ الْعَجُوزَ بَغْرَسَهَا عِنْدَ كُلِّ مَدْخَلٍ، دُونَ أَثَرٍ لِرَاكِبِ الْحِصَانِ، فَفَكَّرَ چُونُ: كَانِ يُحَاوِلُ الْخُرُوجَ لَا الدُّخُولَ.

فِي الدَّاخِلِ كَانَ الْمَزِيدُ وَالْأَسْوَأُ. لَمْ يَرَ چُونُ ثَلَجًا وَرَدِيًّا مِنْ قَبْلِ قَطُّ. هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ حَوْلِهِ مَاضِعَةً مَعْطَفَةً الثَّقِيلِ، وَرَاحَتْ الْغِدْفَانُ تُحَلِّقُ مِنْ حِصَانٍ مَيْتٍ إِلَى آخِرٍ، فَسَأَلَ نَفْسَهُ: أَهَذِهِ غِدْفَانَانَا أَمْ غِدْفَانُ بَرِيَّةٍ؟ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّمْيِيزَ، وَتَسَاءَلَ أَيْنَ سَامِ الْمَسْكِينِ الْآنَ، وَفِي أَيِّ صُورَةٍ هُوَ.

انْسَحَقَتْ قَشْرَةٌ مِنَ الدَّمِ الْمَتَجَلِّدِ تَحْتَ كَعْبِ حِذَائِهِ، وَرَأَى الْهَمَجَ يُجَرِّدُونَ جُثَّتِ الْخِيُولِ مِنْ كُلِّ مَا عَلَيْهَا مِنْ مَعْدِنٍ وَجِلْدِ، بَلْ وَيَنْزِعُونَ الْحِدَوَاتِ مِنْ حَوَافِرِهَا، فِيمَا نَقَّبَ بَعْضُهُمْ فِي حَقَائِبِ وَجِدْوَاهَا بَحْثًا عَنِ أَسْلِحَةٍ أَوْ طَعَامٍ. مَرَّ چُونُ بِوَاحِدٍ مِنْ كِلَابِ تَشْتِ - أَوْ مَا تَبَقَّى مِنْهُ - مَنْظَرًا فِي بَرَكَةٍ مِنَ الْوَحْلِ وَالِدَّمِ شَبِهَ الْمَتَجَمِّدِ.

كَانَ عِدَدُ مِنَ الْخِيَامِ لَا يَزَالُ مَنْصُوبًا فِي أَقْصَى الْمَعْسَكِرِ، وَهَنَّاكَ وَجِدْوَا مَانَسٍ رَايْدِرٍ، الَّذِي ارْتَدَى مَعْطَفَهُ الصُّوفِ الْأَسْوَدَ الْمَرْقَعِ بِالْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ، وَتَحْتَهُ قَمِيصًا مِنَ الْحَلَقَاتِ الْمَعْدِنِيَّةِ السُّودَاءِ وَسِرَاوِيلَ مِنَ الْفُرِّ الْخَشَنِ، وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى رَأْسِهِ خُوذَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْبُرُونِزِ وَالْحَدِيدِ عَلَى جَانِبَيْهَا جَنَاحَا عُذَافٍ. وَجِدْوَا چَارِلٍ مَعَهُ، وَهَارِمَا رَأْسِ الْكَلْبِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى سِتِيرٍ وَفَارَامِيرٍ سِتِّ جَلُودٍ مَعَ ذَنَابِهِ وَقَطُّ الظِّلِّ.

رَمَى مَانَسٌ چُونُ بِنَظْرَةٍ مَتَجَهِّمَةٍ بَارِدَةٍ، وَسَأَلَهُ: «مَاذَا حَدَثَ لَوْجِهَكَ؟». أَجَابَتْهُ يُجْرِيَتُ: «أُورِلُ حَاوِلَ أَنْ يَفْقَأَ عَيْنَهُ».

- «سألته هو. هل قُطِعَ لسانه؟ ربما عليه أن يقطعه ليعفينا من المزيد من الأكاذيب».

سحب الماجنر ستير سكينًا طويلًا، وقال: «قد يرى الصَّبي بوضوحٍ أكثر بعين واحدة بدلًا من اثنتين».

سأله ملك ما وراء الجدار: «هل ترغب في الاحتفاظ بعينك يا چون؟ في هذه الحالة أخبرني كم كانوا، وحاول أن تقول الحقيقة هذه المرّة يا نغل (ويتترفل)».

غمغم چون بحلقٍ جاف: «سيدي... ماذا ح...».

- «لست سيّدك، وما حدث هنا واضح تمامًا. لقد مات إخوتك، لكن الشُّؤال هو: كم كان عددهم؟».

تسارع نبض الوجود في وجه چون، وظلّت التلوج تنهمر، ووجد التّفكير صعبًا. كورين قال له ألا يتراجع مهما طلبوا منه. احتبست الكلمات في حلقه، لكنه أرغم نفسه على أن يقول: «كنا ثلاثمئة».

ردّد مانس بحدّة: «كنتم؟».

- «كانوا، كانوا ثلاثمئة». ذو النّصف يد قال ألا أرفض أيّ طلب منهم، فلم أشعرُ بهذا الجبن؟ «مئتا رجل من (القلعة السوداء) ومئة من (بُرج الظلال)».

قال مانس: «الآن أنت أصدق مما كنت في خيمتي»، والتفت إلى هارما رأس الكلب سائلًا: «كم حصانًا وجدنا؟».

أجابَت المرأة الضّخمة: «أكثر من مئة، أقل من مئتين. هناك المزيد من الجُثث نحو الشّرق، لكنها مدفونة تحت الثلج ويصعب أن نعرف عددها».

كان حامل رايتها يقف وراءها رافعًا قائمًا عليه رأس كلب مقطوع حديثًا ولا تزال الدّماء تسيل منه.

قال مانس رايدر: «لم يكن يجدر بك أن تكذب عليّ أبدًا يا چون سنو».

- «أ... أعرف هذا». ماذا يُمكنني أن أقول؟

أمعن ملك الهمج النّظر إلى وجهه قائلاً: «لمن كانت القيادة هنا؟ قل الحقيقة. ريكو؟ سمولود؟ ليس ويذرز العجوز الواهن. خيمة من هذه؟».

لقد قلتُ أكثر من اللازم. «ألم تجدوا الجثة؟».

أطلقت هارما نخيرًا محملاً بالاحتقار خرج من طائفتي أنفها مع البخار،
وقالت: «يا لهؤلاء الغربان السود من حمقى».

قال مانس رايدر بصرامة: «أجب عن سؤالي بسؤالٍ ثانيةً وسأعطيك لسيّد
العظام»، ودنا منه مكرّراً: «لمن كانت القيادة هنا؟».

قرّب چون يده بحذر من مقبض سيفه مفكراً: خطوة واحدة أخرى، قدم
واحد. إذا لزمْتُ الصمتُ...

- «امدّد يدك إلى سيفك التّغل هذا وسأقطع رأسك التّغل قبل أن تُخرجه
من الغمد. صبري عليك ينفد بسرعة أيها الغراب».

حسّته إيجريت قائلةً: «أجبه. أيّا كان فقد مات».

شققت تقطيعته الدّم المتجلّد على خدّه، وبيأس قال لنفسه: ما أصعب
هذا. كيف ألعبُ دور المارق دون أن أكون واحداً حقاً؟ لم يُخبره كورين كيف
يفعلها، لكن الخطوة الثانية أيسر دائماً من الأولى. هكذا قال: «الدّب العجوز».
وسّت نبرة هارما بعدم تصديقها وهي تقول: «ذلك العجوز؟ جاء بنفسه؟
من القائد إذن في (القلعة السوداء)؟».

أجاب چون هذه المرّة في الحال: «باون مارش». لا ترَفُضُ مهما طلبوا
منك.

ضحك مانس وقال: «إذا كان هذا صحيحاً فقد ربحنا الحرب. باون يعرف
عن عدّ السّيوف أكثر من القتال بها».

قال چون: «الدّب العجوز قادّ الحملة. هذا المكان عال وقوي، وقد جعله
أقوى بالحُفر والخوازيق وتوزيع الطّعام والماء. كان جاهزاً...».

- «... لي؟»، قال مانس رايدر متممًا العبارة. «أجل، كان جاهزاً، ولو
كنتُ بالحُمق الكافي لمهاجمة هذا التّل فلربما فقدتُ خمسة رجالٍ مقابل
كلّ غرابٍ نقتله وعددتُ نفسي محظوظاً»، وزمّ فمه متابعاً: «لكن حين يأتي
الموتى السّائرون لا تكون للأسوار والخوازيق والسّيوف جدوى. لا يُمكنك
أن تُقاتل الموتى يا چون سنو. لا أحد يعرف هذا بقدر ما أعرفه»، ورفع عينيه
إلى سماءٍ بدأ الليل يزحف عليها، وواصل: «أعتقد أن الغربان ساعدونا أكثر
مما يُدركون. لقد تساءلتُ عن سبب عدم تعرّضنا لأيّ هجمات، لكن ما
زالت أمامنا عشرات الفراسخ، والبرد يشتدُّ. فارامير، أرسلِ ذئابك تتشمّم آثار

الجُثث الحَيَّة، فلا أريدُ أن تُعافِلنا بالهجوم. يا سيِّدَ العظام، ضاعِف جميع الدَّورِيَّات، وتأكَّد من أن كلَّ رجلٍ يحمل مشعلاً وحجر صوَّان. ستير، چارل، ستتحَرَّكان مع أول خيوط الفَجْر».

قال ذو القميص المُخشِخِش: «مانس، أريدُ عظام الغُراب».

خطت إيجريت أمام چون قائلةً: «لا يُمكنك أن تقتل رجلاً لأنَّه كذب ليحمي من كانوا إخوته».

أعلنَ ستير: «ما زالوا إخوته».

قالت إيجريت بإصرار: «لا. إنه لم يقتلني كما أمره، وقتل ذا النِّصف يد كما رأينا جميعاً».

فكر چون وأنفاسه تخرُج بُخارًا: إذا كذبتُ عليه سيعرف، ووجَّه نظراته إلى عينيَّ مانس رايدر مباشرةً وهو يبسط يده المحروقة ويقبضها، وقال: «إنني أرتدي المعطف الذي أعطيتني إياه يا جلالة الملك».

أضافت إيجريت: «معطف من جلد الخراف! كما أننا نلعب تحته من ليلةٍ إلى أخرى!».

ضحك چارل، وحتى هارما رأس الكلب ابتسمت، وسأل مانس رايدر برفق: «أهذا صحيح يا چون سنو؟ أنت وهي؟».

من السَّهل أن تضلَّ طريقك وراء (الجدار)، وچون لم يُعد يستطيع التَّفَرُّقة بين الشَّرِّف والعار. سامحني يا أبي. «نعم».

أوما مانس برأسه قائلاً: «عظيم. ستذهب مع چارل وستير غدًا إذن، أنت وهي، فلست أقوى على أن أباعد بين قَلبين ينبضان كواحد».

- «نذهب إلى أين؟».

- «لتسلق (الجدار). حان الوقت لأن تُثبِّت ولاءك بالأفعال لا الأقوال يا

چون سنو».

لم بيد الرِّضا على الماجنر وهو يسأل: «لماذا أحتاجُ إلى الغُراب معي؟».

أجاب مانس: «إنه يعرف الحرس ويعرف (الجدار)، ويعرف (القلعة السوداء) أفضل من كلِّ مُغيرينا. عليك أن تستفيد منه وإلا فأنت أحمق».

قال ستير عابسًا: «قد يكون قلبه ما زال أسود».

- «انزعه من صدره إذن»، والتفت مانس إلى ذي القميص المُخشِخِش

قائلاً: «يا سيّد العظام، حافظ على حركة الطّابور بأيّ ثمن. إذا بلغنا (الجدار) قبل مورمونت فقد انتصرنا».

قال ذو القميص المُخشِخَش بصوتٍ محمّلٍ بالحنق: «سيتحرّكون». هزّ مانس رأسه وابتعدَ ومعه رأس الكلب وست جلود، الذي تبعته ذئابه وقطُّ الظلِّ، وتُركَ چون وإيجريت مع چارل وذي القميص المُخشِخَش والماجتر. رمقَ الهمجيان الكبيران چون بغلٍ لم يُحاولا إخفاءه بينما قال چارل: «كما سمعتم، ستتحرك مع طلوع الفجر. اجلبا كل ما يُمكنكما من طعام، فلن نجد وقتاً للصّيد، وجد من يُعالج وجهك أيها الغراب، إنه في أسوأ حال».

قال چون: «سأفعل».

خاطبَ ذو القميص المُخشِخَش إيجريت قائلاً وعيناه تلمعان من وراء جمجمة العملاق: «خيرٌ لك ألا تكوني كاذبةً يا فتاة».

جرّد چون سيفه، وقال: «ابتعد عنا ما لم تكن ترغب في مصير كورين». مدّد ذو القميص المُخشِخَش يده إلى سيفه بدوره مجيباً: «ليس معك ذئب يُساعدك هذه المرّة أيها الغراب».

قالت إيجريت ضاحكةً: «أأنت واثق؟».

على حجارة الشّور الدّائري كان جوست مقوساً ظهره وقد انتصبَ فروه الأبيض. لم يُصدِر صوتاً لكن عينيه الحمرأوين القانيتين جهرتا بيّته الدّامية، فابتعدت يد سيّد العظام عن سيفه بتؤدّةٍ وتراجعٍ خُطوةً، قبل أن ينسحب مطلقاً اللّعنات.

سارَ جوست إلى جوار حصانيهما فيما نزلَ چون وإيجريت التّل، ولم يشعُر چون بما يكفي من أمان ليتكلّم إلّا عندما كانوا قد خاضوا في النّهر حتى منتصفه، وقال: «لم أطلب منك أن تكذبي من أجلي».

قالت: «لم أكذب، لكني لم أذكر جزءاً لا أكثر».

- «قلت...».

- «... إننا نتضاجع تحت معطفك بين ليلةٍ وأخرى، لكني لم أقل متي بدأنا»، ورمقته إيجريت ببسمّة تكاد تكون خجلى، وأردفت: «جد مكاناً آخر ينام فيه جوست اللّيلة يا چون سنو. كما قال مانس، الأفعال أصدق من الأقوال».

سانزا

بحذرٍ امتزجَ بالدَّهْشَةِ سَأَلَتْ: «فُستَانِ جَدِيدٍ؟». رَدَّتْ العَجُوزُ وَهِيَ تَقِيسُ وَرَكِيهَا بِشَرِيطٍ ذِي عَقْدٍ بَيْنَهَا مَسَافَاتٍ مَنْتَظِمَةً: «أَجْمَلُ مِنْ أَيِّ فُستَانٍ آخَرَ ارْتَدَيْتِهِ يَا سَيِّدَتِي، كُلُّهُ مِنَ الحَرِيرِ وَالدَانْتِيلِ وَمِبَطَّنٍ بِالسَّاتَانِ. سَتَبْدِينَ فِي غَايَةِ الجَمَالِ. المَلِكَةُ نَفْسَهَا أَمَرَتْ بِتَفْصِيلِهِ».

- «أَيُّ مَلِكَةٍ؟». مارچري ليست ملكة چوفري بعدُ، لكنها كانت ملكة رنلي، أم أنها تعني ملكة الأشواك؟ أم...
- «المملكة الوصيَّة على العرش بالتَّأكِيدِ».
- «المملكة سرسي؟!».

قالت العجوز: «لا أحد غيرها، إنها زبونتي الكريمة منذ سنوات»، ومدَّت شريط القياس على ساق سانزا من الدَّاخل متابعَةً: «جلالتهَا قالت لي إنكِ امرأة الآن، ويجب ألا ترتدي ثياب البنات الصَّغِيرَات. افردي ذراعك». أطاعتها سانزا مفكرةً أنها في حاجةٍ إلى فُستَانٍ جَدِيدٍ حَقًّا. لقد زادَ طولها ثلاث بوصات خلال العام الماضي، ومعظم ثيابها أتلَفَه الدُّخان حين حاولت إحراق حشِيَّة الفِراش يوم أزهرت للمرَّة الأولى.

قالت العجوز وهي تلفُ الشَّرِيطَ حول صدر سانزا: «سيبدو نهداكِ جميلين كنهديَّ الملكة. لا يجدرُ بكِ أن تُحَبِّبِيَهُمَا هَكَذَا».

جعلها التَّعليقُ تَوَرَّدَ حَجَلًا، مع أنها لم تستطع أن تعقد أربطة سُترتها الضيِّمة إلى النِّهاية عندما ذهبت لركوب الخيل آخر مرَّة، وحملت صبِيَّ الاسطبل إليها وهو يُسَاعِدُهَا على امتطاء الحصان، وفي بعض الأحيان تضبط

رجالاً بالغين يختلسون النَّظْرَ إلى صدرها أيضاً، كما أن بعض قمصانها ضيق للغاية لدرجة تجعلها تستطيع التَّنَفُّسَ بالكاد.
سألت الخيَّاطة: «ماذا سيكون لونه؟».

- «اتركي الألوان لي يا سيِّدتي وسُتْسَرِّين، إنني واثقة. سنُفَصِّلُ لك ثياباً داخليةً وجوارب أيضاً، وسترات وحرامل ومعاطف، وكل ما يليق ب... بليدي شابّة جميلة عالية المقام».

- «هل ستكون جاهزةً قبل زفاف الملك؟».

- «أوه، قبله بكثير كما أصرت جلالتها. إن لديّ ست خيَّاطات واثنتي عشرة عاملة، وكلنا نحينا الأعمال الأخرى بأسرها جانباً من أجل هذا. ليديها كثيرات سيغضب مننا، لكنه أمر الملكة».

قالت سانزا بأدب: «اشكُري جلالتها كثيراً على اهتمامها. إنها في غاية الطيبة معي».

- «جلالتها شديدة الكرم»، قالت الخيَّاطة وهي تجمع حاجياتها وتنصرف. بقلقٍ فكّرت سانزا عندما صارت وحدها: لكن لماذا؟ أراهن أن لمارچري دخلاً في هذا الفُستان بشكل ما، أو لجدتها.

لدى مارچري مخزون لا يَنْضُب من الدِّمَاءِ والحُنُو، وقد غيّر وجودها كلَّ شيء، علاوةً على رفيقاتها اللاتي رَحِبْنَ بسانزا أيضاً، وكان زمن طويل قد مرّ منذ حظيت بصُحبة النساء، حتى إنها كادت تنسى كم هي ممتعة. أعطتها الليدي ليونيت دروساً على القيثارة السَّامية، وشاركتها الليدي چانا فاكهة النَّميمة، وميري كرين لديها قصّة مسلّية دائماً، بينما ذكّرتها الليدي بولوار الصَّغيرة بآريا، وإن لم تكن بضرأوتها.

الأقرب إلى سنّ سانزا هنّ بنات العمومة إينور وآلا ومجا، وكلهن ينتمين إلى فروع أدنى من عائلة تايرل، أو «وردات من أسفل الشَّجيرة» كما قالت إينور الطّريفة ذات القوام الممشوق مازحةً. أمّا مجا فممتلئة وصاخبة، وآلا حسنة خجول، لكن إينور هي القائدة بين الثلاثة بحُكم الأنوثة، بما أنها أزهرت أولاً، بينما تظل مجا وآلا مجرد فتاتين.

قبلت بنات العمومة الثلاث سانزا بينهن كأنهن يعرفنها طيلة حياتهن. كثيراً ما يقضين فترة بعد الظهر في أشغال الإبرة والكلام في أثناء التهام كعكات

اللَّيْمُونُ وَشُرْبُ النَّبِيدِ الْمُحَلَّى بِالْعَسَلِ، أَوْ يَلْعَبُنَ الْبَلَاطَاتِ ذَاتِ مَسَاءٍ، أَوْ يُنَشِدُنَ مَعًا فِي السَّبْتِ... وَكَثِيرًا مَا تُخْتَارُ وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَانِ مِنْهُنَّ لِمَشَارَكَةِ مَارِجِرِي الْفِرَاشِي، حَيْثُ يُمْضِينَ نِصْفَ اللَّيْلِ فِي الثَّرَاةِ الْهَامِسَةِ. لِأَنَّ صَوْتَ جَمِيلٍ، وَلَمَّا تَمَلَّقَهَا بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ سَتَعَزَفَ عَلَى الْقَيْثَارَةِ الْخَشْبِيَّةِ وَتُرَدَّدَ أَغَانِيَّ عَنْ الْفُرُوسِيَّةِ وَالْحُبِّ الصَّائِعِ، أَمَّا مَجَا فَلَا تَسْتَطِيعُ الْغِنَاءَ، لَكِنَّهَا تَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِأَنَّ تَعْرِفَ طَعْمَ الْقُبَلَاتِ، وَقَدْ اعْتَرَفَتْ بِأَنَّهَا تَلْعَبُ لَعْبَةً تَقْبِيلٍ مَعَ آلَا أَحْيَانًا، وَإِنْ كَانَتْ وَاثِقَةً بِأَنَّ الْأَمْرَ سَيَكُونُ مُخْتَلَفًا مَعَ رَجُلٍ، نَاهِيكَ بِمَلِكٍ. تَسَاءَلَتْ سَانزَا عَمَّا سَتَقُولُهُ إِذَا قَبِلَتْ كَلْبَ الصَّيْدِ كَمَا فَعَلَتْ هِيَ لَيْلَةَ الْمَعْرَكَةِ⁽¹⁾، حِينَ جَاءَهَا وَقَدْ فَاحَتْ مِنْهُ رَائِحَةُ النَّبِيدِ وَالِدَّمَاءِ. قَبَلْنِي وَهَدَّدْنِي بِالْقَتْلِ وَجَعَلْنِي أَغْنِيَّ لَهُ.

بِحِمَاسَةٍ قَالَتْ مَجَا دُونَ أَنْ تَعِي مَا يَعْتَمَلُ فِي نَفْسِ سَانزَا: «الْمَلِكُ چَوْفَرِي لَدَيْهِ شَفْتَانِ جَمِيلَتَانِ حَقًّا. أَوْهَ يَا سَانزَا الْمَسْكِينَةَ، لَا بُدَّ أَنْ قَلْبِكَ انْفَطَرَ حِينَ فَقَدْتَهُ. أَوْهَ، لَا بُدَّ أَنَّكَ بَكَيْتَ كَثِيرًا!».

أَرَادَتْ أَنْ تَقُولَ: چَوْفَرِي جَعَلْنِي أَبْكِي أَكْثَرَ مِمَّا تُدْرِكِينَ، لَكِنْ بِرَمِيلِ الزُّبْدَةِ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا لِيَطْعُنِي عَلَى كَلِمَاتِهَا بِصَوْتِهِ الْجَهِيرِ، فَأَطْبَقْتُ شَفْتَيْهَا وَوَلَدْتُ بِالصَّمْتِ.

إِلَيْنُورُ مَوْعُودَةٌ لِأَحَدِ أَبْنَاءِ الْلُورْدِ أَمْبَرُوزِ، مُرَافِقِ فَارَسِ شَابٍ سَيُعَقِّدُ قِرَانَهَا عَلَيْهِ بِمَجْرَدِ فَوْزِهِ بِالْفُرُوسِيَّةِ. كَانَتْ قَدْ ارْتَدَى عَطِيَّتُهَا فِي مَعْرَكَةِ (النَّهْرِ الْأَسْوَدِ)، حَيْثُ قَتَلَ نَبَأًا مَایرِيًّا وَأَحَدَ جُنُودِ الْلُورْدِ مَالِنْدُورِ، وَقَدْ قَالَتْ عَنْهُ مَجَا: «أَلَنْ قَالِ إِنْ عَطِيَّتُهَا أَزَالَتْ مِنْهُ الْخَوْفَ، وَإِنَّهُ اتَّخَذَ مِنْ اسْمِهَا هِتَافًا لِلْمَعْرَكَةِ. يَا لِلنَّبْلِ! أَرِيدُ أَنْ يَرْتَدِي بَطْلٌ مَا عَطِيَّتِي ذَاتَ يَوْمٍ وَيَقْتُلُ مِئَةَ رَجُلٍ». قَالَتْ لَهَا إِلَيْنُورُ أَنْ تَصُمَّتْ وَإِنْ بَدَتْ مَسْرُورَةً رَغْمَ ذَلِكَ.

إِنَّهِنَّ طَفَلَاتٌ، فَنِيَاتٌ صَغِيرَاتٌ سَخِيفَاتٌ، حَتَّى إِلَيْنُورُ، لَمْ يَرِينَ مَعْرَكَةً قَطُّ وَلَمْ يَرِينَ رَجُلًا يَمُوتُ وَلَا يَعْلَمُنَ شَيْئًا. أَحْلَامُهُنَّ مَلَأَى بِالْقَصَصِ وَالْأَغَانِي كَمَا كَانَتْ أَحْلَامُهَا قَبْلَ أَنْ يَقْطَعَ چَوْفَرِي رَأْسَ أَبِيهَا.

(1) الْوَاقِعُ أَنَّ تِلْكَ الْقُبْلَةَ الَّتِي سَمَّاهَا الْقَرَاءُ «الْأَلْقُبْلَةَ» لَمْ تَحْدُثْ، وَلَدَى سُؤَالِ الْمُؤَلِّفِ عَنْ هَذَا التَّفَاقُصِ أَجَابَ بِأَنَّ سَانزَا رَاوِيَةٌ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ يَتْرُكُ التَّفْسِيرَ لِلْقَارِئِ كَمَا يَرَاهُ. (الْمُتْرَجِمُ).

ولكم تُشْفِقِ عليهن سانزا، ولكم تحسدهن سانزا.

غير أن مارچري تختلف؛ عذبة ورفيقة ولكن فيها القليل من جدتها أيضًا. أول من أمس اصطحبت سانزا لصيد الطيور، وكانت أول مرة تخرُج فيها من المدينة منذ المعركة. كان الموتى قد أحرقوا أو دُفِنوا، لكن (بِوَابَةِ الطمي) ظَلَّتْ مشوّهةً حيث ضربتها مدكات اللورد ستانيس، وما زالت أبدان السُفن المحطّمة موجودةً بطول ضفّتي النهر، تبرز صواريتها المنفخمة من المياه الضحلة كأصابع سوداء ناحلة. حركة المرور الوحيدة في النهر كانت العبارة التي أخذتهما إلى الضفة الأخرى، ولمّا بلغتا (غابة الملوك) وجدنا يابًا من الرّماد والفحم والشجر الميت، وإن عجّت المستنقعات القريبة من الخليج بطيور الماء، فظفر يُؤيؤ⁽¹⁾ سانزا بثلاث بطّات، بينما أسقط صقر مارچري غُرنوقًا محلّقًا.

قالت مارچري حين انفردت بها فترة قصيرة: «ويلاس لديه أفضل طيور في (الممالك السبع)، وأحيانًا يُطير نسرا. سترين يا سانزا»، والتقطت يدها واعتصرتها مضيفة: «يا أختاه».

أختاه. لطالما حلمت سانزا بأن تكون لها أخت كمارچري، جميلة ورفيقة ونعم العالم كلها تحت إمرتها، أمّا آريا فكانت غير مُرضية على الإطلاق كأخت. سألت نفسها: كيف أترك أختي تتزوّج چوفري؟ وفجأة اغرورقت عينها بالدموع وكافحت كي يخرج منها الكلام: «مارچري، أرجوك، يجب ألا تفعلها، يجب ألا تتزوّجيه. إنه ليس كما يبدو على الإطلاق، وسيؤذيك». أجابت مارچري بابتسامة واثقة: «لا أظنّ. شجاعة منك أن تُحدّرني، لكن لا داعي لأن تقلقي. چوف مدلل ومغرور، ولا شكّ لديّ في أنه متوحش كما تقولين، لكن أبي أجبره على ضمّ لوراس إلى حرسه الملكي قبل أن يوافق على الزيجة. سأكون في حماية أفضل فُرسان (الممالك السبع) ليل نهار، كما حمى الأمير إيمون نيرس، لذا فخيرٌ لشلبنا الصّغير أن يُحسن السُّلوك، ليس كذلك؟»، وضحكت مردفة: «هلمّي يا أختي الجميلة، لتسابق حتى

(1) اليُويؤ طائر صيد ينتمي إلى فصيلة الصقريات، يعيش في عالم الواقع في نصف الكرة الشمالي ويوجد بأعداد قليلة في شبه الجزيرة العربية. (المترجم).

النَّهْر. سَيُتِيرُ هَذَا جُنُونٌ حُرَّاسَنَا، وَدُونَ انْتِظَارِ إِجَابَةٍ هَمَزَتْ حِصَانَهَا بِكَعْبِهَا
وَانْطَلَقَتْ.

فَكَرَّتْ سَانَزَا وَهِيَ تُتَهَرُّولُ وَرَاءَهَا: إِنَّهَا شُجَاعَةٌ لِلْغَايَةِ... وَمَعَ ذَلِكَ لَا تَزَالُ
الشُّكُوكُ تَلْتَهُمَهَا، فَلَمَّا كَانَ الْجَمِيعُ يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّيْرَ لُورَاسِ فَارَسِ عَظِيمٌ،
فَمَا زَالَتْ لَدَى چُوفَرِي حَرَسَ آخَرُونَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَوِي الْمَعَاطِفِ الذَّهَبِيَّةِ
وَالْحَمْرَاءِ، وَعِنْدَمَا يَكْبُرُ سَتَكُونُ لَدَيْهِ جِيُوشٌ كَامِلَةٌ تَحْتَ قِيَادَتِهِ. إِجُونُ
غَيْرِ الْجَدِيرِ لَمْ يَمَسَّ الْمَلِكَةَ نَبِيرِسَ بِسُوءِ قَطْعٍ، رُبَّمَا خَوْفًا مِنْ أُخِيهَا الْفَارَسِ
التَّيْنِ... لَكِنْ حِينَ وَقَعَ وَاحِدٌ آخَرَ مِنْ فُرْسَانَ حَرَسِهِ الْمَلِكِي فِي غَرَامِ إِحْدَى
عَشِيقَاتِهِ، بَتَرَ الْمَلِكُ عُنُقَيْهِمَا مَعًا.

قَالَتْ سَانَزَا مُذَكِّرَةً نَفْسَهَا فِي قَرَارَتِهَا: السَّيْرُ لُورَاسِ مِنْ عَائِلَةِ تَايِرِلِ، أَمَّا
الْفَارَسِ الْآخَرَ فَكَانَ مِنْ عَائِلَةِ تَوَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَى إِخْوَتِهِ جِيُوشٌ أَوْ وَسِيلَةٌ
لِلنَّارِ لَهُ إِلَّا السَّيْفُ. لَكِنْ كَلِمَا فَكَرَّتْ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ أَكْثَرَ إِزْدَادَاتٍ تَسَاوَلَاتِهَا.
قَدْ يَكْبِجُ چُوفَرِي نَفْسَهُ بِضِعَةِ أَقْمَارٍ، أَوْ رُبَّمَا عَامًّا، لَكِنَّهُ سَيُظْهِرُ مَخَالِبَهُ عَاجِلًا
أَوْ آجِلًا، وَعِنْدَهَا... قَدْ تَعْرِفُ الْبِلَادَ قَاتِلِ الْمَلِكِ ثَانِيًا وَتَنْدَلِعُ الْحَرْبُ دَاخِلَ
الْمَدِينَةِ وَيَسْفِكُ رِجَالَ الْأَسَدِ وَرِجَالَ الْوَرْدَةِ الدَّمَاءِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

انْدَهَشَتْ سَانَزَا مِنْ أَنَّ مَارچَرِي لَا تَرَى هَذَا أَيْضًا، لَكِنَّهَا قَالَتْ لِنَفْسِهَا:
إِنَّهَا أَكْبَرُ مِنِّي، وَلَا بُدَّ أَنَّهَا أَكْثَرُ حِكْمَةً، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَبَاهَا الْلُورْدَ تَايِرِلَ يَعْرِفُ مَا
يَفْعَلُهُ. إِنِّي أَفْكَرُ بِسَخَافَةٍ لَا أَكْثَرَ.

عِنْدَمَا أَخْبَرَتْ السَّيْرَ دُونْتُوسَ بِأَنَّهَا ذَاهِبَةٌ إِلَى (هَائِجَارْدَنِ) لِتَتَزَوَّجَ وَيَلَاسَ
تَايِرِلَ، حَسِبَتْ أَنَّهُ سَيَسْعَدُ مِنْ أَجْلِهَا، لَكِنَّهُ أَطْبَقَ عَلَى ذِرَاعِهَا بَدَلًا مِنْ هَذَا
وَقَالَ بِصَوْتٍ أَثْقَلَهُ الْهَلَعُ وَالنَّبِيدُ مَعًا: «لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَفْعَلِي هَذَا! آلُ تَايِرِلِ
هُوَلَاءُ هُمْ أَنْفُسُهُمْ آلُ لَانَسْتَرِ لَكِنْ بِالزُّهُورِ لَا أَكْثَرَ، أَوْ كَدُّ لِكَ. أُنَوَسِّلُ إِلَيْكَ
أَنْ تَنْسِيَ تِلْكَ الْحِمَاقَةَ. أَعْطَيْتُ فَارَسِكِ فُلُورِيَانَ قُبْلَةً وَعَدِينِي بِأَنْ تَمْضِيَ
فِيمَا خَطَطْنَا لَهُ. لَيْلَةٌ زَفَافٌ چُوفَرِي لَيْسَتْ بَعِيدَةً. ارْتَدِي شَبَكَةَ الشَّعْرِ الْفَضِيَّةِ
وَافْعَلِي كَمَا قَلْتُ لَكَ، وَبَعْدَهَا سَنَهْرٌ»، وَحَاوَلَتْ أَنْ يَطْبِعَ قُبْلَةً عَلَى وَجْهِهَا.
تَمَلَّصَتْ سَانَزَا مِنْ قَبْضَتِهِ وَخَطَّتْ بَعِيدًا عَنْهُ قَائِلَةً: «لَنْ أَفْعَلَ، وَلَنْ أَسْتَطِيعَ.
قَدْ يَقَعُ خَطَأًا مَا. لَقَدْ رَفَضْتُ أَنْ تَأْخُذَنِي عِنْدَمَا أَرَدْتُ أَنْ أَهْرَبَ، وَالْآنَ لَسْتُ
فِي حَاجَةٍ إِلَى الْهَرَبِ».

حدَّق دونتوس إليها ببلاهة، وقال: «لكن الترتيبات كلها جاهزة يا حلوتي؛ السفينة التي ستُقلِّك إلى الوطن، والقارب الذي سيحملك إلى السفينة. فارسك فلوريان فعل كل شيء من أجل جميلته چونكويل».

- «إنني آسفة لكل المتاعب التي كبَّدتك إياها، لكنني لم أعد أحتاج إلى الشُّفن والقوارب».

- «لكن كل هذا من أجل أمانك!».

- «سأكون آمنه في (هايجاردن)، ويلاس سيحافظ علي».

قال دونتوس بإصرار: «لكنه لا يعرفك ولن يُحبِّبك. چونكويل، چونكويل، افتحي عينيك الجميلتين. آل تايرل هؤلاء لا يُبالون بك على الإطلاق، ولا يرغبون إلا في الزَّواج بأحقيتك في الإرث لا بك أنت».

أحسَّت بالحيرة لحظةً وهي تتساءل: «أحقيتي؟».

قال لها: «إنك وريثة (ويترفل) يا حلوتي»، وأطبَق على ذراعها من جديدٍ مناشدًا إياها ألا تفعل هذا، وعادت سانزا تتملَّص منه وتركته يترنَّح تحت شجرة القلوب، ومنذ ذلك الحين لم تزر أيكَةَ الآلهة.

لكنها لم تنسَ كلماته كذلك، وليلاً في فراشها كانت تستعيدُها: وريثة (ويترفل)، لا يرغبون إلا في الزَّواج بأحقيتك في الإرث لا بك أنت. لقد ترعرعت سانزا مع ثلاثة إخوة، ولم يخطر لها قطُّ أن يكون لها حق في الإرث، لكن مع موت بران وريكون... لا يهمُّ، روب لا يزال موجودًا. إنه رجل ناضج الآن، وقريباً سيتزوَّج ويُنجب ابناً، وعلى كلِّ حالٍ ويلاس سيرث (هايجاردن)، فما حاجته إلى (ويترفل)؟

أحياناً تهمس باسمه إلى وسادتها كي تسمع وقعه: «ويلاس، ويلاس، ويلاس». ويلاس اسم لا بأس به كلوراس على ما تعتقد، حتى إن الاسمين قريان في النُّطق إلى حدِّ ما. ولماذا تعبأ بساقه العاجزة؟ سوف يصير سيِّد (هايجاردن) ذات يوم وتصير سيِّدته.

تخيَّلتها جالسين معاً في حديقة وفي حجرَيْهما جِراء صغيرة، أو يُنصِتَان إلى مغنٍّ يضرب أوتار عوده وهما طافيان على صفحة (الماندر) في زورق تنزّه. قد يشعُر بالحبِّ نحوَي إذا أنجبتُ له أبناءً. ستُسمِّيهم إدارد وبراندون وريكون، وتُربِّيهم على البسالة كالسير لوراس. وعلى كراهية آل لانستر أيضاً.

في أحلامها يُشبهه اثنان من أبنائها الأخوين اللذين فقدتهما تمامًا، بل وهناك فتاة شبيهة بأريا كذلك.

لكنها لا تستطيع الاحتفاظ بصورة ويلاس في عقلها طويلاً، وتطلُّ مخيلتها تُحيله إلى لوراس الشَّاب الرِّشيق الجميل. يجب ألا تُفكر في هكذا، وإلا قد يرى ويلاس خيبة الأمل في عينيك عندما تلتقيان، وكيف يتزوَّجك عندئذ وهو يعلم أنك أحببت أخاه؟ كانت تُذكر نفسها باستمرار بأن ويلاس تايرل في ضعف سنِّها، وأعرج كذلك، وربما ممتلئ أحمر الوجه مثل أبيه، لكن سواء أكان وسيماً أو لم يكن، فقد يكون النِّصير الوحيد الذي ستجده إلى جوارها.

ذات مرَّة حلَّمت بأنها هي لا مارچري التي ستزوِّج چوفري، وليلة زفافهما تحوَّل إلى الجلاَّد إلين باين، واستيقظت ترتجف. إنها لا تُريد مارچري أن تُعاني كما عانت، لكنها تتوجَّس خيفةً أيضاً من تراجع عائلة تايرل عن الزَّيجة. لقد حذَّرتها، حذَّرتها، أخبرتْها بحقيقته. ربما لا تُصدِّقها مارچري، فچوف يلعب معها دور الفارس الشجاع دومًا كما فعل مع سانزا. ستره على طبيعته عمَّا قريب، بعد الزَّفاف إن لم يكن قبله. عزمَت سانزا على أن تُشعل شمعةً لـ(الأم في الأعلى) عندما تزور السِّت المرَّة القادمة وتطلِّب منها أن تقي مارچري من قسوة چوفري، ولربما تُشعل واحدةً لـ(المُحارب) أيضاً من أجل لوراس.

قرَّرت والخيَّاطة تأخذ قياساتها الأخيرة أنها سوف ترتدي فُستانها الجديد حين تحضر مراسم الزَّفاف في (سِيت بيلور الكبير). لا بدُّ أن سرسي أمرت بتفصيله لهذا السَّبب، كي لا أرثدي شيئاً بالياً يومها. من المفترض أن ترتدي واحداً مختلفاً خلال المأدبة التي ستُقام بعدها، لكنها ستكتفي بأحد فساتينها القديمة، فليست تُريد المخاطرة بسكب الطَّعام أو التَّبذ على الجديد. يجب أن آخذه معي إلى (هايجاردن). إنها تُريد أن تبدو جميلةً في عيني ويلاس تايرل. حتى إذا كان دونتوس محقِّقاً، وحتى إذا كان يرغب في (وينترفل) وليس فيَّ أنا، فقد يعرف كيف يُحبِّثي رغم ذلك.

احتضنت سانزا نفسها بقوةً متسائلةً كم من الوقت قبل أن يجهز الفُستان، فهي لا تطيق صبراً على ارتدائه.

آريا

سقطت الأمطار وانقطعت مرارًا، لكن السماء ظلّت رماديّةً أكثر من زرقاء، وفاضت الجداول عن آخرها بالمياه.

في صباح اليوم الثالث تبينّت آريا أن الطحالب نامية في الغالب على الجانب الخاطئ من الأشجار، وقالت لجندري وهُم يمرّون بشجرة دردار نمت طحالبها بكثافة: «إننا نتحرّك في الاتجاه الخاطئ، نحو الجنوب. هل ترى الطحالب على الجذع؟».

أزاح خُصلةً من شعره الأسود الغزير عن عينيه، وقال: «نحن نتبع الطريق لأكثر، والطريق يمضي جنوبًا هنا».

أرادت أن تردّ قائلّة: «إننا نمضي جنوبًا طيلة اليوم، وأمّس أيضًا ونحن راكبون بمحاذاة ذلك الغدير، لكنها لم تكن متبهِةً لهذه الدّرجة بالأمس، وليست واثقةً تمامًا. هكذا قالت بصوتٍ خفيض: «أعتقدُ أننا ضللنا الطريق. لم يكن ينبغي أن نبتعد عن النّهر. ما كان علينا إلّا أن نتبع مجراه».

قال جندري: «النّهر ينعطف ويدور. أراهنُ أن هذا طريق أقصر فقط، طريق سريّ يسلكه الخارجون عن القانون. ليم وتوم والآخرون يعيشون هنا منذ أعوام».

عضّت آريا شفتها عالمّةً أن ما يقوله صحيح، ومع ذلك قالت: «لكن الطحالب...».

قاطعها جندري متذمّرًا: «كلُّ هذا المطر سيجعل الطحالب تنمو من آذاننا قريبًا».

ردّت بعناد: «من آذاننا الجنوبيّة فقط!». لا طائل من محاولة إقناع الثور

بأيّ شيء، لكنه يظلّ صديقها الحقيقيّ الوحيد الآن بعدما تركّهما هوت پای. كان الصّبيّ البدين قد قال لها يوم غادروا: «شارنا تقول إنها تحتاج إليّ في الخبز، وعلى كلّ حالّ لم أعد أطيق المطر وأوجاع الرّكوب والخوف طول الوقت. إن لديهم مزرّة هنا، وأرانب، والخبز سيكون أفضل عندما أصنعه. سترين لمّا ترجعين. سترجعين بعد أن تنتهي الحرب، أليس كذلك؟»، وتذكّر من هي لحظتها، فأضاف: «يا سيّدتي».

لم تدر آريا إن كانت الحرب ستنتهي أبدًا، لكنها أوّمت إيجابًا وقالت: «أسفة لأنّي ضربتك في المرّة إياها وكسرت أنفك». هوت پای أبله وجبان، لكنه قطعّ معها رحلةً طويلةً منذ (كينجز لاندنج)، وقد اعتادت وجوده. ردّ بابتسامة عريضة: «وكسرت أنف ليم أيضًا. كان هذا جيّدًا».

- «ليس هذا رأي ليم»، قالت آريا بوجوم، ثم حان وقت الذهاب، وعندما طلب هوت پای أن يلثم يد سيّدته، لكّمته في كفه قائلة: «لا تُنادني بهذا اللّقب. أنت هوت پای وأنا آري».

- «لست هوت پای هنا. شارنا تدعوني بالصّبيّ فحسب، تمامًا كما تدعو الصّبيّ الآخر. العمل هنا سيكون مُربكًا».

افتقدته آريا بدرجة أكبر مما كانت تظنّ، لكن هاروين عوّضها عنه بعض الشيء. لقد حكّت له عمّا جرى لأبيه هالن، وكيف وجدته يُحتضّر عند الاسطبلات في (القلعة الحمراء) يوم هرّبت، فقال: «كان يقول دائمًا إنه سيموت في اسطبل، لكننا حسبنا أن نهايته ستأتي بسبب فحلّ معتل المزاج، وليس قطيعًا من الأسود». حكّت له أيضًا عن يورن والهروب من المدينة، وعن كثير مما حدث منذ ذلك الحين، لكنها لم تذكّر صبيّ الاسطبل الذي قتلته بإبرتها، ولا الحارس الذي شقّت حلقة للخروج من (هارنهال)، فإخبار هاروين بشيء كهذا يكاد يكون كإخبار أبيها، وثمة أشياء لا تحتتمل أن يعرفها أبوها.

كما أنها لم تذكّر چاكن هاجار أو الميتات الثّلاث التي دان لها بها وسدّدها، أمّا العملة الحديد التي أعطها إياها فقد احتفظت بها مدسوسةً تحت حزامها، وإن كانت تُخرجها بين ليلةٍ وأخرى وتذكّر وجهه الذي ذابّ وتبدّل حين مرّ يده عليه، ثم تشرع في صلاتها بنبرة هامسة: «فالار مورجولس. السير

جريجور، دانسن، پوليفر، راف المعسول، المُدغدغ و كلب الصَّيد، السير إلين، السير مرين، الملكة سرسي، الملك چوفري».

قال لها هاروين إن ستَّة فقط من رجال (ويتترفل) تبَّقوا من العشرين الذين أرسلهم أبوها مع بريك دونداريون، وقد تفرَّقوا بعدها. «كان فحًا يا سيديتي. اللورد تايوين أرسل جبله عبر (الفرع الأحمر) بالنَّار والدَّم، علي أمل أن يستدرج أباك. كانت خطته أن يذهب اللورد إدارد غربًا بنفسه ليتولَّى أمر جريجور كليجاين، حيث كان سيقتل أو يُؤسر وتتم مبادلتَه بالعفريت، الذي كان أسير السيِّدة والدتك وقتها، لكن قاتل الملك كان يجهل خطة اللورد تايوين، ولمَّا سمع بالقبض على أخيه هاجم أباك في شوارع (كينجز لاندنج)».

قالت: «أذكرُ هذا. لقد قتل چوري». چوري الذي اعتاد أن يتسم لها دائمًا في الأوقات التي لا يقول لها فيها أن تتعد من بين الأقدام.

وافقها هاروين قائلاً: «قتل چوري، وانكسرت ساق أبيك عندما سقط حصانه عليه، فلم يستطع اللورد إدارد أن يذهب غربًا، وبدلاً من هذا أرسل اللورد بريك مع عشرين من رجاله وعشرين من رجال (ويتترفل)، وأنا من ضمنهم. وكان هناك آخرون أيضًا؛ ثوروس والسير رايمون داري ورجالهما، والسير جلاذن وايلدز، ولورد اسمه لوثار مالري، لكن جريجور كان في انتظارنا عند (مخاضة الممثلين) وقد أخفى رجاله على الضفتين، ولدى عبورنا انقضَّ علينا من المقدِّمة والمؤخِّرة في آن واحد. رأيتُ الجبل يُجنِّد رايمون داري بضربة واحدة رهيبه لدرجة أن سيفه بترَ ذراع داري عند المرفق وقتل حصانه من تحته. جلاذن وايلد مات في البُقعة نفسها معه، واللورد مالري دُعمس وغرق. كان الأسود يطوقونا، وحسبتُ أنني هالك لا محالة مع الباقين، لكن أكين رفع صوته بالأمر وأعاد النُّظام إلى صفوفنا، ومن ظلوا على خيولهم تضافروا حول ثوروس وشقُّوا طريقًا للخروج. مئة وعشرين كنا صبيحتنا، ومع حلول الظلام لم يتبقَّ أكثر من أربعين، وأصيب اللورد بريك بجرح بليغ. ليلتها اجتثَّ ثوروس من صدره قطعة من رُمح طولها قدم كامل، وصبَّ التَّيِّد المغلي في الفجوة التي خلفتها. كلُّنا كنا على يقين بأن حضرة اللورد سيموت قبل مطلع الفجر، لكن ثوروس صلَّى معه طيلة اللَّيل إلى جوار النَّار، ولمَّا حلَّ الفجر وجدناه لا يزال حيًّا وأقوى مما كان. مرَّ أسبوعان قبل أن يقوى على

امتطاء حصان، لكن شجاعته حافظت على قوّتنا، وقال لنا إن حربنا لم تنته عند (مخاضة الممثلين)، بل بدأت هناك، وإننا سننتقم لكل رجل سقط منا بعشرة منهم. عندئذ كان القتال قد تجاوزنا، فرجال الجبل كانوا يُشكّلون طليعة جيش اللورد تايوين لا غير. عبّروا (الفرع الأحمر) بقوّتهم واجتاحوا أراضي النهر مُحَرِّقِينَ كُلَّ مَا فِي طَرِيقِهِمْ. كان عددنا قليلاً للغاية، وما في وسعنا إلا أن نُغَيِّرَ عَلَى مَوْخَرْتِهِمْ، لكننا قلنا لبعضنا بعضاً إننا سننضمُّ إلى الملك روبرت عندما يزحف غرباً ليسحق تمرد اللورد تايوين. ثم إننا عرفنا بموت روبرت واللورد إدارد أيضاً، وبجلوس طفل سرسي لانستر على العرش الحديدي. قلب هذا العالم بأسره رأساً على عقب. لقد خرجنا بأمر من يد الملك للتّعامل مع الخارجين عن القانون، لكننا أصبحنا الخارجين عن القانون، واللورد تايوين يد الملك. بعضنا أراد أن يستسلم عندها، لكن اللورد بريك رفض تماماً، وقال إننا ما زلنا رجال الملك، ومن يفترسهم الأسود رعايا الملك، وإذا لم نستطع القتال من أجل روبرت فلنقاتل من أجلهم حتى آخر رجل منا، وهذا ما فعلناه. على أن شيئاً غريباً بدأ يحدث مع استمرارنا في القتال. كلُّ رجلٍ فقدناه ظهرَ اثنان ليحلاً محلّه، البعض فُرسان أو مُرافِقون من نسب كريم، لكن السّواد الأعظم من العوام؛ عمّال حقل وعازفو كمنجة وأصحاب خانات وخدم وأساكفة، بل وسپتونان، رجال من جميع الأصناف، ونساء أيضاً، وأطفال، وكلاب...».

قاطعته آريا: «كلاب؟!».

أجاب مبتسماً: «نعم، أحد صبيتنا يرعى مجموعةً من أشرس الكلاب التي سترينها في حياتك».

قالت آريا بشجن: «ليت كان لي كلب قويٌّ شرس، كلب يقتل الأسود». كانت لها ذئبة رهيبة اسمها نايميريا ذات يوم، لكنها قذفتها بالحجارة حتى هربت، لتحميها من أن تقتلها الملكة. هل يستطيع الذئب الرهيب أن يقتل أسداً؟

عادَ المطر يهطل بعد الظُّهر واستمرَّ فترةً طويلةً من المساء، لكن من حُسن الحظّ أن الخارجين عن القانون لديهم أصدقاء سرّيون في كلِّ مكان، فلم يضطُّروا للتّخيم في العراء أو البحث عن مأوى تحت سقف كوخٍ يُسرَّب الماء، كما فعلت هي وهوت باي وجندري كثيراً جداً.

ليلتها أووا إلى قريةٍ محترقةٍ مهجورة، أو أنها بدت مهجورةً إلى أن نفخَ
چاك المحظوظ مرّتين قصيرتين وأخريين طويلتين في بوق الصّيد الذي
يحمله، فخرجَ أناس من مختلف الأنواع من وسط الخرائب وصعدوا من
أقبية خفيّة. قدّموا لهم المِزر والتّفاح والقليل من خُبز الشعير البائت، وكان
مع الخارجين عن القانون إوزة اصطادها أنجاي في طريقهم، فبدا العشاء
ليلتها أقرب إلى وليمة.

كانت آريا تمتصُّ آخر قطعةٍ من اللحم من على جناح، عندما التفت أحد
القرويين إلى ليم ذي المعطف الليموني قائلاً: «قبل أقل من يومين مرّ رجال
من هنا باحثين عن قاتل الملك».

ردّ ليم ساخراً: «أفضل لهم أن يبحثوا في الزنازين العميقة في (ريقرن)
حيث الرطوبة الجميلة». كان أنفه يبدو كتفاحة مسحوقة وقد احمرّ وتورّم،
وهو ما عكّر مزاجه كثيرًا.

قال قرويٌّ آخر: «لا، لقد هرب».

قاتل الملك. أحست آريا بالشعر على مؤخرة عنقها ينتصب، وحبست
أنفاسها لتُنصت.

قال توم أبو السبعات: «أيمكن أن يكون هذا صحيحًا؟».

- «لن أصدّق»، قال الأعور ذو الخوذة الكبيرة الصّدئة الذي يدعوه
الآخرون بچاك المحظوظ، وإن لم تعدّ آريا فُقدان إحدى عينيه حَظًا طيبًا.
«لقد جرّبت مذاق تلك الزنازين ذات مرّة، فكيف يهرب؟».

لم يملك القرويون إجابةً غير همز الكتفين، فملّس ذو اللحية الخضراء على
شعر وجهه الأخضر والرّمادي، وقال: «سيغرق الذئب في الدّم إذا عادَ قاتل
الملك طليقًا. لا بُدّ من إخبار ثوروس كي يُريه إله الضياء لانستر في اللهب».

قال أنجاي مبتسمًا: «ثمّة نار لا بأس بها هنا».

ضحك ذو اللحية الخضراء ولطم القوّاس على أذنه قائلاً: «هل أبدو

راهبًا؟ عندما يتطلّع ييلو التايروشي إلى اللهب تحرق الجذوات لحيته».

طرقَ ليم مفاصل أصابعه، وقال: «لكم سيحبُّ اللورد بريك أن يقبض
على قاتل الملك...».

سألت إحدى نسوة القرية: «هل سيَشْتَقُّه يا ليم؟ سيكون من المؤسف أن يَشْتَقُّ واحدًا وسيَمًا مثله».
 أعلن أنجاي: «المحاكمة أولاً! اللورد بريك يُحاكِمهم أولاً دائماً كما تعلمين»، وابتسم مضيئاً: «ثم يَشْتَقُّهم».
 عمَّ الضحك بين الحاضرين، ثم إن توم مرَّر أصابعه على أوتار قيثارته الخشب واستهلَّ أغنيةً هادئةً.

إخوة غابة الملوك
 كانوا جماعةً من الأشقياء
 كانت الغابة قلعتهم
 لكنهم جابوا كلَّ الأنحاء
 ولم يسلم منهم ذهب رجل
 أو يد عذراء
 أوه، إخوة غابة الملوك
 كانوا جماعةً من الأشقياء

أصغت آريا إلى الغناء فترةً وهي جافةٌ دافئةٌ في رُكن بين جندي هاروين، قبل أن تُغلقَ عينيها وتغيب رويداً في النوم. حلّمت ليلتها بالديار، ليس بـ(ريفرزن) وإنما (ويتترفل)، بيد أنه لم يكن حلماً جيّداً.
 وحدها خارج القلعة، غائصة حتى رُكبتها في الوحل، ترى الأسوار أمامها، لكن كلَّ خطوةٍ بدت أصعب من سابقتها عندما حاولت أن تبلغ البوابة، وبهتت القلعة أمام عينيها حتى أصبحت أدنى إلى الدُخان من الجرانيت. ورأت ذئباً أيضاً، أجساماً رماديةً ناحلةً تنسلُّ وسط الأشجار بأعينٍ برّاقة من كلِّ جهةٍ حولها، وكلما تطلّعت إليها تذكّرت مذاق الدّم.
 في اليوم التّالي تركوا الطّريق ليمضوا عبر الحقول، بينما هبّت الرّيح دافعةً ورق الشّجر البني في دَوّاماتٍ حول حوافر خيولهم، لكن السّماء لم تُمطر على الأقل، وحين بزغت الشّمس من وراء سحابةٍ سطّع نورها بشدّةٍ جعلت آريا ترفع قلنسوتها لتقي عينيها.

جذبت عنان حصانها على حين غرة معلنة: «نحن ذاهبون في الاتجاه الخاطئ!».

دمدم جنجري: «الطحالب ثانية؟».

ردت آريا: «انظر إلى الشمس! إننا ذاهبون جنوبًا!»، ونقبت في جراب السرج عن الخريطة لكي تُريهم مواصلة: «لم يكن ينبغي أن نبتعد عن (الثالوث). انظروا»، وبسطت الخريطة على ساقها والجميع ينظرون إليها، وأشارت قائلة: «انظروا، ها هي (ريقرن) بين التهرين».

قال چاك المحفوظ: «يتصادف أن جميعنا يعرف موقع (ريقرن)». كنتُ قد أوشكتُ على الوصول. كان حريًا بي أن أتركهم يأخذون الخيول وأمشي بقية الطريق. تذكّرت حلمها لحظتها وعصت شفتها. قال توم سبعة أوتار: «آه، لا تبدي جريحة هكذا أيتها الصغيرة. لا أذى سيمسك، لك كلمتي». - «كلمة كذاب!».

قال ليم: «لا أحد كذب. إننا لم نعد بشيء، وليس لنا أن نقرّر ما يفعل بك». لكن ليم ليس القائد، ولا توم، بل هو ذو اللحية الخضراء، الذي التفتت آريا تجاهه قائلة بيأس: «خذوني إلى (ريقرن) وستكافؤون». أجابها التايروشي: «أيتها الصغيرة، قد يسلخ الفلاح سنجابًا عاديًا من أجل طعامه، لكن إذا وجد سنجابًا ذهبيًا على شجرته فإنه يأخذه إلى سيده، وإلا تمّنى لو أنه فعل».

قالت آريا بإصرار: «لستُ سنجابًا».

قال ذو اللحية الخضراء ضاحكًا: «بل أنتِ كذلك، سنجاب ذهبي صغير في الطريق لرؤية سيّد البرق، شئت أم أبيت. سيعرف ماذا يفعل بك، وأراهن أنه سيُعيدك إلى السيّدة والدتك كما ترغيبين».

أومأ توم سبعة أوتار برأسه إيجابًا، وقال: «نعم، هذه شيمة اللورد بريك. سيُعاملِك كما يليق، سترين».

اللورد بريك دوندايون. تذكّرت آريا كل ما سمعته في (هارنهال) من جنود لانستر ومن الممثلين السّفاحين. اللورد بريك طيف الغابات، اللورد بريك الذي قتله فارجو هوت، وقبله السير آموري لورك، والجبل راكب

الخيول مرّتين. إذا لم يُعدني إلى الديار فلربما أقتله بدوري. سألت بهدوء: «لِمَ يجب أن أرى اللورد بريك؟».

أجابها أنجاي: «إننا نذهب إليه بجميع الأسرى أولاد الذوات». الأسرى. التقطت آريا نفساً عميقاً لثبّت روحها المضطربة. بهدوء المياه الرّاكدة. نظرت إلى الخارجين عن القانون على خيولهم وأدارت رأس حصانها قائلة لنفسها: الآن، بسرّعة الثعبان، وبكلّ قوتها همزت جانبَي الحصان بكعبيها، وانطلقت كالسهم بين التايروشي وچاك المحفوظ، ولمحت النظرة المبهوتة على وجه جندي إذ ابتعدت فرسه عن طريقها، ثم إنها خرجت إلى الحقل المفتوح وراحت تجري.

شمالاً أو جنوباً، شرقاً أو غرباً، لا يهمّ الآن. يُمكنها أن تجد (ريفررن) لاحقاً بعد أن تهرب منهم. مالت آريا إلى الأمام وحثّت الحصان على الهرولة، ومن ورائها كان الخارجون عن القانون يسبون ويزعقون فيها أن تعود، فغضّت سمعها عن نداءهم، لكن حين ألقت نظرةً من فوق كتفها رأت أربعةً منهم يندفعون في أعقابها، أنجاي وهاروين وذو اللحية الخضراء جنباً إلى جنب، وليم وراءهم بمسافةٍ ومعطفه الأصفر يخفق على كتفيه. قالت لحصانها: «بسرّعة الغزال. اركض، اركض!».

اخترقت آريا حقولاً بيّنةً متخمةً بالحشائش، وصفوفاً من أعواد الكلا تترفع حتى خاصرتها، وأكواماً من أوراق الأشجار الجافة ثارت وطارَت إذ مرق الحصان بالقرب منها. أبصرت غابةً إلى يسارها، ففكرت: يُمكنني أن أضلّلهم هناك. كانت قناة جافةٍ تمضي على حافة الحقل، لكنها وثبت فوقها دون أن تحدد من سرعتها، واندفعت وسط دغل أشجار الدردار والطقسوس والبتولة، قبل أن تلقي نظرةً سريعةً وراءها لترى أنجاي وهاروين ما زالوا في أثرها بإصرار، وقد سبقا ذا اللحية الخضراء وغاب ليم عن النّظر تماماً، فقالت لحصان: «أسرع، يُمكنك أن تفعلها، يُمكنك أن تفعلها».

اندفعت بين شجرتي دردار ولم تتوقّف لحظةً لترى على أيّ جانب تنمو الطحالب، ووثبت فوق جذع ميت ودارت حول مصيدة حيوانات شنيعة المنظر محرّزةً بالغصون المكسورة، ثم صعّدت منحدرًا بسيطًا ونزلت على الجانب الآخر مبدلةً حركتها من البطء إلى السّرعة، وقد تطاير الشرر من جراء

احتكاك حدود الحصان بأحجار الصَّوَّان تحتها. على قَمَّة الهضبة عَادَت تَنْظُر وراءها، ورأت هاروين سابقاً آنجاي لكن الاثنين ما زالا منطلقين بأقصى سُرعة، بينما ابتعد ذو اللِّحية الخضراء أكثر وبدأ أنه كَلَّ.

عاقَ جدول طريقها، لكنها خاضت في مياهه المخنوقة بورق الشَّجر الميت، الذي علِقَ القليل منه بسيقان حصانها لما خرجت على الجانب الآخر. وجدت الأرض هنا مكتظةً بالجذور والصُّخور حتى إنها اضطرت لأن تُبطئ حركتها، وإن ظَلَّت مسرعةً بقدر ما تجرؤ. هضبة أخرى أكثر انحداراً صعَدتها ونزلتها، فتساءلت: كم حجم هذه الغابة؟ إنها تعلم أن معها الحصان الأسرع، فقد سرقت واحداً من أفضل جياذ روس بوتون من الاسطبلات في (هارنهال)، لكن سُرعته مبددة ها هنا. يجب أن أجد الحقول من جديد، يجب أن أجد طريقاً. بدلاً من هذا وجدت درب فرائس ضيقاً وعراً، لكنه أفضل من لا شيء. انطلقت عليه لتجلدها الغصون على وجهها، واشتباك أحدها بقلنسوتها وسحبها إلى الوراء، فخشيت لحظةً أنهم أمسكوها، وهرعت ثعلبة من وسط الشُّجيرات وقد أجفلتها انطلاقتها العنيفة. أخيراً أفضى بها درب الفرائس إلى جدولٍ آخر، أم أنه الجدول الأول؟ هل دارت حول نفسها؟ لم تجد وقتاً للتفكير وهي تسمع خيولهم تخترق الأشجار من ورائها. خدشت الأشواك وجهها كالقِطط التي اعتادت مطاردتها في (كينجز لاندنج)، وتفجرت العصفير من فروع شجرة جار الماء أمامها، لكن كثافة الأشجار بدأت تقلُّ، وفجأةً وجدت نفسها خارج الغابة، تمتدُّ الحقول الواسعة المستوية أمامها وقد وُطِئَ ما نما فيها من حشائش وقمح بريٍّ وتشعَّع بالماء، فعادت آرياً تركل الحصان ليستأنف الرِّكض مفكرةً: اركض، اركض إلى (ريفررن)، إلى الدِّيار.

هل ضللتهم؟ ألقَت نظرةً واحدةً إلى الوراء، وإذا بهاروين لا يبعُد أكثر من ستِّ ياردات ويقرب. لا، ليس هو، ليس هذا عدلاً. كانت الرِّغوة⁽¹⁾ تُغرِقُ كلا الحصانين المنهكين حين وجدت هاروين إلى

(1) عندما تعرق الخيول نتيجةً للمجهود الشَّديد، تخرُج من مسامها مادةٌ رغويَّة يتسبَّب بروتين معين في إفرازها. (المترجم).

جوارها يمدُّ يده ويُطَبِّق على لجامها، وكانت آريا نفسها تلهث بقوةٍ عندئذٍ وقد أدركت أن القتال انتهى. قال هاروين لَمَّا أوقفَ الحصانين: «تركبين كشماليَّة حَقَّة يا سيِّدتي. عمَّتِك كانت هكذا، الليدي ليانا، لكن تذكِّري أن أبي كان قيِّم الخيل».

رمقته بنظرةٍ جريحةٍ للغاية وهي تقول: «حسبتك رجل أبي».

- «اللورد إدارد مات يا سيِّدتي، والآن أتمني إلى سيِّد البرق، وإلى إخوتي».

- «أي إخوة؟». هالان العجوز لم يُنجب إلا هاروين على حدِّ علمها.

- «آنجاي وليم وتوم أبو السَّبعات وچاك وذو اللحية الخضراء، كلهم. نحن لا نُضمِر أذىً لأخيك روب يا سيِّدتي... لكننا لا نُقاتل من أجله. إن لديه جيشًا ولوردات عظامًا يركعون له، لكن العاقبة ليس لهم غيرنا»، وحدجها بنظرةٍ متسائلةٍ مردفًا: «هل تفهمين ما أقوله لك؟».

- «نعم». تفهم تمامًا أنه ليس رجل روب، وأنها أسيرته. كان يُمكن أن أبقى مع هوت باي، ثم نُبحر بالقارب الصَّغير إلى (ريقرن). لقد كانت أفضل حالًا وهي الكتكوت، فلا أحد سيهتُم بأن يأخذ الكتكوت أسيرةً، أو نان، أو بنت عرس، أو آري الصَّبي اليتيم. كنتُ ذئبةً، والآن عدتُ ليدي صغيرةٍ سخيفةٍ مجددًا.

سألها هاروين: «هل ستركبين بهدوء أم أن عليَّ أن أقيِّدك وأضعك على حصانك بالعرض؟».

أجابت بكآبة: «سأركبُ بهدوء». في الوقت الحالي.

سامويل

متحجباً، أخذَ سامُ حُطوةً أُخرى. إنها الحُطوة الأخيرة، الأخيرة على الإطلاق، لا أستطيعُ الاستمرار، لا أستطيعُ. لكن قدميه تحرَّكتا، واحدة ثم الثانية، وأخذتا حُطوةً أُخرى، ثم أُخرى، ففكر هو: هاتان ليستا قدمي، بل قدما أحدٍ غيري، أحدٍ غيري يمشي، لا يُمكن أن يكون أنا. نظرَ إلى أسفل وراهما تتقدَّمان متعثرتين في الثلوج كشيئين لا شكل لهما يتحرَّكان بِحَرَقٍ وتخبُّطٍ، وأنبأته ذكرى بعيدة بأن حذاءه كان أسود، لكنه مغلَّف الآن بكتلةٍ صلدة من الثلج جعلت كلَّ فرديَّة تبدو ككرةٍ بيضاء مشوَّهة، كأنهما قدما موعجتان صُنعتا من الجليد.

لم يتوقَّف الثلج عن الانهمار وارتفعت أكوامه حتى رُكبتني سام، الذي غطَّت قشرة من الأبيض أسفل ساقيه كأنها تُدرِّعهما، وتلخَّصت حُطاه في جرجرة قدميه والترُّنج، وقد جعلته الصُّرَّة الثقيلة التي يحملها يبدو كأحدب عملاق، وكل هذا علاوةً على تعبه العاتي. لا أستطيعُ الاستمرار، رُحماك يا أمنا، لا أستطيعُ.

عليه بعد كلِّ أربع أو خمس حُطوات أن يمدَّ يده إلى حزام سيفه ويرفعه. كان قد فقدَ سيفه على قَمَّة (القبضة)، لكن الغمد ما زال يُثقل الحزام، كما أن معه سكينين؛ الخنجر المصنوع من زجاج التَّنين الذي أعطاه چون إياه، والثاني الفولاذي الذي يُقَطَّع به اللحم. هكذا ظلَّ الثقل يجرُّ الحزام إلى أسفل من حول بطنه الكبير المستدير، وإذا نسي أن يرفعه فسيَسْقُطُ وينعقد حول كاحليه مهما ثبَّته بإحكام. في مرَّةٍ حاولَ أن يربطه فوق بطنه، لكنه كادَ يبلُغ

إبطيه، وانفجر جرن ضاحكًا بقوةً بينما قال إد الكتيب: «عرفت رجلًا يُعَلِّق سيفه في سلسلةٍ حول عنقه هكذا، وذات يوم تعثر فدخل المقبض في أنفه». والآن يمشي سام نفسه متعثراً، فتحت الثلج صخور وجذور أشجار، وأحياناً حُفر عميقة في الأرض المتجمّدة، وفي واحدةٍ منها خطا برنار الأسود وكسر كاحله قبل ثلاثة أيام، أو ربما أربعة، أو... لا يدري كم مرَّ منذ ذلك الحين حقًا، لكن حضرة القائد وضع برنار على حصان.

منتحِبًا، أخذ سام خطوةً أخرى شاعرًا كأنه يهوي ولا يمشي، يهوي بلا نهاية لكن لا يرتطم بالأرض أبدًا، فقط يهوي ويهوي إلى الأمام. يجب أن أتوقّف، الألم شديد. إنني في غاية البرد والإرهاق وأحتاج إلى النوم، القليل من النوم إلى جوار النار ولقمة طعام ليست متجمّدة.

لكن إذا توقّف فهو ميّت. هو يعلم هذا والكلُّ يعلم هذا، كلُّ من في القلّة التي تبقت. كانوا خمسين عندما فرّوا من (القبضة)، وربما أكثر، لكن بعضهم تاه وسط الثلوج، وبعض الجرحى نَزَفَ حتى الموت... وأحيانًا يسمع سام صياحًا من ورائه من عند حرس المؤخّرة، وذات مرّة سمع صرخةً شنيعةً دفعته إلى العدو نحو عشرين أو ثلاثين ياردة، أطول مسافة استطاع أن يقطعها بأقصى سرعةٍ لديه، وراحت قدماه نصف المتجلدتين ترُكَّان الثلج، ولو أن ساقيه أقوى لكان يعدو حتى الآن. إنهم وراءنا، ما زالوا وراءنا، يصطادونا واحدًا واحدًا.

منتحِبًا، أخذ سام خطوةً أخرى. لقد طال شعوره بالبرد كثيرًا حتى إنه بدأ ينسى معنى الدّفء. كان يرتدي ثلاثة جوارب على كلِّ قدم، وطبقتين من الثياب الداخليّة تحت قميص مزدوج من صوف الحِملان، وفوق هذا سِترة مبطنة تمنع عنه برودة قميص الحلقات المعدنيّة، الذي ارتدى فوقه سِترة قصيرة فضفاضة، وفوقها معطفًا ثلاثي السّمك ذا زرٍّ من العظم يُغلقه بإحكام تحت ذقنه المترهّل، وقد رفع القلنسوة على رأسه، وثبتت على يديه قفّازين ثقيلين من الفرو فوق القفّازين الخفيفين المصنوعين من الصُوف والجلد، ولف وشاحًا حول نصف وجهه السفلي، بالإضافة إلى قَبعة ضيّقة مبطنة بصوف الخراف شدّها فوق أذنيه تحت القلنسوة... ومع كلِّ هذا كان البرد يَنخر عظامه ويستوطن قدميه تحديدًا. إنه لا يَشعر بهما الآن، لكنهما

أوجعته أمس لدرجة جعلته يكاد لا يطيق الوقوف عليهما، ناهيك بالمشي. أكان هذا أمس؟ لا يمكنه أن يتذكر. إنه لم ينم منذ (القبضة)، ولا مرة منذ نُفِخَ في البوق، ما لم يكن نامٌ وهو يمشي. هل يمكن أن يمشي أحد وهو نائم؟ لا يعرف سام الإجابة، أو ربما نسيها.

متحجّبًا، أخذَ سامُ خُطوةً أخرى ونُدْفَ الثلجَ تَسْقُطُ دائرةً في دَوَامَاتِ حوله، تأتي من سماء بيضاء حينًا وحينًا من سماء سوداء، لكن هذا هو كل ما تَبَقِيَ من النَّهارِ واللَّيلِ، والآن صارَ يرتدي الثلجَ على كتفيه كمعطف ثانٍ، كما تَكْوُمُ عاليًا على الصُّرَّةِ التي يحملها وجعلها أثقل وأصعب حملًا. في أسفل ظهره ألمٌ مُمِضٌ كأنَّ أحدًا أغمَدَ فيه سكينًا وأخذَ يهزُّه مع كلِّ خُطوةٍ، وفي كتفيه ألمٌ مبرِّحٌ من ثِقَلِ القميصِ المعدني. يُمكنه أن يدفع أيَّ ثمنٍ كي يخلعه، إلا أنه يخشى أن يفعلها، ثم إن عليه أن يخلع معطفه وسُترته أولاً ليصل إليه، وعندها سينال منه البرد.

ليتني كنتُ أقوى... لكنه ليس أقوى، ولا جدوى من التَّمَنِّي. سام ضعيف، وسمين، سمين للغاية، وبالكاد تحتل ساقاه ثقله، والقميص المعدني كثير عليه، كثير جدًا، ويحسُّ كأنه يكشط كتفيه على الرغم من طبقات القماش والبطانة بين الفولاذ والجلد. ما بيده حيلة إلا البُكاء، وإذا بكى تجعَّدت دموعه على وجنتيه.

متحجّبًا، أخذَ سامُ خُطوةً أخرى، لتتكسّر قشرة الجليد تحت قدميه كلما خطا. بعيدًا إلى اليمين واليسار استحالت المشاعر إلى هالاتٍ برتقاليَّةٍ غامضة وسط الثلج المتساقط، تكاد تخبو بين الأشجار الصّامته، ولَمَّا دارَ برأسه رآهم ينسلون ذهابًا وإيابًا هنا وهناك، فذكر نفسه: حلقة نيران الدُّبِّ العجوز، وويل لمن يُغادرها. بدا له وهو يسير كأنه يُطارِدُ المشاعر التي تسبقه، لكن لهذه المشاعر سيقانًا أيضًا، أطول وأقوى من ساقيه، فلن يبلُغها أبدًا.

أمس توَسَّلَ إليهم أن يجعلوه واحدًا من حاملي المشاعر، حتى إذا كان هذا يعني أن يتحرَّك خارج الطابور بينما يُطبِقُ الظلام. كان يتجمد شوقًا إلى النَّارِ، يحلُمُ بالنَّارِ، لكن أحدًا ذكَّره بأنه حملٌ مشعلًا في البداية وأسقطه في الثلج فهمدَّت ناره. لم يتذكر سام أنه أسقطَ مشعلًا، وإن افترض أن ما قيل حقيقي، فهو أضعف من أن يظلَّ رافعًا ذراعه طويلًا. أهو إذ الذي ذكَّره

بالمشعل أم جرن؟ ذلك أيضًا لا يذكره. سمين وضعيف وعديم الفائدة، حتى عقلي يتجمد الآن.

أخذ سام خطوةً أخرى.

كان قد لفَّ وشاحه حول فمه وأنفه، لكنه مغطَّى بالمخاط الآن، ومتيبس لدرجةٍ يخشى معها أنه تجمَّد على وجهه. حتى التنفس عسير، والهواء بارد للغاية وكلما استنشقه ألمه. تتمَّ بصوتٍ مكتومٍ مبحوحٍ من تحت القناع المتجمد: «رُحماكِ يا أمنا، رُحماكِ يا أمنا، رُحماكِ يا أمنا». مع كلِّ دعاءٍ أخذ خطوةً أخرى وجرَّ قدميه في الثلج. «رُحماكِ يا أمنا، رُحماكِ يا أمنا، رُحماكِ يا أمنا».

أمه هو تبعد ألف فرسخ في الجنوب، آمنة مع أخواته وأخيه الصَّغير ديكون في القلعة في (هورن هيل). لا يمكنها أن تسمعني هنا، لا هي ولا (الأم في الأعلى). كل السِّتونات متفقون على رحمة (الأم)، لكن الآلهة السبعة لا سلطان لهم وراء (الجدار). هنا تحكُم الآلهة القديمة، آلهة الأشجار والذئاب والثلوج التي ليست لها أسماء. هكذا همس لمن كان سميعًا الآن، للآلهة القديمة أو الجديدة، أو حتى الشياطين: «الرحمة، أوه، رحمة بي، رحمة بي، رحمة بي».

مازلين صرخ متوسلاً بالرحمة. لماذا تذكر هذا فجأة؟ إنه ليس بالشيء الذي يُريد أن يتذكره. لقد تعثر الرَّجل إلى الورا وأسقط سيفه، استجدى وأعلن استسلامه، بل وخلع قفازه الأسود السميك ولوَّح به أمامه كما يستسلم الفرسان، وكان لا يزال يعوي طالبًا بالرحمة عندما رفعته الجثة الحيَّة في الهواء من خلفه وكادت تنزع رأسه من عنقه. الموتى لم تبتق فيهم رحمة، و(الآخرون)... كلا، يجب ألا أفكر في هذا، لا تفكر، لا تتذكر، امش فقط، امش فقط، امش فقط.

منتحبًا، أخذ خطوةً أخرى.

اصطدم إصبع قدمه بجذر متوار تحت قشرة الجليد، وتعثر سام وسقط على ركبته بعنف جعله يعضُّ لسانه، وأحسَّ بمذاق الدماء في فمه أدفأ من أيِّ شيء ذاقه منذ (القبضة). إنها النهاية. الآن وقد سقط فلا يبدو أن فيه طاقة تكفي للنهوض من جديد. مدَّ يده إلى فرع شجرة وأطبق عليه محاولاً أن

يسحب نفسه إلى أعلى، لكن ساقيه المتيبّستين لم تحتملا وزنه. المعدن ثقيل جدًا، وهو بدين جدًا، وضعيف جدًا، ومنهك جدًا.

- «على قديمك أيها الخنزير»، دمدّم أحدهم وهو يمرُّ به، لكن سام لم يتبه له. سأتمدّد في الثلج وأعلقُ عينيّ. لن يكون الموت هنا بذلك الشؤء، فلن يشتدّ البرد الذي يكتفه أكثر، وبعد فترة قصيرة سيغيب الألم الرّهب في أسفل ظهره وكتفيه، ولن يشعُر بقدميه. لن أكون أول من يموت، لن يقولوا إنني كنتُ أول الموتى. عشرات ماتوا فوق (القبضة)، ماتوا في كل حذب وصوب حوله، وبعينيهِ رأى المزيد يموتون بعدها. مرتجفًا، تخلّى سام عن فرع الشجرة وقعد ببطء في الثلج، ومع أنه بارد مبتل فلم يشعُر به إلا قليلًا عبر طبقات ثيابه. رمق السماء البيضاء الشاحبة بينما تساقطت رقائق الثلج على بطنه وصدره وجفنيه. سيغطيني الثلج كدثار أبيض سميك. سأحسُّ بالدّفء تحت الثلج، وإذا تكلموا عني فعليهم أن يقولوا إنني متُّ رجلًا في حرس الليل. نعم، نعم، لقد أدّيْتُ واجبي. لا أحد يُمكنه أن يقول إنني حنثُ بقسمي. إنني بدين وضعيف وجبان، لكنني أدّيْتُ واجبي.

كانت الغدغان مسؤوليته، ولهذا السبب جلبوه معهم. لم يكن يُريد أن يذهب، وهذا ما قاله للجميع، أخبرهم كم هو جبان كبير، لكن لأن المايستر إيمون مسنٌّ وضرير، كان على سام الذهاب بدلًا منه ليُعنى بالغدغان. حين نصبوا معسكرهم على قمّة (القبضة) أملى عليه حضرة القائد أوامره قائلاً: «كلانا يعلم أنك لست مُقاتلاً يا فتى، وإذا حدث أن هوجمنا فلا تُحاول إثبات العكس لأنك ستعترض الطريق لا أكثر. سيكون عليك أن ترسل رسالة، ولا تجري إليّ لتسأل عن محتواها. اكتبها بنفسك، وأرسل طائرًا إلى (القلعة السوداء) وآخر إلى (برج الظلال)»، وأشار الذب العجوز بإصبعه إلى وجه سام مباشرةً مضيفًا: «لا أبالي إن كنت خائفًا لدرجة أن تبول على نفسك، ولا أبالي إن كان ألف همجي يتسلّقون الأسوار مستهدينك أنت تحديدًا. سترسل هذين الطائرَيْن وإلا أقسمُ أن أطاردك عبر الجحائم السبع كلها وأجعلك تأسف لأنك لم تفعل.»

حرّك غداف مورمونت رأسه من أعلى إلى أسفل، ونعّب: «تأسف، تأسف، تأسف!».

لكن سام آسف، آسف لأنه ليس أشجع أو أقوى أو يُجيد المبارزة، لأنه لم يكن ابنًا أصلح لأبيه وأخًا أفضل لديكون والفتيات، وآسف أيضًا لأنه سيموت، لكن رجالًا أفضل منه ماتوا على (القبضة)، رجالًا صالحين ثابتين وليسوا صبيبةً سمانًا مذعورين مثله. على الأقل لن يُطارده الذب العجوز في الجحيم. أرسلتُ الطائرَين، فعلتُ هذا بشكل صحيح على الأقل. كان قد كتب نُسختين مسبقًا، رسالة قصيرة بسيطة تُنبئُ بهجوم على (قبضة البشر الأوائل)، ثم إنه دَسَّهما في جراب الرقوق وهو يأمل ألا يضطرَّ إلى إرسالهما أبدًا.

كان سام نائمًا حين دَوَّت الأبوq، وحسب أنه يحلم في البداية، لكن لما فتح عينيه رأى الثلوج تسقط على المعسكر والإخوة السود يلتقطون الأقواس والحراب ويهرعون إلى السور الدائري. لم يكن على مقربة منه إلا تِشت، وكيل المايستر إيمون العجوز بوجهه المليء بالبثور والكيس الدهني الكبير على رقبته. لم ير سام رُعبًا كهذا على وجه رجل عندما جاءت نفخة البوق الثالثة كالأنين عبر الأشجار، لكنه ناشده قائلاً: «سَاعِدني على إرسال الطيور»، إلا أن الوكيل الآخر دارَ وابتعدَ جريًا وخنجره في يده، فقال سام لنفسه وقد تذكَّر: عليه أن يُعنى بالكلاب. لا بُدَّ أن حضرة القائد أعطاه أوامره بدوره.

أحسَّ بأصابعه يابسةً خرقاء تمامًا داخل القفازين، وارتعدت فرائصه خوفًا وبردًا، لكنه وجد جراب الرقوق وأخرج الرسائلَين. كانت الغدقان تصرُخ بمتهمي العُنف، وحين فتحَ قفص (القلعة السوداء) طارَ أحدها في وجهه مباشرةً، وفَرَّ اثنان إضافيان قبل أن يستطيع الإمساك بواحدٍ منها، ولما فعلَ نقرَ الطائرَ يده عبر القفاز وأدماها، وعلى الرغم من ذلك ثابَرَ سام حتى ثبتت لُفافة الرقوق الصغيرة بقدمه. كان بوق الحرب قد صمتَ حينئذٍ، لكن (القبضة) ضجَّت بالزُعيق الأمر وصيليل الفولاذ، وألقى سام الغداف في الهواء صائحًا: «طِر!».

أمَّا طيور قفص (بُرج الظلال) فكانت تصرُخ وتُرفرف بهياج جنوني حتى إنه خاف أن يفتح الباب، لكنه أجبر نفسه في النهاية، وهذه المرأة أمسك بأول غداف حاول الفرار، وبعد لحظاتٍ كان الطائر يُحلق في الثلج المتساقط حاملًا خبير الهجوم.

هكذا وقد أدَّى ما عليه من واجب، أكمل ارتداء ملبسه بأصابع مرتعشة خرقاء، فارتدى قبعته وسُترته ومعطفه ذا القلنسوة، وشدَّ حزام السيف على

خاصرته عن آخره كي لا يسفط، ثم إنه عثر على صبرته وأتخمها بحاجياته كلها؛ الثياب الداخلية الإضافية والجوارب الجافة، ورأس الحريرة ورؤوس السهام المصنوعة من زجاج التين التي أعطاها جون إياها، ومعها البوق القديم والرقوق والأحبار وريش الكتابة والخراط التي كان يرسمها، بالإضافة إلى لفافة جامدة كالصخر من الشجق بالثوم يحتفظ بها منذ (الجدار). ربط الصرة بإحكام ورفعها على ظهره مفكراً: حضرة القائد قال ألا أهرع إلى السور، لكنه قال ألا أهرع إليه كذلك. التقط نفساً عميقاً وقد أدرك أنه لا يدري ما عليه أن يفعله الآن.

يتذكر أنه دارَ حول نفسه شاعراً بالصياح والخوف يتنامى في فؤاده كما يفعل دائماً. كانت الكلاب تنبح والخيول تصهل، لكن الثلوج كتمت الأصوات وجعلتها تبدو بعيدة، ولم يرَ سام شيئاً أمامه أبعد من ثلاث ياردات، ولا حتى المشاعل الموقدة على محيط السور الحجري الواطئ الذي يطوق قمة التل. هل انطفأت المشاعل؟ وجد الخاطر مخيفاً لدرجة لا تحتمل التفكير. البوق دوى ثلاث مرات، ثلاث نفخات طويلة معناها (الآخرون). مُشاة الغابة البيض، الظلال الباردة، وحوش الحكايات الذين جعلوه يصرخ ويرتعد في طفولته، يمتطون عنابهم الجليدية العملاقة، جوعى للدم... بحرق سحب سيفه ورفعته متحرّكاً بتثاقل وسط الثلوج. مرَّ به كلب يعدو نابحاً، ورأى بعض رجال (برج الظلال) الكبار الملتحين بفؤوسهم ذات المقابض الطويلة وحرابهم البالغة ثمانية أقدام طولاً، فأحسَّ بأمان أكثر في صُحبتهم وتبعهم إلى السور، ولما رأى المشاعل موقدة ما زالت فوق حلقة الحجارة سرت فيه رعدة راحة.

وقف الإخوة السود وفي أيديهم الشيوف والحراب، يُراقبون سقوط الثلج وينتظرون، بينما مرَّ السير مالادور لوك على حصانه معتمراً خوذة رقطها الأبيض. توقف سام على مسافة لا بأس بها وراء الآخرين، وراح ييحث بناظره عن جرن أو إدا الكتيب ويُفكر: إذا كان الموت محتوماً، فلائمت إلى جانب أصدقائي، لكن كلَّ من حوله كانوا غرباء، رجالاً من (برج الظلال) تحت قيادة الجوال المدعو بلين.

سمع أنحاً يقول: «ها هم قادمون».

قال بلين: «ثَبَّت»، فَسَحِبَ عشرون سَهْمًا من عشرين كنانة وثَبَّتوا إلى عشرين وتر.

تناهى إلى سمعه صوت يقول بخفوت: «بَحَقَّ الآلهة، إنهم مئات». - «اسحب»، قال بلين، ثم: «اثبت». لم يرَ سام شيئًا ولم يرغب في الرؤية، ووقفَ رجال حرس الليل وراء مشاعلهم ينتظرون بسهام مسحوبة حتى الأذان، ثم ظهر شيء ما على المنحدر الزلق وسط الثلوج، وكَرَّر بلين: «اثبت. اثبت. اثبت»، ثم: «أطلق». وحلقت السهام هامة.

تصاعد هتاف خشن من الرجال عند السور الدائري، لكنه سرعان ما مات، وقال رجل بلين: «إنهم لا يتوقفون يا سيدي»، وصاح آخر: «المزيد! انظروا هناك، إنهم قادمون من بين الأشجار»، وقال ثالث: «برحمة الآلهة، إنهم حشود! يكادون يبلغوننا! إنهم هنا!».

كان سام يتراجع مرتجعًا كآخر ورقة على شجرة عندما تشتد الرياح، يرتجف من البرد بقدر ما يرتجف من الخوف، ولقد كان البرد رهيبًا ليلتها. أبرد من الآن. الثلج يكاد يكون دافئًا، وأشعرُ أي أفضل الآن. لم أكن محتاجًا لأكثر من قليل من الراحة، وربما بعد قليل أجد في نفسي القوة لمعاودة المشي، بعد قليل.

مرَّ به حصان رمادي أشعث كسا الثلج غُرَّتَه والجليد حوافره، وشاهده سام يأتي ويذهب، قبل أن يبرز آخر من وسط الثلوج يقوده رجل يرتدي الأسود، ولمَّا رأى سام في طريقه أطلق سبابًا ودارَ حوله. ليت كان معي حصان. لو أن معي حصانًا لاستطعتُ الاستمرار. كنتُ لأمضي جالسًا وربما أنام قليلًا كذلك. لكنهم فقدوا معظم خيولهم على (القبضة)، وما تبقي يحمل طعامهم ومشاعلهم وجراحهم، وسام ليس جريحًا. سمين وضعيف فقط، وأجن جبناء (الممالك السبع) برمتها.

كم هو جبان حقًا. لطالما قال أبوه اللورد راندل هذا وثبت أنه على حق. كان سام وريثه، لكنه لم يكن جديرًا قط، ولذا أرسله أبوه إلى (الجدار)، ليرث أخوه الصغير ديكون أراضي عائلة تارلي وقلعتها، والسيف العظيم (أفة القلوب) الذي يحمله لوردات (هورن هيل) بكل فخرٍ منذ قرون. تساءل

إن كان سيكون سييكي أخاه الذي مات وسط الثلوج في مكان ما وراء حافة العالم. ولم يفعل؟ الجبان لا يستحقُّ البكاء عليه. هكذا سمع أبوه يقول لأمه مرارًا وتكرارًا، والدُّب العجوز يعرف هذا أيضًا.

ليلتها فوق (القبضة) هدرَ حضرة القائد حين ظهرَ فجأةً ممتطيًا حصانه: «السَّهام النَّارِيَّةُ! أمطروهم باللَّهب!»، قبل أن يلحظ سام الواقف في مكانه يهتزُّ، فزَعَقَ فيه: «تارلي، ابتعد من هنا! مكانك مع الغِدفان!».

- «لق... ق... قد أرسلتُ الرِّسالتين».

قال مورمونت: «عظيم»، وعلى كتفه ردَّدَ غُدافه: «عظيم، عظيم!». بدا حضرة القائد ضخمًا وقد ارتدى الفرو والمعدن، ووراء مقدِّمة خوذته الحديد السوداء اشتعلت عيناه بأسا وهو يقول له: «إنك تعترض الطَّرِيق هنا. عُد إلى أقفاصك، فلا أريدُ أن أبحث عنك أو لا إذا احتجتُ إلى إرسال رسالة أخرى. اعمل على تجهيز الطيور»، ولم ينتظر إجابةً ودارَ بحصانه وراحَ يخبُّ حول الحلقة صائحًا: «النَّار! أمطروهم بالنَّار!».

لم تكن بسام حاجة إلى سماع الأمر مرَّتين، فعادَ إلى الطيور بأسرع ما حملته ساقاه اللِّحيمتان. يجدرُ بي أن أكتب الرِّسائل مسبقًا كي تُخلَق الطيور سريعًا كلما دعت الحاجة. استغرق وقتًا أطول مما ينبغي لإشعال نار صغيرة لتدفئة الحبر الذي تجمَّد، ثم جلسَ إلى جوارها على صخرةٍ بالريشة والرَّقوق وشرعَ يكتُب.

هُوجمنا وسط الثلج والبرد، لكننا ردعنا الجُثث الحيَّة بالسَّهام النَّارِيَّة. هكذا كتب وهو يسمع ثورين سمولود يصبح أمرًا: «ثبَّت، اسحب... أطلق»، لتطير السَّهام محدثةً صوتًا بعدوبة دعوة أمك، وصاح داويون مطلقًا أسنانه الخشبيَّة: «احترقوا أيها الأوغاد الموتى، احترقوا»، وهلَّل الإخوة وسبُّوا بينما واصل سام الكتابة: كلُّ شيء آمن، مازلنا على (قبضة البشَّر الأوائل)، وتمنَّى أن يكون إخوته رُماةً أفضل منه.

وضع هذه الرِّسالة جانبًا والتقطَ رَقًّا فارغًا ليكتُب: مازلنا نُقاتل على (القبضة) وسط ثلوج ثقيلة، وبينما يكتُب سمعَ أحدًا يصيح: «ما زالوا يتقدَّمون». النَّتيحة غيرُ أكيدة. قال آخر: «الحراب». ربما كان السير مالا دور، لكنه لا يستطيع الحزم. هاجمنا الجُثث الحيَّة على (القبضة)، لكننا ردعناها

بالنَّارِ. التفت برأسه، ولم يستطع عبر الثلج المترامك أن يرى إلا النَّارَ الضَّخْمة المضطربة في مركز المعسكر، وحولها يتحرك رجال على خيولهم بلا كلل. أدرك أنهم قوَّة الاحتياط المستعدة لوطءٍ أيَّ شيءٍ يخترق السُّور الدَّائري، وقد سلَّح أفرادها أنفسهم بالمشاعل بدلاً من السُّيوف وأوقدوها من اللهب. عندما سمع صياحاً من جانب التلِّ الشمالي كتب: الجثث الحيَّة تُحيط بنا، قادمة من الشَّمال والجنوب في آنٍ واحد. الحراب والسُّيوف لا تُوقفها، النَّار وحدها تُوقفها. صرخ صوت ما في قلب اللَّيل: «أطلق، أطلق، أطلق!»، وصاح صوت آخر: «يا لضخامته!»، وقال ثالث: «عملاق!»، فردَّ رابع بإصرار: «إنه دُب، دُب!». صرخ أحد الخيول وبدأت كلاب الصَّيد تعوي، وساد الصَّياح حتى إن سام لم يعد يستطيع تمييز الأصوات. عاد يكتب بسرعة أكبر رسالة تلو الأخرى. همج موتي، وعملاق، أو ربما دُب، يُهاجمونا من كلِّ جهة. سمع ارتطام الفولاذ بالخشب، وهو ما يعني شيئاً واحداً فحسب. الجثث الحيَّة تجاوزت السُّور الدَّائري. القتال داخل المعسكر. ركضت بالقرب منه دسنة من الخيول التي تحمل الإخوة نحو السُّور الشرقي، يحملون مشاعل تُخلِّف خيوطاً من اللهب في الهواء. حضرة القائد مورمونت يقاومهم بالنَّار. لقد انتصرنا. إننا ننتصر. إننا صامدون. نشقُّ لأنفسنا طريقاً للخروج ونسحب إلى (الجدار). إننا عالقون على (القبضة) ومحاصرون.

خرج أحد رجال (بُرج الظلال) مترنِّحاً من الظلِّمة وسقط عند قدميه، قبل أن يزحف حتى قدم واحد من النَّار ويموت.

كتب سام: خسرنا المعركة. كلنا ضائعون.

لماذا يتذكَّر القتال على (القبضة) الآن؟ إنه لم يُرد أن يتذكَّر هذا على الإطلاق. حاول أن يجعل نفسه يتذكَّر أمه أو أخته الصَّغيرة تالا أو تلك الفتاة جيلي في (قلعة كراستر)، ثم إنه شعر بمن يهزُّ كتفه قائلاً: «انهض. لا يُمكنك أن تنام هنا يا سام. انهض وواصل السَّير».

لم أكن نائمًا، كنتُ أتذكَّر. قال وأنفاسه تخرُج مستحيلةً إلى صقيع في الهواء البارد: «ابتعد. أنا بخير، أريدُ أن أستريح».

قال جرن بصوتٍ خشنٍ مبحوح: «انهض»، ووقف فوق سام وقد كست

قشرة من بياض الثلج ثيابه السوداء متابعًا: «الذَّب العجوز قال لا راحة. ستموت».

رَدَّ مبتسمًا: «جرن... لا، إنني بخير هنا، حقًا. واصل أنت طريقك وسألحق بك بعدما أستريح قليلًا».

كانت لحية جرن البيَّة الكنَّة متجمِّدة حول فمه وتجعله يبدو كرجل عجوز وهو يقول: «لن يَحْدُث. ستتجمَّد أو ينال منك (الآخرون). سام، انهض!».

تذكر سام الليلة السابقة لمغادرتهم (الجدار)، وكيف شاكسَ بيپ جرن عاداته، قائلاً وهو مبتسم إنه خيار موفق لهذه الجولة، بما أنه أغيب من أن يَشْعُر بالخوف، وهو الشَّيء الذي أنكره جرن بحرارة إلى أن أدرك معنى ما يقوله. إنه قصير متين الجسد غليظ العنق، وقد لَقَّبه السير أليسر ثورن بالثَّور البرِّي كما لَقَّب سام بالسير خنزير وچون باللورد سنو، وإن كان يُعامل سام برفق دائمًا. لكن هذا بسبب چون فقط، ولولاها لما عرفتُ معاملةً طيِّبةً منهم. والأَن رحلَ چون، ضاعَ في (الممر الصَّادح) مع كورين ذي النِّصف يد، وغالبًا مات. كان سام ليبيكيه، غير أن الدُموع ستتجمَّد بدورها، وهو يُكافح للحفاظ على عينيه مفتوحتين.

توقَّف أخ طويل القامة يحمل مشعلًا عندهما، ومَرَّت لحظة رائعة أحسَّ خلالها سام بالدَّفء على وجهه والرجل يقول لجرن: «اتركه. من لا يستطيع المشي انتهى أمره. وفرَّ قوتك لنفسك يا جرن».

قال جرن: «سينهض. إنه في حاجة إلى مساعدة فقط».

ابتعدَ الرَّجل أخذًا معه نعمة الدَّفء، وحاولَ جرن أن يُنهض سام عنوةً، فقال متذمِّرًا: «هذا مؤلم. توقَّف يا جرن، إنك توجع ذراعي، توقَّف».

قال جرن: «أنت ثقيل للغاية»، ودَسَّ يديه تحت إبطين سام وأطلقَ أنينًا وسحبَه إلى أعلى، لكن بمجرد أن تركه عاد الصَّبي السَّمين يَتَعَد في الثلج، فركله جرن بقوة شَقَّقت قشرة الجليد حول حذائه وطَيَّرت شظاياها في كل مكان، وصاح: «انهض!»، وعادَ يركله مكرَّرًا: «انهض، يجب أن تنهض وتمشي».

سقطَ سام على جانبه وتكوَّر على نفسه ليحميها من الرِّكلات التي شعرَ بها بالكاد عبر طبقات الصُّوف والجلد والمعدن، وعلى الرغم من هذا ألمته.

حسبتُ جرن صديقي. لا يجدرُ بأحد أن يرُكَل أصدقاءه. لماذا لا يدعوني وشأني؟ إنني أحتاجُ إلى الراحة لا أكثر، إلى الراحة وشيءٍ من النوم، وربما القليل من الموت.

- «يُمكنني أن أحمل الصَّبي السَّمين إذا حملت المشعل».

فجأةً وجدَّ نفسه يرتفع في الهواء البارد بحركةٍ حادَّة بعيداً عن الثلج النَّاعم الجميل. كانت هناك ذراع تحت رُكبتيه وأخرى تحت ظهره، فرفعَ سام رأسه وحدَّق ليرى وجهًا قريبًا منه، وجهًا عريضًا قاسيًا فيه أنف مسطح وعينان داكنتان صغيرتان ولحية بنية كثيفة. لقد رأى هذا الوجه من قبل، لكنه استغرقَ برهةً ليتذكَّره. پول، پول الصَّغير. سالَ الجليد الذائب في عينيه من جرَّاء حرارة المشعل، وسمعَ جرن يسأل: «هل يُمكنك أن تحمله؟».

- «حملتُ عجلًا أثقلَ منه ذات مرَّة، حملته إلى أمِّه كي يرضع».

ترجَّحَ رأس سام مع كلِّ خطوةٍ أخذها پول الصَّغير، فغمغم: «توقف، ضعني، أنا لستُ راضيًا، أنا رجل في حرس الليل»، وأضافَ متتجِّبًا: «دعوني أموت».

قال جرن: «صمًّا يا سام، ادَّخر قوتك. فكر في أخيك وأخواتك، المايستر إيمون، أطعمتك المفضَّلة، أو غنَّ حتى إذا أردت».

- «بصوتٍ عالٍ؟».

- «في رأسك».

كان سام يعرف مئة أغنية، لكن حين حاولَ تذكُّر إحداها لم يستطع، وتبخَّرت الكلمات كلها من ذهنه، فانتحبَ ثانيةً وقال: «لستُ أعرفُ أيَّ أغانٍ يا جرن. كنتُ أعرفُ القليل لكنني نسيته».

قال جرن: «بل تعرف. ماذا عن (الجميلة والدُّب)؟ الكلُّ يعرفها. كان هناك دُب، دُب، دُب! كله أسود وبني ومغطى بالشعر!».

متوسِّلاً قال سام: «لا، ليس هذه الأغنية». الدُّب الذي صعَدَ إلى (القبضة) لم يتبقَّ شعر على لحمه المتعفن، وهو لا يُريد التَّفكير في الدُّببة. «لا غناء، أرجوك يا جرن».

- «فكر في غدِّفانك إذن».

- «لم تكن غدِّفاني قطُّ». إنها غدِّفان حضرة القائد، غدِّفان حرس الليل.

«إنها غدِّفان (القلعة السوداء) و(برج الظلال)».

الصَّارِبَةُ أَطْنَابُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِلَى أَنْ تُدْفَعَ حِصَانُ بِلَا رَاكِبٍ بَغْتَةً وَرِفْسَةً فِي وَجْهِهِ. لَمْ يُعْرِهِ الرُّمَاتُ انْتِبَاهًا وَهُمْ يُطْلِقُونَ سَهَامَهُمُ النَّارِيَّةَ عَلَى الظَّلَالِ الْقَادِمَةِ مِنَ الظَّلَامِ، وَرَأَى سَامٌ جِنَّةً حَيَّةً تُصَابُ، وَرَأَى اللَّهْبَ يَبْتَلَعُهَا، لَكِنْ دَسَّتْهُ مِنَ الْجُثْثِ الْأُخْرَى أَتَتْ وَرَاءَهَا، وَمَعَهَا جِسْمٌ شَاحِبٌ ضَخْمٌ لَا رَيْبَ أَنَّهُ كَانَ الدُّبَّ، وَسِرْعَانُ مَا نَفَدَتْ مِنَ الرُّمَاتِ سَهَامَهُمْ.

ثُمَّ وَجَدَ سَامٌ نَفْسَهُ عَلَى حِصَانٍ، لَمْ يَكُنْ حِصَانَهُ، وَلَا يَذْكُرُ أَنَّهُ امْتَطَاهُ حَتَّى. رُبَّمَا كَانَ الْحِصَانُ الَّذِي هَسَّمُ وَجْهَ السَّيْرِ أُوتِينَ. ظَلَّتْ الْأَبْوَاقُ تُدَوِّي، فَهَمَزَ الْحِصَانُ وَوَجَّهَهُ نَحْوَ الصَّوْتِ.

فِي خَضَمِ اللَّجَّةِ وَالْفَوْضَى وَالثَّلُوجِ الْهَائِبَةِ وَجَدَ إِدَ الْكَيْتِيبَ رَاكِبًا حِصَانَهُ وَفِي يَدِهِ حَرْبَةٌ عَلَيْهَا رَايَةٌ سَوْدَاءُ، وَقَالَ إِدُ لَمَّا رَأَاهُ: «سَامُ، هَلَّا أَيْقَنْتَنِي أَرْجُوكَ؟ إِنِّي حَبِيسٌ فِي كَابُوسٍ بَشَعٍ».

مَزِيدٌ مِنَ الرَّجَالِ كَانُوا يَمْتَطُونَ الْخِيُولَ وَالنَّفِيرَ يَسْتَدْعِيهِمْ: آهَوُوو آهَوُوو

آهَوُووَوُووَوُووَوُووَوُووَوُوو!

صَرَخَ ثَوْرَيْنِ سَمُولُودِ فِي الدُّبِّ الْعَجُوزِ وَهُوَ يُجَاهِدُ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى حِصَانِهِ: «لَقَدْ تَجَاوَزُوا السُّورَ الْغَرْبِيَّ يَا سَيِّدِي. سَأُرْسِلُ قُوَّةَ الْإِحْتِيَاطِ...».

هَدَرَ مَورْمُونَتُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ كَيْ يُسْمَعَ فَوْقَ الْأَبْوَاقِ: «لَا! اسْتَدْعِيهِمْ، يَجِبُ أَنْ نَشُقَّ طَرِيقًا لِلخُرُوجِ»، وَوَقَفَ عَلَى رِكَابَيْهِ الْحِصَانِ لِيَخْفِقَ مَعْطَفُهُ فِي الرِّيْحِ وَتَلْتَمِعَ النَّارُ عَلَى دِرْعِهِ، وَجَارَ: «رَأْسُ حَرْبَةٍ! كَوْنُوا رَأْسَ حَرْبَةٍ! سَتَحْرُكُ، نَنْزِلُ مِنَ الْجَانِبِ الْجَنُوبِيِّ ثُمَّ شَرْقًا!».

- «سَيِّدِي، الْمُنْحَدِرُ الْجَنُوبِيُّ يَعِجُّ بِهِمْ!».

- «الْمُنْحَدِرَاتُ الْأُخْرَى حَادَّةٌ جَدًّا. يَجِبُ أَنْ...».

صَرَخَ حِصَانُهُ بَغْتَةً وَتَرَاجَعَ رَافِعًا قَائِمَتِيهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ إِذْ جَاءَ الدُّبُّ عَبْرَ الثَّلْجِ، وَلَحِظَتْهَا بَلَّلُ سَامٌ نَفْسَهُ ثَانِيَةً. لَمْ أَحْسَبْ أَنَّ هُنَاكَ مَزِيدًا مِنَ الْبُولِ فِي مِثَانَتِي. كَانَ الدُّبُّ مِيتًا، شَاحِبًا وَيَتَعَفَّنُ، فَرُوهُ وَجِلْدُهُ مَنَسْلَخَانُ وَنِصْفُ ذِرَاعِهِ الْيُمْنَى مَحْتَرَقَةٌ حَتَّى الْعِظْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ. لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ حَيٌّ غَيْرَ عَيْنَيْهِ. أَرْزَقَ بَرَّاقٌ كَمَا قَالَ چُونُ. تَأَلَّقَتِ الْعَيْنَانُ كَنَجْمَتَيْنِ مِنْ جَلِيدٍ، وَانْقَضَ ثَوْرَيْنِ سَمُولُودِ بِسَيْفٍ يَلْتَمِعُ بِالْبِرْتَقَالِيِّ وَالْأَحْمَرِ مِنْ ضَوْءِ النَّارِ، وَكَادَتْ ضَرْبَتُهُ تَقْطَعُ رَأْسَ الدُّبِّ، ثُمَّ إِنَّ الدُّبَّ قَطَعَ رَأْسَهُ.

صاحَ حضرة القائد دائراً بحصانه: «تحرّكوا!».

كانوا يُهَرولون عند وصولهم إلى السُّور الدَّائري. لطالما خافَ سام من القفز بالحصان، لكن حين لآح السُّور الحجري الواطئ أمامه أدركَ أن لا خيار أمامه، وهمزَ الحصان وأغلقَ عينيه وأنَّ، لكن بشكلٍ ما - بشكلٍ ما- عبرَ به الحصان، بينما سقطَ الرَّكاب إلى يمينه في فوضى من الفولاذ والجلد ولحم الخيل الصَّارخ، قبل أن تجتاحه الجُثث الحيَّة وينغلق رأس الحربة. اندفعَ الإخوة يركضون على جانب التُّل وسط الأيادي السوداء الممتدَّة إليهم والأعين الرِّقاء والثَّلج الذي تدرّوه الرِّيح. تعثَّرت خيول وتدحرجت، واختُطفَ رجال من فوق سروجهم، ودارت مشاعل في الهواء، وضربتِ الفؤوس والسُّيوف اللّحم الميت، وانتحبَ سامويل تارلي وهو يتشبَّث بحصانه بقوَّة لم يكن يعرف أنه يمتلكها.

كان في منتصف رأس الحربة الطائر، يُحيط به إخوته من اليمين واليسار والأمم والخلف. ركضَ كلب معهم جزءاً من الطريق، يتواثب على المنحدر المغطى بالثلج بين الخيول، وإن لم يستطع هجارات سرعتها، بينما صمَدت الجُثث الحيَّة في أماكنها لتدعسها حوافر الخيول، لكن حتى وهي تسقطُ ظلَّت تُحاول الإطباق على السُّيوف والمهامز وأرجل الخيول، ورأى سام إحداها تشقُّ بطن حصان يمينها بينما تتشبَّث بالسَّرج بيُسرهما.

فجأةً أصبَحَت الأشجار حولهم، وخاضَ سام في غدير متجمِّد فيما انخفضت أصوات المذبحة وراءه، فالتفت متنفِّساً الصُّعداء... ثم وثبَ رجل يرتدي الأسود من وسط الشُّجيرات وشدَّه من فوق سرجه. لم يرَ سام من يكون، وفي لحظة كان الرَّجل قد اعتلى الحصان وانطلق به، ولَمَّا حاول سام أن يجري وراءه اشتبكت قدمه في جذر وسقطَ على وجهه بعُنف، وظلَّ على الأرض يبكي كطفلٍ رضيع إلى أن وجده إدا الكئيب هناك.

كانت هذه آخر ذكري متماسكة يملكها عن (قبضة البشر الأوائل)، ولاحقاً، بعد ساعات، وقفَ يرتجف وسط النَّاجين الآخرين، نصفهم على الخيول ونصفهم على أقدامهم. كانوا قد ابتعدوا أميالاً عن (القبضة)، وإن لم يتذكَّر سام كيف. كان داويون قد قادَ خمسة أحصنة جرَّ من على القمَّة وعلى متونها حمل ثقيل من الطَّعام والزَّيت والمشاعل، ثم تبقي منها ثلاثة فقط،

فجعلهم الذب العجوز يُعيدون توزيع الأحمال كي لا تصير خسارة حصانٍ واحد بما عليّ متنه من مؤن كارثته، كما أخذَ خيولاً من السُّلماة وأعطاهما للجرحي، ونظّم من سيمشون، وخصّص رجالاً لحماية جانبيهم ومؤخرتهم بالمشاعل.

قال سام لنفسه وهو يأخذ أول خُطوةٍ نحو الدِّيار: كلُّ ما عليّ أن أمشي، لكن قبل أن تنقضي ساعة واحدة بدأ يُعاني ويتباطأ...

والآن يرى أن حركتهم يتباطأ أيضاً. تذكرَ يبيب يقول في مرّةٍ إن پول الصَّغير أقوى رجل في حرس الليل. لا بُدَّ أنه كذلك ما دامَ يحملني. وعلى الرغم من ذلك كأن عمق الثلوج يتزايد والأرض تُصبح خداعةً أكثر، وبدأت خُطى پول الواسعة تضيق. مرَّ بهم مزيد من الرَّاكبين، جرحى رمقوا سام بنظراتٍ فاترةٍ لامبالية، ومرَّ بهم عدد من حاملبي المشاعل، الذين قال أحدهم: «إنكم تتخلفون»، وأيده آخر: «لا أحد سينتظرك يا پول. انترك الخنزير للموتى».

- «لقد وعدني بأن يُعطيني طائرًا»، قال پول، مع أن سام لم يفعل حقًا. الغدقان ليست ملكي كي أعطيها لأحد. «أريدُ طائرًا يتكلّم ويأكل الذرة من كَفِّي».

قال حامل المشعل: «أحمق»، ثم ابتعد.

مرّت فترة قبل أن يتوقّف جرن فجأةً ويقول بصوتٍ أجش: «نحن وحدنا. لا أرى المشاعل الأخرى. أكان هؤلاء حُرَّاس المؤخّرة؟».

لم يُعطه پول الصَّغير إجابةً، وتأوّه الرّجل الكبير وهو ينزل على رُكبتيه، وارتجفت ذراعاه وهو يضع سام برفق على الثلج، وارتجف هو بعنفٍ وهو يقول: «لا أستطيع أن أحملك أكثر من هذا. أريدُ لكنني لا أستطيع».

تنهّدت الرّيح بين الأشجار دافعةً نُدْف الثلج الرّقيقة في وجوههم، وأطبق عليهم زمهرير قارس جعل سام يحسُّ كأنه عار. بحث عن المشاعل الأخرى لكنها اختفت كلها، وليس هناك إلا الذي يحمله جرن ويرفع منه اللهب كأنه حرير برتقالي باهت، وعبر اللهب لم يرَ غير السّواد. هذا المشعل سينظفني قريباً، ونحن وحدنا تمامًا بلا طعام أو أصدقاء أو نار.

لكنه مخطئ، لأنهم ليسوا وحدهم على الإطلاق.

تخلّصت الفروع السُّفليّة لشجرة حارس خضراء عظيمة من عبئها الثلجي

بصوتٍ ناعمٍ مكتومٍ، فدارَ جرنَ رافعًا مشعله أمامه، وقال: «مَن هناك؟»، ثم برزَ رأسُ حصانٍ من الظَّلامِ، وأحسَّ سامٌ بالارتياحِ لحظةً... إلى أن رأى جسدَ الحصانِ الذي غطَّاه الصَّقيعُ كطبقةٍ من العَرَقِ المتجلِّدِ اللَّامعِ، وبطنه الذي انسكبتَ منه أمعاؤه السَّوداءُ المتيِّسةُ، وظهره الذي اعتلاه خيالٌ شاحبٌ كالجليدِ. أصدرَ سامٌ أنينًا احتبسَ في أعماقِ حلَقه، وانتابه خوفٌ كان كفيلاً بأن يجعله يبول على نفسه مجدِّدًا، لكن البردَ الوحشيَ تمكَّنَ منه تمامًا حتى إنه أحسَّ كأن مئاثته تجمَّدت كالصَّخرِ.

ترجَّل (الآخر) برشاقةٍ ليقف على الثلجِ. كان ربيعًا كالسَّيفِ، وأبيض كالجليبِ، وتموَّجت دِرعه وتبدَّلت ألوانها وهو يتحرَّك، ولم تكسر قدماه القشرة الثلجيَّة.

استلَّ پول الصَّغير الفأسَ طويلة المقبض المثبَّته على ظهره، وقال: «لماذا أذيت هذا الحصان؟ كان حصان ماوني».

مدَّ سامٌ يده إلى مقبض سيفه، لكنه وجدَ الغمدَ فارغًا، وتذكَّر متأخرًا جدًّا أنه فقدَه على (القبضة).

صاحَّ جرنُ رافعًا المشعلَ أمامه: «ابتعد! ابتعد وإلا احترقت!»، وأخذَ يُلوِّح باللهبِ في وجه الكائنِ.

التمع سيف (الآخر) بوهج أزرق خافت، وتحركَ حامله صوب جرنٍ بِسرعة البرق مسدِّدًا ضربةً، وحينَ مَسَّ التَّصل الأزرق كالجليد اللهب طعنتَ أذنيَّ سامٍ صرخة حادة كالإبر، وسقطَ رأسُ المشعلِ جانبًا ليختفي في الثلجِ وقد انطفأت النَّارُ في الحال، وأصبح كل ما يحمله جرنُ عصا خشبيَّة قصيرة، فقذفَ (الآخر) بها وهو يسبُّ بينما انقضَّ پول الصَّغير بفأسه.

الخوف الذي أفعمَّ سام حينها كان أسوأ من أيِّ خوفٍ اختبره في حياته كلِّها، وسامويل تارلي يعرف كل أنواع الخوف. صلى وقد أنساه رُعبه الآلهة القديمة: «رُحمك يا أمَّاه، احمني يا أبته، أوه أوه...»، ثم عثرت أصابعه على خنجره فأطبق عليه بقبضته.

الجُثَّ الحيَّة أشياء بطيئة حرقاء، لكن (الآخر) تحركَ بخفَّة الثلجِ في الرِّيح، فتفادى الفأسَ ودِرعه تتموَّج، ودارَ سيفه البلُّوري واخترقَ حلقات قميص پول الحديديَّة والجِلد والصُّوف والعظم واللحم، وخرجَ من ظهره

بهيسيسيسيسيسيسيسيسيس، وسمعَ سامَ بول يقول: «أوه» والفأس تَسْقُطُ من يده. كان الرَّجُلُ الكَبِيرُ مَخْزُوقًا والدُّخَانُ يَتَصَاعَدُ من دُمَائِهِ حَوْلَ السَّيْفِ، لَكِنَّهُ حَاولٌ أَنْ يَبْلُغَ قَاتِلَهُ بِيَدَيْهِ، وَكَادَ يَنْجَحُ قَبْلَ أَنْ تَتَدَاعَى سَاقَاهُ مِنْ تَحْتِهِ، لِيَنْتَرِعَ ثِقْلَهُ السَّيْفِ البَاهِتِ الغَرِيبِ مِنْ قَبْضَةِ (الْآخَرِ).

الآن، كُفَّ عَنِ البُكَاءِ وَقَاتِلَ أَيُّهَا الطِّفْلُ، قَاتِلَ أَيُّهَا الرِّعْدِيدُ. صَوْتُ أَبِيهِ هَذَا الَّذِي سَمِعَهُ، صَوْتُ أَلِيسِرِ ثورن وَأَخِيهِ دِيكُونِ وَالصَّبِيِّ رَاسِت. جَبَانٌ، جَبَانٌ، جَبَانٌ. قَهْقَهَةٌ كَالْمَخْتَلِينَ وَهُوَ يَتَسَاءَلُ إِنْ كَانُوا سَيُحْوَلُونَهُ إِلَى جَنَّةٍ حَيَّةٍ، جَنَّةٍ حَيَّةٍ بِيَضَاءِ سَمِينَةٍ ضَخْمَةٍ تَتَعَثَّرُ دَائِمًا فِي سَاقِيهَا المِيتَتَيْنِ. افْعَلْهَا يَا سَامَ. أَكَّانَ هَذَا صَوْتُ چون؟ لَكِنْ چون مات. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَفْعَلْهَا، يُمَكِّنُكَ أَنْ تَفْعَلْهَا، هِيَ افْعَلْهَا. ثُمَّ إِنَّهُ تَقَدَّمَ بِحَرَكَةٍ هِيَ سَقُوطٌ أَكْثَرَ مِنْ جَرِي، وَقَدْ أَغْلَقَ عَيْنَيْهِ وَرَفَعَ الخَنْجَرَ أَمَامَهُ بِكَلْتَا يَدَيْهِ دُونَ أَنْ يَرَى. سَمِعَ شَيْئًا يَتَشَقَّقُ كَالصَّوْتِ الَّذِي يُحَدِّثُهُ الجَلِيدُ عِنْدَمَا يَتَهَيَّئُ تَحْتَ قَدَمٍ، ثُمَّ سَمِعَ صرَخَةً حَادَّةً ثاقِبَةً جَعَلَتْهُ يَتَرَاجَعُ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى أُذُنَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ بِقُوَّةٍ عَلَى مَوْخِرَتِهِ.

عِنْدَمَا فَتَحَ عَيْنَيْهِ كَانَتْ دِرْعُ (الْآخَرِ) تَسِيلُ عَلَى سَاقِيهِ كَنُهيراتٍ صَغِيرَةٍ، بَيْنَمَا هَسَّ الدَّمُ الأَزْرَقُ الشَّاحِبُ وَخَرَجَ مِنْهُ البُخَارُ حَوْلَ الخَنْجَرِ المَصْنُوعِ مِنْ زُجَاجِ التَّنِينِ المَغْرُوسِ فِي حَلْقِهِ. مَدَّ الكائِنُ يَدَيْهِ بِيَضَاوِينِ كالعظامِ لِيَنْتَرِعَ الخَنْجَرَ، لَكِنَّ الدُّخَانَ خَرَجَ مِنَ الأَصَابِعِ حَيْثُ مَسَّتِ الزُّجَاجُ.

مَالَ سَامَ عَلَى جَانِبِهِ وَأَتَسَّعَتْ عَيْنَاهُ إِذْ تَقَلَّصَ (الْآخَرِ) وَسَالَ وَذَابَ. خِلَالَ عَشْرِينَ نَبْضَةً قَلْبُ انْسَلَخَ لِحْمَهُ وَذَرَّتَهُ الرِّيحُ كضبابٍ أبيضٍ ناعمٍ، وَتَحْتَ اللَّحْمِ كَانَتْ عِظَامٌ شَاحِبَةٌ لَامِعَةٌ كَالزُّجَاجِ اللَّبْنِيِّ أَخَذَتْ تَذُوبَ بَدْوَرِهَا، وَأَخِيرًا لَمْ يَبْتَقِ إِلَّا الخَنْجَرَ الذَّسَّ كَسَاهُ البُخَارُ كَأَنَّهُ كَائِنٌ حَيٌّ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا. انْحَنَى جَرِنٌ لِيَلْتَقِطَهُ، وَفِي الحَالِ أَلْقَاهُ قَائِلًا: «بِحَقِّ (الْأُمِّ)، إِنَّهُ بَارِدٌ!».

اعْتَدَلَ سَامٌ عَلَى رُكْبَتَيْهِ بِصُعُوبَةٍ، وَقَالَ: «إِنَّهُ زُجَاجٌ بُرْكَانِي. يُسْمُونَهُ زُجَاجَ التَّنِينِ، زُجَاجَ التَّنِينِ، زُجَاجٌ... التَّنِينِ»، وَقَهْقَهَةً وَبَكَى وَمَالَ جَانِبًا لِيُفْرِغَ شَجَاعَتَهُ قِيئًا عَلَى الثَّلْجِ.

سَاعَدَهُ جَرِنٌ عَلَى التُّهُوضِ، وَتَفَقَّدَ نَبْضَ بُولِ الصَّغِيرِ وَأَغْلَقَ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ التَّقَطَّ الخَنْجَرَ ثَانِيَةً، وَهَذِهِ المَرَّةَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ.

قال سام: «احتفظ به. أنت لست جبانًا مثلي!».

رَدَّ جَرْنُ: «نعم، أنت جبان للغاية لدرجة أنك قتلت ماشياً أبيض»، وأشار بالخنجر مضيفاً: «انظر هناك بين الأشجار، الضوء وردي. إنه الفجر يا سام، الفجر. لا بُدَّ أن الشَّرْق في هذا الاتجاه. سنلحق بمورمونت إذا سلكننا هذا الطريق».

قال سام: «ليكن»، وركلَ جذع شجرةٍ بقدمه اليسرى ثم اليمنى لينفض عنهما الثلج قائلاً بتجهم: «سأحاول»، وأخذ خُطوةً وأردفَ: «سأحاول بكَد»، وأخذ خُطوةً أخرى.

تيريون

انعكسَ بريق سلسلة اللورد تايوين ذات الأيادي الذهبية على مخمل سترته الخمري القاني، واجتمع اللوردات تايرل وردواين وروان حوله إذ دخل، فحيا كلاً منهم بدوره، وهمس بشيء ما لفارس، وقبل خاتم السبيتون الأعلى ووجنة سرسي، وشد على يد المايستر الأكبر پايسل، قبل أن يجلس في مكان الملك على رأس الطاولة الطويلة بين ابنته وأخيه.

استحوذ تيريون على مكان پايسل القديم عند قدم الطاولة، وقد رفع نفسه بعدد من الوسائد الموضوعة على الكرسي كي يرى، فاضطرر پايسل المحروم من مكانه إلى الجلوس إلى جوار سرسي، في أبعاد موضع ممكن عن القزم دون احتلال مكان الملك. بدا المايستر الأكبر كهيكل عظمي ثقيل الحركة، يمشي متكئاً بشدة على عكاز ملته ويرتجف، ومن عنقه الطويل الذي يُذكرُ بعنق الدجاجة نبتت شعيرات بيضاء قليلة بدلاً من لحيته التي كانت فاخرة ناصعة، لكن تيريون حدق إليه دون أن يُؤنّب ضميره لحظةً.

جلس الآخرون بعشوائية؛ اللورد مايس تايرل الثقيل القوي ذو الشعر البني المجعد واللحية ذات شكل ورقة الشجر المملحة بالأبيض، وپاكستر ردواين سيّد (الكرمة) التحيل ذو الكتفين المحيئين الذي تبقت على رأسه الأصلع ذؤابة من الشعر البرتقالي، وماثيس روان سيّد (البستان الذهبي) البدين الحليق كثير العرق، والسبيتون الأعلى ذو البنية الهزيلة والشعر الأبيض الخفيف على ذقنه. وجوه غريبة كثيرة، لاعبون جدد كثر. اللعبة تغيرت وأنا أتعفن في فراشي، ولا أحد يُريد أن يُطلعني على القواعد.

صحيح أن اللوردات عاملوه بدمائة كافية، لكن كان جلياً كم يُزعجهم

النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَقَالَ مَيْسَ تَايرِلْ بِنْبِرَةَ مَرَحَةً: «تِلْكَ السُّلْسَلَةُ كَانَتْ دِهَاءً مِنْكَ»،
وَوَافَقَهُ اللَّوْرُدُ رِدْوَايْنَ بِإِيْمَاءَةٍ مِنْ رَأْسِهِ وَقَالَ بِبِشَاشَةٍ بِالْغَةِ: «بِالتَّأْكِيدِ، بِالتَّأْكِيدِ.
سَيِّدُ (هَائِيْجَارْدَنْ) يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِنَا جَمِيعًا».

فَكَرَّ تَيْرِيُونُ بِمِرَارَةٍ: قَوْلُوا هَذَا لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ، قَوْلُوهُ لِلْمَعْنِيِّينَ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ
هُمُ وَأَغَانِيَهُمْ عَنِ شُبْحِ رَنْلِي.

قَابَلَهُ عُمُهُ كَيْثَانُ بِحَمِيمِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْجَمِيعِ، حَتَّى إِنَّهُ لَثَمَ وَجَنَّتَهُ قَائِلًا:
«لَا نَسْلَ أَخْبَرَنِي كَمْ كُنْتُ شُجَاعًا يَا تَيْرِيُونُ، وَيُشِيدُ بِكَ كَثِيرًا».

خَيْرٌ لَهُ، وَإِلَا فُلْدِيَّ مَا أَقُولُهُ عَنْهُ. جَعَلَ نَفْسَهُ يَبْتَسِمُ، وَقَالَ: «هَذَا لُطْفٌ مِنْ
ابْنِ عَمِّي الْعَزِيزِ. أَتَمَنَّى أَنْ جَرِحَهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الشِّفَاءِ».

أَجَابَ السَّيْرُ كَيْثَانُ بِعَبُوسٍ: «فِي يَوْمٍ يَبْدُو أَقْوَى، وَفِي التَّالِي... إِنْ حَالَتِهِ
مُقْلِقَةٌ. كَثِيرًا مَا تَزُورُهُ أَخْتُكَ فِي فِرَاشِ الْمَرَضِ لِتَرْفَعَ مَعْنَوِيَّاتِهِ وَتُصَلِّيَ مِنْ
أَجْلِهِ».

لَكِنْ أَتُصَلِّيَ كَيْ يَعْيشَ أَمْ كَيْ يَمُوتَ؟ لَقَدْ اسْتَعَلَّتْ سَرْسِي ابْنَ عَمِّهَا
بِمَنْتَهَى السُّفُورِ، سِوَاءِ أَفِي الْفِرَاشِ أَوْ خَارِجِهِ، وَهُوَ السَّرُّ الصَّغِيرُ الَّذِي تَأْمَلُ
أَنْ يَأْخُذَهُ لِأَنْسَلِ مَعَهُ إِلَى الْقَبْرِ الْآنَ وَقَدْ عَادَ أَبُوهُمَا وَلَمْ تُعَدِّ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ.
لَكِنْ هَلْ يَصِلُ بِهَا الْأَمْرُ إِلَى قَتْلِهِ؟ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى سَرْسِي الْيَوْمِ فَلَا يُمَكِّنُكَ
أَنْ تَحْزُرَ أَبَدًا أَنْ قَسْوَةَ كُنْتُكَ بِإِمْكَانِهَا. كَانَتْ تَشْعُ سِحْرًا؛ تُدَاعِبُ اللَّوْرُدَ
تَايرِلْ وَهِيَ يَتَكَلَّمَانِ عَنِ مَادِبَةِ زَفَافِ چَوْفَرِي، وَتَهْتَمُّ اللَّوْرُدُ رِدْوَايْنَ عَلَى
بِسَالَةٍ تَوَامِيهِ، وَتُلَيِّنُ اللَّوْرُدُ رِوَانَ الْفَظِّ بِالْمِزَاحِ وَالتَّبَسُّمِ، وَتَمْلَأُ أُذُنِي السَّيْتُونِ
الْأَعْلَى بِاللُّغَطِ الْوَرَعِ.

سَأَلْتُ سَرْسِي وَاللَّوْرُدَ تَايَوِيْنَ يَتَّخِذُ مَكَانَهُ: «هَلْ نَبْدَأُ بِتَرْتِيَاتِ الزَّفَافِ؟».
أَجَابَ أَبُوهُمَا: «لَا، بِالْحَرْبِ. فَارَسَ».

رَسَمَ الْخَصِيَّ بِسَمَةِ حَرِيرِيَّةٍ عَلَى شَفْتَيْهِ، وَقَالَ: «عِنْدِي لَكُمْ أَخْبَارٌ شَهِيَّةٌ
لِلْغَايَةِ أَيُّهَا السَّادَةُ. فَجَرَّ أَمْسَ هَاجِمَ اللَّوْرُدِ رَانْدَلَ الْهُمَامِ رَوَيْتَ جَلُوفَرٍ خَارِجَ
(وَادِيِ الْغَسَقِ) وَدَفَعَهُ إِلَى الْبَحْرِ. خَسَائِرُ الْجَانِبَيْنِ ثَقِيلَةٌ، لَكِنْ فِي النِّهَايَةِ
انْتَصَرَ رِجَالُنَا الشُّجْعَانُ، وَسَقَطَ السَّيْرُ هَلْمَانُ تُولَهَارْتِ مَعَ أَلْفِ آخَرِينَ. الْآنَ
يَقُودُ رَوَيْتَ جَلُوفَرِ النَّاجِينَ إِلَى (هَارِنْهَالِ) فِي فَوْضَى دَامِيَّةٍ، وَلَا يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ
سَيَجِدُ السَّيْرَ جَرِيحًا وَرِجَالَهُ الْأَشَاوَسَ يَعْتَرِضُونَ طَرِيقَهُ».

قال باكستر ردواين: «الشكر للآلهة! نصر عظيم للملك چوفري!». .

ما علاقة چوفري بالأمر؟

علّق الإصبع الصّغير: «وهزيمة منكرة للشّمال بكلّ تأكيد، لكنها هزيمة لم يلعب فيها روب ستارك دورًا. حتى الآن يظلّ الذئب الصّغير نفسه بلا هزائم في الميدان».

سأل مايس روان المعروف بصراحته ومباشرته دومًا: «ماذا نعرف عن حُطّ ستارك وتحزُّكاته؟».

أعلن اللورد تاوين: «لقد فرّ عائدًا إلى (ريقرن) بما نهبه وتحلّى عن القلاع التي استولى عليها في الغرب. السير داغن ابن عمّنا يُعيد تشكيل ما تبقى من جيش أبيه في (لانسپورت)، وعندما يستعدّ سينضمّ إلى السير فورلي پرستر في (النّاب الذهبي)، وبمجرّد أن يرجع صبيّ ستارك إلى الشّمال سينقضّ السير فورلي والسير داغن على (ريقرن)».

سأل اللورد روان: «أأنت واثق بأن اللورد ستارك ينوي أن يذهب شمالًا؟ حتى مع وجود الرّجال الحديديين في (خندق كايلن)؟».

تكلم مايس تايرل قائلاً: «هل من شيء أطفه من ملك بلا مملكة؟ لا، الأمر واضح. على الصّبي أن يهجر أراضي النّهر ويضمّ قوّاته إلى قوّات رروس بولتون من جديد ويهاجم (خندق كايلن) بجيشه كله. هذا ما كنت لأفعله».

أبقى تيريون لسانه في فمه مرغمًا. لقد فاز روب ستارك بمعارك في عام واحد أكثر مما فعل سيّد (هايجاردن) في عشرين، وسُمعة تايرل تستقرّ على انتصار واحد غير حاسم على روبرت باراثيون في (آشفورد)، في معركة فازت بها طليعة اللورد تارلي قبل أن تصل بقيّة الجيش حتى. أمّا حصار (ستورمز إند)، الذي قادّه مايس تايرل بنفسه، فامتدّ عامًا بلا طائل، وبعد معركة (الثّالوث) أنزل سيّد (هايجاردن) راياته بإذعان أمام إدارد ستارك.

كان الإصبع الصّغير يقول: «حريّ بي أن أكتب لروب ستارك رسالةً شديدة اللّهجة. بلغني أن رجله بولتون يُؤوي الماعز في بلاطي العالي في (هارنهال). شيء غير مقبول على الإطلاق».

تنحنح السير كيثان لانستر، وقال: «بمناسبة ستارك... بالون جرايچوي، الذي يُسمّي نفسه الآن ملك الجُزر والشّمال، كتب لنا عارضًا شروط حلف».

قالت سرسي محتدةً: «يَجْدُرُ به أن يعرض ولاءه. بأيِّ حَقِّ يُسَمِّي نفسه ملكًا؟».

رَدَّ اللورد تايوين: «بِحَقِّ الغزو. الملك بالون يُضَيِّقُ خناقه على (العُنُق)، وورينا روب ستارك ماتا، و(وينترفل) سقطت، والحديديون يُسَيِّطرون على (خندق كايلن) و(ربوة الغابة) وأغلب (السَّاحل الحجري)، كما أن سُفن الملك بالون الطويلة تسود (بحر الغروب)، وفي موقع يُتيح لها تهديد (لانسهورث) و(الجزيرة القصية) وحتى (هايجاردن) نفسها إذا استفزناه». تسأل اللورد مائيس روان: «وإذا قبلنا ذلك الحلف؟ ما الشُّروط التي يعرضها؟».

- «أن نعترف بملوكيته ونمنحه كلَّ شيءٍ شمال (العُنُق)».

ضحك اللورد ردواين قائلاً: «وماذا يوجد شمال (العُنُق) ويرغب فيه أيُّ رجلٍ عاقل؟ ما دام جرايچوي يُريد أن يُبادِلنا السُّيوف والحِراب بالحجارة والثُّلُوج، فرأيي أن نقبل ونعدّ أنفسنا محظوظين».

أيده مائيس تايرل بقوله: «صحيح، هذا ما كنتُ لأفعله. فلنترك الملك بالون يُجهز على الشماليين فيما نُجهز على ستانيس».

لم يوح وجه اللورد تايوين بما يعتمل في نفسه وهو يقول: «ينبغي أن نتعامل مع لايسا آرن كذلك، أرملة چون آرن وابنة هوستر تلي وأخت كاتلين ستارك... التي كان زوجها يتأمر مع ستانيس باراثيون وقت وفاته».

قال مائيس تايرل بمرح: «أوه، النساء لا يستطعن أن يهضمن الحرب. رأيي أن ندعها وشأنها، فليس واردةً أن تُزعجنا».

قال ردواين: «هذا رأيي أيضًا. الليدي لايسا لم تُشارك في القتال، ولم تُقارِف خيانةً عليَّةً».

اعتدل تيريون وردَّ بقدرٍ معيَّن من الحقد: «لقد ألقنتني في زنانه وحاكمتني مقابل حياتي، كما أنها لم ترجع إلي (كينجز لاندنج) وتقسِم على الولاء لچوف كما أمرت. أيها السَّادة، أعطوني الرِّجال وسأتولَّى أمر لايسا آرن». لا يُمكنه التَّفكير في شيءٍ يستمتع به أكثر، باستثناء أن يَخنُق سرسي ربما. إنه لا يزال يحلم أحيانًا بزنازين السَّماء في (العُش)، ويستيقظ يتصبَّب عرقًا باردًا.

بدت ابتسامة مائيس تايرل جدِّلةً، لكن تيريون استشعرَ الازدراء وراءها

وسيد (هايجاردن) يقول: «ربما من الأفضل أن تترك القتال للمقاتلين. رجال أفضل منك خسروا جيوشاً عظيمةً في (جبال القمر) أو حطّموها على (البوابة الدّامية). إننا نعرف قيمتك يا سيّدي، ولا داعي لمخاطرةٍ لا ضرورة لها».

دفع تيريون وسائده مغضباً، لكن أباه قال قبل أن يخرج منه رُده اللّاذع: «لديّ مهام أخرى لتيريون. أعتقد أن اللورد بيتر يحمل مفتاح (العُش)».

قال الإصبع الصّغير والحُبث في عينيه الخضراوين المائلتين إلى الرمادي: «أوه، هذا صحيح، إنه بين ساقَيّ. بعد إذنكم أيها السّادة، أقترح أن أسافر إلى (الوادي) لأتودّد إلى الليدي لايسا آرن وأكسب ولاءها، وبمجرد أن أصبح رفيقها سأسلمكم (وادي آرن) دون أن تُراق قطرة دم واحدة».

بدا الشّك على اللورد روان وهو يتساءل: «هل ستقبل بك الليدي لايسا؟».
- «لقد قبلتني بضع مرّات بالفعل يا لورد مائيس ولم أسمع منها شكوى».
قالت سرسي: «المعاشرة ليست زواجاً، وحتى بقرة مثل لايسا آرن قد تلاحظ الفرق».

- «بالفعل. في السّابق لم يكن يليق بابنة لـ(ريقرن) أن تتزوّج واحداً أدنى منها كثيراً»، وبسط الإصبع الصّغير يديه متابعاً: «لكن الآن... القرآن بين سيّدة (العُش) وسيّد (هارنهال) ليس بالشّيء المستبعد لهذه الدّرجة، أليس كذلك؟».

لاحظ تيريون التّنظرة التي تبادلها باكستر ردواين ومايس تايرل، على حين قال اللورد روان: «قد يُفيدنا هذا إذا كنت واثقاً بقدرتك على الحفاظ على إخلاص تلك المرأة لجلالة الملك».

أعلن السّبتون الأعلى: «أيها السّادة، لقد حلّ الخريف، وكلّ الرّجال المخلصين متعبون من الحرب، فإذا كان اللورد بايلش يستطيع إعادة (الوادي) إلى سلام الملك دون إراقة المزيد من الدّم، فلا ريب أن الآلهة ستباركه».

قال اللورد ردواين: «لكن هل يستطيع؟ ابن چون آرن هو سيّد (العُش) الآن، اللورد روبرت».

أجاب الإصبع الصّغير: «مجرد صبي. سأعمل على أن يكبر ليصبح أوفى رعايا چوفري وصديقاً صدوقاً لنا جميعاً».

تفحص تيريون الرّجل النّحيل ذا اللّحية المدبّبة والعينين اللتين لا تعرفان

معنى التَّوقِير. سيّد (هارنهال) لقب فارغ؟ أخطأت تمامًا يا أبي. حتى إذا لم يَطأ القلعة بقدمه أبدًا، فمجرّد اللُّقْب يجعل تلك الزَّيْجَة ممكنةً، وهو يعرف هذا من البداية.

قال السير كيثنان لانستر: «إننا لا نفتقر إلى الأعداء. إذا كان ممكنًا أن تبقى (العُش) بمنأى عن الحرب، فهذا أفضل كثيرًا. رأيي أن نرى ما يستطيع اللورد پيتر تحقيقه».

يعلم تيريون من طول الخبرة أن السير كيثنان بمثابة طليعة أخيه في المجالس، ولا يجول بباله أبدًا خاطر لم يُراود اللورد تايوين أولاً. لقد سوِّي كلُّ شيءٍ مقدّمًا، وهذا النِّقاش ليس أكثر من تمثيليَّة.

كانت الخراف تنغو بتأييدها دون أن تُدرِك أن صوفها قد جُرِّ بمنتهى العناية، فوقَّع الاعتراض على عاتق تيريون الذي قال: «كيف سيُسدِّد النَّجَّح ديونه في غياب اللورد پيتر؟ إنه ساحر التَّقْد، وليس لدينا من يحلُّ محلَّه». ابتسم الإصبع الصَّغير قائلاً: «صديقي الصَّغير شديد اللطف. كلُّ ما أفعله هو إحصاء العُمَلات النَّحاسيَّة كما اعتادَ الملك روبرت أن يقول. أيُّ تاجرٍ بارع يستطيع أن يفعلها... أو سليل لعائلة لانستر مبارك بلمسة (كاسترلي روك) الذهبيَّة سيفوِّق عليَّ لا شك».

- «لانستر؟». لحظتها خامرَ تيريون شعور سيِّئ. قابلت عينا اللورد تايوين المرفَّقَتان بالذهبي عيني ابنه غير المتماثلتين، وقال: «أعتقد أنك مناسب تمامًا لهذه المهمَّة».

قال السير كيثنان بحماسة: «أي نعم! لا شك لديَّ في أنك ستكون أمين نقدٍ ممتازًا يا تيريون».

عادَ اللورد تايوين يلتفت إلى الإصبع الصَّغير قائلاً: «إذا قبلتكَ لايسا آرن زوجًا ورجعت إلى سلام الملك، سأردُّ لقب حاكم الشَّرْق إلى اللورد روبرت. متي يُمكنك أن تُغادر؟».

- «غداً إذا سمحت الرِّيح. ثمَّة قادم برافوسي راس وراء السِّلْسلة ويَحْمَل البضائع بالقوارب، اسمه (ملك البحار). سأكلُّم مع الرُّبَّان ليعطيني قمره».

قال مايس تايرل: «سيفوتك زفاف الملك». هزَّ پيتر بايلش كتفيه قائلاً: «المدُّ والجزر لا ينتظران أحدًا يا سيدي،

وكذلك العرائس. الرّحلة ستُصبح أخطر كثيرًا فور أن تبدأ عواصف الخريف في الهبوب، وبكل تأكيد سيُخس الغرق بحري كعريس». قهقهة اللورد تايرل، وقال: «صحيح. الأفضل ألا تتباطأ». قال السّبتون الأعلى: «فلتمنحك الآلهة الشّرة. (كينجز لاندنج) كلّها ستُصلّي من أجل نجاحك».

قرص اللورد ردواين أنفه قائلاً: «هلاً عدنا إلى مسألة تحالف جرايچوي؟ رأيي أنه سيكون مفيداً للغاية. ستُضاف سفن جرايچوي الطويلة إلى أسطولي وتُعطينا قوّة كافية في البحر لمهاجمة (دراجونستون) ووضع نهاية لادّعاءات ستانيس باراثيون».

قال اللورد تاويين برفق: «سفن الملك بالون مشغولة في الوقت الحالي، ونحن كذلك. جرايچوي يطلب نصف المملكة ثمناً للتّحالف، لكن ماذا سيفعل ليستحقّه؟ يُقاتل آل ستارك؟ هذا ما يفعله بالفعل، فلم ندفع ثمن شيءٍ أعطانا إياه مجاناً؟ رأيي أن أفضل ما نفعله بخصوص سيّد (بايك) هو لا شيء، وبعد ما يكفي من وقت قد يطرح خيار أفضل نفسه، خيار لا يتطلّب أن يتنازل الملك عن نصف مملكته».

راقب تيريون أباه مفكراً: ثمّة شيء ما لا يقوله. تذكر الرّسائل المهمّة التي كان اللورد تاويين يكتبها ليلة طالبته بـ(كاسترلي روك). ماذا قال؟ بعض المعارك يُربح بالسيوف والرّماح، وغيرها بالرّيش والغداف... تساءل من يكون ذلك «الخيار الأفضل» والثمن الذي يطلبه.

قال السير كيثان: «يجدر بنا أن نتقل إلى الرّفاف».

تكلم السّبتون الأعلى عن الاستعدادات الجارية في (سپت بيلور الكبير)، وشرحت سرسي ترتيباتها للمأدبة بالتّفصيل. سيُطعمون ألفاً في قاعة العرش، لكن أعداداً أكثر ستكون في السّاحات في الخارج، بينما ستُنصب خيام حريريّة في الأبنية الخارجيّة، فيها موائد طعام وبراميل مزر لجميع من لن تحتويهم القاعة.

قال المايستر الأكبر پايسل: «جلالة الملكة، بالنّسبة لعدد الضيوف، وصلنا غداف من (سنسپير). هناك ثلاثمئة من الدورتيين في طريقهم إلى المدينة الآن، ويأملون أن يصلوا قبل الرّفاف».

قال مايس تايرل بفظاظه وقد لاحظَ تيريون أن لون عُنته الغليظ استحال إلى الأحمر الدّاكن: «أيّ طريق يَسْلُكون؟ إنهم لم يطلبوا الإذن في عبور أرضي». لم يكن هناك وُدٌ بين الدورنيّين وأولاد (هايجاردن) قَط، وعبر القرون خاضوا حروبًا حدوديّة لا تُحصى، وتبادّلوا الغارات عبر الجبال والتُّخوم حتى في فترات السّلام. تلك العداوة ضعفت بعض الشّيء بعدما أضحّت (دورن) جزءًا من (الممالك السّبع)... إلى أن أقعدَ الأمير الدورني الملقّب بالأفعوان الأحمر وريث (هايجاردن) الشّاب في دورة مباريات. ففكر تيريون: هذه المنطقة شائكة، لكنه انتظرَ ليرى كيف سيتعامل أبوه مع الموقف. قال اللورد تاويين بهدوء: «الأمير دوران قادم بناءً على دعوةٍ من ابني، ليس للانضمام إلينا في احتفالنا فحسب، بل ليَتخذ مقعده في هذا المجلس أيضًا، ولينال العدالة التي أباه روبرت عليه لمقتل أخته إليا وطفليها».

راقبَ تيريون وجوه اللوردات تايرل وردواين وروان متسائلًا إن كان أيّهم بالشّجاعة الكافية لأن يقول: لكن أيها اللورد تاويين، ألم تكن أنت من قدّم الجثثين لروبرت ملفوفتين بمعطفين بألوان لانستر؟ لم يقلها أحد، لكنه قرأها على ملامحهم على الرغم من ذلك، وفكّر: ردواين لا يبالي بمقدار خردلة، لكن روان يبدو على وشك التّفقؤ.

قال السير كيثان مذكرًا مايس تايرل: «عندما يتزوَّج الملك ابنتك مارچري وتزوَّج الأميرة مارسلا الأمير تريستان، سنصبح كلنا عائلةً واحدةً عظيمة. يجب أن تظلّ عداوات الماضي في الماضي، ألا تتفقّ معي يا سيّدي؟» - «إنه زفاف ابنتي...».

قاطعهُ اللورد تاويين بحزم: «... وزفاف حفيدي، وليس مكانًا للصّراعات القديمة، أليس كذلك؟».

- «لستُ في صراع مع دوران مارتل»، قال اللورد تايرل بإصرار، وإن لم تغب الضّغينة عن نبرته. «إذا أرادَ أن يعبُرَ (المرعى) بسلام، فما عليه إلا أن يسألني».

فكر تيريون: فُرصة ضعيفة. سيقطع (طريق العظام) ويتّجه شرقًا بالقرب من (قلعة الصّيف)، ثم يقطع (طريق الملوك).

قالت سرسي: «لن يُفسد ثلاثمئة دورني تربياتنا. يُمكننا أن نُطعم الجنود

في السّاحة، ونَحْشُرُ عددًا من الدّكك في قاعة العرش للوردات الصّغار
والفرسان النّبلاء، ونجد موضع شرف للأمير دوران على المنصّة».
الرّسالة التي قرأها تيريون في عينيّ ميس تايرل كانت تقول: ليس إلى
جوارى، لكن سيّد (هايجاردن) اكتفى بإيماءة مقتضبة ردًّا.
قال اللورد تايوين: «فلننتقل إلى موضوعٍ أكثر مدعاةً للسرور. ثمار النّصر
تنتظر التّقسيم».

- «وهل هناك ما هو أحلى؟»، قال الإصبع الصّغير الذي ابتلع ثمرته
بالفعل، (هارنهال).

كانت لكلّ لورد مطالبه؛ هذه القلعة وتلك القرية، قطع أرض، نهر صغير،
غابة، الوصاية على قَصْرٍ معيّنين تركتهم المعركة بلا آباء. لحسن الحظّ أن
تلك الثّمار وفيرة، وهناك أيتام وقلاع للجميع. كانت مع فارس قوائم: أربعة
وسبعون من صغار اللوردات وستمئة وتسعة عشر فارسًا فقدوا حياتهم تحت
قلب ستانيس وإله الضياء النّاري، بالإضافة إلى عدّة آلاف من الجنود، وبما
أنهم خونة جميعًا فقد حُرِمَ ورثتهم من ميراثهم وذهبت أراضيهم وقلاعهم
لمن أئبّوا ولاهم.

حصدت (هايجاردن) القطاف الأثري، ورمق تيريون بطن ميس تايرل
الكبير قائلاً لنفسه: شهيتّه هائلة حقًّا. طالب تايرل بأراضي وقلاع اللورد
آلستر فلورنت، حامل رايته السّابق الذي تفرّد بالقرار الخطأ في دعم رنلي
أولاً ثم ستانيس، وقبل اللورد تايوين بسرور، وهكذا مُنحت (قلعة المياه
الوضّاءة) وجميع أراضيها ودخولها لابن اللورد تايرل الثاني، السير جارلان
الذي تحوّل إلى أحد كبار اللوردات في غمضة عين، أمّا أخوه الأكبر فسيرث
(هايجاردن) نفسها بالطبع.

بعض الأراضي الأقلّ أهميّة أُعطيَ للورد روان وبعضها خُصّصَ للورد
تارلي والليدي أو كهارت واللورد هايتاور وغيرهم من المستحقّين غير
الحاضرين، أمّا اللورد رداوين فاكتفى بطلب إعفاء لمُدّة ثلاثين سنة من
الضرائب التي يفرضها الإصبع الصّغير وبعض موزعيّ الخمر على عددٍ من
أفضل أنواع النّبذ التي تُنتجها (الكرمة)، ولمّا نال هذا أعلن أنه راضٍ تمامًا
واقترح أن يُطلبوا برميلا من النّبذ الذهبي ويشربوا نخب الملك جوفريّ ويده

الحكيم الكريم، وهنا نفذ صبر سرسي وقالت بحدّة: «چوف في حاجة إلى السُيوف لا الأناخاب. مملكته لا تزال مبتلاة بمن يُريدون اغتصاب العرش ويُسمُّون أنفسهم ملوكًا».

قال فارس بتزلُّف: «لكن هذا لن يدوم طويلًا على ما أعتقد».

ألقى السير كيفان نظرةً على أوراقه، ثم قال: «تبقت بضع بنود على القائمة. السير أدام عثرٌ على عددٍ من بلّورات تاج السّپتون الأعلى الرَّاحل، ويبدو مؤكّدًا الآن أن اللصوص خلَعوا البلّور وأذابوا الذهب».

قال السّپتون الأعلى بخشوع: «(الأب في الأعالي) يعلم ذنوبهم وسيحْكُم عليهم جميعًا».

قال اللورد تايوين: «لا أشكُّ أنه سيفعل، ومع ذلك لا بُدَّ أن تعتمر تاجًا يوم زفاف الملك. سرسي، استدعي صاغتِك ليعملوا على تاج بديل»، ولم ينتظر إجابتها والتفت في الحال إلى فارس متسائلًا: «ألديك تقارِير؟».

سحبَ الخصيُّ رقًا من كُمِّه، وقال: «ثمّة كراكن شوهدَ على مقربةٍ من (الأصابع)»، وقهقهة مواصلاً: «لا أعني أنه أحد أولاد جرايچوي، بل هو كراكن حقيقي هاجمَ سفينة صيد حيتان إينيزيَّة وأغرَقها. القتال اندلَع في جُزر (الأعتاب) واحتمال نشوب حرب جديدة بين (تايروش) و(ليس) قائم بشدّة، وكلتا المدينتين تأمل أن تربح (مير) كحليف. البحّارة العائدون من (بحر الشب) يقولون إن تنيًا ذا ثلاثة رؤوس ظهرَ في (كَارث)، وأصبحَ أعجوبة تلك المدينة...».

قاطعهُ اللورد تايوين: «التنانين والكراكن لا تهْمُني بغضِّ النَّظر عن عدد رؤوسها. هل عثرَ هامسوك على أثر لابن أخي؟».

بدا فارس كأنه على وشك الإجهاش بالبكاء وهو يُجيب: «للأسف عزيزنا تايرك اختفى تمامًا، الصّبي الشُّجاع المسكين».

قال السير كيفان قبل أن يُنقَس اللورد تايوين عن عدم رضاه الواضح: «تايوين، عدد من ذوي المعاطف الذهبيَّة الذين هربوا في أثناء المعركة بدأوا يعودون إلى الثُّكنات راغبين في استئناف ممارِسة واجهم، والسير أدام يُريد أن يعرف ماذا يفعل معهم».

قالت سرسي من فورها: «كان يُمكن أن يُعرَّضوا چوف للخطر بچبئهم هذا. أريدهم أن يُقتلوا».

زفر فارس وقال: «إنهم يستحقون الموت بالتأكيد يا جلالة الملكة، ولا أحد يُنكر هذا، لكن ربما القرار الأكثر حكمة أن نُرسلهم إلى حرس الليل. لقد وصلتنا رسائل مُقلقة للغاية من (الجدار) عن تحركِ للهَمَج...».

ضاحكًا قال مايس تايرل: «هَمَج وكراكن وتنانين. أليس هناك من لا يتحرك الآن؟».

تجاهل اللورد تايوين التعليق، وقال: «المتهَرَّبون سيخدموننا أفضل إذا أصبحوا عبرة. اكسر رُكبهم بالمطارق ولن يهربوا ثانية، ولن يهرب كل من يراهم يتسولون في الشوارع»، وتطلع عبر الطاولة ليرى إن كان أحد اللوردات الآخرين يُخالفه الرأى.

تذكر تيريون زيارته إلى (الجدار)، وسرطان البحر الذي تناوله مع اللورد مورمونت العجوز وقيميهِ، وتذكر مخاوف الدب العجوز أيضًا، فقال: «ربما يُمكننا أن نكسر رُكب عددٍ منهم لتصل الرسالة كاملة، الذين قتلوا السير چاسلين مثلًا، ونُرسل البقية إلى مارش. قوّة حرس الليل واهية تمامًا، وإذا اخترق (الجدار)...».

أنهى أبوه عبارته: «... سيدقق الهَمَج على الشمال، وسيصبح أمام آل ستارك وآل جرايچوي عدوًا آخر يُقاتلونه. إنهم لم يعودوا راغبين في أن يكونوا رعايا للعرش الحديدي، فبأي حقّ يطُلبون منه الدّعم؟ كلا الملك روب والملك بالون يُريد أن يحكم الشمال. فليُدافع عنه إذن إن استطاعا، وإذا لم يستطيعا فلربما يتضح أن هذا المانس رايدر حليف مفيد»، والتفت إلى أخيه سائلاً: «هل هناك المزيد؟».

هزّ السير كيثان رأسه نفياً، وقال: «انتهينا. أيها السّادة، لا شكّ أن جلالة الملك چوفري سُرّيد أن يشكركم على حكمتكم ونصائحكم السّديدة».

قال اللورد تايوين بينما نهض الآخرون ليُغادروا: «أريدُ التحدّث على انفراد مع ابني وابنتي، وأنت أيضًا يا كيثان».

بطاعة ألقى بقية المستشارين التّحية وخرجوا، أولهم فارس وآخرهم

تايرل وردواين، وأغلقَ السير كيثان الباب حين خَلَّت القاعة من الجميع باستثناء أولاد لانستر الأربعة.

قال تيريون بصوتٍ مشدود: «أمين النَّقد؟ فكرةٌ من هذه؟».

أجابَه أبوه: «اللورد پيتر، لكن من المفيد لنا أن تكون الخزانة في يد لانستر. لقد طلبت عملاً مهمًّا، فهل تخشى أنك غير كفء لهذا الواجب؟».

- «لا، أخشى شَرَكًا. الإصبع الصَّغير خبيث وطموح ولا أتقُّ به، ولا ينبغي لك أن تتقُّ به كذلك».

قالت سرسي: «لقد نجحَ في ضَمِّ (هايجاردن) إلى صفوفنا...».

- «... وباعك ند ستارك، أعرف، لكنه سيبيعنا بالشُّرعة نفسها. العُملة لا تقلُّ خطورةً عن السَّيف في اليد الخطأ».

رمقه عمُّه كيثان باستغرابٍ قائلاً: «الخطر ليس علينا بالتأكيد. ذهب (كاسترلي روك)...».

- «... يُستخرَج من الأرض، على حين يُطرقع الإصبع الصَّغير بأصابعه ويأتي بالذهب من الهواء».

بصوتٍ محلَّى بالنَّقمة قالت سرسي كهرةً تُقرقر: «وهي الموهبة المفيدة أكثر من أيِّ من مواهبك يا شقيقي العزيز».

- «الإصبع الصَّغير كذاب...».

- «... وأسود أيضًا. الغداف يُعيِّرُ الغراب».

صَفَقَ اللورد تايوين الطَّاولَةَ بيده قائلاً بصرامة: «كفى! لن أسمح بالمزيد من هذا النَّقار الذي لا يليق. أنتما من عائلة لانستر، وستصرَّفان كما يقتضي هذا».

تنحَنَجَ السير كيثان، وقال: «أفضلُ أن يحكُم پيتر بايلش (العُش) على أيِّ من خطاب الليدي آريا الآخرين. پون رويس، لين كوربراي، هورتون ردفورت... هؤلاء رجالُ خطرون، كل على طريقته، وشديدو الإباء. قد يكون الإصبع الصَّغير ذكيًّا، لكنه ليس عالي النَّسب ولا يُجيد القتال، ولن يقبل لوردات (الوادي) أحدًا مثله وليًّا عليهم»، ونظرَ إلى أخيه فأوماً اللورد تايوين برأسه متفقًا، وهكذا تابع: «وهناك أيضًا أن اللورد پيتر مستمرُّ في البرهنة على وفائه. أمس فقط أتانا بخبرٍ عن مكيدةٍ لآل تايرل لأخذ سانزا

ستارك في «زيارة» إلى (هايجاردن)، حيث ستتزوج ابن اللورد مايس الكبير و«يلاس».

مال تيريون على الطاولة قائلاً: «الإصبع الصغير هو من أتاكم بالخبر وليس ولي الهامسين؟ هذا شائق حقاً».

حدّثت سرسي عمّها بغير تصديق، وقالت: «سانزا رهيتي، ولا تذهب إلى أيّ مكان دون إذني».

قال أبوهما: «إذن ستضطرّين إلى إعطائه إذا طلب اللورد تايرل، فالرّفص بمثابة إعلان عن أننا لا نثق به، وسيشعر بالإهانة».

- «فليشعر بالإهانة. لماذا نكرث؟».

فكر تيريون: يا لحماقتك، وخاطب أخته قائلاً بصبر: «يا أختي العزيزة، أهيني تايرل وستُهينين رداوين وتارلي وروان وهاتاور أيضاً، وربما تجعلينهم يتساءلون إن كان روب ستارك ميّالاً لتحقيق رغباتهم أكثر».

أعلن اللورد تايوين: «لن أسمح بأن تنام الوردة في أحضان الذئب الرّهيب. يجب أن نسبقهم بالتحرّك».

سألته سرسي: «كيف؟».

- «بالزّواج، زواجك كبدية».

كان الرّدّ مباعثاً لدرجة أن سرسي عجزت عن الكلام وهلّة وأخذت تحمّلِق إليه وقد احتقنت وجنتها كأن هناك من صفعها، قبل أن تقول: «لا، ليس ثانية، لن يحدث».

قال السير كيثان بكياسة: «جلالة الملكة، إنك ما زلتِ شابّة جميلة خصيبة، ومؤكّد أنك لا ترغبين في قضاء بقية أيامك وحدك، كما أن زواجك من جديد سيضع حدّاً لذلك الكلام عن سفاح القربى».

قال اللورد تايوين لابنته: «ما دمتِ عزباء ستظّلين سامحةً لستانيس بنشر افتراءاته المقزّزة. يجب أن تأخذي زوجاً جديداً إلى فراشك ليُنجب منك أطفالاً».

- «ثلاثة أطفال يكفون تماماً. أنا ملكة (الممالك السبع) ولستُ فرساً

للاستيلاذ! الملكة الوصيّة على العرش!».

- «أنتِ ابنتي، وستفعلين كما تُؤمرين».

قامت قائلةً: «لن أجلس هنا وأسمع هذا ال...».

قاطعها اللورد تايوين بهدوء: «ستفعلين إذا كنتِ تُريدين أن يكون لك رأي في اختيار زوجك القادم».

عندما ترددت ثم عاودت الجلوس أدرك تيريون أنها خسرت، على الرغم من إعلانها أنها لن تتزوج من جديد.

بدأت عينا أبيهما كأنهما تُبْتَانِها إلى كرسيها وهو يقول: «ستتزوجين وتنجبين. كل طفل تُنجبينه سيجعل أكاذيب ستانيس تبدو جليّة أكثر. مايس تايرل وباكستر ردواين ودوران مارتل متزوجون بنساء أصغر منهم وسيموتون قبلهن غالباً، وزوجة بالون جرايچوي مسنة وسقيمة، لكن زيجة كتك ستلزمنا بالتحالف مع (جزر الحديد)، وما زلتُ أتدبّر إن كان هذا أكثر خياراتنا حكمة».

قالت سرسي بشفتين غاضبت منهما الدماء: «لا، لا، لا، لا».

بالكاد استطاع تيريون أن يكتم الابتسامة العريضة التي ارتسمت على شفثيه وهو يفكر في أن أخته قد تُشحن شحنًا إلى (بايك). كنتُ على وشك الإقلاع عن الصلاة، ثم يأتي إله جميل ويُعطيني هذا.

تابع اللورد تايوين: «قد يكون أوبرين مارتل ملائمًا، لكن آل تايرل سينزعجون من هذا كثيرًا، لذا علينا أن نتطلع إلى الأبناء. أعتقد أنك لا تعترضين على الزواج برجل أصغر منك».

- «إنني أعارضُ على الزواج بأي...».

- «لقد فكرتُ في توأمي ردواين وثيون جرايچوي وكويتتن مارتل وعدد من الآخرين، لكن حلفنا مع (هايجاردن) هو السيف الذي طعنًا به ستانيس، وعلينا تسقيته وتقويته. السير لوراس انضم إلى الحرس الملكي، والسير جارلان متزوج بواحدة من بنات فوسواي، لكن يتبقى الابن الأكبر، الولد الذي تأمروا على تزويجه بسانزا ستارك».

ويلاس تايرل. كان تيريون يتلذذ بمتهى اللؤم بغضبة سرسي العاجزة، وقال: «يعني الابن العاجز».

رماه أبوه بنظرة تُجَمِّد الدماء في العروق قائلاً: «ويلاس وريث (هايجاردن)، وكل ما يُقال عنه إنه شاب رفيع دمث مغرم بالقراءة ومراقبة

النُّجوم، ويحبُّ تربية الحيوانات أيضًا ويملك أفضل الصُّقور وكلاب الصَّيد والخيول في (الممالك السَّبع) كلِّها».

فكر تيريون باستمتاع: كلاهما مثالي للآخر. سرسي أيضًا مغرمة بتربية الحيوانات. أحسَّ بالشفقة على ويلاس تايرل المسكين، ولم يدر إن كان يُريد أن يضحك من أخته أم يبكي عليها.

ختم اللورد تايوين كلامه بقوله: «أرى أن وريث تايرل الخيار الأفضل، لكن إذا كنتِ تُفضِّلين غيره فسأسمع أسبابكِ».

قالت سرسي بكياسة من جليد: «هذا لطف بالغ منك يا أبي. لقد أعطيتني خيارًا صعبًا حقًّا. مَنْ أفضلُ أن آخذه إلى فراشي؟ الحَبَّار العجوز أم صبي الكلاب العاجز؟ سأحتاجُ إلى بضعة أيام للتفكير. هل تسمح لي بالانصراف؟».

أرادَ تيريون أن يقول: إنكِ الملكة، والمفترض أن يطُلب هو إذنك في الانصراف.

قال أبوهما: «اذهبي. ستتكلَّم ثانيةً بعد أن تهديني. تذكَّري واجبك».

تحرَّكت سرسي بجمود مغادرةً المكان وملامحها تمور غضبًا. لكنها ستُنقذ ما يُريده أبونا في النهاية. لقد أثبتت هذا مع روبرت. مع أن لا بُدَّ من وضع چايمي في الاعتبار. كان أخوهما أصغر كثيرًا حين تزوجت سرسي أول مرَّة، وربما لا يقبل بزيعة ثانية بالسهولة نفسها. غالبًا سيُصاب ويلاس تايرل التَّعس بحالة مفاجئة من اختراق السَّيف للبطن! شيء كهذا سيُفسد التَّحالف بين (هايجاردن) و(كاسترلي روك). يجدرُ بي أن أقول شيئًا، لكن ماذا؟ معذرةً يا أبي، لكن من توتُّر سرسي أن تتزوَّج هو أخونا؟ - «تيريون».

قال بابتسامةٍ متحفِّظة: «هل أسمعُ الحاجب يستدعيني إلى مضممار القتال؟».

بادره أبوه بلا مقدِّمات: «علاقاتك بالعاهرات نُقطة ضعف فيك، لكن ربما يقع جزء من اللوم عليَّ أيضًا، بما أنك لست أطول قامَةً من غلام صغير، الشَّيء الذي جعلني أنسى بسهولة أنك رجل بالغ تُراوده احتياجات الرِّجال الوضيعة. أن أوان أن تتزوَّج».

كنت متزوجًا فعلاً، أم أنك نسيت؟ التوى فم تيريون، والصَّوت الذي خرجَ منه كان نصفه ضحكة ونصفه زمجرة.

- «هل تجد فكرة الزَّواج طريفةً؟».

- «ما أجده طريفاً هو العريس بهي الطَّلعة الذي سأكونه». قد يكون الزَّواج الشَّيء الذي يحتاج إليه تحديداً، فإذا جلبت تلك الزَّيجة معها أراضي وقلعة سيكون لديه مكان في العالم بعيداً عن بلاط چوفري... وعن سرسي وأبيهما. من ناحيةٍ أخرى هناك شَيء. لن يروفا هذا إطلاقاً على الرغم من حلفانها أنها راضية بكونها عاهرتي.

بالطبع ليست هذه بالحجَّة التي يُمكنها أن تُبدل رأي أبيه. هكذا اعتدل تيريون رافعاً نفسه، وقال: «تريد أن تُزوَّجني سانزا ستارك، لكن أُلن يعدُّ آل تايرل زواجاً كهذا إهانةً ما دامت لديهم خُططهم الخاصَّة بشأن الفتاة؟».

- «اللورد تايرل لن يفتح موضوع ابنة ستارك إلا بعد زفاف چوفري. إذا تزوجت سانزا قبل هذا، فكيف يعدُّها إهانةً وهو لم يلمح إلى نيَّته إطلاقاً؟».

قال السير كيثان: «بالضَّبط، كما أن عرض زواج سرسي بابنه ويلاس من شأنه أن يُهدِّئ أي مشاعر سيئة».

فرك تيريون جدعةً أنفه شاعراً بحكَّةٍ شديدة في قشرة الجرح كما يحدث أحياناً، وقال: «جلالة الدَّمَل الملكي حوَّل حياة سانزا إلى جحيم منذ مات أبوها، والآن وقد تخلَّصت أخيراً من چوفري تُريد أن تُزوَّجها بي؟ هذه قسوة شديدة يا أبي، حتى بالنسبة إليك».

حملت نبرة أبيه من الفضول أكثر من الاهتمام وهو يقول: «لماذا؟ هل تنوي أن تُسيء معاملتها؟ سعادة الفتاة ليست هدفي، ولا ينبغي أن تكون هدفك كذلك. حلفنا في الجنوب قد يكون قوياً كـ(كاسترلي روك) نفسها، لكن علينا أن نريح الشَّمال أيضاً، وسانزا ستارك مفتاح الشَّمال».

- «إنها مجرد طفلة».

- «أختك تُؤكِّد أنها أزهرت. إذا كان هذا صحيحاً فهي امرأة صالحة للزَّواج. عليك أن تأخذ بكورتها كي لا يقول أحد إن الزَّيجة ليست شرعيَّةً، وبعدها إن كنت تُحبِّذ أن تنتظر عامًا أو عامين قبل أن تنام معها ثانيةً، سيكون لديك الحق باعتبارك زوجها».

شاي هي المرأة الوحيدة التي أحتاج إليها الآن، وسانزا ما زالت طفلةً مهمما قالوا. «إذا كان غرضك أن تُبعدها عن آل تايرل، فلِمَ لا تُعيدها إلى أمِّها؟ قد يجعل هذا روب ستارك يقتنع بالخضوع».

رمقه اللورد تاويين بسخرية قائلاً: «أرسلها إلى (ريقرن) وستزوجها أمها بواحدٍ من عائلة بلاكوود أو مالستر لتقوية تحالفات ابنها في أراضي النهر. أرسلها شمالاً وسيزوجونها بواحدٍ من عائلة ماندرلي أو أومبر قبل أن يدور القمر. لكنها ليست أقلَّ خطورةً هنا في البلاط كما أثبتت خطط عائلة تايرل. لا بُدَّ أن تتزوج من عائلة لانستر، وقریباً».

أضاف عمه كيثان: «من يتزوج سانزا ستارك يُمكنه أن يحكم (وينترفل) باسمها. ألم تُفكر في هذا؟».

قال أبوه: «إذا كنت لا تُريد الفتاة فسنعطيها لأحد أبناء عمومك. كيثان، هل تعتقد أن لانسلي قوي بما فيه الكفاية للزواج؟».

أجاب السير كيثان بتردد: «إذا جلبنا الفتاة عند فراشه فيمكنه أن يرُدَّ التذوور... لكن لإتمام الزيجة، لا... كنت لأقترح أحد التوأمين، لولا أنهما أسيران لدى ستارك في (ريقرن)، بالإضافة إلى ابنِ جنا الذي كان ليصلح أيضاً».

تركهما تيريون يتكلمان عالماً أن كلامهما في صالحه ومفكراً: سانزا ستارك. سانزا رقيقة الكلام عذبة الابتسام، التي تحبُّ الحرير والأغاني والفُرسان الشُّجعان طوال القامة ذوي الملامح الوسيمة. أحسَّ كأنه عادَ إلى جسر السفن المتقلقل أسفل قدميه.

قال له اللورد تاويين بصرامة: «لقد طلبت مني أن أكافئك على جهودك في المعركة، وهذه فرصة لك يا تيريون، أفضلُ فرصةٍ ستحظى بها»، ونفرت أصابعه على الطاولة بصبر نافذ وهو يُواصل: «أملتُ من قبل أن أزوج أخاك بلايسا آرن، لكن إيرس ضمَّ چايمي إلى حرسه الملكي قبل اكتمال الترتيبات، ولمَّا اقترحتُ على اللورد هوستر أن تتزوجك لايسا بدلاً منه أجبَّ بأنه يُريد رجلاً كاملاً لابنته».

وهكذا زوجها بچون آرن الذي كان في سنِّ جدِّها. لكن شيئاً كهذا أشعر تيريون بالامتنان أكثر من الغضب، باعتبار ما أصبحته لايسا آرن الآن.

تابع اللورد تاويين: «ولمّا عرضتكَ على (دورن) قيلَ لي إن اقتراحًا كهذا إهانة، وفي السَّنوات التَّالية جاءتني ردود مشابهة من يون رويس ولايتون هايتاور، وأخيرًا بلغَ بي التنازُّلُ أن أقتَرح أن تتزوَّج ابنة فلورنت التي قطفَ روبرت زهرتها في فراش زفاف أخيه، لكن أباهما فضَّل أن يُعطيها لأحد فُرسانه. إذا كنت لا تُريد ابنة ستارك، فسأعثرُ على زوجةٍ أخرى لك. لا شكَّ أن في البلاد لوردًا صغيرًا ما سيُسعدُه التَّخلي عن ابنته مقابل أن يربح صداقة (كاسترلي روك). الليدي تاندا عرضت لوليس...».

قال تيريون وهو يرتجف رُعبًا: «أفضَّلُ أن أقطعه وأطعمه للماعز!».

- «افتح عينيك إذن. ابنة ستارك صغيرة وخانعة وفي سنِّ الزواج، بالإضافة إلى كونها عالية النسب ولا تزال عذراء، وحسنة علاوةً على كل هذا، فلماذا تتردَّد؟».

لماذا حقًّا؟ «واحدة من خصالي أني أفضَّلُ زوجةً تُريدني في فراشها».

- «إذا كنت تحسب أن عاهراتك يُردنك في فراشهن فأنت أكثرُ حمقًا مما حسبتُ. إنك تُخيِّبُ أُملي يا تيريون. كنتُ أظنُّ أن زيجتهُ كهذه ستسُرُّك».

- «نعم، وكلنا نعلمُ أهميَّةَ مسرَّتِي عندك يا أبي، لكن هناك المزيد مما يجب أن يُقال. تقول إنها مفتاح الشَّمال؟ آل جرايچوي هُم من يُسيطرون على الشَّمال الآن، والملك بالون لديه بنت، فلماذا سانزا ستارك وليس هي؟»، ونظرَ إلى أبيه في عينيه الخضراوين الباردتين بما فيهما من رُقِطٍ من الذهبي البراق.

شبَّك اللورد أصابع يديه تحت ذقنه مجيبًا: «بالون جرايچوي يُفكِّر بلُغة السِّلَب والتَّهَب وليس الحُكم. دعه يستمتع بتاج الخريف ويُعاني من شتاء الشَّمال، فلن يمنح رعاياه سببًا يجعلهم يُحبُّونه. بمجرد أن يأتي الرِّبيع سيكون الشَّماليون قد ضاقوا ذرعًا بالكراكن، وعندما تذهب شمالًا بحفيد إدارد ستارك ليأخذ حقَّه بالميلاد، سيهبُّ اللوردات والعوام متَّحدين معًا ليعصوه على مقعد أسلافه العالي. أملُ أنك قادر على أن تحبل منك امرأة، ليس كذلك؟».

أجابَ مغضبًا: «نعم! أعتَرُفُ بأنِّي لا أستطيعُ أن أثبتَ هذا، لكن لا أحد يُمكنه أن يقول إنني لم أحاول. إنني أزرعُ بذوري كلما سنحت الفرصة...».

- «... في الأزقة والبالوعات، في تربة لا يمكن أن تثبت فيها إلا بذرة النُغول. حان الوقت لأن تعتنني بحديقتك الخاصة»، ونهض أبوه مردفاً: «لن تحظى بـ(كاسترلي روك) أبداً وهذا وعد، لكن تزوج سانزا ستارك وسيكون وارداً للغاية أن تربح (وينترفل)».

تيريون لانستر، حافظ (وينترفل). جعلت الفكرة رعدةً عجيبةً تسري فيه، وقال ببطء: «لا بأس، لكن ثمة مشكلة كبيرة فاتتك. أعتقد أن روب ستارك قادر تمامًا مثلي على الإنجاب، وقد تعهد بأن يتزوج واحدة من فتيات فراي المعروفات بخصوصيتهن، وبمجرد أن يصبح للذئب الصغير وريث فكل الجراء التي تلدها سانزا سترث الهواء».

لم يبدُ التآثر على اللورد تايوين، وقال: «روب ستارك لن يُنجب أيّ أبناء من ابنة فراي الخصيية، لك كلمتي. هناك خبر لم أره مناسباً لأن يطلع عليه المجلس بعد، مع أنه سيبلغ اللوردات الأعزّاء قريباً لا ريب. الذئب الصغير اتخذ ابنة جاون وسترلينج الكبرى زوجة».

مرّت لحظة وتيريون لا يُصدّق أن ما سمعه من أبيه صحيح، قبل أن يقول مذهولاً: «حنت بقسمه؟ نبذ عائلة فراي من أجل...». خذله الكلام ولم يستطع أن يكمل.

قال السير كيثان: «إنها فتاة في السادسة عشرة اسمها چاين. كان اللورد جاون قد اقترحها عليّ ذات مرّة لويلم أو مارتن، لكنني رفضتُ مضطراً. جاون رجل صالح، لكنه متزوج بسبيل سبائسر، امرأة لم يكن ينبغي أن يتزوجها قط، لكن لطالما كان شرف آل وسترلينج أقوى من ذكائهم. جدّ الليدي سبيل كان يُناجر في الزعفران والفلفل، وضيع الميلاد كالمهرب الذي يلازم ستانيس، والجدّة كانت امرأة جاء بها من الشرق، عجوزاً شمطاء مخيفة يُفترض أنها راهبة، وكانوا يُسمونها المايجي. لا أحد كان يعرف كيف ينطق اسمها الحقيقي، واعتاد نصف سُكّان (لانسپورت) الذهاب إليها من أجل الأدوية وعقاقير الذكورة وما إلى ذلك»، وهزّ كتفيه مضيئاً: «لقد ماتت منذ زمن طويل بالطبع، وچاين بدت فتاةً عذبةً بالفعل، مع أنني لم أرها إلا مرّة، لكن مع نسب كهذا...».

لم يستطع تيريون أن يُشارك عمّه تخوّفه من تزويج ابنه فتاةً كان جدّها الكبير يبيع القرنفل، بما أنه تزوج عاهرة عن نفسه، لكن مع ذلك... السير كيثان قال

إنها فتاة عذبة، إلا أن سموماً كثيرةً عذبة الطعم أيضاً. عائلة وسترلينج عريقة، لكنها تتمتع بالكبرياء أكثر من السطوة، ولن يتعجب إذا عرف أن الليدي سبيل ساهمت في هذه الزيجة بثروة أكبر من زوجها النبيل. لقد نصبت مناجم وسترلينج منذ زمن طويل، وأفضل أراضيهم بيع أو فُقد، و(الجُرف) أقرب إلى الخرابة من القلعة. لكنها خرابة رومانسية ترتفع بشموخ فوق البحر. قال تيريون مقراً بمشاعره: «إنني مندهش. حسبت روب ستارك أذكى من هذا». قال اللورد تايوين: «إنه صبيٌّ في السادسة عشرة من عمره، وفي هذه السن لا يزن الذكاء كثيراً أمام الشهوة والحُب والشرف».

- «لقد تراجع في كلمته وأهان حليفاً وحنكاً بيمينه، فأين الشرف في هذا؟».

أجابته عمه: «لقد اختار شرف الفتاة فوق شرفه، فلم يكن أمامه سبيل آخر بعدما قطفَ زهرتها».

قال تيريون بلا مواربة: «كان الأفضل أن يتركها بنغل في بطنها». الآن من الممكن أن يخسر آل وسترلينج كل شيء؛ أراضيهم وقلعتهم وحياتهم نفسها. اللانستر يسدّد ديونه دائماً.

قال اللورد تايوين: «چاين وسترلينج ابنة أمها، وروب ستارك ابن أبيه». لم يبدُ أن خيانة عائلة وسترلينج أغضبت أباه كما كان تيريون ليتوقع، فاللورد تايوين لا يسمح أبداً بغدر كهذا من أتباعه. لقد أباد آل راين أولاد (كاستامير) الفخورين وآل تارباك أولاد (بهو تارباك) الضارين في القدم عن آخرهم وهو لا يزال صبيّاً، حتى إن المطربين ألّفوا أغنيةً بالغة الكآبة عن تلك الحادثة، وبعد عددٍ من السنوات، عندما خاصمه اللورد فارمان سيّد (القلعة القصية)، أرسل اللورد تايوين مندوباً يحمل وعداً بدلاً من رسالة، لكن بمجرد أن سمع (أمطار كاستامير) تردد في قاعته، أحجم اللورد فارمان عن المزيد من المتاعب، وإذا لم تكن الأغنية كافيةً، فأطلال قلعتي راين وتارباك ما زالت موجودةً كشاهدٍ صامتٍ على المصير الذي ينتظر كل من يستهين بقوة (كاسترلي روك).

قال تيريون: «(الجُرف) ليست بعيدةً عن (بهو تارباك) و(كاستامير). كان المرء ليحسب أن آل وسترلينج مرّوا هناك ورأوا الدرس».

رَدَّ أبوه: «ربما فعلوا. إنهم يتذكرون (كاستامير) جيِّدًا جدًّا، أو كدُّ لك».

- «هل يُمكن أن آل وسترلينج وسپايسر بالحُقم الذي يجعلهم يتصوِّرون أن الذئب يستطيع أن يهزم الأسد؟».

كلَّ حين من الدَّهر يُهدِّد اللورد تايوين بالابتسام. إنه لا يبتسم أبدًا، لكن التَّهديد وحده رهيب بما فيه الكفاية. هكذا قال: «أكبر الحمقى غالبًا أذكى ممن يضحكون عليهم»، ثم أضاف: «ستتزوِّج سانزا ستارك يا تيريون، وقريبًا».

كاتلين

دخلوا حاملين الجثتين على الأكتاف ووضعوهما أمام المنصة، وأتاحت الصمت الذي ران على القاعة المضاءة بالمشاعل لكاتلين أن تسمع جراي ويند يعوي على الجانب الآخر من القلعة، ففكرت: إنه يشم الدم عبر الجدران الحجر والأبواب الخشب، عبر الليل والمطر ما زال يُمير رائحة الموت والدمار.

وقفت إلى يسار روب عند المقعد العالي، وأحست لحظة كأنها تنظر إلى ابنها الميتين بران وريكون. هذان الصبيان كانا أكبر بعدة سنوات، لكن كان الموت قاصحهما، ومع غريهما وابتلالهما بديا شيتين صغيرين ثابتين لدرجة جعلت تذكر أنهما كانا حيين عسيرا.

كان الصبي الأشقر يحاول أن يطلق لحيته، فغطى الزغب الأصفر الباهت وجنتيه وفكه فوق الخراب الأحمر الذي أحدثه السكين في عنقه، وكان شعره الذهبي الطويل لا يزال مبتلا كأنهم جثوه من الحمام. وشى منظره بأنه مات بسلام، ربما وهو نائم، لكن ابن عمته ذا الشعر البني قاتل دفاعا عن حياته، ولاحت على ذراعيه الجروح التي أصابوه بها وهو يحاول أن يصد النصال، بينما ظل الأحمر يسيل من الطعنات التي غطت صدره وبطنه وظهره كأنها أفواه عديدة بلا ألسنة، مع أن المطر غسله حتى كاد ينظفه.

اعتمر روب تاجه قبل أن يدخل القاعة، والتمع البرونز بلون قاتم في ضوء المشاعل، وأخفت الظلال عينيه وهو يتطلع إلى الميتين. هل يرى بران وريكون أيضا؟ كانت لتبكي لولا أن دموعها كلها نفذت. أصاب طول الحبس الصبيين بالشحوب، وقد كان كلاهما وسيما، فبدا الدم على بشرتهما البيضاء

النَّاعمة شديداً الاحمرار على نحو صادم، النَّظَرُ إليه لا يُحْتَمَلُ. هل سيُمدَّدون
سانزا عاريةً أمام العرش الحديديّ عندما يقتلونها؟ هل سيبدو جلدُها بهذا
البياض ودمها بهذا الاحمرار؟

من الخارج جاء صوت انهمار المطر الثَّابِتِ وُغَوَاءِ ذَنْبٍ لا ينقطع.
وقَفَ أخوها إدميور إلى يمين روب واطعاً يده على ظَهْرٍ مقعد أبيه ووجهه
لا يزال متفتِّحاً من النَّومِ. لقد أيقظوه كما أيقظوه، قرعوا بابه في جوف الليل
وانتزعوه بفضاظةٍ من أحلامه. أكانت أحلاماً حُلوةً يا أخي؟ هل تحلم بنور
الشَّمْسِ والضَّحْكِ وقُبَلات الفتيات؟ أتمنّى هذا. أحلامها هي كانت مدلهمةً
محفوظةً بالأهوال.

انتشر قادة روب وحملة رايته في القاعة، بعضهم بدروعه وأسلحته،
وغيرهم شعره منفوش وثيابه مجعّدة بدرجات متفاوتة، وبينهم السير راينالد
وخاله السير رولف، لكن روب لم يشأ أن ترى ملكته هذه الفضاغة. (الجُرف)
ليست بعيدةً عن (كاسترلي روك)، ووارد للغاية أن چاين اعتادت أن تلعب مع
هذين الصَّبِيَّين لَمَّا كانوا أطفالاً.

عادت تتطلّع إلى جِثَّتِي المُرافِقِيْن تيون فراي وويلم لانستر، وانتظرت أن
يتكلّم ابناها.

بدا كأن وقتاً طويلاً جداً مرَّ قبل أن يرفع روب عينيه عن القتيلين الدّاميين
ويقول: «چون الصَّغير، قُل لأبيك أن يُدخِلهم»، وبصمت خرج چون أومبر
الصَّغير يُلبّي الأمر وأصداء خُطاه تتردّد في القاعة الحجريّة الكبيرة.

لاحظت كاتلين وچون الكبير يَدْخُلُ بسُجْنائِهِ أن بعض الرِّجال الآخرين
تراجعوا ليُفسِّحوا لهم الطَّرِيقَ، كأن عدوى الخيانة يُمكنها أن تنتقل إليهم
باللمس أو النَّظَرِ أو السُّعال. لم يبدُ لها الاختلاف كبيراً بين الأسرين
وأسراهم، كلُّهم رجال كبار الحجم ذوو لحي كثة وشعور طويلة، وتبيّنت أن
اثنين من رجال چون الكبير وثلاثة من السُّجْناء جرحى، ولم يُفرَّق بين هؤلاء
وأولئك إلا أن بعضهم يحمل السُّيوف والحِراب وبعضهم أغمدته خاوية،
وقد ارتدوا جميعاً قمصان الحلقات المعدنيّة والأحذية الثَّقيلة والمعاطف
السَّميكة المفصّلة إمّا من الفرو وإمّا من الصُّوف. الشَّمال قاس وبارد وبلا
رحمة. هكذا قال لها ند حين دخلت (ويتترفل) أول مرّة قبل ألف عام.

قال روب عندما مثل الشُجْءَ أمامه صامتين مبتلّين: «خمسة. أهؤلاء جميعهم؟».

دمدمَ چون الكبير: «كانوا ثمانيةً. قتلنا اثنين ونحن نقبض عليهم، والثالث يُحتَضِرُ».

نفَحَصَ روب وجوه الشُجْءِ، وقال: «إذن تطلّب اغتيال مُرافِقَيْنِ أعزّلين ثمانيةً منكم».

رفعَ إدْميور صوته قائلاً: «اغتالوا اثنين من رجالي أيضاً ليدخلوا البُرج، دلِّبْ وإلّوود».

قال اللورد ريكارد كارستارك دون أن تُزعِجه الجبال التي تُقَيِّدُ معصميه أكثر من الدّم الذي سأل على وجهه: «لم يكن اغتيالاً أيها الفارس. كلُّ مَنْ يعترض الطّريق بين الأب وانتقامه يطلّب الموت طلباً».

دقّت كلماته في أُذُنَيْ كاتلين بقسوة وخشونة طبول الحرب، وأحسّت بحلقها جافاً كالعظام وهي تقول لنفسها: أنا من اقترفَ هذا. الصَّبِيَّانِ ماتا كي تحيا ابنتاي.

قال روب للورد كارستارك: «لقد رأيتُ ابنيك يموتان ليلة (الغابة الهامسة). تيون فراي لم يَقْتُلْ تورين، ويلم لانستر لم يَقْتُلْ إدارد، فكيف تصف هذا بالانتقام؟ ما فعلته حماقة، وجريمة قتل. ابنك ماتا بشرفٍ في ميدان المعركة، كلاهما بسيفه في يده».

قال اللورد كارستارك دون أن يتزحّح قيد أنملة: «لكنهما ماتا، أسقطهما قاتِلُ الملك، وهذان الاثنان كانا من جنسه. وحده الدّم يُعَوِّضُ عن الدّم».

أشارَ روب إلى الجثَّتَيْنِ قائلاً: «دم الأطفال؟ كم كان عُمرهما؟ اثني عشر عاماً؟ ثلاثة عشر؟ كانا مُرافِقَيْنِ!».

- «المُرافِقون يموتون في كلِّ معركة».

- «يموتون وهم يُقَاتِلون، نعم. تيون فراي وويلم لانستر استسلما في (الغابة الهامسة). كانا أسيرين، حبيسين في زنزانة، نائمين، أعزّلين، صبيّين... انظُرْ إليهما!».

بدلاً من هذا نظرَ اللورد كارستارك إلى كاتلين، وقال: «قلْ لأمك أن تنظُرْ إليهما. إنها مسؤولة عن قتلها مثلي تماماً».

وضعت كاتلين يدها على ظهر مقعد روب وشعرت بالقاعة تدور من حولها وبأنها على وشك إفراغ معدتها.
قال روب بغضب: «أمي لا علاقة لها بهذا. إنها صنيعتك، جريمتك، خيانتك».

سأل اللورد كارستارك بخشونة: «كيف يكون قتل أولاد لانستر خيانةً على حين لا يُعدُّ تحريرهم كذلك؟ هل تنسى جلالتك أننا في حرب مع (كاسترلي روك)؟ في الحرب يُقتل الرّجل أعداءه، أم أن أباك لم يُعلمك هذا يا ولد؟».
ردّ چون الكبير: «ولد؟!»، وسدّد إلى ريكارد كارستارك لكمةً بقبضته المقفزة بالمعدن أسقطته على رُكبتيه.

صاح روب: «دعه!»، فتراجع أوامر مبتعداً عن الأسير.
بصق اللورد كارستارك سناً مكسورةً، وقال: «نعم يا لورد أومبر، دعني للملك. إنه يريد أن يُوبّخني قبل أن يعفو عني. هكذا يتعامل مع الخيانة ملكنا في الشّمال»، وأضاف بابتسامةٍ بليلة حمراء: «أم أن عليّ أن أدعوك بالملك الذي فقد الشّمال يا جلالة الملك؟».

اختطفَ چون الكبير حرباً من الرّجل المجاور له، ورفعها إلى كتفه قائلاً:
«دعني أطعنه يا مولاي، دعني أفتح بطنه لنرى لون أحشائه».
فجأةً انفتح باب القاعة بعنف، ودخل السمكة السوداء والماء يسيل من معطفه وخوذته، وتبعه عدد من جنود تلي إلى الدّاخل بينما شقّت ألسنة البرق السّماء في الخارج وهطلت الأمطار السوداء بمتتهى الغزارة على أحجار (ريقررن).

خلع السير برايندن خوذته وجثا على رُكبته، ولم يقل إلّا: «جلالة الملك»، لكن جهامة نبرته نمت عن الكثير.

قام روب قائلاً: «سأسمع السير برايندن على انفراد في غرفة الاجتماعات. چون الكبير، ابق اللورد كارستارك هنا حتى أعود، واشتق السبعة الآخرين».
خفضَ چون الكبير الحربة متسائلاً: «حتى الموتى؟».

- «نعم. لن أسمح بأن يُلوّث أمثالهم نهريّ السيّد خالي. فليكونوا طعاماً للغربان».

هوى أحد الشُجَناة على رُكبتيه قائلاً: «الرَّحمة يا مولاي. إنني لم أقتل أحداً، بل وقفتُ عند الباب فقط تحسُّباً لظهور حُرَّاس».

فكَّر رُوب لحظةً، ثم قال: «هل كنت على علم بِنَيْة اللورد كارستارك؟ هل رأيتمهم يستلُّون السُّكاكين؟ هل سمعت الصِّيَّاح والصُّراخ وتوسُّلات الرَّحمة؟».

- «نعم، لكنني لم أشارك. كنتُ مراقباً فقط، أقسمُ لك...».

قال رُوب: «لورد أومبر، هذا الرَّجُل كان مراقباً فقط. اشنُفه في النَّهاية كي يُراقب الآخريين وهُم يموتون. أمِّي، خالي، تعاليا معي من فضلكما»، وابتعدَ فيما أطبقَ رجالُ جون الكبير على الشُجَناة وساقوهم من القاعة برؤوس الحِراب. في الخارج ضربَ الرَّعدُ ودوى بصوت يصبُّ الأذان، كأن القلعة على شفا الانهيار من حولهم، وتساءلتُ كاتلين: أهذا صوت مملكة تَسْقُط؟ كانت غُرفة الاجتماعات معتمَّة، لكن على الأقل كتَمَّ سُمك الجُدران الإضافيَّة هزيم الرَّعد. دخلَ خادم حاملاً مصباح زيت لِيُشعل نار المستوقد، لكن رُوب صرفه وأبقى المصباح. في الغُرفة عدَّة طاوولات ومقاعد، ولمَّا جلسَ إدميور فقط ووجدَ الآخريين ما زالوا واقفين عادَ ينهض، بينما خلَعَ رُوب تاجه ووضعَه على الطاولة أمامه.

أغلقَ السَّمكة السَّوداء الباب قائلاً: «رجال كارستارك رحلوا».

- «جميعهم؟». أهو الغضب أم اليأس الذي أثقلَ صوت رُوب هكذا؟ حتى كاتلين نفسها لم تستطع التَّمييز.

أجابَ السير برايندن: «جميع المقاتلين، لكن تبقى بعض أتباع المعسكرات والخدم مع جرحاهم. لقد استجبونا عدداً كافياً منهم لتتأكد من الحقيقة. قالوا إنهم بدأوا يُغادرون مع حلول المساء، تسلَّلوا فرادى وأزواجاً أولاً، ثم في مجموعاتٍ أكبر، وقيل للجرحى والخدم أن يُبقوا نيران المعسكر مشتعلةً لئلا يعرف أحد أنهم رحلوا، لكن بمجرد أن بدأ المطر في الهطول لم يُعد هناك فرق».

سأله رُوب: «هل سيُعيدون التَّشكيل بعيداً عن (ريثررن)؟».

- «لا، بل تفرَّقوا ليُطاردوا قاتل الملك. اللورد كارستارك أقسم أن يُعطي يد ابنته البكر لأيِّ رجلٍ عالي النَّسب أو سافله يأتيه برأس لانستر».

قالت كاتلين في نفسها وهي تَشْعُرُ بالغيثان مجدِّدًا: رُحْمَاكَ أَيْتَهَا الْآلِهَةُ.
فركُ رُوبِ صُدْغِيهِ حَيْثُ تَرَكَ التَّاجَ عِلَامَتَهُ فِي الْجِلْدِ الطَّرِيِّ فَوْقَ أُذُنِيهِ:
«رُهَاءُ ثَلَاثِمِئَةٍ مِنَ الْخَيْالَةِ وَضِعْفُهُمْ مِنَ الْخِيُولِ ذَابُوا فِي قَلْبِ اللَّيْلِ، سِلَاحُ
خَيْالَةٍ (كَارْهُولِد) بِأَكْمَلِهِ ضَاعَ مِنَّا».

ضَاعَ بَسْبِي، بِسَبِي، وَلْتَعْفِرْ لِي الْآلِهَةُ. لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ تَكُونَ
كَاتِلِينَ جَنْدِيًّا لِتُدْرِكَ الْفَخَ الَّذِي يُطَبَّقُ فَكِّيهِ عَلَى رُوبٍ. صَحِيحٌ أَنَّهُ يُسَيِّطِرُ عَلَى
أَرْضِي النَّهْرِ فِي الْوَقْتِ الْحَالِي، لَكِنْ مَمْلَكَتُهُ مُحَاصِرَةٌ بِالْأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ
إِلَّا الشَّرْقَ، حَيْثُ تَجْلِسُ لَا يَسَا بِلَا مَبَالَاةٍ عَلَى قَمَّةِ جَبَلِهَا، وَحَتَّى (الثَّلَاوْثُ)
لَيْسَ أَمْنًا تَمَامًا مَا دَامَ سَيِّدُ (المَعْبَرِ) مُحَجِّمًا عَنْ تَأْكِيدِ وِلَائِهِ. وَالْآنَ فَقَدْنَا آلَ
كَارِستَارِكِ أَيْضًا...

قال أخوها إدميور: «يَجِبُ أَلَّا تَخْرُجَ كَلِمَةً عَمَّا حَدَثَ مِنْ (رِيثِرَرَنْ).
اللُّورْدُ تَابُوينَ س... آلَ لَانِستَرِ يُسَدِّدُونَ دِيُونَهُمْ، دَائِمًا مَا يَقُولُونَ هَذَا. لَتَرَحْمَنَا
(الْأُم) إِذَا بَلَغَهُ الْخَبْرُ».

سانزا. غرست كاتلين أظفارها في لحم كفيها اللين وضمت قبضتها عن
آخرهما.

رمق رُوبُ إدميورَ بنظرةٍ جليديَّةٍ قائلاً: «أَتُرِيدُنِي أَنْ أَكُونَ كاذِبًا عِلاوَةً عَلَى
قَاتِلِ يَا خَالِي؟».

«لَسْنَا مُضْطَرِّينَ إِلَى الْكُذْبِ. لَنْ نَقُولَ شَيْئًا فَحَسْبُ. لِنُدْفِنِ الصَّبِيَّينَ
وَنَصُونِ أَلْسِنَتَنَا حَتَّى تَنْتَهِيَ الْحَرْبُ. وَيَلَمْ كَانَ ابْنُ السَّيْرِ كِيْشَانَ لَانِستَرِ وَابْنُ
أَخِي اللُّورْدِ تَابُوينَ، وَتِيُونُ كَانَ ابْنُ اللَّيْدِيِّ جِنَا وَابْنُ فِرَايِ أَيْضًا. عَلَيْنَا أَنْ نَكْتُمَ
الْخَبْرَ عَنِ (التَّوَأْمَتَيْنِ) أَيْضًا حَتَّى...».

قَطَعَهُ السَّيْرُ بَرَايَنْدُنَ بَحْدَةً: «حَتَّى نُعِيدَ الْمَيْتَيْنِ الْقَتِيلَيْنِ إِلَى الْحَيَاةِ؟
الْحَقِيقَةُ هَرَبَتْ مَعَ رِجَالِ كَارِستَارِكِ يَا إدميورَ، وَفَاتَ أَوْ أَنْ تَلِكَ الْأَلْعَابُ».

قال رُوبُ: «إِنِّي مَدِينٌ لِأَبُوَيْهِمَا بِالْحَقِيقَةِ، وَبِالْعَدَالَةِ. هَذَا دِينٌ عَلَيَّ لِهَمَا
أَيْضًا»، وَتَطَلَّعَ إِلَى تَاجِهِ ذِي الْبَرِيْقِ الْبَرُونَزِيِّ الْقَاتِمِ وَدَائِرَةِ السُّيُوفِ الْحَدِيدِ،
وَتَابَعَ: «اللُّورْدُ رِيكَارْدُ تَحْدَانِي وَخَانَنِي، وَلَا خِيَارَ لَدَيَّ سِوَى إِدَانَتِهِ. الْآلِهَةُ
وَحْدَهَا تَعْلَمُ مَا سَيَفْعَلُهُ مُشَاةُ كَارِستَارِكِ الَّذِيْنَ مَعَ رُووسِ بُولْتُونِ حِينَمَا
يَعْرِفُونَ أَنِّي أَعْدَمْتُ سَيِّدَهُمْ بِاعْتِبَارِهِ خَائِنًا. لَا بُدَّ مِنْ تَحْذِيرِ بُولْتُونِ».

قال السير برايندن مذكراً إياه: «وريت اللورد كارستارك في (هارنهال) أيضاً، الابن الأكبر الذي أسرَه آل لانستر عند (الفرع الأخضر)».

ردَّ روب: «هاريون، اسمه هاريون»، وأطلق ضحكةً مريرةً مردفاً: «خيرٌ للملك أن يعرف أسماء أعدائه، أليس كذلك؟».

نظرَ إليه السَّمكة السوداء بمكرٍ متسائلاً: «أأنت موقن بذلك؟ بأن كارستارك سيُصبح عدوك؟».

- «وماذا سيُصبح غير هذا؟ إنني على وشك أن أقتل أباه، ولا أظنُّ أنه سيسُكرني».

- «قد يفعل. هناك أبناء يكرهون آباءهم، وبضربةٍ واحدة ستجعله سيِّد (كارهولد)».

هَزَّ روب رأسه نفياً، وقال: «حتى إذا كان هاريون من ذلك النوع، فلا يُمكنه أن يغفر لقاتلِ أبيه على الملاماً أبداً. سينقلب رجاله عليه إذا فعل. إنهم شماليون، والشَّمال يتذكَّر».

قال إدميور تلي: «اعفُ عنه إذن»، فحدَّث روب إليه بعدم تصديق صريح، واحتقنَّ وجه خاله تحت نظرته، وأضاف: «أعني أن تعفو عن حياته. الفكرة لا تروقي أكثر منك يا جلالة الملك، فقد قتل اثنين من رجالي أيضاً. دلب المسكين كان قد تعافى لتوّه من الجرح الذي أصابه به السير چايمي. لا بُدَّ من معاقبة كارستارك بالتأكيد، لكن رأيي أن تسجنه».

قالت كاتلين: «رهينة؟». قد يكون هذا السَّبيل الأفضل...

تمسَّك أخواها بكلمتها باعتبارها تأييداً، وقال: «نعم، رهينة! قل للابن إن أذى لن يمَسَّ أباه ما دام ثابتاً على إخلاصه، وإلا... لا أمل لدينا في آل فراي الآن، ما لم أعرض أن أتزوَّج جميع بنات اللورد والدر وأحمل نقالته أيضاً. إذا فقدنا آل كارستارك أيضاً، فأين الأمل إذن؟».

- «أين الأمل...». تنهَّد روب وأزاح شعره عن عينيه قائلاً: «لم تَبْلغنا كلمة من السير رودريك في الشَّمال، ولا ردَّ من والدر فراي على عرضنا الجديد، ومن (العُش) لم نسمع إلا الصَّمت»، والتفتَ إلى أمّه مناشداً، وقال: «ألن تُجيبنا أختك أبداً؟ كم مرَّة عليَّ أن أكتب لها؟ لن أصدِّق أن أيًّا من الطيور لم يَبْلغها».

أدرکت کاتلین أن ابنها راغب في الموساة، في أن يسمع أن كل شيء سيكون على ما يُرام، لكن مليكها في حاجة إلى الحقيقة، وهكذا قالت: «الطيور بلغتها، مع أنها قد تقول لك إنها لم تفعل إذا اضطرت. لا تتوقع مساعدة من هذا الجانب يا روب. لايسا لم تتحلل بالشجاعة قط، وفي طفولتنا كانت تهرب وتختبئ كلما ارتكبت خطأ. ربما كانت تحسب أن السيد والدنا سينسى أن يُعنفها إذا لم يجدها. الأمر ليس مختلفًا الآن. لقد فرّت من (كينجز لاندنج) بدافع الخوف إلى أأمن مكان تعرفه، وتجلس على جبلها آملًا أن ينساها الجميع».

قال روب: «فرسان (الوادي) يُمكنهم أن يقلبوا كفة هذه الحرب، لكن ما دامت ترفض القتال فليكن. إنني لم أطلب أكثر من أن تفتح لنا (البوابة الدائمة) وتزودنا بالشفن في (بلدة الثوراس) لتحملنا شمالًا. (الطريق العالي) سيكون صعبًا، لكن ليس بصعوبة القتال في (العنق). إذا رسوت في (الميناء الأبيض) فيمكنني أن أضرب (خندق كايلن) من الجانب الآخر وأطرد الحديديين من الشمال خلال نصف عام».

قال السمكة السوداء: «لن يتحدث يا مولاي. كات محقة، الليدي لايسا أجب من أن تسمح بدخول جيش إلى (الوادي)، أي جيش. (البوابة الدائمة) ستبقى مغلقة».

صاح روب وكلماته تفور يأسًا: «فليأخذها (الآخرون) إذن، وريكارد كارستارك الملعون أيضًا، وثيون جرايچوي ووالدر فراي وتايوين لانستر وبقيتهم. لماذا يرغب أي رجل في أن يكون ملكًا بحق الآلهة؟ عندما كان الجميع يهتفون: الملك في الشمال، الملك في الشمال، قلت لنفسي -أقسمت لنفسي- إنني سأكون ملكًا صالحًا، شريفًا كأبي وقويًا وعادلًا ومخلصًا لأصدقائي وشجاعًا حين أواجه أعدائي... والآن لا أستطيع مجرد التفرقة بين العدو والصديق. كيف تشوش كل شيء إلى هذا الحد؟ اللورد ريكارد قاتل إلى جانبي في نصف دسنة من المعارك، وابناه ماتا من أجلي في (الغابة الهامسة). ثيون فراي وويلم لانستر كانا عدوي، والآن علي أن أقتل أبا صديقي الميتين من أجلهما»، وتطلع إليهم جميعًا وأضاف: «هل سيسكرني آل لانستر لقطع رأس اللورد ريكارد؟ هل سيسكرني آل فراي؟».

أجاب برايندن السَّمكة السَّوداء بصراحتة المعتادة: «كلا». قال إدميور بالحاح: «وهو السَّبب الأُدعى للعفو عن حياة اللورد ريكارد والاحتفاظ به رهينة».

مَدَّ روب كلتا يديه ورفع النَّاج البرونز والحديد الثَّقيل وثبَّته على رأسه، وفجأة عادَ ملكًا من جديد وهو يُعلِن: «اللورد ريكارد سيموت».

- «لكن لماذا؟ لقد قلت بنفسك إن...».

قال روب والشُّيوف في تاجه تبدو قاسيةً سوداء على جبينه: «أعرفُ ما قُلْتَه يا خالي. لو أننا في معركةٍ فلربما كنتُ لأقتل ويلم وتيون بنفسِي، لكننا لسنا في معركة. لقد كانا نائمين في سريريهما، عاريين وأعزلين في الزَّنْزَانة التي وضعتهما فيها. ريكارد كارستارك قتل أكثر من فراي ولانستر، قتل شرفي. سأتعاملُ معه عندما يطلع الفَجْر».

وحينما طلعَ الفَجْر غائمًا باردًا كانت العاصفة قد انحسرت إلى مطرٍ ثقيلٍ ثابت، ومع ذلك ازدحمت أَيْكة الآلهة بالحاضرين؛ لوردات النَّهْر ورجالُ الشَّمال، نُبلاء وعامة، فُرسان ومرترقة وعمَّال اسطبلات، كلهم وقفوا بين الأشجار ليشهدوا نهاية رقصة اللَّيلة الدَّاجية. أعطى إدميور الأوامر، ووَضِعَ قالب الجَلَاد الخشبي أمام شجرة القلوب، وتساقطَ المطر وأوراق الشَّجر في كلِّ مكانٍ حولهم إذ ساقَ چون الكبير اللورد ريكارد كارستارك مقيدَ اليدين وسط الجموع، بينما سُنِقَ رجاله على أسوار (ريقرن) العالية بالفعل، وتدلَّت جُثثهم من حبال طويلة والمطر يغسل وجوههم المربدة.

انتظرَ ليو الطَّويل إلى جوار القالب، لكن روب التقطَ البلطة من يده وأمره بأن يتنحَّى جانبًا قائلاً: «هذا واجبي أنا. إذا كان سيموت بإمرتي، فلا بُدَّ أن يموت بيدي».

خفضَ اللورد كارستارك رأسه بجمود، وقال: «أشكرك على هذا، لكن ليس على أيِّ شيءٍ آخَر». كان قد استعدَّ للموت بارتداء سُترةٍ سوداء طويلة مرصَّعة بالشمس المتفجِّرة رمز عائلته. «دماء البَشَر الأوائل تجري في عروقي كما تجري في عروقك يا ولد. خيرٌ لك أن تتذكَّر هذا. لقد سُمِّيتُ على اسم جدِّك، ورفعتُ راياتي ضد الملك إيرس من أجل أبيك، وضد چوفري من أجلك، وفي (أوكسكروس) و(الغابة الهامسة) ومعركة المعسكرات ركبتُ

إلى جانبك، ووقفتُ إلى جوار اللورد إدارد في معركة (الثالوث). إننا أهل، ستارك وكارستارك».

قال روب: «قربتنا لم تمنعك عن خيائتي، ولن تُنقذك الآن. اركع يا سيدي».

تعلم كاتلين أن اللورد كارستارك قال الحقيقة، فنسب آل كارستارك ينحدر من كارلون ستارك، ابن صغير لـ (وينترفل) قضى على لورد متمرد قبل ألف عام، وكوفئ على شجاعته بقطعة كبيرة من الأرض، وعُرفت القلعة التي شيدها باسم (كارلز هولد)، لكن سرعان ما أصبح اسمها (كارهولد)، وخلال القرون صار آل ستارك أولاد (كارهولد) يحملون اسم كارستارك. قال اللورد ريكارد لابنها: «قديمة كانت أم جديدة، لا فرق. مالعت الآلهة أحدًا كقاتل الأقربين».

- «اركع أيها الخائن، أم أن عليّ أن أجعلهم يضعون رأسك على القالب غضبًا؟».

ركع اللورد ريكارد قائلاً: «ستحكم عليك الآلهة كما حكمت عليّ»، ووضع رأسه على القالب.

رفع روب البلطة الثقيلة بكلتا يديه، وقال: «ريكارد كارستارك، سيد (كارهولد)، هنا على مرأى من الآلهة والبشر أحكم عليك مذنبًا بالقتل والخيانة العظمى، وباسمي أدينك، ويدي أسلبك حياتك. هل من كلمة أخيرة؟».

- «اقتلني ولتحل بك اللعنة. أنت لست مليكي».

وهوت البلطة الثقيلة المشحوزة بعناية لتقتل بضربة واحدة، لكن فضل رأس الرجل عن جسده تطلب ثلاث ضربات، وفي النهاية كان كلا الحي والميت غارقين في الدماء. ألقى روب البلطة باشمزاز والتفت بصمت إلى شجرة القلوب ووقف يرتجف وقبضته شبه مضمومتين والمطر يجري على وجنتيه.

صلت كاتلين في أعماقها: لتسامحه الآلهة. إنه مجرد صبي، ولم يكن لديه خيار آخر.

لم تر ابنها ثانية يومها، وظلّ المطر يهطل خلال الصباح، يضرب صفحتي

النَّهْرَيْنِ وَيُحِيلُ كلاً أَيْكَةَ الْآلِهَةِ إِلَى بَرَكٍ مَوْحَلَةٍ. جَمَعَ السَّمَكَةَ السَّوْدَاءَ مِثَّةَ رَجُلٍ وَخَرَجَ بِهِمْ وَرَاءَ رِجَالِ كَارِستَارِكِ، لَكِنْ أَحَدًا لَمْ يَتَوَقَّعْ أَنْ يَرْجِعَ بَعْدَهُ كَبِيرٌ مِنْهُمْ، وَقَبْلَ أَنْ يُعَادِرَ قَالَ لِكَاتَلِينَ: «أَتَمَنَّى فَقَطْ أَلَّا أُضْطَرَّ لَشَنْقِهِمْ».

أَنْسَحَبَتْ كَاتَلِينَ إِلَى عُرْفَةِ أَبِيهَا عَقِبَ رَحِيلِ عَمَّهَا، وَعَادَتْ تَجْلِسُ إِلَى جَوَارِ فِرَاشِ اللُّوردِ هُوسْتَرِ، حَيْثُ قَالَ لَهَا الْمَائِيسْتَرُ فَايْمَانَ حِينَ جَاءَ بَعْدَ الظُّهْرِ: «لَنْ يَطُولَ الْوَقْتُ. آخِرُ مَا تَبَقِيَ فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ يَذْوِي، مَعَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُقَاتِلُ».

- «لَطَالَمَا كَانَ مَقَاتِلًا، رَجُلًا جَمِيلًا عَنِيدًا».

- «نَعَمْ، لَكِنْ هَذِهِ مَعْرَكَةٌ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَنْتَصِرَ فِيهَا. حَانَ الْوَقْتُ لِأَنْ يَتَخَلَّى عَنِ سَيْفِهِ وَثَرَسِهِ، حَانَ وَقْتُ الْاِسْتِسْلَامِ».

الْاِسْتِسْلَامُ وَالسَّلَامُ. هَلْ يَتَكَلَّمُ الْمَائِيسْتَرُ عَنْ أَبِيهَا أَمْ ابْنِهَا؟

عِنْدَ حُلُولِ الْمَسَاءِ أَتَتْهَا چَايِنُ وَسْتَرَلِينِجُ، وَدَخَلَتْ الْمَلِكَةَ الشَّابَّةَ عُرْفَةَ أَبِيهَا الشَّمْسِيَّةَ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَائِلَةً: «لِيَدِي كَاتَلِينَ، لَا أَقْصِدُ أَنْ أُرْعَجِكَ...».

- «أَنْتِ عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ يَا جَلَالَةَ الْمَلِكَةِ». كَانَتْ كَاتَلِينَ قَدْ شَغَلَتْ نَفْسَهَا بِالْحَيَاكَةِ، لَكِنَّهَا نَحَّتَ الْإِبْرَةَ جَانِبًا.

- «أَرْجُوكِ خَاطِبِيْنِي بِچَايِنِ. لَسْتُ أَشْعُرُ أَنِّي مَلِكَةٌ».

- «لَكِنَّكِ مَلِكَةٌ رَغْمَ ذَلِكَ. تَفَضَّلِي بِالْجُلُوسِ يَا جَلَالَةَ الْمَلِكَةِ».

قَالَتْ الْفَتَاةُ: «چَايِنُ»، وَجَلَسَتْ إِلَى جَوَارِ الْمُسْتَوْقَدِ وَسَوَّتْ تَثُورَتَهَا بِتَوَثُّرٍ.

- «كَمَا تَشَائِنِ. كَيْفَ أَخْدَمُكِ يَا چَايِنُ؟».

- «رُوبٌ. إِنَّهُ فِي غَايَةِ الْبُؤْسِ وَال... وَالغُضْبِ وَالْغَمِّ. لَا أُدْرِي مَاذَا أَفْعَلُ».

- «الْقَتْلُ صَعْبٌ».

- «أَعْرِفُ هَذَا. قُلْتُ لَهُ أَنْ يَسْتَعِينُ بِجَلَادٍ. عِنْدَمَا يُرِيدُ اللُّوردُ تَايَوِينِ مَوْتَ أَحَدٍ فَإِنَّهُ يَكْتَفِي بِإِعْطَاءِ الْأَمْرِ. هَذَا أَسْهَلُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟».

قَالَتْ كَاتَلِينَ: «بَلَى، لَكِنْ السَّيِّدُ زَوْجِي عَلمَ أَبْنَاءَهُ أَنْ الْقَتْلَ يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ سَهْلًا أَبَدًا».

غَمِغَمَتِ الْمَلِكَةُ چَايِنَ: «أَوْه»، ثُمَّ إِنَّهَا بَلَّتْ شَفْتَيْهَا وَقَالَتْ: «رُوبٌ لَمْ يَأْكُلْ طَوْلَ الْيَوْمِ. جَعَلْتُ رُولَامَ يُحْضِرُ لَهُ عِشَاءً شَهِيًّا، ضُلُوعَ خَنْزِيرِ بَرِيٍّ وَبِصْلًا مَطْبُوخًا وَمِزْرًا، لَكِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ لُقْمَةً وَاحِدَةً. أَمْضَى الصَّبَاحَ كُلَّهُ».

في كتابة رسالة وقال لي ألا أزعجه، لكن حين فرغ من الكتابة أحرقتها، والآن يجلس ويتطلع إلى خرائطه. سألته عمّا يبحث عنه لكنه لم يُجِبني، ولا أظنّه سمعني أصلاً. إنه يرفض أن يُبدّل ثيابه حتى، رغم أنها كانت مبتلة وملطخة بالدماء. أريد أن أكون زوجةً صالحةً له حقًا، لكنني أجهل كيف أساعده أو أروّح عنه أو أواسيه، أجهل ما يحتاج إليه الآن. أرجوك يا سيّدي، أنت أمّه، فقول لي ماذا أفعل».

قولي لي ماذا أفعل. كانت كاتلين لتطلب المثل من أبيها إذا كان بصحّته، لكن اللورد هوستر رحل، أو موشك على الرّحيل بالأحرى، وكذا ند. وبران وريكون أيضًا، وأمّي، وبران دون منذ زمنٍ طويل. لم يتبقّ لها إلا روب، روب والأمل الخابي في استعادة ابنتها.

قالت كاتلين بتؤدة: «أحيانًا يكون أفضل شيءٍ تفعلينه هو لا شيءٍ. في بداية وجودي في (ويتترفل) كنتُ أتألمُ كلما ذهبَ ند إلى أيكة الآلهة ليجلس تحت شجرة القلوب، إذ علمتُ أن جزءًا من روحه كان في تلك الشجرة، جزءًا لن أشاركه إياه أبدًا، لكنني أدركتُ بعد وقتٍ قصير أنه لما كان ند دون هذا الجزء. چاين يا صغيرتي، لقد تزوّجتِ الشّمال كما تزوّجته قبلك... وفي الشّمال يأتي الشتاء دائمًا»، وحاولت أن تبسم مضيئةً: «تحلّي بالصبر والتّهمم. إنه يُحبُّك ويحتاج إليك، وسيعود إليك قريبًا، ربما اللّيلة بالذات، فكوني هناك عندما يفعل. هذا هو كل ما يُمكنني أن أقوله لك».

أصغّت الملكة الشّابة بانتباه، وقالت حين انتهت كاتلين: «سأفعل»، ونهضت قائلةً: «عليّ أن أعود، فربما افتقدني. سأرى. لكن إذا وجدته ما زال يدرس خرائطه فسأصبر».

- «افعلي هذا»، قالت كاتلين، لكنها تذكّرت شيئًا قبل أن تخرج الفتاة من الباب، فنادتّها: «چاين، ثمّة شيءٍ آخر يحتاج إليه روب منك، مع أنه قد لا يعيه. لا بدّ أن يكون للملك وريث».

ابتسمت الفتاة وردّت: «هذا ما تقوله أمّي أيضًا. إنها تعدّ لي عقارًا للخصوبة من الأعشاب والحليب والمِزر أشربه كل صباح. قلتُ لروب إنني واثقة بأنني سأنجبُ له توأمين، إدارد وبران دون، وقد راقه هذا على ما أعتقد. إننا... إننا نحاول كل يوم تقريبًا يا سيّدي، وأحيانًا مرّتين أو أكثر»، وتورّد

محيّاها الجميل حياءً وهي تُتابع: «سأحبُّ قريباً، أعدك. إنني أصليّ لأمنّا في الأعالى كلّ ليلة».

- «عظيم. سأضيفُ صلواتي إلى صلواتك، للآلهة القديمة والجديدة». عندما خرجت الفتاة، التفتت كاتلين إلى أبيها وسوّت الشعر الأبيض الخفيف على جبينه قائلةً برفق: «إدارد وبراندون، وربما هو ستر بعد فترة. هل يروقك هذا؟».

لم يُجبها، لكنها لم تتوقّع أن يفعل، وإذ امتزج وقع المطر على السطح بصوت أنفاس أبيها فكّرت كاتلين في چاين، في أن الفتاة تبدو طيبة القلب حقاً كما قال روب. ووركاها قويّان، وهو ما قد يكون أكثر أهمية.

چایمی

بعد یومین من الارتحال علی جانبی (طریق الملوك) مرّوا عبر منطقة شاسعة حاق بها الدمار، أمیال و أمیال من الحقول والبساتین المسوّدّة التي ارتفعت فیها جذوع الأشجار المیتة العاریة فی الهواء كأوتاد الرّماة⁽¹⁾، وقد احترقت الجسور أيضًا وفاضت الجداول بأمطار الخریف، فاضطّروا إلى التّجوال بطول الضّفاف بحثًا عن مخاضة، وقد بعث عواء الذّئاب الحیاة فی لیلهم، وإن لم یروا أناسًا علی الإطلاق.

فی (بركة العذارى) ظلّت سمكة السّلمون الحمراء - رمز اللورد موتون- تحتل الرّایة المرفوعة فوق القلعة أعلى التّل، لكنهم وجدوا أسوار البلدة مهجورة والبوابات مهشّمة ونصف المحال والبیوت محترقًا أو منهوبًا، ولم یروا من الأحياء إلاّ بعض الكلاب الضّاریة التي فرّت مع صوت اقترابهم، أمّا البركة التي استمدّت منها البلدة اسمها، وتقول الأسطورة إن فلوریان المهرّج لمحّ چونکویل تتحمّم فیها مع أخواتها أول مرّة، فكانت متبخّمة عن آخرها بالجنّث المتعفّنة، حتی إن المیاہ صارت أقرب إلى حساء من الأخضر والرّمادي القاتمین.

ألقي چایمی نظرة واحدة وشرع فی الغناء: «ست عذارى کُنّ فی برکة یصبُّ فیها نبع...».

(1) هي أوتاد مدبّية یغرسها الرّماة فی الأرض أمامهم لحمايتهم من هجمات الخیالة بینما هم منشغولون بإطلاق السّهام، وأول استخدام لها كان من قبل العثمانيين فی معركة نیکوپولیس سنة 1369. (المترجم).

سألته بريان: «ماذا تفعل؟».

- «أغنيّ (ستِ عذارى في بركة). لا بُدَّ أنك سمعتها. كُنَّ عذارى جميلات
حججولات حقًّا، مثلك، مع أنني أراهن أنهن كُنَّ أجمل نوعًا».

ردَّت الفتاة وعلى وجهها نظرة تشي برغبتها البالغة في أن تتزَّكه طافيًا بين
الجُثث في البركة: «صمتًا».

قال كليوس ابن عمَّته بضراعة: «أرجوك يا چايمي، اللورد موتون مُقسِم
على الولاء لـ(ريقررن)، ولسنا نريد أن ندفعه إلى الخروج من قلعته، وقد
يكون هناك أعداء آخرون متوارين وسط الأطلال».

- «أعداؤها أم أعداؤها؟ هؤلاء غير هؤلاء يا ابن عمَّتي، ولديّ رغبة شديدة
في أن أرى إن كانت الفتاة تستطيع استخدام سيفها هذا».

- «إذا لم تصمَّت فلن تتزَّك لي خيارًا إلا تكميمك يا قاتل الملك».

- «حلي قيودي وسألعبُ دور الأخرس طيلة الطريق إلى (كينجز لاندنج).

اتَّفاق عادل تمامًا، أليس كذلك يا هذه؟».

صاحت: «بريان! اسمي بريان!»، وحلَّقت ثلاثة غربان في الهواء وقد
أجفلها الصَّوت.

قال ضاحكًا: «ألا تُريدين الاستحمام يا بريان؟ إنك عذراء وها هي
البركة. سأغسلُ ظهرك». في طفولتهما في (كاسترلي روك) اعتاد أن يغسل
ظَهْر سرسي.

أدارت الفتاة رأس حصانها ودفعته إلى الخبب، وتبعها چايمي والسير
كليوس ليخْرُجوا من بين خرائب (بركة العذراء)، وعلى بُعد نصف ميل
بدأ الأخضر يزحف على العالم من جديد، الشَّيء الذي سرَّ چايمي، بما أن
الأراضي المحروقة تُذكره كثيرًا بإيرس.

غمغم السير كليوس: «إنها تسلك طريق (وادي الغسق)، لكن الأكثر أمنًا
أن نمضي على السَّاحل».

- «أكثر أمنًا لكن أبطأ. أفضلُ طريق (وادي الغسق) يا ابن العمَّة. الحقيقة

أني مللتُ صُحبتك». قد تكون لانستر، لكنك بعيد أيمًا بعد عن أختي.

إنه لم يحتمل قطُّ أن يبعُد عن توأمته طويلًا، وحتى في طفولتهما كان كلُّ
منهما يتسلل إلى فراش الثاني ليلاً ويناما بأذرعٍ متعانقة. حتى في الرَّحم. قبل

إزهار سرسي أو بلوغه مبلغ الرّجال بفترة طويلة كانا يريان الفحول والأفراس في الحقول والكلاب والكلبات في الأوجرة، وفي لعبهما قلدوها، إلى أن جاء يوم وضبطتهما وصيفة أمهما... لا يذكُر ما كانا يفعلانه بالضبط، لكن أيّا كان فقد رَوَعَ الليدي جوانا، حتى إنها صرفت الوصيفة من خدمتها، ونقلت غرفة نوم چايمي إلى النَّاحية الأخرى من (كاسترلي روك)، وعيّنت حارسًا على غرفة سرسي، وقالت لهما ألا يفعلان هذا ثانية أبدًا، وإلا فلا خيار لديها غير إخبار السيّد والدهما. لكن خوفهما كان بلا داع، فلم يمض وقت طويل قبل أن تموت أمهما وهي تلد تيريون. الآن يتذكّر چايمي شكل أمّه بالكاد.

لعلّ ستانيس باراثيون أسداه معروفًا هو وآل ستارك بنشرهم حكاية زنى المحارم في أرجاء (الممالك السبع)، فالآن لم يُعد هناك ما يجب إخفاؤه. لمَ لا أتزوَّج سرسي على الملاء وأشاركها الفراش كلَّ ليلة؟ لطالما تزوّج الثنّانين أخواتهم. طيلة مئات من الأعوام غَضَّ السِّبتونات واللوردات والعامّة الطرف عن آل تارجارين، فليفعلوا المثل إذن مع آل لانستر. سوف يُطيح هذا بحقّ چوفري في التّاج بالطبع، لكن في النّهاية السُّيوف هي ما ربّح العرش الحديدي لروبرت، والسُّيوف هي ما سيُقبلي چوفري عليه أيضًا بغضّ النّظر عن كونه من صُلب مَنْ. من الممكن أن نزوّجه مارسلا بعدما نُعيد سانزا ستارك إلى أمّها. سيُري هذا أهل البلاد أن آل لانستر فوق قوانينهم، كالآلهة وآل تارجارين.

كان قد قرّر أنه سيُعيد سانزا حقًا، وأختها الصّغيرة أيضًا إذا كان العثور عليها ممكنًا، مع أنه لا يتصوّر أن تصرّفًا كهذا سيردُّ إليه شرفه، وإن كانت فكرة أن يبرّ بكلمته بينما يتوقّع الجميع منه الخيانة تستهويه لأقصى حدّ.

كانوا يمرّون بحقل قمح موطوء وسور حجري واطى، عندما سمع چايمي صوتًا وترّيًا من ورائهم، كأن دسّته من الطيور حلقت في آن واحد، فصاح ملقيًا نفسه على عُنق حصانه: «انخفضا!». صرّخ الحصان المنخصي وتراجع رافعًا قائمته الأماميتين إذ أصابه سهم في كفه، وشقّت سهام أخرى الهواء بصوتٍ كالفتح، ورأى چايمي السير كليوس يُحاول الوثوب من فوق سرجه ويتلوّى وقد علقت قدمه بالرّكاب، واندفعت فرسه تعدو جازةً إياه وهو يزعم طالبًا النّجدة ورأسه يرتطم بالأرض.

تحرّك حصان چايمي بثأقل وراح ينفخ وينخر ألمًا، والتفت هو باحثًا عن بريان. كانت لا تزال على متن حصانها وقد انغرس سهم في ظهرها وثانٍ في ساقها، لكنها بدت كأنها لا تحسُّ بهما البتّة، ورأها تُجرّد سيفها وتدور في دائرة بحثًا عن الرّماة، فناداها وهو يُجاهد لتوجيه حصانه نصف الأعمى نحو القتال: «وراء السُّور!». اشتبك العنان بقيود يديه اللّعيّنة، وعادَ الهواء يمتلئ بالسَّهام، فصاح: «نحوهم!»، وهمز الحصان ليُرِيها كيف يكون الهجوم. بشكل ما عثر الحصان العجوز المسكين على دفقة من السُّرعة في نفسه، وخلال لحظات كان ينطلق عبر الحقلٍ مثيرًا سُحبًا من قشر القمح في كلِّ مكان، ولم يملك چايمي وقتًا إلا ليُفكر: يُستحسن أن تتبني الفتاة قبل أن يُدركوا أن من يُهاجمهم أعزل مكبل بالأغلال، ثم إنه سمعها تقترب بأقصى سُرعة من ورائه، قبل أن تتجاوزَه وهي تُلوّح بسيفها الطويل وتهتف: «(بهو المساء)! (تارث)! (تارث)!».

بضعة سهامٍ أخيرة مرّقت دون أن تُصيبهما، ثم تراجع الرّماة هارين كما يفعل الرّماة غير المحميين دائمًا حينما يُهاجمهم الفرسان. توقّفت بريان عند السُّور، ولمّا بلغها چايمي كان الآخرون قد ذابوا في الغابة على بُعد عشرين ياردة، فقال لها: «هل فقدت الرّغبة في القتال؟».

- «لقد فرّوا».

- «وهو الوقت الأنسب لقتلهم».

أغمدت سيفها سائلةً: «لماذا هاجمت؟».

- «الرّماة لا يعرفون الخوف ما داموا متوارين وراء الأسوار ويُطلقون سهامهم من بعيد، لكنهم يفرّون بمجرد أن تُهاجمهم، لأنهم يعلمون ما سيحدث إذا بلغتهم. إنك مصابة بسهم في ظهرِك وآخر في ساقِك. عليك أن تتركيني أتولّى أمرهما».

- «أنت؟».

- «ومن غيري؟ آخر مرّة رأيت كليوس ابن عمّتي كانت فرسه تحرّث الأرض برأسه، لكن أعتقد أن علينا العثور عليه، فهو لانستر بشكلٍ ما في النّهاية».

وجدا السير كليوس ما زال عالقًا بركابه، وقد انغرس سهمٌ في ذراعه

اليمنى وثانٍ في صدره، لكن ما فتك به هو الأرض. كانت قَمَّة رأسه داميةً
طريةً الملمس، وتحركت قطع من العظم المهشم تحت الجلد إذ ضغطت
عليها يد چايمي.

ركعت بريان وأمسكت يده، ثم قالت: «لا يزال دافئًا». -
«سيبرد عمًا قريب. أريدُ فرسه وثيابه، فقد سئمتُ من الأسماك
والبراغيث».

بدأت الفتاة مصدومةً وهي تقول: «كان ابن عمَّتكَ!». -
«كان، لكن لا تخافي، فلديّ مخزون كبير من أبناء العمومة. سأخذُ سيفه
أيضًا. ستحتاجين إلى أحدٍ يُقاسمك نوبات الحراسة». -
قامت قائلةً: «يُمكنك أن تقف حراسةً بلا سلاح». -
«وأنا مقيدٌ إلى شجرة؟ ربما، أو ربما يُمكنني أن أعقد صفقةً مع
المجموعة التالية من الخارجين عن القانون وأدعهم يَشْفُون عُنُقك الثخين
يا هذه».

- «لن أسلحك، واسمي...». -
«... بريان، أعرف. سأقسمُ ألا أُوذيك إذا كان هذا سيُهْدِي مخاوفك
الطفولية».

- «قسمك بلا قيمة. لقد سبق أن أقسمت لإيرس». -
«إنك لم تشوي أحدًا في درعه من قبل على حدِّ علمي، وكلانا يُريدني
آمنًا سليمًا في (كينجز لاندنج)، أليس كذلك؟»، وأقعى إلى جوار كليوس
وبدأ يحل حزام سيفه. -
«ابتعد عنه، الآن، توقَّف عن هذا».

كان چايمي قد تعبَ تمامًا، تعبَ من شكوكها، تعبَ من إهاناتها، تعبَ
من أسنانها المعوجة ووجهها المنمَّش العريض وشعرها المتهدل الخفيف.
هكذا تجاهل اعتراضها وأطبق على مقبض سيف ابن عمَّته الطويل بكلتا يديه
وثبتَ الجئةً بقدمه وسحبَ، وإذ انزلق السيف من الغمد كان چايمي يدور على
محوره بالفعل، وفي اللحظة التالية كان يهوي به مدورًا إياه في قوس مميت،
ليلتقي الفولاذُ الفولاذَ برنينٍ عنيفٍ أحسَّ به يرنج عظامه رَجًا. بشكل ما امتشقت
بريان سيفها في الوقت المناسب، فضحك چايمي قائلاً: «رائع يا هذه».

- «أعطني السيف يا قاتل الملك».

- «أوه، سأفعل».

وثب واقفاً وانقضَّ عليها وقد دبَّت الحياة في السيف الطويل في يده، ووثبت بريان إلى الوراء متفادياً انقضاضته، لكنه واصلها ضاغطاً بالهجوم، ولم تكد تصدُّ ضربةً حتى عاجلها بالتألية، فتبادل السيفان قبلةً وافترقا وعادا يتبادلان قبلةً أخرى، وفي عروقه فازت دماء چايمي بالغناء. هذا ما خلِقَ من أجله، ولا شيء يُشعره بنبض الحياة أبداً مثل القتال بينما يترصد الموت كلَّ ضربة. وقد يستمرُّ السجال بيننا بعض الوقت بما أن معصميّ مقيّدان معاً. أرغمته السلسلة على القبض على السيف بيديه معاً، مع أن ثقله وحيزه أقلُّ بالطبع من سيفٍ عظيمٍ صنِعَ ليُحمَل باليدين، لكن لا فرق حقاً، فسيف ابن عمته طويل بما يكفي لكتابة نهاية هذه البريان التاريخية.

راح يُمطرها بالفولاذ من أعلى وأسفل وبحركاتٍ دوّارة، يُسدّد إليها ضرباته يميناً ويساراً وبحركاتٍ ارتجاعية، بمنتهى العُنف حتى إن الشرر طقَّ من النصلين كلما التقيا، يثب ويضرب، يميل ويضرب، يدور ويضرب، لا يكفُّ عن الهجوم، يضغط عليها طيلة الوقت، يخطو وينزلق، يضرب ويخطو، يخطو ويضرب، يهوي بالسيف ويقطع، أسرع، أسرع، أسرع... إلى أن تراجع متقطع الأنفاس وأنزل رأس السيف إلى الأرض مانحاً إياها فرصةً للراحة لحظةً، وقال: «ليس سيئاً بالنسبة لفتاة».

أخذت شهيقاً عميقاً طويلاً وهي تُراقبه بحذر، وقالت: «لستُ أريدُ أن أوديكَ يا قاتل الملك».

- «كأنك تستطيعين»، ورفع السيف ودوره فوق رأسه وهو يُعاود الانقضاض عليها وسلاسله تُصلصل.

لا يدري چايمي كم من الوقت واصل الهجوم، ربما دقائق وربما ساعات، فالزمن ينام حين تصحو السيوف. ساقها بعيداً عن جثة ابن عمته، ساقها عبر الطريق، ساقها إلى داخل الغابة، وتعثرت هي في جذرٍ لم تره فحسب برهةً أن أمرها انتهى، لكنها سقطت على رُكبةٍ واحدة بدلاً من التهاوي ولم تُبْطئ حركتها لحظةً، وارتفع سيفها يصدُّ ضربةً عُلوياً كان بإمكانها أن تُشقها من

الكتف إلى أصل الفخذ، ثم إنها هوت عليه بضربةٍ تلو الأخرى تلو الأخرى، تشقُّ طريقها إلى الوقوف ضربةً ضربةً.

واستمرت الرّقصة. تَبَّتها إلى جذع شجرة بلوط، ثم سَبَّ إذ انسلت منه، وتبعها إلى غدير ضحل مختق بأوراق الشجر، ورَنَّ الفولاذ، وشدا الفولاذ، وصرخ الفولاذ وكشط وتطايَر منه الشَّرر، وبدأت المرأة تقبع كالخنازير كلما تلاقى النّصلان، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع أن يبلغها بشكلٍ ما، كأن قفصًا حديدياً يُحيط بها ويصدُّ كلَّ ضربةٍ يُوجِّهها إليها.

قال محجماً عن الهجوم ليلتقط أنفاسه لحظةً وهو يدور إلى يمينها: «لا بأس على الإطلاق».

- «بالنسبة لفتاة؟».

- «بالنسبة لمُرافقٍ أخضر»، وأطلق ضحكةً لاهثةً خشنةً مردفاً: «هلمّي يا حلوتي هلمّي، الموسيقى لا تزال تلعب. هل تسمحين لي بهذه الرّقصة يا سيّدتى؟».

أصدرت صوتًا كالخوار وانقضت عليه ملوِّحةً بسيفها، وفجأةً بات چايمي هو من يُجاهد ليحول دون الفولاذ وجلده. طالت إحدى ضرباتها جبينه فسالت الدماء على عينه اليمنى، وقال لنفسه: فليأخذها (الأخرون)، وليأخذوا (ريفررن) أيضًا! لقد أصاب الصّدأ والعفن مهارته في تلك الزّزّانة الملعونة، كما أن قيوده ليست بالعامل المساعد. أغلق عينه وأحسّ بالخدر يسري في كتفيه من فرط الضّربات التي صدّها ووجّهاها، وآلمه معصماه من ثقل السّلسلة والأصفاد والسّيف الذي شعر بوزنه يزداد مع كلِّ ضربة، وأدرك چايمي أنه لم يعد يُلوّح به بالشّرة نفسها ولا يرفعه بالعلوّ نفسه كما كان قبل قليل.

إنها أقوى مني.

جعل الإدراك رعدةً باردةً تسري في أوصاله. روبرت كان أقوى منه بالتأكيد، والثور الأبيض چيروولد هايتاور وهو في أوج عُنفوانه، والسير آرثر داين، وبين الأحياء چون أومبر الكبير أقوى منه أيضًا، وغالبًا العُفر القوي⁽¹⁾

(1) العُفر نوع من الخنازير البرّيّة الصّارية. (المترجم).

ابن كراكهول، وبالتأكيد كلا الأخوين كليجاين، خصوصاً الجبل الذي يتمتع بقوة غير إنسانية، إلا أن القوة لا تهتم حقاً، فبالسرعة والمهارة يُمكنه أن يتغلب عليهم جميعاً.

لكن هذه امرأة، امرأة ضخمة كالأبقار، نعم، ومع ذلك... المفترض أن يُصيبها هي التعب.

وبدلاً من هذا أجبرته على التراجع إلى الغدير ثانية وهي تصيح: «استسلم! ألقى سيفك!».

زَلَّ چاييمي علي حجر زَلَق، ولَمَّا أَحَسَّ بنفسه يَسْقُط حَوْل العثرة لصالحه وانقضَّ موجَّهاً الطعنة، وَأَنغَرَسَ رأس سيفه في أعلى فخذاها رغم مراوغتها. أينعت زهرة حمراء، ونال چاييمي لحظةً واحدةً تلذَّذ فيها بمنظر دمها قبل أن ترتطم رُكبته بصخرةٍ ويتفجَّر فيها الألم العاتي، ومن فورها خاضت بريان في الماء وركلت سيفه بعيداً صارخةً: «استسلم!».

ضربها بكتفه في ساقها مُسَقِطاً إياها فوقه، وتدحرجا متبادلين اللكمات والركلات إلى أن وجدها راكبةً عليه منفرجة الساقين. نجح في انتزاع خنجرها من غمده، لكن قبل أن يُولِّجه في بطنها أمسكت معصمه ولوت يديه وهوت بهما على صخرةٍ بكلِّ عنف، حتى إنه ظنَّ أنها خلعت إحدى ذراعيه، وفردت يدها الأخرى على وجهه مكررةً: «استسلم!»، ودفعت رأسه تحت الماء وثبته هناك، ثم رفعتة وعادت تصيح: «استسلم!». بصق چاييمي الماء في وجهها، ودفعت رأسه تحت الماء ثانية، وأخذ يركل عبثاً وهو يُناضل من أجل التقاط نفس واحد، ومن جديد رفعت رأسه وكزرت: «استسلم وإلا أغرقتك!».

زُمجِرَ: «وتحنيثين بقسمك؟ مثلي؟».

تخلت عن رأسه وتركته يسقط نائراً الماء.

وضجت الغابة بالضحكات الخشنة.

وثبت بريان واقفةً. كانت مغطاةً بالوحل والدم أسفل الخاصرة ووثابها في فوضى ووجهها أحمر. تبدو كأنهم ضبطونا نتضاجع لا نتقاتل. زحف چاييمي على الصُّخور إلى بقعةٍ ضحلةٍ ومسح الدم عن عينه بيديه المقيدتين معاً، وأبصر رجالاً مسلحين منتشرين على جانبي الغدير، فقال لنفسه: لا

عجب. لقد أحدثنا جلبةً تروقظ تنيّناً، ثم إنه رفعَ صوته قائلاً لهم: «أهلاً بكم أيها الأصدقاء. اعذروني إذا أزعجتكم. كنتُ أودُّبُ زوجتي».

- «بدا لي أنها هي التي كانت تُؤدِّبُك!». الرَّجُل الذي تكلمَ كان قوياً مكتنزاً، ولم يُخفِ وافي الأنفِ في خوذته القصيرة حقيقة أنه بلا أنفِ.

أدركَ چاييمي فجأةً أن هؤلاء ليسوا المجرمين الذين قتلوا السير كليوس، ومن يُحيطون بهما الآن كُناسة الكُناسة؛ دورثيون داكنو البشرة ولايسيثيون سُقر، ودوثراكي بأجراس في صفائهم، وإينيزيون مُشعرون، وعدد من أبناء (جزر الصَّيف) ذوي البشرة السَّوداء كالفحم والمعاطف الرِّيش. إنه يعرف هؤلاء. رفقة الشُّجعان.

عثرتَ بريان على صوتها، فقالت: «معي مئة أيل فضِّي...».

قال رجل مهزول أقرب إلى جثَّة في معطفٍ جلدي بال: «سنأخذها كبداية يا سيِّدتي».

وأضاف الذي بلا أنف: «ثم سنأخذ كسِّك، فلا يُمكن أن يكون أقبح من وجهك».

قال حامل حربة دورني يلفُّ وشاحاً حريراً أحمر حول خوذته: «اقلبها واغتصب دُبرها يا رورچ. هكذا لن تضطرَّ إلى النَّظر إليها».

ردَّ عديم الأنف: «وأحرمها من متعة النَّظر إليّ؟»، فضحك الآخرون. على الرغم من قُبْحها وعنادها تستحقُّ الفتاة أفضل من الاغتصاب الجماعي من قِبَل هؤلاء الحثالة، فرفعَ چاييمي صوته متسائلاً: «لمن القيادة هنا؟».

كان الأحمر يُحيط بعينيَّ الجثَّة، وشعره خفيف جاف، والعروق الزَّرقاء الدَّاكنة تلوح من تحت جلد يديه ووجهه الممتنع، وهو من أجاب: «لي هذا الشَّرْف يا سير چاييمي. اسمي أورزويك، ويُلقَّبونني بأورزويك الوفي».

- «تعرف من أكون؟».

مالَ المرتزق برأسه قائلاً: «خداع رفقة الشُّجعان يتطلَّب أكثر من لحيَّة ورأس مخلوق».

تعني الممثلين السَّفَّاحين. لا يستسيغ چاييمي أمثال هؤلاء أكثر من جريجور كليجاين أو آموري لورك. إنهم كلاب كما يُسمِّيهم أبوه، ويستخدمهم كالكلاب

لمطاردة فرائسه وبثّ الرُّعب في قلوبها. «إذا كنت تعرفني يا أورزويك، فأنت تعرف أيضًا أنك ستنال مكافأتك. اللانستر يُسدّد ديونه دائمًا. وبالنسبة للفتاة، فهي كريمة المحتد، وتستحقُّ فديةً كبيرةً».

عاد الآخر يميل برأسه، وقال: «حقًا؟ إنني محظوظ إذن».

في ابتسامه أورزويك كان شيء من الخبث لم يَرُقّ چايمي، لكنه قال: «كما سمعتني. أين الكبش؟».

- «على بُعد ساعاتٍ قليلة. سيُسَرُّ لرؤيتك لا شك، لكنني لا أنصحك بأن تدعوه بالكبش في وجهه، فاللورد فارجو يغضب سريعًا لكرامته».

ومنذ متى ولهذا البربري المربّل كرامة؟ «سأعملُ على تذكُّر هذا عندما أقابله. لكن لورد على ماذا؟».

- «(هارنهال). لقد وُعدَ إياها».

فكّر چايمي: (هارنهال)؟ هل فقدَ أبي عقله؟ ورفعَ يديه قائلاً: «فليضرب أحدكم هذه السِّلْسلة».

وردَّ أورزويك بضحكةٍ في غاية الجفاف.

شيء ما خطأ تمامًا هنا. لم يُبدِ چايمي ما يعتمل في نفسه من توجُّس، وجعل نفسه يبتسم وهو يقول: «هل قلتُ ما يُضحك؟».

ردَّ عديم الأنف بابتسامه عريضة: «أنت أطرف شيء رأيتُه منذ قضم العضاض حلمتي تلك السَّيِّئة».

قال الدورني: «أنت وأبوك خسرتما معارك كثيرة، فاضطررنا لاستبدال فروة الذئب بلبدة الأسد».

وبسط أورزويك يديه قائلاً: «ما يعنيه تيميون أن رفقة الشُّجعان لم تُعد أجيرة عائلة لانستر. إننا الآن نخدم اللورد بولتون والملك في الشَّمال».

أعطاه چايمي ابتسامه احتقار باردة، وقال: «ويقولون إن شرفي أنا خراء؟».

لم يرض أورزويك عن التَّعليق، وبإشارةٍ منه قبضَ اثنان من الممثِّلين على ذراعَي چايمي، وهوى رورج بقبضته المقفزة بالمعدن على بطنه، وإذ انثنى على نفسه متأوِّهاً سمع الفتاة تقول: «توقّفوا! لا تُؤذوه! الليدي كاتلين

أرسلتنا، تبادل للأسرى، إنه تحت حمايتي...»، لكن رورج لكمه مرّةً أخرى مفرغًا رثيته من الهواء. حاولت بريان أن تغوص إلى سيفها تحت مياه الغدير،

لكن الممثلين انقضوا عليها قبل أن تبلغه يدها، وبقوتها هذه تطلب الأمر أن يضربها أربعة منهم حتى أجبروها على الخضوع.

في النهاية صارَ وجه الفتاة متورماً دامياً كوجه چايمي وفقدت اثنين من أسنانها، وهو ما لم يساهم في تحسين شكلها. جُرَّ الأسيان وهما يتعثران وينزفان عبر الغابة إلى الخيول، وبريان تعرّج من الجرح الذي أصابها به في فخذها. أحسَّ چايمي بالأسف من أجلها، فلا شكَّ لديه في أنها ستفقد بكورتها الليلة. هذا الوغد عديم الأنف سيغضبها بكل تأكيد، وربما يأخذ بعض الآخرين دورهم أيضاً.

قيدهما الدورني ظهرًا إلى ظهر على متن حصان بريان، بينما جرّد الممثلون كليوس فراي من ملابسه حتى الجلد واقتسموا أغراضه، وظفر رورج بالسترة الملطخة بالدماء التي رُسِمَت عليها مربعات تضم رمزي لانستر وفراي الفخورين، وقد اخترق السهمان الأسد والبرجين على حدّ سواء.

همسَ چايمي لبريان: «أمل أنك راضية يا هذه»، وسعلَ وبصقَ لُعابًا داميًا قبل أن يُصيف: «لو كنتِ قد سلّحتني لما قبضوا علينا أبدًا»، ولمّا لم تجبه فكر: يا لها من لعينة عنيدة كالخنازير... لكنها شجاعة، أجل. هذا شيء لا يستطيع أن يسلبها إياه. قال لها: «عندما نُخيم الليلة ستغضبين، وأكثر من مرّة. خيرٌ لك ألا تقاومي. ستخسرين أكثر من بضع أسنان إذا قاتلتهم».

أحسَّ بظهرها يتصلّب على ظهره، وسألته: «أهذا ما كنت لتفعله لو أنك امرأة؟».

لو أنني امرأة لكنتُ سرسي. «لو أنني امرأة لجعلتهم يقتلونني، لكنني لست كذلك»، وهمز الحصان ليدفعه إلى الخب، ونادى: «أورزويك! أريد كلمة!». شدَّ المرتزق الضّاوي ذو المعطف الجلدي البالي عنان حصانه لحظة، ثم جاوره قائلاً: «ماذا تريد مني أيها الفارس؟ واحفظ لسانك وإلا عفتك ثانية».

قال چايمي: «الذهب. هل تحبُّ الذهب؟».

أمعن أورزويك النّظر إليه بعينين محمّرتين، وقال: «أعترف بأن له مزاياه». منحه چايمي ابتسامةً عليمّةً قائلاً: «كل ما في (كاسترلي روك) من ذهب. لماذا تترك الكبش يستمتع به؟ لم لا تأخذنا إلى (كينجز لاندنج) وتقبض

فديتي بنفسك؟ وفديتها أيضًا إذا أردت. ذات مرّة أخبرتني فتاة بأن (نارث) هي جزيرة الصّفير». صدرت من الفتاة حركة حادّة لقوله هذا، لكنها لم تُعلّق.

- «أتحسبني انتهزياً؟».

- «بكلّ تأكيد. وماذا تكون غير هذا؟».

تأمّل أورزويك عرضه وهلة قصيرة، ثم قال: «كينجز لاندنج) بعيدة، وأبوك هناك. قد يكون اللورد تاويين مستاءً منا لبيع (هارنهال) للورد بولتون». إنه أذكي مما يبدو. كان چايمي يتطلّع إلى شئق هذا الحقير بينما تكتظّ جيبوه بالذهب. «دع لي التّعامل مع أبي. سأحصلُ لك على عفوٍ ملكي في أيّ جرائم ارتكبتها، سأحصلُ لك على فُروسيّة».

قال الرّجل لائكًا الكلمة: «السير أورزويك»، ثم أردف: «كم كانت زوجتي العزيزة لتفخر بسماع هذا، لولا أنني قتلتها»، وتنهّد وسأل: «وماذا عن اللورد فارجو الشّجاع؟».

- «هل أغنيّ لك بيتًا من (أمطار كاستامير)؟ الكبش لن يظلّ بهذه الشّجاعة عندما يقبض عليه أبي».

- «وكيف سيفعل ذلك؟ هل ذراعاً أبيض بالطول الكافي لبلوغنا من فوق أسوار (هارنهال) وانتراعنا من هناك؟».

- «إذا دعّت الحاجة». حماقة الملك هارن الحجريّة العملاقة سقطت من قبل ويُممكن أن تسقط مجدّدًا. «أأنت حقًا بالسّذاجة التي تجعلك تتصوّر أن الكبش يُمكنه أن يهزم الأسد؟».

مال أورزويك، وبمتمهى التّراخي صفّعه على وجهه.

ما حملته الصّفعة من صفاقة فاترة كان أسوأ من الصّفعة نفسها، وقال چايمي في قرارة نفسه وقشعريرة الإدراك تسري في جسده: إنه لا يخافني.

قال أورزويك: «سمعتُ ما يكفي يا قاتل الملك. سأكونُ أحمق كبيرًا إذا صدّقتُ كلمة ناقض للعهد مثلك»، وركل حصانه وهروّل مبتعدًا ليثبت فطنته.

فكّر چايمي بضيق: إيرس، دائمًا ينقلب الكلام إلى إيرس. تمايل مع حركة الحصان وهو يتمنّى لو أن في يده سيفًا. وسيفان أفضل من سيف، واحد للفتاة

وواحد لي. سنموت، لكننا سنأخذ نصفهم معنا إلى الجحيم.

همست بريان عندما ابتعد أوزويك: «لماذا قلت له إن (تارث) جزيرة الصَّفِير؟ سيظنُّ أن أبي يملك ثروةً من الأحجار الكريمة...».

- «خيرٌ لك أن تتمني أن يفعل».

- «أكل كلمة تخرج منك كذب يا قاتل الملك؟ (تارث) تُسمي جزيرة الصَّفِير لزُرقة مياهها».

- «ارفعي صوتك قليلاً يا هذه، فلا أظنُّ أن أوزويك سمعك. بمجرد أن يعرف أنك لا تستحقين فديةً كبيرةً ستبدأ الاحتصاب. كل رجل هنا سيمتطيك، لكن لماذا تُبالين؟ أغلعي عينيكِ وافتحي ساقيكِ وتظاهري بأنهم كلهم اللورد رنلي».

لحسن الحظ أحرستها كلماته بعض الوقت.

كان النهار في أواخره عندما وجدوا فارجو هوت ينهب سبتًا صغيرًا مع دسته من رفقة الشجعان. حطمت النوافذ الملونة وجرت الآلهة الخشبية المنحوتة إلى نور الشمس الراحلة، وقد جلس أسمن دوثراكي رآه چايمي على الإطلاق على صدر (الأم) منتزعًا عينيها المصنوعتين من العقيق الأبيض بطرف سكينه، وعلى مقربة منه علّق سبتون أصلع من قدميه من شجرة كستناء ممتدة الفروع، يستخدم ثلاثة من المرتزقة جثته كهدف للرماية، ولا بُد أن أحدهم بارع حقًا، بما أن هناك سهمين مغروسين في عيني الرجل.

عندما لمح المرتزقة أوزويك والأسيرين سرت بينهم صيحة بنصف دسته من اللغات. كان الكباش جالسًا إلى جوار بؤرة نار، يلتهم طائرًا شبه مطهو من على سيخ، والدهن والدم يسيلان على أصابعه إلى لحيته الطويلة الخشنة. مسح يديه على صدرته ونهض قاتلاً ولعابه يسيل: «قاتل الملك، أنت أثيري».

رفعت الفتاة صوتها وخاطبته: «سيدي، أنا بريان التارثية. الليدي كاتلين ستارك أمرتني بإيصال السير چايمي إلى أخيه في (كينجز لاندنج)».

رمقها الكباش بلا مبالاة، وقال: «أخبروها».

ناشدته بريان بينما قطع رورج الحبال التي تُقدها إلى چايمي: «اسمعي،

باسم الملك في الشمال، الملك الذي تخدمه، أرجوك، اسمعي...».

جَرَّهَا رورچ من فوق الحصان وراخ يركلها، فقال له أورزويك: «لا تكسر عظامها. المومس ذات وجه الحصان تساوي وزنها صفيِّرا».

سحبَ الدورني تيميون وإيينيزي كرية الرّائحة چايمي من فوق السّرج ودفعاه بخشونةٍ نحو التّار. لم يكن ليصعبُ عليه أن يختطف سيف أحدهم من غمده، لكن عددهم كثير للغاية، وهو لا يزال في أغلاله. قد يُسقط واحداً أو اثنين، لكنه سيموت في النّهاية، وچايمي ليس مستعدّاً للموت بعد، وبالتّأكيد ليس في سبيل أمثال بريان التارثيّة.

قال فارجو هوت: «يا له من يوم جميل». حول عنقه كانت سلسلة حلقاتها من العُمّلات المختلفة، عُمّلات من كل شكل وحجم، مصبوبة ومطرّقة، عليها ملوك وسحرة وآلهة وشياطين وحيوانات أسطوريّة من مختلف الأنواع. فكّر چايمي متذكّراً: عُمّلات من كل بلد قاتل فيه. مفتاح هذا الرّجل الجشع. إذا انقلب مرّة فيمكن أن ينقلب أخرى. «لورد فارجو، تركك خدمة أبي كان حماقة، لكن أوان التّراجع لم يفت. سيدفع ثمناً كبيراً مقابلي وأنت تعلم هذا». قال فارجو هوت: «أوه، ثحيح، ثيعطيني نشف الذهب في (كاثرلي روك)، لكن عليّ أن أوجّه له رثالة أولاً»، وقال شيئاً ما بلغته الكبشيّة اللّزجة.

دفع أورزويك ظهره، وركل مهرّج يرتدي الأخضر والوردي ساقيه من تحته، وحين اصطدم بالأرض أمسك رام بالسّلسلة التي تربط يديه معاً واستخدمها ليمدهما أمامه، ووضع الدوثرانكي البدين سكينه جانباً ليستلّ أراخاً مقوَّساً ضخماً، ذلك السّلاح شديد الحدة هجين السّيف والمنجل الذي يحبّه سادة الخيول.

يُرِيدون إرهابي. قفز المهرّج على ظهر چايمي، وتقدّم الدوثرانكي منه متبخترًا. الكبش يُرِيدني أن أبول في سراويلي وأتوسّل الرّحمة، لكنني لن أمنحه هذه المتعة أبداً. إنه ابن آل لانستر أولاد (كاسترلي روك)، حضرة قائد الحرس الملكي، ولا مرتزق في الدُّنيا سيجعله يصرّخ.

تموّج نور الشّمس بلون الفضة على حافة الأراخ وهو يهوي بسرّعةٍ يكاد من فرطها لا يُرى.

وصرخ چايمي.

آريا

كان الحصن المربع الصغير أقرب إلى أطلال، والفارس العظيم الهرم الذي يعيش هناك أقرب إلى جثة، طاعناً في السن لدرجة أنه لم يفهم أسئلتهم، ومهما قالوا له يتسم ويهمهم: «دافعتُ عن الجسر ضد السير ماينارد. كان أحمر الشعر وأسود المزاج، لكنه لم يستطع أن يُزحزحني. أصابني بسنة جروح قبل أن أقتله، سنة!». .

من حُسن الحظ أن المايستر الذي يعتني به شاب، وبعد أن غاب الفارس الشيخ في النوم في كرسيه انتحى بهم جانباً، وقال: «أخشى أنكم تبثون عن شبح. لقد جاءنا طائر منذ فترة طويلة للغاية، نصف عام على الأقل، يقول إن رجال لانستر قبضوا على اللورد بريك قرب (عين الآلهة) وشنقوه».

- «شنقوه، نعم، لكن ثوروس قطع الحبل قبل أن يموت. حضرة اللورد رجل يصعب قتله حقاً». لم يُعد أنف ليم المكسور محمراً أو متورماً كما كان لكنه بدأ يلتئم بشكل مائل، جاعلاً وجهه يبدو معوجاً. قال المايستر: «ورجل يصعب العثور عليه على ما يبدو. هل سألتهم سيّدة الأوراق؟».

ردّ ذو اللحية الخضراء: «سنفعل».

في الصباح التالي، بينما يعبرون الجسر الحجري الصغير وراء الحصن، تساءل جندي إن كان هذا هو الجسر الذي قاتل عليه الرجل المُسن، لكن أحداً لم يعلم، وقال چاك المحظوظ: «غالباً هو، فلا أرى جسوراً أخرى».

قال توم سبعة أوتار: «كنا لنعرف على وجه اليقين لو أن هناك أغنيّة، أغنيّة واحدة جيّدة كفيّلة بإخبارنا من كان السير ماينارد ولماذا أراد أن يعبر الجسر

بأيّ ثمن. كان لا يتشتر العجوز المسكين ليتحلّى بشهرة الفارس التّنين لو أنه تمّتع بالذكاء واحتفظ بمغنّ». .

دمدم ليم: «أبناء اللورد لا يتشتر ماتوا في ثورة روبرت، بعضهم على جانب وبعضهم على الآخر، ومنذ ذلك الحين وعقله ليس على ما يُرام، ولا أغنيّةٌ سخيفةٌ يُمكنها أن تُعالج هذا».

سألّت آريا أنجاي وهم راكبون: «ماذا قصد المايستر بسؤال سيّدة الأوراق؟».

ابتسم القوّاس وأجابها: «انتظري وسترين».

بعد ثلاثة أيام، في أثناء عبورهم غابةً صفراء، التقطَ چاك المحفوظ بوقه المعلق في حزامه وأطلق إشارةً مختلفةً عن السّابقة، ولم يكن الصّوت قد خفت بعد عندما أسدلت سلالم من الحبال من فوق فروع الأشجار، وقال توم منعماً كلماته: «نربط الخيول وبعدها إلى أعلى». ثم إنهم تسلّقوا إلى قريةٍ متوارية وسط الفروع العلويّة، متاهة من الممرّات المصنوعة من الحبال والبيوت المغطّاة بالطحالب، التي تُخفيها حوائط من ورق الشّجر الأحمر والذهبي. أخذوا إلى سيّدة الأوراق، وهي امرأة بيضاء الشّعر نحيلة كالعصا ترتدي الخيش قالت لهم: «لا يُمكننا البقاء هنا طويلاً وقد حلّ الخريف. ثمة دسّة من الذئاب قطعّت طريق (هايفورد) قبل تسعة أيام. كانوا يُطارِدون أحداً، ولو رفع أحدهم رأسه لرأنا».

سألها توم سبعة أوتار: «ألم تروا اللورد بريك؟».

بدا الاضطراب على المرأة وهي تُجيب: «لقد مات. الجبل لحقّ به وأعمد خنجرًا في عينه. أحد الإخوة الشّحاذين أخبرنا بعد أن سمع الحكاية من شاهد عيان».

قال ليم: «حكاية قديمة وخاطئة. سيّد البرق لا يُقتل بهذه السّهولة. نعم، فقاً الجبل عينه، لكن شيئاً كهذا لا يُقتل أحداً. سلي چاك».

قال چاك المحفوظ الأعور: «أنا لم أمّت. أبي شنقه وكيل اللورد پاير، وأخي وات أرسل إلى (الجدار)، وإخوتي الآخرون قتلهم رجال لانستر. عين واحدة، هذا لا شيء».

تشبّثت المرأة بذراع ليم، وقالت: «هل تُقسّم أنه لم يمُت؟ بوركت يا

ليم. هذا أفضل خبرٍ سمعناه منذ نصف عام. فليحِمِه (المُحارب)، والرَّاهب الأحمر أيضًا».

في اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ أووا إلى هَيْكَلِ سِبْتِ لَفَحَتِهِ النَّيرانِ في قَرْيَةٍ مَحْتَرِقَةٍ اسْمُهَا (سَالِيدَانَس). لم يَتَبَقْ مِنَ النَّوَاذِ إِلَّا شَطَايَا الرُّجَاجِ المَعشَّقِ، والسِّبْتُونِ العَجُوزِ الَّذِي حَيَّاهُمْ وَقَالَ إِنَّ اللُّصُوصَ لَمْ يَتْرُكُوا شَيْئًا إِلَّا وَسَرَقُوهُ، بِمَا فِي ذَلِكَ ثَوْبِ (الْأُمِّ) الثَّمِينِ وَمَصْبَاحِ (العَجُوزِ) المَذْهَبِ وَتَاجِ (الْأَبِ) الفَضِّي. «بَلْ وَقَطَعُوا ثَدْيِي (العِذْرَاء) كَذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمَا مِنَ الخَشْبِ. وَالْأَعْيُنُ، الْأَعْيُنُ كَانَتْ مِنَ الكَهْرْمَانِ الْأَسْوَدِ وَاللَّازُورُودِ وَعِرْقِ اللُّؤْلُؤِ، وَانْتَزَعُوها بِسَكَكِينِهِمْ. فَلتَرَحِمَهُم (الْأُمِّ) جَمِيعًا».

سَأَلَهُ لِيمُ ذُو المَعطَفِ اللَّيْمُونِي: «مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ المِمْتَلُونَ؟». أَجَابَ العَجُوزُ: «لَا، كَانُوا شِمَالِيَّيْنِ، هَمَجِّيَّيْنِ يَعْجُدُونَ الْأَشْجَارَ. قَالُوا إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَاتِلَ المَلِكِ». سَمِعْتَهُ آرِيَا وَمَضَعَتْ شَفْتَهَا وَقَدْ أَحْسَسَتْ بِنظَرَاتِ جَنْدَرِي إِلَيْهَا، وَمَاجَتْ نَفْسَهَا بِالْحَنَقِ وَالخِزْيِ.

كَانَ دِسْتَةٌ مِنَ الرِّجَالِ يَفْطُنُونَ فِي القُبُورِ أَسْفَلَ السِّبْتِ، وَسَطَ شَبَاكِ العُنَاكِبِ وَالجُذُورِ وَبِرَامِيلِ النَّبِيدِ المَكْسُورَةِ، لَكِنْ هُمْ أَيْضًا لَمْ يَعْرِفُوا شَيْئًا يَدُلُّ عَلَى مَكَانِ بَرِيكِ دُونْدَارِيُونِ، وَلَا حَتَّى قَائِدِهِمُ الَّذِي ارْتَدَى دِرْعًا مَلَوْتَةً بِالسَّنَاجِ وَرَسَمَ صَاعِقَةً بَدَائِيَّةً عَلَى مَعطَفِهِ. عِنْدَمَا رَأَى ذُو اللِّحْيَةِ الخِضْرَاءِ آرِيَا تَحَدِّقُ إِلَى الرَّجْلِ، ضَحِكَ وَقَالَ: «سَيِّدَ البَرَقِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَليْسَ فِي أَيِّ مَكَانٍ أَيْتَهَا السَّنَجَابُ النَّحِيلُ».

قَالَتْ: «لَسْتُ سَنَجَابًا. إِنِّي أَقْتَرِبُ مِنْ سِنِّ النِّسَاءِ، وَقَرِيبًا سَأَبْلُغُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ».

- «احْتَرَسِي لئَلَّا أَتَزَوَّجِكَ إِذْنًا!»، وَحَاوَلَ أَنْ يُدْغِدَهَا تَحْتَ ذَقْنِهَا، لَكِنهَا صَفَعْتَهُ عَلَى يَدِهِ السَّخِيفَةِ.

لَعَبَ لِيمُ وَجَنْدَرِي البَلَاطَاتِ مَعَ مَضِيفِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، بَيْنَمَا رَدَّدَ تَوْمَ سَبْعَةٍ أَوْتَارَ أَعْيُنِيَّةٍ سَادِجَةً عَنِ بَنِ ذِي البَطْنِ الكَبِيرِ وَإِوْزَةَ السِّبْتُونِ الْأَعْلَى، وَتَرَكَ أَنْجَايَ آرِيَا تُجَرِّبُ قَوْسَهُ الطَّوِيلِ، لَكِنهَا فَشَلَّتْ فِي سَحْبِ السَّهْمِ عَلَى الوَتْرِ مَهْمَا حَاوَلَتْ وَهِيَ تَعْضُ شَفْتَهَا بِقُوَّةٍ، فَقَالَ لَهَا القَوَّاسُ ذُو الوَجْهِ المَنْمَشِ:

«تحتاجين إلى قوس أخف يا سيّدي. إذا كان لديهم خشب معالج في (ريفررَن) فسأصنع لك واحدًا».

سمعه توم، فبتر أغنيته قائلاً: «إنك أبله صغير أيها القوّاس. إذا ذهبنا إلى (ريفررَن) سنقبض فديتها لا أكثر، ولن يكون هناك وقت للتلكؤ وصنع الأفواس. كُن ممتناً إذا خرجت من هناك سليماً، فاللورد هوستر يشقّ الخارجين عن القانون من قبل أن تتعلم الحلاقة، وابنه هذا... الرّجل الذي يكره الموسيقى ليس أهلاً للثقة كما أقول دائماً».

قال ليم: «إنه لا يكره الموسيقى، وإنما يكرهك أنت يا أحمق».

- «دون سبب. الفتاة كانت مستعدّة لأن تجعل منه رجلاً، فهل غلطتي أنه شرب لدرجةٍ أعجزته عن إتمام المهمة؟».

أطلق ليم نحيراً من أنفه المكسور، وقال: «ألم يكن أنت الذي ألف أغنيته عن هذا أم مغفل آخر يعشق صوت نفسه؟».

ردّ توم بتبرّم: «غنيتهما مرّةً واحدةً فقط، ومن يُمكنه أن يُثبت أنها كانت عنه أصلاً؟ إنها عن سمكة».

قال أنجاي ضاحكاً: «سمكة رخوة!».

لم تُبالِ آريا بما تحكي عنه أغاني توم السخيفة، والتفتت إلى توم متسائلةً: «ماذا يقصد بالفدية؟».

- «إننا في حاجةٍ ماسّةٍ إلى الخيول يا سيّدي، والدروع والسّيوف والتُّروس والحِراب أيضاً، وكلها أشياء تُكلّف مالا، نعم، ونحتاج إلى بذور نزرعها. الشتاء قادم، أليس كذلك؟»، ومسّها تحت ذقنها مضيئاً: «لن تكوني أول سبيّة نبيلة نقبض فديتها، ولا الأخيرة كما أمل».

تعلم آريا أن هذا صحيح. الفرسان يُوسرون وتُدفع فديتهم طول الوقت، والنساء كذلك أحياناً. لكن ماذا لو رفض روب أن يدفع الثمن الذي يطلبونه؟ إنها ليست فارساً شهيراً، والمفترض أن يُؤثر الملوك البلاد على أخواتهم. وماذا ستقول السيّدة والدتها؟ هل ستظل رغبةً في استردادها بعد كل ما فعلته؟ مضغت آريا شفرتها وتساءل.

في اليوم التّالي ركبوا إلى مكانٍ يُسمّى (القلب العالي)، تل شاهق لدرجةٍ جعلت آريا تشعر كأنها ترى نصف العالم من على قمّته، التي طوّقت حافتها

حلقة من الجذوع الشاحبة المبتورة، ما تبقى مما كان دائرة أشجار ويروود مهيبة ذات يوم. دارت مع جندي حول قمة التل لتعدها، فأحصت واحداً وثلاثين جذعاً، بعضها عريض جداً حتى إنها يُمكنها أن تنام عليه. أخبرها توم سبعة أوتار أن (القلب العالي) كان مقدّساً عند أطفال الغابة، وما زال القليل من سحرهم موجوداً في المكان. قال المغني: «لا سوء يمس من ينامون هنا»، وخطر لأريا أن هذا صحيح لا بُدَّ، فالتل مرتفع للغاية، والأراضي المحيطة به مسطحة تماماً، فلا يُمكن أن يقترب عدو ما دون أن يُرى.

قال لها توم أيضاً إن سُكَّان هذه الأنحاء يتجنَّبون المكان، الذي يُقال إنه مسكون بأشباح أطفال الغابة الذين ماتوا هنا عندما دمر الملك الأندالي المسمَّى إريج قاتل الأقربين بُستانهم. تعرف آريا أشياء عن أطفال الغابة والأنداليين، لكن الأشباح لا تُخيفها، وقد اعتادت أن تختبئ في سرايب (ويترفل) في صغرها وتلعب (تعال إلى قلعتي) و(وحوش وعدادي) وسط الملوك الحجريين على عروشهم.

وعلى الرغم من هذا أحسَّت بالشعر على مؤخرة عنقها ينتصب ليلتها. كانت نائمة لكن العاصفة أيقظتها، وسحبت الرِّيح الغطاء من عليها وألقت به وسط الشُّجيرات، ولمَّا ذهبت تستعيده تناهت الأصوات إلى مسامعها.

إلى جوار جذوات نار المخيم رأت توم وليم وذا اللحية الخضراء يتكلمون مع امرأة ضئيلة الحجم، أقصر من آريا بقدم كامل وفي أرذل العمر، حتى إنها أكبر من العجوز نان نفسها، ظهرها منحني وجلدها متغصن وتتكئ على عُكاز خشبي أسود كثير العقد. انسدل شعرها الأبيض الطويل حتى كاد يبلغ الأرض، وحين هبت الرِّيح طيرته فوق رأسها في سحابة ناعمة، أمَّا بشرتها فأكثر بياضاً، أقرب إلى لون الحليب، وخجلت لآريا أن عينيها حمراوان، وإن كان التَّمييز عصياً من مكانها وسط الشُّجيرات.

سمعت المرأة تقول: «الآلهة القديمة تتحرَّك ولا تسمح لي بالنوم. حلمت بظل ذي قلب مشتعل يغال وعلاً ذهبياً، نعم. حلمتُ برجل بلا وجه ينتظر على جسر يتأرجح ويتمايل، على كتفه يجثم غراب غارق تتدلَّى طحالب البحر من جناحيه. حلمتُ بنهر هادر وامرأة سمكة تطفو ميتةً بدموع حمراء

على وجنتيها، لكن حين انفتحت عيناها، أوه، استيقظت رُعباً. كلُّ هذا وأكثُر
حلمتُ به. أمعكم هدايا تدفعون بها ثمن أحلامي؟».

دمدمَ ليم ذو المعطف الليموني: «الأحلام. ما فائدة الأحلام؟ نساء أسماك
وغربان غارقة. البارحة حلمتُ بأني أقبلُ خادمة الخان التي عرفتها ذات يوم،
فهل ستدفعين لي ثمن هذا الحلم أيتها العجوز؟».

هَسَّت المرأة: «الفتاة ماتت، ولا يُقبَلها الآن إلا الدود»، ثم قالت لتوم:
«أريدُ أغنيتي وإلا فارحلوا».

غنى توم لها أغنيةً شديدة التُعمومة والحزن لم تسمع منها آريا إلا كلمات
متفرقة، وإن بدأ اللحن مألوفاً بعض الشيء. أراهنُ أن سانزا تعرفها. أختها
تعرف الأغاني كلها، وتستطيع أن تعزف إلى حدِّ ما، كما أن صوتها بالغ
العذوبة. وكل ما كان باستطاعتي أن أجأر بالكلمات.

في الصُّباح التَّالي غابَت العجوز البيضاء الصَّغيرة عن الأنظار، وبينما
يُجهِّزون الخيول سألتُ آريا توم إن كان أطفال الغابة ما زالوا يسكنون (القلب
العالي)، ففهِقَت المغني وقال: «هل رأيتها؟».

- «أكانت شبحاً؟».

- «وهل تشكو الأشباح من آلام المفاصل؟ لا، إنها مجرد عجوز قزمة، مع
أنها غريبة الأطوار وشريرة النَّظرات، لكنها تعرف أشياء لا يُفترَض أن تعرفها،
وأحياناً تقولها لك إذا راقها شكلك».

سألته آريا بشك: «وهل يروقها شكلك؟».

ضحك المغني وقال: «يروقها صوتي على الأقل، لكنها تجعلني أغني
الأغنية اللعينة نفسها كلَّ مرَّة. إنها ليست أغنيةً سيئةً إطلاقاً، لكن لدي
أخرى بالجوذة ذاتها»، ثم همَّ رأسه وأردف: «المهمُّ الآن أننا التقطنا الأثر.
أراهنُ أنك ستريين ثوروس وسيِّد البرق قريباً».

- «إذا كنتم رجالهما، فلم يخبثون منكم؟».

وشتَ نظرة توم سبعة أوتار باستسخافه السُّؤال، لكن هاروين أجابها: «لا
نعدُّ هذا اختباءً يا سيِّدتي، لكن صحيح أن اللورد بريك يتنقَّل كثيراً، ونادراً ما
يكشف عن حُططه، فهذه الطَّريقة لا يستطيع أحد أن يخونه. الآن هناك مئات
مقسمون على الولاء له، وربما آلاف، لكن لن يصلح على الإطلاق أن نتبعه

جميعًا في الآن نفسه، وإلا أتينا على كل ما في الرِّيف من طعام أو فتك بنا جيش أكبر في معركة. كوننا موزَّعين في مجموعاتٍ صغيرة يجعلنا قادرين على توجيه ضرباتنا إلى عشرة أماكن في وقتٍ واحد، ثم ننسحب إلى بقعةٍ جديدة قبل أن يُدركونا، وعندما يُقبض على أحدنا ويستجوبونه، فلن يُمكنه أن يُخبرهم بمكان اللورد بريك مهما فعلوا به»، وتردَّد لحظةً قبل أن يسأل: «هل تفهمين معنى الاستجواب؟».

أومات برأسها إيجابًا، وقالت: «بوليفر وراف والآخرون كانوا يُسمُّونه الدَّغدة»، وروت لهم ما حدث في القرية المطلَّة على (عين الآلهة) حيث قُبض عليها مع جندري، والأسئلة التي اعتاد المُدغذغ إلقاءها، فبدأ دائمًا بـ«هل من ذهب محبَّبًا في القرية؟»، ثم تتوالى الأسئلة: «هل من فضة أو جواهر؟ هل هناك طعام؟ أين اللورد بريك دونداريون؟ من عاونه من أهل القرية؟ أين ذهب؟ كم رجلاً كانوا معه؟ كم فارسًا؟ كم قوَّاسًا؟ كم منهم امتطى الخيول؟ ما تسليحهم؟ كم منهم كان جريحًا؟ قلت أين ذهب؟». مجرد التفكير دفعها إلى سماع الصُّراخ وشم رائحة الدَّم والغائط واللَّحْم المحترق. قالت للخارجين عن القانون بكآبة: «كان يلقي الأسئلة نفسها دومًا، ولكن يُغيِّر وسيلة الدَّغدة كلَّ يوم».

قال هاروين حين فرغت: «لا يَجْدُر بالأطفال أن يُعانوا هكذا. سمعنا أن الجبل خسِرَ نصف رجاله عند (الطَّاحونة الحجريَّة)، ولعلَّ ذلك المُدغذغ طاف في (الفرع الأحمر) الآن ويلتهم السَّمك وجهه، وإن لم يكن فهي جريمة أخرى سيدفعون ثمنها. سمعتُ حضرة اللورد يقول إن هذه الحرب اندلعت عندما أرسله اليد لإنزال عدالة الملك بجريجور كليجاين، وهكذا ينوي أن تنتهي»، وربَّت على كتفها مُطمئنًا، وأضاف: «الأفضل أن تركبي يا سيِّدتي. أمامنا يوم طويل حتى نصل إلى (بهو البلوط)، لكن في نهايته سنجد سقفاً فوق رؤوسنا وعشاءً ساخنًا في بطوننا».

كان يومًا طويلًا من الرُّكوب حقًا، لكن بينما بسط الغسق أجنحته على العالم خاضوا في غديرٍ صغير وخرجوا ليجدوا أمامهم (بهو البلوط) بأسوارها الحجريَّة وحصنها السَّندياني الكبير. كان سيِّد القلعة بعيدًا، يُحارب ضمن حاشية سيِّده اللورد فانس، فأغلقت البوابة وأوصدت في غيابه، لكن السيِّدة زوجته صديقة

قديمة لتوم سبعة أوتار، وقال أنجاي إنهما كانا متحابَّين. غالبًا يركب أنجاي إلى جوارها، فهو أقرب إليها في السنِّ منهم جميعًا باستثناء جندري، واعتاد أن يحكي لها نوادر عن التُّخوم الدورتيَّة، إلا أنه لم يُفلح في خداعها إطلاقًا. إنه ليس صديقي، ولا يُبقيه على مقرية مني إلا مراقبتي والتأكد من ألا أهرب ثانية. حسن، آريا أيضًا يُمكنها أن تُراقب. سيريو فورل علمها كيف.

رَحَّبَت الليدي سمولوود بالخارجين عن القانون بأريحيَّة، وإن وبَّختهم بحلَّة على جرِّ فتاة صغيرة معهم في قلب الحرب، وغضبت أكثر حين انزلق لسان ليم وقال إنها من بنات الأعيان أيضًا، وقالت: «من ألبس المسكينة أسمال بولتون هذه؟ الشَّارة... كثيرون سيُسعدهم أن يشنُّقوها في غمضة عينٍ إذا رأوا الرِّجل المسلوخ على صدرها».

حشيًا وجدت آريا نفسها تُقاد إلى أعلى، حيث أجبرتها الخادِمات على التزول إلى حوض استحمام وغمرنها بالمياه الساخنة، ودعكن جلدتها بمنتهى الشدَّة حتى أحسَّت كأنهن يسُلخنه، بل وأضفن إلى الماء معطرًا كريهاً مرائحته كالزُّهور.

بعدها أصررن على أن ترتدي ملابس الفتيات؛ جوارب بيَّنة طويلة من الصُّوف، وغلالة خفيفة من الكتَّان، وفوقها فُستان أخضر يانع طرَّز جوز البلوط على صدره وحاشيته بخيط بيِّي. قالت الليدي سمولوود والنِّساء يعقدن أربطة الفُستان على ظهرها: «خالتي الكبيرة سيَّمة في معتكف في (البلدة القديمة). أرسلتُ ابنتي إلى هناك حين بدأت الحرب، ولا بُدَّ أنها ستكون قد كبرت على هذه الثياب عندما ترجع. هل تُحِبُّين الرِّقص يا صغيرتي؟ ابنتي كاريلين راقصة رائعة، وصوتها جميل أيضًا. ما هوايتك المفضَّلة؟».

داعبت الحصرير بإصبع قدمها الكبير مجيبة: «أشغال الإبرة».

- «نشاط مريح للغاية، أليس كذلك؟».

- «ليس بالطريقة التي أمارسه بها».

- «حقًا؟ لطالما وجدته مريحًا. خالتي تقول دائمًا إن الآلهة تهب لكلِّ

منا موهبته الخاصَّة، وعلينا أن نستغلَّها. أيُّ عملٍ من الممكن أن يكون عبادةً إذا بذلنا فيه قصارى جهدنا. أليست هذه فكرةً جميلةً؟ تذكَّري هذا عندما تشتغلين بإبرتك المرَّة القادمة. هل تستخدمينها كلَّ يوم؟».

- «اعتدتُ هذا حتى فقدتها. الإبرة الجديدة ليست بالجودة نفسها».
- «في أوقات كهذه علينا أن نستغلَّ المتاحة بأفضل شكل ممكن»، وعدلتَ
الليدي صدر الفُستان وأردفتَ: «الآن تبدين كليدي صغيرةً بحق».
أرادتَ آريا أن تقول لها: لستُ ليدي، إنني ذبئة.

قالت المرأة: «لستُ أدري من تكونين يا صغيرتي، ولعلَّ هذا أفضل.
أخشى أنكِ مهمَّة»، وسوتَ ياقة الفُستان مواصلةً: «في أوقات كهذه الأحسن
أن يكون المرء بلا أيِّ قيمة. ليتني أستطيع الاحتفاظ بكِ هنا معي، لكن
ذلك لن يكون آمنًا. إن لديَّ أسوارًا، لكن رجالًا قليلين للغاية للدِّفاع عنها»،
وتنهَّدتَ بأسى.

كانوا يُقدِّمون العشاء في القاعة لما جاءتَ آريا نظيفةً مصفَّفةً الشَّعر متأنِّقةً.
ألقي جندي نظرةً واحدةً عليها وانفجرَ في الضَّحك حتى خرجَ النَّبيذ من فمه،
فلطمه هاروين على أذنه. تناولوا وجبةً تقليديَّةً لكن مشبعةً من الضَّأن والفِطر
والخُبز الأسمر والبازلاء المهروسة والتَّفاح المخبوز بالجُبنة الصِّفراء، وحين
رُفِعَ الطعام وانصرفَ الخدم، خفصَ ذو اللحية الخضراء صوته ليسألَ حضرة
الليدي إن كانت لديها أخبار عن سيِّد البرق.

أجابتَ مبتسمةً: «أخبار؟ لقد كانا هنا قبل أقل من أسبوعين، هما ودستة
من الآخرين يسوقون الخراف. كدتُ لا أصدِّق عيني. أعطاني ثوروس ثلاثةً
على سبيل الشُّكر، أحدها أكلتموه الليلة».

أطلقَ أنجاي ضحكةً عاليةً، وقال: «ثوروس يسوق الخراف؟».
- «كان المنظر عجيبيًا بالفعل، لكن ثوروس زعمَ أنه يعرف كيف يرمى
الغنم باعتباره راهبًا».

قهقهة ليم قائلاً: «نعم، وكيف يجرُّ صوفها أيضًا».
داعبَ توم وترًا في قيثارته الخشبيَّة، وقال: «حكاية تصلح لأن يصنع أحد
منها أغنيَّة نادرة رائعة».

حدجته الليدي سمولود بنظرة ناريَّة، وقالت: «أحد لا يسجع عليكِ
بهن» مع «دونديون»، أو يُعني (أوه، ارقُدي في العُشب يا جميلتي) لكلِّ
بائعة حليب في الجوار ويترك اثنتين منهن بيطنين متفخين».

قال توم بلهجة دفاعيَّة: «كانت (دعيني أشرب جمالكِ)، وبائعات الحليب

يسعدن لسماعها دائماً، كما اعتادت سيّدة نبيلة معيّنة أذكرها. إنني أغني لأبجح النَّاسَ».

غاضبةً قالت: «أراضي النَّهر ملأى بمن أبهجتهم، وكلهن يشربن شاي التانسى. كان المرء ليحسب أن عجزاً مثلك تعلم أن يُفرغ نُظفته على بطونهن. لن يطول الوقت قبل أن يدعوكَ النَّاسُ بتوم سبعة أبناء».

- «يتصادف أنني تجاوزت السبعة منذ زمن طويل، أبناء لا بأس بهم على الإطلاق، أصواتهم عذبة كالعنادل». كان واضحاً أنه لا يُحبذ الكلام عن هذا. سأل هاروين: «هل قال حضرة اللورد أين سيذهب يا سيّدي؟».

- «اللورد بريك لا يُفصح عن حُططه أبداً، لكن هناك مجاعة بالقرب من (السّيت الحجري) و(غابة البنسات الثلاثة). أنصح بأن تبحثوا عنه هناك»، وأخذت رشفةً من النّبيذ وأضافت: «ينبغي أن تعلموا أن زواراً أقل مدعاةً للتّرحاب أتوني، قطيعاً من الذئاب راح يعوي عند بوابتي بحثاً عن چايمي لانستر». توقّف توم عن مداعبة أوتاره، وقال: «صحيح إذن أن قاتل الملك عادَ طليقاً؟».

رمقته الليدي سمولوود بتهمكٌ مجيبةً: «لا أظنهم سيُطارِدونه إذا كان لا يزال مقيّداً تحت (ريقررن)».

سألها چاك المحظوظ: «وماذا قالت لهم سيّدي؟».

- «إن السير چايمي عار في فراشي، لكنني استنزفته ولا يستطيع التّزول إليهم. أحدهم كان بالوقاحة الكافية لأن ينعتنني بالكذب، فطردهم ببضعة سهام. أعتقد أنهم توجّهوا إلى (حنية بلاكوتوم)».

اعتدلت آريا بتوتّر في مقعدها، وسألت: «من كان هؤلاء الشّماليّون الذين سألو عن قاتل الملك؟».

لاحت الدّهشة على الليدي سمولوود لأنها تكلمت، لكنها قالت: «لم يقولوا أسماءهم يا صغيرتي، لكنهم ارتدوا الأسود، وعلى صدورهم كانت شارة الشّمس البيضاء».

الشّمس البيضاء على خلفيّة سوداء رمز عائلة كارستارك. كانوا رجال روب. تساءلت إن كانوا ما زالوا قريبين. إذا استطاعت التّملص من الخارجين عن القانون والعتور عليهم، فلربما يأخذونها إلى أمّها في (ريقررن)...

سأل ليم: «هل قالوا كيف هربَ لانستر؟».
- «نعم، لكنني لم أصدّق كلمة. ادّعوا أن الليدي كاتلين أطلقت سراحه». أجفَلت إجابتها توم بشدّة حتى إنه قطعَ وترًا، وقال: «كلام فارغ، جنون». وفكّرت آريا: غير صحيح، لا يُمكن أن يكون صحيحًا.
قالت الليدي سمولوود: «هذا ما خطرَ لي».
كان هذا عندما تذكّر هارووين آريا، فقال: «هذا الكلام غير مناسب لك يا سيّدي».

- «لا، أريدُ أن أسمع».

لكن الخارجين عن القانون صمّموا، وقال ذو اللّحية الخضراء: «اذهبي أيتها السّنجاب النّحيل. كوني ليدي صغيرةً طيّبةً واذهبي والعبي في السّاحة ريثما نتكلّم، الآن».

خرجت آريا غاضبةً، وأرادت أن تصفق الباب لولا ثقله الشّديد. كان الظّلام قد حلّ بالكامل على (بهو البلوط)، ومصدر الضّوء الوحيد مشاعل قليلة على الأسوار، وأغلقت أبواب القلعة الصّغيرة وأوصدت. لقد وعدت هارووين بالألّا تُحاول الهرب ثانيةً، لكن ذلك كان قبل أن يبدأوا في إلقاء الأكاذيب عن أمّها.

تبعها جندري إلى الخارج، وقال: «آريا، الليدي سمولوود قالت إن هناك ورشة حدادة. هل تُريدين إلقاء نظرة؟».

- «إذا أردت». ليس هناك شيء آخر تفعله على كلّ حال.

قال جندري وهما يَمُرّان بالأوجرة: «ثوروس هذا، أهو ثوروس الذي كان يعيش في القلعة في (كينجز لاندنج)؟ الرّاهب الأحمر البدين ذو الرّأس الحليق؟».

- «أظنّ هذا». لم تتكلّم آريا مع ثوروس في (كينجز لاندنج) قطّ على ما تذكّر، لكنها تعرفه، فهو وچالابار شو كانا أكثر شخصين لافتين للنّظر في بلاط روبرت، وكان ثوروس صديقًا مقربًا للملك أيضًا.

- «لن يتذكّرني، لكنه اعتادَ المجيء إلى ورشتنا». لم تُستخدَم ورشة سمولوود منذ فترة طويلة، وإن كان الحدّاد قد علّق أدواته بنظام على الحائط. أشعل جندري شمعةً ووضعها على السّندان بينما التقطَ ملقطًا، وتابع: «كان

سيدي يُوبّخه دائماً على سيوفه النَّارِيَّة، ويقول إنها ليست طَريقةً يُعامل بها الفولاذ الجيّد، لكن ثوروس هذا لم يستخدم الفولاذ الجيّد قط، وكان يغمس سيفاً رخيصاً في النَّار السَّعواء ويُسعله. قال سيدي إنها مجرد حيلة خيميائيين، لكنها تُخيف الخيول والفُرسان الحُضر».

لوت ملامحها وهي تُحاول أن تتذكّر إن كان أبوها قد تكلم عن ثوروس، ثم قالت: «إنه لا يتصرّف كالرُّهبان حقّاً، أليس كذلك؟».

- «بلى. المعلم موت كان يقول إن ثوروس يستطيع التَّغلب على الملك روبرت نفسه في الشُّرب. قال لي إنهما أقرب إلى توأمين، كلاهما شره وسكير».

- «لا يُجدر بك أن تصف الملك بالسُّكير». ربما تعود الملك روبرت أن يُسرف في الشُّرب، لكنه كان صديق أبيها.

قال جنجري: «كنتُ أتكلّم عن ثوروس»، ومدّ الملقط كأنما يُريد أن يقرّص وجهها، لكن آريا أزاخته، فأكمل: «كان يُحبُّ الولايم والمباريات، ولهذا كان الملك روبرت مولعاً به، بالإضافة إلى شجاعته. عندما انهارت أسوار (پايك) كان أول من دخل من الثَّغرة، وقاتل بأحد سيوفه النَّارِيَّة مشعلاً الرُّجال الحديديّين مع كل ضربة».

- «ليتني أملك سيفاً نارياً». أناس كثيرون ترغب آريا في أن تُضرمَ فيهم النَّار.

- «قلتُ لك إنها مجرد حيلة. النَّار السَّعواء تُتلف الفولاذ. كان معلّمي يبيعه سيفاً جديداً عقب كلِّ دورة، وفي كلِّ مرّة كانا يتشاجران على سِعره»، وعاد جنجري يُعلّق الملقط ورفع المطرقة الثَّقيلة، وأردف: «قال المعلم موت إن الوقت حان لأن أصنع سِفي الطَّويل الأول، وأعطاني قطعةً ممتازةً من الفولاذ، وعرفتُ كيف أريدُ تشكيلها بالضُّبط، ثم جاء يورن وأخذني إلى حرس اللَّيل».

قالت آريا: «ما زال يُمكنك أن تصنع السُّيوف إذا أردت، تصنعها لأخي روب عندما نصل إلى (ريقررن)».

ردّد جنجري: «(ريقررن)»، ووضع المطرقة ونظرَ إليها قائلاً: «تبدين مختلفةً الآن، كما ينبغي أن تبدو الفتيات».

- «كلُّ هذا الجوزِ يجعلني أبدو كشجرة بلوط» .
 - «لكنها شجرة بلوط لطيفة»، ودنا جندي منها وتشمَّها قبل أن يقول:
 «ورائحتك حلوة أيضًا على سبيل التَّغيير» .
 قالت آريا: «رائحتك أنت عفتة»، ودفعته إلى الوراء نحو السَّنَدان وحاولت
 أن تجري، لكن جندي قبضَ على ذراعها، فوضعت قدمها بين ساقيه ليتعثر،
 إلا أنه سحبها إلى الأرض معه وتدرجًا على أرضية ورشة الحدادة. إنه قويٌّ
 للغاية، لكنها أسرع، وكلما حاول تثبيتها تملصت منه ولكمته. اكتفى جندي
 بالضحك من ضرباتها، وهو ما أثار جنونها، وأخيرًا أطبقَ على معصمها بيدٍ
 واحدةٍ وأخذَ يدغدغها بالأخرى، فضربته بين ساقيه برُكبتها وانتزعت نفسها
 منه. كلاهما كان مغطى بالتراب الآن، وتمزَّق أحدُ كَمَيِّ فُستانها السَّخيف،
 فصاحت: «أراهنُ أنني لا أبدو كما يليق بالفتيات الآن!».
 حين عادا إلى القاعة كان توم يُعني.

فراشي الرِّيش عميقٍ وثير
 وفيه سأمُددك
 وأضغُ على رأسكِ تاجًا
 وألسكِ الحرير
 ستكونين سيِّدتي ومحبوبي
 وأكونُ سيِّدك
 أحميكَ وأمنحكِ الدَّفءَ دائمًا
 وبسيفي أحرسكِ

ألقي هاروين نظرةً واحدةً عليهما وانفجرَ في الضَّحك، وارتسمت على
 وجه أنجاي واحدة من ابتساماته المنمَّشة السَّخيفة، وقال: «أنحن واثقون
 بأنها ليدي من علية القوم حقًا؟»، لكن ليم ضربَ جندي على رأسه قائلاً:
 «إذا كنت تُريد أن تُقاتلِ فقاتليني أنا! إنها فتاة، وفي نصف عُمرِك! إياك أن
 تلمسها، مفهوم؟» .

قالت آريا: «أنا من بدأتُ. جندي كان يتكلَّم فحسب» .

قال هارووين: «دَع الصَّبِي يا ليم. لا شَكَّ لَدَيَّ في أن آريا البادئة. هكذا كانت في (ويتترفل)». غمزها توم بعينه وهو يُعَيِّي:

ولكم ابتسمت ولكم ضحكتم
عذراء الشجرة
وابتعدت عنه وقالت له
إن لا فراش من الرِّيش له هذه المرّة
سأرتدي ثوبًا من الأوراق الذهب
وأربط شعري بالكلا
لكن فلتكن لي حبيبي
وأكون لك فتاة الغاب

قالت الليدي سمولوود بشجن: «لا أملكُ ثيابًا من الأوراق الذهب، لكن كاريلين تركت فساتين أخرى قد تصلح لك. تعالي معي إلى أعلى يا صغيرتي لنرى».

هذه المرّة كان الأمر أسوأ. أصرت الليدي سمولوود أن تستحمّ آريا مجدّدًا، وقصّت شعرها ومشطته أيضًا. الفُستان الجديد الذي ألبستها إياه يميل لونه إلى الأرجواني الفاتح ومزّين باللّؤلؤ الصّغيرة، والشّيء الوحيد الجيّد فيه أنه رقيق للغاية، ولا أحد يتوقّع أن تستطيع الرُّكوب وهي ترتديه، وهكذا بينما يتناولون الإفطار في الصّباح التّالي أعطتها الليدي سمولوود سراويل وحزامًا وسُترَةً طويلةً، بالإضافة إلى أخرى قصيرة من جلد الأيائل المطعم بالحديد، وقالت: «كانت ملابس ابني، لكنه مات وهو في السّابعة». أحسّت آريا فجأةً بالشفقة عليها والخجل من نفسها، وقالت: «أسفة يا سيّدتي، وأسفة لأنّي مزّقتُ الفُستان أيضًا. كان جميلًا». - «نعم يا صغيرتي، وأنت أيضًا جميلة. تحلّي بالشّجاعة».

دنيرس

في منتصف (ساحة الفخر) استقرت نافورة من القرميد الأحمر تفوح من مياهها رائحة الكبريت، وفي منتصف النافورة استقرت الهاربي المهولة المطرقة من البرونز، ترتفع عشرين قدمًا كاملةً، ولها وجه امرأةٍ وشعر مطلي بالذهب، وعيناها وأسنانها المدببة من العاج. تدفق الماء مصفرًا من نهديها العامرين، لكن بدلًا من الذراعين لها جناحا وطواط أو تنين، وساقاها ساقا نسر، ومن ظهرها يخرج ذيل عقربٍ مفتول لامتلاءً بالشَّم الزعاف لو كان التمثال حيًا.

قالت داني لنفسها: الهاربي شعار (جيس). إذا لم تحنها الذاكرة، فقد سقطت (جيس القديمة) قبل خمسة آلاف عام، قهرت (فاليريا) الشابة جحافلها وهدمت أسوارها القرميد، وأحال لهب التنانين شوارعها ومبانيها إلى رمادٍ وجمر، بل وبارت أراضيها بالملح والكبريت والجماجم. ماتت (جيس) ومات شعبها، أمًا هؤلاء الأستاپورثيون فهجائن على حد تعبير السير چورا، وحتى اللغة الجيسكاريّة أصبحت منسيّةً إلى حد كبير، بينما تتكلم مدن الرقيق القاليريّة الفصحى، أو ما اشتقّه أهلها منها بالأحرى.

لكن شعار الإمبراطوريّة القديمة لا يزال قائمًا هنا، وإن تدلت من مخالاب هذا الوحش البرونزي سلسلة ثقيلة على طرفيها صَفد مفتوح. الهاربي الأصليّة كانت تحمل صاعقة برقٍ بمخالبها. هذه الهاربي تخصّ (أستاپور). بتذمّر قال النّحاس كرازنس مونوكلوز للأمة التي تتكلم نيابةً عنه: «قولي للعاهرة ألوستروسيّة أن تخفض عينيها. إنني أتاجر في اللحم لا المعدن. البرونز ليس للبيع. قولي لها أن تنظر إلى الجنود. حتى بهاتين العينين

الأرجوانيتين الكالحتين تستطيع الهمجية القادمة من وراء مغرب الشمس أن ترى روعة مخلوقاتي».

يتكلم كرازنس بفأليريّة فُصحى مشوّهة ومثقلّة بمخارج الجيسكارية الشبيهة برُغاء الإبل، والمنكّهة هنا وهناك بمصطلحات سُوقة النّحاسين، وقد استوعبت داني كلامه إلى حدّ كبير، غير أنها ابتسمت وحدّت بنظرة خاوية إلى الأمة، كأنها تتساءل عمّا قاله.

- «السيد الكريم كرازنس يسأل: أليسوا رائعين؟». تتكلم الفتاة بلغة عامية لا بأس بها إطلاقاً بالنسبة لواحدة لم تر (وستروس) قط. سنّها لا تزيد على العاشرة، ولها وجه مدور مسطح وبشرة سمراء، والعينان الذهبيتان المميّزتان لأهل جزيرة (ناث) الذين يُسمّون شعب المسالمين، وهو ما أجمع الكل على أنه يجعلهم أفضل العبيد.

أجابت داني: «قد يكونون مناسبين لاحتياجاتي». كان اقتراح السير چورا أن يقتصر كلامها على الدوثراكية أو العامية في أثناء وجودها في (أستاپور). دُبيّ أذكي مما يبدو. «حدثني عن تدرّيبهم».

قالت المترجمة لسيدّها: «الوستروسية راضية عنهم، لكنها لا تُشيد بهم من أجل أن تخفض السعر. تُريد أن تعرف كيف يُدرّبون».

أوما كرازنس مو نوكلوز برأسه. كانت رائحته كأنه اغتسل بعصير الثوت البري، والتمع الزيت على لحيته السوداء المحمّرة البارزة، وفكرت داني: ثدياه أكبر من ثديي. كانت تراهما من خلال حرير التوكار الأخضر البحري الموشى بالذهب الذي يلفه حول جسده ويُنبتّه على كتفه بيُسراه، بينما يقبض بيُمناه على سوط جلديّ قصير. قال بتأفف: «أكل خنازير (وستروس) بهذا الجهل؟ العالم أجمع يعرف أن المطهرين أساتذة في القتال بالحربة والدّرع والسيف القصير»، ومنح داني ابتسامة واسعة مردفاً: «أخبريها بما تُريد أن تعرفه أيتها الأمة، لكن بسرعة. الحرّ شديد اليوم».

لم يكذب في هذا على الأقل. وراءهم وقفت أمتان متشابهتان حاملتين مظلة من الحرير المخطّط فوق رؤوسهم، لكن حتى في الظلّ أحسّت داني بدوخة، بينما نضح عرق كرازنس غزيراً. لا غرو، فالشمس تصلي (ساحة الفخر) منذ الفجر، وعلى الرغم من صندلها السّميك شعرت داني بدفء

أحجار القرميد الأحمر تحت قدميها، وقد تصاعدت منها موجات من الحرارة ملأت الهواء بالوميض، جاعلةً أهرامات (أستاپور) المدرّجة القائمة حول السّاحة تبدو كأنها آتية من حلم.

لكن إذا شعرَ المطهّرون بالحرّ فلا شيء في منظرهم ينمُّ عن هذا. يقفون كأنهم مصنوعون من القرميد بدورهم. كان ألف منهم قد قيّدوا من نُكناتهم من أجل أن تُعابنهم، وانتظموا في عشرة صفوفٍ من مئة أمام النّافورة والهاريبي البرونز العظيمة، ووقفوا انتباهًا بأجساد متصلة دون أن تتحرّك أعينهم الحجريّة على الإطلاق. لم يرددوا إلا مآزر كتّائيّة بيضاء معقودة حول عوراتهم، وخوذات مخروطيّة من البرونز تبرز من كلٍ منها ريشة مدبّبة ترتفع قديمًا. أمرهم كرازنس بأن يضعوا حراهم وتُروسهم ويخلعوا أحزمة السيوف والسّترات المبطّنة، كي يسهّل على الملكة (وستروس) تفحص صلابة أجسادهم ورشاقتها.

قالت لها الأمّة: «يختارون في سنّ صغيرة بناءً على الحجم والشّرع والقوّة. تدرّبهم يبدأ وهم في الخامسة، ويتمرّنون كلّ يوم من الفجر إلى الغسق إلى أن يُتقنوا القتال بالسّيف القصير والتّرس والحِراب الثّلاث. التّدريب شاقٌّ للغاية يا جلالة الملكة، وواحد فقط من كلّ ثلاثة صبيّة يجتازه حيًّا، هذا معلوم. يُقال بين المطهّرين إن يوم فوزهم بالخوذة المدبّبة يعني أن الأسوأ انتهى، فلا واجب يُكلّفون به بعدها سيكون أقسى من تدرّبهم أبدًا».

من المفترض أن كرازنس مونوكلوز لا يفقه كلمةً من اللّغة العاميّة، لكنه أوماً برأسه موافقًا وهو يسمع، وبين الحين والآخر كان يخز الفتاة بطرف سوطه. «قولي لها إن هؤلاء واقفون منذ يوم ليلة بلا طعام أو ماء. قولي لها إنهم سيظلّون واقفين حتى يسقطون إذا أمرتهم، وعندما يتهاوى تسعمئة وتسعة وتسعون منهم ليموتوا على القرميد، سيبقى الأخير واقفًا ثابتًا ولا يتحرّك خطوّة حتى يأتيه الموت. هكذا شجاعته. قولي لها هذا».

قال آرستان ذو اللّحية البيضاء حين فرغت المترجمة الصّغيرة الرّزينة: «أعدّ هذا جنونًا لا شجاعة»، ونقرَ بطرف عكازه الخشب المتين على القرميد -طقّ طقّ- كأنه يُعرب عن استيائه. لم يُردها العجوز أن تُبحر إلى (أستاپور)، ولا أيّد شراء جيش العبيد هذا، لكن على الملكة أن تُنصت إلى جميع

الأطراف قبل أن تتخذ قرارها، ولهذا السَّبب جلبته داني معها إلى (ساحة الفخر)، وليس ليحميمها، فخيَّالة دماها كفيلون بأداء هذا الواجب بكفاءة. أمَّا السير چورا مورمونت فتركته على متن (الريون) ليحرُس قومها، بالإضافة إلى تنانينها الذين حبستهم تحت سطح السفينة، فمن الخطر الشَّديد أن تدعهم يُخلقون فوق المدينة، والعالم حافل بمن سيُسعدهم أن يُحاولوا قتلهم لمجرَّد أن يظفروا بقلب قاتل التَّنّين.

سأل النَّحَّاس المترجمة: «ماذا قال العجوز عِن الرَّائحة؟»، فلمَّا أخبرته ابتسم وقال: «بلغني الهمجيين أننا نُسَمِّي هذا طاعة. قد يكون هناك آخرون أقوى أو أسرع أو أكبر من المطهَّرين، وقد يُعادِل قلائل مهارتهم في القتال بالسِّيف والحربة والثُّرس، لكنها لن تجد أحدًا بطاعتهم أبدًا بين البحار كلِّها». قال آرستان حين تُرجم الكلام: «الخراف أيضًا مطيعة». إنه يعرف القليل من القاليريَّة، لكنه لا يُجيدها كداني، وإن كان يتظاهر بجعله التَّام بها مثلها. كشف كُرازنس مونوكلوز أسنانه البيضاء الكبيرة بعدما سمع الترجمة، وقال: «بكلمة مني سيسكب هؤلاء الخراف أحشاه العفنة على القرميد... لكن لا تقولي هذا. قولي لهم إن هؤلاء المخلوقات كلاب أكثر من خراف. هل يأكلون الكلاب أو الخيول في تلك (الممالك السَّبْع)؟».

- يُفَضِّلون الخنازير والأبقار يا صاحب العبادة».

- «لحم البقر. أف! طعام الهمجيين الأقدار».

تجاهلت داني الجميع وسارت بمحاذاة صَفِّ الجنود العبيد، وتحركت الفتاتان وراءها بالمظلة الحريري كي تبقى في الظل، لكن الألف رجل الواقفين أمامها لم يتمتعوا بهذه الوقاية. أكثر من نصفهم له بشرة الدوثراكي والألازارين النَّحاسيَّة وأعينهم الزَّرْقَاء، لكنها رأت رجالاً من المُدن الحرَّة وسط صفوفهم أيضًا، بالإضافة إلى كارثين شاحبين، ورجال أبنوسِيَّي البشرة من (جُزر الصَّيف)، وغيرهم ممن لم تستطع تخمين منشأهم، إلا أن بعضهم له بشرة كُرازنس مونوكلوز الكهرمائيَّة نفسها، والشَّعر الأسود المحمر الخشن المميِّز لأهل (جيس) القُدّامي، الذين سمُّوا أنفسهم أبناء الهاربي. حتى بني جلدتهم يبيعونهم. لم يكن مفترضًا أن يُدهشها هذا، فالدوثراكي يفعلون المثل عندما يقتل كالاसार وكالاसार في بحر العُشب.

بعض الجنود طويل وبعضهم قصير، تتراوح أعمارهم بين الرَّابِعة عشرة والعشرين كما قدَّرت، ووجناتهم ناعمة ونظرات أعينهم واحدة، سواء أكانت سوداء أو بنية أو زرقاء أو رمادية أو كهرمائية. فكَّرت داني: كأنَّهم رجل واحد، ثم تذكَّرت أنَّهم ليسوا رجالاً على الإطلاق، فالمطهَّرون كلهم مخصَّيون. سألت كرازنس من خلال الأمة: «لماذا تقطعون أعضاءهم؟ سمعتُ دائماً أنَّ الرِّجال الكاملين أقوى من المخصَّيين».

قال كرازنس مو نوكلوز عندما نُقِلَ إليه السُّؤال: «الخصيُّ الذي تُقَطِّع أعضاؤه في صِغره لن يتمنَّع أبداً بقوةِ فرسانكم الـوستروسيين الغاشمة، هذا صحيح، لكن الثَّيران قويَّة أيضاً، والثَّيران تموت كلَّ يوم في حلبات القتال. المطهَّرون يتمنَّعون بما هو أفضل من القوَّة. قل لي لها يا بنت إنهم يتمنَّعون بالانضباط. نحن نُقاتل على طريقة الإمبراطوريَّة القديمة، نعم. إنهم أرتال جُنْد (جيس القديمة) الذين وُلِدوا من جديد، مطيعون لأقصى حد، مخلصون لأقصى حد، ولا يعرفون الخوف بتاتاً».

أصغَت داني بصيرٍ إلى التَّرجمة، وقال آرستان حين فرغَت الفتاة: «حتى أشجع الشُّجعان يخافون الموت والتَّشويه».

عاد كرازنس يبتسم لَمَّا سمعَ، وقال: «قولي للعجوز إن رائحته كالبول، وإنه يحتاج إلى عصا ليستطيع الوقوف».

- «حقاً يا صاحب العبادة؟».

لكرَّها بسوطة قائلاً: «لا، ليس حقاً. أنت فتاة أم عنزة لتتكلَّمي بهذا الحمق؟ قولي إن المطهَّرين ليسوا كالبشر. قولي إن الموت لا يعني شيئاً لهم، والتَّشويه أقل من لا شيء»، ووقفَ أمام واحد ضخم الجثَّة له سيماء أهل (لازار)، وهوى عليه بالسُّوط بحدَّة مخلِّفاً خطاً من الدَّم على وجنته الثُّحاسيَّة. طرفت عينا الخصيِّ مرَّةً ووقفَ في مكانه ينزف، وسأله كرازنس: «هل ترغب في أخرى؟».

- «إذا كانت هذه رغبة صاحب العبادة».

كان من العسير أن تتظاهر داني بعدم الفهم، فوضعت يدها على ذراع كرازنس قبل أن يرفع السُّوط ثانية، وقالت: «قولي للسيد الكريم إنني أرى قوَّة المطهَّرين، والشُّجاعة التي يتحمَّلون بها الألم».

قهقهة كُرازنس عندما سمعَ كلماتها بالثاليرية، وقال: «قولي للعاهرة الغربية الجاهلة إن لا علاقة للشجاعة بالأمر».

- «السيد الكريم يقول إنها ليست شجاعة يا جلالة الملكة».

- «قولي للموس أن تفتح عينيها».

- «يطلب منك أن تُشاهدي عن كتب يا جلالة الملكة».

انتقل كُرازنس إلى الخصيِّ التَّالي في الصَّف، وهو شابُّ مديد القامة له عينا أهل (ليس) الزُّرقاوان وشعرهم الكتَّاني، وقال: «سيفك»، فركَع الخصيُّ واستلَّ سيفه وناولَه إياه من مقبضه. السَّيف قصير، مصنوع للطعن أكثر من الجرح، لكن شفرته تبدو حادة كال موسى. قال كُرازنس أمرًا: «قف».

نهض الخصيُّ قائلاً: «صاحب العبادة»، فمرَّر كُرازنس مونوكلوز النصل إلى أعلى بتؤدَّة على جذعه تاركًا خطًّا أحمر رفيعًا على بطنه وبين ضلعيه، ثم دَسَّ رأس السَّيف تحت حلمة وردية كبيرة وبدأ يقطع.

سألت داني الفتاة والدماء تسيل على صدر الرَّجل: «ماذا يفعل؟».

قال كُرازنس دون أن ينتظر التَّرجمة: «قولي للبقرة أن تكفَّ عن الخوار. لن يُؤذيه هذا كثيرًا. الرَّجال لا يحتاجون إلى الحلمات، والمخصيُّون حاجتهم إليها أقل». تدلَّت الحلمة من نسيلة من الجلد، فقطعها وتركها تسقط على القرميد وتُخلف في مكانها عينًا حمراء مستديرة تبكي دمًا غزيرًا. لم يتحرك الخصيُّ حتى ناولَه كُرازنس سيفه من المقبض قائلاً: «هاك. فرغْتُ منك».

- «هذا الواحد مسرور لخدمتك».

التفت كُرازنس إلى داني، وقال: «إنهم لا يشعرون بالألم كما ترين».

سألت عن طريق المترجمة: «وكيف تأتي هذا؟».

جاءتها إجابته: «خمر الشجاعة. إنها ليست خمرًا حقًا، بل مزيج من صبغة المساء المميته ويرقات الذباب الدَّموي وجذور اللُّوس الأسود ومقادير سرِّية أخرى. يشربونها مع كلِّ وجبة منذ تُقطع أعضاؤهم، ومع كلِّ عام يمرُّ يتبدل حشُّهم أكثر فأكثر. إنها تُجرِّدهم من الخوف في المعركة، كما أنهم لا يتأثرون بالتعذيب. قولي للهمجية إن أسرارها آمنة مع المطهَّرين. يُمكنها أن تُوقفهم حراسةً على مجلسها أو حتى عُرفة نومها ولا تقلق أبدًا مما قد يسمعون. في (يونكاي) و(ميرين) غالبًا ما يُزيلون خصيتي الصَّبي ويتَّركون

القضيب. مخلوق كهذا عقيم، لكنه يظلُّ قادرًا على الانتصاب، وشيء كهذا لا يستجلب إلا المتاعب، لذا نُزيل القضيب أيضًا ولا نترك شيئًا. المطهَّرون أنقى مخلوقات على وجه الأرض»، ومنح داني وأرستان واحدةً أخرى من ابتساماته البيضاء الواسعة، وقال: «سمعتُ أن في (ممالك غروب الشَّمس) يأخذون على أنفسهم عهدًا مقدَّسةً بالحفاظ على عفتهم وعدم إنجاب أطفال، ويعيشون من أجل الواجب فقط. أهذا صحيح؟».

أجاب آرستان عندما تُرجمَ السُّؤال: «هذا صحيح. هناك عدد من الجماعات المشابهة؛ مايسترات (القلعة)، والسِّبتونات والسِّبتات في خدمة الآلهة السَّبعة، والأخوات الصَّامتات المسؤولات عن الموتى، والحرس الملكي وحرس الليل...».

دمدم النَّحاس بعد التَّرجمة: «مساكين. البشر لم يُخلَقوا ليعيشوا هكذا. لا بُدَّ أن أيَّ أحرق يرى أن حياته سلسلة من عذابات الغواية، ولا شكَّ أن معظمهم يستسلم لرغباته الوضيعة. لكن مطهَّرينا ليسوا كذلك على الإطلاق. إنهم متزوِّجون بسيوفهم بطريقة لا يحلُم إخوتكم المحلَّفون بمضاهاتها، ولا امرأة يُمكنها أن تُغريهم، ولا رجل كذلك».

نقلت فتاته خلاصة الكلام بأسلوب أكثر تهذيبيًا، فقال آرستان ذو اللِّحية البيضاء معترضًا: «ثمَّة أساليب أخرى لإغراء الرِّجال غير اللِّحم».

- «الرِّجال، نعم، لكن ليس المطهَّرين. السَّلب والنَّهب لا يعنياهم في شيءٍ أكثر من الاغتصاب. إنهم لا يملكون إلا أسلحتهم، حتى إننا لا نسمح لهم بأسماء».

قطبت داني جبينها وسألَت المترجمة الصَّغيرة: «لا أسماء؟ أما يقوله السيّد الكريم صحيح؟ لا أسماء لهم؟».

- «صحيح يا جلالة الملكة».

وقف كُرازنس أمام جيسكاري يَصُلح لأن يكون أخاه الأطول والأليق، وأشار بسوطه إلى قُرص برونزي صغير مثبت بحزام السيِّف الموضوع عند قدميه، وسألَه: «ما اسمك؟».

- «هذا الواحد اسمه البرغوث الأحمر يا صاحب العبادة».

نقلت الفتاة كلامهما باللغة العامية.

- «وماذا كان بالأمس؟».
- «الجرذ الأسود يا صاحب العباد».
- «وأول من أمس؟».
- «البرغوث البني يا صاحب العباد».
- «واليوم الذي قبله؟».
- «هذا الواحد لا يتذكر يا صاحب العباد. الضفدع الأزرق ربما، أو الدودة الزرقاء».

قال كرازنس أمرًا للفتاة: «قولي لها إن أسماءهم كلها هكذا، لأنها تُدكِّرهم بأنهم في حدِّ ذواتهم مجرد هوام. أقرص الأسماء تُلقى في برميل فارغ عند نهاية الخدمة كل يوم، وكل فجر توزع عليهم عشوائيًا».

قال آرستان عندما سمع: «المزيد من الجنون. كيف يُمكن لأيِّ أحدٍ أن يتذكَّر اسمًا جديدًا كلَّ يوم؟».

- «من ينسون يُستبعدون في أثناء التَّدريب، بالإضافة إلى من لا يستطيعون العدو طول اليوم بعنادٍ كامل، أو تسلق جبلٍ تحت جُحجح الظلام، أو المشي على الفحم المشتعل، أو قتل رضيع».

لا بُدَّ أن فم داني التوى على إثر قوله الأخير. هل لاحظَ أم أنه أعمى علاوةً على وحشيته؟ أسرعَتْ تُشيع بوجهها محاولةً أن تجعل ملامحها قناعًا جامدًا حتى تسمع التَّرجمة، قبل أن تسمح لنفسها بأن تقول: «رُضع من يَقتلون؟».

- «ليفوز بالخوذة المدبَّبة، على المطهَّر أن يذهب إلى أسواق العبيد ومعه عملة فضيَّة، ويَعثر على رضيع حديث الولادة ويقتله أمام أمه. بهذه الطَّريقة نضمن أن لا ضَعف تَبقى فيهم».

أحسَّت كأنها على وشك فقدان الوعي، فحاولت أن تُقنع نفسها بأن الحرارة السَّبب، وقالت: «تأخذون الرُّضيع من بين ذراعي أمه وتقتلونه على مرأى منها وتدفعون ثمن ألمها بعملة فضيَّة؟».

ضحك كرازنس مو نوكلوز بصوتٍ عالٍ عندما تمَّت التَّرجمة، وقال: «يا لها من بكائة حمقاء. قولي لعاهرة (وستروس) إن العملة لمالك الطفل لا الأم. ليس مسموحًا للمطهَّرين بالسرقة»، ونقرَ على وركه بالسَّوط متابعًا: «قولي لها إن قلائل يرسبون في الاختبار. لا بُدَّ من الاعتراف بأن الكلاب

أصعب عليهم. إننا نعطى كلَّ صبيٍّ جرّوا يوم تُقَطَعُ أعضاؤه، وفي نهاية العام الأول عليه أن يَخْتَفَهُ، وكل من لا يستطيع يُقْتَلُ ونُطْعَمُ جثته للكلاب النَّاجية. وجدنا أن هذا درس قوي».

نقرَّ آرستان بعصاه على القرميد وهو يُصغي إلى التَّرجمة، طَقَّ طَقَّ طَقَّ، ببطءٍ وثبات، طَقَّ طَقَّ طَقَّ، ورأته داني يُشِيحُ بوجهه كأنه لم يُعَدَّ يُطِيقُ النَّظَرَ إلى كُرازنس.

قالت داني للفتاة: «السيد الكريم قال إن هؤلاء المخصَّصين لا يُغريهم المال أو اللّحم، لكن إذا عرضَ أحدُ أعدائي تحريرهم مقابل أن يخونوني...». أجاب النَّحَّاسُ: «سيقتلونه من فورهم ويذهبون إليها برأسه، قولي لها هذا. قد يسرق عبيد آخرون الفضة ويكتنزونها على أمل شراء حريتهم، لكن المطهَّرين لن يقبلوها حتى إذا أعطتهم الفرس الصَّغيرة إياها هديةً. إنهم بلا حياة خارج واجبهم. إنهم جنود وهذا كل شيء».

قالت داني: «وأنا في حاجةٍ إلى جنود».

- «قولي لها إنها أحسنت بالمجيء إلى (أستاپور) إذن. سليها عن حجم الجيش الذي تُريد أن تشتريه».

- «كم مطهَّراً معروضاً للبيع؟».

- «ثمانية آلاف كاملو التَّدريب ومتاحون في الوقت الحالي. عليها أن تعرف أننا نبيعهم بالوحدة فقط، بالألفية أو القرن. في السَّابق كنا نبيعهم بالعُشاري كحرس بيوت، لكن ثبتَّ أنها ليست فكرةً سيديَّةً. عشرة عدد قليل للغاية، لأنهم يختلطون بالعبيد الآخرين، والأحرار أيضاً، وينسون من كانوا»، وانتظرَ كُرازنس أن يُترجم كلامه إلى العامية قبل أن يُتابع: «على هذه الملكة السَّخَّاذة أن تعلم أن أعاجيب كهذه لا تأتي رخيصةً. في (يونكاي) و(ميرين) يُباع السَّيَّافون العبيد بأثمان أقل من سيوفهم، لكن المطهَّرين أفضل مُشاة في العالم كله، وكل منهم يُمثِّلُ أعواماً من التَّدريب. قولي لها إنهم كالفولاذ الثَّاليري، يُطوى على نفسه مراراً ويُطرَّق على مدى سنوات، إلى أن يُصبح أقوى وأصلب من أيِّ معدن آخر على وجه الأرض».

قالت داني: «أعرفُ الفولاذ الثَّاليري. سَلِي السيد الكريم إن كان للمطهَّرين ضُبَّاطاً».

- «عليك أن تُعَيِّنِي عليهم صُبَّاطِهِمْ. إِنَّا نُدْرِبُهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ لَا التَّفَكِيرِ. إِذَا كَانَتْ تُرِيدُ مِنْ يُفَكِّرُ، فَلتَشْتَرِ بَعْضَ الكِتَابَةِ». -
- «وعتادهم؟».

- «السِّيفُ والحَرْبَةُ والتُّرْسُ والصَّنْدَلُ والشُّرَّةُ المَبْطُنَّةُ، والخُوذَةُ بالطَّبْعِ. سِيرَتِدُونَ مَا تَشَائِنُ مِنْ دِرْعٍ، لَكِنْ عَلَيْكَ تَزْوِيدُهُمْ بِهَا». -
لَمْ تَسْتَطِعْ دَانِي التَّفَكِيرِ فِي الْمَزِيدِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ، فَتَطَلَّعْتَ إِلَى آرِسْتَانَ قَائِلَةً:
«لَقَدْ عَشَّتْ طَوِيلًا فِي هَذَا الْعَالَمِ يَا ذَا اللَّحِيَةِ الْبِيضَاءِ. الْآنَ وَقَدْ رَأَيْتَهُمْ، فَمَاذَا تَقُولُ؟».

أَجَابَ الْعَجُوزُ فِي الْحَالِ: «أَقُولُ لَا يَا جَلَالَةَ الْمَلِكَةِ». -
- «لِمَاذَا؟ تَكَلِّمُ بِرَاحَتِكَ». فَكَّرَتْ دَانِي أَنَّهَا تَعْرِفُ مَا سَيَقُولُهُ، لَكِنِهَا أَرَادَتْ الْأُمَّةَ أَنْ تَسْمَعَ، كَيْ يَسْمَعَ كُرَازَنْسُ مَوْنُوكْلُوزُ بِدَوْرِهِ لِاحْتِقَاقًا. -
قَالَ آرِسْتَانَ: «يَا مَوْلَاتِي، لَيْسَ هُنَاكَ عَبِيدٌ فِي (الْمَمَالِكِ السَّبْعِ) مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ. الْأَلْهَةُ الْقَدِيمَةُ وَالْجَدِيدَةُ أَيْضًا تَعُدُّ النَّخَاسَةَ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ وَالشُّرُورِ الْمَسْتَطِيرَةِ، فَإِذَا رَسَوْتِ فِي (وَسْتْرُوسِ) عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ مِنَ الْعَبِيدِ، سَيُعَارِضُكَ أَنْاسٌ صَالِحُونَ عَدِيدُونَ لِهَذَا السَّبَبِ وَحْدِهِ. سَتَتَضَرَّرُ قَضِيَّتِكَ كَثِيرًا، نَاهِيكَ بِشَرَفِ عَائِلَتِكَ الْعَظِيمَةِ».

- «لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعِي جَيْشٌ مَا. الصَّبِيَّ چُوفْرِي لَنْ يُعْطِيَنِي الْعَرْشَ الْحَدِيدِي لِمَجْرَدِ أَنْي طَلَبْتُ بِأَدَبٍ».

- «عِنْدَمَا يَأْتِي الْيَوْمَ وَتَرْفَعِينَ رَايَاتِكَ سَيَكُونُ نِصْفُ (وَسْتْرُوسِ) مَعَكَ. أَحْوَكُ رِيجَارُ لَا يَزَالُ مَذْكُورًا بَحَبِّ الْبَالِغِ». -
- «وَأَبِي؟».

تَرَدَّدَ الْعَجُوزُ قَبْلَ أَنْ يُجِيبَ: «الْمَلِكُ إِيرِسُ مَا زَالَ مَذْكُورًا أَيْضًا. لَقَدْ شَهِدَتْ الْبِلَادَ فِي عَهْدِهِ أَعْوَامًا طَوِيلَةً مِنَ السَّلَامِ. جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ، إِنَّكَ لَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْعَبِيدِ. الْمَاجِسْتَرُ إِيرِيوُ سَيُحَافِظُ عَلَى سَلَامَتِكَ حَتَّى تَكْبُرَ تَنَانِيْنِكَ، وَيُرْسِلُ مَبْعُوثِينَ سَرِّيِّينَ نِيَابَةً عَنْكَ عِبْرَ (الْبَحْرِ الضَّيِّقِ) لِدَعْوَةِ اللُّورْدَاتِ الْكِبَارِ إِلَى قَضِيَّتِكَ».

- «اللُّورْدَاتُ الْكِبَارُ الَّذِينَ تَخَلُّوْا عَنْ أَبِي لِقَاتِلِ الْمَلِكِ وَرَكَعُوا لِرُوبَرْتِ الْغَاصِبِ؟».

- «حتى من ركعوا قد يحثون في أعماقهم إلى عودة التَّانين». رَدَّدت داني: «قد». كم هي كلمة مخادعة مراوغة في كلِّ اللغات. التفتت إلى كرازنس مو نوكلوز وأمته قائلة: «يجب أن أفكر ملياً». هَزَّ النَّخاس كتفيه، وقال: «قولي لها أن تُفكِّر بِسُرعة. ثمة مشترون غيرها. منذ ثلاثة أيام فقط عرضت هؤلاء المطهرين أنفسهم على ملكِ قُرصان يُريد أن يشتريهم جميعاً».

سمعت داني الفتاة تقول: «القُرصان أرادَ مئةً فقط يا صاحبِ العبادة». وخزها بالسُّوط قائلاً: «القراصنة كلُّهم كذَّابون. سيشتريهم جميعاً. قولي لها هذا يا بنت».

كانت داني تعلم من البداية أنها إذا أخذت فستأخذ أكثر من مئة. قالت للفتاة: «ذكري سيِّدك الكريم بمن أكون، ذكريه بأني ديرس وليدة العاصفة، أم التَّانين، التي لم تحترق، سيِّدة ممالك (وستروس) السَّبْع الشرعيَّة، ودماي دماء إجون الفاتح و(فاليريا) القديمة من قبله».

لكن كلماتها لم تُؤثِّر في النَّخاس البدين المعطَّر، حتى حين تُرجمت إلى لغته القبيحة، وهدر في المترجمة الصَّغيرة المسكينة: «(جيس القديمة) كانت تحكُم إمبراطوريَّة كاملة عندما كان الثاليريون ما زالوا يُصاَجعون الماشية، ونحن أبناء الهاربي»، وهَزَّ كتفيه مردفاً: «إنني أبددُ كلامي بالحديث إلى امرأة. لا فرق بينهن في الشَّرق أو الغرب، ولا بُدَّ من تدليلهن والإطراء عليهن وحشو أشداقهن بالحلوى أو لا حتى يتخذن قراراً. حسن، إذا كان هذا قدرِي فسأرضى به. قولي للعاهرة إنها كانت تُريد دليلاً يُفرِّجها على مدينتنا الجميلة، فسيُسدِّد كرازنس مو نوكلوز أن يخدمها... وأن يمتطيها أيضاً إذا كانت امرأةً حقيقيَّة».

قالت المترجمة: «سيسرُ السيِّد الكريم أن يُريك (أستاپور) بينما تُفكِّرين يا جلالة الملكة».

- «سأطعمها هُلام أمخاخ الكلاب ويخنة غنيَّة ممتازة من لحم الأخطبوط الأحمر والجرء الأجنَّة»، قالها النَّخاس وتلَمَّظ. - «يقول إنك ستجدين الكثير من الأصناف الشَّهيَّة هنا».

دمدم النَّحَّاسُ: «قولي لها إن الأهرامات تبدو جميلةً ليلًا. قولي لها إنني سألَعُقُ العسل من على ثدييها، أو أتركها تلعبه من على ثديي إذا أرادت».

- «(أستاپور) تشعُّ جمالاً عند الغسق يا جلالة الملكة. الأسياد الكرام يُوقِدون فوانيس من الحرير في كلِّ شُرْفَةٍ، فيتألَّق كلُّ هرم بالأضواء الملونة، وتلعب الموسيقى على قوارب النزهة وهي تتجول في (النَّهْر الدُّودي) وترسو عند الجُزر الصَّغيرة من أجل الطَّعام والتَّيِّد وغيرهما من المُتَع».

أضاف كرازنس: «سليها إن كانت تُريد أن ترى حلبات القتال. اللَّيلة سيُقام عرض لا بأس به في (حلبة دو كوار)، دُب وثلاثة فتية صغار، أحدهم مدهون بالعسل والثَّاني بالدَّم والثَّالث بالسَّمك العَفِن، ويُمْكِنها أن تُراهن على مَنْ سيأكله الدُّب أولاً».

سمعت داني النَّقر، طَقَّ طَقَّ طَقَّ. كان وجه آرستان ذي اللَّحية البيضاء جامدًا، لكن عُكازه باحَّ بغضبه، طَقَّ طَقَّ طَقَّ. جعلت نفسها تبتسم، وقالت للمتريجة: «عندي دُبِّي الخاص على متن (بالريون)، وقد يأكلني إذا لم أرجع إليه».

علَّق كرازنس عندما تُرجمَ كلامها: «أرأيت؟ ليست المرأة من تُقرَّر، بل الرَّجل الذي تُريد أن تهرع إليه، كالمعتاد!».

قالت داني: «اشكُري السيِّد الكريم على لُطفه وصبره، وقولي له إنني سأفكُر في ما سمعته هنا»، وأعطت ذراعها لآرستان ليقودها عبر السَّاحة إلى هودجها، واتَّخذ آجو وچوجو مكانيهما على جانبيهما، وكل منهما يخطو بمشيَّة مَقوَّسة مختالة يتصنَّعها سادة الخيول كلهم حينما يُرغمون على التَّرجُّل والسَّير على الأرض كالفانين التَّقليديِّين. صعَّدت داني إلى الهودج عابسةً، وأشارت لآرستان بالصُّعود إلى جوارها، فلا يَجْدُرُ برجل في سنِّه أن يمشي في هذا القيظ. لم تُغلق السَّتائر إذ تحرَّكوا، فالشَّمس تضرب مدينة القرميد الأحمر بأشعتها بلا هواده، وكل نسمة خفيفة نعمة، حتى إذا هبَّت محمَّلةً بالتراب الأحمر النَّاعم. كما أُنِي أريدُ أن أرى.

(أستاپور) مدينة غريبة حقًا، حتى في عينيَّ من مشَّت في بيت الغُبار وتحمَّمت في (رَحِم العالم) أمام (الجبل الأم). الشُّوارع كلها من القرميد الأحمر الذي عبَّدوا به السَّاحة، وكذا الأهرام المدرَّجة وحلبات القتال

العميقة بحلقاتها ذات المقاعد المتحدّرة، ونوافير الكبريت وكهوف التّبيد المعتمة والأسوار العتيقة التي تُطوّقها. قريميد كثير للغاية، وقديم لدرجة أنه بدأ يتفتّت. كان التُّراب الأحمر النَّاعم في كلِّ مكانٍ يَرُقُص في الحارات كلما هبَّت الرِّيح. لا عجب أن أستابوريات كثيرات يُعْطِن وجوههن، فُتْراب القريميد يلسع العين أكثر من الرَّمَل.

زَعَقَ چوجو الرَّاكب أمام الهودج: «أفسِحوا الطَّرِيق! أفسِحوا الطَّرِيق لأُم التَّنَّانين!»، لكن عندما حلَّ السَّوْط الكبير ذا المقبض الفُضِّي الذي أهدته داني إياه ولوَّح به في الهواء، مالت عليه قائلةً بلغته: «ليس في هذا المكان يا دم دمي. هذه الأحجار سمعت ما يكفي من قرقعة السَّيَّاط».

كانت السَّوَارِع مهجورةً إلى حدِّ كبير حين تحرَّكوا من الميناء في الصَّبَّاح، ولم تبدُ أكثر ازدحامًا الآن وهم راجعون. مرَّ بهم فيلٍ يحمل هودجًا مزخرفًا بالأشكال السَّجْريَّة، وجلس صبيٌّ عارٍ ذو جِلْدٍ متقرُّشٍ في البوَّة جافَّة من القريميد ينبش أنفه ويحدِّق ببالٍ كاسفٍ إلى بعض التَّمَل في السَّارِع. رفع رأسه لَمَّا سمع الحوافر، واتَّسعت عيناه إذ مرَّ طابور من الحُرَّاس الرَّاكبين في سحابةٍ من التُّراب الأحمر والضَّحك الخشن. التمعت الأقراص النحاسيَّة المخيطة على معاطفهم الحرير الصَّفراء كالشُّموس، بينما ارتدوا سُترات من الكتَّان المطرَّز، وتحت الخصر صنادل وتُورات كتَّانيَّة ذات طيَّات. كانوا مكشوفين الرُّؤوس، لكن كلاً منهم مشطٌ وزيتٌ شعره الخشن الأسود المحمَّر وأعطاه شكلاً خرافيًا ما، من القرون والأجنحة إلى السُّيوف وحتى الأيادي المتشابكة، فبدوا كقرقةٍ من الشَّيَاطين الهاربة من الجحيم السَّابعة. راقبهم الصَّبي العاري بالإضافة إلى داني بعض الوقت، لكن سرعان ما غابوا عن الأعيُن وعادَ إلى التَّمَل والإصبع في أنفه.

مدينة قديمة، لكن ليست مأهولةً كما كانت أيام مجدها، ولا مزدحمةً مثل (كارث) أو (پنتوس) أو (ليس).

توقَّف هودجها فجأةً عند تقاطع شارعين ليمرَّ طابور من العبيد في طريقها. لاحظت داني أن هؤلاء ليسوا مطهَّرين، بل رجال تقليديُّون ذوو بشرةٍ بيَّنة فاتحة وشعرٍ أسود، وبينهم نساء أيضًا، لكن لا أطفال، والجميع عُراة. ركب وراءهم أستابوريات على حمارين أبيضين، رجل في توکار حريري أحمر وامرأة تَسُرُّ

وجهها وترتدي ثوبًا كَثَانِيًا شَفَافًا مَزِيَّنًا بِشَدْرَاتٍ مِنَ اللَّازُورْدِ، وَفِي شَعْرَهَا
الْأَسْوَدِ الْمَحْمَرِ تُثَبَّتُ مُشَطًّا مِنَ الْعَاجِ. ضَحَكَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَهْمَسُ لَهَا بِشَيْءٍ
مَا دُونَ أَنْ يُعِيرَ دَانِيَ اهْتِمَامًا أَكْثَرَ مِنْ عَبِيدِهِ، وَلَا رَقِيبَهُمْ بِسُوطِهِ الْمَلْتَوِي ذِي
الشُّيُورِ الْخَمْسَةِ، وَهُوَ دُوثْرَاكِي قَصِيرِ بَدِينٍ وَوَسِمَتِ الْهَارِبِي وَالسَّلْسَلَةُ بِفَخْرِ
عَلَى صَدْرِهِ الْقَوِي الْعَرِيضِ.

غَمَغَمَ ذُو اللَّحْيَةِ الْبَيْضَاءِ إِلَى جَانِبِهَا: «مِنَ الدَّمِّ وَالْقَرْمِيدِ قُدَّتْ (أَسْتَاپُور)،
وَمِنَ الدَّمِّ وَالْقَرْمِيدِ أَهْلُهَا قُدُّوا».

سَأَلَتْهُ دَانِي بِفَضُولٍ: «مَا هَذَا؟».

- «أَنْشُودَةٌ قَدِيمَةٌ عَلَّمَنِي إِيَّاهَا مَايَسْتَرُ فِي صِبَايَ، وَلَمْ أَعْلَمْ مَدَى صَحَّتِهَا
حَتَّى الْآنَ. قَرْمِيدٌ (أَسْتَاپُور) أَحْمَرٌ بِدِمَاءِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ يَصْنَعُونَهُ».

- «أَصَدِّقُ هَذَا».

- «غَادِرِي هَذَا الْمَكَانَ إِذْنٌ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ قَلْبُكَ إِلَى قَرْمِيدِ بَدْوَرِهِ. أَبْحِرِي
الَّيْلَةَ فِي تَيَّارِ الْمَسَاءِ».

لَيْتَنِي أَسْتَطِيعُ. «السَّيْرُ چُورَا يَقُولُ إِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعِيَ جَيْشٌ عِنْدَمَا
أَغَادِرُ (أَسْتَاپُور)».

- «السَّيْرُ چُورَا نَفْسُهُ كَانَ نَخَّاسًا يَا جَلَالَةَ الْمَلِكَةِ. هُنَاكَ مَرْتَزَقَةٌ فِي (پَنْتُوس)
(وَمِير) وَ(تَايِرُوش) يُمَكِّنُكَ اسْتِئْجَارَهُمْ. مَنْ يَقْتُلُ مَقَابِلَ الْمَالِ لَا شَرَفَ لَهُ،
لَكِنَّهُمْ لَيْسُوا عَبِيدًا عَلَى الْأَقْلِ. اعْثُرِي عَلَى جَيْشِكَ هُنَاكَ، أَوْ سَلِّ إِلَيْكَ».

- «أَخِي زَارَ (پَنْتُوس) وَ(مِير) وَ(بِرَافُوس) وَالْمُدُنَ الْحُرَّةَ كُلَّهَا تَقْرِيًّا،
وَسَقَاهُ الْمَاجِسْتَرَاتِ وَالْأَرْكَونَاتِ النَّبِيذَ وَالْوَعُودَ، لَكِنْ نَفْسُهُ تَضَوَّرَتْ جَوْعًا
حَتَّى الْمَوْتِ. لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْكُلَ الْإِنْسَانُ مِنْ وَعَاءِ الشُّحَاذَةِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ وَيَطْلُ
إِنْسَانًا. لَقَدْ ذَقْتُ هَذَا فِي (كَارْت) وَاکْتَفَيْتُ مِنْهُ، وَلَنْ أَذْهَبَ إِلَى (پَنْتُوس)
حَامِلَةً وَعَاءً».

قَالَ أَرَسْتَانُ: «ذَهَابُكَ شَحَاذَةٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ ذَهَابِكَ نَخَّاسَةً».

مَغْضَبَةٌ قَالَتْ دَانِي: «يَقُولُهَا مِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ. أَعْرِفُ مَعْنَى أَنْ تُبَاعَ
إِيَّاهَا الْمُرَاقِقُ؟ أَنَا أَعْرِفُ. أَخِي بَاعَنِي إِلَى گَالِ دَرُوجِ لِقَاءِ وَعْدِ الْبَالْتَاچِ، وَتَوَجَّهَ
دَرُوجِ بِالذَّهَبِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْوَسِيلَةِ الَّتِي تَمَنَّاها، وَأَنَا... شَمْسِي وَنَجُومِي

جعلَ مني ملكةً، لكن لو كان رجلاً آخر لاختلفَ ما حدثَ معي كثيرًا. أتُحسب أني نسيتُ معني الخوف؟».

حتى ذو اللحية البيضاء رأسه، وقال: «لم أقصد الإساءة يا جلالة الملكة». قالت داني: «لا يُسيء إليّ إلا الأكاذيب، لا المشورة الصّادقة»، وربّنت على يد آرستان المبقعة لتُطمئنّه مضيعةً: «إن لديّ طباع الثّنانين لا أكثر. لا تجعل هذا يُخيفك».

ابتسمَ العجوز قائلًا: «سأحاولُ أن أتذكّر».

فكرت داني: وجهه طيّب حقًا، وفيه قوّة عظيمة. إنها لا تفهم سبب انعدام ثقة السير چورا بالعجوز. أيشعرُ بالغيرة لأني وجدتُ رجلاً غيره أتكلّمُ معه؟ بلا إرادةٍ منها عادتْ بذكرتها إلى تلك الليلة على متن (بالريون) حين قبّلها الفارس المنفي. لم يكن يجدرُ به أن يفعل هذا أبدًا. إنه يفوقني سنًا ثلاث مرّات، ونسبه أدنى مني كثيرًا، ولم أمنحه الإذن في تقبيلي. الفارس الحقيقي لا يقبّل ملكةً دون إذنها. عملتُ بعدها على ألاّ ينفرد السير چورا بها أبدًا، محتفظةً بوصيفتيها معها على السفينة طيلة الوقت، وأحيانًا خيالة دهما. يُريد أن يقبّلني ثانية. أرى الرّغبة في عينيه.

لا تدري داني ما تُريده على الإطلاق، لكن قبلة چورا أيقظت شيئًا فيها، شيئًا ظلّ نائمًا منذ مات گال دروجو، ولمّا تمدّدت في سريرها الضيق وجدت نفسها تتساءل كيف ستحسّ لو أن رجلاً يُشاركها إياه بدلًا من وصيفتها، وأثارها الخاطر أكثر من المتوقّع. أحيانًا تُغلق عينها وتحدّث به، وإن لم يكن چورا مورمونت أبدًا، فحبيبها أصغر وأوسم دائمًا، مع أن وجهه يبقى ظلًا متقلّبًا.

في مرّةٍ كانت رغبتها محرقةً لدرجةٍ حالت دونها والثوم، فأنزلت يدها بين ساقيها، وشهقت حين أحسّت ببللها الشّديد، وبأنفاس شديدة البُطء حرّكت أصابعها بين شفّتيها الشفليّتين بهدوءٍ كي لا تُوقظ إيرّي النّائمة إلى جوارها، إلى أن وجدت بُقعةً حلوةً استقرّت عليها، وبدأت تمسّ نفسها بخفة، على استحياءٍ أو لا ثم أسرع، وعلى الرغم من هذا بدأ الريح الذي تسعى إليه كأنه يتملّص منها، إلى أن تحرّك تنانينها وصرخ أحدهم في فضاء القمر، وهو ما أيقظ إيرّي لترى ما تفعله.

أدرّكت داني أن وجهها متضرّج تمامًا، لكن إيرّي لم تره في الظلام

بالتأكيد، وبلا كلمة واحدة وضعت الوصيفة يداً على نهدها، ومالت تلتقم حلمتها، وانسلت يدها الأخرى على انحناء بطنها الغض وعبر الشعر الذهبي الفضّي النَّاعم فوق جبل زهرتها، وراحت تعمل بين فخذَي داني. لم يمْضُ أكثر من دقائق قليلة قبل أن تلتوي ساقها ويرتفع نهداها ويختلج جسدها كله. صرخت عندئذٍ، أو ربما صرّح دروجون، لكن إيري لم تنطق كلمةً وعادت تتكوّر على نفسها وتغيب في النَّوم لحظة أن انتهت.

في اليوم التالي بدا ما حدث كالحلم، وما علاقة السير چورا به على كلِّ حال إن كانت له علاقة أصلاً؟ إنني أريدُ دروجو، شمسي ونجمي، ليس إيري أو السير چورا، لا أحد إلا دروجو. لكن دروجو مات، وكانت قد حسبت أن تلك المشاعر ماتت معه في (القفر الأحمر)، لكن قبلةً خادعةً واحدةً بعثت فيها الحياة. لم يكن يجدرُ به أن يُقبَلني. لقد تجرّأ كثيراً وأنا سمحتُ له. يجب ألاّ يحدث هذا ثانيةً أبداً. زمّت فمها بضيقٍ بالغ وهزّت رأسها، فرنّ الجرس في جديلتها بخفوت.

لاخ وجه أجمل للمدينة على مقربةٍ من الخليج. على الشاطئ تتراصّف الأهرامات القرميد العظيمة، أكبرها يُناهز الأربعمئة قدم ارتفاعاً، وفي شرفاتها الفسيحة ينمو مختلف أنواع الأشجار والكروم والزُّهور، وحملت الرِّيح التي تدور حولها روائح الخضرة العطرة. استقرّت هاربي عملاقة أخرى أعلى البوابة، لكنها مشيئة من الصِّلصال الأحمر المخبوز ويبدو عليها البلى بوضوح، حتى إن جدعة قصيرة فقط تبقت من ذيل العقرب في ظهرها، والسلسلة التي تحملها بمخالبتها من الحديد القديم الصّديء.

على أن الحرارة كانت أدنى بالقرب من الماء، وأحدث تكسّر الأمواج على دعائم الأرصفة التي بدأت تتعفن صوتاً مريحاً على نحو غريب.

ساعد أجو داني على التزول من الهودج، وكان بلواس القوي جالساً على قائم هائل يلتهم فخذاً كبيرةً من اللحم المشوي، فقال ببهجة حين رأى داني: «كلّب. لديهم كلاب طيبة المذاق في (أستاپور) أيتها الملكة الصّغيرة. هل تأكلين؟»، وعرض عليها الفخذ بابتسامة ملوثة بالدهن.

- «هذا لطف منك يا بلواس، لكن لا». سبق لداني أن أكلت لحم الكلاب في أماكن أخرى في أوقاتٍ أخرى، لكن جُل ما تستطيع التّفكير فيه الآن هو

المطهّرون وجرائهم السّخيفة. أسرعتم تمرُّ بالخصبيّ الصّخّم وتصعد على لوح العبور إلى متن (بالريون).

كان السير چورا مورمونت واقفاً في انتظارها، وحنى رأسه قائلاً: «جلالة الملكة، النّخّاسون أتوا وذهبوا، ثلاثة منهم مع دستة من الكتّبة ودستة من العبيد. فحسوا كلّ بوصة من المخازن ودوّنوا البضائع الموجودة كلها»، وسار وراءها متسائلاً: «كم رجلاً لديهم للبيع؟».

- «صفر». أهي غاضبة من مورمونت أم من هذه المدينة بحراراتها الكئيبة وشذاها وعفونتها وقرميدها المتفتّت؟ «كلهم مخصّيون وليسوا رجالاً، مخصّيون من القرמיד كبقية (أستاپور). هل أبتاع ثمانية آلاف خصبيّ بأعين ميتة لا تطرف أبداً؟ من يقتلون الرّضع في سبيل قبة مدبّبة ويخنقون كلابهم؟ إنهم بلا أسماء حتى، فلا تصفهم بالرجال أيها الفارس». قال مأخوذاً بغضبها: «كاليسي، المطهّرون يُختارون في طفولتهم، ويُدربون...».

- «سمعتُ كلّ ما أريدُ عن تدريبهم». شعرت داني بالدموع تتجمّع في عينيها فجأةً بلا دعوةٍ منها، وارتفعت يدها بسرعة السهم تصفع السير چورا على وجهه. كان إمّا هذا وإمّا أن تبكي.

مسّ مورمونت خدّه، وقال: «إذا أغضبتُ مولاتي...».

- «نعم، أغضبتني كثيراً أيها الفارس. لو كنت فارسي حقاً لما أتيت بي إلى هذه المدينة الذميمة». لو كنت فارسي حقاً لما قبّلتني أو حدّقت إلى ثديي كما فعلت أو...

- «كما تأمرين يا صاحبة الجلالة. سأخبرُ الرّبّان جروليو أن يستعدّ للإبحار في تيّار المساء إلى زريبة أنظف قليلاً».

قالت داني: «لا». كان جروليو يُراقب من أعلى مقدّمة السّفينة، وطاقمه أيضاً، وذو اللحية البيضاء وخيالة دمها وچيکوي. جميعهم توقّفوا عمّا يفعلونه عندما سمعوا الصّفعة. «أريدُ الإبحار الآن وليس مساءً، أريدُ أن أبحر بعيداً بسرعةٍ ولا أنظر ورائي مجدّداً، لكنني لا أستطيع، أليس كذلك؟ هناك ثمانية آلاف خصبيّ قرميدي للبيع، وعليّ أن أجد وسيلةً لشرائهم»، ثم إنها تركته ونزلت إلى باطن السّفينة.

كان تنانينها مهتاجين وراء باب قمرة الرُّبَّانِ الخشبي المنقوش. رفع دروجون رأسه وصرخَ مطلقًا الدُّخانَ الباهت من منخريه، وحلَّقَ فُسيريون إليها وحاولَ أن يجثم على كتفها كما اعتادَ أن يفعل وهو صغير، لكنها حاولت أن تُزيحه برفق قائلةً: «لا، لقد كبرتَ على هذا يا حبيبي»، لكن التَّنين لَفَّ ذيله الأبيض والذهبي على ذراعها وغرسَ مخالبه في قماش كُمِّها وتشبَّثَ به، وبلا حيلةٍ منها تهاوَّت داني ضاحكةً على مقعد جروليو الجلدي الكبير.

قالت لها إيرِي: «كانوا جامحين جدًّا في غيابك يا غاليسي. فُسيريون نهشَ الباب وانتزعَ منه شظايا، هل ترين؟ ودروجون حاولَ الهرب عندما جاء النَّحاسون لرؤيتهم، ولمَّا أمسكتُ ذيله لأمنعه عَضَنِي»، وأزت داني آثار أسنانه على يدها.

- «هل حاولَ أيُّهم أن يُحرقَ شيئًا؟». كان هذا أكثر ما يُخيفها.

- «لا يا غاليسي. دروجون نفثَ ناره لكن في الهواء، وخاف النَّحاسون أن يقتربوا منه».

لثَّمت يد إيرِي حيث عَضَّها التَّنين، وقالت: «أسفةٌ لأنه آذاك. التَّنانين لم تُخلَقَ للحبس في قمرة سفينة صغيرة».

قالت إيرِي: «في هذا تشابهَ التَّنانين والخيول، والخيالة أيضًا. الخيول تصرُخ في الأسفل يا غاليسي، وترُكَل الحوائط الخشب. إنني أسمعها. وچيكدوي تقول إن العجائز والأطفال يصرُخون أيضًا عندما لا تكونين هنا. إنهم يكرهون عربة الماء هذه، ويكرهون البحر الأسود المالح».

- «أعرف هذا، أعرفه حقًّا».

- «هل الكاليسي حزينة؟».

- «نعم». حزينة وضائعة.

- «هل أمتّع الكاليسي؟».

تراجعت داني قائلةً: «لا! إيرِي، ليس من واجبك أن تفعلني هذا. ما حدث تلك اللَّيلة حين استيقظتِ... أنتِ لستِ أمة فراش. لقد أعتقتكِ، أتذكرين؟ أنتِ...».

- «أنا وصيفةُ أم التَّنانين، وشرف عظيم أن أمتّع الكاليسي».

قالت بإصرار: «لا أريدُ هذا، لا أريده»، والثفتت عنها بحدة وأمرتها: «اتركيني. أريدُ أن أفكر وحدي».

كان الغسق قد بدأ يستقرُّ على مياه (خليج النّحاسين) قبل أن تعود داني إلى سطح السفينة، لتقف عند الحاجز متطلعةً إلى (أستاپور). تكاد تبدو جميلةً من هنا. بدأت النجوم تُنير في الأعلى والفوانيس الحرير في الأسفل، تمامًا كما قالت مترجمة كرازنس، وتألقت الأهرام القرميد العالية بالأضواء. لكن على الأرض يبسط الظلام ملكوته، في الشوارع والساحات وحلبات القتال، أمّا عرشه ففي الشُّكنات، حيث يُطعم ولد صغير الجرو الذي أعطوه إياه لمّا سلبوه ذكورتَه.

سمعتُ خطوةً خفيفةً وراءها ومن يقول: «غاليسي». صوته. «ألي أن أتكلّم بصراحة؟».

لم تلتفت داني. إنها لا تتحمّل أن تنظر إليه الآن. إذا فعلت فلسوف تصفعه ثانيةً، أو تبكي، أو تُقبّله، ولن تدري أيُّ هذه الخيارات صحيح وأيُّها خطأ وأيُّها جنون.

- «قل ما تُريد أيها الفارس».

- «عندما رسا إجون الفاتح في (وستروس) لم يهرع إليه ملوك (الوادي) و(الصخرة) و(المرعى) ليُسلموه تيجانهم. إذا كنتُ تُريدين الجلوس على العرش الحديدي، فلا بُدَّ أن تربحيه كما ربّحه، بالفولاذ ونيران التّنانين، وهذا يعني أن تُلطّخ يديك الدّماء قبل نهاية هذا الأمر».

الدّم والثّار. الكلمتان الملاصقتان لعائلة تارجارين، اللتان عرفتهما طيلة حياتها. «سأريقُ دماء أعدائي بكلِّ سرور، لكن دماء الأبرياء شأن آخر. يعرضون عليّ ثمانية آلاف مطهّر، ثمانية آلاف رضيعٍ ميت، ثمانية آلاف كلبٍ مخنوق».

قال چورا مورمونت: «لقد رأيتُ (كينجز لاندنج) بعد نهبها يا جلالة الملكة. يومها قُتل رُضعٌ أيضًا، ومسّون، وأطفال يلعبون، واغتصبت النساء بأعدادٍ لا تحصى. ثمّة وحش مفترس في أعماق كلِّ رجل، ولمّا تناولين هذا الرّجل سيفًا أو حربّة وترسلينه إلى الحرب، عندها يتحرّك الوحش، فرائحة الدّم وحدها قميّنة بإيقاظه. لكنني لم أسمع قطُّ أن المطهّرين اغتصبوا أو قتلوا

أهل مدينة أو نهبها إلا بأمر واضح ممن يقودونهم. ربما يكونون مخلوقين من القرميد كما تقولين، لكن إذا اشتريتهم فالكلاب الوحيدة التي سيقتلونها من الآن فصاعدًا ستكون الكلاب التي تُريدين موتها فحسب، وأذكرُ أن هناك بضعة كلاب تُريدين موتها بالفعل».

كلاب الغاصب. غمغمت: «نعم»، وعادت تتطلع إلى الأضواء الملوّنة وتركت النسيم المالح البارد يُمسّدها، ثم إنها قالت: «تكلّم عن نهب المُدن أيها الفارس. أجبني عن هذا السؤال إذن: لماذا لم ينهب الدوثرافي هذه المدينة؟»، وأشارت متابعَةً: «انظر إلى الأسوار. يُمكنك أن ترى أين بدأت تتول إلى السُقوط. هناك، وهناك أيضًا. هل ترى حُرّاسًا على هذه الأبراج؟ أنا لا أراهم. أهم مختبئون أيها الفارس؟ اليوم رأيتُ أبناء الهاربي هؤلاء، ورأيتُ محاربيهم النبلاء الصناديد يرتدون التنانير الكتّان، والشّيء الوحيد المخيف فيهم هو شعرهم. أي كالاसार متواضع يُمكنه أن يجتاح هذه المدينة ويبيّر بطنها العفن، فقل لي إذن، لم لا تستقرّ هذه الهاربي القبيحة على جانب (طريق الآلهة) في (فايس دوثراف) مع بقية الآلهة المسروقة؟».

- «من الجليّ أنكِ تتمتعين ببصر التنانين يا كاليسي».

- «أردتُ إجابةً لا مجاملةً».

- «هناك سيبان. حُماة (أستاپور) الشُّجعان ليسوا أكثر من قشرة جوفاء، هذا صحيح، مجرد أسماء قديمة وأكياس نفودٍ منتفخة تحمل الكرايبيج الجيسكارية متظاهرةً بأنها لا تزال تحكُم إمبراطوريةً مترامية الأطراف. كلهم من كبار الضبّاط، وفي الأعياد يخوضون حروبًا مصطنعةً في حلبات القتال ليتباهوا بعبقريّتهم في القيادة، لكن المخصّيين هم من يموتون. على كلِّ حال، العدو الذي يرغب في مواجهة (أستاپور) يعلم أنه سيواجه المطهّرين، لأن النّحاسين سيستعينون بالحامية كلّها للدّفاع عن المدينة، والدوثرافي لم يُواجهوا المطهّرين منذ تركوا جدائلهم عند بوابات (كوهور)».

- «والسبب الثاني؟».

- «ما الذي يحمل أحدًا على مهاجمة (أستاپور)؟ (ميرين) و(يونكاي)

منافستان ولكن ليستا عدوّتين، و(فاليريا) أتى عليها الهلاك، وسُكّان الأصقاع

الشَّرْقِيَّةَ جيسكارثيون كلُّهم، ووراء التَّلَالِ تَقْبَع (لازار)، حيث شَعَب الحِمْلان كما يُسَمِّيهِم الدوثراكي، وُهم أناس مسالمون للغاية».

- «نعم، لكن شمال مُدن الرِّقِيق يمتدُّ (بحر الدوثراكي)، حيث عشرات الأكوال الأقوياء الذين لا يُجِبُّون شيئًا كنهب المُدن واختطاف أهلها إلى حياة الاستعباد».

- «اختطافهم إلى أين؟ ما فائدة العبيد بعدما تَقْتُلِين النَّحَّاسِين؟ (فاليريا زالت، و(كأارث) تقع وراء (الفقر الأحمر)، والمُدن الحُرَّةُ التَّسَع تَبْعُد ألف فرسخ غربًا. ولك أن تثقي بأن أبناء الهاربي يُعَدِّقون بالعطايا على كلِّ غال يمرُّ من هنا، تمامًا كما يفعل الماچسترات في (نورفوس) و(پتوس) و(مير)، لأنهم يعلمون أن سادة الخيول سرعان ما سيُغَادِرُون إذا أولموا لهم وأجزلوا العطاء. إنه ثمن أرخص من القتال، ونتيجته أضمن كثيرًا».

أرخص من القتال. نعم، قد يكون كذلك. ليت الأمر بتلك السُّهولة معها. كم سيكون رائعًا لو أنها أبحرت إلى (كينجز لاندنج) بتنانينها وأعطت الصَّبِيَّ چوفري صندوقًا من الذهب فيرحل.

قال السير چورا لَمَّا طال صمتها: «گاليسي؟»، ومَسَّ مِرْفَقها برفق.

هزَّت ذراعها مزيحةً يده، وقالت: «كان فُسيرس ليشتري مطهَّرين بكلِّ ما معه من مال، لكنك قلت ذات مرَّة إنني أقرب لريجار...».

- «أذكرُ يا دنيرس».

- «يا جلالة الملكة! الأمير ريجار قادَ رجالًا أحرارًا وليس عبيدًا في المعارك. ذو اللحية البيضاء قال إنه نَصَّب مُرافقيه بنفسه، ونَصَّب فُرسانًا كثيرين أيضًا».

- «لم يكن هناك شرف أعلى من تقلد الفروسية على يد أمير (دراجونستون) شخصيًا».

- «أخبرني إذن، ماذا كان يقول عندما يمَسُّ رجلًا على كتفه بسيفه؟ اذهب واقتل الضُّعفاء أم اذهب وقَاتِل من أجلهم؟ في معركة (الثالوث)، هؤلاء الشُّجعان الذين تحدَّث عنهم فُسيرس وماتوا تحت رايات التَّين، هل بذلوا حياتهم لأنهم آمنوا بريجار أم لأنهم بيعوا ودُفِعَ ثمنهم؟»، والتفتت داني إلى مورمونت وعقدت ذراعها منتظرةً إجابته.

وقال الرَّجُلُ الكَبِيرُ بتؤدَّة: «كُلُّ ما تقولينه صحيح يا مولاتي، لكن ريجار خسَرَ على ضفاف (الثَّالوث)، خسَرَ المعركة والحرب والمملكة، وخسَرَ حياته. حملت مياه النَّهْر دماءً مع قِطْعِ الياقوت التي سقطت من واقِي صدره، وركبَ روبرت الغاصِبُ حصانه فوق جِثَّتِه ليسرق العرش الحديدي. ريجار قاتلَ ببسالة، ريجار قاتلَ بُنْبُل، ريجار قاتلَ بِشَرَف... وماتَ ريجار».

بران

لا طُرق تمتدُّ في الوديان الجبلية الملتوية التي يمشون فيها الآن. وسط الذرى الرمادية الحجر بحيرات زرقاء ساكنة، طويلة وعميقة وضيقة، والعتمة الخضراء لغابات صنوبرية بلا نهاية. كانت أوراق الخريف الذهبية والخمرية قد بدأت تتناقص عندما غادروا (غابة الذئاب) ليصعدوا تلال الصوان الأزلية، ثم اختفت تمامًا مع تحوُّل تلك التلال إلى جبال، وحاليًا يرتفع شجر الحارس الأخضر الرمادي العملاق فوقهم، وأدغال بلا آخر من أشجار التُّنوب والشوح والصنوبر الجُندي، بينها شجيرات خفيفة الأوراق، وتكتسي أرض الغابة بالإبر الخضراء القاتمة.

حين يضلون الطريق - كما حدث مرَّة أو مرَّتين - فما عليهم إلا أن ينتظروا مجيء ليلة باردة صافية لا يُلبَّد السحاب فيها السماء، ويبحثون عن كوكبة (التنين الجليدي)، إذ كانت أوشا قد قالت لهم إن النجم الأزرق في عين التنين يُشير إلى الشمال. جعل التفكير في أوشا بران يتساءل أين هي الآن، وتخيلها آمنة في (الميناء الأبيض) مع ريكون وشاجيدوج، يأكل ثلاثتهم أسماك الشلق وفضائل السرطان الساخنة مع اللورد ماندرلي السمين، أو ربما ينعمون بالدَّفء أمام نار جون الكبير في (المستوقد الأخير).

لكن حياة بران نفسه استحالت إلى أيام باردة ليس لها من نهاية على ظهر هودور، يركب في سلته بينما يصعدون ويتزلون منحدرات الجبال.

أحيانًا تزفر ميلا وهم سائرون، وفي مرَّة قالت: «إلى أعلى وأسفل، ثم إلى أسفل وأعلى، ثم إلى أعلى وأسفل من جديد. كم أكره جبالكم السخيفة هذه أيها الأمير بران».

- «قلت إنك تُحِبُّنِهَا بِالْأَمْسِ».
 - «أوه، إنني أُحِبُّهَا حَقًّا. كان السيّد والدي قد حكى لي عن الجبال، لكنني لم أرها قبل الآن، وأحِبُّهَا كَثِيرًا».
 قَطَبَ بران وجهه، وقال: «لكنك قلتِ لتوكِ إنكِ تَكرهينها».
 مدّت ميرا يدها وقرصت أنفه قائلةً: «ولِمَ لا يُمكنني أن أُحِبُّهَا وأكرهها في آن واحد؟».

رَدَّ بِإِصْرَارٍ: «لأنهما شيئان مختلفان، كالليل والنهار، والجليد والنار».
 قال چوچن برصانة: «إذا كان الجليد يحرق، فما المانع أن يقترن الحُب والكراهية؟ جبل أو مستنقع، لا فرق. الأرض واحدة».
 أيّدته أخته: «واحدة، ولكن تضاريسها عديدة».

نادراً ما ساعدتهم الأودية العالية بمضيئها شمالاً وجنوباً، وكثيراً ما وجدوا أنفسهم يقطعون فراسخ طويلةً في الاتجاه الخطأ، وأحياناً يُجبرون على العودة من حيث أتوا، فيقول بران مذكراً الأخوين ريد: «لو سلكننا (طريق الملوك) لكننا قد بلغنا (الجدار) منذ فترة». إنه يُريد أن يجد الغراب ذا الأعين الثلاث كي يتعلّم الطيران، وهكذا كرّر قوله على مسامعهم نصفمئة مرّة، إلى أن بدأت ميرا تُمازحه بترديده معه، فبدأ يقول: «لو سلكننا (طريق الملوك) لما أصابنا الجوع كذلك».

لم يعوزهم الطّعام وهم وسط الجبال، فميرا صيّادة حيوانات بارعة، وأبرع في اقتناص الأسماك من الجداول برُمح صيد الضفادع الثلاثي، وأحبّ بران مشاهدتها معجباً بسرعتها والطريقة التي تطعن بها المياه برُمحها ثم تسحبه وقد انغرس رأسه في سمكة ترويت فضية تتلوى. كما أن سمر يصطاد لهم أيضاً، فكلما بدأت الشمس رحلة المغيب يختفي الذئب الرهيب، لكنه يعود دائماً قبل مطلع الفجر، وغالباً ما يكون بين فكّيه صيد ما، سنجاب أو أرنب بريّ.

أمّا هنا في الجبال فالجداول أصغر وكثير منها متجلّد، والصيّد أندر. ما زالت ميرا تصيد حيواناً هنا أو سمكةً هناك عندما تستطيع، لكن الأمر أصعب هنا، وفي بعض الليالي يرجع سمر نفسه خالي الوفاض، وكثيراً ما يخلدون إلى النوم ببطونٍ فارغة.

لكن چوچن ظلَّ عازماً بمنتهي العناد على البقاء بمنأى عن الطُّرق، وقال بأسلوبه المعتاد: «حيثما كانت الطرق هناك مسافرون، والمسافرون لهم أعين ترى وأفواه تنشر حكاية الصَّبي العاجز وعملاقه والذئب الذي يمضي إلى جوارهما». لا أحد يبرع في العناد كچوچن، وهكذا واصلوا شقَّ طريقهم الصَّعب وسط البراري، وكل يومٍ صعّدوا صعّدوا أعلى قليلاً وتوغّلوا شمالاً قليلاً.

في بعض الأيام تُمطر السَّماء، وفي بعضها تهبُّ الرِّيح، وفي مرّةٍ باغتتهم عاصفة من المطر الثلجي شديدة العُنف حتى إن هودور نفسه صرَّح رُعباً، أمّا في الأيام الصَّافية فيبدو أحياناً كأنهم المخلوقات الحيّة الوحيدة في العالم. في يومٍ سألت ميرا ريد وهم يدورون حول مرتفعٍ جرانيتي بحجم (ويتترفل): «الأيَّام يسكن أحد هذه الأنحاء؟».

أجابها بران: «هناك ناس. آل أومبر يعيشون شرق (طريق الملوك) غالباً، لكنهم يرعون ماشيتهم في المروج العالية في الصَّيف، وهناك آل وول غرب الجبال على (خليج الجليد)، وآل هاركلاي وراءنا في التلال، وآل نوت وليدل ونوري وبعض آل فلينت هنا في البقاع العالية». كانت جدّة أبيه من آل فلينت أولاد الجبال، وذات مرّةٍ قبل سقطته قالت العجوز نان إن دماءها في عروق بران هي ما تجعله أحرق يُحِبُّ التسلُّق. على أن جدّته ماتت قبل أعوام وأعوام من ميلاده، بل وقبل ميلاد أبيه.

قالت ميرا: «وول؟ چوچن، ألم يكن هناك وول مع أبينا في الحرب؟». أجبَ چوچن وهو يلهث من الصُّعود: «ثيو وول، أو أبو الدِّلاء كما كانوا يُسمُّونه».

قال بران: «هذا رمزهم، ثلاثة دلاءٍ بيّنة على خلفيّة زرقاء، بإطار من المربّعات البيضاء والرّماديّة. ذات مرّةٍ أتى اللورد وول إلى (ويتترفل) ليؤكّد ولأه ويتكلّم مع أبي، وكانت الدِّلاءُ مرسومةً على ثُرسه. إنه ليس لوردًا حقًّا... أعني أنه كذلك، لكنهم يدعونه بـ«الوول» فقط، وهناك أيضًا النوت والنوري والليدل. في (ويتترفل) ندعوهم باللوردات، لكن قومهم لا يفعلون».

توقّف چوچن ريد ليلتقط أنفاسه، وقال: «هل تحسب أن قاطني الجبال هؤلاء يعرفون أننا هنا؟».

قال بران: «إنهم يعرفون». لقد رأهم يُراقبونهم، ليس بعينيه هو وإنما بعيني سمر الثاقبتين اللتين لا يفوتهما إلا أقل القليل. «لن يُزعجونا ما دُمنا لا نُحاول سرقة ما عزمهم أو خيولهم».

ولم يُزعجهم أحد بالفعل. مرّة واحدة فقط صادفوا واحدًا من سُكّان الجبال، عندما أجبرتّهم هجمة مفاجئة من المطر الجليدي على البحث عن مأوى. عثر لهم سمر على مكانٍ وقد تشمّم كهفًا غير عميق تُخفيه فروع شجرة حارس عملاقة، لكن حين انحنى هودور تحت بروز المدخل المتدلي، رأى بران وهج النّار البرتقالي في الدّاخل وأدرك أنهم ليسوا وحدهم، وناداهم صوت رجل قائلاً: «تعالوا وتدقّأوا. المكان يكفي لحمايتنا جميعًا من المطر». قدّم لهم الرّجل كعكات الشّوفان والشّجق الدّموي وقليلًا من المِزر من قربةٍ يحملها، لكنه لم يذكُر اسمه أو يستعلم عن أسمائهم. خمّن بران أنه من آل ليدل، فالمشبك الذي يُنبت معطفه المصنوع من فرو السّناجب كان مطرّقًا من الذهب والبرونز على شكل كوز صنوبر، وآل ليدل يحملون رمز كوز الصّنوبر على النّصف الأبيض من ثروسهم الخضراء والبيضاء. سأله بران ريثما ينتظرون توقّف الأمطار: «هل (الجدار) بعيد؟». أجاب الليدل (إذا كان كذلك حقًا): «ليس بعيدًا بسرّعة طيران الغدّان، لكنه أبعد على من لا يملكون أجنحةً».

بدأ بران يقول: «أراهن أنّا كنا لنصل أسرع...». أنهت ميرا عبارته: «... لو أنّا سلكننا (طريق الملوك)». التقط الليدل سكّينًا وبدأ ييري طرف عصا قائلاً: «حين كان هناك ستارك في (ويتترفل)، كانت العذراء تستطيع أن تمشي على (طريق الملوك) كيوم ولدتها أمّها ولا يتحرّش بها أحد، ويجد المسافرون نازًا وعيشًا وملحًا في كثير من الخانات والمعاقل، لكن الليالي أكثر برودة الآن، والأبواب مغلقة. الأسماك في (غابة الذئاب)، والرّجال المسلوخون يقطعون (طريق الملوك) جيئةً وذهابًا بحثًا عن الغُرباء».

تبادل الأخوان ريد نظرةً، وردّد چوچن: «الرّجال المسلوخون؟».

- «صبيّة نعل بولتون، نعم. كان ميّتا، لكنه حي الآن، وسمعتُ أنه سيُجزل عطاء الفضة - وربما الذهب - مقابل أيّ كلمةٍ عن غيره من الموتى الأحياء»،

وتطلع الرَّجُل إلى بران وهو يقول هذا، وإلى سَمَر المتمدّد إلى جواره، ثم تابع: «وبالنسبة إلى (الجدار)، فهو ليس مكاناً أنصحُ بالذهاب إليه. الذُّب العجوز أخذَ حرس اللّيل إلى (الغابة المسكونة)، ولم يُعدّ إلاّ غدّفانه دون رسائل تقريباً. أجنحة سوداء، أخبار سوداء كما كانت أمّي تقول، لكن يبدو لي أن تحليق الطيور بلا أخبار أكثر سواداً»، وحرّك الجمر بعصاه مواصلاً: «كانت الأمور مختلفةً لَمَّا كان هناك ستارك في (ويترفل)، لكن الذُّب الكبير مات، والصَّغير رحلَ جنوباً ليلعب لعبة العروش، ولم يتبقَّ لنا إلاّ الأشباح».

قال چوچن برزانه: «سوف تعود الذئاب».

- «وكيف تعرف هذا أيها الصَّبي؟».

- «حلمتُ به».

- «أحياناً أحلمُ بأُمّي التي دفنتها قبل تسعة أعوام، لكنني لا أجدُها عادَتَ إلينا عندما أستيقظ».

قال چوچن: «هناك أحلام وأحلام يا سيّدي».

وقال هودور: «هودور».

أمضوا اللّيلة معاً، فالأمطار لم تنقطع إلاّ بعد أن توغّلت الظلّمة كثيراً، وبدا أن سَمَر هو الوحيد الذي يُريد أن يُغادر الكهف، فتركَه بران يذهب حين لم يتبقَّ من النَّار إلاّ الجذوات، فالذُّب الرّهب لا يحسُّ بالرُّطوبة كما البَشَر، واللّيل يُناديه. طلى نور القمر الغابة المبتلة بمختلف درجات الفضيّ وصبغ الذرى الرّماديّة بالأبيض، وارتفع نسيم البوم في الظلام وهو يُحلّق بأجنحة صامتة بين أشجار الصَّنوبر، بينما تحرّكت ماعز بيضاء شاحبة على جوانب الجبال. أسبلَ بران جفنيه وسلّم نفسه لأحلام الذئاب، لروائح وأصوات منتصف اللّيل.

وحين استيقظوا في الصّباح التّالي كانت النَّار قد انطفأت ورحلَ اللّيدل، لكنه ترك لهم قطعة سجع ودسته من كعكات الشوفان الملفوفة بعناية بقماش أبيض وأخضر. بعض الكعكات احتوى على جوز الصَّنوبر وبعضها على الثّوت الأسود، وأكلَ بران واحدةً من كلِّ نوع ولم يستطع أن يُقرّر أيهما راقته أكثر. قال لنفسه إن آل ستارك سيرجعون يوماً إلى (ويترفل)، وعندئذٍ سيستدعي آل ليدل ويردُّ لهم كلَّ جوزة وتوتة مئة ضعف.

كان الدَّرْب الذي قطعوه يومها أسهل بعض الشَّيء، ومع حلول الظَّهيرة نَفَذَتْ أشعَّةُ الشَّمس من الشُّحْب. جلسَ بران في سلَّته على ظهر هودور شاعرًا بالرُّضا إلى حَدِّ بعيد، وغفا فترةً وقد هدَّته هزةُ حُطوات صبيِّ الاسطبل الكبير والدَّنْدنة التي يُصَدِّرها أحيانًا وهو يمشي، ثم أيقظته ميرا بمسِّة خفيفة لذراعها، وقالت مشيرةً إلى السَّماء بَرْمَح الضَّفادع: «انظر، إنه نسر».

رفعَ بران عينيه ورآه، جناحاه الرَّماديَّان مبسوطان ثابتان وهو طاف في الرِّيح، وتتبعه ببصره وهو يُحَلِّق إلى أعلى، وتساءل كيف سيكون إحساسه إذا حَامَ فوق العالم بهذا اليُسْر. مؤكَّد أنه سيكون أفضل من التَّسَلُّق. حاول أن يبلغ النَّسر، أن يتركَّ جسده العاجز السَّخيف ويرتفع إلى السَّماء ليتحد معه كما يفعل مع سَمْر. الأتبياء الحُضْر يستطيعون هذا، فلا بُدَّ أنه بإمكانني أيضًا. حاول وحاول إلى أن غاب النَّسر في سديم الظَّهيرة الدَّهبي، فقال بخيبة أمل: «لقد ذهب».

قالت ميرا: «سنرى غيره. النَّسور تَسْكُن هذه الأنحاء».

- «أظنُّ هذا».

قال هودور: «هودور».

ووافقهُ بران: «هودور».

ركلَ چوچن كوز صنوبر قائلاً: «أعتقدُ أن هودور يُحِبُّ أن تقول اسمه».

قال بران: «هودور ليس اسمه حقًّا، بل مجرد كلمةٍ يقولها. العجوز نان قالت لي إن اسمه الحقيقي والدر. كانت جدَّة جدَّته أو ما شابه». أصابه الكلام عن العجوز نان بالحزن، فسألها: «أتحسبان أن الحديديين قتلوها؟». إنهم لم يروا جثَّتها في (وينترفل)، وبعد تفكيرٍ وجدَّ أنه لا يذكرُّ أنه رأى أيَّ نساءٍ ميتات. «إنها لم تُسَّ إلى أحدٍ قط، ولا حتى ثيون. كانت تحكي القصص فحسب. لا يُمكن أن يؤذِي ثيون أحدًا مثلها، أليس كذلك؟».

قال چوچن: «من البشر من يؤذِي الغير لمجرد أنه يستطيع».

أضافت ميرا: «ولم يكن ثيون من أعمل القتل في (وينترفل). كثيرون من الموتى كانوا حديديين»، ونقلت رُمحها إلى يدها الأخرى مردفةً: «تذكرُّ قصص العجوز نان يا بران، تذكرُّ كيف كانت تحكيها ووقع صوتها. جزء منها سيظل حياً فيك ما دُمت حريصاً على هذا».

قال بران: «سأفعل»، وبعدها واصلوا التسلق فترةً طويلةً دون كلام، متّبعين درب فرائس معوجًا يمضي في منطقةٍ واطئةٍ بين قمّتين حجريّتين، وقد تمسّكت أشجار الصنوبر الجندي العجاف بالمنحدرات من حولهم. على مسافةٍ بعيدةٍ أمامهم أبصرَ بران اللّمة الجليديّة لئّهير يتدقّق على جانب جبل، ووجد نفسه يُصغي إلى أنفاسٍ چوچن وانسحاقٍ إبر الصنوبر تحت قدمي هودور، ثم إنه سأل الأخوين فجأةً: «هل تعرفان أيّ قصص؟».

أجابت ميرا ضاحكةً: «أوه، القليل».

ووافّقها أخوها: «القليل».

ودندن هودور: «هودور».

قال بران: «فلتحكيا واحدةً إذن بينما نمشي. هودور يُحبُّ قصص الفُرسان، وأنا أيضًا».

ردّ چوچن: «ليس عندنا فُرسان في (العنق)».

قالت أخته مصحّحةً: «فوق الماء، لكن المستنقعات ملأى بالفُرسان الموتى».

قال چوچن: «هذا صحيح. أنداليون وحديثيون وأولاد فراي وغيرهم من الحمقى، كلهم محاربون فخورون حسبوا أنهم يستطيعون غزو (قلعة المياه الرّماديّة). لا أحد منهم تمكّن من العثور عليها. إنهم يدخلون (العنق) ولا يخرّجون أبدًا، وعاجلاً أو آجلاً يجدون أنفسهم يتخبّطون في المستنقعات وتُغرِقهم دروعهم الفولاذيّة الثّقيلة».

ارتجف بران لفكرة الفُرسان الغارقين تحت الماء، لكنه لم يعترض. إنه يُحبُّ الرّجفة.

قالت ميرا: «كان هناك فارس في عام الرّبيع الزّائف، أطلقوا عليه اسم فارس الشّجرة الضّاحكة، وربما كان من شعب المستنقعات».

قال چوچن والظلال الخضراء تُبرّقش وجهه: «وربما لم يكن. إنني واثق بأن الأمير بران سمع هذه القصّة مئة مرّة».

ردّ بران: «لا، لم أسمعها، ولا يهّم إن كنت سمعتها. أحيانًا كانت العجوز نان تحكي قصّة سمعناها من قبل، لكننا لم نمانع إطلاقًا ما دامت قصّة ممتعةً».

اعتادت أن تقول إن القصص القديمة كالأصدقاء القدامى، لا بُدَّ من العودة إليها بين الحين والآخر».

- «صحيح»، قالت ميرا وهي تمشي حاملةً ثُرْسها على ظهرها، وبين الحين والآخر تُزيح غصناً من طريقهم بالثرُمح. كان بران قد بدأ يحسب أنها لن تحكي القصة، عندما بدأتها قائلةً: «يُحكى أنه كان هناك غُلام فضولي يعيش في (العُتق)، حجمه صغير كشعب المستنقعات كلّه، لكنه شجاع وذكي وقوي، وقد نشأ على صيد الحيوانات والأسماك، وتعلّم أسحار شعبنا كلها». سأل بران وهو شبه متأكد من أنه لم يسمع تلك القصة من قبل: «هل كان يرى أحلاماً خضراء كچوچن؟».

- «لا، لكنه كان يستطيع التنفّس في الوحل والعدو على أوراق الشجر، وتحويل اليابسة إلى ماء والماء إلى يابسة بمجرد همسة، والكلام مع الأشجار وغزل الكلمات وجعل القلاع تظهر وتختفي». قال بران بأسى: «ليتني أستطيع أن أفعل تلك الأشياء. متى سيلتقي بفارس الشجرة؟».

لوت ميرا قسمت وجهها مداعبةً، وقالت: «قريباً إذا صمت أمير معين وأصغى».

- «كنتُ أسألُ فقط».

واصلت: «كان الغُلام يعرف أسحار المستنقعات، لكنه رغب في المزيد. نادراً ما يرتحل قومنا بعيداً عن الديار كما تعلم، فنحن صغار الحجم، وعاداتنا تبدو غريبةً للبعض، ولذا لا يُعاملنا الكبار بلطف أحياناً، غير أن هذا الغُلام كان أكثر جرأةً من معظمنا، وذات يوم بعد أن بلغ مبلغ الرّجال قرّر أن يتّرك المستنقعات ويزور (جزيرة الوجوه)».

قال بران معترضاً: «لا أحد يزور (جزيرة الوجوه). الرّجال الخضر يعيشون هناك».

- «والرّجال الخضر هم من أراد أن يعثر عليهم. هكذا ارتدى قميصاً عليه أقراص مخيطة من البرونز - مثل قميصي - وأخذ ثُرْساً من الجلد ورُمحاً ثلاثي الشعب - مثل ثُرسي ورُمحي - وجذف بقاربٍ صغير من جلود الحيوانات في (الفرع الأخضر)».

أغلقَ بران عينيه وحاولَ أن يتخيَّل الرَّجُلَ الصَّغِيرَ في قاربه الجَلْدِي، وفي مخيَّلته بدا رجلُ المستنقعاتِ أشبهَ بـ«چوچن»، لكن أقوى وأكبرَ سِنًا ويرتدي ثيابًا كثيابَ ميرا.

- «عبرَ من تحت (التَّوأمَتين) ليلاً كي لا يُهاجمه حُرَّاسُ فراي، ولمَّا بلغ (الثَّالوث) ترجَّلَ وحملَ قاربه على رأسه وبدأ يمشي. استغرقَ منه المشي أيامًا طويلةً، لكنه وصلَ إلى (عين الآلهة) أخيرًا، فألقى القاربَ في البحيرة وبدأ يُجذِّفُ صوبَ (جزيرةِ الوجوه)».

- «وهل التقى الرَّجالُ الحُضْرَ؟».

- «نعم، لكن تلكَ قَصَّةٌ أخرى، وليس لي أن أحكيها. سمُّ الأمير طلب أن أحكي عن الفُرسان».

- «حكايات الرَّجالِ الحُضْرِ جيِّدةٌ أيضًا».

قالت موافقةً: «نعم»، لكنها لم تذكُرَ المزيدَ عن الأمر، وواصلتَ قصَّتها: «بقيَ رجلُ المستنقعاتِ على الجزيرةِ طولَ الشِّتاءِ، لكن حينَ حلَّ الرَّبيعُ سمعَ العالمَ الواسعَ يُناديه وعرفَ أن وقتَ الرَّحيلِ قد حانَ. كان قاربه الجَلْدِي حيث تركه، فودَّعَ ساكني الجزيرةِ وأبحَرَ إلى الشَّاطِئِ. جذَّفَ وجذَّفَ، وأخيرًا رأى بروجَ قلعةٍ ترتفعُ على ضفَّةِ البحيرةِ، وظلَّتِ البروجُ ترتفعُ أكثرَ وأكثرَ كلما اقتربَ، إلى أن أدركَ أنها أعظمُ قلعةٍ في العالمِ بلا شك».

في الحالِ عرفَ بران أيُّ قلعةٍ تعني، وصاحَ: «(هارنهال)! كانت (هارنهال)!».

قالت ميرا مبتسمةً: «حقًّا؟ أمامَ الأسوارِ رأى خيامًا بمختلفِ الألوانِ، وراياتٍ لامعةٍ تُرفرفُ في الهواءِ، وفُرسانًا مدرَّعينَ على خيولٍ مبردعةٍ، وشمَّ روائحَ اللحومِ المشويةِ وسمعَ الضَّحِكِ ودويَّ أبواقِ الحُجَّابِ. كانت دورةِ مبارياتٍ عظيمةٍ على وشكِ البدءِ، وجاءَ أبطالُ من جميعِ أرجاءِ البلادِ ليتنافَسوا فيها، وقد حضرَ الملكُ بنفسه ومعه ابنه الأميرُ التَّينينِ، وأتى السُّيوفُ البيضاءُ لِيُرْحَبُوا بأخٍ جديدٍ بينهم. كان سيِّدُ العواصفِ حاضرًا أيضًا، وسيِّدُ الوردِ، لكن أسدَ الصَّخْرِ العظيمِ كان قد اختصمَ مع الملكِ ولم يأتِ، وإن جاءَ كثيرونَ من حملةِ رايته وفُرسانه. لم يرَ رجلَ المستنقعاتِ أبهَةً كهذه من

قبل قَطُّ، وعرفَ أنه قد لا يرى مثلتها ثانيةً أبدًا، وأرادَ جزءَ منه أن يكون جزءًا منها أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ».

يعلم بران هذا الإحساسَ جيّدًا. في صِغره لم يكن يحلُمُ بشيءٍ إلا أن يُصبحَ فارسًا، لكن ذلك كان قبل أن يسقط ويفقد ساقيه.

- «كانت ابنة القلعة العظيمة متوجّهةً ملكة الحُب والجمال عند افتتاح المباريات، وأقسمَ خمسة أبطال على الدِّفاع عن تاجها؛ إخوتها الأربعة أبناء (هارنهال) وعمُّها الشَّهير الذي كان فارسًا أبيض في الحرس الملكي».

- «أكانت جميلةً؟».

أجابَت ميرا وهي تثب فوق حجر: «نعم، لكن كانت هناك من هن أجمل منها، إحداهن زوجة الأمير التَّين التي أتت معها بدستةٍ من السيّدات يخدمنها، وطلبَ الفرسان منهم جميعًا عطايا يربطونها برماحهم».

سألَ بران بارتياح: «لن تكون هذه واحدةً من قصص الحُب إياها، أليس كذلك؟ إنها لا تروق هودور كثيرًا».

أيده هودور قائلاً: «هودور».

- «إنه يحبُّ القصص التي يُحارب فيها الفرسان الوحوش».

- «أحيانًا الفرسان هم الوحوش يا بران. كان رجل المستنقعات الصَّغير يتمشَّى في الحقل، يستمتع بالنَّهار الرَّبيعي الدَّافئ ولا يتعرَّض لأحد، حين هاجمه ثلاثة مُرافِقون. لم تتجاوز سنُّهم الخامسة عشرة، لكن على الرغم من هذا كان ثلاثتهم يفوقونه حجمًا، وقد رأوا أن هذا عالمهم هم، ولا حقَّ له في الوجود هناك، واختطفوا رُمحه وطرحوه أرضًا وانهالوا عليه بالسَّباب باعتباره أكل ضفادع».

- «أكان اسمهم والدر؟». بدا له أن هذا شيء وارد أن يفعله والدر فراي الصَّغير.

- «لم يقل أحدهم اسمه، لكنه حفظَ وجوههم كي يثارَ لنفسه منهم لاحقًا. كلما حاول أن ينهض عادوا يطرحوه أرضًا، وركلوه عندما تكوّر على نفسه، ثم إنهم سمعوا الذُّبَّة تعوي: هذا رجل أبي الذي ترُكِّلونَه».

- «ذُبَّة بأربع سيقان أم اثنتين؟».

قالت ميرا: «بائنتين. هاجمت الذُّبَّة المُرافِقين بأحد سيوف المباريات

ودفعتهم إلى اللوذ بالفرار. كان رجل المستنقعات مكدومًا مدمى، فأخذته إلى وكرها لتتظف جروحه وتضممها بالكثان، وهناك التقى إخوتها في القطيع؛ الذئب الجامح الذي يقودهم، والذئب الهادئ إلى جواره، والجرو أصغر الأربعة. ليلتها أقيمت مأدبة في (هارنهال) لإعلان افتتاح المباريات، وأصرت الذئبة على حضور الغلام الذي كان عالي النسب، وهو ما يعني أن لديه الحق في الجلوس على الدكة كأبي أحد آخر، ولم يكن من السهل أن يرفض أحد طلبًا لتلك الذئبة، فترك الجرو الصغير يجد له من ثيابه ما يصلح لأن يحضر به مأدبة الملك، ودخل القلعة العظيمة. تحت سقف هارن أكل وشرب مع الذئب، بالإضافة إلى كثيرين ممن أقسموا لهم على الولاء، منهم ابن الروابي والموظ⁽¹⁾ والذئب وعريس البحر. غنى الأمير التين أغنيته أغرورقت لها عينا الفتاة الذئبة بالدموع، لكن حين سخر أخوها الجرو من بكائها سكبت التبيذ على رأسه. تكلم أخ أسود طلبًا من الفرسان أن ينضموا إلى حرس الليل، وهزم سيّد العواصف فارس الجماجم والقبلات في حرب التبيذ، ورأى رجل المستنقعات فتاة ذات عينين أرجوانيتين ضاحكتين ترقص مع سيف أبيض وثمان أحمر وسيّد الجرافن، وأخيرًا مع الذئب الهادئ... لكن فقط بعد أن تكلم الذئب الجامح معها نيابة عن أخيه الذي كان أكثر خجلًا من أن يُبارح مكانه على الدكة. في خضم هذا المرح لمح رجل المستنقعات المرافقين الثلاثة الذين هاجموا. كان أحدهم يخدم فارسًا رمزه المذراة، والثاني فارسًا رمزه الشيهم⁽²⁾، والثالث فارسًا على سترته بُرجان، وهو الرمز الذي كان رجل المستنقعات يعرفه جيدًا».

قال بران: «آل فراي، آل فراي أو أولاد (المعبر)».

- «آنذاك واليوم. رأتهم الذئبة أيضًا وأشارت لإخوتها إليهم، فعرض عليه الجرو أن يعثر له على حصانٍ ودرعٍ تناسب حجمه، فشكره رجل المستنقعات الصغير لكنه لم يُجبه. كان قلبه يتمزق، فقوم المستنقعات أصغر من معظم

(1) الموظ أحد أنواع الأيائل، له عنق قوي وقرنان جريديان، ويألف العيش في الغابات والمستنقعات. (المترجم).

(2) الشيهم حيوان قارض من فصيلة القنافذ. (المترجم).

النَّاس، نعم، إلاَّ أنهم لا يقلُّون إباءً، والغُلام لم يكن فارسًا. إننا نستخدم القوارب أكثر من الخيول بكثير، وأيدينا مخلوقة للمجازيف لا الرِّماح، وبقدر ما تمنى أن يثار لنفسه كان يخشى أن يجعل من نفسه أضحوكةً ويَدِرَّ على شعبه العار. عرضَ الذئب الهادئ مكانًا على رجل المستنقعات الصَّغير في خيمته ليلتها، لكن قبل أن ينام ركعَ على شاطئ البحيرة وتطلَّع عبر الماء في اتجاه (جزيرة الوجه)، وصلى لآلهة الشَّمال و(العنق) القديمة...».

سأله چوچن: «ألم تسمع هذه الحكاية من أبيك قط؟»
- «العجوز نان هي التي كانت تحكي دائميًا. أكملِّي يا ميرا، لا تتوقَّفي

الآن».

ولا بُدَّ أن هذا كان رأي هودور أيضًا، إذا قال: «هودور»، ثم: «هودور هودور هودور هودور».

قالت ميرا: «حسن، إذا كنت تُريد سماع البقيَّة».

- «نعم، احكي».

- «كان مخططًا أن يدوم النَّزال خمسة أيام، بالإضافة إلى التحام جماعي عظيم بين سبع فرق، ومباريات الرِّماية وإلقاء الفأس وسباق الخيل ومسابقة المطربين...».

قاطعتها بران متململاً بصبرٍ نافذ على ظهر هودور: «لا عليكِ بكلِّ هذا. احكي لي عن النَّزال».

- «كما يأمر سموُّ الأمير. كانت ابنة القلعة ملكة الحُب والجمال، يُدافع عنها أربعة إخوة وعم، لكن أبناء (هارنهال) الأربعة هُزموا في اليوم الأول، وظلَّ من غلبوهم أبطالاً فترةً قصيرةً قبل أن يُهزَموا بدورهم. شهدت نهاية اليوم الأول فوز فارس الشَّيهم بمكانٍ بين الأبطال، وفي صبيحة اليوم الثَّاني انضمَّ إليه فارس المذرة وفارس البُرجين، لكن في أواخر الأصيل، بينما تستطيل الظلال، ظهر فارس غامض في مضمار النَّزال».

أوما بران برأسه بإدراك. كثيرًا ما يظهر الفُرسان الغامضون في دورات المباريات، يعتمرون خوذاتٍ تُخفي وجوههم، ويحملون تُروسًا إمَّا خالية وإمَّا عليها رموز مجهولة، وأحيانًا يكونون فُرسانًا مشهورين متكرين. الفارس الثَّين فاز في دورةٍ وهو متنكر كفارس العبرات كي يُسمِّي أخته ملكة الحُب

والجمال بدلاً من عشيقته الملك، وباريستان الباسل شارك مرتين كفارسٍ غامض، الأولى وهو في العاشرة من العمر لا أكثر. - «أراهن أنه كان رجل المستنقعات الصَّغير».

قالت ميرا: «لا أحد عرفَ هُويته، لكن الفارس الغامض كان قصير القامة ويرتدي درعاً مجمَّعةً من عدَّة أجزاء مختلفة، والرَّمز على تُرسه كان شجرة القلوب الخاصَّة بالآلهة القديمة، شجرة ويروود بيضاء ذات وجهٍ أحمر ضاحك».

قال بران: «ربما جاء من (جزيرة الوجوه). هل كان لونه أخضر؟». لُحمة الجزيرة في قصص العجوز نان بشرة خضراء داكنة وأوراق شجر بدلاً من الشَّعر، وأحياناً ما تكون لهم قرون، لكن بران لا يرى كيف أمكنَ للفارس الغامض أن يرتدي خوذته لو كانت له قرون. «أراهن أن الآلهة القديمة أرسلته». - «ربما. خفضَ الفارس الغامض رُمحه أمام الملك، واتَّجه بحصانه إلى طرف المضمار حيث نصبَ الأبطال الخمسة سُرادقاتهم. لا بُدَّ أنك تعرف الثلاثة الذين تحدَّاهم».

كان بران قد سمعَ ما يكفي من حكاياتٍ ليعرف الإجابة، فقال من فوره: «فارس الشَّيهم وفارس المذراة وفارس البُرجين. قلتُ لك إنه رجل المستنقعات الصَّغير».

- «أيّاً كان، فقد بثَّت الآلهة في ذراعه القوَّة. سقطَ فارس الشَّيهم أولاً، ثم فارس المذراة، وأخيراً فارس البُرجين، ولم يكن أيهم محبوباً، فدوى تهليل العامَّة للبطل الجديد الذي سرعان ما سُمِّوه فارس الشَّجرة الضَّاحكة، وحين سعى الخصوم السَّاقطون إلى دفع فدية خيولهم ودروعهم، تكلم فارس الشَّجرة الضَّاحكة بصوت جعلته الخوذة جهورياً، وقال: علموا مُرافقيكم الشَّرَف وستكون هذه فدية تكفي، وبمجرد أن أدب الفُرسان المهزومون مُرافقيهم بمنتهى الحدَّة عادت إليهم الخيول والدُّروع، وهكذا أُجيبَ دعاء رجل المستنقعات الصَّغير... من الرِّجال الخُضر، أو من الآلهة القديمة، أو من أطفال الغابة، من يدري؟».

قرَّر بران بعد أن تأمَّل وهلةً أنها قصَّة جيِّدة، وقال: «وماذا حدثَ بعدها؟ هل فازَ فارس الشَّجرة الضَّاحكة في الدَّورة وتزوَّج أميرة؟».

- «لا. ليلتها في القلعة العظيمة أقسم سيّد العواصف وفارس الجماجم
والقُبَلات على أن يُميّطاً قناعه، وحَثَّ الملك نفسه الرّجال على تحديّيه، معلناً
أن الوجه المتوارى تحت الخوذة ليس وجهًا لصديق، لكن في الصّباح التّالي،
عندما نفخ الحُجّاب في الأبواق واتّخذ الملك مكانه، لم يظهر غير بطلين،
على حين اختفى فارس الشّجرة الضّاحكة. غضبَ الملك جدًّا، بل وأرسل
ابنه الأمير التّين بحثًا عن الرّجل، لكنهم لم يعثروا إلّا على تُرسه المملون معلقًا
من شجرة دون أثر له. في نهاية المباريات كان الأمير التّين هو الفائز».

- «أوه». فكَرَّ بران قليلاً، ثم قال: «إنها قصّة جيّدة، لكن كان ينبغي
أن يكون الفرسان الثلاثة هم من آذوه لا مُرافِقوهم، وعندها كان رجل
المستنقعات ليقتلهم. الجزء الخاص بالفدية سخيف، وكان يجب أن يفوز
الفارس الغامض على الجميع ويهزم المتحدّين كلّهم، ثم يُسمّى الذّئبة ملكة
الحُب والجمال».

قالت ميرا: «هكذا سُمّيت بالفعل، لكن تلك قصّة أكثر حزنًا».

عادَ چوچن يسأله: «أأنت واثق بأنك لم تسمع هذه الحكاية من قبل يا
بران؟ السيّد والدك لم يحكها لك قطّ؟».

هَزَّ بران رأسه نفيًا. كانت الشّيخوخة قد بدأت تُصيب النّهار عندئذٍ،
والظلال الطّويلة تزحف على جوانب الجبال وتمسُّ أشجار الصّنوبر بأصابع
سوداء. إذا استطاعَ رجل المستنقعات أن يزور (جزيرة الوجوه)، فلربما
أستطيعُ أيضًا. الحكايات كلّها تتفق على أن الرّجال الحُضر يتمتّعون بقوى
سحرية غريبة، فلعلّ من الممكن أن يُساعدوه على المشي من جديد، أو
يجعلوا منه فارسًا حتى. لقد حولوا رجل المستنقعات الصّغير إلى فارس،
حتى ولو يومًا، ويوم واحد يكفيني.

دافوس

الزَّنْزَانَةُ دَافِئَةٌ عَلَيَّ نَحْوُ لَمْ يَتَوَقَّعْ فِي زَنْزَانَةٍ.
لكنها مظلمة حقًا. من الخارج يتسرَّب الضَّوُّ البرتقالي المتذبذب من بين
القضبان الحديد العتيقة، يأتي من المشعل الموضوع في حاملٍ معلقٍ على
الجدار، لكن العتمة تُغرق النُّصف الخلفي من الزَّنْزَانَةِ، ناهيك بالرُّطوبة التي
لا مفرَّ منها على جزيرةٍ كـ(دراجونستون)، حيث البحر قريب طيلة الوقت،
كما أن هناك جردانًا أيضًا، وبأعدادٍ أكثر من المعتاد في مثل تلك الزَّنْزَانِينَ.
على أن البرد ليس من الأشياء التي يشكو منها دافوس هنا، فالممرَّات
الحجريَّة الملساء أسفل كُتلة (دراجونستون) الهائلة دافئة دومًا، وقد سمع
مرارًا أن حرارتها ترتفع كلما تعمَّقت فيها أكثر. هكذا قدَّر أنه على عمقٍ لا
بأس به تحت القلعة، إذ غالبًا ما يحسُّ بجدار زَنْزَانَتِهِ دافئًا إذا ضغطَ عليه
براحة يده. ربما تكون الحكايات القديمة صادقةً إذن، والحجارة التي شُيِّدَتْ
منها (دراجونستون) من الجحيم بحق.

كان مريضًا عندما جلبوه إلى هنا. ساء السُّعال الذي ابتليَّ به منذ المعركة،
واستبدَّت به الحُمَّى، وغزَّت القروح الدَّامية شفثيه، ولم ينجح دفء الزَّنْزَانَةِ
في كبح قشعريرته الدَّائمة، والآن يتذكَّر أنه فكَّر: لن أبقي طويلًا. قريبًا سأموْتُ
هنا في الظلام.

لكن سرعان ما وجدَ دافوس أن الصَّواب جانبُه في ذلك كما جانبُه في
أشياءٍ أخرى كثيرة. بإبهام يتذكَّر يدين رفيفتين وصوتًا حازمًا، والمَايستر
بايلوس الشَّاب يتطلَّع إليه في رقده، ويتذكَّر أنهم أعطوه مرق الثُّوم السَّاخن
ليشربه، وحليب الخشخاش ليعالج آلامه ورجفته. جعله الخشخاش ينام،

ولمَّا نامَ علَّقوا له العلق لتصفية دمه الفاسد، أو أن هذا ما استنتجَه من آثار العلقات التي وجدها على ذراعيه حين استيقظ. لم يمضِ وقت طويل قبل أن ينجاب السُّعال وتختفي القروح ويجد في المرق قطعاً من السمك الأبيض والبصل والجَزْر، ثم جاء يوم أحسَّ فيه بأنه أقوى مما كان منذ تحطمت (بِثا السَّوداء) تحت قدميه وألقت به في النَّهر.

ثمَّة سجَّانان قائمان على حراسته. الأول قصير بدين عريض الصَّدر، كتفاه مفتولتان ويدها ضخمتان قويَّتان، ويرتدي سُترَةً جلدِيَّةً مطعَّمةً بالحديد، ويأتي دافوس مرَّةً في اليوم بوعاء من الثَّريد، أحياناً ما يُحليه بالعسل أو يُضيف إليه القليل من الحليب. أمَّا الثَّاني فأكبر سنًّا، وجهه ممتقع وظَّهره محني، وله شعر ملوَّث بالشَّحم وبشرة محصَّبة، ويرتدي سُترَةً من القطيفة البيضاء على صدرها حلقة من النجوم مشغولة بخيطٍ ذهبي، وإن كانت لا تُناسبه إطلاقاً لكونها قصيرة وفضفاضة للغاية، بخلاف أنها متَّسخة ومهترئة. يأتي الرَّجل دافوس بأطباق من اللَّحم والهريس أو يخنَّه السمك، وفي مرَّةٍ جلبَ له نصف فطيرة سَلوق، وإن كانت دسمةً للغاية حتى إنه لم يستطع الاحتفاظ بها في معدته، ومع ذلك كانت وجبةً نادرةً بالنَّسبة لسجين في زنزانه.

لا تسطع شمس أو قمر في الرِّنازين، فلا نوافذ في الجدران الحجريَّة السَّميكة، والوسيلة الوحيدة التي يُمكنه بها تمييز الليل من النَّهار هي سجَّاناه. لا أحد منهما يُكلِّمه أبداً، مع أنه يعلم أنهما ليسا أبكَمين، فأحياناً يسمعهما يتبادلان بضع عباراتٍ مقتضبة حينما يحلُّ موعد تغيير المناوبة. إنهما يرفُضان أن يُخبراه باسميهما حتى، وهكذا أطلقَ عليهما اسمين من ابتكاره، فسَمَّى القصير القويَّ سجَّان الثَّريد والمحنيَّ الممتقع سجَّان السُّلق (نسبةً إلى الفطيرة)، وعلم مرور الأيام بالوجبات التي يأتيانه بها وتبديل المشاعل في الحامل على الجدار خارج الرِّزنانه.

في الظلمة تستبدُّ الوحدة بالإنسان، ويتوق إلى سماع صوت بشريٍّ آخر، وكلما جاء السَّجَّانان لإحضار الطَّعام أو تغيير دلو الفضلات يُخاطبهما دافوس عالماً أنهما سيصُفَّمان آذانهما عن توشُّله الحرِّيَّة أو الرِّحمة، وبدلاً من هذا يُلقي عليهما أسئلةً على أمل أن يُجيبه أحدهما ذات يوم. يسأل: «ما أخبار الحرب؟»، و«هل الملك بخير؟»، يسأل عن ابنه دقَّان والأميرة شيرين

وسالادور سان، يسأل: «كيف الطقس؟»، و«هل بدأت عواصف الخريف؟ أما زالت السفن تقطع (البحر الضيق)؟».

لكن مهما سأل فما من مجيب، وإن كان سجان الثريد يرُمقه بنظرة معيّنة أحياناً، فيحسب دافوس لأقل من لحظة أنه على وشك أن يتكلم، أمّا من سجان الشلق فلا ينال هذا القدر حتى. إنه لا يعدني رجلاً، بل مجرد حجر يأكل ويتغوّط ويتكلم. قرّر بعد فترة أن سجان الثريد يروقه أكثر، فعلى الأقل يبدو أن الرجل يعرف أنه حي، وهناك نوع غريب من الحثو فيهِ، حتى إن دافوس يظنُّ أنه يطعم الجرذان، ولهذا السبب أعدادها كبيرة، وفي مرّة خيل إليه أنه يكلمها كأنها أطفال، لكن ربما كان ذلك محض حلم.

لا ينوون أن يتركوني أموت، بل يُحافظون على حياتي لغرض ما في أنفسهم. وهو لا يريد أن يفكر في ذلك الغرض. اللورد صنجلاس ظلّ حبيس الزنازين تحت (دراجونستون) فترة، وكذا أبناء السير هوبارد رامبتون، وكلهم انتهى به الأمر في المحرقة. فكّر وهو جالس يُحدّق إلى المشعل وراء القضبان: كان عليّ أن أسلم نفسي إلى البحر، أو أترك السفينة تمرّ بي وأهلك على صخرتي. أوثر أن أكون طعاماً للسرّاطين على اللهب.

ثم جاءت ليلة كان يلوك فيها اللقيمات الأخيرة من عشاءه، عندما شعر بحرارة غريبة تكتنفه، فرفع عينيه ينظر من بين القضبان، ورآها واقفة ترتدي القرمزي الوهاج وعلى حلقها الباقوتة الكبيرة، وفي عينيها الحماوين ألق يُضاهي ضوء المشعل الذي يغمرها، وبهدوء لا يحسُّ به قال: «مليساندرا».

أجابته بالهدوء نفسه، كأنهما التقيا على السّلام أو في السّاحة وتبادلا ن تحيةً مهذبةً: «فارس البصل، أنت بخير؟».

- «أفضل مما كنت».

- «هل يعوزك شيء؟».

- «يعوزني ملكي وابني»، ودفع دافوس وعاء الطعام جانباً ونهض سائلاً:

«هل أتيت لتحرّقيني؟».

تفحصته عيناها الحماوان العجيبتان من خلال القضبان، وقالت: «مكان سيّء هذا، أليس كذلك؟ مكان مظلم وكريه. الشّمس الطّيبة لا تسطع هنا، ولا القمر الوضاء»، ورفعت يدها مشيرةً إلى المشعل على الجدار مواصلةً: «هذا

هو كلُّ ما يحوّل بينك وبين الظلام يا فارس البصل، هذه النَّار الصَّغيرة، منَّة راهلور. هل أطفئها؟».

تحرك نحو القضبان قائلاً: «لا، أرجوك». لا يحسب دافوس أن بمقدوره أن يحتمل هذا، أن يُترك في السَّواد الدَّامس بلا صُحبةٍ إلا الجرذان. التوت شفتنا المرأة الحمراء إلى أعلى في ابتسامةٍ وهي تقول: «يبدو أنك أصبحت تُحبُّ النَّار أخيراً».

ردَّ ويدها تنقبضان وتنسبطان: «إنني أحتاج إلى المشعل». لن أتوسَّل إليها، لن يحدث.

- «أنا مثل هذا المشعل يا سير دافوس، كلانا أداة لراهلور، كلانا مخلوق لهدفٍ أوحد؛ أن نمنع الظلمات من التَّوغل. هل تُصدِّق هذا؟».

- «لا». ربما كان حريًّا به أن يكذب ويقول لها ما تُريد أن تسمعه، لكن دافوس أَلفَ قول الحقيقة. «أنت أم الظلمات. رأيتُ هذا في (ستورمز إند) عندما ولدتِ الظلَّ أمام عيني».

- «هل يخاف فارس البصل الشُّجاع ظلًّا عابرًا؟ تشجّع إذن، فالظلال لا تعيش إلا حين تولد من الضياء، ونيران الملك خادمة للغاية حتى إنني لا أجرؤ على أن آخذ منها جذوةً واحدةً لألد ابناً آخر، خشية أن يقتله هذا»، ودنت مليساندرا متابعَةً: «لكن مع رجلٍ آخر... رجل ما زال لهبه متقدًّا حارقًا... إذا كنت تُريد أن تخدم ملكك في قضيتته حقًّا، فتعال إلى عُرفتي ذات ليلة، وسأديقك متعةً لم تعرف لها مثيلاً، وبنار الحياة فيك يُمكنني أن أصنع...».

قاطعها دافوس مترجعاً: «... هو لا. لستُ أريدُ شيئاً منك يا سيّدي، أو من إلهك. عسى (السبعة) أن يحموني».

تنهّدت مليساندرا وقالت: «إنهم لم يحموا جانسر صنجلاس. كان يُصلي ثلاث مرّات كلَّ يوم، ويحمل سبع نجوماتٍ سباعيّةٍ على تُرسه، لكن حين مدَّ راهلور يده استحالت صلواته إلى صراخٍ واحترق. لماذا تتمسك بتلك الآلهة الزائفة؟».

- «لقد عبدتها طيلة حياتي».

- «طيلة حياتك يا دافوس سيورث؟ كأنني بك تقول: كنتُ أعبدها البارحة»، وهزّت رأسها بحزنٍ مضيئةً: «إنك لم تخش أن تقول الحقيقة للملوك يوماً، فلم تكذب على نفسك؟ افتح عينيك أيها الفارس».

- «وماذا تُريدني أن أرى؟».

- «فِطْرَةَ الْعَالَمِ. الْحَقِيقَةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَكَ، جَلِيَّةٌ لِلْعَيَانِ. اللَّيْلُ مَظْلَمٌ وَمَفْعَمٌ بِالْأَهْوَالِ، وَالنَّهَارُ مَشْرُقٌ وَجَمِيلٌ وَمَفْعَمٌ بِالْأَمَالِ، أَحَدُهُمَا أَسْوَدُ وَالثَّانِي أَبْيَضُ. هُنَاكَ الْجَلِيدُ وَهُنَاكَ النَّارُ، الْكِرَاهِيَةُ وَالْحُبُّ، الْعَلْقَمُ وَالشَّهْدُ، الذَّكْرُ وَالْأُنْثَى، الْأَلْمُ وَالْمَتْعَةُ، الشِّتَاءُ وَالصَّيْفُ، الشَّرُّ وَالخَيْرُ»، وَتَقَدَّمَتْ مِنْهُ حُطْوَةٌ وَأَرْدَفَتْ: «الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ. فِي كُلِّ مَكَانٍ الْأَضْدَادُ، فِي كُلِّ مَكَانٍ الْحَرْبُ».

- «الحرب؟».

- «الحرب. هناك اثنان يا فارس البصل، لا سبعة أو واحد أو مئة أو ألف، اثنان! هل تحسب أنني عبرتُ نصف العالم لأضع ملكًا تافهًا آخر على عرش من ورق؟ الحرب مندلعة منذ بدأ الدهر، وقبل أن تضع أوزارها على البشر قاطبة أن يختاروا جانبًا يُحاربون فيه. على جانب هناك راهلور، إله الضياء، قلب النار، ربّ اللهب والظل، وضده يقف الآخر الأعظم الذي يجب ألا يُذكر اسمه، إله الدياجير، روح الجليد، ربّ الليل والهول. خيارنا ليس خيارًا بين باراثيون ولانستر أو ستارك وجرايچوي، بل بين الموت والحياة، الظلام والثور»، وَأَطْبَقَتْ عَلَى قَضْبَانِ زَنَزَاتِهِ بِيَدَيْهَا الْبِيضَاوِينَ النَّاحِلَتَيْنِ، وَبَدَتْ الْيَاقُوْتَةَ عَلَى عُنُقِهَا كَأَنَّهَا تَنْبُضُ بِبَرِيقِهَا الْخَاصِ وَهِيَ تُوَاصِلُ: «قُلْ لِي إِذْنُ أَيُّهَا السَّيْرُ دَاوُوسُ سِيوورْثُ، وَقُلْ لِي بِصَدْقٍ، هَلْ يَتَّقِدُ قَلْبِكَ بِضَوْءِ رَاهَلُورِ السَّاطِعِ أَمْ أَنَّهُ أَسْوَدٌ وَبَارِدٌ وَمَلِيءٌ بِالذُّودِ؟»، وَمَدَّتْ يَدَهَا مِنْ بَيْنِ قَضْبَيْيْنِ وَمَسَّتْ صَدْرَهُ بِثَلَاثَةِ أَصَابِعٍ، كَأَنَّمَا تَسْتَشْفِ حَقِيقَتَهُ عِبْرَ اللَّحْمِ وَالصُّوفِ وَالْجِلْدِ. بِيْطَاءِ أَجَابَ دَاوُوسُ: «قَلْبِي مَلِيءٌ بِالشُّكُوكِ».

عَادَتْ مَلِيسَانْدْرَا تَنْتَهَدُ وَقَالَتْ: «أَهْهَهْ يَا دَاوُوسُ. الْفَارَسُ الطَّيِّبُ صَادِقٌ حَتَّى الرَّمَقِ الْآخِرِ، حَتَّى وَالظَّلَامُ يُحِيطُ بِهِ. خَيْرٌ لَكَ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَيَّ، إِذْ كُنْتُ سَاعِرْفٌ. كَثِيرًا مَا يُوَارِي خَدَمَ الْآخَرِ قُلُوبَهُمُ السَّوْدَاءُ فِي الْأَضْوَاءِ الْمَبْهَرَجَةِ، وَلِذَا يُعْطِي رَاهَلُورُ رُهْبَانَهُ الْقَدْرَةَ عَلَى قِرَاءَةِ الزَّيْفِ»، وَتَرَاجَعَتْ بِخُفَّةٍ وَسَأَلَتْهُ: «لِمَاذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْتُلَنِي؟».

- «سَأُخْبِرُكَ إِذَا أَخْبَرْتَنِي عَمَّنْ خَانَنِي». لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا سَالَادُورُ سَانَ، لَكِنْ حَتَّى فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ مَا زَالَ يَأْمَلُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُوَ.

ضحكت المرأة الحمراء، وقالت: «لا أحد خانك يا فارس البصل. لقد رأيت نيتك في اللهب».

اللهب. «إذا كان يُمكنك أن تري المستقبل في اللهب، فلماذا احترقنا في (النهر الأسود)؟ لقد سلمت أبنائي إلى النار... أبنائي وسفيتي ورجالي، كلهم احترقوا...».

هزت مليساندرا رأسها قائلة: «إنك تتجنى عليّ يا فارس البصل. تلك لم تكن نيراني. لو كنتُ معكم لاختلّفت نتيجة المعركة، لكن جلالته كان محاطًا بالزنادقة، وطعت كبرياؤه على إيمانه. عقابه كان باهظًا، لكنه تعلم من غلظته».

أحسّ دافوس بغمه يتقلص وهو يسأل نفسه: أكان أبنائي مجرد درس لملك إذن؟

تابعت المرأة الحمراء: «الليل حالك في ممالككم السبع الآن، لكن قريبًا تُشرق الشمس من جديد. الحرب مستمرة يا دافوس سيورث، وعمًا قريب سيتعلم البعض أن أعظم النار قد يندلع من مستصغر الشرر. المايستر العجوز كان ينظر إلى ستانيس فلا يرى إلا رجلاً، وأنت تراه ملكًا، وكلاكما مخطئ. إنه مختار الإله، مُحارب الثور. لقد رأيتَه يقود القتال ضد الظلام، رأيتَه في اللهب، واللهب لا يكذب، وإلا لما كنت هنا الآن. كل هذا مذكور في النبوءات. عندما ينزف النجم الأحمر وتشتد حلقة الليل، سيولد آزور آهاي من جديد وسط الدخان والملح ليوقظ التنانين من الحجر. النجم النَّازف جاء وذهب، و(دراجونستون) موضع الدخان والملح. ستانيس باراثيون هو آزور آهاي!»، وتوهجت عيناها الحمراء وكنارين توأمين وبدتا كأنهما تسبران أغوار روحه وهي تكمل: «لست تُصدّقني، وحتى الآن تُشكك في حقيقة راهلور... لكنك خدمته رغم ذلك، وستخدمه ثانية. سأتركك هنا لتُفكر في كل ما قلته لك، ولأن راهلور منبع الخير كله، سأترك لك المشعل أيضًا».

وباتبسامة ودوامة من الحرير القرمزي رحلت تاركة وراءها أريجهما والمشعل.

خفض دافوس نفسه إلى أرضية الزنانة وطوّق رُكبتيه بذراعيه وقد غمره ضوء المشعل المتراقص، وبمجرد أن غاب وقع خطوات مليساندرا لم يتبق

صوت إلا خربشة الجردان في الجُدران. الجليد والنَّار، الأسود والأبيض، الظلام والنور. إنه لا يستطيع أن يُنكر قوَّة إلهها، فقد رأى الظلَّ يخرُج من رَحِمها، والرَّاهبة تعرف أشياء ما كان لها أن تعرفها. رأت نيَّي في لهبها. من الخير أن يعلم أن ساللا لم يبعه، لكن فكرة تلصُّص المرأة الحمراء على أسراره بناها أوقعت في نفسه الاضطراب لأقصى حد. وماذا قصدت بقولها إنني خدمتُ إلهها وسأخدمه ثانية؟ هذا أيضًا أزعجته كثيرًا.

رفع عينيه يرمق المشعل، وتطلع إليه مدَّة طويلة دون أن تطرف عيناه، يُراقب اللهب يتذبذب ويومض. حاول أن يتجاوزَه ببصره، أن يخترق الحجاب النَّاري ويرى لمحةً مما يسكن وراءه... لكنه لم ير شيئًا، لا شيء إلا النَّار، وبعد فترة بدأت عيناه تدمعان.

معميًا عن الحقيقة الإلهية ومتعبًا، تكوّر دافوس على نفسه فوق القشِّ وسلّم نفسه إلى النوم.

بعد ثلاثة أيام -بمعنى أن سجَّان السُّلق جاء مرَّتين وسجَّان الثريد ثلاثًا- سمع أصواتًا خارج الزَّنزانة، فاعتدلَ جالسًا من فوره وأسندَ ظهره إلى الجدار الحجري وأصغى إلى الشُّجار. جديدٌ هذا، تغيير في وتيرة عالمه الثابتة. كانت الجلبة آتيةً من اليسار، من حيث تقود الدَّرجات إلى نور النَّهار، وسمع صوت رجل يزعق ويتوسَّل.

- «... جنون!»، كان الرَّجل يقول إذ ظهرَ أمامه بين حارسين يجُرَّانه وعلى صدريهما القلب النَّاري، وقد سبقهما سجَّان الثريد وصلصلة مفاتيحه، ووراءه السير أكسل فلورنت. بضراعة قال السَّجين: «أكسل، بحقِّ حُبِّك لي دعني! لا يُمكنك أن تفعل هذا. أنا لسْتُ خائنًا». كان رجلًا أكبر سنًّا، نحيلًا طويل القامة ذا شعر أشيب فضي ولحية مدبَّبة ووجهٍ وسيم طويل التوت ملامحه خوفًا. «أين سيليس؟ أين الملكة؟ أطالبُ بأن أراها. فليأخذكم (الآخرون) جميعًا! أطلقوا سراحي!».

لم يُعر الحُرَّاس جعجعته اهتمامًا، وسألَ سجَّان الثريد أمام الزَّنزانة: «هنا؟».

قام دافوس، وفكر لحظةً في أن يهرع من بينهم عندما يفتح الباب، لكنه

وجدَ هذا جنونًا، فالْحُرَّاسُ عددهم كبير ويحملون سيوفًا، وسجَّان الثريد قوي كالثيران.
أوماً السير أكسل للسجَّان باقتضاب، وقال: «فليستمتع كلا الخائنين برفقة الثاني».

بصوتٍ كالصَّيرير صاحَ السَّجين بينما حرَّك السَّجَّان مفتاحه في باب الزَّنْزَانة: «لستُ خائناً!». على الرغم من أنه يرتدي ثيابًا تقليديَّة - سِتْرَةٌ رماديَّة من الصُّوف وسراويل سوداء - نَمَّتْ لكتته عن أنه كريم النَّسب. لكنَّ نَسبه لن يُتقدَّه هنا.

فتحَ السَّجَّان الباب، وأعطى السير أكسل الإذن برأسه، فألقى الحارسان السَّجين في الدَّاخل مباشرةً، وتعثَّر الرَّجل وكادَ يَسْقُط لولا أن دافوس أمسكَه، إلاَّ أنه تملَّص منه في الحال وتقدَّم مترنِّحًا نحو الباب، فقط ليُصَفَّق في وجهه المدلِّل الشَّاحب، فصاح: «لا، لا، لا!!!»، قبل أن ينفد كلُّ ما في ساقيه من قوَّة فجأةً ويخرُّ ببُطءٍ إلى الأرض وهو متمسِّك بالقضبان الحديد. انسحب السير أكسل والحُرَّاس والسَّجَّان ليُغادِروا، وزعقَ السَّجين مخاطبًا ظهورهم: «لا يُمكنكم أن تفعلوا هذا! أنا يد الملك!».
عندها تعرَّفَه دافوس، وقال: «أنت أكستر فلورنت».

التفتَ الرَّجل قائلاً: «مَنْ...».

- «السير دافوس سيورث».

حدَّق اللورد أكستر إليه، وغمغم: «سيورث... فارس البصل. لقد حاولت أن تغتال مليساندرا».

لم يُحاول دافوس الإنكار، وقال: «في (ستورمز إند) كنت ترتدي درعًا من الذهب الأحمر، بزهور مرصعة باللَّازُورْد على واقي الصِّدر»، ومدَّ يده يُساعد الرَّجل على التَّهوض.

نفضَ اللورد أكستر القَشَّ المتسخ عن ملابسه قائلاً: «يجب... يجب أن اعتذر لمظهري أيها الفارس. لقد فقدتُ صناديقي عندما اجتاحت جنود لانستر معسكرنا، ولم أهرب إلاَّ بقميصي المعدني وخواتمي».

فكَّر دافوس الذي لا يملك أصابعه كاملةً حتى: ما زال يضع تلك الخواتم. واصلَ اللورد أكستر دون أن يعي ما يحول ببال دافوس: «لا شكَّ أن مساعد

طاهٍ أو عامل اسطبلاتٍ ما يمشي مختلاً الآن في (كينجز لاندنج) وهو يرتدي
سُترتي المخملية المشرّطة ومعطفي المحلّي بالجواهر، لكن للحرب أهوالها
كما يعلم الجميع. لا شكّ أنك خبرت الخسارة عن نفسك».

- «خسرتُ سفينتي وجميع رجالي وأربعةً من أبنائي».

- «عسى أن... عسى أن يقودهم إله الضياء من الظلام إلى عالم أفضل».

قال دافوس في أعماقه: عسى أن يحكم عليهم (الأب) بالعدل وترحمهم
(الأم)، لكنه احتفظ بدعائه لنفسه، فـ(السبعة) لا مكان لهم في (دراجونستون)
الآن.

واصل اللورد: «ابني آمن في (قلعة المياه الوضاء)، لكنني فقدتُ ابن أخي
على متن (الثورة). السير إمري كان ابن أخي ريام».

كان السير إمري فلورنت هو من قادهم كالأعمى في (النهر الأسود)
بأقصى سرعة للمجازيف، دون أن ينتبه إلى البرجين الحجريين الصغيرين
عند مدخل النهر، وليس من السهل أن ينسأه دافوس. قال وهو يتذكّر آخر
لمحةٍ رآها من (الثورة) وقد ابتلعتهما النار: «ابني ماريك كان رئيس المجذفين
عند ابن أخيك. هل من أخبار عن أيّ ناجين؟».

أجاب حضرة اللورد: «(الثورة) احترقت وغرقت بكلّ رجالها، وضاع
ابنك وابن أخي مع رجالٍ صالحين لا يُحصوا. لقد خسرتنا الحرب نفسها في
ذلك اليوم أيها الفارس».

تذكّر دافوس كلام مليساندرا عن اندلاع أعظم النار من مستصغر الشرر،
وفكّر: الرّجل مهزوم. لا عجب أنه هنا الآن، ثم إنه قال: «جلالته لن يستسلم
أبدأ يا سيّدي».

قال اللورد ألكستر: «حماقة، إنها حماقة»، وعادَ يجلس على الأرض كأنه
لا يقوى على مجهود الوقوف لحظات، وتابع: «ستانيس باراثيون لن يجلس
على العرش الحديدي أبداً. أهي خيانة أن يقول المرء الحقيقة؟ إنها حقيقة
مريرة، لكنها تظلُّ حقيقةً. لقد خسرتُ أسطوله كلّهُ باستثناء سفن اللايسينيين،
وسالادور سان سيؤلّي الأديار بمجرد أن يلّمح شراعاً عليه رمز لانستر،
ومعظم اللوردات الذين دعموا ستانيس إمّا أعلنوا ولاءهم لـجوفري وإمّا
ماتوا...».

- «حتى لوردات (البحر الضيق)؟ اللوردات الذين أقسموا
لـ(دراجونستون)؟».

لوح اللورد آلستر بيده بوهن مجيبًا: «اللورد سلتيجار وقع في الأسر وركع،
ومونفورد فيلاريون مات مع سفنيتها، وصنجلاس أحرقت المرأة الحمراء، وبار
إمون في الخامسة عشرة وبدين وضعيف. أولئك لوردات (البحر الضيق). لم
يتبق مع ستانيس إلا قوة عائلة فلورنت ضد جبروت (هايجاردن) و(صنسبير)
و(كاسترلي روك)، علاوة على معظم لوردات أراضي العواصف الآن أيضًا.
الأمل الوحيد الباقي أن يُحاول استنقاذ شيء بالسلام. هذا كل ما أردت أن
أفعله، فكيف يُسمونها خيانة بحق الآلهة؟».

نهض دافوس عاقدًا حاجبيه، وقال: «ماذا فعلت يا سيدي؟».

- «لم أقارف خيانة، لم تكن خيانة البتة. إنني أحبُّ جلالته ككل رجل
آخر. ابنة أخي ملكته، وظللت مخلصًا له عندما لاذ رجال أكثر حكمة بالفرار.
أنا يده، يد الملك، فكيف يُمكن أن أكون خائنًا؟ لم أرد إلا أن أنقذ حياتنا
و... وشرفنا... نعم»، ولعق الرجل شفثيه، وتابع: «كتبْتُ رسالةً. سالادور
سان أقسم أن لديه رجلًا يستطيع أن يوصلها إلى (كينجز لاندنج)، إلى اللورد
تاويين. حضرة اللورد رجل... رجل عاقل، وشروطي... شروطي كانت
عادلة... أكثر من عادلة».

- «وماذا كانت تلك الشروط يا سيدي؟».

قال اللورد آلستر فجأة: «المكان قدر هنا، وهذه الرائحة... ما هذه
الرائحة؟».

أجاب دافوس مشيرًا: «الدلو. لا يوجد مرحاض هنا. ماذا كانت
الشروط؟».

حدج حضرة اللورد الدلو بهلع، ثم قال: «أن يتخلَّى اللورد ستانيس عن
دعواه للعرش الحديدي ويتراجع عن كل ما قاله عن نغولة چوفري، بشرط
أن يُقبل في سلام الملك ثانيةً ويُصدَّق على سيادته على (دراجونستون)
و(ستورمز إند). تعهدت بأن أفعل المثل مقابل استعادة (قلعة المياه الوضاء)
وجميع أراضيها. خطر لي أن... أن اللورد تاويين سيرى ما في عرضي من
عقل، فلم يزل عليه أن يتعامل مع آل ستارك والرَّجال الحديديين أيضًا.

عرضتُ أن نُفَرِّ الصَّفقة بتزويج شيرين بتومن أخي چوفري»، وهزَّ رأسه مضيقاً: «الشُّروط... إنها أفضل من أيِّ شيء سنناله على الإطلاق. حتى أنت يُمكنك أن ترى هذا، أليس كذلك؟».

قال دافوس: «نعم، حتى أنا». ما لم يُنجب ستانيس ابناً، فزيجة كنتك تعني أن (دراجونستون) و(ستورمز إند) سوف تنتقلان إلى تومن ذات يوم، وهو ما من شأنه أن يسرَّ اللورد تايوين لا ريب، وفي تلك الأثناء سيحتفظ آل لانستر بشيرين كرهينة لضمان ألا يتمرّد ستانيس مجدداً. «وماذا قال جلالته حين عرضت عليه هذه الشُّروط؟».

- «إنه مع المرأة الحمراء طيلة الوقت... وأخشى أنه ليس بكامل عقله. هذا الكلام عن تيين حجري... إنه جنون، أو كذُّ لك، جنون خالص. ألم نتعلّم شيئاً من إريون اللهب الساطع؟ من المشعوذين التسعة؟ من الخيميائيين؟ ألم نتعلّم شيئاً من (قلعة الصَّيف)؟ قلتُ لأكسل إن لا خير يأتي أبداً من أحلام التنانين تلك. وسيلتي كانت أفضل، أضمن، وستانيس أعطاني ختمه، أعطاني الإذن في أن أحكم. اليد يتكلّم بصوت الملك».

ليس دافوس من رجال الحاشية، ولم يُحاول أن يُخفّف وطأة كلماته، وهكذا قال: «ليس في هذا. ليس من شيمة ستانيس أن يستسلم ما دام يعلم أن دعواه عادلة، ولا يُمكنه أن يرجع في كلامه عن چوفري وهو واثق بأنه صحيح. وبالنسبة للزواج، فقد وُلِدَ تومن من زنى المحارم نفسه كچوفري، وجلالته يُفضّل أن تموت شيرين على أن تتزوَّج مثله».

راح عرق في جبهة فلورنت ينض وهو يقول: «ليس لديه خيار!».

- «أنت مخطئ يا سيّدي، فيمكنه أن يختار أن يموت ملكاً».

- «ونموت معه؟ أهذه رغبتك يا فارس البصل؟».

- «لا، لكني رجل الملك، ولا أعقدُ السَّلام دون أن يأذن لي».

حدّق اللورد ألكستر إليه بعجزٍ طويلاً، ثم أجهش بالبكاء.

چون

جَنَّت اللَّيْلَةُ الْأَخِيرَةَ سِوَاءَ بِلَاقَمِرٍ، لَكِنْ عَلَى الْأَقْلِ كَانَتْ السَّمَاءُ صَافِيَةً
عِنْدَمَا قَالَ چُونُ لِلثَّنِيِّينَ الْوَاقِفِينَ عَلَى مَدْخَلِ الْكَهْفِ: «سَأَصْعَدُ التَّلَّ لِأَبْحَثَ
عَنْ چُوسْتِ»، فَمَدَمُوا وَتَرَكَوهُ يَمْرُؤً.

فَكَرَّ وَهُوَ يَصْعَدُ الْمُنْحَدَرَ وَسَطَ أَشْجَارِ الصَّنُوبِ وَالْتَنُّوبِ وَالذَّرْدَارِ: نَجُومٌ
كَثِيرَةٌ لِلْغَايَةِ. فِي صِبَاهٍ فِي (وَيَنْتَرِفِل) عِلْمُهُ الْمَايَسْتَرُ لَوْيْنِ مَسَاقِطِ النُّجُومِ
وَمَغَارِبِهَا، وَعِلْمُهُ أَسْمَاءُ بَرُوجِ السَّمَاءِ الْإِثْنِي عَشَرَ وَالتَّجَمَّاتِ الْأَبْرَزِ فِي كُلِّ
مِنْهَا، وَبِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُعَيِّنَ مَنَازِلَ الرَّحَالَةِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ تُقَدِّسُهُمُ (العقيدة)،
فَهُوَ صَدِيقٌ قَدِيمٌ لـ (التَّيْنِ الْجَلِيدِيِّ) وَ(قِطِ الظِّلِّ) وَ(عِذْرَاءِ الْقَمَرِ) وَ(سَيْفِ
الصَّبَاحِ)، وَكُلِّهَا أَسْمَاءٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِيجِرِيَّتِ، مَعَ أَنْ ثَمَّةَ خِلَافًا بَيْنَهُمَا
عَلَى أَسْمَاءِ بَعْضِ الْكُوكَبَاتِ الْأُخْرَى. نَزَعَ أَعْيُنُنَا إِلَى النُّجُومِ نَفْسَهَا وَنَرَى
أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً تَمَامًا. بِالنِّسْبَةِ لَهَا (تَاجُ الْمَلِكِ) اسْمُهَا (المهد)، وَ(الفحل) هِيَ
(اللورد ذو القرنين)، وَالتَّجْمُ الْمَسْمِيُّ (الرَّحَالُ الْأَحْمَرُ) الَّذِي يُبَشِّرُ السَّيْتُونَاتِ
بَأَنَّهُ مَقْدَسٌ عِنْدَ الْهَيْمِ (العريب) اسْمُهُ هُنَا (اللِّصُّ)، وَقَدْ أَكَّدَتْ إِيجِرِيَّتُ أَنَّهُ
عِنْدَمَا يَقَعُ (اللِّصُّ) فِي (عِذْرَاءِ الْقَمَرِ) فَهَذَا وَقْتُ مَوَاتٍ لِأَنَّهُ يَخْتَطِفُ الرَّجُلَ
امْرَأَةً، وَأَضَافَتْ: «كَاللَّيْلَةِ الَّتِي اخْتَطَفْتَنِي فِيهَا وَكَانَ (اللِّصُّ) فِي أَوْجِ أَلْقِهِ».

قَالَ: «لَمْ تَكُنِ نَيْتِي أَنْ اخْتَطَفِكِ، وَلَمْ أَعْرِفْ حَتَّى أَنْكِ فَتَاةٌ إِلَى أَنْ وَضَعْتُ
سَكِّينِي عَلَى عُنُقِكِ».

رَدَّتْ إِيجِرِيَّتُ بَعْنَادًا: «إِذَا قَتَلْتَ رَجُلًا وَلَمْ تَكُنِ تِلْكَ نَيْتِكَ، فَهَلْ يَخْتَلِفُ
مَوْتُهُ فِي شَيْءٍ؟». لَمْ يَعْرِفْ چُونُ أَحَدًا بِهَذَا الْعِنَادِ قَطُّ، بِاسْتِنَاءِ أُخْتِهِ الصَّغِيرَةِ
أَرِيَا رِبْمَا. أَمَا زَالَتْ أُخْتِي؟ وَهَلْ كَانَتْ أَصْلًا؟ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ آلِ سِتَارِكِ حَقًّا،

بل مجرّد ابن غير شرعي بلا أم للورد إدارد، ولا مكان له في (وينترفل) أكثر من ثيون جراًيچوي، لكن حتى هذا ضاع منه، فمعنى أن يحلف الرّجل يمين حرس الليل أنه يتخلّى عن عائلته القديمة وينضمّ إلى أخرى جديدة... غير أن چون سنو خسره هؤلاء الإخوة أيضاً.

وجد جوست على قمة التل كما توقّع. لا يعوي هذا الذئب الأبيض أبداً، لكن شيئاً ما يجتذبه إلى الأعالي دوماً على الرغم من ذلك، فيقبع هناك على عجيزته وتتصاعد أنفاسه كضباب أبيض بينما تتشرب عيناه الحمران والنجوم.

جثا چون على رُكبةٍ واحدةٍ إلى جوار الذئب الرّهب، وسأله وهو يحكّ الفرو الأبيض الكثيف عليّ عنقه: «هل تُطلق عليها أسماء من عندك أيضاً؟ الأرنب البرّي؟ الطّبية؟ الذئبة؟». لعق جوست وجهه ليحتكّ لسانه الخشن الميتل بقشور الجروح التي خلّفها براثن النّسر على وجنة چون، ففكر: ذلك الطائر وضع علامته على كلينا، ثم إنه قال بهدوء: «جوست، غداً سنتسلق (الجدار). لا توجد سلالم هنا أو قفص ورافعة، لا وسيلة لأعبر بك إلى الجانب الآخر. يجب أن نفترق، هل تفهم؟».

في الظلام تبدو عينا الذئب الرّهب الحمران سوداوين، وقد مرّغ خطمه في عنق چون بصمته المعتاد وأنفاسه تخرّج بخاراً ساخناً. يقول الهمج إن چون سنو وازج، لكن إذا كان كذلك حقاً فهو وازج رديء. إنه لا يدري كيف يرتدي جلدة الذئب كما كان أورل يفعل مع النّسر قبل أن يموت. في مرّة رأى چون في منامه أنه جوست، يتطلّع من أعلى إلى وادي (النّهر اللّبني) حيث جمع مانس رايدر شعبه، وأنّضح أن ذلك الحلم رؤيا حقيقية، لكنه لا يحلم الآن، وليس في جعبته إلا الكلام.

قال مطوّفاً وجه الذئب بيديه وناظراً بعُمق في هاتين العينين: «لا يُمكنك أن تأتي معي. عليك أن تعود إلى (القلعة السوداء)، هل تفهم؟ (القلعة السوداء). هل تعرف كيف تعود؟ هل تعرف الطريق إلى الدّيار؟ اتبع الجليد شرقاً وشرقاً نحو الشّمس وستجدها. سيعرفونك هناك، وربما تُنذرهم عودتك». كان قد فكّر في كتابة تحذير يحمله جوست، لكن ليس في حوزته حبر أو ورق أو حتى ريشة كتابة، ومخاطرة اكتشاف أمره كبيرة للغاية. «سألقاك ثانيةً في

(القلعة السوداء)، لكن يجب أن تعود بمفردك. على كلِّ منا أن يصطاد وحده بعض الوقت، وحده».

تملص الذئب الرهيب من يديّ چون وقد أرهفَ أذنيه، وفجأة اندفع يركض مبتعداً، ووثبَ عبر أكمةٍ متشابكة وفوق جذع ميت وانطلقَ نازلاً التلّ كشُعاعٍ شاحب بين الأشجار، فتساءلَ چون: أهو ذاهبٌ إلى (القلعة السوداء) أم يطاردُ أربنا؟ تمنى لو علمَ الجواب وهو يخشى أنه أخفق كوارج كما أخفقَ كأخ محلفٍ وجاسوس.

هفتَ الرّيح بين الأشجار محمّلةً برائحة إبر الصنوبر وشدّت معطفه الأسود الباهت. كان يرى (الجدار) يرتفع عاليًا داكنًا إلى الجنوب، ظلًّا عظيمًا يحجب النجوم، وجعلت الأرض المتحدّرة الوعرة چون يُفكر أنهم في مكانٍ ما بين (برج الظلال) و(القلعة السوداء) بلا شك، وغالبًا أقرب إلى الأولى. منذ أيام وهم يشقون طريقهم جنوبًا وسط بحيرات عميقة تمتدُّ كأصابع طويلة رفيعة بمحاذاة قيعان الأودية الضيقة، بينما تتزاحم الأخاديد الصوّان والتلال المكلمة بالصنوبر على الجانبين. تلك التضاريس تجعل الرُّكوب بطيئًا، وإن كانت تُيسّر التمويه على من يرغبون في الاقتراب من (الجدار) دون أن يراهم أحد. يُيسّره على هجّانة الهمج، مثلنا... مثلي.

وراء (الجدار) تقع (الممالك السبع) وكلُّ ما أقسم أن يحميه. لقد حلفَ اليمين ونذرَ حياته وشرفه، والحق أن من المفترض أن يكون واقفًا حراسةً على القمّة في هذه اللحظة، المفترض أن يرفع بوقًا إلى شفّته ويدعو حرس الليل إلى السلاح. لكنه لا يحمل بوقًا، ومع أنه لا يحسب أن سرقة واحدٍ من الهمج ستكون صعبةً، فما الذي سيُحقّقه ذلك؟ حتى إذا نفخ فيه، فليس هناك من يسمع. (الجدار) يمتدُّ مئة فرسخ، والحرس أعدادهم قليلة على نحوٍ يرثى له، وثلاثة فقط من معاقليهم لم يُهجّر، وقد يكون أقرب أخ من هنا على مسافة أربعين ميلًا. ليس هناك إلا چون، هذا إذا كان لا يزال أحيانًا...

كان عليّ أن أحاول أن أقتل مانس رايدر فوق (القبضة)، حتى إذا دفعتُ حياتي ثمنًا. هذا ما كان كورين ذو النصف يد ليفعله، لكن چون تردّد وأفلتت منه الفرصة، وفي اليوم التالي تحركَ مع الماجنر ستير وچارل وأكثر من مئة من الثنّيين والمغيرين المنتقين بعناية. قال لنفسه إنه يتحجّن المناسبة لا

أكثر، وعندما تأتي اللحظة سيفلت منهم ويهرع إلى (القلعة السوداء)، لكن اللحظة لم تأت قط. هكذا يستريحون كل ليلة في إحدى قرى الهمج الخاوية، ودائمًا يُعيّن ستير دستة من الثنّيين لحراسة الخيول، كما أن چارل يُراقبه بريبة مستمرة، وإيجريت لا تتعد عنه أبدًا في الليل أو النهار.

قلبان ينبضان كواحد. رنت كلمات مانس رايدر السّاخرة في أذنيه بوقع مرير. نادرًا ما أحسّ چون بهذه الحيرة، لكنه قال لنفسه أول مرّة حين انسلت إلى جواره تحت الأغطية: ليس لديّ خيار. إذا رفضتها فستعرف أنني كاذب. إنني ألعبُ الدّور الذي قال لي ذو النّصف يد أن ألعبه.

جسده لعبَ الدّور بلهفة. شفتاه على شفّتها، يده تتسلّل تحت قميصها المصنوع من جلد الطّبي إلى نهدها، ذكره الذي انتصبَ عندما مرّرت جبل زهرتها عليه من فوق ملابسهما. لحظتها فكر: قسّمي، وتذكّر بستان الويروود الذي رددّه فيه، دائرة الأشجار البيضاء العظيمة التّسع والوجوه الحمراء المحفورة عليها تشهد وتُصغي. لكن أصابعها كانت تحلّ أربطة سراويله، ولسانها في فمه، ويدها تمتدّ داخل ثيابه الدّاخليّة وتُخرجه، ولم يُعد يرى أشجار الويروود، لم يُعد يرى إلّاها. عَضّت عنقه ومرّغ وجهه في عنقها ودفن أنفه في شعرها الأحمر الغزير. محظوظة، إنها محظوظة، قبّلتها النّار. همست وهي تقوده إلى داخلها: «أليس هذا جميلًا؟». كانت مبتلةً تمامًا في الأسفل، وواضح جدًّا أنها ليست عذراء، لكن چون لم يعبأ. قسّمه، بكورتها، لا شيء من هذا همّه، لا شيء إلاّ حرارتها وفمها على فمه والإصبع الذي قرصت به حلمته. عادت تقول: «أليس هذا جميلًا؟»، ثم: «ليس بسرّعة، أوه، ببطء، نعم، هكذا، هكذا، نعم، جميل، جميل، لست تعلم شيئًا يا چون سنو، لكن يُمكنني أن أريك. أسرع الآن، نعممم».

بعدها حاول أن يُذكر نفسه قائلاً لها: مجرد دور، إنني ألعبُ دورًا لا أكثر. كان عليّ أن أفعلها مرّةً لأثبتُ أنني حثثُ بقسّمي، كان عليّ أن أجعلها تثق بي. لا حاجة لأن يفعلها ثانيةً إذن. إنه ما زال رجلاً في حرس الليل وابن إدارد ستارك، وقد فعل ما تحتم عليه أن يفعله وأثبت ما احتاج إلى إثباته.

على أن الإثبات كان رائع العذوبة حقًا، وخلدت إيجريت إلى النّوم إلى جواره مسندةً رأسها إلى صدره، وكان هذا جميلًا أيضًا، جميلًا لدرجة في

منتهى الخطورة. ومن جديد ففكر في أشجار الويروود والكلمات التي رَدَّدها أمامها. كانت مرَّةً واحدةً ضروريَّةً. حتى أبي زَلَّ مرَّةً لمَّا نسيَ عهودَ زواجه وأنجبَ نغلاً. أقسمَ چون لنفسه أن الأمر لن يكون كذلك معه. لن يحدث هذا ثانيةً أبداً.

تطارحاً الغرام مرَّتين أخريين ليلتها، ثم ثالثةً في الصُّباح عندما استيقظت لتجده منتصباً. كان الهمج ينهضون من نومهم، ولم يستطع كثيرون منهم إلا أن يلحظوا ما يجري تحت كومة الفرو. قال لهما چارل أن يسرعا، قبل أن يضطرَّ إلى أن يسكب عليهما دلوًا من الماء، وبعدها فكر چون: ككليين يتسافدان. أهدا ما صارَ إليه؟ بإصرار قال صوت بعيد في أعماقه: أنا رجل في حرس الليل، لكنه يزداد خفوتاً كلَّ ليلة، وعندما تُقبَّلُ إيجريت أذنه أو تعضُّ عنقه لا يسمعه على الإطلاق. أهدا ما حدث مع أبي؟ أكان ضعيفاً هكذا مثلي حين لوَّث شرفه في فراش أمي؟

أدرك بغتةً أن شيئاً ما يصعد التلُّ من ورائه، وحسبَ لحظةً أن جوست قد عاد، لكن الذئب الرهيب لا يُصدر تلك الجلبة أبداً. استلَّ چون مخلبه الطويل بسحبة واحدة ناعمة، لكن القادم كان مجرد واحدٍ من الثنين، رجلاً عريض الصدرٍ يعتمر خوذةً من البرونز قال له: «سنو، تعال، ماجرير يريد».

يتكلَّم أهل (ثن) اللغة القديمة، وأغلبهم لا يعرف إلا كلمات قليلة من العامية، ومع أن چون لا يُبالي كثيراً بما يُريده الماجر، لكن لا جدوى من الجدال مع شخص يكاد لا يفهمه، فتبع الرجل إلى سفح التلِّ.

كان مدخل الكهف عبارة عن صدع في الصَّخر يتسع بالكاد لمرور حصان، وشبه متوار خلف شجرة صنوبرٍ جُندي، كما أنه يقع إلى الشَّمال، وهو ما يحول دون أن يرى أحد وهج النَّار في الدَّاخِل من فوق (الجدار)، فإذا تصادف أن مرَّت دوريةٌ على القمَّة الليلة، فلن ترى إلا تلالاً وأشجاراً ولمعةً جليديَّةً لضوء النُّجوم على صفحة بحيرةٍ نصف متجمِّدة. لقد أحسنَ مانس رايدر التَّخطيط لضربته.

في داخل الصَّخرة يهبط الممرُّ عشرين قدماً قبل أن يفتح على مساحةٍ باتَّساع القاعة الكبرى في (وينترفل). اشتعلت بؤر نار الطهو بين الأعمدة، يتصاعد دُخانها لیسود السَّقْف الحجري، ورُبِّطت الخيول معاً عند أحد

الحوائط إلى جوار بركة ضحلة، وفي منتصف الأرضية يفتح هبوط أرضي على ما قد يكون كهفًا أكبر في الأسفل، لكن العتمة جعلت التمييز صعبًا، وإن سمعَ چون خريبر جدولٍ يجري تحت الأرض.

مع الماجنر كان چارل، إذ أعطاهما مانس القيادة المشتركة، وقد لاحظَ چون مبكرًا أن ستير ليس راضيًا عن هذا إطلاقًا. مانس رايدر نعتَ الشَّاب الأسمر بحيوان قال المدلل، وهي أخت دالا ملكته، أي أن چارل يُعدُّ بشكل ما صهرًا لملك ما وراء الجدار. من الواضح أن الماجنر يَمُتُّ أن يُقاسِمَهُ أحد السُّلطة، سيِّما أنه جلبَ مئةً من الثَّنين، أي خمسة أضعاف رجال چارل، وعليه فإنه يتصرَّف غالبًا كأن القيادة له وحده. لكن چون يعلم أن الشَّاب هو من سيَعْبُرُ بهم فوق الجليد، فچارل يشنُّ الغارات منذ سنوات على الرغم من أن سِنَّهُ لا تتعدَّى العشرين، وتسلَّق (الجدار) عدَّة مرَّات مع ألفين قاتِل الغِربان والبكَّاء وأمثالهما، وفي الفترة الأخيرة مع مجموعته الخاصَّة. قال الماجنر بلا مواربة: «چارل حدَّرني من دوريات الغِربان في الأعلى. أخبرني بما تعرفه عن هذه الدَّوريات».

لاحظَ چون أنه قال: أخبرني بدلًا من: أخبرنا، مع أن چارل يقف إلى جواره. لم يكن ليستمتع بشيءٍ لحظتها كأن يرفض المطلب الجاف، لكنه يعلم أن ستير سيقتله مع أول لمحة غدر، ثم يقتل إيجريت أيضًا لجريمة كونها امرأته، فأجاب: «هناك أربعة رجال في كلِّ دورية، جوَّالان وبنَّاءان. مهمَّة البنَّائين أن يلاحظوا الصُّدوع والذَّوبان وغيرهما من المشاكل في بنية (الجدار)، بينما يبحثُ الجوّالة عن أيِّ أثرٍ للأعداء. يركبون البغال».

مال الرَّجل عديم الأذنين إلى الأمام قائلاً: «البغال؟ البغال بطيئة».

- «بطيئة لكن أكثر ثباتًا على الجليد. غالبًا ما تتحرَّك الدَّوريات على قَمَّة (الجدار)، وبخلاف (القلعة السوداء) لم تُفرَّش الممرَّات بالحصى منذ سنواتٍ طويلة. البغال تُستولَد في (القلعة الشَّرقيَّة) وتُدَرَّب على هذه المهمَّة تحديداً».

- «غالبًا تتحرَّك على القَمَّة لكن ليس دائماً؟».

- «نعم. دورية من كلِّ أربع تمضي بمحاذاة القاعدة بحثًا عن شقوقٍ في الجليد أو علامات حفر».

أوماً الماجِرَ برأسه، وقال: «حتى في (ثِن) البعيدة نعرف حكاية آرسون بلطة الجليد ونفقه».

چون أيضًا يعرف الحكاية. كان آرسون بلطة الجليد قد توَعَّل حتى متَنَصَّف (الجِدَار) عندما عَثَرَ جَوَّالَة من (قلعة الليل) على نفقه، فلم يُحاوِلوا أن يُزِعِجوه وهو يَحْفُر، واكتفوا بأن سَدُّوا الطَّرِيق وراءه بالجليد والحجارة والتَّلج. اعتادَ إِد الكُتِيب أن يقول إنك إذا ضغطت أذنك على وجه (الجِدَار) ستسمع آرسون لا يزال يُعَمِل بلطته في الجليد.

- «متى تَخْرُج تلك الدَّورِيَّات؟ وبأيِّ معدَّل؟».

هَزَّ چون كَتَفِيه معجيبًا: «لا يوجد جدول ثابت. سمعتُ أن حضرة القائد كارجيل كان يُرْسِلها كلَّ ثلاثة أيام من (القلعة السَّوداء) إلى (القلعة الشَّرقيَّة) على البحر، وكلَّ يومين من (القلعة السَّوداء) إلى (بُرج الظلال)، لكن أعداد الحرس كانت أكبر أيامها. حضرة القائد مورمونت يُفَضِّل أن يُنَوِّع عدد الدَّورِيَّات وأيام خروجها، ليَصعَّب على أيِّ أحد أن يُلَمَّ بذهابها وإيابها، وأحيانًا يُرْسِل الدُّب العجوز قوَّة أكبر إلى إحدى القلاع المهجورة مدَّة أسبوعين أو قمر». يعرف چون أن عمَّه استحدثَ هذا الأسلوب، أي شيء يُربِك العدوَّ.

سألَه چارل: «هل (الباب الحجري) مأهولة في الوقت الحالي؟ أو (الحارس الرَّمادي)؟».

إذن فحن بين هاتين القلعتين، أليس كذلك؟ حرصَ چون على أن يُحافظ على ملامحه جامدَّة، وأجاب: «فقط (القلعة الشَّرقيَّة) و(القلعة السَّوداء) و(بُرج الظلال) كانت مأهولةً عندما تركتُ (الجِدَار)، ولا أدري ماذا فعل باون مارش أو السير دينس منذ ذلك الحين».

سألَ ستير: «كم غُرَابًا تَبَقَّى في هذه القلاع؟».

- «خمسمئة في (القلعة السَّوداء)، ومئتان في (بُرج الظلال)، وربما ثلاثمئة في (القلعة الشَّرقيَّة)». أضافَ چون ثلاثمئة رجلٍ إلى العدد مفكرًا: ليت الأمر بهذه السهولة...

إلا أن چارل لم ينخدع، وقال لستير: «إنه يكذب، أو أنه تضمَّن من فقدوهم فوق (القبضة)».

قال الماجنر منذراً: «لا تحسبني مانس رايدر أيها الغراب. إذا كذبت عليّ سأقطع لسانك».

ردّ چون وهو يقبض ويبسط يده المحروقة: «لستُ غرابًا، ولا أقبلُ أن أنعت بالكذب».

تفحصه ماجنر (ثن) بعينه الرّماديتين الباردتين، قبل أن يقول: «سنعرف أعدادهم قريبًا. اذهب. سأستدعيك إذا كانت لديّ أسئلة أخرى».

حتى چون رأسه بجمود وذهب مفكرًا: لو أن الهمج كلهم مثل ستير لكانت خياتهم أسهل. لكن الثنّيين ليسوا كباقي شعب الأحرار، والماجنر يزعم أنه آخر البشر الأوائل، ويحكم بقبضة من حديد. أرضه الصّغيرة المسماة (ثن) عبارة عن وادٍ جبلي عالٍ وسط الذرى في أقصى شمال (أنياب الصّقيع)، يُحيط بها أهل الكهوف وذوو الحوافر والعمالقة وعشائر الأنهار الجليديّة آكلة البشر. قالت إيجريت إن الثنّيين محاربون ضارون، وأنهم يعدّون ماجنرهم إلهاً، وهو ما صدّقه چون، فعلى عكس چارل وهارما وذوي القميص المُخشخش، يتمنّع ستير بطاعةٍ مطلقة من رجاله، ولا ريبُ أن هذا الانضباط الشّديد جزء من السّبب الذي حدا بمانس إلى اختياره لتسلق (الجدار).

مرّ بالثنّيين الجالسّين على خوداتهم البرونز المستديرة حول بؤر النّار متسائلًا: أين ذهبت إيجريت؟ وجدّ عدّتها وعدّته معًا، ولا أثر للفتاة نفسها، لكن جريج التّيس قال له مشيرًا إلى مؤخّرة الكهف: «أخذت مشعلًا وذهبت في هذا الاتجاه».

تبع چون إصبع الرّجل ووجد نفسه في ردهةٍ خلفيّة معتمة، يمشي في متاهةٍ من الأعمدة والهوابط. كان يُفكر أنها لا يُمكن أن تكون هنا عندما سمع ضحككتها، فالتفت ناحية الصّوت، لكن بعد عشر خطواتٍ لا أكثر وجدّ نفسه عند نهايةٍ مسدودة، يُواجه حائطًا مصمّمًا من الحجر الجيري المتكلس امتزج فيه الوردي بالأبيض. بارتباكٍ عادٍ أدراجه، ثم إنه رأى الفجوة المظلمة تحت بروز من الصّخر المبتل، فجنّثا عند الحافة مصغيًا وسمع خرير مياهٍ خافت، فقال: «إيجريت؟».

جاءه صوتها مصحوبًا بصدّي خفيف: «هنا».

اضطرّ چون إلى الرّحف نحو دستةٍ من الخُطوات قبل أن ينفث الكهف

من حوله، ولمَّا نهَضَ استغرقت عيناه لحظات حتى تكيفتا على الإضاءة. كانت إيجريت قد أحضرت مشعلًا هو مصدر الضوء الوحيد، وتقف إلى جوار شلالٍ صغير يتدفق من شقِّ في الصخر إلى بركةٍ واسعة، وقد انعكس اللهب الأصفر والبرتقالي على المياه الخضراء الباهتة. سألتها: «ماذا تفعلين هنا؟».

أجابت مشيرةً بالمشعل: «سمعتُ صوت المياه وأردتُ أن أرى عُموق الكهف. ثمة ممر ينزل إلى أسفل أكثر، قطعْتُ فيه مئة خطوة قبل أن أعود».

- «نهايته مسدودة؟».

- «لستَ تعلم شيئًا يا چون سنو. إنه يمتدُّ ويمتدُّ ويمتدُّ. هناك مئات الكهوف في هذه التلال، كلها متصلة في الأعماق، بل وهناك طريق تحت جداركم، (طريق جورن)».

- «جورن. جورن كان ملك ما وراء الجدار».

- «نعم، بالمناسبة مع أخيه جندل قبل ثلاثة آلاف عام، ومعا قادا جيشًا من شعب الأحرار عبر الكهوف والحرس غافلون تمامًا، لكن حين خرجوا انقضَّ عليهم ذئاب (ويترفل)».

قال چون متذكرًا: «دارت معركة. جورن قتل الملك في الشمال، لكن ابنه التقط رايته وأخذ التاج من على رأسه، وقتل جورن بنفسه».

- «وأيقظ تقارع السيوف الغربان في قلاعهم وخرجوا مرتدين الأسود ليهاجموا جيش الأحرار من المؤخرة».

- «نعم. واجه جندل الملك إلى الجنوب وجنود أومبر إلى الشرق والحرس إلى الشمال. هو أيضًا مات».

قالت: «لستَ تعلم شيئًا يا چون سنو. جندل لم يمُت، بل شقَّ طريقه وسط الغربان وقاد قومه إلى الشمال وفي أعقابهم عواء الذئاب، لكن جندل لم يكن يعرف الكهوف كجورن، وأخذ منعطفًا خطأ»، وحرَّكت المشعل إلى الأمام والخلف لتتوَّأب الظلال وتراقص متابعه: «تعمَّق وتعمَّق، وحين حاول أن يعود أدراجه انتهت الطرق التي بدت مألوفة بالحجارة بدلًا من السماء. سرعان ما بدأت المشاعل تنطفئ واحدًا تلو الآخر، حتى لم يُعد هناك إلا الظلام. لم ير أحد قوم جندل ثانية، لكن في سكون الليل يُمكنك أن تسمع

أطفال أطفال أطفالهم يكون تحت التلال، ما زالوا يبحثون عن الطريق إلى أعلى. أصغ. هل تسمعهم؟».

لم يسمع چون إلا المياه الساقطة وطققة اللهب، وقال: «والطريق الذي يمرُّ تحت (الجدار)، هل ضاع أيضًا؟».

- «البعض بحثَ عنه، ومن يتعمَّقون كثيرًا يجدون أطفال جندل، وأطفال جندل دائمًا جوعى»، وابتسمت ووضعت المشعل على صخرة وتقدّمت منه، وعصّت عنقه هامةً: «لا يوجد ما يؤكّل في الظلام إلا اللحم».

دفنَ چون وجهه في شعرها وأفعم أنفه برائحتها، وقال: «كأنك العجوز نان تحكي لبران قصّة عن الوحوش».

لكمته إيجريت في كتفه قائلةً: «أنا عجوز؟».

- «أنت أكبر مني».

- «أجل، وأكثر حكمةً. لست تعلم شيئًا يا چون سنو»، ودفعتة متراجعةً وخلعت صدرتها المصنوعة من جلد الأرنب.

- «ماذا تفعلين؟».

- «أريك كم أنا كبيرة»، وحلّت أربطة قميصها المصنوع من جلد الظبي وألقته جانبًا، ثم خلعت قمصانها الداخليّة الصوف الثلاثة معًا مضيئةً: «أريدك أن تراني».

- «لا يجدر بنا...».

قاطعته: «بل يجدر»، وترجرج نهداها وهي تقف على قدم واحدة لتخلع فردة حذاءها، ثم تثب منها إلى الأخرى لتخلع الفرده الثانية. كانت حلمتها دائرتين ورديتين ودرتيتين واسعتين، وقالت إيجريت وهي تُنزل سراويلها المصنوعة من جلد الخراف: «وأنت أيضًا. إذا أردت أن تراني فعليك أن تُريني نفسك. لست تعلم شيئًا يا چون سنو».

سمع نفسه يقول وقد نسي قسمة وشرفه تمامًا: «أعلمُ أنني أريدك». وقفت أمامه عاريةً كيوم ميلادها، وأحسّ بذكره صلبًا كالصخور المحيطة بهما. كان قد ولجها عشرات المرّات بالفعل، لكن دائمًا تحت الأغطية والآخر من حولهم، فلم يرَ كم هي جميلة حقًا. ساقاها ناحلتان وإنما قويتا العضلات، والشعر على ملتقى فخذيهما أكثر احمرارًا من الذي على رأسها. أيجعله هذا

جالِبًا لِلْحَظِّ أَكْثَرُ؟ سَجَبَهَا إِلَيْهِ قَائِلًا: «أَحَبُّ رَائِحَتِكَ، أَحَبُّ شَعْرِكَ الْأَحْمَرِ، أَحَبُّ ثَغْرِكَ وَقُبْلَاتِكَ، أَحَبُّ ابْتِسَامَتِكَ وَأَحَبُّ ثَدْيِكَ»، وَقَبْلَهُمَا وَاحِدًا تَلُو الْأَخْرَ، وَتَابِعَ: «أَحَبُّ سَاقِيكِ النَّحِيلَتَيْنِ وَمَا بَيْنَهُمَا»، وَرَكَعَ لِيُقَبِّلَهَا هُنَاكَ أَيْضًا، بِخَفَّةٍ عَلَيَّ جَبَلِ زَهْرَتِهَا فِي الْبَدَايَةِ، لَكِنْ إِجْرِيَتْ بَاعَدَتْ بَيْنَ سَاقِيهَا قَلِيلًا وَرَأَى اللَّوْنَ الْوَرْدِي فِي الدَّاحِلِ وَقَبْلَهُ أَيْضًا وَتَذَوَّقَهَا، فَأَطْلَقَتْ شَهْقَةً خَافَتَهُ وَهَمَسَتْ: «إِذَا كُنْتُ تُحِبُّنِي لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، فَلِمَ لَا تَزَالُ تَرْتَدِي ثِيَابَكَ؟ لَسْتُ تَعْلَمُ شَيْئًا يَا چُونِ سَنُو، لَسْتُ... أَوْه، أَوْه، أَوْههه!». .

بَعْدَهَا لَاحَ عَلَيْهَا الْخَجَلُ، أَوْ أَقْرَبَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّابَهَا مِنْ خَجَلِ، وَقَالَتْ وَهِيَ مَتَمِّدَّةٌ مَعًا عَلَى كَوْمَةِ ثِيَابِهَا: «ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي فَعَلْتَهُ بِ... بِفَمِكَ»، وَتَرَدَّدَتْ قَبْلَ أَنْ تُكْمِلَ: «أَهَذَا... أَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ اللَّوْرَدَاتُ مَعَ اللَّيْدِيَهَاتِ فِي الْجَنُوبِ؟».

- «لَا أَظُنُّ». لَمْ يَسْبِقْ أَنْ أَخْبَرَ أَحَدَ چُونِ بِمَا يَفْعَلُهُ اللَّوْرَدَاتُ مَعَ اللَّيْدِيَهَاتِ.

«أَرَدْتُ... أَنْ أَقْبَلِكَ هُنَاكَ فَحَسْبُ، وَبَدَأَ أَنْ هَذَا يَرُوقُ».

- «نَعَمْ... رَاقِنِي قَلِيلًا. أَلَمْ تُعَلِّمِكِ وَاحِدَةً هَذَا؟».

- «لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ وَاحِدَةً غَيْرِكَ».

قَالَتْ مَعَابَثَةٌ: «عِذْرَاءُ، كُنْتُ عِذْرَاءُ».

قَرَصَ حَلْمَتِهَا الْأَقْرَبَ إِلَيْهِ مِدَاعِبًا، وَقَالَ: «كُنْتُ رَجُلًا فِي حَرَسِ اللَّيْلِ». سَمِعَ نَفْسَهُ يَقُولُ: كُنْتُ، فَمَاذَا يَكُونُ الْآنَ؟ فليدعه مِنَ التَّفْكِيرِ فِي هَذَا. «هَلْ كُنْتُ عِذْرَاءُ؟».

اعْتَدَلَتْ مُسْتَنَدَةً إِلَى مِرْفَقِهَا مَجِيئَةً: «أَنَا فِي التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ، وَزَوْجَةُ حَرْبَةٍ، وَقَبْلَتَنِي النَّارُ، فَكَيْفَ أَظَلُّ عِذْرَاءُ؟».

- «مَنْ كَانَ؟».

- «صَبِيًّا فِي احْتِفَالِ قَبْلِ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ، أَتَى مَعَ إِخْوَتِهِ لِلتَّجَارَةِ، وَكَانَ شَعْرُهُ مِثْلِي، قَبْلَتَهُ النَّارُ، فَخَطَرَ لِي أَنَّهُ سَيَجْلِبُ الْحَظَّ، لَكِنْ أَنْضَحَ أَنَّهُ ضَعِيفٌ، فَعِنْدَمَا عَادَ لَيْسَرَقْنِي كَسَرَ رَايِكَ ذُو الْحَرْبَةِ الطَّوِيلَةَ ذِرَاعِهِ وَجَعَلَهُ يُؤَلِّي الْأَدْبَارَ، وَلَمْ يُحَاوِلْ ثَانِيَةً بَعْدَهَا».

سَأَلَ چُونِ شَاعِرًا بِالرَّاحَةِ: «لَمْ يَكُنْ رَايِكَ إِذْنًا؟». إِنَّهُ يُحِبُّ ذَا الْحَرْبَةِ الطَّوِيلَةَ بِوَجْهِهِ الْقَبِيحِ وَأَسْلُوبِهِ الْوَدُودِ.

لكمته قائلة: «هذا إثم. أيمكنك أن تُضاجع أختك؟».

- «رايك ليس أذاك».

- «إنه من قريتي. لستَ تعلم شيئاً يا چون سنو. الرَّجل الحقيقي يسرق امرأة من بعيد لتقوية القبيلة. من يُضاجع إخوتهن أو آباءهن أو معشر قبائلهن يُسئن إلى الآلهة، وتحل لعنتها عليهن بأطفال سُقم ضُعفاء، أو حتى وحوش».

- «كراستر يتزوَّج بناته».

عادَتَ تلكمه، وقالت: «كراستر من جلدتكم أكثر من جلدتنا. أبوه كان غراباً سرق امرأة من قرية (وايتري)، لكن بعد أن نالَ منها غرضه حلَّق عائداً إلى (الجدار)، ثم ذهبت هي إلى (القلعة السوداء) لتُري الغراب ابنه، لكن إخوته نفخوا في أبواقهم وطردها. كراستر دمه أسود، وعليه لعنة ثقيلة»، وحرَّكت أصابعها بخفة على بطنه مردفة: «خشيتُ أن تفعل مثله، تطير إلى (الجدار). إنك لم تعرف ماذا تفعل بعد أن سرقني».

اعتدل چون جالساً، وقال: «إيجريت، أنا لم أسرقك».

- «بل سرقني، انقضضت علينا في الجبل وقتلت أورل، وقبل أن ألتقط فأسِي وضعت سكينك على عنقي. ظننتُ لحظتها أنك ستُضاجعني، أو تقتلني، أو ربما هذا وذاك، لكنك لم تفعل. ولما حكيتُ لك قصّة بايل الشّاعر وكيف اقتطفَ وردة (ويترفل)، خطرَ لي أنك ستقفني بالتأكيد، لكنك لم تفعل. لستَ تعلم أيّ شيء يا چون سنو!»، ومنحته ابتسامة خجلى مضيئة: «لكنك بدأت تتعلم بضعة أشياء».

لاحظَ چون فجأةً أن الضوء يتذبذب عليها، فنظرَ حوله وقال: «الأفضل أن نهض. المشعل يكاد ينطفئ».

قالت بابتسامة خبيثة: «هل يخاف الغراب أطفال جندل؟ الطريق إلى أعلى ليس طويلاً، وأنا لم أفرغ منك يا چون سنو»، ودفعتَه ليستلقي فوق الثياب من جديد وامتطته قائلة: «هلاً...»، ثم بترت عبارتها وقد غلبها التردد.

حَثَّها والمشعل علي وشك الخمود: «ماذا؟».

اندفعت تقول: «هلاً كرّرت ما فعلته؟ بفمك؟ قبلة اللورد؟ ... وسأرى إن كانت تروقك».

عندما انطفأ اللهب كان مخزون چون سنو من المبالاة قد نفذ.

عاوَدَه شعوره بالذنب بعدها أوهى من قبل، وتساءل: إذا كان هذا شيئاً سيئاً جداً فلم جعلته الآلهة بهذه الحلاوة؟

كان الكهف معتمًا تمامًا حين فرغا، ومصدر الضوء الوحيد هو الوهج الخافت الآتي من الممر الذي يُفضي إلى الكهف الأكبر في الأعلى، حيث عشرين من المشاعل المتقدة. سرعان ما وجدا نفسيهما يتخبطان ويصطدم أحدهما بالآخر وهما يُحاولان ارتداء ملابسهما في غياب النور. تعثرت إيجريت وسقطت في البركة وصرخت من برودة الماء، ولما ضحك چون سحبه معها، وتصارع الاثنان ونثرا المياه في الظلام، ثم إنها عادت بين ذراعيه من جديد، وتضح أنهما لم يفرغا بعد.

قالت له حينما أفرغ نطفته في داخلها: «چون سنو، لا تتحرك أيها الجميل. أحب الإحساس بك هناك حقًا. دعنا لا نعود إلى ستير وچارل. فلتنوّغ أكثر و ننضمّ إلى أطفال جندل. لا أريد أن أغادر هذا الكهف أبدًا يا چون سنو، أبدًا».

دنيرس

لَا حَ الحذر على الأمة وهي تسألها: «الكل؟ هل أخطأت هذه الواحدة
الوضيعة السَّمع يا جلالة الملكة؟».

كان ضوء أخضر هادئ يتسرَّب عبر ألواح الزجاج الملون ذات الشَّكل
الماسي المثبَّتة في الجُدران المثلثة المائلة، ومن أبواب الشَّرفة يهبُّ نسيم
خفيف حاملاً روائح الزُّهور والفواكه من الحديقة في الخارج.

قالت داني: «ما سمعته صحيح، أريدُ أن أشتريهم جميعاً. أخبري الأسياد
الكرام من فضلك».

اليوم اختارت ارتداء فُستان كارثيني، يُبرز حريه البنفسجي الدَّاكن ما
في عينيها من أرجوان، وتتركُ قَصَّته نهدها الأيسر مكشوفاً. رشفت داني نبذ
الرُّمَّان اللَّاذع من كأس فضيَّة طويلة، فيما انهمك أسياد (أستاפור) الكرام في
التَّشاوُر فيما بينهم بأصواتٍ خفيفة، فلم تستطع أن تُميِّز كلَّ ما يقولونه، لكنها
سمعت نبرة الجشع بوضوح.

كلُّ من السَّماسرة الثَّمانية يُصاحبه اثنان أو ثلاثة من العبيد الملازمين، على
أن واحداً ممن اسمهم جرازدان - أكبرهم سنّاً - يُصاحبه ستَّة دُفعةً واحدةً، وكى
لا تبدو متسوّلةً حضرت مع داني حاشيتها الخاصَّة؛ ييري وچيكيوي ترتديان
سراويل من الحرير الرَّملي وصدْرَتين ملوَّنتين، والعجوز ذو اللحية البيضاء
وبلواس القوي وخيَّالة دمهًا، والسير چورا الذي وقفَ وراءها يتصبَّب عرقاً
في معطفه الأخضر القصير المطرَّز عليه دُب عائلة مورمونت الأسود. كانت
رائحة عرقه بمثابة ردِّ فظ على العطور الباذخة التي تضمَّخ بها الأستاپوريون.
دمدمَ كرازنس مو نوكلوز الذي تفوح منه رائحة الخوخ اليوم: «الكل»،

وكرّرت الأمة الكلمة بعاميّة (وستروس)، فقال: «هناك ثمانى ألفيّات، أهذا ما تعنيه بالكل؟ وهناك ستّة قرون سيكونون جزءًا من الألفيّة التاسعة عندما تكتمل. هل تُريدهم أيضًا؟».

أجابت داني حين نُقلَ إليها السُّؤال: «نعم. الألفيّات الثّمانى والقرون الستّة... والذين ما زالوا قيد التّدريب أيضًا، من لم يستحقُّوا الخوذات المدبّبة بعد».

التفتَ كرازنس إلى رفاقه، ومرةً أخرى بدأوا يتشاورون. كانت المترجمة قد أخبرت داني بأسمائهم، ومع ذلك وجدت التفرقة بينهم صعبةً. أربعة منهم اسمهم جرازدان، في الغالب تيمُّنًا بجرازدان الأكبر الذي أسّس (جيس القديمة) في فجر التّاريخ، وكلهم تتشابه ملامحهم حتى تكاد تتطابق؛ رجال سيمان غلاظ لهم بشرة كهمرانيّة وأنوف مفلطحة وأعين داكنة، وشعرهم الخشن أسود أو أحمر قانٍ أو خليط غريب من الأسود والأحمر يتّسم به الجيسكارثيون، ويرتدي الجميع التوكار، وهو الثوب الذي لا يُسمح بارتدائه إلا لبني (أستاپور) الأحرار.

قال الرُّبّان جروليو لداني إن حاشية التوكار تُعلن عن منزلة من يرتديه، وفي هذه القاعة الخضراء بهوائها البارد على قمة الهرم كان توكار اثنين من النّحاسين بحاشية فضيّة، وخمسة بحاشية ذهبيّة، وواحد فقط -الذي يرتديه جرازدان الكبير- حاشيته من اللّألئ البيضاء الكبيرة التي تُطقطق بخفوتٍ عندما يعتدل في جلسته أو يُحرّك ذراعه.

قال واحد بحاشية فضيّة ممن اسمهم جرازدان: «لا يُمكننا أن نبيع صبيّة نصف مدرّين».

قال رجل أسمن منه حاشيته ذهبيّة: «يُمكننا إذا كان معها ذهب يكفي».

- «إنهم ليسوا مطهّرين، ولم يفتلوا رُضّعهم بعد، وسيكلّلونا بالعار إذا أخفقوا في ميدان المعركة. حتى إذا قطعنا أعضاء خمسة آلاف صبي أخضر غدًا، فلن يكونوا صالحين للبيع قبل عشرة أعوام. ماذا نبيع المشتري التّالي الذي سيأتي طالبًا المطهّرين؟».

ردّ السّمين: «سنقول له إن عليه أن ينتظر. الذهب في خزيتي خير من الذهب في مستقبلتي».

تركتهم داني يتجادلون ورشفت من نبيذ الرُّمَّان اللّاذع محاولةً أن تبقى ملامحها جامدة تشي بالجهل، وقالت لنفسها: سأخذهم جميعاً مهما كان السَّعر. في هذه المدينة مئة من تُجَّار الرِّقِيق، لكن الثمانية الذين أمامها هم الأكبر على الإطلاق، ولا تتوقَّف المنافسات بينهم عند بيع عبید الفِراش وعمَّال الحقول والكتبة والحرفيين والمعلمين، لكن أسلافهم تحالفوا في شيء واحد هو تدريب وبيع المطهرين. من الدَّم والقرميد قُدَّت (أستاپور)، ومن الدَّم والقرميد أهلها قُدوا.

أخيراً أعلن كرازنس قرارهم: «قولي لها إنها تستطيع أن تأخذ الألفيات الثماني إذا كان ذهبها يكفي، والقرون الستة أيضاً إذا أرادت. قولي لها أن تعود بعد عام وسأبيعها ألفيتين آخرين».

قالت داني لمَّا سمعت التَّرجمة: «بعد عام سأكون قد رحلتُ إلى (وستروس). إنني أحتاج إليهم الآن. المطهرون تدريبهم ممتاز، لكن كثيرين منهم سيَسْقُطون في القتال، وسأحتاج إلى الصَّيبة ليحملوا ما يُوقعونه من سيوف»، ووضعت نبيذها جانباً ومالت نحو الأمة قائلة: «قولي للأسباد الكرام إنني أريد الصَّغار الذين ما زالت معهم جِراؤهم. قولي لهم سأدفعُ في الصَّبي الذي قطعوا أعضائه البارحة ما سأدفعه في مطهِّر بخوذته».

وقالت لهم الفتاة، وظلَّت الإجابة لا.

قطبت داني وجهها بضيق، وقالت: «ليكن. قولي لهم إنني سأدفع الضَّعف إذا حصلتُ عليهم جميعاً».

ردَّد السَّمين ذو الحاشية الذَّهبيَّة ولُعبه يكاد يسيل: «الضَّعف؟». قال كرازنس مونوكلوز: «هذه العاهرة الصَّغيرة حمقاء حقاً. نَطْلُب ثلاثة أضعاف. إنها يائسة بما يكفي لأن تدفع صاغرةً. نَطْلُب عشرة أضعاف سِعر كلِّ عبد، نعم».

يتكلَّم جرازدان الطَّويل ذو اللِّحية المدبَّبة اللُّغة العاميَّة، وإن كان لا يُجيدها كالأمة، وقد خاطب داني قائلاً: «جلالة الملكة، (وستروس) هي غنيَّة، نعم، لكن أنت لستِ هي الملكة الآن، وربما لن تكونين الملكة أبداً. حتى المطهِّرين قد يخسرون القتال مع فرسان الفولاذ في (الممالك السَّبْع).

إني أذكركم، أسياد (أستاپور) الكرام هم لا يبيعون اللحم بالوعد. هل معك ذهب وبضائع كافية لتدفعين ثمن جميع المخصيين الذين تريدنيهم؟». أجابت داني: «أنت تعرف الإجابة أفضل مني أيها السيد الكريم. رجالك جردوا ما في سفني ودونوا كل خرزة وجرزة زعفران. كم لدي إذن؟». أجاب السيد الكريم بابتسامة ازدراء: «ما يكفي ألفية واحدة. تقولي إنك تدفعين الضعف. خمسة قرون إذن كل ما تشتريين». قال السمين بالغاليريّة: «تاجك الجميل يكفي لشراء قرن آخر، تاجك ذو الثنانين الثلاثة».

انتظرت داني أن يترجم كلامه قبل أن تقول: «تاجي ليس للبيع». عندما باع فسيرس تاج أمهما ذوى آخر ما فيه من مسرة ولم يتبق إلا الغضب. «كما أنني لن أبيع قومي للعبودية أو أبيع ممتلكاتهم وحيولهم، لكن يمكنكم أن تأخذوا سفني، الكوج العظيم (بالريون) والقادسين (فاجهار) و(ميراكسس)». كانت قد نبتت جروليو والرُبانين الآخرين إلى احتمال حدوث هذا، وإن كانوا قد احتجوا على ضرورته بشدة. «لا بُدَّ أن ثلاث سفن كبيرة تُساوي أكثر من مخصيين تافهين قلائل».

التفت جرازدان البدين إلى الآخرين ودارت بينهم المداولة الخفيضة من جديد، ثم قال ذو اللحية المدببة لما عاد يلتفت إليها: «ألفيتان. عدد كثير، لكن الأسياد الكرام يُعاملون بسخاء وحاجتك ملحة».

لن يكفي ألفان لتحقيق ما تريد أن تفعله. يجب أن آخذهم جميعًا. الآن تعرف داني ما عليها أن تفعله، علي الرغم من مذاقه المرير الذي لم ينجح نبذ الرُمان في تطهير فمها منه. لقد فكرت طويلاً وكثيراً ولم تجد سبيلاً آخر. إنه خيارى الوحيد. «أعطوني الجميع ويمكنكم أن تأخذوا تينياً».

سمعت شهقة چيكوي المكتومة إلى جانبها، وابتسم كرازنس مونوكلوز قائلاً لرفاقه: «ألم أقل لكم؟ ستُعطينا أي شيء».

حدق إليها ذو اللحية البيضاء مصدوماً، وارتجفت يده الممسكة بعكازها، وركع على ركبته أمامها قائلاً: «لا! جلالة الملكة، أتوسل إليك، اربحي عرشك بالثنانين لا العبيد. إياك أن تفعلني ه...».

- «إياك أنت أن تتجرأ وتُملي عليّ أمرًا. سير چورا، اصحب ذا اللحية البيضاء بعيدًا عني».

قبض مورمونت على مرفق العجوز بخشونة، وشده ليقف بحركة حادة، ثم قاده إلى الشرفة في الخارج. قالت داني للأمة: «قولي للأسياد الكرام إنني أعتذر لهذه المقاطعة. قولي لهم إنني أنتظر إجابتهم».

لكنها تعلم الإجابة. إنها تراها في لمعة أعينهم والابتسامات التي يبذلون كلَّ جهدهم لإخفائها. (أستاپور) فيها آلاف المخصيين، والمزيد من الصبية العبيد الذين ينتظرون أن تُقطع أعضاؤهم، لكن في العالم الواسع بأسره ليس هناك إلا ثلاثة تنانين. والجيسكارثون يشتهون التنانين. وكيف لا؟ خمس مرّات تصادمت (جيس القديمة) مع (فاليريا) في شباب العالم، وخمس مرّات مُنيت بهزيمة منكرة، ذلك أن المعقل الحُر قاتل بالتنانين، السلاح الذي افتقرت إليه الإمبراطورية.

اعتدل جرازدان الكبير في مقعده فطقطقت لآلته بنعومة، وقال بصوت قاس رفيع: «تئين من اختيارنا. الأسود هو الأكبر والأكثر صحة».

أومات برأسها قائلة: «اسمه دروجون».

- «بضائعك كلها باستثناء تاجك وثيابك الملكية التي سنسمح لك بالاحتفاظ بها، والسفن الثلاث، وتئين».

قالت بالعامية: «اتفقنا».

ردّ جرازدان الكبير بقاليريته الغليظة: «اتفقنا».

وحاكي الآخرون العجوز ذا الحاشية اللؤلئية، وترجمت الأمة: «اتفقنا، واتفقنا، واتفقنا، الثمانية».

قال كرازنس مو نوكلوز بعد انتهاء الترتيبات: «سيتعلم المطهرون لغتكم البربرية سريعًا، لكن حتى ذلك الحين ستحتاجين إلى من يُترجم لهم. خذي هذه الأمة هديّة منّا لك، أمانة على إبرام الصّفقة بنجاح».

قالت داني: «هدية مقبولة».

ترجمت الأمة كلماته إليها وكلماتها إليه، وإذا كانت تشعر بشيء ما حيال أن تُعطي كهديّة، فقد حرصت على عدم إبدائه.

لم يتكلم آرستان ذو اللحية البيضاء عندما مرّت به مسرعةً في الشُرْفَة،
وتبعها على السّلالم صامتًا وإن ظلّت تسمع عكّازه يدقّ على القرميد الأحمر
وهم ينزلون. لم تلمه على غضبته، فما فعلته مذموم مذموم. أم الثّانين باعّت
أقوى أطفالها. مجرّد الفكرة يُصيها بالغيثان.

لكن حين بلغوا (ساحة الفخر) ووقفوا على القرميد السّاخن بين أهرامات
النّحاسين وثكنات المخصّيين، التفتت داني إلى العجوز قائلة: «إنني أريدُ
مشورتك، ولا تخش أن تُخبرني بما تُفكر فيه أبدًا... ونحن وحدنا، لكن إياك
أن تُراجعني أمام الغرباء أبدًا، مفهوم؟»
قال مغتمًا: «نعم يا جلالة الملكة».
- «إنني لستُ طفلةً، إنني ملكة».

- «حتى الملكات يُخطئن. الأستاپوريون غشوك يا جلالة الملكة. تئين
واحد أئمن من أيّ جيش. إجون أثبت هذا قبل ثلاثمئة عام في حقل النيران».
قالت داني: «أعرف ما أثبتته إجون، وأنا أيضًا أنوي أن أثبت بضعة أشياء»،
والتفتت إلى الأمة الواقفة بخنوع إلى جوار هودجها، وسألتها: «ألك اسم أم
أنك تسحبين واحدًا جديدًا كلّ يوم من برمبل؟»
أجابّت الفتاة: «هذا للمطهّرين فقط»، ثم أدركت أن السّؤال كان بالقاليريّة
الفصحى، فأتسعت عيناها وغمغمت: «أوه».

- «اسمك أوه؟».

- «لا. اغفري لهذه الواحدة رعونتها يا جلالة الملكة. أمتك اسمها
ميسانداي، لكن...».

- «ميسانداي لم تُعدّ أمةً. إنني أعتقك بدايةً من هذه اللّحظة. اركبي معي
الهودج. أريد أن أتكلّم معك». ساعدهما راگارو على الرّكوب، وأغلقت داني
السّتائر في وجه التراب والحر، وإذ تحرّكوا قالت: «إذا بقيت معي ستخدمين
كواحدة من وصيفاتي. سأحتفظ بك إلى جوارِي لتتكلّمي نيابةً عني كما كنتِ
تفعلين مع كرازنس، لكن يُمكنك أن تتركي خدمتي متى تشائين، إذا كان لك
أب أو أم تُفضّلين العودة إليهما».

رَدّت الفتاة: «هذه الواحدة ستبقى. هذه الواحدة... أنا... لا يوجد مكان
أذهبُ إليه. هذه... سيُسعدني أن أخدمك».

حذرتها داني قائلة: «يُمْكِنُنِي أَنْ أُعْطِيكَ الحَرِّيَّةَ لَكِنْ لَيْسَ الأَمَانُ. عَلَيَّ أَنْ أَقْطِعَ العَالَمَ وَأُخَوِّضَ حُرُوبًا، وَقَدْ تَتَضَوَّرِينَ جَوْعًا أَوْ تَمْرُضِينَ أَوْ تُقْتَلِينَ».

قالت ميسانداي بالفاليريَّة الفُصْحَى: «فَالَارَ مَورِجُولِسَ».

- «نعم، كُلُّ البَشَرِ يُدْرِكُهُم المَوْتُ، لَكِنْ نَتَمَنَّى أَنْ يَطُولَ الوَقْتُ قَبْلَ هَذَا»، وَأَسْنَدَتْ دَانِي ظَهْرَهَا إِلَى وَسَائِدِهَا وَالتَقَطَتْ يَدَ الفَتَاةِ مَتَسَائِلَةً: «أَلَا يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ المَطْهَّرُونَ الخَوْفَ حَقًّا؟».

- «بلى يا جلالَةَ المَلِكَةِ».

- «إِنَّكَ تَخْدُمِينِي الآنَ. أَصَحِيحٌ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِالأَلَمِ؟».

- «خَمِرُ الشَّجَاعَةِ تُمِيتُ هَذِهِ المِشَاعِرَ، وَعِنْدَمَا يَقْتُلُ أَحَدُهُم رَضِيعَهُ يَكُونُ قَدْ عَاتَدَهَا مِنْذُ سِنَوَاتٍ».

- «وَهَلْ هُمْ مَطِيعُونَ؟».

- «الطَّاعَةُ كُلُّ مَا يَعْرِفُونَهُ. إِذَا قَلَّتْ لَهُمْ أَلَّا يَتَنَفَّسُوا، سَيَجِدُونَ هَذَا أَسْهَلَ مِنَ العَصِيانِ».

أَوْمَأَتْ دَانِي بِرَأْسِهَا، وَسَأَلَتْ: «وَبَعْدَ أَنْ أَفْرَغَ مِنْهُمْ؟».

- «مَاذَا يَا جَلالَةَ المَلِكَةِ؟».

- «عِنْدَمَا أَنْتَصِرُ فِي حَرْبِي وَأَسْتَرُدُّ عَرْشَ أَبِي سَيُعَمِدُ فُرسَانِي سِوْفَهُمْ وَيَعُودُونَ إِلَى حِصُونِهِمْ، إِلَى زُوجَاتِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، إِلَى حَيَاتِهِمْ... لَكِنْ المَخْصِيَّينَ هَؤُلَاءِ لَا حَيَاةَ لَهُمْ. مَاذَا أَفْعَلُ بِثَمَانِيَةِ أَلْفِ خَصِيٍّ حِينَ تَنْتَهِي المَعَارِكُ كُلِّهَا؟».

أَجَابَتْ مِيسَانْدَايَ: «المَطْهَّرُونَ حَرَسَ وَنَوَاطِيرَ مِمْتَازُونَ يَا جَلالَةَ المَلِكَةِ، وَلَيْسَ مِنَ الصَّعْبِ أَبَدًا أَنْ تَجْدِي مَشْتَرِيًّا لَجُنُودٍ مَحْنَكِينَ مِثْلَهُمْ».

- «يَقُولُونَ لِي إِنْ الرِّجَالَ لَا يُبَاعُونَ وَيُشْتَرُونَ فِي (وَسْتَرُوسَ)».

- «مَعَ خَالِصِ احْتِرَامِي يَا جَلالَةَ المَلِكَةِ، المَطْهَّرُونَ لَيْسُوا رِجَالًا».

سَأَلَتْ دَانِي بِأَسْلُوبٍ مَبَاشِرٍ: «إِذَا بَعْتَهُمْ، كَيْفَ أَضْمَنُ أَلَّا يُسْتَخْدَمُوا ضِدِّي؟ هَلْ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا هَذَا؟ يُقَاتِلُوا ضِدِّي وَيُؤْذِنُونِي شَخْصِيًّا؟».

- «إِذَا أَمَرَهُمْ سَيُدْهِمُ. إِنَّهُمْ لَا يُرَاجِعُونَ الأَمْرَ يَا جَلالَةَ المَلِكَةِ. الأَسْئَلَةُ كُلُّهَا اسْتُصِلَتْ مِنْهُمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الطَّاعَةَ»، وَبَدَأَ الاضْطِرَابَ عَلَى الفَتَاةِ

وهي تُردِّف: «عندما... عندما تفرُّغين منهم... تستطيعين جلالتك أن تأمرهم بالسُّقوط على سيوفهم».

- «وحتى هذا سيفعلونه؟».

خفت صوت ميسانداي وهي تردُّ: «نعم يا جلالة الملكة».

اعتصرت داني يدها، وقالت: «لكنك تتمنِّين ألا أطلب منهم ذلك. ما السَّبب؟ لماذا تهتمِّين؟».

- «هذه الواحدة لا... أنا... جلالة الملكة...».

- «أخبريني».

خفصت الفتاة عينيها قائلة: «ثلاثة منهم كانوا إخوتي يا جلالة الملكة».

أتمنى إذن أن إخوتك شُجعان وأذكاءٍ مثلك. عادت داني تستند إلى وسائدها وتركت الهودج يمضي حاملاً إياها إلى (بالريون) للمرة الأخيرة كي تُنظِّم عالمها. قالت لنفسها: وإلى دروجون، وأطبقت فمها بتجهم شديد.

الليلة التي تلت هذا كانت طويلةً ومظلمةً وعاصفةً. أطعمت داني تنانينها كما تفعل دومًا، لكنها وجدت نفسها بلا شهية، وأمضت بعض الوقت في البكاء وحدها في قمرتها، ثم جففت دموعها من أجل جدلٍ جديد مع الرُّبَّان جروليو، وفي النهاية قالت له: «الماجستير إليريو ليس هنا، ولو كان لما استطاع إثنائي أيضًا. إنني أحتاجُ إلى المطهَّرين أكثر من هذه السفن، ولن أسمع المزيد في هذا الصِّدد».

حرق غضبها ما يعتمل في نفسها من حزنٍ وخوف... طيلة بضعة ساعات على الأقل. بعد ذلك استدعت خيالة دمها ومعهم السير چورا إلى القمرة، فهُم الوحيدون الذين تثق بهم حقًا.

كانت تنوي أن تنام بعد ذلك كي تخوض الغد وهي مستريحة، لكن ساعةً من التقلُّب في القمرة الضيقة رديئة التهوية أقتعتها بأن لا أمل في النِّوم الآن. خارج الباب وجدت أجوُّيَّبت وترًا جديدًا إلى قوسه على ضوء مصباح زيت يتأرجح، وإلى جواره يجلس راگارو متقاطع السَّاقين يشحد أراخه. قالت لهما داني أن يُواصلا ما يفعلانه، وصعدت إلى سطح السفينة طلبًا لنفحةٍ من هواء الليل البارد، وتركها أفراد الطاقم وشأنها وهم يؤدُّون واجباتهم، لكن لم

يُطلُّ الوقت قبل أن ينضمَّ إليها السير چورا عند الحاجز، ففكرت: لا يبعُد عني أبداً، ويعرف أمزجتي جيّداً.

- «يجدرُ بك أن تنامي يا گاليسي. تأكّدي أن الغد سيكون حارّاً وصعباً، وستحتاجين إلى قوّتك».

سألته: «أتذكرُ إيرو؟».

- «فتاة اللازارين؟».

- «كانوا يغتصبونها، لكنني أوقفتهم ووضعتها تحت حمايتي، وحين مات شمسي ونجمي أخذها ماجو ثانيةً واغتصبها ثانيةً ثم قتلها. قال آجو إنه قدراها».

- «أذكرُ هذا».

- «لقد قضيتُ زمناً طويلاً وحدي يا چورا، وحدي تماماً بلا أحدٍ غير أخي. كنتُ شيئاً صغيراً خائفاً. كان على فُسيرس أن يحميني، وبدلاً من هذا آذاني وأخافني أكثر، وما كان له أن يفعل هذا. إنه لم يكن أخي فحسب، بل ملكي أيضاً. لماذا تصنع الآلهة الملوك والملكات إن لم يكن لحماية من لا يستطيعون أن يحموا أنفسهم؟».

- «بعض الملوك يصنعون أنفسهم، مثل روبرت».

قالت داني باحتقار: «روبرت لم يكن ملكاً حقاً ولم يُقم العدل. العدل... هذا هو الغرض من الملوك».

لم يُجبها السير چورا واكتفى بالابتسام ومَسَّ شعرها بمنتهى الخفّة، وكان هذا يكفي.

ليلتها حلّمت بأنها ريجار في طريقه إلى (الثالوث)، لكنها امتطت تنيّناً لا حصاناً، ولمّا رأت جيش الغاصب المتمرّد على ضفّة النهر الأخرى كان جنوده كلهم مدرّعين بالجليد، لكنها أغرقتهم بنيران التنيّن وأذابتهم كقطرات الندى وحوّلت (الثالوث) إلى سيل جارف. جزء صغير منها كان يعرف أنها تحلم، لكن جزءاً آخر استعذب الحُلم. هذا ما كان يجب أن يحدث. الحياة الأخرى كانت مجرد حُلم، والآن فقط استيقظتُ.

استيقظت فجأة في ظلام قمرتها وهي لا تزال شاعرةً بنشوة النّصر، وبدا

كأن (بالريون) تستيقظ منها، وسمعت صرير الخشب الخافت وتكشر الماء على بدن السفينة ووقع قدمين على السطح فوقها... وشيئا آخر.

أحدهم معها في القمرة.

- «إيري؟ چيكوي؟ أين أنتما؟».

لم تُجِبها الوصيفتان، والظلام دامس لدرجة لا تُتيح الرؤية، لكنها سمعت أنفاسهما.

- «أهذا أنت يا چورا؟».

قالت امرأة بصوتٍ قريب للغاية: «إنهم نائمون، كلهم نائمون. حتى الثنّانين تنام».

إنها واقفة فوقي. «من هنا؟». حاولت داني أن تخرق حُجُب الظلام بناظريها، وحِيلَ إليها أنها ترى ظلًا، حدود جسدٍ باهتة للغاية. «ماذا تُريدين مني؟».

- «تذكّري: لتذهبي شمالًا يجب أن ترتحلي جنوبًا، لتبلغي الغرب يجب أن تذهبي إلى الشرق، لتمضي قدمًا يجب أن تعودي أدراجك، وكى تمسّي النور عليك أن تمّرّي تحت الظل».

- «كويث؟!». وثبت داني من الفراش وفتحت الباب، فتدفق ضوء المصباح الأحمر الشّاحب إلى القمرة، واعتدلت إيري وچيكوي ناعستين، وتمتت الثانية وهي تفرك عينها: «گاليسي؟». استيقظ فسيريون وفغر فكيه، وأنارت دفقة من لهبه أكثر أركان القمرة ظلامًا، ولم يكن هناك أثر لامرأة في قناع خشبي أحمر. سألتها چيكوي: «گاليسي، أأنت بخير؟».

هزّت داني رأسها مجيبة. «حلم، رأيت حلمًا لا أكثر. أكملني نومك. كلنا سنعود إلى النوم»، لكن مهما حاولت ظلّ النوم يُجافئها بعناد.

إذا نظرتُ إلى الورا فأنا ضائعة، قالت داني لنفسها في الصّباح التّالي وهي تدخل (أستاپور) من بوابة الميناء، وقد قرّرت أنها لا تجرؤ على تذكير نفسها بقلة أتباعها وضآلة شأنهم وإلا فقدت كل ما لديها من شجاعة.

اليوم امتطت فرسها الفضية وارتدت سراويل من شعر الخيل وصدرة جلدية ملوثة، وتمنطقت بحزام رصائع من البرونز حول خصرها وقاطعت اثنين آخرين بين نهديها، وكانت چيكوي وإيري قد ضفرتا شعرها وثبتتا فيه

جرسًا فضيًّا صغيرًا غنَّى رنينه عن خالدي (كارث) وحريقهم في قصر العُبار. كانت شوارع (أستاپور) القرميد أقرب إلى الازدحام هذا الصُّباح، فاصطفَّ العبيد والخدم على جانبيِّ الطريق، بينما ارتدى النَّحاسون ونسوتهم التوكار ليتفرَّجوا من شُرَفات أهرامهم المدرَّجة. يبدو أنهم لا يختلفون كثيرًا عن الكارثين، يطمحون إلى لمحة من التَّانين ليحكوا لأطفالهم وأحفادهم. جعلها الخاطر تتساءل كم منهم سينال فرصة أن يُنجب أطفالًا.

تحركَّ آجو أمامها حاملًا قوسه الدوثرافي العظيم، وسارَ بلواس القوي إلى يمين فَرسها والفتاة ميسانداي إلى يسارها، ووراءها السير چورا مورمونت مرتديًا قميصًا من الحلقات المعدنية وسُترَةً طويلةً ويعبس في وجه كل من يقترب أكثر من اللازم، بينما تولَّى راكارو وچوجو حماية الهودج. كانت قد أمرت بأن يُخلع السَّقْف كي يُقَيَّد تنانينها إلى الأرضيَّة، وركبت إيربي وچيكوي معهم لتُحاولا تهدئتهم، لكن فُسيرون راحَ يُلوِّح بذيله وتصاعدَ الدُّخان الغاضب من منخرينه، ولا بُدَّ أن ريجال أيضًا أحسَّ بأن شيئًا على غير ما يُرام، فقد حاولَ أن يُخلِّق ثلاث مرَّات، فقط لتسحبه السُّلسلة الثَّقيلة في يد چيكوي إلى أسفل من جديد، أمَّا دروجون فتكَوَّر على نفسه وطوى ذيله وجناحيه تمامًا، وظلَّت عيناه الشَّيء الوحيد الذي يقول إنه ليس نائمًا.

تبعتها بقيَّة قومها؛ جروليو والرُّبَّانان الآخران وأطقمهم، والثلاثة وثمانون دوثرافي المتبقيُّون لها من المئة ألف الذين كانوا في گالاسار دروجو. وضعت المسنِّين والضُّعفاء في منتصف الطَّابور، ومعهم الحوامل والمرضعات والفتيات الصَّغيرات والصَّبية الأصغر من أن يجدلوا شعرهم، فيما ركب الباقون -شرذمة المُحاربين الذين معها- على جانبيِّ الطَّابور وساقوا قطيعهم البائس المتكوَّن من مئةٍ ونيفٍ من الخيول الضَّاوية التي نجت من (القفر الأحمر) والبحر الأسود المالح.

فكرت وهي تقود جماعتها الفقيرة على ضفَّة نهر (أستاپور) المتلوي: عليَّ أن أحعلهم يُخَيِّطوا لي رايةً. أغلقت عينها وتخيَّلت كيف ستبدو. حرير أسود خفَّاق وعليه تنيُّن عائلة تارجارين الأحمر برؤوسه الثلاثة، ينفث لهبًا ذهبيًّا. راية تليق بريجار. كان هدوء غريب يحف ضفاف المجرى الذي يُسمِّيه الأستاپوريُّون (النَّهر الدُّودي)، وهو واسع وبطيء ومعوج، وتنتشر

فيه جُزَيرات شجرية ضئيلة. لمحت على إحداها أطفالاً يلعبون ويجرون بين أعمدة رُخامية أنيقة، وعلى أخرى رأت حبيبتين يتبادلان القبل في ظلّ الأشجار الخضراء الطويلة بلا أيّ خجل كالدوثرافي في زفاف، لكن في غياب ثيابهما لم تعرف إن كانا عبيد أم حُرَّين.

كانت (ساحة الفخر) ذات الهاربي البرونز العظيمة أصغر من أن تحتوي جميع المطهّرين الذين اشتَرْتهم، فاحتشدوا بدلاً من هذا في (ساحة العقاب) التي تطلّ عليها بؤابة (أستابور) الرئيسة، كي يخرُجوا من المدينة مباشرةً بمجرد أن تتسلمهم ديرس. لا توجد تماثيل برونزية هنا، فقط منصّات خشبية يُعلّق عليها العبيد المتمردون وتُسلخ جلودهم ويُشنقون.

قالت لها ميسانداي وهم يدخلون السّاحة: «الأسياذ الكرام يضعونهم هنا ليكونوا أول ما يراه العبيد الجدد لدى دخولهم المدينة».

للوهلة الأولى حسبت داني أن بشرتهم مخطّطة كخيول الزورس⁽¹⁾ عند شعب الچوجوس نهائي، ثم إنها دنت بفرسها ورأت اللحم الأبيض النّيء تحت الخطوط السوداء الرّاحفة. ذُباب، ذُباب ويرقات. لقد قُشر جلد الرّقيق المتمردين كما يُقشر الثّفاّح؛ شريط متجعّد طويل. أحدهم سوّد الذّباب ذراعه من الأصابع إلى المرفق، وتحت الأسود كان الأحمر والأبيض. شدّت داني عنان الفرس تحته، وسألّت: «ماذا فعل؟».

- «رفع يده على مالكة».

بطن مقلوب دارت داني بالفرس وخبّت إلى مركز السّاحة والجيش الذي اشتَرته بثمن باهظ. صفًا وراء صفّ وراء صفّ وقف أنصاف الرّجال الحجريّون بقلوبهم القرميد، ثمانية آلاف وستمئة يعتمرون القبعات المدبّبة الخاصّة بالمطهّرين الذين اكتمل تدريبهم، ووراءهم ما يربو على الخمسة آلاف من مكشوفي الرّؤوس المسلّحين بالسُّيوف القصيرة والحِراب. رأت أن من يقفون في أقصى المؤخّرة مجرد فتية، وإن وقفوا ثابتين مشدودي القامة كالآخريّن تمامًا.

كان كرازنس مو نوكلوز ورفاقه هناك ليحيّوها، ووقف آخرون من أعيان

(1) الزورس حيوان هجين يتّج عن زواج ذكر الحمار الوحشي بواثئ الحصان. (المترجم).

الأسْتَپورِيَّينَ فِي مَجْموعَاتِ وِراءِهِم يَحْتَسونَ النَّبِيذَ مِن كِؤوسِ فَضِيَّةٍ طَوِيلَةٍ بَيْنما يَدورُ العَبِيدُ حَولَهُم بِأَطباقِ الكَرزِ وَالتَّيْنِ وَالرَّزَبَتونَ، بَيْنما جَلَسَ جِرازِدانِ الكَبيرِ عَلى مَحْفَةٍ يَحْمِلُها أَرْبَعَةُ عَبِيدِ ضَخامِ الحِجَمِ بَشَرَتَهُم نُحاسِيَّةً، وَدارَتِ مَجْموعَةٌ مِن حامِلِي الرِّماحِ بِخِويلِهِم عَلى حُدودِ السَّاحَةِ لِيَدفَعوا المَتراحِمِينَ الَّذينَ أَتوا لِشِهادِوا إِلى الوِراءِ. التَمَعَتِ الشَّمسُ بِوَميضِ مُعَمٍ عَلى الأَقْراسِ البرونِزِ المَصقُولَةِ المَخِيطَةَ إِلى مَعاظِفِهِم، لَكن لَم يَفْتِ دانيٌّ أَن تَلحِظَ تَوَثَّرَ الخِويلِ الشَّدِيدِ. إِنَّها تَخشى التَّنائِينَ، وَلِها كَلَّ الحَقِّ.

أَمَرَ كِرازِنسَ عَبدًا بِأَن يُساعِدَها عَلى التَّرجُلِ، فِيداهُ هُوَ مَشغولَتانِ، إِحداهما تُثَبَّتُ التَّوَكَّارَ عَلى كَتفِهِ وَالثَّانِيَةَ تَقْبِضُ عَلى سَوطِ مَنمَقٍ، ثُمَّ إِنَّه قالَ لِمِسانِدايَ: «ها هُمُ أَوْلِاءُ. قولي لَها إِنَّهُم مَلِكُها... إِذا كانَتِ تَسْتَطِيعُ أَن تَدفَعِ الثَّمَنَ».

قالَتِ الفَتاةُ: «تَسْتَطِيعُ».

زَعَقَ السَيرَ چورا بِأَمْرِ، فَجُلِبَتِ البِضائِعُ. سِتَ لَفائِفُ مِن جِلدِ الثَّمورِ، وَثلاثِمِئَةٌ لَفافَةٌ مِنَ الحَريرِ الثَّمينِ، وَجِرارٌ مِنَ الرَّعفِرانِ وَالمُرِّ وَالفَلِفلِ وَالكارِي وَالحَبَّهانِ، وَقَناعٌ مِنَ الجَزَعِ، وَاثنا عَشَرَ قَرَدًا مِنَ اليَشِبِ، وَبرامِيلٌ مِنَ الحَبَرِ الأَحْمَرِ وَالأَسودِ وَالأَخْضَرِ، وَصَنَدوقٌ مِنَ الجَمَشَتِ الأَسودِ النَّادرِ، وَصَنَدوقٌ مِنَ اللُّؤلُؤِ، وَبرَمِيلٌ زَيتونِ مَنزوعِ النَّوى مَحشُوٌّ بِالرِقاتِ، وَدِستَةٌ مِنَ بَرامِيلِ سَمَكِ الكَهوفِ المَخْلَلِ، وَناقوسٌ كَبيرٌ مِنَ النُّحاسِ الأَصْغَرِ وَمَقْرَعَتُهُ، وَسَبْعُ أَعْيُنٍ مِنَ العَاجِ، وَصَنَدوقٌ ضَخَمٌ مَتَحَمٌ بِكُتُبٍ لا تَعْرِفُ دانيٌّ لُغائِها، وَالمَزيدَ وَالمَزيدَ وَالمَزيدَ مِمَّا كَوَّمَهُ قَومُها أَمامَ النُّحاسِينَ.

بَيْنما يَتَمُّ الدَّفْعُ مَنَّ كِرازِنسَ مَوا نَوَكَلوزَ عَليها بِبِضاعِ خَيرَةٍ لِلتَّعامُلِ مَعَ جَنودِها، وَقالَ مِنَ خِلالِ مِسانِدايَ: «إِنَّهُم ما زالوا خُضْرًا. قولي لِعاهِرَةِ (وَستروسِ) إِنَّ مِنَ الخِيرِ لَها أَن تُذِيقَهُم الدِّماءَ مَبكَّرًا. ثَمَّةُ مُدُنِ صَغِيرَةٍ كَثِيرَةٍ بَينَ هَنا وَهَناكَ، مُدُنٌ جاهِزَةٌ لِلنَّهَبِ، وَأَيًّا كانَ ما تَسْتولِي عَليه فَهُوَ لَها وَحدِها، فَالمَطَهَّرُونَ لا يَشْتَهُونَ الذَّهَبَ أَوِ الجَواهِرَ. وَإِذا أَخَذتِ أُسْرى، فَيكفِي أَن يَسوقَهُم عَدَدٌ صَغِيرٌ مِنَ الحَرَسِ إِلى (أَسْتَپورِ)، وَسَنَشْتري الأَصْحاءَ مِنْهُم بِسَعرٍ مَناسِبٍ. وَمَن يَدري؟ خِلالَ عَشْرَةِ أَعوامٍ قَدْ يَكُونُ الصَّبِيبةُ الَّذينَ سَتَرُ سَلِّهُمُ قَدْ أَصْبَحوا مَطَهَّرِينَ بِدَورِهِم، وَعَندِها يَعْمُ الخِيرُ عَلى الجَميعِ».

أخيراً لم تُعد هناك بضائع تُضاف إلى الكومة، فعاد الدوئراكي يمتطون جيادهم، وقالت داني: «هذا كلُّ ما استطعنا أن نحمله. الباقي ينتظركم على السُّفن، كمّيّة كبيرة من الكهرمان والنَّيِّد والأرز الأسود، والسُّفن نفسها لكم، فلم يتبقَّ إلا...».

- «... التَّين»، قال جرازدان ذو اللّحية المدبّبة الذي يتكلّم العاميّة بلكنة ثقيلة.

- «وها هو ذا».

سار السير چورا وبلواس القوي إلى الهودج، حيث يقبع دروجون وأخواه يتشمسون، وحلّت چيكيوي طرف السُّلسلة وناولتها إياه، ولما شدّتها رفع التَّين الأسود رأسه مصدرًا فحيحه، وبسط جناحين من اللّيل والقرمز، وابتسم كرازنس مونوكلوز ملء شديقه عندما سقط ظلّهما عليه.

ناولت داني النَّحاس طرف سلسلة دروجون، وفي المقابل ناولها السُّوط. كان المقبض من عظم التَّين الأسود، منقوشاً بأناقة ومطعمًا بالذهب، وتبدلّ منة تسعة شرائط جلدية، كل منها على طرفه مخلب مذهّب، أمّا القبيعة الذهبية فعلى شكل رأس امرأة أسنانها المدبّبة من العاج.

عرفت من ميسانداي أن «أصابع الهاربي» هو الاسم الذي يُطلقه كرازنس على السُّوط، وقد دورته في يدها مفكّرة: شيء أخفّ كثيرًا من أن يحمل كل هذا الثقل. «هل انتهى الأمر إذن؟ أهما ملكي الآن؟».

- «انتهى الأمر»، أجابها وهو يشدُّ السُّلسلة بحدّة ليُخرج دروجون من

الهودج.

اعتلت داني فرسها الفضّية وقلبا يدقُّ في صدرها بعنفٍ والخوف يغمرها حتى النَّخاع. أهذا ما كان أخي ليفعله؟ تساءلت إن كان الأمير ريجارد قد أحسّ بهذا التّوتّر حينما رأى صفوف جيش الغاصب عبر (الثالوث) والرّيات تخفق في الهواء.

وقفت على ركابيّ الفرس ورفعت أصابع الهاربي فوق رأسها ليراها المطهّرون، وبأعلى صوتها صاحت: «انتهى الأمر! أنتم لي!»، وهمزت الفرس وهرولت بطول الصّف الأول رافعةً الكبراج عاليًا وهاتفّة: «أنتم جنود التَّين الآن! بعثم ودفع ثمنكم! انتهى الأمر! انتهى الأمر!».

لمحت جازدان الكبير يلتفت بحركة حادة، ففكرت: سمعني أنكلم الفاليريّة، لكن النّخاسين الآخرين لم يكونوا منصتين، وتزاحموا حول كرازنس والتّنين صائحين بالنّصائح، فعلى الرغم من كلّ شدّ الأستاپوري وجذبه رفضي دروجون أن يتزحّح من مكانه في الهودج، وخرج الدخان رمادياً من فكّيه المفتوحين، وتلوّى عنقه الطويل واستقام وهو ينهش الهواء بأسنانه في وجه النّخاس.

حدّثت داني نفسها وهي تدور عائدة بفرسها: حان وقت عبور (الثالوث)، وتحرك خيالة دمها محيطين بها من كذب، ثم توقفت عند الهودج وقالت: «يبدو أنك تواجه صعوبة».

ردّ كرازنس: «لا يريد أن يأتي».

قالت داني: «هناك سبب. التّنين ليس عبداً»، وهوت بالسّوط بأقصى قوتها على وجه النّخاس، وصرخ كرازنس وتراجع مترنّحاً والدّم يسيل على وجنتيه إلى لحيته المعطرة. بضربة واحدة مزّقت أصابع الهاربي ملامحه شرّ ممزق، لكن داني لم تتوقّف لتأمل ما أحدثته في لحمه من خراب، وبصوت رنان كله عذوبة كالغناء قالت وقد نسيت خوفها تماماً: «دروجون، دراكارس».

وبسط التّنين الأسود جناحيه ودوّى زئيره.

رُمح من اللهب الأسود المائج ضرب كرازنس في وجهه مباشرة، وفي لحظة ذابت عيناه وسالتا على وجهه، وشبّت النار في الزيت الذي أغرق به شعره ولحيته بمنتهى العنف حتى إن النّخاس بدا لحظة كأنما يرتدي تاجاً مشتعلاً أطول من رأسه مرّتين، وتغلّبت رائحة اللحم المتفحّم المباغته على عطره الفاغم، وطغى عويله على جميع الأصوات الأخرى.

ثم تفجّرت الدّماء والفوضى في (ساحة العقاب).

كان الأسياد الكرام يصرّخون ويتعثّرون ويتدافعون وتشتبك أرجلهم في حواشي التوكارات من فرط العجلة، وحلق دروجون بحركة أقرب إلى الكسل نحو كرازنس وجناحاه الأسودان يضربان الهواء، وإذ لعق النّخاس بلسان آخر من النار أطلقت إيري وچيكوي سراح فسيريون وريجال، وفجأة أصبح هناك ثلاثة تنانين في الهواء. عندما التفّت داني لتنظر، كان ثلث مُحاربي (أستاپور) المغاوير ذوي قرون الشياطين يكافح للبقاء على متون الخيول، وثلث آخر

يفرُّ مصحوبًا بوهج البرونز. استطاعَ رجل منهم أن يثبت فوق سرجه ويستلَّ سيفه، لكن سوط چوجو التفَّ حول عنقه وأخرسَ صيحته، وقد ثابَّ يده بضربةٍ من أراخ راگارو وهربَ مترنِّحًا ودماؤه تتبجس بغزارة، بينما استقرَّ أجو بهدوءٍ على متن حصانه وثبَّت سهامه إلى قوسه وسدَّها إلى كلِّ من يرتدي التوكار دون أن يُبالي بالحاشية، سواء أكانت فضيَّةً أو ذهبيَّةً أو بلا زينة، ولوح بلواس القوي بأراخه وراخ يضرب به هنا وهناك.

سمعتَ داني أحد الأستاپوريين يصيح: «الحراب!» . كان جرازدان، جرازدان الكبير بتوكاره الذي أثقلته اللآلئ. «أيها المطهَّرون! دافعوا عنا! أوقفوهم! دافعوا عن أسياذكُم! الحراب! السيف!».

حين غرس راگارو سهمًا في فمه أسقطَ العبيد الذين يحملونه المحفَّة وتركوه يتهاوى أرضًا، وزحفَ العجوز إلى أول صفِّ من المخصَّيين ودمه يتدفَّق على القرميد، لكن المطهَّرين لم يخفِضوا أعينهم إليه حتى ليشاهدوه وهو يموت، وصفًا وراء صفِّ وراء صفِّ ظلُّوا واقفين.

هرولتَ داني أمامهم وضميرتها الذهبيَّة الفضيَّة تُرْفرف وراءها وجرسها يرنُّ، وصاحت: «أيها المطهَّرون! اقتلوا الأسياد الكرام، اقتلوا الجنود، اقتلوا كلَّ من يرتدي التوكار أو يحمل سوطًا، لكن لا تؤذوا طفلًا تحت الثانية عشرة، واضربوا قيود كلِّ عبدٍ ترون»، ورفعتَ أصابع الهاربي في الهواء... ثم ألقتَ السَّوط أرضًا وردَّدت بنبرة كأنها لحن: «الحرِّيَّة! دراكارس! دراكارس!».

وهتفوا هم بأعذب كلمةٍ سمعتها في حياتها: «دراكارس! دراكارس! دراكارس!»، وفي كلِّ مكانٍ حولهم جرى النَّخاسون وأنتحبوا وتوسَّلوا وماتوا، وامتلأَ الهواء المغبَّر بالحراب والنَّيران.

سانزا

هذا الصِّباح سيكون فُستانها الجديد جاهزًا.

دخَلت الخادِمات وملأَن حوض سانزا بالمياه السَّاخنة، وفركن جسدها كلَّه من الرِّأس إلى القدمين حتى نصَّعت بشرتها وتورَّدت، وقلَّمت وصيفة سرسي الخاصَّة أظفارها ومشَّطت شعرها الكسْتنائي وموجَّته لينسدل على ظَهرها في حُلِيقات ناعمة. أحضرت الفتاة معها دسْتة من عطور الملكة المفضَّلة أيضًا، وانتَقَت سانزا واحدًا ذا رائحة حادَّة أخاذة، فيه لمحة من اللِّيمون لم يطغَ عليها عبير الزُّهور تمامًا، فملَّست الوصيفة القليل منه على إصبعها ومسَّت سانزا وزاء الأذنين وتحت الدَّقن، ثم بخفَّة على الحلمتين.

أنت سرسي بشخصها مع الخيَّاطة، وشاهدتَ بينما ألبسن سانزا ثيابها الجديدة. كانت الملابس التَّحتيَّة كلِّها من الحرير، أمَّا الفُستان نفسه فمزيج من السَّميت⁽¹⁾ العاجي وقماش الفُضة وبطانته من الساتان المفضَّض، ولمَّا خفَّضت ذراعها كادت أطراف الكُمِّين الطَّويلين الواسعين تلمس الأرض، لكن الأهمَّ أنه فُستان امرأة لا فتاة صغيرة، فالصِّدار مشقوق من الأمام بشكل مخروطي حتى بطنها تقريبًا، ويُعطِّي الفتحة شريط زينة مايري منمَّق بلونَ اليمام الرَّمادي، والتَّنورة طويلة منتفخة والخصر ضيقٌ للغاية، حتى إنها حبست أنفاسها وهُن يعقدن أربطته. أحضرن لها حذاءً جديدًا أيضًا، حُفَّين رماديين من جلد الطُّبَاء النَّاعم عانقًا قدميها كعشيقيين.

قالت لها الخيَّاطة عندما ارتدت الثَّياب: «أنت جميلة للغاية يا سيِّدتي».

(1) السَّميت نسيج حريري شديد الفخامة مزلَّع الحكبة. (المترجم).

ضحكت سانزا ودارت حول نفسها لتتموج ثورتها، وقالت: «نعم، إنني جميلة حقًا. أوه، إنني جميلة!». لا تطيق صبرًا حتى يراها ويلاس هكذا. سيحبني، نعم، لا بد أن يحبني... سينسى (ويبتفل) حين يراني، سأجعله ينساها.

تفحصتها الملكة سرسي بعين ناقدة، قبل أن تقول: «تفحصها بضع جواهر على ما أعتقد. أحجار القمر التي أهداها چوفري إياها».

أجابت وصيفتها: «في الحال يا جلالة الملكة». ولما تدلى اللؤلؤ الأزرق من قرطين في أذني سانزا وأحاط بعنقها، أو ماتت الملكة باستحسان وقالت: «نعم، الآلهة كانت كريمة معك يا سانزا. أنت فتاة جميلة، وتبديد هذه البراءة الجذابة على ذلك المسخ يبدو لي أقرب إلى جريمة».

- «المسخ؟». لم تفهم سانزا. هل تعني ويلاس؟ كيف عرفت؟ لا أحد يعرف غيرها ومارچري وملكة الأشواك... أوه، ودونتوس، لكنه لا يحسب. تجاهلت الملكة سرسي السؤال، وقالت أمره: «المعطف»، فأخرجته المرأة. كان معطفًا طويلًا من المخمل الأبيض المثقل باللآلي، طرز عليه ذئب رهيب ضار بخيط فضي. رمته سانزا بفرع مفاجئ، وقالت سرسي وهنئبتته حول عنقها بسلسلة فضية رقيقة: «ألوان أبيض».

معطف البثولة. ارتفعت يد سانزا إلى حلقها، ولو جرؤت لانتزعت المعطف من على جسدها انتزاعًا.

قالت سرسي: «أنت أجمل وفمك مغلق يا سانزا. هلمّي، السبّتون ينتظر، وضيوف الزفاف أيضًا».

اندفعت سانزا تقول: «لا، لا!».

- «نعم. أنت ربيبة العرش، والملك يحل محل أبيض بما أن أخاك مدان بالخيانة، أي أن لديه كل الحق في التصرف في يدك. ستزوجين أخي تيريون». قالت سانزا لنفسها باشمئزاز: إرثي. لم يكن دونتوس المهرج أحق إذن، بل رأى الحقيقة. ابتعدت عن الملكة قائلة: «لن أفعل». سأنزج ويلاس، سأصبح سيّدة (هايجاردن)، أرجوك...

- «أفهم نفورك. ابكي إذا أردت. لو كنت مكانك لمزقت شعري. إنه عفريت بغيض ولا شك في هذا، لكنك ستزوجينه».

- «لا يُمكنكم أن تُجبروني».

- «بالطبع يُمكننا. إمَّا أن تأتي بهدوء وتُرَدِّدي نذورك كما يليق بليدي راقية، وإمَّا أن تُقاومي وتَصْرُخي وتجعلي من نفسك فُرْجَةً يسخر منها عمَّال الاسطبلات، لكن في النِّهاية ستنزَوِّجينه وتُضاجعينه»، وفتحت الملكة الباب ليدخل السير مرين ترانت والسير أوزموند كِتْلِبلاك المنتظران خارج العُرفة في دروع الحرس الملكي البيضاء، وقالت لهما: «اصحبا الليدي سانزا إلى السِّبْت. احملها إذا اضطررتما، لكن لا تُمزِّقا الفُستان. إنه باهظ الثَّمَن».

حاولت سانزا أن تجري، لكن وصيفة سرسي قبضت على معصمها قبل أن تبتعد أكثر من ياردة واحدة، وحدجها السير مرين ترانت بنظرة جعلتها تنكمش خوفًا، لكن كِتْلِبلاك لمسها بشبه رفق قائلاً: «افعلي ما يُملي عليك يا حلوتي ولن يكون الأمر بهذا السُّوء. المفترَض أن تكون الذئاب شُجاعةً، ليس كذلك؟».

شُجاعة. أخذت سانزا شهيقًا عميقًا قائلةً لنفسها: نعم، أنا ابنة ستارك. يُمكنني أن أكون شُجاعةً. كان الجميع يُحدِّقون إليها كما حدِّقوا في السَّاحة حين مزَّق السير بوروس بلاونت ثيابها. العفريت هو من أنقذها من الضَّرب يومها، الرِّجل ذاته الذي ينتظرها الآن. فكَّرت: إنه ليس سيئًا كسائرهم، ثم قالت لهم: «سأذهب».

قالت سرسي مبهتةً: «كنتُ أعرفُ أنك ستفعلين».

فيما بعد لم تتذكَّر مغادرة العُرفة ونزول السَّلالم وعبور السَّاحة، وبدا كأن اهتمامها كلُّه منصبٌّ على وضع قدم أمام الأخرى، وقد سار السير مرين والسير أوزموند إلى جوارها بمعطفين شاحبين كمعطفها، لا يتَّقصهما إلا اللَّائِي وذئب أبيها الرَّهيب. كان چوفري ينتظرها بنفسه على سلالم سبت القلعة متألِّقًا في القرمزي والذهبي وتواجه على رأسه، وقال لها: «أنا أبوك اليوم».

ردَّت غاضبةً: «لست أبي ولن تكون أبدًا».

اربد وجهه وهو يقول: «أنا أبوك ويُمكنني أن أزوجك من شيءٍ أيَّا كان. ستنزَوِّجين صبيَّ الخنازير إذا أمرتُ وتُشاركينه فراشه في الزَّريبة»، وأضاف والاستمتاع يلمع في عينيه الخضراوين: «أو ربما أعطيك للسير إلين. هل يروقك هذا أكثر؟».

تسارعت نبضات قلبها، وقالت متوسّلةً: «أرجوك يا جلالة الملك. إذا أحببتني ولو قليلاً فلا تجعلني أتزوِّج...».

- «... خاله؟». خرج تيريون لانستر من باب السّبت وقال لچوفري: «جلالة الملك، هلاً تفضّلت وسمحت لي بالانفراد بالليدي سانزا لحظة؟».

كان الملك على وشك أن يرفض، غير أن أمّه رمته بنظرة حادّة، وابتعدا بضعة أقدام.

ارتدى تيريون سترّة قصيرة من المخمل الأسود المحلّى بالزّخارف الذهبية، وحذاء يرتفع حتى الفخذين أضاف ثلاث بوصات إلى طوله، وسلسلة من الياقوت ورؤوس الأسود، لكن الشّج المائل عبر وجهه كان أحمر مسحوجاً، وأنفه ليس أكثر من جلبة شنيعة.

قال لها: «أنت جميلة للغاية يا سانزا».

- «لطف منك أن تقول هذا يا سيّدي». لم تدر ماذا تقول غير هذا. أينبغي أن أقول له إنه وسيم؟ سيظنني حمقاء أو كاذبة. هكذا خفضت ناظريها ولزمت الصّمت.

قال لها: «سيّدي، أعلم أن هذه ليست طريقة يجلبونك بها إلى زفافك، وآسف لهذا، ولجعل المسألة كلّها مباحته وسريّة، لكن أبي ارتأى ضرورة هذا لأسباب تخصّ الدولة، ولولا هذا لأيتيك قبل الآن كما أردت»، وتقدّم منها مضيفاً: «أعرف أنك لم تطلبي هذه الزّيجة، ولا أنا طلبتها كذلك، لكن لو رفضتكَ لزوّجوك لانسل ابن عمّي. ربما تفضّلين ذلك. إنه أقرب إليك في السنّ وأوسم مني. إذا كان هذا ما ترغيبه فقولني وسأضع نهاية لهذه المهزلة».

أرادت أن تقول: لا أرغب في الزّواج بأيّ لانستر. أريد ويلاس، أريد (هايجاردن) والحراء والزّورق، وأبناء أسميهم إدارد ويران وريكون. ثم إنها تذكرت ما قاله لها دونتوس في أيكة الآلهة، ففكرت: تايرل أو لانستر، لا فرق، إنهم لا يريدونني أنا، بل إرثي. قالت مهزومةً: «أنت لطيف يا سيّدي. أنا ربيبة العرش، وواجبي أن أتزوِّج من يأمر به الملك».

أمعن النّظر إليها بعينه غير المتماثلتين، وقال برقةً: «أعلم أنني لسْتُ الزّوج الذي تحلم به الفتيات يا سانزا، لكنني لسْتُ چوفري كذلك».

أجابت: «نعم، لقد عاملتني برفق، أذكرُ هذا».

مَدَّ تيريون إليها يَدًا غليظةً خشنة الأصابع قائلاً: «هلمِّي إذن، لنُقَم بواجبنا». ووضعت يدها في يده وقادها إلى مذبح الزَّواج، حيث ينتظر السَّبَّتون بين (الأم) و(الأب) ليقرن حياتهما معًا. رأت دونتوس في ثياب المهرِّجين يَرْمُقها بعينين متَّسعيتين، وحضرَ السير بالون سوان والسير بوروس بلاونت بأبيض الحرس الملكي، فيما غابَ السير لوراس، وتبيَّنت سانزا فجأةً أن لا أحد من آل تايرل موجود. على أن الشُّهود الآخرين كانوا كثرًا: الخصي فارس، والسير أدام ماربراند، واللورد فيليب فوت، والسير برون، وچالابار شو، وغيرهم كثير، اللورد جايلز يسْعَل، والليدي إرميساند ترضع، وابنة الليدي تاندا الحُبلى تبكي بلا سبب واضح. دعيها تبكي، فربما أبكي مثلها قبل نهاية اليوم. مرَّت المراسم كأنها حُلْم ضبابي، وأدَّت سانزا كلَّ المطلوب منها. رُدَّدت صلوات وعهود وأناشيد، واحترقت شموع طويلة، وتراقصت مئات الأضواء التي جعلتها الدُموع في عينيها آلفًا، لكن من حُسن الحَظِّ أن أحدًا لم يلحظ بُكاءها وهي واقفة عند المذبح ملتحفةً بألوان أبيها، أو أنهم لاحظوا وتظاهروا بالعكس.

ثم، كأن الوقت جرى أسرع من الرِّيح، آنَ أوان تبادل المعطفين. باعتباره أبا البلاد، أخذَ چوفري مكان اللورد إدارد ستارك، ووقفت سانزا متبيسةً كالرُّمَح إذ مَدَّ يديه من فوق كتفيها ليفتح مشبك معطفها، ومَسَّت إحداها ثديها وظلَّت هناك لحظةً لتعتصره بخفة، ثم انفتح المشبك ورفعَ چوف معطف البتولة عنها بأداءٍ ملكي أنيق وابتسامةٍ واسعة. لكن المسألة لم تكن بهذه السُّهولة لَمَّا جاء دور خاله، فمعطف العروس الذي يحمله كان ضخماً ثقيلاً، مفضلاً من مخمل قرمزي مشغول بصُور الأسود ومقَّصَّب عند الحواف بالسَّتان الذهبي وأياقوت، إلا أن أحدًا لم يُفكِّر في إحضار كرسيٍّ صغير، وتيريون أقصر من عروسه بقدم ونصف، واذ وقف وراءها أحسَّت سانزا بشدَّة حادَّة لتثورتها، فقالت لنفسها ووجهها يتورَّد: يُريدني أن أركع. تجمَّدت في مكانها. لم يكن من المفترض أن يكون الأمر هكذا. لقد حلمت بزفافها ألف مرَّة، وتخيلت دائماً كيف سيقف خطيبها وراءها طويلاً قويًّا ويضع معطف الحماية على كتفيها، ويلثم خدَّها برقةٍ وهو يميل إلى الأمام ليربط المشبك.

أَحْسَنَتْ بِنُورِهَا تُشَدُّ ثَانِيَةً بِإِصْرَارٍ أَكْثَرَ، فَقَالَتْ لِنَفْسِهَا: لَنْ أُرْكَعَ. لِمَاذَا
أُرَاعِي مَشَاعِرَهُ بَيْنَمَا لَا يَكْتَرِثُ أَحَدٌ لِمَشَاعِرِي؟
شَدَّ الْقَزْمُ التَّنُورَةَ مَرَّةً ثَالِثَةً، فَزَمَّتْ شَفْتَيْهَا بَعْنَادٍ وَتَظَاهَرَتْ بِأَنَّهَا لَمْ تُلَاخِظْ.
صَدَرَتْ ضَحْكَةٌ مَكْتُومَةٌ مِنْ امْرَأَةٍ وَرَاءَهُمَا، فَفَكَّرَتْ: الْمَلِكَةُ، لَكِنَّهَا لَمْ تَهْتَمْ،
وَسَرَعَانَ مَا كَانَ الْجَمِيعُ يَضْحَكُونَ، وَچُوفَرِي أَصْحَبُهُمْ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ قَالَ
الْمَلِكُ امْرَأً: «دُونْتُوسَ، عَلَى يَدَيْكَ وَرُكْبَتَيْكَ. خَالِي يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَرْفَعُهُ
لِيَرْكَبَ عَرُوسَهُ».

وهكذا ألبسها السيد زوجها معطفًا بألوان عائلة لانستر وهو واقف على
ظهر مهرج.

حين التفتت سانزا كان الرجل الصغير رافعًا عينيه إليها وفمه مشدود عن
آخره ووجهه أحمر كمعطفها، وفجأة اعترها الخجل من عنادها، فسوت
تنورتها وركعت أمامه كي يستوي رأسهما، وقالت: «بهذه القبله أتعهّد بحبّي
وأقبلك سيدي وزوجي».

قال القزم بصوت مبسوح: «بهذه القبله أتعهّد بحبّي وأقبلك سيدي
وزوجتي»، ومال إلى الأمام وتماست شفاهما لحظةً.
فكرت سانزا ووجهه على هذا القرب الشديد منها: يا لقبّحه، إنه أقبّح من
كلب الصيد نفسه.

رفع السّپتون بلورته عاليًا فسقط عليهما الضوء ملونًا كقوس قزح، وأعلن:
«هنا على مرأى من الآلهة والبشر أعلنُ تيريون سليل عائلة لانستر وسانزا
سليلة عائلة ستارك زوجًا وزوجةً، جسدًا واحدًا وروحًا واحدةً، الآن وإلى
الأبد، وملعون من يُفَرِّقَ بينهما».

وعضت سانزا شفاتها مرغمةً لتمنع نفسها من البكاء.
أقيمت مأدبة الزّفاف في القاعة الصّغرى في حضور نحو خمسين ضيفًا،
أغلبهم من حاشية وحلفاء عائلة لانستر الذين انضمّوا إلى من شهدوا الزّفاف،
وهنا وجدت سانزا آل تايرل. رمقتها مارچري بنظرة ملأى بالحزن، وحين دخلت
ملكة الأشواك تمايل بين حارسها شمال ويمين لم تنظر ناحيتها بالمرّة، وبدا
أن إينور وآلا ومجا قد قرّرن أنهن لا يعرفنها، فقالت لنفسها بمرارة. صديقاتي.
شرب زوجها كثيرًا وأكل أقلّ القليل، يُصغي كلما نهض أحدهم ليرفع

نخبًا، ويومئ أحيانًا برأسه على سبيل الشكر، لكن فيما عدا هذا فكأن ملامحه قُدَّت من حجر. طالت المأدبة كأنها تمتدُّ أبديةً لا آخر لها، وإن لم تتدوَّق سانزا شيئًا من الطعام، وفي أعماقها امتزجت رغبته في أن تنتهي برهبتها من نهايتها، فبعد المأدبة يأتي الإضجاع. سوف يحملها الرجال إلى فراش الرِّفاف ويُجرِّدونها من ملابسها كلها في الطريق ويُلقون دُعاباتٍ وقحة عن المصير الذي ينتظرها تحت الأغطية، بينما تفعل النساء المثل مع تيريون، ثم إنهما لن يُتْرِكَا وحدهما إلا بعد أن يصلا عاريتين إلى سريرهما، وحتى عندها سيظل الضيوف واقفين خارج غرفة الزوجية ويصيحون بنصائح بذئثة من وراء الباب. في صغرها بدت فكرة الإضجاع مثيرةً لذيدةً لأقصى حد، لكن الآن واللحظة تقرب لا تُشعر سانزا إلا بالخوف، فهي لا تحسب أنها ستتحمل أن يُمزَّقوا ثيابها عنها، وتثق بأنها ستنفجر باكيةً لدى سماع أول دعاية سليطة. عندما بدأ عزف الموسيقى، وضعت يداً مترددةً على يد تيريون، وسألت: «هل نقود الرِّقصة يا سيدي؟».

التوى فمه مجيبًا: «أعتقد أننا سليناهم بما يكفي اليوم، أليس كذلك؟». قالت مزيحةً يدها: «كما تشاء يا سيدي».

قاد چوفري ومارچري الرِّقصة بدلًا منهما، وتساءلت سانزا وهي تُشاهدهما: كيف يُمكن أن يرقص وحش بهذا الجمال؟ كثيرًا ما راودتها أحلام اليقظة برقصها يوم زفافها، وكيف سُسِّلت أنظار الجميع عليها وعلى سيدها الوسيم، وفي أحلامها كان الكل يبتسمون. حتى زوجي نفسه لا يبتسم الآن. سرعان ما انضمَّ ضيوف آخرون إلى الملك وخطيبته في حلبة الرِّقص. رقصت إينور مع مُرافقها الشاب، ومجا مع الأمير تومن، ودارت الليدي ميريويدر -الحسنة المايرية ذات الشعر الأسود والعينين الداكنتين الواسعتين- بمنتهى الفتنة فتعلقت بها أعين كلِّ رجل في القاعة، وتحرك اللورد والليدي تايرل برزانه أكثر، وطلب السير كيفان شرف الرِّقص مع الليدي چانا فوسواي أخت اللورد تايرل، وانضمت ميري كرين إلى الأمير المنفي چالابار شو المتألق في ثيابه الرِّيش الفاخرة، ورقصت سرسي لانستر مع اللورد ردواين أولاً، ثم اللورد روان، وأخيرًا مع أبيها الذي تحرك برشاقة دون أن يبتسم.

جلست سائزا ويدها في حجرها تُشاهد الملكة تتحرّك وتضحك وتنفّض
خُصلات شعرها الشَّقراء، وقالت لنفسها بجمود: إنها تسحرهم جميعًا. كم
أكرهها، وأشاحت بوجهها لتُنظر حيث يَرُقُص فتى القمر مع دونتوس.
وقف السير جارلان تايرل عند المنصّة، وقال: «ليدي سائزا، أسمحين لي
بشرف الرَّقْص معكِ؟ بعد إذن السيّد زوجكِ».

زرَّ العفريت عينيه غير المتماثلتين قائلاً: «فلترُقْص زوجتي مع من تُريد».
ربما كان حريّاً بها أن تبقى إلى جوار زوجها، لكنها تتوق إلى الرَّقْص
بشدة... والسير جارلان شقيق مارچري، وويلاس، وفارسها فارس الزُّهور.
هكذا أجابت واضعةً يدها في يده: «أرى سبب تلقّيك بجارلان الهُمام أيها
الفارس».

- «كرم من سيّدتي أن تقول هذا. أخي وويلاس هو من أطلقَ عليّ هذا
اللُّقب، ليحميني».

حدجته بنظرةٍ حائرةٍ وردّدت: «يحميك؟».

أجاب السير جارلان ضاحكاً: «كنتُ بديناً في صِغري، ولدينا عم اسمه
جارث السّمين، فقرّر وويلاس أن يسبق الآخرين إلى تلقّيمي، لكن ليس قبل أن
يُهدّني بجارلان الشّاحب وجارلان المزعج وجارلان المسخ».

ضحكت سائزا مرغمةً لحميميّة الحكاية وسُخفها على الرغم من
كلِّ شيء، وبعدها وجدت نفسها ممتنةً على نحو لم تعقله. بشكل ما أحيأ
الضحك الأمل فيها من جديد، حتى ولو فترةً كُن تطول، وببسمّةٍ تركت
الموسيقى تستغرقها وفقدت نفسها في الحُطوات وفي أنغام النَّاي والمزمار
والقيثارة ووقع الطبول... وبين الحين والآخر بين ذراعي السير جارلان كلما
عادَت الرَّقْصة تجمعهما، وفي واحدٍ من تلك الأحيان قال لها بهدوء: «السّيّدة
زوجتي قلقة عليكٍ للغاية».

- «الليدي ليونيت شديدة اللُّطف. قُل لها إنني بخير».

قال بنبرةٍ لم يغب عنها الرِّفق: «المفترض أن تكون عروس في زفافها أكثر
من «بخير». لقد بدوت على وشك الإجهاش بالبُكاء».

- «إنها دموع الفرح أيها الفارس».

- «عينك تبوحان بكذب لسانك»، ودورها السير جارلان وسحبها إلى

جانِبِه مردفًا: «سَيِّدَتِي، لَقَدْ رَأَيْتُ نَظْرَاتِكَ إِلَى أَخِي. لُورَاسُ شُجَاعٍ وَوَسِيمٍ، وَكَلْنَا مَغْرَمُونَ بِهِ... لَكِنْ عَفْرِيَتِكَ سَيَكُونُ زَوْجًا أَصْلَحَ لِكَ. هَذَا الرَّجُلُ أَكْبَرُ مِمَّا يَبْدُو فِي اعْتِقَادِي».

بَاعَدَتِ الْمَوْسِيقَى بَيْنَهُمَا قَبْلَ أَنْ تُفَكِّرَ سَانزَا فِي رَدِّ، وَنَقَلَتْهَا إِلَى مَايسِ تَايرِلَ بُوَجْهِهِ الْمُحْتَقَنِ وَعَرَقِهِ، ثُمَّ اللَّوْرُدُ مِيرْيُويدِرَ، ثُمَّ الْأَمِيرُ تُوْمَنُ، وَقَالَ لَهَا الْأَمِيرُ الصَّغِيرُ الَّذِي لَا تَتَعَدَّى سِنُّهُ التَّاسِعَةَ: «أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ أَيْضًا. أَنَا أَطْوَلُ مِنْ خَالِي!». قَالَتْ سَانزَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّلَ الشُّرَكَاءُ ثَانِيَةً: «أَعْرِفُ هَذَا». أَتْنَى السَّيْرَ كَيْفَانِ عَلَى جَمَالِهَا، وَرَطَنَ چَالَابَارَ شُوْبَشِيَّ لَمْ تَفْهَمْهُ بَلْغَةً (جُزْرَ الصَّيْفِ)، وَتَمَنَّى لَهَا اللَّوْرُدُ رَدَوَائِنَ كَثِيرًا مِنَ الْأَطْفَالِ السَّمَانِ وَسِنِينًا مِنَ السَّعَادَةِ... ثُمَّ نَقَلَتْهَا الرَّقْصَةَ لِتَجِدَ نَفْسَهَا وَجْهًا لُوْجِهِ مَعَ چُوْفَرِي.

تَصَلَّبَتْ سَانزَا إِذْ مَسَّتْ يَدَهُ يَدَهَا، لَكِنْ الْمَلِكُ شَدَّدَ قَبْضَتَهُ وَشَدَّهَا إِلَيْهِ قَائِلًا: «لَا يَجْدُرُ بِكَ أَنْ تَبْدِي حَزِينَةً هَكَذَا. صَحِيحٌ أَنْ خَالِي مُخْلُوقٌ قَبِيحٌ صَغِيرٌ، لَكِنْ سَتَحْظِينَ بِي أَيْضًا».

- «لَكِنْكَ سَتَتَزَوَّجُ مَارچَرِي!».

- «الْمَلِكُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْظِيَ بِنِسْوَةِ أُخْرِيَاتٍ، عَاهِرَاتٍ. أَبِي فَعَلَ هَذَا، وَوَاحِدٌ مِمَّنْ اسْمُهُمْ إِجُونُ أَيْضًا، الثَّلَاثُ أَوْ الرَّابِعُ، حَظِي بِعَاهِرَاتٍ كَثِيرَاتٍ وَنَعُولٍ كَثِيرِينَ»، وَدَارَا مَعَ الْمَوْسِيقَى فَطَبَعَ چُوْفَ عَلَى وَجْهِهَا قُبْلَةَ رَطْبَةٍ، وَأَضَافَ: «سَيَجْلِبُكَ خَالِي إِلَى فِرَاشِي مَتَى أَمَرْتُ».

هَزَّتْ رَأْسَهَا نَفِيًّا، وَقَالَتْ: «لَنْ يَفْعَلَ».

- «سَيَفْعَلُ وَإِلَّا قَطَعْتُ رَأْسَهُ. ذَلِكَ الْمَلِكُ إِجُونُ أَخَذَ كُلَّ امْرَأَةٍ رَغَبَ فِيهَا، سِوَا أَكَاثِمَاتٍ مَتَزَوَّجَةٍ أَمْ لَمْ تَكُنْ».

لِحَسَنِ الْحَظِّ أَنْ وَقْتُ تَبْدِيلِ الشُّرَكَاءِ حَانَ مِنْ جَدِيدٍ، لَكِنْ سَاقِيهَا كَانَتَا قَدْ تَخَشَّبَتَا، وَلَا بُدَّ أَنْ لِلْوْرُدِ رُوَانٍ وَالسَّيْرِ تَالَادٍ وَمُرَافِقِ إِلَيْنُورٍ حَسْبُوهَا رَاقِصَةٌ خِرْقَاءٌ. ثُمَّ إِنَّمَا عَادَتْ إِلَى السَّيْرِ جَارِلَانَ مَرَّةً أُخِيرَةً، قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ الرَّقْصَةَ وَتَتَنَفَّسَ سَانزَا الصُّعْدَاءَ.

إِلَّا أَنْ ارْتِيَا حَهَا لَمْ يَدُمَ طَوِيلًا، فَبِمَجْرَدِ أَنْ سَكَتَتِ الْمَوْسِيقَى قَالَ چُوْفَرِي: «أَنْ أُوَانِ إِضْجَاعَهُمَا! لِنَخْلَعُ هَذِهِ الثِّيَابَ وَنُلْقِي نَظْرَةً عَلَى مَا سَتُعْطِيهِ الذَّبَّةُ لِخَالِي!»، وَأَيْدِهِ رِجَالُ آخَرُونَ رَافِعِينَ أَصْوَاتَهُمْ بِالْهَتَافِ.

رفع زوجها القزم عينيه بتؤدة عن كأسه، وقال: «لن يكون هناك إضجاع». قبضَ چوفري على ذراع سانزا قائلاً: «سيكون مادمتُ أمرتُ».

هوى العفريت بخنجره على المائدة فغرسه فيها وتركه يرتجف، وقال للملك: «ستلج عروسك بقضيب خشبي إذن. سأخصيك، أقسم أن أفعلها». ران صمت مصدوم على القاعة، وحاولت سانزا الابتعاد عن چوفري، لكنه تمسك بها وتمزق الكم، وإن لم يبذ أن أحداً سمع، والتفتت الملكة سرسي إلى أبيها قائلة: «هل سمعته؟».

نهض اللورد تايوين، وقال: «أعتقد أننا نستطيع التَّجاوُز عن الإضجاع. تيريون، إنني واثق بأنك لم تعن تهديد شخص جلالته».

رأت سانزا قسماً زوجها تشنَّج ثورةً، لكنه قال: «أسأت القول لا أكثر. كانت دُعاةً سيئةً يا مولاي».

صاح چوفري بنبوة ربيعة كالصَّيرير: «لقد هدَّدتني بالخصاء!».

قال تيريون: «نعم يا جلالة الملك، لكن فقط لأنني أحسبك على ذكرك الملكي، فذكري أنا صغير قصير»، ونظرَ إلى چوفري شذراً وهو يتابع: «وإذا قطعت لساني فستحرمني من آخر وسيلةٍ يمكنني أن أمتّع بها الزوجة الجميلة التي أعطيتني إياها».

تفجَّر الضحك من بين شفَتَي السير أوزموند كِتلبلاك، وصدرت من شخص آخر ضحكة مكتومة، لكن چوف لم يضحك، ولا اللورد تايوين الذي قال: «جلالة الملك، ابني سكران كما ترى».

ردَّ العفريت: «نعم، لكن ليس لدرجة أنني لا أستطيعُ إضجاع نفسي»، ووثبَ من على المنصة وجذبَ سانزا بخشونة قائلاً: «هيا يا زوجتي، حان وقت تحطيم بوابتك الحديد. أريد أن ألعب (تعال إلى قلعتي)».

بوجهٍ تضرَّج بالحُمره خرجت سانزا معه من القاعة الصُّغرى قائلةً لنفسها: وهل أملك الخيار؟ يتمايل تيريون عندما يمشي، وخصوصاً إذا مشى مسرعاً كالآن، لكن الآلهة كانت رحيمَةً ولم يُحاول چوفري أو غيره الخروج وراءهما. سُمحَ لهما باستخدام عُرفة نوم عالية في (بُرج اليد) من أجل ليلة زفافهما، وفي الدَّاخل أغلقَ تيريون الباب برُكلةٍ وقال لها: «ثُمَّة إبريق من نبيذ (الكرمة) الذهبي على الحُوان. هلاً تَلطفتِ وصيبتِ لي كأساً؟».

- «أهذه فكرة سديدة يا سيدي؟».

- «بما لا يقاس. إنني لستُ سكرانًا حقًا، لكن أنوي أن أكون».

ملأتُ سانزا كأسًا لكلِّ منهما مفكرةً: سيكون الأمر أسهل إذا سكرتُ أيضًا، وجلستُ على حافة الفراش الكبير ذي الستائر، وأفرغتُ نصف الكأس في جوفها على ثلاث جرعات طويلة. لا شك أنه نبيد من صنفٍ ممتاز، لكن توترها منعها من تذوقه، وخلال ثوانٍ شعرت برأسها يدور. سألتها: «هل تُريدني أن أخلع ثيابي يا سيدي؟».

مال برأسه جانبًا، وقال: «تيريون. اسمي تيريون يا سانزا».

- «تيريون، سيدي، هل أخلعُ فُستاني أم تُريد أن تخلعه أنت؟»، وأخذت جرعةً أخرى من النبيذ.

أشاح العفريت بوجهه قائلاً: «أول مرة تزوجتُ لم يكن هناك إلانا وسپتون سكران وبضعة خنازير تشهد. أكلنا أحد هؤلاء الشهود على سبيل مآدبة الزفاف، وأطعمتني تايشا اللحم المحمّر ولعقتُ الدهن من على أصابعها، وحين سقطنا في الفراش كنا نضحك».

- «هل كنت متزوجًا من قبل؟ لقد... لقد نسيت».

- «لم تنسي لأنك لم تكوني تعرفين».

رغمًا عنها أحسّت سانزا بالفضول، فسألتها: «من كانت يا سيدي؟».

التوى فمه وهو يُجيب: «الليدي تايشا سليلة عائلة قبضة الفضة. رمزهم عملة ذهبية واحدة ومئة عملة فضية على ملاءة دامية. زيجتنا كانت قصيرة للغاية... تناسب رجلًا قصيرًا للغاية مثلي على ما أعتقد».

حدّقت سانزا إلى يديها ولم تقل شيئًا، وبعد قليل سألتها تيريون: «كم عمرك يا سانزا؟».

- «ثلاثة عشر عامًا عندما يدور القمر».

غمغم القمر: «لترحمنا الآلهة»، ورشف من نبذه ثم قال لها: «طيب، الكلام لن يجعلك أكبر. هلاً أدينا واجبنا يا سيديتي إذا كان هذا يُرضيك؟».

- «سيرُضيني أن أرضي السيد زوجي».

بدا أن رَدّها أغضبته وهو يقول: «تتوارين خلف اللبّاقة كأنها سور قلعة!»،

قالت سانزا: «الليدي درعها اللبّاقة». هذا ما علّمتها إياه السبّطة موردين دائمًا.

- «أنا زوجك. يُمكنك أن تخلعي درعك الآن».

- «وثيابي؟».

- «وثيابك أيضًا»، ولوّح بكأسه نحوها متابعًا: «أبي أمرني بإتمام هذه الرّيجة».

ارتجفت يداها وهي تشرع في حلّ أربطة ثيابها، ووجدت كأن لها عشرة أباهيم بدلًا من الأصابع العاديّة، وكلها مكسورة، لكنها تمكّنت بشكل ما من حلّ الأربطة والأزرار، وعلى التّوالي سقط معطفها وفستانها ومشدها وقمصها الحرير أرضًا، وفي النّهاية خلعت ثوبها الدّاخلي والقشعريرة تُغطّي ذراعيها وساقها. أبقت عينيها على الأرض شاعرةً بخجل شديد من النّظر إليه، لكن حين فرغت رفعتهما إليه ورأته يرمقها بثبات، وخيّل إليها أنها تلمح في عينه الخضراء شبقًا وفي السّوداء حنقًا، ولا تدري سانزا أيهما أخافها أكثر. قال لها: «أنت طفلة».

غطّت ثدييها بيديها مجيبةً: «لقد أزهرت».

- «طفلة، لكنني أريدك. هل يُخيفك هذا يا سانزا؟».

- «نعم».

- «وأنا أيضًا. أعرفُ أنني قبيح...».

- «لا يا...».

قام من مقعده قائلاً: «لا تكذبي يا سانزا. إنني ممسوخ ضئيل ذو عاهة، لكن...»، وبتَرَ عبارته فرأت اضطرابه وهو يُحاول انتقاء كلماته، قبل أن يكمل: «... في الفراش، عندما تنظف الشّموع، أنا لستُ أسوأ من أيّ رجل آخر. في الظّلام أنا فارس الرّهور»، وأخذ رشفةً أخرى طويلةً من التّبيد، وأردف: «إنني سخي، ومخلص للمخلصين لي، وأثبتُّ أنني لستُ جبانًا، كما أنني أذكى من معظم النّاس، فلا بدّ أن لهذا وزنًا ما، بل وباستطاعتي أن أكون رقيقًا أيضًا. أخشى أن الرّقّة ليست من طباع معشر لانستر، لكنني أعلمُ أن لديّ القليل منها في مكانٍ ما. يُمكنني... يُمكنني أن أكون زوجًا صالحًا لك».

قالت سانزا لنفسها وقد أتاها الإدراك: إنه لا يقلُّ خوفًا عني. ربما كان هذا كفيلاً بأن يُشعرها بشيءٍ من الحنان نحوه، لكن كل ما شعرت به هو الشّفقة،

والشَّفَقَةُ تُمَيِّتُ الرَّغْبَةَ. كَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا، يَنْتَظِرُ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا، لَكِنْ كَلِمَاتُهَا كَلَّهَا ذَوْتٌ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ إِلَّا الْوُقُوفَ فِي مَكَانِهَا مَرْتَعِدَةً.

لَمَّا أَدْرَكَ أَحْيِرًا أَنَهَا لَنْ تُجِيبَهُ، جَرَعَ تِيرِيونَ لِأَنْسَتِرَ مَا تَبَقِيَ مِنْ نَبِيذِهِ، وَقَالَ: «فَهَمْتُ. ادْخُلِي الْفِرَاشَ يَا سَانِزَا. يَجِبُ أَنْ نَقُومَ بِوَأَجِبْنَا».

صَعَدَتْ إِلَى الْفِرَاشِ ذِي الْحَشِيَّةِ الرَّيْشِ وَأَعْيَةً لِنَظَرَاتِهِ. كَانَتْ شَمْعَةٌ مَعْطَّرَةٌ مَشْتَعَلَةٌ عَلَى الْمَنْضِدَةِ الْمَجَاوِرَةِ، وَنُثِرَتْ بَتَلَاتُ الزُّهُورِ تَحْتَ الْأَغْطِيَةِ. بَدَأَتْ سَانِزَا تَرْفَعُ دَنَارًا تُغَطِّي بِهَ نَفْسَهَا، لَكِنِهَا سَمِعَتْهُ يَقُولُ: «لَا».

جَعَلَهَا الْبَرْدُ تَرْتَعْشُ، لَكِنِهَا أذَعَنْتْ، وَانْغَلَقَتْ عَيْنَاهَا وَانْتَظَرَتْ. بَعْدَ وَهَلَةٍ سَمِعَتْ زَوْجَهَا يَخْلَعُ حِذَاءَهُ وَحَفِيفَ ثِيَابِهِ وَهُوَ يَخْلَعُهَا بِدُورِهَا، وَحِينَ صَعَدَ إِلَى الْفِرَاشِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى ثَدْيِهَا لَمْ تَقْدِرْ سَانِزَا عَلَى مَنَعِ نَفْسِهَا مِنَ الْارْتِجَافِ. تَمَدَّدَتْ بَعَيْنَيْنِ مَغْلَقَتَيْنِ وَكُلَّ خَلِيَّةٍ فِي جَسَدِهَا مَتَوَثِّرَةٌ، تُفَعِّمُهَا الْخَشْيَةَ مِمَّا سَيَفْعَلُهُ الْآنَ. هَلْ سَيَمْسُهَا ثَانِيَةً؟ يُقَبِّلُهَا؟ هَلْ عَلَيْهَا أَنْ تَفْتَحَ سَاقِيهَا لَهُ؟ إِنِهَا تَجْهَلُ الْمَتَوَقَّعَ مِنْهَا.

ارْتَفَعَتْ يَدُهُ وَعِنِهَا وَسَمِعَتْهُ يَقُولُ: «سَانِزَا، افْتَحِي عَيْنَيْكِ».

لَقَدْ وَعَدَتْ بِالطَّاعَةِ، وَلِذَا فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا لِتَرَاهُ يَجْلِسُ عِنْدَ قَدَمَيْهَا عَارِيًّا. حَيْثُ تَلْتَقِي سَاقَاهُ بَرَزَتْ عِصَاهُ الذُّكُورِيَّةُ مَنْتَصِبَةً مِنْ دَغْلٍ مِنَ الشَّعْرِ الْأَصْفَرِ الْخَشْنِ، لَكِنِهَا كَانَتْ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الْمَسْتَقِيمَ فِيهِ.

قَالَ تِيرِيونَ: «سَيِّدَتِي، إِنَّكِ جَمِيلَةٌ حَقًّا، أَوْ كَدُّ لَكَ، لَكِنِّي... لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ هَذَا. فليذهب أبي إلى الجحيم. سننتظر، قمرًا أو عامًا أو فصلًا، مهما طال الأمر، إلى أن تعرفيني أفضل وربما تثقي بي قليلًا». ربما كان يروم طمأننتها بابتسامته، لكن في غياب أنفه يجعله الابتسام يبدو أكثر بشاعةً وخبثًا.

قالت سانزا لنفسها: انظري إليه، انظري إلى زوجك، إليه كله. السبِّة موردن قالت إن في البشر كلهم جمالًا، فاعثري على جماله، حاولي. تفحصت ساقيه ناقصتي الثمو، وجبينه الغليظ المتورم، والعين الخضراء وتلك السوداء، وجدعة أنفه المهترئة وندبته الوردية المعوجة، وشبكة الشعر الأسود والذهبي الخشن التي تعدُّ لحيه. حتى ذكره قبيح، سميك بارز العروق له رأس أرجواني منتفخ. ليس هذا صحيحًا، ليس عدلاً. ما الجريمة التي اقترفتها لتفعل بي الآلهة هذا؟ ما هي؟

قال العفريت: «أقسمُ بِشِرفي كِلا نِستر أني لن أَمسِكِ حتى تُريدين ذلك». استجمعت شجاعتهَا كلها كي تَنظُر في هاتين العينين المتنافرتين وتقول: «وإذا لم أَرِدك أبداً يا سيّدي؟».

اختلجَ فمه كأنها صَفَعته، ورَدَّد: «أبداً؟».

كان عُنقها متيبِّساً للغاية حتى إنها استطاعت الإيماء بصعوبة.

قال تيريون: «لهذا خلقت الآلهة العاهرات للعفاريت من أمثالي»، وكوَّر أصابعه القصيرة الغليظة ونزلَ من السَّرير.

آريا

لم ترَ آريا بلدةً باتّساع (السّيت الحجري) منذ (كينجز لاندنج)، وقال هاروين إن أباه انتصرَ في معركةٍ شهيرة هنا.

حكى لها وهُم راكبون نحو البوّابة: «كان رجال الملك الممجون يُطارِدون روبرت في محاولةٍ للإيقاع به قبل أن ينضمَّ إلى أبيك ثانية، وكان روبرت جريحًا ويعتني به بعض الأصدقاء، عندما احتلّ اللورد كونجتون يد الملك البلدة بقوةٍ عظيمة وبدأ يُمسّطها بيتًا بيتًا، لكن قبل أن يعثروا عليه وصلَ اللورد إدارد وجدّدك واقحمًا الأسوار. قاومَ اللورد كونجتون بشراسة، ودارَ القتال في الشوارع والأزقة، وحتى فوق أسطح البيوت، ودقَّ السّبتونات كلُّهم الأجراس كي يُوصد أهل البلدة أبوابهم. خرجَ روبرت من مكمنه وانضمَّ إلى المعركة حين سمعَ رنين الأجراس، ويُقال إنه قتلَ ستّة رجالٍ يومها، أحدهم مايلز موتون، الذي كان فارسًا ذائع الصّيت ومُرافق الأمير ريجار، وكان روبرت ليقتلَ اليد أيضًا لولا أن المعركة لم تضعهما في مواجهةٍ معًا. على أن كونجتون أصابَ جدك تلي بجرح بليغ، وأسقطَ السير دينس آرَن الذي كان قُرّة عين (الوادي)، لكن حين رأى أن لا سبيل للنّصر لاذّ بالفرار بأقصى سرعةٍ كالجرّافن المرسومة على تُرسه. فيما بعد أطلقوا عليها اسم معركة الأجراس، ولطالما قال روبرت إن أباك من فازَ بها، وليس هو».

تبينَ لآريا من منظر المكان أن مزيدًا من المعارك قد دارَ هنا في الآونة الأخيرة، فبوّابة البلدة مصنوعة من الخشب الخام الجديد، وخارج الأسوار كومة من الألواح المتفحّمة تشي بما حدث لبوّابة القديمة.

كانت (السَّيِّتِ الحجري) مغلقةً تمامًا، لكن قائد البوابة فتح لهم بابًا جانبيًا لما رآهم، وسأله توم وهم يدخلون: «ما أحوال الغذاء عندكم؟».

- «ليست سيئةً كالسَّابِق. القنَّاص جاءَ بقطعٍ من الغنم، وثمة القليل من التَّجارة جنوب (النَّهر الأسود) حيث لم يحترق الحصاد. طبعًا هناك كثيرون يريدون أن يأخذوا ما لدينا، الذئب في يوم والممثلون في التَّالي. من لا يبحثون عن الطَّعام يسعون إلى النَّهب أو الاغتصاب، ومن لا يسعون إلى الذهب والنَّساء يبحثون عن قاتل الملك اللعين. يُقال إنه انسلَّ من بين أصابع اللورد إدميور».

قطب ليم وجهه، وسأله: «اللورد إدميور؟ هل مات اللورد هوستر إذن؟».

- «مات أو يموت. هل تعتقد أن لانستر سيَّجَّه إلى (النَّهر الأسود)؟ القنَّاص يُؤكِّد أنه الطَّريق الأسرع إلى (كينجز لاندنج)»، ولم ينتظر قائد الحرس إجابةً، وأردف: «القنَّاص أخذ كلابه وذهب يتشَمَّم أثره. إذا كان السير چايمي في هذه الأنحاء فسَتَعثُر تلك الكلاب عليه. لقد رأيتها تُمزَّق دبةً تمزيقًا. هل تظنُّ أنها سَتُحِبُّ مذاق دماء الأسود؟».

قال ليم: «الجئمة الممزَّقة لن تنفع أحدًا، والقنَّاص يعرف هذا جيِّدًا».

- «عندما جاء الغريُّون اغتصبوا زوجة القنَّاص وأخته وأشعلوا النَّار في محصوله والتهموا نصف غنمه وقتلوا النَّصف الثَّاني نكايَّة فيه، بل وقتلوا ستَّة كلاب وألقوا جُثثها في بئرهِ. الجئمة الممزَّقة سَتُرضيه تمامًا، وأنا مثله».

رَدَّ ليم: «خيرٌ له ألا يَقتله، هذا كلُّ ما سأقوله، خيرٌ له ألا يَقتله، وأنت أحمق

كبير».

ركبت آريا بين هاروين وأنجاي إذ سلك الخارجون عن القانون الشَّوارع التي قاتل فيها أبوها ذات يوم، ورأت السَّيِّتِ على تلِّه وتحتَه حصن قوي من الحجر الرَّمادي يبدو صغيرًا للغاية بالنَّسبة لبلدة كبيرة كهذه، لكن كلَّ منزلٍ من ثلاثة مرَّوا به كان خرابًا متفحَّمًا، ولم ترَ ناسًا، فسألَت: «هل أهل البلدة كلهم موتى؟».

أجابها أنجاي: «إنهم خجولون فقط»، وأشار إلى قوَّاسين فوق أحد الأسطح، وبضعة صبية بوجوه ملوَّثة بالسُّخام قابعين في أطلال حانة، وبعد قليل فتح خبَّاز مصراعي نافذته ونادى ليم، فأخرج صوته مزيدًا من النَّاس من مخابَّتهم، وبيطء دَبَّت الحياة في (السَّيِّتِ الحجري) من حولهم.

في ميدان الشُّوق في قلب البلدة استقرَّت نافورة على شكل سمكة ترويت
واثبة تضحُّ الماء في بركةٍ ضحلة، ومنها تملأ النَّسوة الدَّلَاء والأباريق، وعلى
بُعد أقدام قليلة من النَّافورة دسّته من الأقفاص الحديد المعلقة من أعمدةٍ
خشبيّة. أقفاص غِربان. لكن الغِربان نفسها كانت خارج الأقفاص غالباً، تنشُر
المياه في البركة أو تجثم على القضبان، أمّا من في الدّاخل فرجال.

أوقف ليم حصانه وحدّق قائلاً بعبوس: «ما هذا؟».

أجابت امرأة عند النَّافورة: «العدالة».

سألها توم: «أتَمّ هذا بأمر من السير ويلبرت؟».

أطلق رجل ضحكةً مريّةً، وقال: «الأسود قتلوا السير ويلبرت منذ عام،
وأبناءؤه كلهم مع الذّئب الصّغير، ينعمون بخيرات الغرب. أتُحسب أنهم
يُبالون بأمثالنا؟ القناص المجنون هو من صاد هؤلاء الذّئاب».

اقشعرّ بدن آريا وقالت لنفسها: ذئاب. رجال روب، رجال أبي. أحسّت
بشيءٍ يجذبها إلى الأقفاص. كانت القضبان ضيّقةً للغاية ولا تُتيح للأسرى أن
يجلسوا أو يتحرّكوا، فوقفوا عرأةً مكشوفين للشمس والريّح والمطر. ضمّت
الأقفاص الثلاثة الأولى رجالاً ميتين التهمت الغِربان آكلة الجيف أعينهم، وإن
بدت المحاجر الجوفاء كأنها تُتابعها، وفي الففص الرّابع تحرك السّجين إذ
مرّت به، ورأت لحيته المشعّنة مثقلّة بالدمّ والذّباب، الذي تفجّر وراح يئزُّ حول
رأسه حين تكلم قائلاً بصوتٍ كنفق الضّفادع: «ماء... أرجوكم... ماء...».

فتح الرّجل في القفص المجاور عينيه على إثر الصّوت، وقال: «هنا، هنا،
أنا». كان عجوزاً أشيب اللحية بقّعت السنُّ فروة رأسه بالبنيّ.

بعد العجوز ميت آخر، رجل كبير الحجم له لحية حمراء، تُغطّي ضمّادة
رماديّة متعفّنة أذنه اليسرى وجزءاً من صدغه، لكن الأسوأ كان بين ساقيه، حيث
لم تتبقَّ إلاّ فجوة بيّنة تعجُّ باليرقات. التّالي رجل سمين لدرجة أنك لا تدري
كيف وضعوه داخل قفص الغِربان شديد الضّيق، وقد انغرس الحديد في بطنه
بشكل مؤلم معصرًا اللّحم بين القضبان، وسفّعته الأيام الطويلة في الشمس
بالأحمر من رأسه إلى قدميه، وحين تزحزح صرّ الففص وتأرجح، ولمحت
آريا الشّراط البيضاء في الأماكن التي سترت فيها القضبان جلده من الشّمس.
سألتهم: «رجال من أنتم؟».

سَمِعَ السَّمِينِ صَوْتَهَا فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ أَحَاطَ بِهِمَا الْأَحْمَرُ فَجَعَلَهُمَا
كَبِيضَتَيْنِ مَسْلُوقَتَيْنِ فِي الدَّمِ، وَقَالَ: «ماء... شراب...».
كَرَّرَتْ: «رجال مَنْ؟».

قال لها رجل البلدة: «لا عليك بهم يا ولد، إنهم ليسوا من شأنك. واصل
طريقك».

وَجَّهَتْ سؤَالَهَا إِلَيْهِ: «ماذا فعلوا؟».

- «قتلوا ثمانيةً في (شَلَّالاتِ الحَاوِي). كانوا يُرِيدُونَ قَاتِلَ الْمَلِكِ،
لكنهم لم يجدوه هناك، فكَرَّرُوا أَنْ يَغْتَصِبُوا وَيَقْتُلُوا»، وَأَشَارَ بِإِبْهَامِهِ إِلَى جَنَّةِ
الَّذِي تَحْتَلُّ الْبِرْقَاتُ مَكَانَ ذَكَرَهُ، وَأَضَافَ: «ها هو المَغْتَصِبُ. وَالآنَ وَاصِلُ
طريقك».

ناداها السَّمِينِ: «ماء. الرَّحْمَةُ يَا وَلَد. شَرِبَةُ مَاءٍ»، وَرَفَعَ الْعَجُوزُ ذِرَاعًا
لِيُمْسِكَ الْقَضْبَانَ فَجَعَلَتْ الْحَرَكَةَ الْقَفْصَ يَتَأَرَّجِحُ بَعْنَفٍ، وَتَمَّتْ ذُو الذَّبَابِ
فِي لِحْيَتِهِ: «ماء».

حَدَّثَتْ إِلَى شَعْرِهِمُ الْقَذْرَ وَلِحَاهُمُ الْخَشْنَةَ وَأَعْيَنَهُمُ الْمَحْمَرَّةَ، وَإِلَى
شَفَاهِهِمُ الْجَافَةَ الْمَشَقَّةَ الدَّامِيَةَ، وَعَادَتْ تَقُولُ لِنَفْسِهَا: ذَنْبٌ، مِثْلِي. أَهَذَا
قَطِيعًا؟ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ أَرْجَالُ رُوبٍ؟ أَرَادَتْ أَنْ تَضْرِبَهُمْ، أَرَادَتْ أَنْ
تُؤَلِّمَهُمْ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَبْكِي. بَدَأَ لَهَا أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا جَمِيعًا، الْأَحْيَاءُ مِنْهُمْ
وَالْمَوْتَى عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ، وَاعْتَصَرَ الْعَجُوزُ ثَلَاثَةَ أَصَابِعٍ مِنْ بَيْنِ الْقَضْبَانَ قَائِلًا:
«ماء، ماء».

وَبُتِبَ آرِيَا مِنْ عَلَى حِصَانِهَا مَفْكَرَةً: لَنْ يُمَكِّنَهُمْ أَنْ يُؤْذُونِي، إِنَّهُمْ
يُحْتَضِرُونَ، وَالتَّقَطَّتْ كُوبَهَا مِنْ لِفَافَةِ التُّومِ وَأَتَّجَهَتْ إِلَى النَّافُورَةِ، فَقَالَ رَجُلُ
الْبَلَدَةِ بَحْدَةً: «ماذا تحسب نفسك فاعلاً يا ولد؟ إنهم ليسوا من شأنك».
رَفَعَتْ الْكُوبَ إِلَى فَمِ السَّمِكَةِ وَتَنَاطَرَ الْمَاءُ عَلَى أَصَابِعِهَا وَجَرَى دَاخِلَ كُمَّهَا،
لَكِنْ آرِيَا لَمْ تَتَحَرَّكَ حَتَّى طَفَحَ الْكُوبُ، وَعِنْدَمَا التَفَتَتْ عَائِدَةً إِلَى الْأَقْفَاصِ،
حَاوَلَ رَجُلُ الْبَلَدَةِ أَنْ يَمْنَعَهَا قَائِلًا: «ابتعد عنهم يا ولد...».

قال هاروين: «إنها فتاة، ودعها وشأنها».

أَضَافَ لِيم: «أجل، اللورد بريك لا يقبل بحبس النَّاسِ فِي الْأَقْفَاصِ
لِيَمُوتُوا مِنَ الْعَطَشِ. لِمَ لَا تَرْحَمُونَهُمْ وَتَسْنُقُونَهُمْ؟».

زمجرَ الرَّجُل: «لم تكن هناك رحمة في الأشياء التي فعلوها في (شلالات الحاوي)».

كانت القضبان أضيّق من أن يمرَّ كوب من بينها، لكن هاروين وجندري ساعداها ورفعها. ثبتت قدمًا على يديّ هاروين المضمومتين، ثم وثبتت إلى كتفيّ جندري وأمسكت القضبان أعلى القفص. رفع الرَّجُل السّمين وجهه ولصقَ وجنته بالحديد، وصبّت آريا الماء عليه، فابتلعه بلهفةٍ وتركه يجري على رأسه وخديّه ويديه، ثم راح يلحق القطرات العالقة بالقضبان، وكان ليلحق أصابع آريا أيضًا لولا أنها أسرعَت تسحبها. حينما فرغت من سقاء الرَّجلين الآخرين كان النَّاس قد تجمهروا لمشاهدتها، وقال أحدهم مهدّدًا: «سيعرف القنّاص المجنون بهذا ولن يروقه، نعم، لن يروقه إطلاقًا».

قال أنجاي: «سيروقه هذا أقلّ إذن»، وركب وتر قوسه الطويل والتقطَ سهمًا من كنانته وثبته وسحبه وأطلقه، وارتجف الرَّجُل السّمين إذ انغرس السّهم في ذقنه المشقوق، لكن القفص لم يسمح له بالسُّقوط. أجهزَ سهمان إضافيّان على الرَّجلين السّماليّين الآخرين، ولم يُسمع صوت في ميدان السُّوق إلاّ خريير المياه المتدفّقة وأزيز الذباب.

وقالت آريا في قرارة نفسها: «قالار مورجولس».

على الجانب الشّرقي من الميدان يقف خان متواضع بجدران مطليّة بالجير ونوافذ مكسّرة، وقد احترق نصف سقفه منذ فترةٍ قريبة، وإن رُقعت الفتحة التي خلفها الحريق، وفوق الباب علّقت لافتة خشبيّة رُسّمت عليها خوخة قُصّمت منها قطعة كبيرة. ترجّلوا عند الاسطبل المتاخم للخان بزواوية مائلة، وزعق ذو اللحية الخضراء مناديا السّاسة.

عوت صاحبة الخان ذات الشّعر الأحمر والصّدر العامر انبساطًا لدى مرآهم، وفي الحال طفقت تقرّصهم واحدًا تلو الآخر قائلةً: «أهذا ذو اللّحية الخضراء؟ أم ذو اللّحية الشّيباء؟ متى صرت عجوزًا هكذا بحقّ (الأم)؟ ليم، أهذا أنت؟ أما زلت ترندي هذا المعطف القذر؟ أعرف لماذا لا تغسله أبدًا. تخشى أن ينظف من كلّ هذا البول ونرى أنك فارس في الحرس الملكي! وتوم أبو السّبعات، أيها التّيس الفاحش العجوز! هل أتيت لترى ابنك؟ تأخّرت إذن. لقد خرج مع ذلك القنّاص الملعون. ولا تقل لي إنه ليس ابنك!».

قال توم باعتراض واهن: «إنه لا يملك صوتي».

- «لكنه يملك أنفك، نعم، وأجزاء أخرى أيضًا كما تقول الفتيات»، ثم إن المرأة لمحت جندري، فقرصت خده وقالت: «انظروا إلى هذا الثور الشاب الجميل. انتظر حتى ترى أليس هاتين الذراعين. أوه، وجهه يتورّد كالفتيات أيضًا. لا عليك يا فتى، أليس ستعالج هذا، ستري».

لم تر آريا وجه جندري متورّدًا هكذا من قبل، وقال توم سبعة أوتار: «دعي الثور وشأنه يا تانسي، إنه صبي طيب. كل ما نريده منك بضعة أسرة آمنة نقضي فيها الليل».

قال آنجاي: «تكلم عن نفسك أيها المغني»، ومدّ ذراعه يطوّق خصر خادمة شابّة قويّة البنية يكسو النمش وجهها كوجهه.

ردّت ذات الشعر الأحمر تانسي: «عندنا أسرة، إنها ليست شيئًا ينقص (الخوخة) أبدًا، لكنكم ستستحئون أولًا. آخر مرة نمتم فيها تحت سقفي تركتم براغيثكم وذهبتن»، ولكزت ذا اللحية الخضراء في صدره مضيفة: «وبراغيثك أنت كانت خضراء أيضًا. هل تريدون طعامًا».

أجاب توم: «إذا كان يُمكنك الاستغناء عنه فلن نقول لا».

قالت المرأة بتهكم: «ومنذ متى تقول لا لشيء يا توم؟ سأشوي الضأن لأصدقائك وجرّدًا مجفّفًا لك. إنه أكثر مما تستحق، لكن إذا غرغرت لي أغنيّة أو ثلاثًا فلربما يرقّ قلبي. إنني أعطف على البائسين دائمًا. هيا، هيا. كاس، لانا، سخنا بضع قدور ماء. چايزين، ساعديني على خلع ثيابهم. يجب أن نغليها أيضًا».

نفذت تانسي تهديداتها كلّها. حاولت آريا أن تقول إنها استحمت مرّتين في (بهو البلوط) قبل أقل من أسبوعين، لكن المرأة حمراء الشعر رفضت تمامًا أن تسمعها، وحملتها خادمتان رغما عنها إلى الطابق العلوي وهما تتجادلان حول كونها ولدًا أم بنتًا. فازت المسماة هيلي، فكان على الثانية أن تُحضّر المياه الساخنة وتحكّ ظهر آريا بفرشاة خشنة كادت تُقشر جلدها، ثم سرقت الخادمتان كلّ الملابس التي أعطتها الليدي سمولود إياها وألبستها الكتان المزين بالشرايط فبدت كواحدة من دُمي سانزا، لكن على الأقل بعد كلّ هذا نزلت ثانية لتأكل.

بينما جلست في القاعة العامة مرتدية ثياب البنات السخيفة، تذكّرت آريا الحيلة التي علّمها سيريو فورل إياها عن النّظر ورؤية ما يُرى، فلمّا نظرت رأّت خادماّت أكثر مما يحتاج أيُّ خان، ومعظمهن شابّات حسناوات، ومع حلول المساء بدأ الرّجال يدخّلون (الخوخة) ويغادرونه بأعداد كبيرة، كما أنهم لم يمكثوا طويلاً في القاعة العامّة، حتى عندما أخرجَ توم قيثارته وبدأ يُعنيّ (ست عذارى في بركة). كانت السّلالم الخشبيّة قديمة حادّة الانحدار، وتصرّ بشدّة كلما أخذ أحد الرّجال فتاةً إلى أعلى.

همست لجندري: «أراهن أن هذا ماخور».

- «إنك لا تعرفين ما هو الماخور حتى».

قالت بإصرار: «بل أعرف. إنه مثل الخان، لكن بفتيات».

عادَ وجهه يتورّد وهو يقول: «ماذا تفعلين هنا إذن؟ الماخور ليس مكاناً لائقاً بليدي نبيلة، الكل يعلم هذا».

جلست إحدى الفتيات على الدّكّة إلى جواره، وقالت: «من الليدي التّيبيلة؟ هذه الفتاة التّحيفة؟»، ونظرت إلى آريا وضحكت مردفة: «أنا ابنة ملك عن نفسي».

ردّت آريا مدرّكةً أنها تسخر منها: «لا، لست كذلك».

هزّت الفتاة كتفيها فانحسر فستانها عن إحداهما، وقالت: «قد أكون. يقولون إن الملك روبرت ضاجع أمّي حين كان هنا قبل المعركة. هذا لا يعني أنه لم يُجرّب الفتيات الأخريات كلهن أيضاً، لكن ليزلين تقول إنه استمتع بماما أكثر من غيرها».

فكّرت آريا أن الفتاة شعرها غزير فاحم كشعر الملك الرّاحل حقّاً، لكنها قالت لنفسها: مع أن هذا لا يعني شيئاً. جندري له شعر مشابه أيضاً. أناس كثيرون شعرهم أسود.

قالت الفتاة لجندري: «اسمي بلا، تيمناً بالمعركة. أراهن أني أستطيع أن أدقّ الجرس بين ساقيك. هل تُريد؟».

ردّ بخشونة: «لا».

تحسّست ذراعه قائلة: «أراهن أنك تُريد. لستُ أكلفُ أصدقاء ثوروس وسيّد البرق شيئاً».

- «قلتُ لا»، وقامَ جندرِي وابتعدَ عن المائدةِ خارجًا إلى الليلِ .
التفتتُ بلاَ إلى آريا، وسألتُها: «ألا يُحبُّ الفتياتُ؟» .
هزَّت آريا كتفِها معجِبةً: «إنه أحقُّ لا أكثر. يُحبُّ صُفْل الخوذاتِ ودَقَّ
السُّيوفِ بمطرقة» .

غمغمتُ بلاَ: «أوه»، وعادتُ تُبَيِّتُ الفُستانَ على كتفِها وذهبتُ تتكلَّمُ مع
چاكِ المحظوظِ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن تنتقلَ إلى الجِلسِ في حِجره
وهي تُفهِمُه وترشِفُ النَّبيذَ من كوبه. كانت مع ذي اللحيةِ الخضراءِ فتاتانِ،
واحدة على كلِّ رُكبةٍ، بينما اختفى ليمٌ وكذا أنجاي مع فتاته المنمَّشة، أمَّا توم
سبعة أوتار فجلسَ عند النَّارِ يُعَنِّي (اللواتي يُزهَرَن في الرَّبيعِ)، وأصغَت آريا
وهي تشرب من كوب النَّبيذِ المخفَّفِ بالماءِ الذي سمحتَ لها به المرأةُ حمراءِ
السُّعرِ. عبر الميدانَ كان الموتى يتعفنون في أفاصِ الغِربانِ، لكن داخلِ
(الخوخة) يعمُّ المرح... وإن بدا لها بشكلٌ ما أن بعضهم يُبالغ في الصَّحكِ .
الآن وقتٌ مناسبٌ تمامًا لأن تنسلَّ آريا وتسرق حِصانًا، لكنها لا ترى
كيف سيُساعدُها ذلك، فلن يُمكنها أن تذهب أبعد من بَوابَةِ البلدة. لن يدعيني
قائد الحرسِ أمرًا أبدًا، وحتى إذا فعلَ سيلاحيقني هاروين، أو ذلك القنَّاصِ
وكلابه. تمتَّ لو أن خارطتها معها كي ترى كم تبعدُ (السَّبتِ الحجري) عن
(ريقررن).

كانت تتشاءب حين فرغَ كوبها. لم يُعد جندرِي، وشرعَ توم في غناء (قلبانِ
ينبضان كواحد) مقبلاً فتاةً مختلفةً مع نهاية كل بيت، وفي رُكنٍ عند النَّافذةِ
جلسَ ليم وهاروين يتكلَّمان مع تانسي بصوتٍ خفيضٍ، وسمعتُ آريا المرأةُ
تقول: «... أمضتُ الليلَ في زِنانةِ چايمي، هي وتلك المرأةُ الأخرى التي
قتلت رنلي. الثلاثة معًا، ولمَّا جاء الصُّباحُ أطلقتُ الليدي كاتلين سراحه من
أجلِ الحُبِّ» .

مستحيل، لا يُمكنها أن تفعل هذا أبدًا. في آنٍ واحدٍ أحسَّت آريا بالحزنِ
والغضبِ والوحدةِ .

جلسَ عجوزٌ إلى جوارها قائلاً: «ما أحلاكِ أيتها الخوخة الصَّغيرة» . كانت
أنفاسه كريهةً كرائحةِ الرِّجالِ الموتى في الأفاصِ، وراحتَ عيناه الخنزيريتانِ
الصَّغيرتان ترحفان على جسدها كالتَّمَلِ . «ما اسمِ خوختي العُلوةِ؟» .

مَرَّتْ لحظة وقد نسيَت مَنْ يُفترَضُ أن تكون الآن. إنها ليست خوخةً، لكن لا يُمكن أن تكون آريا ستارك كذلك، ليس هنا مع هذا السكران كريبه الرَّائحة الذي لا تعرفه. «أنا...».

- «إنها أختي»، قال جندري ووضعَ يده الثَّقيلة على كتف العجوز واعتصرَها. «دعها وشأنها».

التفتَ الرَّجل راغبًا في الشُّجار، لكنه تعقَّل حين رأى حجمَ جندري، وقال: «أختك؟ أيُّ أخ أنت؟ لا يُمكنني أن أجلب أختي إلى (الخوخة) أبدًا»، وقامَ وابتعدَ مدمدماً يَبْحَثُ عن صُحبةٍ جديدة.

أسرعتَ آريا تنهضُ قائلةً: «لماذا قلتَ هذا؟ أنت لست أخي». رَدَّ غاضبًا: «هذا صحيح. إنني أخطُ نسبًا من أن أكون قريبًا لسَيِّدتي السَّامية».

بُهتتَ آريا للغضب في صوته، وقالت: «ليس هذا ما عنيته».

- «بل هو كذلك بالضبط»، وجلسَ على الدُّكَّة واحتضنَ كوب نبيذ بيديه، وقال: «اذهبي. أريدُ أن أشرب هذا في سلام، ثم قد أبحثُ عن تلك الفتاة سوداء الشعر وأدقُّ لها جرسها».

- «لكن...».

- «قلتُ اذهبي... يا سيِّدتي».

دارتَ آريا عليَّ عقيبها وتركته هناك. ليس أكثر من نغلٍ أحرق عنيذ كالثيران. فليدقَّ كلُّ ما يُريد من أجراس ولن تُبالي.

خُصِّصتَ لهم عُرفة نوم أعلى السَّلالم تحت إفريز السَّطح. ربما لا يفتقر (الخوخة) إلى الأسرَّة، لكن واحدًا فقط تُركَ لأمثالهم، وإن كان سريرًا كبيرًا يكاد يحتلُّ العُرفة كلَّها، وبدتَ الحشِيَّة القَش البالية واسعةً بما يكفيهم جميعًا، وفي الوقت الحالي هي لها وحدها. وجدتَ آريا ثيابها الحقيقيَّة معلقةً على مشجبٍ على الحائط بين حاجيات جندري وليم، وخلعتَ الكتَّان المزيَّن ثم دخلتُ الفِراش ودفنتَ نفسها تحت الأعطية، وهمستَ لوسادتها: «الملكة سرسي، الملك چوفري، السير إلين، السير مرين، دانسن، راف وپوليثر، المُدغدغ، كلب الصَّيد، والسير جريجور الجبل». أحيانًا يروقها أن تخلط

ترتيب الأسماء كي تظَلَّ تَذْكُرُ أصحابها وما فعلوه. ربما ماتَ بعضهم، ربما كانوا في أفاص حديد في مكان ما والغربان تنفُرُ أعينهم.

أتاها النَّوْمُ بمجرد أن أسبَلت جفنيها. ليلتها حلَمَت بالذَّئاب تنسلُّ في غابةٍ بليلة فيما تُفَعِم روائح المطر والعطن والدَّم الهواء. في الحُلُم هي روائح حلوة، وعرفت آريا أنه ليس هناك ما تخافه. إنها قويَّة سريعة شرسة، وقطيعها يُحيط بها، إخوتها وأخواتها. معًا داهموا حصانًا مرعوبًا ومزقوا حلقة والتهموه وليمةً، وحين نفذ نور القمر من السُّحب رفعت رأسها وجعلت تعوي.

لكن حين طلع النَّهار استيقظت على نباح الكلاب.

اعتدلت آريا مثابئةً. كان جندي يتحرك إلى يسارها وليم ذو المعطف الليموني يغطُّ بصوت عالٍ إلى يمينها، لكن النَّباح طغى على غطيته. لا بدُّ أن هناك خمسين كلبًا في الخارج. زحفَت من تحت الأغطية وحجَلت فوق ليم وتوم وچاك المحظوظ نحو النَّافذة، ولَمَّا فتحتها على مصراعها تدفقت الرِّيح والبرد والبلل إلى الدَّاخل في غمضة عين. كان نهارًا قاتمًا غائمًا، وفي الميدان في الأسفل تنبح الكلاب وتجري في دوائر وتعوي وتُرمِج، قطع كبير منها يضمُّ أكثر من درواس⁽¹⁾ أسود ضخم، بخلاف كلاب صيد الذئاب وكلاب رعي الماشية بلونيهما الأبيض والأسود، وأنواع أخرى تجهلها آريا، وحوش ذات شعر رمادي داكن مخطط وأسنان طويلة صفراء. بين الخان والنَّافورة استقرت مجموعة من الخيالة فوق السُّروج، تُراقب رجال البلدة يفتحون قفص الرِّجل السَّمين ويشدُّون ذراعه حتى تهاوت جثته المتنفخة على الأرض، وفي اللَّحظة التَّالية انقضت عليه الكلاب ممزقة لحمه.

سمعت آريا أحد الرَّاكبين يضحك ويقول: «ها هي قلعتك الجديدة أيها اللانستر الحقيق، ضيقة بعض الشيء بالنسبة لأمثالك، لكننا سنعتصرِك حتى تدخل، لا تقلق». إلى جواره كان سجين واجم تُوثق أربطة من الليف معصميه، وراح بعض أهل البلدة يرمونه بالرَّوث، لكنه لم يجفل مرَّةً. صاح آسره: «ستلتهم الغربان عينيك بينما نُنْفِق كلَّ ما معك من ذهب لانستر!

(1) الدَّرَواس كلب شديد الضخامة يُستخدَم في الصَّيد والحراسة. (المترجم).

وعندما تفرغ منك الغربان، سُرِّبِل ما تبقي منك إلى أخيك اللعين، مع أنني أشكُّ في أنه سيتعرفك».

أيقظت الصَّوضاء نصف (الخوخة)، ودَسَّ جندي نفسه إلى جوار آريا، ووقفَ توم وراءهما عاريًا تمامًا، وقال ليم متذمِّرًا من الفراش: «ما كل هذا الصَّباح؟ إنني أحاولُ أن أنام قليلًا!».

سأله توم: «أين ذو اللحية الخضراء؟».

- «في الفراش مع تانسي. لماذا؟».

- «اعثر عليه، وأنجاي أيضًا. القنَّاص المجنون عادَ ومعه رجل آخر

للأقفاص».

قالت آريا: «لانستر، سمعته يقول لانستر».

سأل جندي: «هل قبضوا على قاتل الملك؟».

في الميدان في الأسفل أصابَ حجر مقذوف الأسير في وجنته ودوَّر رأسه، ولمَّا رأت وجهه فكَّرت آريا: ليس قاتل الملك.

لقد أجابت الآلهة دُعاءها.

چون

كان جوست قد رحلَ حين خرجَ الهَمَجُ بخيولهم من الكهف، فتساءلَ چون: هل فهمَ ما قلته عن (القلعة السوداء)؟ أخذَ نفسًا عميقًا من هواء الصُّبْحِ البارد وسمحَ لنفسه بالأمل. رأى سماءَ الشَّرْقِ ورديةً قُرب الأفقِ ورماديةً شاحبةً أعلاه، و(سيف الصُّباح) لا يزالَ ظاهرًا في الجنوب، وقد تألَّقَ النُّجمُ الأبيضُ الوضَّاءُ في غِمدِه كمامةٍ في الفَجْرِ، لكنَّ أسودَ ورمادي الغابةِ المعتمةِ بدأ يستحيلان من جديدٍ إلى الأخضرِ والذهبي والأحمرِ والخمري، وفوقَ شجرِ الصَّنوبرِ والسَّنديانِ والدردارِ والحارسِ يرتفعُ (الجدار)، يلتمعُ جليده بشحوبٍ تحت طبقةِ العُبارِ والوسخِ التي لَوَّثت وجهه في غير موضع. بأمرٍ من المَاجنِرِ ركبَتِ دسْتة من الرِّجالِ غربًا ومثلها شرقًا، ليتسلَّقوا أعلى تلالٍ يجدونها ويترصدوا ظهورَ أيِّ جِوالةٍ في الغابةِ أو خيالةٍ فوق الجليدِ العالِي. حملَ الثَّنيونُ أبواقَ حربٍ مطعَّمةً بالبرونزِ لإطلاقِ الإنذارِ إذا شوهدَ الحرسُ، ولحقَ الهَمَجُ الآخرونَ بچارل، وتبعَ چونُ ويُجرى البقيَّةُ. إنها ساعة مجدِّ الهَجَامِ الشَّابِ.

غالبًا ما يُقال إن ارتفاعَ هذا الصَّرْحِ الجليدي سبعمئة قدم، لكن چارل وجد بُقعةً (الجدار) فيها أعلى وأوطأ من هذا في آن واحد. أمامهم يرتفعُ الجليدُ بزَاويةٍ قائمةٍ من وراء الأشجارِ كجُرفِ عملاق، تُتوجَّهُ شُرْفَاتُ شكلتها الرِّيحُ وتطلُّ من ارتفاعِ ثمانمئة قدم على الأقل، وربما تسعمئة في مواضعٍ معيَّنة، لكن چون أدركَ إذ دنوا أكثر أن المنظرَ خدَّاعٌ.

لقد أرسى براندونُ البِنَاءَ قِوالبِ الأساسِ الضَّخمةِ بين المرتفعاتِ أينما كان هذا متاحًا، وهنا التلالُ بريَّةٌ وعرة. سمعَ چونُ عمَّه بنِچن يقول ذات

مرّة إن (الجدار) سيف شرق (القلعة السوداء) و ثعبان غربها، وهذا صحيح، فهنا يُكَلَّلُ الجليد تَلًا محدبًا ضخمًا، ثم ينزل إلى وادٍ، ويتسلَّق حافة أخذود جرانيتي طويل يمتدُّ فرسحًا، ويمضي مع قَمَّةٍ محزّزة، وينزل ثانيةً إلى وادٍ آخر أعمق، ثم يرتفع أعلى وأعلى من تلٍّ إلى تلٍّ على مدى البصر ليلتحم بالجبال في الغرب.

اختارَ چارل أن يتسلَّقوا بقعة الجليد الممتدّة مع الأخدود، فعلى الرغم من أن (الجدار) يرتفع ثمانمئة قدم فوق أرض الغابة هناك، فثلث هذا الارتفاع من التربة والحجارة بدلًا من الجليد. كان المنحدر مائلًا بشدّة تُصعّب صعوده على خيولهم - كمنحدرات (قبضة البشر الأوائل) تقريبًا- لكن تسلقه يظل أيسر كثيرًا من وجه (الجدار) الرّاسي، كما أن الأخدود كثيف الأشجار أيضًا، وهو ما يُوفّر لهم الاستتار بسهولة. في الماضي كان الإخوة الشّود يخرّجون كلَّ يوم بالفؤوس لقطع الشّجر الذي يتخطى نموّه الحدود، لكن تلك الأيام ولت منذ دهر، وهنا تنمو الغابة حتى الجليد مباشرةً.

توعدهم التّهار بالرّطوبة والبرد، وبأن يكون أكثر رطوبةً وبردًا عند (الجدار) وأطنان الجليد تلك، وكلما اقتربوا أحجم الثّنيون عن التّقدّم. فكَرّ چون: إنهم لم يروا (الجدار) من قبل قطّ، ولا حتى الماجر نفسه. إنه يُخيفهم. في (الممالك السّبع) يُقال إن (الجدار) يقف عند نهاية العالم. وهذا صحيح بالنسبة لهم أيضًا. كل شيء يعتمد على موقع المرء منه.

وما موقعي أنا؟ لا يعرف چون الإجابة. ليبقى مع إيجريت عليه أن يُصبح همجيًا قلبًا وروحًا، وإذا هجرها ليعود إلى واجبه فقد ينتزع الماجر قلبها من صدرها، وإذا أخذها معه - بافتراض أنها ستوافق، وهو بعيد كل البعد عن الثّقة بهذا- فلا يستطيع بالطبع أن يذهب بها إلى (القلعة السوداء) لتعيش بين إخوته... وفي أيّ مكان في (الممالك السّبع) لن يتوقّع متهرّب وهمجيّة ترحيبًا. يُمكننا أن نذهب للبحث عن أطفال جندل على ما اعتقد، وإن كانوا سيلتهمونا غالبًا بدلًا من أن يقبلونا بينهم.

رأى چون أن (الجدار) لا يُرهب هجّانة چارل. كلُّ واحدٍ منهم تسلّقه من قبل. نادى چارل أسماءهم عندما ترجّلوا تحت حافة الأخدود، واجتمع أحد عشر منهم حوله، جميعهم صغار السنّ، أكبرهم لا يتجاوز الخامسة

والعشرين، واثنان منهم أصغر من چون. على أن كلاً منهم يتَّسم بالصَّلابة والتَّحول وتلوح عليه قوَّة عضليَّة ذكَّرت چون بثعبان الحجر، الأخ الذي صرفه كورين على قدميه حين كان ذو القميص المُخشَّخِش يُطاردهم.

في ظلِّ (الجِدار) تأهَّب الهَمَج، يلفون حبالا غليظةً من ألياف القنب حول أكتافهم وصدورهم، ويعقدون أربطة أحذية غريبة من جلد الطباء اللدن، ومن مقدَّمة كلِّ حذاء تخرُج خوازيق، منها الحديد لچارل واثنين آخريْن، والبرونز للبعض، لكن معظمها من العظم المحرَّز. علق كلُّ منهم مطرقة ذات رأس حجري على أحد وركيه، وعلى الثاني كيساً جلدياً مليئاً بالأوتاد، وتألَّفت فؤوس الجليد التي يحملونها من القرون ذات الأسلات المسنونة، تُشبَّها شرائط من الجلد إلى مقايض خشبيَّة.

قسَّم الأُحد عشر متسلِّقاً أنفسهم إلى ثلاثة فرق من أربعة، بحيث يكون چارل نفسه الرِّجل الثاني عشر، وقد قال لهم وأنفاسه تخرُج بُخاراً في هواء الصِّباح البارد: «مانس وعد بسيف لكلِّ رجل في الفريق الذي يبلُغ القمة أولاً، سيف جنوبي مصنوع في قلعة، وبأن تُذكر أسماؤكم في الأغنيَّة التي سيؤلِّفها عن هذه المغامرة أيضاً. وهل يرغب الرِّجل الحُر في ما هو أكثر؟ إلى أعلى، وليأخذ (الأخرون) مَنْ يتلُكاً!».

ليأخذهم (الأخرون) جميعاً، ففكر چون وهو يُشاهدهم يصعدون منحدر الأُحدود الحاد ويختفون بين الأشجار. ليست هذه المرَّة الأولى التي يتسلَّق فيها الهَمَج (الجدار)، ولا حتى الأولى بعد المئة، فالدَّوريات تعثر على متسلِّقين مرَّتين أو ثلاثاً في السَّنة، وأحياناً يُصادف الجوالَّة جُثث السَّاقطين المهشَّمة. على السَّاحل الشَّرقي غالباً ما يبنني المُغيرون قوارب ليتسلَّلوا جنوباً عبر (خليج الفقمت)، وفي الغرب ينزلون إلى أعماق (الغور) السَّوداء ليدوروا حول (بُرج الظلال)، لكن بين هذا وذاك الوسيلة الوحيدة للتَّغلب على (الجدار) هي تسلُّقه، ومغيرون كثيرون فعلوها. قال چون لنفسه بنوع من الفخر المتجهم: لكن أعداداً أقلَّ تعود دائماً. يتحمَّم على المتسلِّقين أن يتخلَّوا عن خيولهم، وعلى الجانب الآخر كثيراً ما يسرق المُغيرون الصُّغار المبتدئون أول خيول يجدونها، وعندها يُدوي الإنذار وتُحلق الغدقان، وفي معظم الأحيان يُطاردهم الحرس ويشنقونهم قبل أن يعودوا بما نهبوه من

ثرواتٍ ونساء. يعلمُ چون أن چارل لن يرتكب هذا الخطأ، لكنه ليس واثقاً بستير. الماجنر حاكم وليس هجّامًا، وقد يجهل قواعد اللعبة. قالت إيجريت: «ها هم»، فرفع عينيه ليُبصر المتسلق الأول يلوح فوق قمم الأشجار. كان چارل الذي عثرَ على شجرة حارس تميل على (الجدار)، وقاد رجاله على جذعها من أجل بدايةٍ أسرع. ما كان يجب أن يُسمح للغابة بأن تزحف إلى هذا القُرب قط. إنهم على ارتفاع ثلاثمئة قدم وما زالوا لم يمسسوا الجليد نفسه بعد.

راقب الهمجي ينتقل بحذرٍ من الخشب إلى الجليد، يحفر دعامةً بضربات قصيرة قويّة من فأسه، ثم يثب من هنا إلى هناك، وقد ربطه الحبل المحيط بخصره بالرجل الثاني في الصّف الذي ما زال يتسلق الشجرة. بالخطوة البطيئة بدأ چارل يرتفع مفرغًا مواطئ أقدام بالخوازيق في حدائه حيثما لم يجد مواطئ طبيعيّة، ولمّا أصبح يعلو شجرة الحارس بعشرة أقدام، توقّف على إفريز جليدي ضيقٌ وعلّق فأسه في حزامه، ثم التقط المطرقة ودقّ وتدًا من الحديد في شق، بينما انتقل الرجل الثاني إلى (الجدار) وراه وواصل الثالث تسلق الشجرة.

لم يجد رجال الفريقين الآخرين أشجارًا في الموضع المناسبٍ تمنحهم الأسبقيّة، وسرعان ما بدأ الثنيون يتساءلون إن كانوا قد ضلوا الطريق وهم يصعدون الأحدود. كانت مجموعة چارل قد تسلّقت ثمانين قدمًا من (الجدار) بالفعل قبل أن يظهر المتقدمون من المجموعتين الآخرين، وقد فصلت مسافة عشرين ياردة بين كل مجموعةٍ وأخرى. في المنتصف مجموعة چارل، وإلى يمينها مجموعة يقودها جريج التيس الذي سهّلت ضفيرته الشقراء الطويلة تمييزه من أسفل، وإلى اليسار مجموعة يقودها رجل شديد التحول اسمه إروك.

قال الماجنر متذمّرًا بصوت عالٍ وهو يُراقبهم يزحفون إلى أعلى: «حركتهم بطيئة للغاية. هل نسي الغربان؟ عليه أن يُسرّع قبل أن يكتشفوا أمرنا». لاذ چون بالصمت مرغمًا. إنه يذكُر (الممر الصادح) جيّدًا، وكيف تسلّقه مع ثعبان الحجر تحت القمر الساطع. ليلتها سقط قلبه بين قدميه مرارًا، وفي النهاية كان الألم في ذراعيه وساقيه بالغًا وكادت أصابعه تتجمّد. وكان هذا

حجرًا لا جليدًا. الحجر جامد دائمًا، لكن الجليد خَدَّاع في أحسن الأحوال، وفي يوم كهذا يَقْطُر فيه (الجدار) قد يكفي دَفء يد أحد المتسلِّقين لأن يُذِيب الجليد، فلئن كانت القوالب العملاقة متجمِّدة كالصَّخر من الدَّاخِل، إلَّا أن السَّطح الخارجِي سيكون زلْفاً بسبب قطرات الماء السَّائلة عليه، ناهيك بَرُقع الجليد التي تخللها الهواء فتعفَّنت. أيًّا كان الهَمَج، فهُم بلا شكَّ شُجعان.

على كلِّ حال، وجدَ چون نفسه يأمل أن تتحقَّق مخاوف ستير. بمشيئة الآلهة ستُصَادفنا دوريَّة وتضع نهايةً لهذا. ذات مرَّة قال له أبوه وهما يدوران على أسوار (وينترفل): «لا جدار في العالم يُمكنه أن يحميك. أيُّ جدار ليس قويًّا إلَّا إذا كان من يُدافِعون عنه أقوىاء». قد يكون الهَمَج مئةً وعشرين، لكن أربعة مدافعين فقط يكفون لجعلهم يُؤلَّون الأدبار بإطلاق قليلٍ من السَّهام النَّاريَّة على الأهداف الصَّحيحة، وربما ملء دلو من الحجارة.

لكن المدافعين لم يظهروا، لا أربعة ولا واحد حتى. تسلَّقت الشَّمس السَّماء وتسلَّق الهَمَج (الجدار)، وظلَّ أربعة چارل متقدِّمين حتى الظَّهيرة، عندما قابلوا رُقعةً من الجليد العفن. كان چارل قد لفَّ حبله حول بروز محزَّز شكَّته الرِّيح واستخدمه ليضع عليه ثِقْله، لكن فجأةً نفَّتت الجليد وتهاوى به، وانهارَ وابل من الجليد الكبير كراس رجل على الثَّلاثة الذين تحته، لكنهم تشبَّثوا بدعاماتهم وظلت الأوتاد ثابتةً، وتوقَّف سقوط چارل بحركةٍ عنيفةٍ إذ بلغ نهايةَ الحبل.

لَمَّا تعافى فريق چارل أخيرًا من مصيبته، كان فريق جريج التَّيس يكاد يُعادلُه في الارتفاع، فيما ظلَّ فريق إروك متخلِّفًا بمسافة، يتسلَّق بُقعةً تبدو ملساء خاليةً من الثَّقر، وتكسوها طبقة رقيقة من الجليد الذائب الذي يلتصق حينما تمسُّه أشعة الشَّمس. أمَّا البُقعة التي يتسلَّقها جريج فتبدو معالمها الأوضح أكثر قتامةً لمن يَنْظُر؛ الأفاريز الأفقيَّة الطويلة حيث وُضِعَ قالب بشكل غير سليم على القالب الذي تحته، والشقوق والصُّدوع والفجوات في الوصلات الرَّأسيَّة، حيث صنعت الرِّياح والمياه تجاوزيف كبيرة تتسع لأن يختبي فيها رجل.

بعد قليل استأنف چارل ورجاله زحفهم إلى أعلى، يتحرَّك أربعته وأربعة جريج متحاذين تقريبًا، وتحتهم أربعة إروك بخمسين قدمًا. دَقَّت الفؤوس

المصنوعة من قرون الغزلان وهشمت الجليد ممطرة الأشجار في الأسفل بالشظايا البرّاقة، وغرست المطارق الحجرية الأوتاد لتعمل كمرتكزات للرجال، لكن الأوتاد الحديد نفذت قبل أن يبلغوا منتصف الطريق، وبعدها استخدم المتسلقون القرون والعظام المسنونة، وركل الرجال ليغرسوا خوازيق أحذيتهم في الجليد العنيد القاسي مرّة ومرّة ومرّة ومرّة من أجل موطن واحد. مع مرور السّاعة الرّابعة فكرّ چون: لا بُدَّ أن سيقانهم مخدّرة تماماً. كم يُمكنهم الاستمرار على هذه الوتيرة؟ راقب والتوتّر يملأه كالماجر، يُصغي مترقباً الأنين البعيد لبوق أحد الثّنين، لكن الأبواق ظلّت صامتة، ولا أثر لحرس اللّيل.

مع السّاعة السّادسة كان چارل قد تقدّم على جريج التّيس من جديد، والمسافة تتّسع بين رجال هذا وذاك. قال الماجر وهو يقب عينيه من الشّمس بيده: «لا بُدَّ أن حيوان المانس المدلّل يرغب في سيف حقاً». كانت الشّمس تتوسّط السّماء والثّلاث العلوي من (الجدار) يبدو كالبُور الأزرق من أسفل، يعكس الصّوء بوميض شديد يُؤلّم العين إذا نظرت إليه مباشرة، وقد كاد فريقا چارل وجريج يغيبان في الوهج، على حين ظلّ فريق إروك في الظلّ.

الآن بدلاً من الصّعود كانوا يتحرّكون جانباً على ارتفاع نحو خمسمئة قدم متّجهين إلى دعامة، وكان چون يُشاهدهم يزحفون عندما سمع الصّوت، الانشطار المفاجئ الذي هزّ الجليد وتبعته صيحة ارتياح، وفي غمضة عين امتلأ الهواء بالشّظايا والصّراخ والرّجال السّاقطين إذ انفصل لوح من الجليد سُمكه قدم ومساحته خمسون قدماً مربّعاً عن (الجدار)، وهوى هادراً كالجلمود مكتسحاً كلّ ما في طريقه. حتى بعيداً في الأسفل عند سفح الأخدود سقطت قطع كبيرة من بين الأشجار وتدحرجت على المنحدر، وسحب چون إيجريت إلى أسفل ليحميها، وضربت إحدى القطع واحداً من الثّنين في وجهه وكسرت أنفه.

وحين رفعوا أعينهم كان چارل وفريقه قد اختفوا. لم يُعد هناك رجال أو حبال أو أوتاد، ولم يتبقّ شيء فوق ارتفاع ستمئة قدم. الآن في وجه (الجدار) جرح حيث كان المتسلقون متشبّثين قبل لحظات، والجليد في الدّاخل أملس أبيض كالمرمر المصقول ويلمع في الشّمس،

وعلى مسافةٍ بعيدةٍ بعيدةٍ أسفله ثَمَّةٌ لطحخة حمراء باهتة حيث تحطَّم أحدهم على بروزٍ متجمِّد.

فكر چون وهو يُساعدُ إيجريت على التَّهوض: (الجدار) يُدافع عن نفسه. وجدوا چارل وسط أوراق شجرة، مخوزقًا على غصنٍ حادٍ ولا تزال الجبال تربطه برجاله الثلاثة الذين انطرحوا مهشَّمين على الأرض. كان أحدهم ما زال حيًّا، وإن تحطَّمت ساقاه وعموده الفقري وأغلب ضلوعه، ولمَّا رآهم قال لهم: «الرَّحمة»، فحطَّم أحد الثَّنين رأسه بضربةٍ من هراوته الحجرية، ثم ألقى الماجنرَ أمرًا وبدأ رجاله يجمعون الحطب للمحرقة. كان الموتى يحترقون عندما بلغَ جريج التَّيس ورجاله قمَّة (الجدار)، وحين انضمَّ إليه إروك وفريقه لم يكن قد تبقَّى من أربعة چارل إلا الرَّماد والعظام.

لم يُبدِّد المتسلِّقون وقتًا وقد بدأت الشَّمس تميلُ إلى المغيب، فحلُّوا لفائف الجبال التي طَوَّقوا صدورهم بها، ثم ربطوها كلها معًا وألقوا الطرف إلى أسفل. أفعَمَ التَّفكير في محاولة تسلُّق خمسمئة قدم على هذا الجبل چون بالوجل، لكن تخطيط مانس كان أفضل من هذا، إذ أخرجَ المُغيرون الذين لم يصعدوا مع چارل سلَّمًا ضخَمًا بدرجاتٍ من ألياف القنب المجدولة السِّميكة كذراع رجل، ثم ربطوه بحبل المتسلِّقين، وبكل قوَّتهم سحبَ جريج وإروك ورجالهما السُّلم إلى أعلى وثبَّتوه إلى القمَّة، ثم دَلَّوا الجبل ثانية لسحب السُّلم الثَّاني من خمسة.

حين تدلت السُّلالم الخمسة على وجه (الجدار)، زعقَ الماجنرَ بأمرٍ جافٍ باللُّغة القديمة، وبدأ خمسة ثَّنين يصعدون في آنٍ واحد، وحتى في وجود السُّلالم لم يكن الصُّعود سهلاً. راقبتهم إيجريت يُكافِحون فترةً، ثم قالت بصوتٍ غاضبٍ خفيض: «كم أكره هذا الحادث. أتشعر ببرودته؟».

قال چون: «إنه مبني من الجليد».

- «لستَ تعلم شيئًا يا چون سنو. هذا الحادث مبني من الدَّم».

ولم يكن (الجدار) قد ارتوى من الدَّم. مع غروب الشَّمس كان ثَّيان قد سقطا من على السُّلم إلى حتفهما، لكنهما كانا آخر السَّاقطين.

حين بلغَ چون القمَّة أخيرًا كان اللَّيل قد شارفَ على الانتصاف. عادت

النجوم تلوح في السماء، وقالت إيجريت وهي ترتجف وفي عينيها الدموع: «كدتُ أسقط، مرّتين أو ثلاث مرّات. (الجدار) كان يُحاول أن ينفضني عنه، أحسستُ به»، وتحزّرت إحدى دموعها من محبس عينيها وسالت بيّطاً على وجتها.

حاولَ چون أن يصبغ نبرته بالثقة وهو يقول: «الأسوأ انتهى، لا تخافي»، وحاولَ أن يُطوّقها بذراعه.

وضربته إيجريت بكعب يدها على صدره بقوةٍ أوجعته على الرغم من طبقات الصوف والمعدن والجلد المقوّى، وقالت بحدّة: «لم أكن خائفةً. لستَ تعلم شيئاً يا چون سنو».

- «لماذا تبكين إذن؟» -

صاحت: «ليس خوفاً»، وبشراسةٍ ركّلت الجليد تحت قدميها بكعب حذائها محطّمةً منه قطعةً، ثم قالت: «إنني أبكي لأننا لم نَعثر على بوق الشتاء. فتحنا عشرات القبور وأطلقنا كلّ تلك الأشباح على العالم، ولم نَعثر على بوق چورامون لنهدم هذا الشّيء البارد اللّعين!».

چایمی

ما زال في يده الحريق.

حتى الآن، حتى الآن، طويلاً بعد أن أخمَدوا المشعل الذي استعملوه ليكونوا جَدَعته الدَّامِيَّة، بَعْدَها بِأَيام، لم يزل يَشْعُرُ بِالنَّارِ تَمْرُقٌ فِي ذِرَاعِهِ كَالرُّمَحِ، وَبِأَصَابِعِهِ تَتَلَوَّى فِي اللَّهَبِ، الْأَصَابِعِ الَّتِي لَمْ تُعَدْ هُنَاكَ.

لقد أُصِيبَ بِجِرَاحٍ مِنْ قَبْلِ، لَكِنْ لَيْسَ هَكَذَا قَطُّ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ هَذَا الْأَلَمِ مُمْكِنٌ. أحياناً تَتَدَفَّقُ الصَّلَوَاتُ الْقَدِيمَةُ مِنْ بَيْنِ شَفْتَيْهِ رَغْمًا عَنْهُ، صَلَوَاتُ تَعَلَّمَهَا فِي طِفْلُوته وَلَمْ يُفَكِّرْ فِيهَا مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، صَلَوَاتُ رَدَّدَهَا رَاكِعًا إِلَى جِوَارِ سِرْسِي فِي سِبْتِ (كَاسْتِرْلِي روك). وَفِي أحيانٍ أُخْرَى كَانَ يَبْكِي، لَكِنْ حِينَ سَمِعَ ضِحْكَ الْمُمَثِّلِينَ السَّاخِرِ جَفَّفَ عَيْنَيْهِ وَأَمَاتَ قَلْبَهُ وَصَلَّى أَنْ تَحْرُقَ الْحُمَّى دُمُوعَهُ. الْآنَ أَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ تَبْرِيونُ يَشْعُرُ كُلَّمَا ضَحِكُوا مِنْهُ.

عقب أن سقط من فوق سرجه للمرة الثانية قيَّدوه بِأحكام إلى بَرِيانِ التَّارِثِيَّةِ وَجَعَلُوهُمَا يَتَقاسَمَانِ حِصَانًا مِنْ جَدِيدٍ، وَفِي يَوْمِ قَيْدِهِمَا وَجَّهًا لُوْجِهِ بَدَلًا مِنْ ظَهْرًا لظَهْرٍ، فَتَنَهَّدَ شَا جَوِيلٌ بِصَوْتِ عَالٍ وَقَالَ بِهَيْامٍ: «العاشقان، يا لمنظرهما الجميل. كانت قسوة أن نَفْرُقَ بَيْنَ الْفَارِسِ الْهُمَامِ وَسَيِّدَتِهِ»، ثُمَّ أَطْلَقَ ضِحْكَته الْحَادَّةَ الْمَدْوِيَّةَ، وَأَضَافَ: «آه، لَكِنْ أَيُّهُمَا الْفَارِسُ وَأَيُّهُمَا السَيِّدَةُ؟».

فَكَرَّ چایمی: لو أن لي يداً لعرفت الإجابة حالاً. كانت ذراعاه تُوجِعانه وَسَاقَاهُ مَخْدَرَتَيْنِ بِفَعْلِ الْحَبَالِ، لَكِنْ شَيْئًا مِنْ هَذَا لَمْ يَهَمَّ بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، وَتَقَلَّصَ عَالِمُهُ كُلَّهُ لِيُنْحَصِرَ فِي الْأَلَمِ الْمَبْرَحِ الرَّهيبِ فِي يَدِهِ الشَّبَحِيَّةِ وَبَرِيانِ الْمُنْضَغَطَةِ إِلَيْهِ. قَالَ لِنَفْسِهِ مَوَاسِيًا: إِنِّهَا دَافِئَةٌ عَلَى الْأَقْلِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَنْفَاسَ الْفِتَاةِ خَرَجَتْ مِنْهَا عَطْنَةٌ كَأَنْفَاسِهِ.

وكانت يده بينهما دائماً. علّقها أورزويك من شريطٍ يُحيط بعُنقه، فتدلّت على صدره وراحت مع الحركة تصفع ثدييَّ بريان بينما غابَ چايمي عن الوعي وعادَ إليه، وتورّمت عينه اليمنى حتى انغلقت إذ التهبَّ الجرح الذي أصابته به الفتاة في أثناء قتالهما، لكن أكثر ما يؤلمه على الإطلاق هو يده، وقد نَزَّ الدَّم والقريح من جَدَعته وأخذت اليد المبتورة تنبض بوجعٍ ممضٍ كلما تقدّم الحصان حُطوةً.

جَفَّ حَلَقه تماماً حتى إنه لم يستطع أن يأكل، وإن شربَ التَّبِيد متى أعطوه إياه، والماء عندما يقتصر كرمهم عليه، وفي مرّةٍ ناولوه كوباً جرّع ما فيه دُفَعَةً واحدةً وهو يرتعد، فانفجر رجال رفقة الشجعان ضاحكين بأصواتٍ جهوريّة خشنّة أَلَمَت أذنيه، ثم قال له رورچ: «إنك تشرب بول حصان يا قاتل الملك»، لكن چايمي كان ظمناً لدرجةٍ دفعته إلى أن يشرب السائل الكريه على كلِّ حال، وإن تقيّاه كلّ بعدها، فجعلوا بزيران تُنظف لحيته من القيء، تماماً كما جعلوها تُنظفه حين تبرّز على نفسه وهو راكب.

ذات صباح رطب، وقد أحسَّ بأنه أقوى بعض الشّيء، استحوذَ عليه الجنون ومدَّ يسراه إلى سيف الدورني وانتزعه من غمده بحركة خرقاء قائلًا لنفسه: فليقتلوني ما دمتُ ساموتُ وأنا أقاتلُ بسيفٍ في يدي. جاءَ شاجويل متواثبًا من قدم إلى قدم، وبحركةٍ جانبيّةٍ رشيقة تفادى الضربة التي سدّدها إليه چايمي، الذي اندفع إلى الأمام بلا توازنٍ وهو يُعمل سيفه في الهواء بضراوةٍ محاولاً إصابة المهرج، لكن شاجويل راحَ يدور وينحني ويقفز إلى أن صارَ الممثلون كلهم يضحكون من جهد چايمي الهباء وإخفاقه في تحقيق إصابةٍ واحدة، ولَمَّا تعثّر في صخرةٍ وسقطَ على رُكبتيه وثبَّ المهرج ناحيته وطبعَ قُبلةً مبتلّةً على رأسه.

في النّهاية أزاحَ رورچ المهرج بخشونةٍ وركلَ السيف من بين أصابع چايمي الواهنة وهو يُحاول أن يرفعه، وقال فارجو هوت: «كانت فقرةً مثليةً يا قاتل الملك، لكن إذا حاولت هذا ثانيةً نأطعُ يدك الأخرى، أو ربما إحدى قدميك».

بعد ذلك تمدّد چايمي على ظهره وحدّق إلى سماء الليل محاولاً أن يتجاهل الألم الذي يزحف على ذراعه اليمنى كالأفعى كلما حرّكها. وجدَّ الليلة جميلةً

على نحو عجيب، القمر هلال أنيق والنجوم لا تُحصى، وقد تألقت كوكبة (تاج الملك) وهي في سمت الرأس، ورأى چايمي (الفحل) بقائمتين أماميتين مرفوعتين، و(البجعة) على مقربة منها، و(عذراء القمر) الخجول كديدها نصف متوارية خلف شجرة صنوبر. سأل نفسه: كيف يُمكن أن تكون ليلة كهذه جميلةً هكذا؟ ما الذي يجعل النجوم تخفض أعينها لتتنظر إلى واحدٍ مثلي؟ - «چايمي»، همست بريان بخفوتٍ شديد حتى إنه حسب نفسه يتوهم الصّوت. «چايمي، ماذا تفعل؟».

رَدَّ هامسًا: «أموت».

قالت: «لا. لا، يجب أن تعيش».

قال وهو يُريد أن يضحك: «كفي عن إخباري بما يجب أن أفعله يا هذه. سأموثُ إذا أردتُ».

- «أأنت جبان لهذه الدرجة؟».

صدمته الكلمة. إنه چايمي لانستر، فارس الحرس الملكي، قاتل الملك، ولم يسبق لأحد أن نعتَه بالجبن. نعم، ينعته بأشياء أخرى، كالحنث بالقسم والكذب والقتل غيلةً، ويقولون إنه متوحش وغدار ومتهوّر، لكن أحدًا لم يصفه بالجبن قط.

سألها: «وماذا يُمكنني أن أفعل غير الموت؟».

أجابت: «عش. عش وقاتل وانتقم»، لكنها تكلمت بنبرة أعلى من اللازم، وسمع رورج صوتها إن لم يكن كلامها، وجاء يركلها ويزعق فيها أن تصون لسانها اللعين إذا كانت تُريد الاحتفاظ به.

وبينما كافحت بريان لتكتم أنينها قال چايمي في سريره: جبان. أهذه هي الحقيقة؟ لقد سلبوني اليد التي أحمل بها سيفي، فهل لم أكن إلا يداً تحمل سيفاً لا أكثر؟ أهذا صحيح بحق الآلهة؟

الفتاة على حق. لا يُمكن أن يموت الآن. سرسي تنتظره، ولا بُدَّ أنها تحتاج إليه، وتيريون أخوه الصَّغير الذي أحبه من أجل كذبة. وأعداؤه ينتظرونه أيضًا؛ الذئب الصَّغير الذي هزمه في (الغابة الهامسة) وقتل رجاله من حوله، وإدميور تلي الذي صفده بالسلاسل وحبسه في الظلام، ورفقة الشُّجعان هذه أيضًا. حين جاء الصُّباح جعل نفسه يأكل. أطعموه هريسًا من الشوفان، طعام

خيول، لكنه أرغم نفسه على ابتلاع كلِّ ملعقة، وأكلَ ثانيةً مع حلول المساء، وفي اليوم التالي، وقال لنفسه بخشونة وهو يوشك على تقيؤ الهريس: عِشْ. عِشْ من أجل سرسي، عِشْ من أجل تيريون، عِشْ من أجل الانتقام. وظلت يده المبتورة تنبض وتحترق وتفوح منها رائحة خانقة. عندما أبلغ (كينجز لاندنج) سأجعلهم يصنعون لي يداً جديدةً، يداً من ذهب، وسيأتي يوم أمزقُ بها عنقُ فأرجو هوت.

اندمجتِ النَّهارات والليالي معاً في غشاوةٍ من الألم. في النَّهارِ ينام راکباً الحصان ومنضغطاً إلى بريان وتُفعم رائحة يده المتعفنة أنفه، وفي الليل يتمدد مستيقظاً على الأرض القاسية وحبيساً في كابوس لا ينتهي. على الرغم من ضعفه يُقيّدونه دائماً إلى شجرة، وقد بثَّ فيه نوعاً من العزاء البارد أن يعرف أنهم ما زالوا يخشونه لهذه الدرجة، حتى الآن.

ودائماً يُكبّلون بريان إلى جواره، فتمتدّد في مكانها بقبرة كبيرة ميتة ولا تلفظ ببنت شفة. الفتاة بنت قلعةٍ في داخلها. سيغتصّبونها قريباً، لكنهم لا يستطيعون أن يمسّوها وراء أسوارها. أمّا أسوار چايمي فانهارت. لقد قطعوا يده، قطعوا يده التي يحمل بها سيفه، ودونها هو لا شيء. اليد الثانية عديمة الفائدة، فمنذ تعلّم المشي وذراعه اليسرى ذراع الترس ليس إلا. يده اليميني هي التي جعلته فارساً، ذراعه اليميني هي التي جعلته رجلاً.

في يوم سمعَ أورزويك يقول شيئاً عن (هارنهال)، فتذكّر أنها وجهتهم، وجعله هداً يضحك بصوتٍ مرتفع، وجعلت الضحكة تيميون ينزل على وجهه بضربةٍ من سوطٍ رفيعٍ طويل. نزع الجرح، لكنه شعر به بالكاد في خضمِّ ألم يده.

ليلتها سألتها الفتاة همساً: «لماذا ضحكت؟».

أجابها هامساً بدوره: «(هارنهال) كانت المكان الذي ألبسوني فيه المعطف الأبيض، في أثناء دورة مباريات ونت العظيمة. أراد الرجل أن يُري الجميع قلعته الكبيرة ويتباهى بأبنائه، وأردتُ أن أريهم نفسي أيضاً. كنتُ في الخامسة عشرة فقط، لكن لا أحد كان ليستطيع أن يتغلب عليّ يوماً، غير أن إيرس لم يسمح لي بالنزال»، وضحك ثانيةً قبل أن يُردف: «لقد صرفني، لكنني عائد الآن».

سمع الممثلون الضحكة، وليلتها كان چايمي من تلقى الركلات
واللكمات. تلك أيضاً أحسن بها بالكاد، إلى أن هوى رورچ بحذائه على
جدعة يده فأغمي عليه.

في الليلة التالية جاءوا أخيراً، ثلاثة من أسوأهم؛ شاجويل المهرج وورچ
عديم الأنف والدوثراكي السمين زولو الذي بتر يده. بينما يقتربون كان رورچ
وزولو يتشاجران حول من سيأخذ الفتاة أولاً، وقد بدا مفروغاً منه أن المهرج
سيكون آخر الثلاثة. اقترح شاجويل أن يبدأ الاثنان الآخران معاً ويأتيها من
الأمام والخلف، وقد رآت الفكرة زولو ورورچ، لكنهما بدأ يتشاجران ثانية
حول من سيأتيها من الأمام ومن الخلف.

سيتركونها كسيحة أيضاً، لكن في أعماقها حيث لا يرى أحد. همس لها
بينما تقاذف زولو ورورچ بالشتائم: «يا هذه، دعيهم يأخذون اللحم وغيبى
بعقلك بعيداً. هكذا سينتهي الأمر أسرع وتقل متعتهم».
ردت هامسةً بتحدٍ: «لن يجدوا أي متعة فيما سينالوه مني».

بقرة حمقاء عنيدة شجاعة. ستجعلهم يقتلون، إنه واثق. ولم أبالي إذا
قتلوه؟ لو لم تكن عنيدة كالخنازير لكان ما زال لي يد. لكن على الرغم
من أفكاره سمع چايمي نفسه يقول: «دعيهم يفعلون ما يفعلون واختبئي في
أعماقك». هذا ما فعله هو حينما مات ابنا ستارك أمامه، اللورد ريكارد يتفحم
في درعه، وابنه براندون يخنق نفسه وهو يحاول إنقاذه. «فكري في رنلي إذا
كنت قد أحببتة. فكري في (تارث)، في الجبال والبحار والينابيع والشلالات،
أيًا كان ما لديكم على جزيرة الصّفير. فكري...».

لكن رورچ كان قد تغلب في الشجار عندئذ، وقال لبريان: «أنت أقبح امرأة
رأيتها في حياتي كلها، لكن لا تحسبي أنني لا أستطيع أن أزيدك قبحاً. هل
تريدين أنفاً كأفني؟ قاوميني وسأعطيك واحداً. وعينان كثيرتان جداً عليك.
صرخة واحدة منك وسأقتلع إحداهما وأجعلك تأكلينها، ثم أقتلع أسنانك
واحدةً واحدةً».

قال شاجويل مناشداً: «أوه، افعلها يا رورچ. دون أسنانها ستبدو مثل أمي
العجوز العزيزة تماماً»، وضحك بصوت كقوقأة الدجاج مضيئاً: «ولطالما
أردت أن أنكح أمي العجوز العزيزة في مؤخرتها».

قهقهة چایمی قائلاً: «مهرج طریف حقاً. عندي أحجية لك يا شاجويل: لماذا نُبالي إذا صرخت؟ أوه، مهلاً، أعرفُ الإجابة»، ثم إنه صاح بأعلى صوته: «الصَّفير!».

سبَّه رورج وركل جدعة يده ثانية، وعوى چایمی من فرط الألم. لم أكن أعلم أن في الدنيا مثل هذا العذاب. كان هذا آخر ما جال بباله قبل أن يغيب عن الوعي. لا يدري كم ظلَّ مغشياً عليه، لكن حين بصقه الوجدع إلى عالم الإدراك من جديد، كان أورزويك واقفاً أمامه، ومعه فارجو هوت بنفسه، وصرخ الكبش نائراً البصاق على زولو: «لا أحد يلمثها. يجب أن تظلَّ عذراء أيها الحمقى! إنها تتحقَّق وزنها من الثَّفير!»، ومنذ ذلك الحين عيَّن هوت عليهما حراسةً ليحميهما من رجاله.

مرَّت ليلتان كاملتان في صمتٍ قبل أن تعثر الفتاة أخيراً على الشجاعة لتقول: «چایمی، لماذا صحت؟».

- «تقصدين لماذا صحتُ؟ الصَّفير؟ استخدمني عقلك يا هذه. هل كانت هذه الشُرذمة لتكثرث إذا صحتُ: اغتصاب؟».

- «لم تكن مضطراً لأن تصيح على الإطلاق».

- «التَّظر إليك صعب كفايةً وأنفك في وجهك، كما أنني أردتُ الكبش أن يقول: الثَّفير»، وأطلق ضحكةً قصيرةً ثم تابع: «من صالحك أنني كذاب كبير. كان رجل شريف ليقول الحقيقة عن جزيرة الصَّفير».

- «أشكرك على كلِّ حال أيها الفارس».

كانت يده تنبض ثانية، وضغط أسنانه قائلاً: «اللانستر يُسدِّد ديونه. كان هذا من أجل التَّهر والصُّخور التي أسقطتها على روبن رايجر».

أراد الكبش أن يجعل من دخوله (هارنهال) استعراضاً، فأنزَلوا چایمی من على الحصان على بُعد ميل من بؤابة القلعة، وقيدوا خصره بحبل ومعصمي بريان بآخر، وربط الطرفان بقرن سرج فارجو هوت، وتقدَّم الاثنان متجاورين متعثرين وراء زورس الكوهوري المخطط.

وحده الغضب جعل چایمی يمشي. كان الكتان الذي يُعطي جدعته رمادياً وتفوح منه رائحة القيح الشنيعة، وأصابه الشبحية تصرُّخ مع كلِّ خطوة، لكنه قال لنفسه: إنني أقوى مما يتصوِّرون. ما زلتُ ابن لانستر، وما زلتُ فارساً في

الحرس الملكي. سيبلغ (هارنهال)، ثم (كينجز لاندنج). وسأسدّد هذا الدّين بفائدة عالية.

إذ دنوا من الأسوار الشّبيهة بالجروف المحيطة بقلعة هارن الأسود العملاقة، اعتصرت بريان ذراعه قائلة: «هذه القلعة تحت سيطرة اللورد بولتون، وآل بولتون يحملون راية ستارك».

ردّ چايمي: «آل بولتون يسلّخون أعداءهم». هذا القدر يذكّره عن روروس بولتون، وإن كان تيريون ليعرف كل ما تمكن معرفته عن سيّد (معقل الخوف)، لكن ألفا من الفراسخ تفصله عن تيريون، وعن سرسي. لا يمكن أن أموت وسرسي حيّة. سوف نموت معاً كما وُلدنا معاً.

كانت العزبة ومبانيها المقامة خارج الأسوار قد احترقت حتى لم يتبقّ منها إلا الرّماد والحجارة المسوّدة، وفي الفترة الأخيرة عسكر عدد كبير من الرّجال والخيول على شاطئ البحيرة، حيث أقام اللورد ونت دورة المباريات العظيمة في عام الرّبيع الزّائف. مسّت ابتسامة مريّة شفّتي چايمي وهم يقطعون الأرض الخراب. كان أحدهم قد حفّر خندقاً للمراحيض في البقعة ذاتها التي ركع فيها أمام الملك ليحلف اليمين. لم أتخيّل قطّ أن الحلوي يمكن أن يصير مرّاً بهذه الشّرة. لم يتركني إيرس أتلدذ بتلك اللّيلة الوحيدة. كرمني ثم بصق عليّ.

قالت بريان: «الرّايات. انظر، رجال مسلوخون وأبراج توائم، رجال الملك روب، وهناك فوق مبنى البوّابة، رمادي على أبيض. إنهم يرفعون راية الذّئب الرّهب».

لوى چايمي عنقه إلى أعلى ليرى، ثم قال: «هو ذئب اللّعين، هذا صحيح، وما تربيته على جانبه روروس».

تجمّع الجنود والخدم وأتباع المعسكر ليرموهما بالصّياح المستهزئ، وتبعتهما كلبة مرقطة وسط المخيمات وهي تنبح وتزّمج، إلى أن خوزقها أحد اللايسينيين برُمح وهروّل بحصانه إلى مقدّمة الطّابور، وأخذ يرحّ الكلبة الميتة فوق رأس چايمي هاتفاً: «أنا حامل راية قاتل الملك!».

أسوار (هارنهال) سميقة لدرجة أن المرور منها كالمرور في نفق حجري. كان فارجو قد أرسل اثنين من الدوثراكي قبلهم ليعلّم اللورد بولتون

بمجيئهم، فامتلات السّاحة الخارجيّة بالفضوليين الذين أفسحوا الطّريق إذ مرّ بهم چايمي مترنّحاً، يضيّق الحبل على خصره ويجرّه كلما تباطأ، ثم توقّف فأرجو هوت وأعلن ولّعبه يسيل: «أقدّم لكم قاتل الملك»، ووخز أحدهم ظهر چايمي برأس حربية فطرّحه أرضاً على وجهه.

الغريزة جعلته يمدّ يديه أمامه ليوقّف السّقطة، ولمّا ارتطمت جدّته بالأرض كان الألم يُعمي، لكنه استطاع بوسيلةٍ ما أن يُجاهد حتى يقف على رُكبته. أمامه كانت درجات حجرية عريضة تقود إلى أحد أبراج القلعة المستديرة الهائلة، ووقف خمسة فرسان ورجل شمالي يتطلّعون إليه، الواحد شاحب العينين ويرتدي الصّوف والفرو، والخمسة مرهبون في دروعهم ويلوح على ستراتهم رمز البرجين التّوأمين. يعرف چايمي أبناء اللورد والدر شكلاً، بما أن عمّته تزوّجت أحدهم، وقد خاطبهم قائلاً: «سير دانويل، سير اينس، سير هوستين، تقبلوا تعازي».

سأله السير دانويل: «علام أيها الفارس؟».

أجاب چايمي: «كليوس ابن أخيكم. كان معنا حتى أرداه الخارجون عن القانون بالسّهام. أوزويك وثلثة استولوا على ذهبه وتركوه للذّئاب».

- «أيها السّادة!»، صاحت بريان وهي تتملّص وتتقدّم. «لقد رأيت راياتكم. اسمعوني بحقّ يمينكم!».

سأل السير اينس فراي: «من المتكلّمة؟».

- «مرضعة لانتثر».

- «أنا بريان التارثية، ابنة اللورد سلوين نجم المساء، ومقسمة على الولاء لعائلة ستارك مثلكم جميعاً».

بصق السير اينس عند قدميها، وقال: «ها هي قيمة أيمانكم. وثقنا بكلمة روب ستارك، ورّد لنا إخلاصنا خيانة».

كلام مثير للاهتمام. التفت چايمي ليرى كيف تلقت الفتاة الاتّهام، لكنها ظلّت عنيدة كالبغال، وحاولت أن تلوي معصمها المقيدين قائلة: «لا علم لي بأيّ خيانة. الليدي كاتلين أمرتني بتسليم لانستر إلى أخيه في (كينجز لاندنج) و...».

قاطعها أوزويك الوفي: «كانت تُحاول إغراقه عندما وجدناهما».

احتقن وجهها، وقالت: «لقد أنساني الغضب نفسي، لكنني لم أكن لأقتله. إذا مات سيقتل آل لانستر ابنتي سيديتي».

قال لها السير إينس دون أن يبدو عليه تأثر: «وما الذي يهمنى في ذلك؟». قال السير دانويل: «لنعه إلى (ريشرن) مقابل فدية».

ردَّ أحد إخوته معترضاً: «كاسترلي روك» ذهبها أكثر». وقال آخر: «لنقتله! رأسه لقاء رأس ندرستارك!».

تشقّل شاجويل المهرج بشيابه المرقعة بالرمادي والوردي حتى سلالم البرج، وبدأ يغني: «يُحكى أن أسدًا رقص مع دُب، أوه ماي، أوه ماي...». صفح فارجو هوت الرّجل قائلاً: «ثمتاً أيها المهرج. قاتل الملك ليث للدّب، إنه لي».

- «إذا مات فلن يكون لأحد»، قال رويس بولتون بنبرة رخيمة للغاية حتى إنهم صمتوا ليسمعوه. «وأرجو أن تتذكّر يا سيدي أنك لست سيّد (هارنهال) إلى أن أزحف شمالاً».

مدّت الحمى چايمي بالجرأة كما أدارت رأسه، فقال: «أهذا سيّد (معقل الخوف)؟ آخر ما سمعته عنك أنك فررت من أبي وذيلك بين قدميك. متى توقفت عن الفرار يا سيدي؟».

كان صمت بولتون أكثر تهديداً مئة مرّة من غلّ فارجو هوت المبلّل بلعبه. لا تروق چايمي هاتان العينان الشاحبتان كغشاوة الصّبح، اللتان تكتمان الكثير وتبوحان بأقلّ القليل، وتُدكّراه بذلك اليوم في (كينجز لاندنج) حين وجده ندرستارك جالساً على العرش الحديدي.

أخيراً زَمَّ سيّد معقل الخوف شفّتيه، ثم قال: «أرى أنك فقدت يداً». قال چايمي: «لا، ها هي ذي معلقة من عنقي».

مدّ رويس بولتون يده وقطع الشريط، وألقى اليد إلى هوت قائلاً: «خُذ هذه من هنا. منظرها يؤذي عيني».

قال هوت: «نارثلها إلى الثيد والده. نأقول له إن عليه أن يدفع مئة ألف تين ذهبي وإلا نعيد إليه قاتل الملك قطعة قطعة، ولما نقبض الذهب سننمّ الثير چايمي إلى كارثتارك ونربح فتاة عذراء أيضاً!»، وهدر رجال رفقة الشّجعان بالصّحك.

- «خطة لا بأس بها»، قال رويس بولتون كأنما يقول: نبذ لا بأس به لرفيق على العشاء، ثم أردف: «لكن اللورد كارستارك لن يعطيك ابنته. لقد قطع الملك روبر رأسه بتهمتي الخيانة والقتل. أمّا اللورد تايوين فما زال في (كينجز لاندنج)، وسيبقى هناك حتى العام الجديد، عندما يتزوج حفيده ابنة (هايجاردن)».

قالت بريان: «(وينترفل)، تقصد (وينترفل). الملك چوفري خطب سانزا ستارك».

- «لم يعد خطيبها. معركة (النهر الأسود) غيرت كل شيء. الوردة والأسد تحالفاً هناك لدحر جيش ستانيس وحرقت أسطوله عن آخره».

فكر چايمي: كما حذرتك يا أورزويك، وأنت أيضاً أيها الكبش. إذا راهنت ضد آل لانستر ستخسر أكثر من نقودك، ثم سأل: «هل من أخبار عن أختي؟».

- «إنها بخير، وكذلك... ابن أختك». تمهل بولتون لحظة قبل أن يقول: ابن أختك، على حين يقول لسان حاله: أعرف الحقيقة. «أخوك أيضاً حي، وإن أصيب في المعركة»، ثم أشار إلى رجل شمالي كالح الملامح يرتدي سترّة مطعمة بالحديد قائلاً: «اصحب السير چايمي إلى كايرن، واقطع قيود هذه المرأة»، وبينما قطع الحبل بين يدي بريان إلى نصفين قال لها: «أرجو أن تُسامحينا يا سيّدي. في مثل أوقات القلاقل هذه تصعب التفرقة بين العدو والصديق».

فركت بريان باطن معصمها حيث كشط الحبل القطني جلدها وأدماء، وقالت: «سيّدي، هؤلاء الرجال حاولوا اغتصابي».

قال بولتون: «حقاً؟»، وسلط عينيه الشّاحبتين على فارجو هوت مضيئاً: «لستُ مسروراً، من هذا أو من يد السير چايمي».

مقابل كل واحد من رفقة الشجعان كان هناك خمسة شماليين ومثلهم من رجال فراي في السّاحة. قد لا يكون الكبش بذكاء البعض، لكنه يستطيع العدّ على الأقل، وهكذا خرس مرغماً.

واصلت بريان: «لقد أخذوا سيفي ودرعي...».

قال اللورد بولتون: «لن تحتاجي إلى درع هنا يا سيّدي. في (هارنهال) أنت تحت حمايتي. أمابل، جدي غرفة مناسبة ليدي بريان. والتون، ستتولى

أمر السير چايمي في الحال»، ولم ينتظر إجابةً ودارَ على عقبه صاعداً السَّلام ومعطفه الموشى بالفرو يدور وراءه، ولم يجد چايمي الفرصة إلا لتبادل نظرة سريعة مع الفتاة قبل أن يقودوا كلياً منهما إلى مكانٍ مختلف.

في مسكن المايستر تحت المغدفة، شهقَ رجل أشيب أبوي الملامح اسمه كايرن عندما قصَّ الكتَّان المحيط بجذعة چايمي ورآها.
- «أهي بهذا السوء؟ هل ساموت؟».

ضغطَ كايرن الجرح بإصبعه، وتقلَّص أنفه إذ نَزَّ منه القيح، ثم قال: «لا. لكن لو تأخرت أياماً قليلة...»، وقصَّ كُمَّ چايمي مواصلاً: «لقد انتشر البلي. هل ترى لين اللحم؟ يجب أن أقطعه كله. أسلم وسيلة أن أقطع الذراع». قال چايمي متوعداً: «ستموت أنت إذن. نظف الجذعة وخيِّطها واترك لي المخاطرة».

قطبَ كايرن جبينه قائلاً: «يُمكنني أن أترك لك العضد وأبتر عند المرفق، لكن...».

- «خيرٌ لك إذا بترت أيَّ جزءٍ من ذراعي أن تبتر الأخرى أيضاً، وإلا خنفتك بها بعدها».

نظرَ كايرن في عينيه، وأياً كان ما رآه فيهما فقد جعله يتردد ويقول: «ليكن إذن. سأقطع اللحم المتعفن لا أكثر، وأحاول أن أحرق الجزء البالي بالتبيد المغلي وعصاة من القُرَّاص⁽¹⁾ وبذور الخردل وعفن الخبز. قد يكفي هذا، إنها مسؤوليتك. يجب أن تشرب حليب الخشخاش...».

- «كلا». لا يجروُ چايمي على السَّماح لنفسه بالنوم، فقد يجد نفسه فقد ذراعاً عندما يستيقظ، بغضَّ النظر عمَّا يقوله الرَّجل.

مندهشاً قال كايرن: «ستألم».

- «إذن سأصرخ».

- «ألماً شديداً».

- «سأصرخ بصوت عالٍ جداً».

- «هل تشرب القليل من التبيد على الأقل؟».

(1) القُرَّاص نبات عُشبي معمرٌ يُستخدم كدواء منظف للمعدة ومطهر. (الترجم).

- «هل يُصَلِّي السَّبْتون الأعلى؟».

- «لست متأكدًا من هذا. سأجلُبُ النَّبِيذ. تمدد، عليَّ أن أثبت ذراعك بحزام».

بواسطة وعاءٍ ونصلٍ حادٍ نظَّفَ كايبرن الجَدعة فيما جرَعَ چايمي النَّبِيذ القوي، وإن لم يبدُ أن يُسْرَاهُ تعرف كيف تجد فمه، فسكَبَ الكثير على نفسه، لكن نفعًا أتى من هذا، إذ ساعدت رائحة النَّبِيذ الذي تشبَّعت به لحيته على إخفاء رائحة القيح.

على أن شيئًا لم يُساعد عندما حَانَ وقت قطع اللَّحْم المتعفن، وصرخ چايمي عندها، وقرَعَ المنضدة بقبضته السَّليمة مرَّةً ومرَّةً ومرَّةً، وصرخ ثانيةً لَمَّا صَبَّ كايبرن النَّبِيذ المغلي على ما تبَقَّى من جدعته، وعلى الرغم من كلِّ عودته لنفسه ومخاوفه فقدَّ الوعي بعض الوقت.

عندما استيقظَ كان المايستر يُحَيِّطُ ذراعه بإبرةٍ وأمعاء القِطط، وقال له: «تركتُ قطعةً من الجلد تُطوى على معصمك».

تمتَّ چايمي بضعفٍ وهو يتذوَّق الدَّم في فمه حيث عَضَّ لسانه: «سبق لك أن فعلت هذا».

- «ليست الأطراف المبتورة غريبةً على أحدٍ يخدم مع فارجو هوت. إنها عادته أينما ذهب».

خطرَ لچايمي أن الرَّجل لا يبدو كمايستر بنحوه ودماثته وعينه البَيَّتين الدَّافئتين، فسأله: «ما الذي يفعله مايستر مع رفقة الشُّجعان؟».

قال كايبرن واضعًا إبرته جانبًا: «(القلعة) أخذت سلسلتي. يجب أن أفعل شيئًا إزاء هذا الجرح فوق عينك. إنه ملتهب للغاية».

أغلقَ چايمي عينيه وترك كايبرن والنَّبِيذ يقومان بعملهما، وقال: «حدَّثني عن المعركة». لا بُدَّ أن كايبرن كان أول من سمع الأخبار باعتباره المسؤول عن الغدقان في (هارنهال).

- «اللورد ستانيس وقع بين أبيك والنَّار. يُقال إن العفريت أشعل النَّهر نفسه».

رأى چايمي ألسنة اللهب الأخضر ترتفع إلى عنان السَّماء، أعلى من أعلى

بُرج، والمحترقين يَصْرُخون في الشوارع. رأيتُ هذا الحلم من قبل. يكاد الأمر يكون طريفًا، لكن لا أحد هنا يُشاركه الدُّعابة.

قال كايرن: «افتح عينك»، ونقَع قطعَة قماش في ماءٍ دافئ ثم ملَّس بها على قشرة الدَّم الجاف. كان جفنه متورِّمًا، لكن چايمي استطاع أن يفتحه بعض الشَّيء ليلوح وجه كايرن فوقه وهو يسأله: «كيف أصبت بهذا؟».

- «هدية من فتاة».

- «غزل عنيف يا سيّدي؟».

- «الفتاة أكبر مني وأقبح منك. الأفضل أن تعتنني بها أيضًا. إنها ما زالت

تعرِّجُ بالقدم التي وخزتها حين تقاآلنا».

- «سأسأل عنها. مَنْ هي بالنَّسبة لك؟».

- «حاميتي»، أجاب چايمي وضحك على الرغم من الألم.

- «سأطحنُ أعشابًا تخلطها بالبيد لتُخفِّف الحمى. عُد غدًا وسأضع علقَة

على عينك لتصفية الدَّم الفاسد».

- «علقَة، مرحي».

قال كايرن بتكلف: «اللورد بولتون مولع جدًّا بالعلق».

ردَّ چايمي: «نعم، لا بُدَّ أنه كذلك».

تيريون

لم يتبقَّ شيء وراء (بوّابة الملك) إلا الأوحال والرّماد وقطع من العظم المحروق، وعلى الرغم من ذلك هناك أناس يعيشون في ظل أسوار المدينة بالفعل، وآخرون يبيعون الأسماك من العربات أو البراميل. أحسَّ تيريون بأعينهم عليه وهو يمرُّ بهم راكبًا، والنظرات الباردة السّاخطة الحاقدة التي يرمونه بها، وإن لم يجسُر أحدهم على أن يكلمه أو يعترض طريقه وقد تحرّك برون إلى جواره مرتديًا الحلقات المعدنيّة السوداء المزيّنة. لو كنت وحي لسحبوني من على ظهر الحصان وحطّموا وجهي بحجرٍ كما فعلوا بپرستون جرينفيلد.

دمدمَ بتبرُّم: «إنهم يعودون أسرع من الجرذان. كنت أحسبهم تعلموا الدّرس حين أحرقتنا بيوتهم مرّة». قال برون: «أعطني بضع عشراتٍ من ذوي المعاطف الذهبية وسأقتلهم جميعًا. إذا ماتوا فلن يعودوا».

- «نعم، لكن آخرين سيحلّون محلّهم. دعهم وشأنهم... لكن إذا بدأوا يبنون البيوت إلى جوار الأسوار من جديد فاهدمها في الحال. الحرب لم تنته بعدُ مهما كان ما يعتقد هؤلاء الحمقى»، ولمح (بوّابة الطّمي) أمامهما، فقال: «رأيتُ ما يكفي اليوم. سنعود غدًا مع كبار رابطة البنّائين لتراجع خُطّطهم»، وتنهّد مفكّرًا: لقد أحرقتُ أغلب هذا، وأعتقد أن العدل يُملي أن أعيد بناءه.

كان من المفترّض أن تكون هذه المهمّة لعمّه، لكن السير كيثان لانستر الصّلب الثّابت الذي لا يكلُّ أبدًا لم يُعد على طبيعته منذ وصلَ غُداً من (ريفررن) حاملًا نبأ مقتل ابنه ويلم، الذي وقع توأمه مارتن في أسر روب

ستارك أيضًا، على حين يظلُّ أخوهما الكبير لانسل طريح فراش المريض، يُعاني جرحًا متفرحًا يَرُفُضُ أن يندمل. كان اللورد تايوين يعتمد على أخيه دائمًا، لكن الآن تلتهم الحسرة والخوف السير كيثان وقد مات أحد أبنائه وأحدقَ الخطر بالاثنين الآخرين، فلم يجد أبوه خيارًا إلا الاستعانة ثانيةً بابنه القزم.

ستتكلّف إعادة البناء مبالغ هائلة، لكن لا مناص من هذا، ف(كينجز لاندنج) ميناء البلاد الرّئيس، ولا تُنافسها إلا (البلدة القديمة)، ويجب أن يُفتح النّهر للملاحة من جديد، وقريبًا. وأين سأجد ما يكفي من مال؟ تكاد المشكلة تجعله يفتقد الإصبع الصّغير الذي أبحرَ شمالًا قبل أسبوعين. وبينما يُضاجع لايسا آرَن ويَحْكُم (الوادي) إلى جوارها، عليّ أن أنظف الفوضى التي تركها وذهب. لكن على الأقل كلّفه أبوه بعمل مهم، وفكرَ تيريون بينما أشارَ لهما قائد الحرس بالمرور من (بوابة الطمي): «لن يُسمّيني وريثًا! (كاسترلي روك)، لكنه سيستغلني أينما استطاع.

لا تزال المجانيق المسمّاة (العاهرات الثّلاث) تحتلُّ ميدان السّوق وراء البوّابة، وإن وقفت متعطّلة الآن وقد رُفعت الجلاميد وبراميل القار. كان الأطفال يتسلّقون الهياكل الخشب العالية، يتحرّكون إلى أعلى كقروِد رشيقة ترتدي الخيش، ليقبعوا على أذرع القذف ويتبادلوا الصّياح المرح.

قال تيريون لبرون وهما يمرّان بين اثنين من المجانيق: «دُكرني بأن أقول للسير أدام أن يُعيّن بعض ذوي المعاطف الذّهبيّة هنا قبل أن يسقط صبي أحمر ويكسر ظهره»، ثم إنه سمع صيحة من أعلى، قبل أن تتفجّر كُتلة من الرّوث على الأرض أمامهما، لتتراجع فرس تيريون رافعة قائمتيها الأماميتين وتكاد تسقطه، ولما استعاد السّيطة عليها قال: «بعد تفكير، دَع الملاعين يتفسّخون على الأرض كالشّمام النّاضج».

كان في مزاج أسود، وليس فقط لأن بعض أطفال الشّوارع حاولوا قذفه بالرّوث، بل أيضًا بسبب العذاب المقيم الذي أصبحه زواجه.

ما زالت سانزا ستارك عذراء، ويبدو أن نصف القلعة يعرف هذا. عندما ذهبَ للرّكوب مع برون هذا الصّباح، سمعَ اثنين من عمّال الاسطبلات يكتمان الضّحك من ورائه، وجالت بباله صورة للخيل نفسها وهي تضحك بدورها.

لقد خاطرَ بجلده ليتحاشى طقس الإضجاع على أمل أن يحفظ خصوصية عُرفة نومه، لكن سرعان ما انسحقت آماله. إمَّا أن سانزا كانت بالغباء الكافي لأن تحكي لواحدةٍ من وصيفاتها - وجميعهن يتجسَّسن لحساب سرسي - وإمَّا أن اللوم على فارس وطوره الصَّغيرة.

لكن ما الفرق؟ إنهم يسخرون منه في جميع الأحوال، ويبدو أن الشَّخص الوحيد في (القلعة الحمراء) الذي لا يجد زيجته مصدر تسليةٍ هو السيِّدة زوجته.

سانزا تزداد بؤسًا كلَّ يوم، وكان لئسعد تيريون أن يُحطِّم أسوار الكياسة التي بنتها حول نفسها ليمنحها ما يستطيع من مواساة، لكن لا فائدة من هذا، فلا كلام منه سيجعله جميلًا في عينيها أبدًا. أو يُسيِّها أني لانستر. تلك هي الزَّوجة التي أعطوه إياها طوال ما تبقي من عُمره، وزوجته تكرهه.

ولياليلهما معًا في الفراش الكبير مصدر آخر للعذاب. لم يُعدَّ يحتمل النَّوم عاريًا كعادته، فصحيحٌ أن زوجته مدربة جيِّدًا على ألا تُلَفِّظ كلمةً مسيئةً، إلا أن الثَّنور الذي يتبدى في عينيها كلما نظرت إلى جسده أقوى من احتمالها، وعليه أمرها بأن ترتدي غلالة نوم أيضًا. إنني أريدها. أريدُ (ويستر فل)، نعم، لكنني أريدها أيضًا أيًّا كانت، طقَّة أم امرأة. أريدُ أن أواسيها وأن أسمعها تضحك وأن تأتيني بإرادتها، أن تُقاسمني فرحها وحزنها وشهواتها. التوى فمه بابتسامةٍ بنكهة العلقم وهو يُضيف لنفسه: نعم، وأريدُ أن أكون طويلًا كچاييمي وقويًا كجريجور الجبل، كأن الإرادة تكفي.

رغمًا عنه انتقلت أفكاره إلى شاي. لم يُردها تيريون أن تسمع الخبر إلا منه مباشرةً، فأمر فارس بأن يأتيه بها في الليلة السَّابقة لرفاهه، والتقىا ثانيةً في مسكن الخصي، لكن حين بدأت تحل أربطة سُترته أمسك معصمها ودفَعها قائلاً: «انتظري، هناك شيء يجب أن تعرفيه. غدًا سأعقدُ قراني على...».

- «... سانزا ستارك، أعرف».

ألجم رَدُّها لسانه برهةً. وقتها لم تكن سانزا نفسها تعرف بعد. «كيف عرفت؟ هل أخبرك فارس؟».

قالت: «سمعتُ أحد الوُصفاء يُخبر السير تالاد عندما أخذت لوليس إلى السَّبت، وسمع هو الخبر من خادمةٍ سمعت السير كيثان يتكلَّم مع أيبك»، ثم

تملّصت من قبضته وخلعت فُستانها، وكالمعتاد كانت عاريةً تحته، وواصلت:
 «لا أبالي. إنها مجرد فتاة صغيرة. ستجعل بطنها يكبر وتعود إليّ».
 جزء منه كان يتمنى أن تهتم أكثر، وبسخريةٍ مريرة قال لنفسه: كنت تتمنى،
 لكنك تعرف أفضل الآن أيها القزم. شاي هي الحُب الوحيد الذي ستعرفه في
 حياتك.

كان (الدرب الموحد) مزدحمًا، لكن الجنود والأهالي على حدّ سواء
 أفسحوا الطريق للعفريت ومُرافقه، وقد تراحم الأطفال ذوو الأعين الجوفاء
 بين الأقدام، يرفع بعضهم الأنظار إليه بضراعةٍ صامته ويرفع البعض صوته
 بنداءات الشحاذة، فدسّ تيريون قبضته في كيس نقوده وملأها بالعملات
 النحاسية وألقاها في الهواء، وهرع الأطفال إليها وهم يتدافعون ويتصايحون.
 قد يتمكن المحظوظ منهم من شراء رغيفٍ من الخبز البائت الليلة. لم يرَ
 تيريون الأسواق مزدحمةً هكذا من قبل، وعلى الرغم من كلّ الأطعمة التي
 جلبها آل تايرل إلى المدينة تظلّ الأسعار مرتفعةً على نحوٍ صادم. ست قطع
 نحاسيةٍ لحبة الشّمَام، وأيل فضيٍ لقفّة الذرة، وتينٍ ذهبيٍ لشريحة اللحم
 البقري الكبيرة أو ستة خنازير صغيرة هزيلة. ومع كلّ هذا لم يبدُ نقص في
 المشترين، وتجمّع الرّجال الضّاؤون والنساء المضنيات حول كلّ عربةٍ
 وكُشك، بينما يتطلع آخرون حالهم لا تقل بؤسًا من مداخل الأزقة واجمين.
 قال برون حين بلغا بداية الشّارع الضيّق المنحني المسّمى (الخُطاف):
 «من هنا، إذا كنت تنوي أن...».

- «نعم». كانت ضفة النهر ذريعةً موائمةً، لكن لتيريون غرضًا آخر اليوم،
 ليس شيئًا سيستمتع به، وإنما عليه أن يفعله.
 ابتعدا عن (تل إجون العالي) ليدخلا متاهة الشوارع الأصغر الملتفة حول
 سفح (تل فيزينا)، وقاد برون الطريق. تارةً أو تارتين اختلس تيريون النّظر من
 فوق كتفه ليرى إن كان هناك من يتبعهما، لكن لم يكن هناك ما يرى بخلاف
 الرّعاع المعتادين؛ حوذي يضرب حصانه، عجوز تُفرغ وعاء فضلات من
 نافذتها، صبيّان صغيران يتشاجران بالعصي، ثلاثة من ذوي المعاطف الذهبيّة
 يسوقون سجينًا... كلهم تبدو عليهم البراءة، لكن أيًا منهم قد يكون السّبب في
 هلاكه، فمُخبرٍ وُقارس في كلّ مكان.

انعطفوا عند ناصية، ومرةً أخرى عند التَّالية، ومَرًّا ببطءٍ وسط حشدٍ من النَّسوة عند بئر، وقاده برون عبر عطفةٍ متعرَّجةٍ ثم زُقاقٍ وتحت قنطرةٍ مكسورة، واختصَّراً الطَّريق من خلال أطلال منزلٍ محترقٍ وصعدا بحصانيهما سُلماً حجرياً قصيراً. كانت المباني دانيةً من بعضها بعضاً للغاية وبالغة الفقر، وتوقَّف برون عند مدخل زُقاقٍ معوجٍ أُضيق من أن يَدْخله الاثنان جنبًا إلى جنب، وقال: «هناك مدخلان ضيقان ثم نهاية مسدودة. الخَمارة في قبو المبنى الأخير».

ترجَّل تيريون قائلاً: «أحرص على عدم دخول أو خروج أحد قبل أن أعود. لن أستغرق طويلاً»، ودَسَّ يده داخل معطفه ليتأكَّد من أن الذهب لا يزال في الجيب السَّري، الثلاثين تَينًا. ثروة فاحشة لرجلٍ مثله. أسرعَ يقطع الزُّقاق متميلاً ومتلهِّفًا للفروغ من هذا الأمر.

كانت الخَمارة موحشةً، تسود فيها العتمة والرُّطوبة، ويُلَوِّث النَّطرون حوائطها، وينخفض سقفها لمستوى كان يُجبر برون على طأطأة رأسه كي لا يصدم العوارض، وهو ما لم يُمَثَّل لتيريون لانستر مشكلةً. في هذه السَّاعة كانت الحُجرة الأمامية خاليةً إلا من المرأة ميتة العينين التي جلست على كرسيٍّ وراء مشربٍ من الخشب الخشن، وناولته كوبًا من التَّبِيد المُرقَّالة: «في المؤخِّرة».

وجد الحُجرة الخلفيَّة أكثر إظلامًا، لا ضوء فيها إلا شمعة متذبذبة على مائدةٍ واطئةٍ إلى جوار إبريقٍ من التَّبِيد. لم يبدُ الرَّجل الجالس إلى المائدة خطرًا على الإطلاق، فهو قصير القامة -مع أن الجميع يبدون طوالًا لتيريون- وشعره بَنِي خفيف ووجنتاه متورِّدتان وبطنه كبير يبرز من تحت سُترته الجلد ذات الأزرار العظيمة، ويديه النَّاعمتين يحمل قيثارةً خشبيَّةً ذات اثني عشر وترًا، قيثارةً قمينة بأن تكون مميتةً أكثر من السَّيف الطويل.

جلسَ تيريون قبالته قائلاً: «سايمون لسان الفُصَّة».

حنى الرَّجل رأسه لتلوح قَمَّته الصَّلعاء، وقال: «حضرة اليد».

- «خطأ. أبي هو يد الملك، أمَّا أنا فأخشى أني لم أعد مجردَ إصبعٍ حتى».

- «ستنهض من جديد، إنني واثق. سيِّدتي العزيزة شيَّي تقول إنك

تزوَّجت. ليتك أرسلت في طلبي. كان ليُسِّرَ فني أن أغني في زفافك». -
«آخر ما تحتاج إليه زوجتي هو المزيد من الأغاني. أمّا شاي فكلانا يعلم
أنها ليست من السيّدات، وسأشكرك إذا لم تنطق اسمها بصوت عالٍ». قال
سايمون: «كما يأمر حضرة اليد».

آخر مرّة رآه تيريون كانت كلمة غليظة منه كافيةً لجعل الرّجل يتصبّب
عرقا، لكن يبدو أن المعنيّ عثر على شيءٍ من الشّجاعة في مكانٍ ما. في
هذا الإبريق غالبًا. أو ربما يكون تيريون الملموم على هذه الجرأة المستجدة.
هدّدته ولم أنفذ تهديدي، والآن يظنني ضعيفًا. زفر وقال: «أخبروني أنك مغنٌّ
موهوب للغاية».

- «لطف بالغ منك أن تقول هذا يا سيّدي».
منحه تيريون ابتسامةً رفيعةً قائلاً: «أعتقد أن الوقت حان لأن تأخذ موسيقاك
إلى المُدن الحرة. إنهم يعشقون الغناء في (برافوس) و(پنتوس) و(ليس)،
ويُغدقون بالعطاء على من يروقهم غناؤهم»، ورشف من النبيذ ليجده رديئًا
وإنما قوي، ثم تابع: «الأفضل أن تدور على المُدن التسع كلّها، فلست تُريد
أن تحرم أحدًا من بهجة الاستماع إليك. سنة في كلّ مدينة تكفي»، ومدّ يده
داخل معطفه حيث أخفى الذهب مواصلاً: «ما دام الميناء مغلقًا عليك أن
تذهب إلى (وادي الغسق) وتستقلّ سفينةً من هناك، لكن رجلي برون سيجد
لك حصانًا، وسيُسِّرَ فني أن تسمح لي بأن أدفع تكلفة سفرك...».
قاطعَه الرّجل محتجًا: «لكنك لم تسمعي أغني يا سيّدي. أصغ لحظةً من
فضلك»، وتحركت أصابعه برشاقة على أوتار القيثارة، وملأت الأنغام القبو
إذ بدأ سايمون يُغني.

ركب في شوارع المدينة
نازلًا من تله العالي
عبر الحارات والأعتاب والأحجار
ركب إلى تنهيدة امرأة
هي عاره ونعيمه

هي كنزه وسِرُّ الأسرار
وهل تُقَارَن سلسلة من الأيدي
بِقُبلة امرأة؟

قطع الرَّجُل الأَغْنِيَّة قائلًا: «هناك المزيد، أوه، الكثير جدًا. اللّازمة تحديدًا جميلة في رأيي. فالأيدي الذهب دوماً باردة، لكن يديّ المرأة تشعان دفئًا...». قال تيريون مخرجًا يده خاليةً من المعطف: «كفى. لا أريدُ أن أسمع هذه الأغنيّة ثانية أبدًا».

رَدَّ سايمون لسان الفضة: «حقًا؟»، ووضع القيثارة جانبًا وأخذ رشفةً من النبيذ، ثم قال: «مؤسف. لكن لكلِّ رجلٍ أغنيته، كما اعتادَ أستاذي القديم أن يقول وهو يُعلِّمني العزف. قد يروق اللّحن آخريْن أكثر. الملكة ربما، أو السيّد والدك».

حكَّ تيريون ندبة أنفه قائلًا: «أبي لا يملك وقتًا للمغنين، وأختي ليست بالكرم الذي تحسبه. الحصيف يستطيع أن يجني من الصّمت أكثر مما سيحنيه من أغنيّة». لا يُمكنه أن يقولها بوضوح أكثر. بدا أن سايمون أدرك ما يعنيه سريعًا، وقال: «ستجد سعري متواضعًا يا سيّدي».

- «عظيم، أخبرني». لن تكون هذه مسألة ثلاثين تينينًا ذهبيًا.

قال الرَّجُل: «ستكون هناك مسابقة للمغنين في زفاف الملك چوفري».

- «وحواة، ومهرّجين، ودببة راقصة».

- «دُب راقص واحد فقط يا سيّدي»، قال سايمون الذي يبدو بوضوح أنه

انتبه لترتيبات سرسي أكثر من تيريون بكثير. «لكن سبعة مغنين: جاليون ابن (كاي)، وبثاني ذات الأصابع النّاعمة، وإيمون كوستاين، وألاريك الأيزيبي، وهاميش ذو القيثارة، وكوليو كواينيس، وأورلاند ابن (البلدة القديمة). كلهم سيتنافسون على عودٍ مذهّبٍ بأوتار فضيّة... لكن لأسبابٍ مجهولة لم يتلقَ أحسنهم جميعًا دعوة».

- «دعني أحمّن. سايمون لسان الفضة؟».

ابتسم سايمون بتواضعٍ قائلًا: «إنني مستعدٌّ لإثبات صحّة هذا التّباهي أمام

الملك والبلاط. هاميش عجوز، وكثيراً ينسى ما يُغْنِيه، وكوليو بتلك اللّهجة التايروشيّة السّخيفة! إذا فهمت كلمةً من ثلاثة فعُدّ نفسك محظوظاً».

- «أختي العزيزة هي المسؤولّة عن تجهيزات المأدبة. حتى إذا استطعت تدبير هذه الدّعوة لك، فقد يبدو الأمر غريباً. سبع ممالك، سبعة ندور، سبع مباريات، سبعة وسبعون طبقاً... لكن ثمانية مغنّين؟ ماذا سيقول السّبتون الأعلى؟».

- «لم تُعطيني انطباعاً بأنك رجل متديّن يا سيّدي».

- «التّديّن ليس الغرض، ولكن ينبغي الحفاظ على مظاهر بعينها».

رشف سايمون من نبيذه، وقال: «ولو... حياة المطربين ليست خاليةً من الأخطار. إننا نغني في الحانات والخمّارات أمام السّكارى المنفلتين، وإذا تعرّض أحد من اختارَتهم أختك إلى حَظّ عاثر ما، فأرجو أن تضعني في الاعتبار لأحلّ محلّه»، وابتسم بخبث وهو يتورّد سروراً من نفسه.

- «ستّة مغنّين لا يصلحون كثمانية بالتأكيد. سأستعلم عن صحّة مطربي

سرسي السّبعة، وإذا أصابت أحدهم وعكة ما فسيجدك رجلي برون».

- «عظيم يا سيّدي». كان يُمكن أن يكتفي سايمون بهذا القدر، لكن الظّفر

جعلهُ يُضيف بأوداج متنفخة: «سأغني في زفاف الملك چوفري. إذا حدث أن استدعيْتُ إلى البلاط، فعليّ أن أقدم للملك أفضل مؤلّفاتي، أغاني رَدّتها ألف مرّة وأضمن أن تُسرّه، لكن إذا وجدت نفسي يومها في حمّارة كئيبة... ستكون فرصةً ملائمةً لتجربة أغنيّة جديدة. فالأيدي الذهب دوماً باردة، لكن يديّ المرأة تشعان دفئاً».

قال تيريون: «لن يكون ذلك ضروريّاً. لك كلمتي كلانستر، سيزورك

رجلي برون قريباً».

- «رائع يا سيّدي»، قال المغنّي ذو البطن الكبير والرّأس المائل إلى

الصّلح، وعادَ يلتقط قيثارته.

كان برون منتظراً مع الحصانين عند مدخل الرّفاق، وساعدَ تيريون على

الرّكوب متسائلاً: «متى أخذه إلى (وادي الغسق)؟».

دارَ تيريون بفرسه مجيباً: «لن تأخذه. أعطه ثلاثة أيام، ثم أخبره أن هاميش

ذا القيثارة كسرَ ذراعه. قُل له إن ثيابه لا تصلح للبلاط على الإطلاق، ويجب

أن تأخذه إلى الخيَاط ليأخذ مقاساته من أجل ثوب جديد. لن يتردد في الذهاب معك»، وأضاف بتجهم: «قد تُريد أن تأخذ لسانه، فهو مصنوع من الفضة حسبما فهمت، أمّا بقيته فيجب ألا يُعثر عليها إطلاقاً».

قال برون بابتسامة عريضة: «ثمة محل أكل أعرفه في (جُحر البراغيث) يُقدّم أفضل وعاء من البني. سمعتُ أن فيه جميع أنواع اللحم».

قال تيريون: «تأكد من ألا أكل هناك أبداً»، وهمز الفرس لتُخبّ عائدةً به إلى القلعة. إنه يرغب في حمّام، ويُحبّذ أن يكون ساخناً جداً.

لكن حتى هذه المتعة البسيطة حُرّم إياها، فلحظة أن عادَ إلى مسكنه أبلغه بودريك باين بأنه مطلوب في (بُرج اليد)، وقال: «حضرة اللورد يُريد أن يراك، اليد، اللورد تاويين».

- «أذكرُ مَنْ هو اليد يا بود. لقد فقدتُ أنفي لا عقلي».

ضحك برون قائلاً: «لا يجعلنك الغيظ تُحطم رأس الصّبي».

- «ولمَ لا؟ إنه لا يستخدمه أبداً». تساءل تيريون عمّا فعله. أو ما فشلتُ

في فعله بالأحرى. استدعاء اللورد تاويين إياه دائماً له أنياب، فلم يحدث قطُّ أن طلبه أبوه لِيُشاركه وجبةً أو كأساً من التّبيذ.

عندما دخلَ عُرفة أبيه الشّمسية بعد دقائق قليلة سمع صوتاً يقول: «...»

خشب الكرز للغمدين، ملفوف بالجلد الأحمر ومزّين بصف من رؤوس الأسود الذهب، مع عقيق أحمر للأعين...».

قال اللورد تاويين: «ياقوت. العقيق الأحمر يفتقر إلى الوهج».

تنحّج تيريون قائلاً: «سيّدي، هل أرسلت في طلبي؟».

رفع أبوه عينيه مجيباً: «نعم. تعالِ ألق نظرةً على هذا». على المنضدة

بينهما وُضعت لفافة من القماش المشمّع، وحمل اللورد تاويين سيفاً طويلاً

بيده. «هدية زفاف لچوفري». كان الضوء المتدفق من ألواح الرُّجاج ذات

الشكل الماسي يجعل النّصل يبرّق بالأسود والأحمر واللورد تاويين يُدوّر

النّصل ليتفحص الحافة، بينما اتّقدت القبعة والواقعي العرضي ذهباً. «مع كلِّ

تلك الثّرثرة الفارغة عن ستانيس وسيفه السّحري، خطر لي أن علينا أن نمّنع

چوفري شيئاً خارقاً للعادة أيضاً. يجب أن يحمل الملك سلاحاً يليق بملك».

قال تيريون: «هذا السيف أعظم من أن يصلح لچوفري».

قال أبوه: «سيعتاده. هاك، اختبر وزنه»، وناولَه السَّيفَ من المقبض. وجدَه أخفَّ كثيرًا مما توقَّع، وإذ دوَّره في يده فطنَ للسَّبب. معدن واحد فقط يُمكن أن يُطرَّقَ حتى يُصبحَ بهذه الرِّقَّةِ ويظلُّ قويًّا صالحًا للقتال، ولا مجال للخلط في تعرُّفِ هذه التَّموجات التي تدل على أن الفولاذ طوي على نفسه آلاف المرَّات. «فولاذ فاليري؟».

أجاب اللورد تايوين بنيرةً تنضح رضا: «نعم».

أخيرًا يا أبي؟ السُّيوف المصنوعة من الفولاذ الفاليري شحيحة وباهظة الثَّمَن، لكن ما زالَ هناك آلاف منها في العالم، وربما مئتان في (الممالك السَّبع) وحدها، ولطالما أزعجَ أباه أن عائلة لانستر لا تملك واحدًا منها. كان لدى ملوك (الصَّخرة) القدامى سلاح كهذا، لكن السَّيف العظيم (الزَّئير البارق) فقدَ عندما حمَله الملك تومن الثَّاني معه إلى (فاليريا) في مغامرته الحمقاء ولم يُعد قَطُّ، وكذا لم يُعد العم جيري، أصغر إخوة أبيه وأكثرهم نزقًا، الذي ذهبَ يبحث عن السَّيف المفقود قبل ثمانية أعوام.

ثلاث مرَّات على الأقل عرضَ اللورد تايوين أن يتناحَ سيوفًا طويلةً من الفولاذ الفاليري من عائلات أدنى وأفقر، لكن عروضة رُفِضت بحزم في كل مرَّة. هؤلاء اللوردات الصَّغار يُسعدهم أن يفترقوا عن بناتهم إذا أتاهم ابن لانستر طالبًا يدهن، لكنهم يدخرون سيوف عائلاتهم القديمة طيلة العُمُر.

تساءلَ تيريون من أين أتى المعدن لهذا السَّيف. قليلون من أساتذة الحدادة يستطيعون إعادة تشكيل الفولاذ الفاليري القديم، لكن أسرار صناعته ضاعت حينما جاءَ الهلاك (فاليريا). قال وهو يدوِّر النَّصل في ضوء الشَّمس: «الألوان غريبة». معظم الفولاذ الفاليري رمادي داكن للغاية حتى يكاد يبدو أسود، وهو ما يراه في هذا السَّيف، لكن الطَّيَّات تضمُّ أحمر قانيًا للغاية أيضًا، ويلتف كلا اللَّونين حول أحدهما الآخر دون أن يتماسًا أبدًا، ويبدو كلُّ تموجٍ مميِّزًا عن غيره، كأن أمواجًا من اللَّيل والدَّم تتلاطم وتتكسَّر على ساحلٍ من الفولاذ. «كيف توصلت إلى هذه الزَّخرفة؟ إنني لم أرَ شيئًا لها قَطُّ».

قال صانع السَّلاح: «ولا أنا يا سيِّدي. يجب أن أقرَّ بأن هذه الألوان ليست ما انتويته، ولا أدري إن كنتُ أستطيعُ تكرارها. السيِّد والدك طلبَ لون عائلتكم القرمزي، وهو اللَّون الذي سعيثُ إلى إدماجه في المعدن، لكن

الفولاذ الفاليري عنيد حقًا. يُقال إن هذه السُّيوف القديمة ذاكرتها قويّة ولا تتغيّر بسهولة. ألقىتُ نصفمئة تعويذة وظللتُ أحاولُ أن أجعل الأحمر أفتح، لكن اللون ظلّ يغمقُ كلَّ مرّة كأن النَّصل يمتصُّ ضوء الشَّمس منه، كما أن بعض الطّيّات رفضَ أن يتشربَ الأحمر على الإطلاق كما ترى. إذا كانت النتيجة لا تُرضي اللوردين لانستر، فسأظلُّ أجربُ ثانيةً بالطّبع، لكن...».

قاطعهُ اللورد تاويين: «لا داعي. هذا يصلح».

قال تيريون: «قد يتألّق السَّيف القرمزي ويُبهر الأعيُن في الشَّمس، لكن الحقيقة أن هذه الألوان تروقني أكثر. إن فيها جمالًا ما قابضًا... وتجعل هذا السَّيف فريدًا، فلا أعتقدُ أن هناك مثيلًا له في العالم».

ردَّ صانع السِّلاح: «هناك واحد»، ومالَ على المنضدة وفَضَّ لفافة المشمَّع كاشفًا عن سيفٍ طويلٍ ثانٍ.

وضعَ تيريون سيفَ چوفري والتقطَ الثاني. إن لم يكونا توأمين، فهما ابنا عمومةٍ من الدَّرجة الأولى على الأقل. هذا أثقل وأكثُر سُمْكًا، وأعرضُ بنصف بوصة وأطول بثلاث، لكن الاثنين يشتركان في الخطوط الرِّفيعة النّظيفة والألوان المميّزة نفسها، تموجات الليل والدّم. في نصل السَّيف الثاني ثلاثة أخاديد طوليّة عميقة لتخفيف الحركة تمتدُّ من المقبض إلى الرّأس، أمّا في سيف الملك فاثنان فقط، وإن كانت الزينة في مقبض سيف چوفري أكثر بكثير، إذ يتخذ ذراعا الواقي العرضي شكل كَفّي أسد مخالبهما المفتوحة من الياقوت الأحمر، بينما يشترك المقبضان في كونهما من الجلد الأحمر الثمين واتخاذ القبعتين شكل رأس أسدٍ ذهبي.

- «مذهل». حتى في يدٍ غير خبيرة كيده أحسَّ تيريون بالسَّيف حيًّا. «لم أشعر بتوازنٍ أفضل من هذا قط».

- «إنه لابني».

لا حاجة للسؤال عن الابن الذي يقصده. وضعَ تيريون سيف چايمي على المنضدة إلى جوار سيف چوفري وهو يتساءل إن كان روب ستارك سيترك أخاه يعيش حتى يحمله. لا بُدَّ أن أبانا يؤمن بهذا، وإلا لمَ أمرَ بصنع السَّيف؟ قال اللورد تاويين لصانع السِّلاح: «أحسنت عملاً أيها المعلم موت. سيتولّى وكيلي أجرك، لكن تذكّر، ياقوت للغمدين».

قال الرَّجُلُ: «سأفعلُ يا سيّدي. إنك في غاية الكرم»، وعادَ يلفُ السِّيفينَ بالمشمّع ودَسَّ اللفافة تحت إبطه، ثم ركعَ على رُكبةٍ واحدةٍ مضيضًا: «يُشرِّفني أن أخدم يد الملك. سأجلُبُ السِّيفينَ في اليوم السَّابِق للزَّفاف».

- «احرص على هذا».

تسلَّق تيريون إلى كرسيِّ بعدما قادَ الحرس الرَّجل إلى الخارج، وقال: «طَيِّب... سيف لچوفري وسيف لچايمي، ولا حتى مجرّد خنجر للقمز. أهكذا إذن يا أبي؟».

- «الفلواذ كان يكفي نصلين فقط لا ثلاثة. إذا كنت تُريدُ خنجرًا فخذ واحدًا من مستودع السِّلاح. روبرت تركَ مئةً عندما مات. جيريون أهداه في زفاه خنجرًا مذهَّبًا بمقبض من العاج وقبيعة من الصّفير، ونصف المبعوثين الذين جاءوا البلاط حاوّلوا مدهانة جلالته بإهدائه السكاكين المحلاة بالجواهر والشيوف المزخرفة بالفضة سعيًا إلى حظوته».

ابتسمَ تيريون قائلاً: «كان ليرضى أكثر لو أهدوه بناتهم».

- «لا ريب. النّصل الوحيد الذي استخدمه كان سكين الصّيد الذي أعطاه چون آرَن إياه في صباه»، ولوّح اللورد تايوين بيده معيّرًا موضوع الملك روبرت وسكاكينه، وسألَ تيريون: «ماذا وجدت على ضفّة النّهر؟».

- «أو حالًا وبعض الأشياء الميتة التي لم يُكلّف أحد نفسه عناء دفنها. قبل أن نفتح الميناء ثانية لا بُدّ من رفع الوحل والرّمْل من قاع (النّهر الأسود)، وتحطيم السّفن الغارقة أو جرّها. ثلاثة أرباع الأرصفة في حاجة إلى إصلاحات، وبعضها يجب هدمه وإعادة بنائه. سوق السّمك كلها لم تُعد موجودة، وكلتا (بوابة الملك) و(بوابة الطّمي) هشمتهما مدكات ستانيس ولا بُدّ من استبدالهما. جلدي يقشعُر لمجرّد التّفكير في التّكلفة». أرادَ أن يقول: إذا كنت تبتريزُ ذهبًا حقًا يا أبي، فادخُل المرحاض واشرع في العمل، لكنه أعقل من أن يقولها.

- «ستجد الذهب المطلوب كلّه».

- «حقًا؟ أين؟ قلتُ لك إن الخزانة فارغة، ولم نفرغ بعدُ من تسديد ثمن النّار السّعواء للخيمايين، ولا ثمن سلسلتي للحدّادين، وسرسي تعهدت بأن

يدفع التَّاجِ نِصْفَ تَكَالِيفِ زَفَافِ چَوْفَرِي... سَبْعَةَ وَسَبْعُونَ صِنْفًا مِنَ الطَّعَامِ،
وَأَلْفَ مِنَ الضِّيُوفِ، وَكِعْكَةَ مَلِيئَةَ بِالْحَمَامِ، وَمَغْنُونٌ، وَحُوَاةٌ...»
- «التَّبْدِيرُ لَهُ فَوَائِدُهُ. يَجِبُ أَنْ نَسْتَعْرِضَ قُوَّةَ وَثَرُوَّةِ (كَاسْتَرَلِي رُوك) لِتَرَاهَا
الْبِلَادَ كُلَّهَا».

- «رَبْمَا يَجْدُرُ إِذْنُ بـ(كَاسْتَرَلِي رُوك) أَنْ تَدْفَعُ».
- «لِمَاذَا؟ لَقَدْ رَأَيْتُ دَفَاتِرَ الإِصْبَعِ الصَّغِيرِ. دَخُولَ التَّاجِ أَعْلَى عَشْرَ مَرَّاتٍ
مِمَّا كَانَتْ فِي عَهْدِ إِيرِس».
- «وَنَفَقَاتِ التَّاجِ كَذَلِكَ. رُوبَرْتُ كَانَ سَخِيًّا فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ كَمَا كَانَ فِي
اسْتِخْدَامِ قَضِييْبِهِ، وَالإِصْبَعِ الصَّغِيرِ كَانَ يَقْتَرِضُ بِكَثْرَةِ، مِنْكَ ضَمْنِ آخَرِينَ.
نَعَمْ، الدُّخُولُ غَزِيرَةٌ، لَكِنهَا تَكْفِي بِالكَادِ لِتَغْطِيَةَ الْفَوَائِدِ عَلَى قُرُوضِ الإِصْبَعِ
الصَّغِيرِ. هَلْ سَتَعْفُو عَنْ دِيُونِ الْعَرْشِ لِعَائِلَةِ لَانَسْتِر؟»
- «لَا تَكُنْ سَخِيًّا».

- «إِذْنُ سَبْعَةَ أَطْبَاقِ تَكْفِي، وَثَلَاثُمِئَةَ ضَيْفٍ بَدَلًا مِنْ أَلْفٍ. عَلَى حَدِّ عِلْمِي
الزَّوْاجُ يَظَلُّ مُلْزَمًا دُونَ دُبِّ رَاقِصٍ».
- «سَيَحْسِبُنَا آلُ تَايرِلِ بُخْلَاءً. أَرِيدُ الزَّفَافَ وَضَفَّةَ النَّهْرِ، وَإِذَا كُنْتُ لَا
تَسْتَطِيعُ دَفْعَ تَكَلْفَتَهُمَا فَقُلْ هَذَا وَسَاجِدُ أَمِينٍ نَقْدٍ يَسْتَطِيعُ».
ليس عارٌ صرفه من وظيفته بعد فترةٍ قصيرةٍ للغاية بالشيء الذي يرغب
تيريون في اختباره، وهكذا قال: «سَاجِدُ التُّقُودِ».
قال أبوه بصرامة: «سَتَفْعَلُ، وَبِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ حَاولِ أَنْ تَجِدَ طَرِيقَكَ إِلَى
فِرَاشِ زَوْجَتِكَ أَيْضًا».

وَصَلَ الْكَلَامُ إِلَى مَسَامِعِهِ إِذْنُ. «وَجَدْتَهُ، شُكْرًا. إِنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْأَثَانِ بَيْنَ
النَّافِذَةِ وَالْمَسْتُوقِ ذَاتِ الْمِظَلَّةِ الْمَخْمَلِ وَالْحَشِيَّةِ الْمِبْطَنَةِ بِرِيَشِ الإِوزِ».
- «يَسُرُّنِي أَنْكَ تَعْرِفُهُ، وَأَحْرَى بِكَ الْآنَ أَنْ تَعْرِفَ الْمَرْأَةَ الَّتِي تُقَاسِمُكَ
إِيَّاهُ».

المرأة؟ تعني الطفلة. «هل همس عنكوت معين في أذنك أم أن علي أن
أشكر أختي الجميلة؟». باعتبار الأشياء التي تجري تحت أعطية سرسي، كان
ليحسب أنها لن تدس أنفها في هذا الشأن. «أخبرني، لماذا جميع وصفات
سانزا نساء في خدمة سرسي؟ لقد سئمت التَّجَسُّسِ عَلَيَّ فِي مَسْكِنِي».

- «إذا كنت غير راض عن خادمتك فاصرفهن وعيّن أخريات يرقنك أكثر، فهذا حَقُّك. عذريّة زوجتك هي ما تهمني لا وصفاتها. هذا... هذا التخاذل يُدهشني، فلا يبدو أنك تجد صعوبة في معاشرّة العاهرات. هل ثمة شيء مختلف في فتاة ستارك؟».

- «لماذا تهتمّ إلى هذا الحدّ بالمكان الذي أضع فيه قضبي؟ سانزا صغيرة للغاية».

- «إنها كبيرة بما يكفي لأن تصبح سيّدة (وينترفل) بمجرد أن يموت أخوها. خذ بكورتها وستقرب خطوةً من أخذ الشّمال. ضع طفلاً في بطنها وستكون الثّمرة جاهزةً للقطاف. هل أحتاج إلى تذكيرك بأن الرّبيجة التي لا تتمّ يُمكن إبطالها؟».

- «على يد السيّتون الأعلى أو مجلس العقيدة، والسيّتون الأعلى الحالي كلب بحر مدرّب على النّباح بالأمر. فتى القمر أصلح منه لإبطال زواجي».

- «ربّما كان يجدر بي إذن أن أزوّج سانزا ستارك بفتى القمر، فلعله يعرف ماذا يفعل معها».

قبض تيريون على ذراعني كرسّيه، وقال: «لقد سمعتُ كلّ ما أريدُ أن أسمع عن عذريّة زوجتي، لكن ما دمنا نتحدّث عن الزّواج، فلمّ لم أسمع شيئاً عن زفاف أختي المقبل؟ حسبما أتذكّر...».

قاطعه اللورد تايوين: «مايس تايرل رفض عرضي تزويج سرسي بوريته ويلاس».

- «رفض جميلتنا سرسي؟!». وضع الخبير تيريون في مزاج أحسن كثيراً. قال أبوه: «اللورد تايرل بدا ميّالاً إلى القبول عندما عرضتُ عليه الأمر أول مرّة، لكن بعد يوم واحد تغيّر كل شيء. العجوز السّبب. إنها تُوبّخ ابنها بلا رحمة، وفارس يزعم أنها قالت له إن سرسي كبيرة للغاية و«مستعملة» للغاية بالنسبة لحفيدها الأعرج الغالي».

صاحكاً قال تيريون: «لا بُدّ أن سرسي أحبّت هذا الكلام!».

رمقه اللورد تايوين بنظرة باردة، وقال: «إنها لا تعلم، ولن تعلم. الأفضل لنا جميعاً أن هذا العرض لم يُقدّم قط. اعمل على أن تتذكّر هذا يا تيريون. العرض لم يُقدّم قط».

- «أي عرض؟»، قال تيريون وإحساس يُراوده بأن اللورد تايرل قد يندم على رفضه.

- «أختك ستتزوج، لكن من؟ هذا هو السؤال. أفكرُ في كذا...». قبل أن يُكْمِلَ سمعا دَقَّةً على الباب وأدخلَ حارس رأسه معلناً حضور المايستر الأكبر بايسل، فقال اللورد تاويين: «فليَدْخُلْ».

دخلَ بايسل بِخُطى ثَقِيْلَةٍ مِتْكَئًا على عُنْكَازِهِ، وتوقَّفَ لحظةً يَرْمُقُ تيريونَ بنظرةٍ نارِيَّةٍ من شأنها أن تُخَشِّرَ الحليب. كانت لحيته البيضاء سالفة الفخامة -التي حلَّقها شخصٌ ما- قد بدأت تنبت من جديدٍ في خيوطٍ رفيعة هزيلة، تاركةً لُغده الوردِي القبيح يتدلَّى تحت عُنُقِهِ. قال الرَّجُلُ المسنُّ وهو ينحني لأقصى درجةٍ ممكنة دون أن يقع: «حضرة اليد، وصلنا طائر آخر من (القلعة السوداء). هل تسمح بأن نتكلَّم على انفراد؟».

أشارَ اللورد تاويين للمايستر الأكبر بالجلوس قائلاً: «لا داعي لذلك. تيريون يستطيع البقاء».

أوووه، حقاً؟ فركَ تيريون أنفه وانتظرَ.

تنحنجَ بايسل، وهو ما تضمَّن الكثير من السُّعال والتَّنْخَع، ثم قال: «الرَّسالة من باون مارش صاحب الرَّسالة السَّابِقة، أمين القلعة. يقول إن اللورد مورمونت أرسلَ أنباءً عن تحرُّك الهَمَج جنوباً بأعدادٍ غفيرة».

قال اللورد تاويين بحسم: «الأراضي الواقعة وراء (الجدار) لا تَصُلِحُ لمعيشة أعدادٍ غفيرة. ليس هذا بالتحذير الجديد».

- «هذا التحذير الأخير جديد يا سيّدي. اللورد مورمونت أرسلَ طائراً من (الغابة المسكونة) ببلاغٍ بتعرُّضه للهجوم. عادَ مزيد من الغدبان منذ ذلك الحين، لكن بلا رسائل. باوَن مارش هذا يخشى أن اللورد مورمونت قد قُتِلَ ومعه رجاله كلهم».

سألَ تيريون الذي أحبَّ العجوزَ چيور مورمونت بأسلوبه الفُظِّ وطائره المتكلِّم: «أهذا مؤكَّد؟».

أجابَ بايسل: «ليس مؤكَّدًا، لكن أحدًا لم يرجع بعدُ من رجال مورمونت. مارش يخشى أن الهَمَج قتلوه، وأن الهجوم التَّالِي سيكون على (الجدار)

نفسه»، ونقّب في ثوبه حتى عثر على الورقة، وقال: «ها هي الرّسالة يا سيّدي، مناشدة للملوك الخمسة كلهم. يُريد رجالًا، أكبر عددٍ ممكن».

قال أبوه بضيق: «الملوك الخمسة؟ هناك ملك واحد فقط في (وستروس). على هؤلاء الحمقى مرتديّي الأسود أن يتذكّروا هذا إذا أرادوا أن يُصغي جلالته إليهم. عندما تردُّ، قُل له إن رنلي مات والآخريّن مدّعون وخونة».

هزّ بايسل رأسه إلى أعلى وأسفل كاللدّجاج قائلاً: «لا شكّ أنهم سيسعدون لمعرفة هذا. (الجدار) في آخر العالم، وغالبًا تصلهم الأخبار متأخّرة. ماذا أقول لمارش بصدد الرّجال الذين يلتمس إرسالهم؟ هل نعقد المجلس...».

- «لا حاجة إلى ذلك. حرس الليل قطع من اللصوص والقنّلة والفلاحين الثُّغول، لكنني أفكّر في أنهم قد يُثبتوا غير هذا إذا تمّتعوا بالانضباط الكافي. إذا مات مورمونت حقًا، فعلى الإخوة السُّود أن ينتخبوا قائداً جديداً».

حدّج بايسل تيريون بنظرةٍ مآكرة، وقال: «فكرة ممتازة يا سيّدي، وأعرف الرّجل المطلوب بالضبط. چانوس سلينت».

لم ترُق الفكرة تيريون إطلاقًا، فقال مذكّرًا: «الإخوة السُّود يختارون قائدهم بأنفسهم، وچانوس سلينت حديث العهد بـ(الجدار). أعرّف هذا لأنني أرسلته إلى هناك. لماذا يُؤثرونه هو على دسّته من كبار القيّمين؟».

أجاب أبوه بلهجةٍ تنم عن اعتقاده أن تيريون ساذج حقًا: «لأنهم إذا لم يُصوّتوا كما يُقال لهم فسيذوب جدارهم قبل أن يروا رجلًا إضافيًا».

فكّر تيريون: نعم، هذا المنهج يصلح، ومال إلى الأمام قائلاً: «چانوس سلينت الرّجل الخطأ يا أبي. الأفضل أن يكون قائد (بُرج الظلال) أو (القلعة الشّرقيّة) على البحر».

- «قائد (بُرج الظلال) ماليستر من (سيجارد)، و(القلعة الشّرقيّة) يقودها رجل حديدي». قالت نبرة اللورد تايوين بوضوح إن لا هذا ولا ذاك يصلح لتحقيق مأربه.

باصرار قوي قال تيريون لأبيه: «چانوس سلينت ابن جزّار. أنت نفسك قلت لي...».

- «أذكرُ ما قتله لك، لكن (القلعة السّوداء) ليست (هارنهال)، وحرس الليل ليسوا مجلس الملك. هناك أداة لكلّ غرضٍ وغرضٍ لكلّ أداة».

بغضبٍ لم يستطع أن يكتمه قال تيريون: «اللورد چانوس مجرد درع جوفاء، وسيبيع نفسه لأعلى مُزايد».

قال أبوه: «أعد هذه نقطة في صالحه، فمن سيُلقي عطاءً أعلى منا؟»، ثم التفت إلى پايسل قائلاً: «أرسل عُداًفاً. اكتب أن الملك چوفري حزن كثيراً لخبر وفاة حضرة اللورد مورمونت، لكنه يأسف لعدم استطاعته الاستغناء عن أيّ رجالٍ في الوقت الحالي بينما يظلُّ الغاصبون والمتمرّدون في ميدان القتال. اقترح أن الأمور ستختلف كثيراً بمجرد تأمين العرش... بشرط أن يكون الملك على ثقة تامّة بقيادة حرس الليل. في النهاية اطلب من مارش أن ينقل تحيات جلالته الحارّة لصديقه وخادمه المخلص اللورد چانوس سلينت».

عاد پايسل يهزُّ رأسه العجوز قائلاً: «حاضر يا سيّدي. سأكتب ما يأمر به حضرة اليد بكل سرور».

فكر تيريون: كان ينبغي لي أن أقصّ رأسه لالحيته، وكان يجب أن يذهب سلينت للسباحة مع صديقه العزيز آلا رديم. على الأقل لم يرتكب تيريون تلك الغلطة الحمقاء مع سايمون لسان الفضة، حتى إنه أراد أن يصيح: أترى يا أبي؟ أترى السرعة التي أتعلّم بها دروسي؟

سامويل

في الأعلى امرأة تلدُ بصريخ مدوّ، وفي الأسفل رجل يموت إلى جوار النَّار، ولا يدري سامويل تارلي أيهما يُخيفه أكثر.

كانوا قد غطوا بانن المسكين بكومةٍ من الفرو وأذكوا النَّار حتى استعرت، لكنه أخذ يُردّد بلا انقطاع: «أشعرُ بالبرد، أرجوكم، البرد شديد». حاولَ سام أن يسقيه مرق البصل فلم يستطع البلع، وظلَّ المرق يُقطر من فمه إلى ذقنه بمجرد أن يدسَّ سام الملعقة بين شفثيه.

رمقَ كراستر الرَّجل بلا مبالاة وهو ينهش قطعةً من الشُّجق، وقال: «إنه ميّت. الأرحم أن تضعوا سكينًا في صدره بدلًا من هذه الملعقة في حلّقه إذا طلبتم رأيي».

- «لا أذكرُ أننا فعلنا». لا يزيد طول العملاق - واسمه الحقيقي بيدويك - على الأقدام الخمسة، وإن كان الجميع يستشهدون بقوّته، وقد وجّه تعليقه إلى كراستر، ثم التفتَ إلى سام قائلاً: «أيها القاتل، هل طلبت رأي كراستر؟». انكمشَ سام من الاسم، لكنه هزَّ رأسه نفيًا، وملأَ ملعقةً أخرى بالمرق ورفعها إلى فم بانن محاولًا أن يُدخلها بين شفثيه بتؤدة.

كان العملاق يقول: «الطعام والنَّار كل ما طلبناه منك، وحتى الطَّعام تضنُّ علينا به».

- «فلتمتُّوا لأنني لم أضنَّ عليكم بالنَّار أيضًا». كراستر رجل غليظ الجسد، جعلته فروة الخروف البالية كريهة الرائحة التي يرتديها ليل نهار يبدو أغلظ، وله أنف مسطح عريض وفم يميل إلى جانب وجهه وأذن مفقودة، وعلى الرغم من البياض المستشري في شعره المتلبّد ولحيته المشعثة ما

زالت تبدو يده الخشتان قويتين بما يكفي للأذى. «أطعمتكم ما أقدرُ عليه، لكنكم جائعون دائماً أيها الغربان. لو لم أكن رجلاً تقيّاً لطردتكم. أتحسب أنني أريدُ أن يموت أمثاله على أرضي؟ أتحسبني في حاجةٍ إلى أفواحكم هذه أيها الرجل الصَّغير؟»، وبصقَ الهمجي قبل أن يُضيف: «غربان. قل لي، هل يأتي طائر أسود دار رجل بالخير أبداً؟ مُحال، مُحال».

سألَ المزيد من المرقِّ من رُكنٍ فم بانن، فمسحَه سام بطرف كُمِّه. كانت عينا الجوّال مفتوحتين وإنما بلا بصر، وقال ثانيةً بمنتهى الخفوت: «أشعرُ بالبرد». ربما استطاعَ مايستر أن يُنقِذه، لكنهم بلا مايستر. قبل تسعة أيام بتَرَ كِدج ذو العين البيضاء قدم بانن المشوّهة، انبجس منها القيح والدّم وُصَّاب سام بالغثيان، لكن أوان الإسعاف كان قد فات، والآن لا تُردِّد الشِّفتان الممتقتان إلّا: «أشعرُ بالبرد».

حول القاعة كانت مجموعة هزيلة من الإخوة السُّود، منهم من ألقى على الأرض ومن جلس على الدُّكك المتواضعة، ويشرب الجميع أكواباً من المرق الخفيف نفسه ويلوكون لقيماتٍ من الخُبز الجامد، ويشي منظر اثنين منهم بأن حالهما أسوأ من بانن؛ فورنيو يهذي من الحُمى منذ أيام، وكتف السير بيام تنزُّ قيحاً أصفر شنيحاً. عندما غادروا (القلعة السوداء) حملَ برنار البني معه أكياساً من الصَّبغة المايريَّة ومرهم الخردل والثُّوم المهروس والتانسي والخشخاش ونُحاس الملك وغيرها من أعشاب العلاج، وحتى حُلُو الكرى الذي يُهدي المرء موتاً بلا آلام، لكن برنار البني مات فوق (القبضة) ولم يُفكِّر أحد في البحث عن أدوية المايستر إيمون. كان هاك على شيءٍ من العلم بالأعشاب باعتباره طاهياً، لكن هاك أيضاً مفقود، فوقع على عاتق الوُكلاء النَّاجين أن يفعلوا ما يقدرُوا عليه للجرحى، وهو قليل. إنهم جافون هنا على الأقل، وهناك نار تُدْفئهم، لكنهم في حاجةٍ إلى طعام أكثر.

كلُّهم في حاجةٍ إلى طعام أكثر. منذ أيام وألرَّجال يُدمِّمون احتجاجاً، وقال كارل ذو القدم المعوجَّة مرَّاراً إن كراستر لديه مخزن طعام سرِّي بالتأكيد، وبدأ جارث ابن (البلدة القديمة) يحذو حذوه بعيداً عن أسماعِ حضرة القائد. فكَّر سام في أن يتوسَّل من كراستر طعاماً مُقيئاً أكثر للجرحى على الأقل، لكنه افتقرَ إلى الشَّجاعة، فعينا الهمجي باردتان قاسيتان، وكلما نظرَ ناحيته

ارتعشت يدها بعض الشيء، كأنهما تُريدان أن تتكوّرا. هل يعرف أنني كلّمت جيلي حين كنا هنا المرّة السّابقة؟ هل أخبرته أنني قلتُ لها إننا سنأخذها؟ هل ضربها حتى أخبرته؟

قال بانن: «أشعرُ بالبرد، أرجوكم، أشعرُ بالبرد».

على الرغم من الحرارة والدُّخان في قاعة كراستر أحسّ سام نفسه بالبرد. والتعب، كم أنا متعب. كان يحتاج إلى التّوم، لكن كلما أغلق عينيه حلم بالثلوج والموتى يتقدّمون منه بأيديّ سوداء وأعين زرقاء لامعة.

في الأعلى أطلقت جيلي أنينا راجفاً تردّد صدها في القاعة الطويلة الواطئة الخالية من التّوافذ، وسمع سام واحدةً من زوجات كراستر الأكبر سنّاً تقول: «ادفعي، أقوى، أقوى. اصرخي إذا أردتِ»، وجلجلت صرخة الفتاة مُجفلةً سام.

التفت كراستر محدّقاً بعبوس، وزعق: «سمتُ هذا الصّراخ. ناويلها خرقةً تعضّها وإلاّ صعدتُ إليها وأذقتها يدي».

يعلم سام أنه لن يتوانى عن تنفيذ وعيده. لكراستر تسع عشرة زوجة، لكن ليست بينهم من تستطيع التّدخل بمجرّد أن يبدأ صعود السّلم إلى العُلّية، تماماً كما لم يستطع أحد الإخوة السّود أن يتدخّل قبل ليلتين عندما أوسع إحدى الزّوجات الأصغر ضرباً، وإن سرّت دمدمة معترضة بينهم، وقال جارث جرينواي: «إنه يفتلها»، فردّ كارل ذو القدم المعوجّة ضاحكاً: «إذا كان لا يُريد الصّغيرة الحُلوة فيمكنه أن يُعطيني إياها»، لكن برنار الأسود أطلق سباً بصوتٍ غاضب واطىء، بينما نهض آلان ابن (روزبي) وخرج من القاعة كي لا يسمع، أمّا الجوّال رونل هاركلاي فقال لهم مذكراً: «تحت سقفه تسري قواعده. كراستر صديق للحرس».

صديق، فكر سام وهو يسمع صرخات جيلي المكبوتة. كراستر رجل وحشي يحكم زوجته وبناته بقبضة من حديد، لكن داره كانت ملاذاً على الرغم من ذلك، وقد قال هازناً حين دخلت عليه القلّة المتهالكة التي نجت من الثلوج والجثث الحيّة والزّمهريز: «غربان متجمّدون، وسرب أصغر من الذي حلق شمالاً»، إلاّ أنه أعطاهم مكاناً على أرض قاعته وسقفاً يقيهم من الثلج وناراً تُجفّفهم، وأنتهم زوجاته بأكوابٍ من النّبذ الساخن لبثّ شيء من

الدَّفء في بطونهم. وصفهم بالغربان الملاعين، لكنه أطعمهم أيضًا، وإن كان الطعام غثًا.

قال سام لنفسه مذكرًا: إننا ضيوفه، وجيلي له، ابنته وزوجته. تحت سقفه تسري قواعده.

أول مرّة رأى (قلعة كراستر) جاءته جيلي تتوسّل العون، وأعارها سام معطفه الأسود لثواري بطنها لمّا ذهبَت تُكلمّ چون سنو. المفترض أن يذوّد الفرسان عن النساء والأطفال. فليلون من الإخوة السود فرسان، ولكن... كلنا أخذنا على أنفسنا عهدًا. أنا الدرّع التي تقي بلدان البشر. المرأة مرّة، حتى إذا كانت همجيّة. يجب أن نساعدها، يجب. أخشى ما تخشاه جيلي أن يكون وليدها صبيًا. كراستر يُشئ بناته على أن يكنّ زوجاته، لكن لا أثر لرجال أو صبية على أرضه، وجيلي قالت لچون إن كراستر يُعطي أبناءه للآلهة، وهو ما جعل سام يدعو: ستلد بنتًا بمشيئة الآلهة.

كتمت جيلي صرخة في العليّة، وقالت المرأة: «هكذا، دفعة أخرى الآن. أوه، أرى رأسه».

فكر سام ببؤس: رأسها، ترين رأسها.

تمت بانن بوهن: «البرد، أرجوكم، البرد شديد»، فوضع سام الوعاء والملقعة جانبًا وألقى فروة أخرى فوق الرّجل المحتضّر، وأضاف عصا أخرى إلى النّار. أطلقت جيلي صرخة أخرى وطفقت تلهث، وقضم كراستر من الشّجق الأسود الجامد، الذي كان قد أعلن أن عنده منه ما يكفيه وزوجاته فقط.

قال الهمجي متأفّفًا: «يا للنساء وعويلهن... ذات مرّة كانت عندي خنزيرة سمينة ولدت ثمانية دون أنّه واحدة»، والتفت إلى سام وهو يلوك، وضيق عينيه رامقًا إياه باحتقار، وأضاف: «كانت تكاد تكون سمينة مثلك أيها الصّبي، القاتل»، وأطلق ضحكة ساخرة.

لم يعد سام يحتمل وقد أصابه الدّخان والصّراخ والأنين بالدّوار، فابتعد باضطراب عن بؤرة النّار خاطيًا بحرق فوق وحول الرّجال النائمين والمقرّفين والمحتضّرين على الأرضيّة الثّراب الصّلبة، ثم دفع السّديلة المصنوعة من فروة الأيائل التي تعمل بمثابة باب كراستر، وخرج إلى ضوء الأصيل. كان النّهار غائمًا لكن ساطعًا بما يكفي لأن يُعميه بعد عتمة القاعة.

أثقلت رُقع من الثلج فروع بعض الأشجار المحيطة وكست الهضاب الذهبية والخمرية، لكن بصورة أخف من السابق. لقد مرّت العاصفة، والأيام التي أمضوها في (قلعة كراستر) كانت... غير دافئة ربما، لكن ليست قارسة البرودة كذلك، وسمع سام صوت تقاطر الماء الناعم من كُتل الجليد التي غطت حافة السقف المغطى بالثلج السميك، وأخذ نفساً عميقاً راجفاً وتطلع حوله.

إلى الغرب كان أولو الأبر وتيم ستون يتحركان وسط صفوف الخيول، يُطعمان ويسقيان ما تبقى منها، وفي الاتجاه الآخر الذي تهبُّ منه الرياح إخوة يذبحون ويسلخون الحيوانات التي تقرّر أنها أضعف من أن تُواصل الطريق، بينما يدور عدد من الرُماة وحاملي الحراب حراسةً وراء السّاتر الطيني الذي يعدُّ دفاع كراستر الوحيد ضد ما يختبئ في الغابة أيّا كان، وارتفعت ألسنة كثيفة من الدخان الرمادي المزرق من دسّته من بؤر النَّار. تناهت إلى مسامع سام أصداء الفؤوس البعيدة التي يُعملها الرّجال في الغابة، حيث تجمع زُمرّة منهم ما يكفي من حطب للحفاظ على النَّار مضطربةً خلال اللَّيل، واللَّيل وقت سيّئ، لا يعرف فيه المرء إلا الظلام والبرد.

لم يتعرّضوا لهجمات أخرى وهم مقيمون عند كراستر، لا من الجُثث الحيّة أو (الآخرين)، وأكد كراستر أنهم آمنون، وقال: «الرّجل التّقي لا يخشى شيئاً من ذلك. هذا ما قلته لمانس رايدر مرّة عندما جاء يتشّمّ الأجواء هنا، لكنه لم يُصنع مثلما لم تُصغوا أيها الغربان بسيوفكم ونيرانكم الخائبة التي لن تُساعدكم مقدار ذرّة حين يأتي البرد الأبيض. لا أحد غير الآلهة سينجدكم عندها، وخير لكم أن تتوبوا إليها».

جيلي أيضاً تحدّثت عن البرد الأبيض وذكّرت القرابين التي يُقدّمها كراستر لآلهته، وأراد سام أن يقتله عندئذٍ، لكنه عاد يُدكر نفسه الآن: لا توجد قوانين وراء (الجدار)، وكراستر صديق للحرس.

تصاعدت صيحة خشنة من وراء القاعة المبيّنة من الجصّ والأغصان المجدولة، فذهب سام يُلقي نظرةً. كانت الأرض تحت قدميه مستنقعاً من الثلوج الذّائبة والأوحال الطرية التي أصرّ إد الكتيب أنها خراء كراستر، لكن الأوحال أثنخ من الخراء، وراحت تمتصُّ حذاء سام بقوة حتى إنه شعر بإحدى الفردتين تنفك.

وراء حديقة فواكه وحظيرة غنم خاوية كان بعض الإخوة السود يُطلقون السهام على هدف صنعوه من التبن والقش، وقرب عين الهدف انغرس سهم سدده الوكيل الأشقر الرفيع المسمى دونل المرح من مسافة خمسين ياردة، قبل أن يقول: «تفوق على هذه الإصابة أيها العجوز».

- «نعم، سأفعل»، قال أولمر ذو الظهر المحني واللحية الشائبة والبشرة الرخوة والأطراف الطويلة، ثم توقف عند العلامة المرسومة على الأرض وسحب سهمًا من الجعبة المثبتة إلى خصره. في شبابه كان خارجًا عن القانون، عضوًا في العصبة سيئة السمعة المسماة أخوة غابة الملوك، ويزعم أنه أصاب الثور الأبيض فارس الحرس الملكي بسهم في يده في سبيل أن يسرق قبلة من شفتي أميرة دورنية. حكى أنه سرق جواهرها أيضًا، وصندوقًا من التنانين الذهبية، لكن ما يتباهى به عندما يشرب هو القبلة. ثبت أولمر السهم إلى الوتر وسحبه بنعومة الحرير الصيفي ثم تركه يخلق، فأصاب عين الهدف على مسافة نصف بوصة من سهم دونل هيل، وتراجع قائلاً: «أيكفي هذا يا ولد؟».

أجاب الرجل الأصغر على مضض: «لا بأس. الرّيح المتعامدة ساعدتك، كانت تهب بقوة عندما أطلقت سهمي».

- «كان عليك أن تضعها في حسابك إذن. نظرتك ثاقبة ويدك ثابتة، لكنك تحتاج إلى ما هو أكثر بكثير لتتفوق على أحد إخوة غابة الملوك. فلتشر ديك هو من أراني كيف أشد الوتر، وهو أعظم رام في التاريخ كله. هل حكيت لك عن ديك العجوز؟».

- «ثلاثمائة مرة فقط». كل رجل في (القلعة السوداء) سمع حكايات أولمر عن عصابة الخارجين عن القانون العظيمة التي ذاع صيتها في الماضي؛ عن سيمون توين والفارس الباسم، وعن أوزوين ذي العنق الطويل المشنوق ثلاثًا، ووندا الطيبة البيضاء، وفتشر ديك، وبن ذي البطن الكبير، والباقيين. باحثًا عن مهرّب، تطلع دونل هيل حوله ولمح سام واقفًا في الوحل، فناداه: «أيها القاتل، تعال وأرنا كيف قتلت (الآخر)»، ومدّ يده بقوسه الطويل المصنوع من خشب الطقسوس.

تورّد وجه سام، وقال: «لم أستخدم سهمًا، بل خنجر من زجاج التين...».

إنه يعرف ما سيحدث إذا أخذ القوس. سيخطئ الهدف ويطيّر السهم بعيدًا فوق السّاتر الطّيني ليخفي بين الأشجار، ثم سيسمع الضّحكات. قال آلان ابن (روزبي)، وهو قوّاس بارع آخر: «لا يهّم. كلنا نتوق إلى رؤية القاتل يرمي السّهام، أليس كذلك يا أولاد؟».

لم يستطع سام أن يواجههم بابتساماتهم الهازئة ونكاتهم القاسية والازدراء في أعينهم، ودار ليعود من حيث أتى، لكن قدمه اليمنى غاصت في الوحل، ولمّا حاول أن يسحبها انخلعت فردة الحذاء، واضطرّ إلى الرّكوع كي يستطيع انتزاعها من الأرض بينما ترنّ ضحكاتهم في أذنيه. حين لاذ بالفرار أخيرًا كان يحسّ بالبلل ينفذ إلى قدمه على الرغم من جواربه الكثيرة، وبتعاسة قال لنفسه: عديم الفائدة. أبي رأني على حقيقتي. لا حق لي في البقاء حيًّا وقد مات شجعان عديدون.

كان جرن يعمل على بؤرة النّار جنوب البوّابة، يقف بجذع عار يشطر الحطب، وجهه محتقن من فرط الجهد، والعرق الحار يتفصّد من مسامه، لكنه ابتسم ملء شذقيه إذ رأى سام يقترب منه لاهثًا بخشونة، وقال: «هل أخذ (الآخرون) حذاءك أيها القاتل؟».

حتى أنت يا جرن؟ «الوحل. أرجوك لا تدعني بهذا الاسم». قال جرن بلهجة صادقة: «لماذا؟ إنه اسم جيّد، وأنت استحققتَه عن جدارة».

لطالما مازح پيب جرن قائلاً إنه بطيء الفهم، وعليه شرح سام بصبر وهو واقف على قدمه اليسرى ويدسّ اليمنى في فردة الحذاء المملّخة بالوَحْل: «إنها مجرد وسيلة أخرى لوصفي بالجبّين. إنهم يسخرون مني كما يسخرون من بيدويك بتلقيه بالعملاق».

ردّ جرن: «لكنه ليس عملاقًا، وپول لم يكن صغيرًا، أو ربما كان وهو رضيع، لكن ليس بعدها. أمّا أنت فقتلت (الآخر). هذا غير ذاك».

- «أنا... إنني لم... كنتُ خائفًا!».

- «ليس أكثر مني. پيب فقط هو من يقول إنني أغبي من أن أشعر بالخوف، لكنني أخاف كأني أحد»، ومال جرن يلتقط قطعة من الخشب ألقاها في النّار مواصلاً: «اعتدتُ أن أخاف چون متى واجهته في التّدريب. كان سريعًا

للغاية، ويُقاتِل كأنه يسعى إلى قتلي»، واستقرَّ الخشب الأخضر الرطب في اللهب والدخان يتصاعد منه قبل أن تتمسك به النار، بينما تابع جرن: «لم أقل هذا لأحد قط. أحياناً يخطر لي أن الجميع يتظاهرون بالشجاعة، لكن لا أحد منا شجاع حقاً. لعلّ التظاهر بالشجاعة يُعلمك إياها، لا أدري. فلينادوك بالقاتل، من يُبالي؟».

- «أنت لم تُحبّ قط أن يُناديك السير أليس بالثور».

حكّ جرن لحيته مجيئاً: «كان يعني أنني كبير وغبي، لكن إذا أرادَ يبيب أن يدعوني بالثور فلا بأس، أو أنت، أو چون. الثور حيوان قوي شرس، وهذا ليس سيئاً، كما أنني كبير بالفعل، وما زلتُ أكبر. ألا تُؤثر أن تكون سام القاتل على السير خنزير؟».

قال سام: «ولم لا يُمكن أن أكون سامويل تارلي فحسب؟»، وجلسَ يتناقَل على قطعة خشب خضراء ما زالَ على جرن أن يشطرها، وأردف: «زُجاج التين هو ما قتله. ليس أنا، زُجاج التين».

لقد أخبرهم، أخبرهم جميعاً، ويعلم أن بعضهم لم يُصدِّقه. أخرج ديرك خنجره لسام قائلاً: «معي حديد، فبِمَ سينفعني الزُجاج؟»، وأبدى برنار الأسود والثلاثة جارث شكوكهم في صحّة القصة كلها، وقال رولي ابن (مسترتون) بوضوح: «الأحرى أنك طعنت شجيرة ما واتضح أنها بول الصغير وقد قرفص ليتغوَّط، فاختلفت هذه الكذبة».

لكن داويون أصغى، وإد الكئيب أيضاً، وجعلا سام وجرن يُخبرا حضرة القائد. ظلّ مورمونت مقطّباً جبينه طيلة الحكاية وطرح أسئلة مباشرة، بما أنه أكثر حذراً من أن ينبذ أيّ نقطة تفوق ممكنة، ثم طلب من سام كلّ زُجاج التين الذي معه، وإن كان قليلاً. كلما فكّر سام في الخبيثة التي وجدها چون مطمورة تحت الأرض عند سفح (القبضة) أراد أن يبكي. كانت هناك نصال خناجر ورؤوس حراب، ونحو مئتين أو ثلاثمئة على الأقل من رؤوس السهام، وكان چون قد صنع خناجر لنفسه وسام وحضرة القائد، وأعطى سام رأس حرية وبوقاً قديماً مكسوراً وعدداً من رؤوس السهام، التي أخذ جرن بعضها أيضاً، لكن هذا كلُّ شيء.

والآن ليس لديهم إلاّ خنجر مورمونت والآخر الذي أعطاه سام لجرن،

بالإضافة إلى تسعة عشر رأس سهم، وحرية طويلة قناتها من الخشب الصُّلب ورأسها من زُجاج التَّين الأسود. تناقلَ الحُرَّاسُ الحرِّبة من مناوِبةٍ إلى أخرى، بينما قَسَمَ مورمونت رؤوس السَّهام على أفضل الرُّماة، فأخذ كلٌّ من بيل المُتمتِّم وجارث جرايفيدر ورونل هاركلاي ودونل هيل المرح وآلان ابن (روزبي) ثلاثة رؤوس، بينما نال أولمر أربعة. لكن حتى إذا أصاب كلُّ سهم هدفه فسرعان ما لن يتبقَّى لهم إلاَّ السَّهام النَّاريَّة ككلِّ الآخرين. على (القُبْضة) أطلقوا مئات السَّهام النَّاريَّة وظلَّت الجُثث الحيَّة تتقدَّم.

فكَّر سام: ما لدينا لن يكفي. سائر كراستر المنحدِر المقام من الطَّين والثَّلج الذَّائب لن يعوق الجُثث الحيَّة، التي تسلقت منحدرات (قبضة البَشْر الأوائل) شديدة الحِدَّة لُطُوِّق السُّور الدَّائري، وبدلاً من ثلاثمئة من الإخوة الواقفين في صفوفٍ منتظمة، ستجد واحداً وأربعين ناجياً في حالةٍ مزرية، تسعة منهم لا تسمح إصاباتهم بالقتال. أربعة وأربعون رجلاً دخلوا (قلعة كراستر) هاربين من العاصفة، هُم من بقوا أحياء من السِّتين وثيَّف الذين شقُّوا طريق الفرار من على قَمَّة (القُبْضة)، لكن ثلاثة من هؤلاء ماتوا متأثرين بجراحهم، وقریباً سيُصبح بانن رابعهم.

سأل سام جرن: «هل تحسب أن الجُثث الحيَّة رحلت؟ لماذا لم تأت لتجهز علينا؟».

- «إنها لا تأتي إلاَّ في البرد».

- «نعم، لكن هل يأتي البرد بالجُثث الحيَّة أم تجلب الجُثث الحيَّة معها البرد؟».

قال جرن وهو يهوي ببلطته لتتطاير شظايا الخشب: «ومن يُبالي؟ كلاهما يأتي مع الآخر، هذا هو المهم. والآن وقد عرفنا أن زُجاج التَّين يقتلها فربما لا ترجع إطلاقاً، ربما تكون خائفةً منا الآن!».

تمنَّى سام لو يستطيع أن يصدِّق هذا، وإن خطرَ له أن بعد الموت لا يعود للخوف معنى، أو للألم والحُب والواجب. طوَّق ساقيه بذراعيه وعرقه ينضح تحت طبقات الصُّوف والجِلد والفرو. لقد أذاب زُجاج التَّين الكائن السَّاحب في الغابة، نعم... لكن جرن يتكلَّم كأنه قد يفعل المثل بالجُثث الحيَّة. ونحن لا نعرف هذا، لسنا نعرف شيئاً حقاً. ليت چون كان هنا. إنه يُحبُّ جرن، لكنه

لا يستطيع أن يتكلم معه بالطريقة نفسها. لم يكن چون لئناديني بالقاتل، ولأمكنني أن أكلّمه عن جيلي ورضيعها. لكن چون رحل مع كورين ذي النصف يد، ومنذ ذلك الحين لم يبلغهم شيء عنه. كان معه خنجر من زجاج التين أيضاً، لكن هل فكر في استعماله؟ أهو الآن جثة متجمدة في وإد ما أم أسوأ من هذا... جثة تمشي؟

لا يفهم لماذا تأخذ الآلهة چون سنو وبانن وتتركه هو الجبان الأخرق. كان يجب أن يموت هو فوق (القبضة)، حيث بال على نفسه ثلاث مرّات وفقد سيفه. وكان ليموت في الغابة لولا أن بول الصغير ظهر وحمله. ليت كل هذا حلم، فعندها سأصحو. كم سيكون رائعاً أن يستيقظ على قمة (قبضة البشر الأوائل) ويجد إخوته كلهم حوله، حتى چون وجوست. أو أفضل وأفضل، يستيقظ في (القلعة السوداء) وراء (الجدار) ويذهب إلى القاعة العامّة ليلتهم وعاء من حساء القمح القشدي الثخين الذي يطبخه هوب ذو الثلاثة أصابع، تذوب في منتصفه ملعقة كبيرة من الزبدة ويضاف إليه العسل. مجرد التفكير في الوجبة جعل معدته تُقرقر.

- «سنو!».

رفع سام عينيه إلى مصدر الصيحة، ورأى غُداف اللورد مورمونت يدور فوق النَّار ضارباً الهواء بجناحيه الأسودين الكبيرين.

- «سنو، سنو، سنو!».

أينما ذهب الغُداف لا يتأخّر ظهور مورمونت، وسرعان ما برزَ حضرة القائد من تحت الأشجار ممتطيّاً حصانه بين دايوين العجوز والجوّال ذي الوجه التعلبي رونل هاركلاي، الذي رُفّي إلى منصب ثورين سمولوود. صاح حاملو الحراب عند البوابة مطالبين بهويّة المقبلين، فردّ الدّب العجوز بغلظة: «من تحسبوننا بحقّ الجحائم السبع؟ هل أخذ (الآخرون) أعينكم؟»، ودخل من بين قائميّ البوابة اللذين يحمل أحدهما جمجمة كبش والثاني جمجمة دُب، ثم جذب عنان الحصان ورفع قبضته مطلقاً صفيراً، فطار الغُداف إليه مليئاً نداءه.

سمع سام رونل هاركلاي يقول: «سيدي، إن معنا اثنين وعشرين حصاناً فقط، وأشك أن نصفها سيبلغ (الجدار)».

دمدمَ مورمونت: «أعرفُ هذا، لكن علينا أن نرحل. كراستر قال هذا بوضوح»، وألقى نظرةً نحو الغرب، حيث أخفى السحاب القاتم الشمس، وأردف: «لقد وهبت لنا الآلهة فرصةً للراحة، لكن إلى متى؟»، ثم وثب من على سرجه ليعاود طائره التخليق، ولما رأى سام هدرَ: «تارلي!».
بحركة ثقيلة قامَ سام قائلاً: «أنا؟»، وخطَّ الغُداف على رأس العجوز مردِّداً: «أنا؟ أنا؟».

- «هل اسمك تارلي؟ ألك أخ في الجوار؟ نعم، أنت. أطبقِ فاهك وتعال معي».

خرجت منه الكلمة كالصَّيرير: «معك؟».

رمقهَ حضرة القائد مورمونت بنظرةٍ مشتعلة، وقال: «أنت رجل في حرس الليل، فحاول ألا تتبرَّز على نفسك كلما نظرتُ إليك. قلتُ تعال معي»، وأصدرَ حذاؤه أصوات تخويضٍ وامتصاص وهو يدوس في الوحل، وأسرعَ سام يلحق به ليسمعه يقول: «أفكرُ منذ فترة في زُجاجك».
- «إنه ليس زُجاجي».

- «زُجاجِ چون سنو إذن. إذا كانت الخناجر المصنوعة من زُجاج التَّنين هي ما نحتاج إليه، فلمَ نملك اثنين فقط منها؟ يجب أن يُسلَّح كل رجلٍ على (الجدار) بواحدٍ يوم يحلف اليمين».
- «لم نكن نعلم...».

- «لم نكن نعلم! لكن لا بُدَّ أننا علمنا ذات يوم. لقد نسيَ حرس الليل غايتهم الحقيقيَّة يا تارلي. لا أحد يبني جدارًا يرتفع سبعمئة قدم ليمنع برابرةً يرتدون الجلد من اختطاف النساء. (الجدار) شَيْدٌ لحماية بلدان البشر... وليس من بشرٍ آخرين، فهكذا الهَمَج جميعًا في النَّهاية. سنوات طويلة جدًّا يا تارلي، مئات وآلاف السَّنوات. لقد غفلنا عن العدوِّ الحقيقي، وها هو هنا الآن ولا ندري كيف نُحاربه. هل صنعتَ التَّنانين هذا الزُّجاج كما يقول العوام؟».
أجابَ سام متلعثمًا: «المِمايسترات لا يعتقدون هذا... يقولون إنه يأتي من النَّيران في باطن الأرض... يُسمُّونه الزُّجاج البركاني».

قال مورمونت بفظاظة: «يُمكنهم أن يُسمِّوه فطير اللَّيمون ولا فرق. إذا كان يَقتُل كما تقول، فأريدُ مزيدًا منه».

قال سام جاهلاً الإجابة: «چون وجدَ المزيد عند (القبضة)، مئات من رؤوس السَّهام والحِراب...».

- «سبق أن ذكرتَ هذا، لكن كيف ينفَعنا ونحن هنا؟ لنبُلِّغ (القبضة) ثانيةً علينا أن نكون مدبججين بالأسلحة التي لن نحصلُ عليها إلا إذا بلغنا (القبضة) اللعينة، وما زالَ علينا أن نتعامل مع الهمج أيضًا. يجب أن نجد زُجاج التَّنين في مكانٍ آخر».

قال سام الذي كادَ ينسى أمر الهمج بعد كلِّ ما جرى منذ ذلك الحين: «أطفال الغابة استخدموا أسلحةً من زُجاج التَّنين، ولا بُدَّ أنهم يعرفون أين نجده».

ردَّ مورمونت: «أطفال الغابة قاطبةً ماتوا، قتلَ البشر الأوائل نصفهم بالبرونز، وأبادَ الأنداليون البقية بالحديد. ما الذي يجعل خنجراً من الزُّجاج...».

بترَ الذُّب العجوز عبارته إذ خرجَ كراستر من الباب مبتسمًا ليكشف عن أسنانه البنيَّة النَّخرة، وأعلنَ: «أنجبتُ ابناً». ونعبَ عُدا فمورمونت مردِّداً: «ابنًا، ابنًا، ابنًا!».

قال حضرة القائد بملامح جامدة: «أنا سعيد من أجلك». - «حقًّا؟ أما أنا فأسعدُ عندما تأخذ رجالك وترحل. آن الأوان على ما أعتقد».

- «بمجرد أن يقوى الجرحى على...». - «إنهم لن يزدادوا قوَّةً عن الآن أيها الغُراب العجوز، وكلانا يعي هذا، كما أنك تعرف المحتضرين منهم أيضًا، فاذبحهم وأرح نفسك، أو اتركهم لي إذا كنت لا تُطيق أن تفعلها وسأتولَّى أمرهم بنفسِي».

قال حضرة القائد مورمونت مغضبًا: «ثورين سمولود أخبرنا أنك صديق للحرس...».

قاطعَه كراستر: «نعم، وقد أعطيتكم كلَّ ما أستطيع الاستغناء عنه، لكن الشَّناء على الأبواب، والآن ابتلَّني الفتاة بقمٍ آخر عليَّ أن أضع فيه طعامًا». قال أحدهم بنبرة كالصَّيرير: «يُمكننا أن نأخذه».

التفت كراستر مضيئاً عينيه، ثم بصقَ على قدم سام وقال: «ماذا قلت أيها القتيل؟».

فتح سام فمه وأغلقه محاولاً أن يتكلم، فقال: «لقد... لقد... لقد قصدت فقط... إذا كنت لا تُريده... أن تضع الطعام في فمه... والشتاء على الأبواب... يُمكننا أن نأخذه و...».

- «إنه ابني ودمي. أتحسب أنني سأعطيكم إياه أيها الغربان؟».

- «فكرتُ فقط أن...». أنت بلا أبناء. إنك تضعهم في العراء، هذا ما قالتَه جيلي، تتركهم في الغابة، ولهذا ليس معك هنا إلا الزوجات والبنات اللاتي يكبرن ليُصبحن زوجاتك.

قال اللورد مورمونت: «صمتاً يا سام. لقد قلت ما يكفي، أكثر من اللازم. إلى الدّاخل».

- «سسيدي...».

- «إلى الدّاخل!».

بوجهٍ محتقنٍ دفع سام فروة الأيائل وعادَ إلى عتمة القاعة، وتبعه مورمونت إلى الدّاخل ليقول بصوتٍ خنقه الغضب: «أأنت أحمق كبير أم ماذا؟ حتى إذا أعطانا كراستر الطفل، فسيموت قبل أن نصل إلى (الجدار). إن حاجتنا إلى رضيع علينا الاعتناء به لا تزيد على حاجتنا إلى المزيد من الثلوج. أليديك لبن تُطعمه إياه في هذين اللّدين الكبيرين؟ أم كنت تنوي أن تأخذ الأم أيضاً؟».

- «إنها تُريد أن تأتي. توسّلت إليّ...».

رفع مورمونت يده مقاطعاً، وقال: «لن أسمع المزيد في هذا الشّأن يا تارلي. لقد قيل وقيل لك أن تبقى بعيداً عن زوجات كراستر».

بضعفٍ قال سام: «إنها ابنته».

- «أذهب واعتنِ بآنن، الآن قبل أن أغضب عليك».

غمغم سام: «أمرك يا سيّدي»، وأسرعَ يبتعد مرتعداً.

لكن حين بلغ النّار وجدَ العملاق يسحب معطفاً من الفرو على رأس آنن، وقال الرّجل الصّغير: «ظَلَّ يقول إنه يشعُر بالبرد. أتمنى حقاً أنه ذهب إلى مكانٍ دافئ».

قال سام: «جرحه...».

اقتربَ ديرك ونكزَ الجثَّةَ بقدمه قائلاً: «لا عليك بجرحه. قدمه التي بُيرتَ فقط كانت مصابةً وباقي جسده سليم. عرفتُ رجلًا في قريتي فقدَ قدمًا وعاشَ حتى التاسعة والأربعين».

قال سام: «إنه البرد، لم يكن دافئًا إطلاقًا».
ردَّ ديرك: «بل لم يتغذَّ إطلاقًا، ليس كفايةً. التَّغلُّ كراستر جوَّعه حتى الموت».

تلَّفتَ سام حوله بتوتُّر، لكن كراستر لم يكن قد عادَ إلى القاعة. لو عادَ لانقلبتَ الأمور بشكلٍ قبيح، فالهمجي يَمُتُّ التُّغول، على الرغم من أن الجوّالة يقولون إنه ابن غير شرعي عن نفسه، أنجبَه غُراب مات منذ زمنٍ طويل من امرأة همجيَّة.

قال العملاق: «على كراستر أن يُطعمَ ذويه، كلُّ هؤلاء النِّسوة. لقد أعطانا ما يقدر عليه».

قال ديرك: «إياك أن تُصدِّقَ هذا. يوم نغادر سيفتح برميلاً من البتع ويجلس ليلتهم وليمةً من اللحم والعسل، ويضحك منا ونحن نتصوَّرُ جوعًا في الثَّلج. إنه همجي حقير ليس إلَّا، ولا أحد منهم صديق للحرس»، وركلَ جثَّةَ بانن مضيئًا: «سله إن كنت لا تُصدِّقني».

أحرقوا جثَّةَ الجوّال عند الغروب في النَّار التي كان جرن يُغذِّيها قبل ساعات. حملَ تيم ستون وجارث ابن (البلدة القديمة) الجثَّةَ العارية وأرجحها بينهما مرَّتين ثم ألقياها في اللهب، بعد أن اقتسم الإخوة السُّود ثياب بانن وأسلحته ودرعه وكلَّ ما يملكه. في (القلعة السوداء) يدفن حرس الليل موتاهم في مراسم رسميَّة، لكنهم ليسوا في (القلعة السوداء) الآن. والعظام لا تعود إلى الحياة.

قال حضرة القائد مورمونت بينما تلتهم النَّار الجثَّةَ: «كان اسمه بانن، وكان رجلًا شجاعًا وجوًّا بارعًا، وقد جاءنا من... من أين جاء؟».

رفعَ أحدهم صوته مجيئًا: «من (الميناء الأبيض)».
أوما مورمونت برأسه، وتابع: «جاءنا من (الميناء الأبيض)، ولم يتوانَ عن أداء واجبه قط. لقد حفظَ قَسَمه قدر استطاعته وارتحلَ بعيدًا وقاتلَ بشراسة. لن نرى مثيله أبدًا».

ترنم الإخوة السود: «والآن انتهت حراسته».

ردّد مورمونت: «والآن انتهت حراسته».

ونعب العُدايف: «انتهت، انتهت!».

وقف سام محمّر العينين شاعرًا بالغثيان من الدخان. حين نظر إلى المحرقة خيّل إليه أنه يرى بانن يعتدل جالسًا ويكور قبضتيه كأنه سيفتالٍ اللهب الذي يلتهمه، لكن لم يمض أكثر من لحظة قبل أن تبتلعه دوامات الدخان. أسوأ ما في الأمر الرائحة. لو كانت كريهة منفرّة فلربما استطاع أن يحتملها، لكن رائحة شبيهة للغاية بلحم الخنزير المشوي تصاعدت من أخيه المحترق، حتى إن لعاب سام بدأ يسيل، وكان هذا شنيعًا لدرجة أن بمجرد أن صاح العُدايف: «انتهت!»، هرع سام ليُفرغ معدته في خندق المراحيض وراء القاعة. كان هناك على رُكبتيه في الوحل عندما ظهر إد الكئيّب قائلاً: «هل تُنقب عن الديدان يا سام أم تتقيًا فقط؟».

ردّد سام بضعف وهو يمسح فمه بظهر يده: «أتقيًا. الرائحة...».

قال إد بلهجة دائمة التّجهم: «لم أعرف قط أن لبانن هذه الرائحة الشّهية. خطر لي أن أقطع لنفسني شريحة من لحمه. لو كانت لدينا صلصة تفتح فلربما فعلتها. الخنزير أفضل دائمًا مع صلصة التّفاح»، وحلّ أربطة سراويله وأخرج قضيبه متابعًا: «خير لك ألا تموت يا سام، وإلا أخشى أنني سأستسلم للإغراء. سيكون فيك من الجلد المحمّر أكثر من بانن، وأنا لا أستطيع مقاومة الجلد المحمّر»، وتنهّد وبوله يخرج منه أصفر باخرًا، وأردف: «سنركب مع أول خيوط الفجر، هل سمعت؟ الدّب العجوز قال لي إننا سنغادر سواء أفي الشمس أم الثلج».

في الشمس أم الثلج. رفع سام عينيه إلى السماء، وقال مرتاعًا: «الثلج؟

س... سنركب؟ كلنا؟».

هزّ إد نفسه لينفض آخر قطرات البول قائلاً: «لا، بعضنا سيمشي. دايوين يقول إن علينا أن نتعلم ركوب الخيول الميتة مثل (الآخرين). كم يأكل الحصان الميت على كل حال؟»، وعقد أربطة سراويله مواصلاً: «لا أعتقد أن الفكرة تروفي. بمجرد أن يدركوا كيف يتحكّمون في الخيول الميتة سيأتي دورنا، وغالبًا سأكون الأول. أسمعهم يقولون: إد، لم يعد الموت عذرًا

لِلتَّمَدُّدِ عَلَى الْأَرْضِ، فَانْهَضَ وَخَذَ هَذِهِ الْحَرْبَةَ. سَتَقِفُ حِرَاسَةَ اللَّيْلَةِ. حَسَنٌ،
 لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ أَفَكِّرَ بِهَذِهِ الْكَآبَةِ، فَقَدْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفُوا الْوَسِيلَةَ».
 نَهَضَ سَامٌ مَتَثَاقِلًا وَهُوَ يُفَكِّرُ: قَدْ نَمُوتُ كَلْنَا، وَأَقْرَبُ مِمَّا نَحْسِبُ.
 حِينَمَا عَرَفَ كِرَاسْتَرُ أَنَّ ضِيُوفَهُ غَيْرَ الْمَرْغُوبِينَ مَغَادِرُونَ غَدًا بَدَأَ يَتَصَرَّفُ
 بُوَدًّا أَكْثَرَ، أَوْ بِأَقْرَبِ شَيْءٍ إِلَى الْوُدِّ يُمَكِّنُ أَنْ يَعْرِفَهُ الْهَمَجِيُّ، وَقَالَ لَهُمْ: «أَخِيرًا.
 قَلْتُ لَكُمْ إِنْ هَذَا لَيْسَ مَكَانَكُمْ، لَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ سَأُودِّعُكُمْ كَمَا يَنْبَغِي،
 بِمَادْبَةٍ، أَوْ بِوَجِيهَةٍ بِالْأُخْرَى. سَتَشَوِي زَوْجَاتِي تِلْكَ الْخِيُولَ الَّتِي ذَبَحْتُمُوهَا،
 وَسَاجِدٌ لَكُمْ الْقَلِيلَ مِنَ الْبِيرَةِ وَالْحُبْزِ»، وَمِنْحَهُمْ تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةَ الْبَيْتِيَّةَ مُضِيْفًا:
 «لَا شَيْءَ أَفْضَلَ مِنَ الْبِيرَةِ وَلَحْمِ الْخَيْلِ. إِذَا كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرْكِبَهُ، فَكُلْهُ.
 هَذَا مَا أَقُولُهُ دَائِمًا».

رَضَّتْ زَوْجَاتُهُ وَبَنَاتُهُ الدِّكَّ وَالطَّائُولَاتِ الْخَشَبِيَّةِ الطَّوِيلَةَ، وَاضْطَلَعْنَ
 بِالطَّهْوِ وَتَقْدِيمِ الطَّعَامِ كَذَلِكَ. بِاسْتِثْنَاءِ جَيْلِي لَمْ يَسْتَطِعْ سَامٌ التَّمْيِيزَ بَيْنَ وَاحِدَةٍ
 وَأُخْرَى. بَعْضُهُنَّ عَجُوزَاتٌ وَبَعْضُهُنَّ شَابَّاتٌ وَبَعْضُهُنَّ فَتَيَاتٌ صَغِيرَاتٌ، لَكِنْ
 كَثِيرَاتٌ مِنْهُنَّ بَنَاتُ كِرَاسْتَرِ عِلَاوَةً عَلَى كَوْنِهِنَّ زَوْجَاتِهِ، وَكُلُّهُنَّ مِثْلَابَهَاتٌ إِلَى
 حَدِّ كَبِيرٍ، وَقَدْ تَبَادَلْنَ الْكَلَامَ وَهُنَّ مُنْصَرَفَاتٌ إِلَى عَمَلِهِنَّ بِأَصْوَاتٍ خَفِيضَةٍ،
 وَإِنْ لَمْ يُوجَّهَنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً لِلْإِخْوَةِ الشُّودِ.

لَا يَمْلِكُ كِرَاسْتَرُ إِلَّا مَقْعَدًا وَاحِدًا جَلَسَ عَلَيْهِ مَرْتَدِيًّا سُتْرَةً بِلَا كَمِّينَ مِنْ
 فِرْوَةِ خُرُوفٍ، فَلَاحَتْ ذِرَاعَاهُ الْغَلِيظَتَانِ الْمَكْسُوتَانِ بِالشَّعْرِ الْأَبْيَضِ، وَحَلَقَةٌ
 مَشْوُوهَةٌ مِنَ الذَّهَبِ تُحِيطُ بِمَعْصَمِهِ. أَخَذَ اللَّوْرِدَ مَورْمُونَتَ مَكَانَهُ عَلَى رَأْسِ
 الدِّكَّةِ إِلَى جِوَارِهِ، فِيمَا تَزَاحَمَ الْإِخْوَةُ بِسِقَانٍ مُتَلَاصِقَةٍ، وَبَقِيَتْ دَسْتَةٌ مِنْهُمْ فِي
 الْخَارِجِ لِحِرَاسَةِ الْبُؤَابَةِ وَإِذْكَاءِ النَّارِ.

وَجَدَ سَامٌ مَكَانًا بَيْنَ جَرِنِ وَأَوْسِ الْيَتِيمِ وَهُوَ يَسْمَعُ مَعْدَتَهُ تُقْرِقِرُ. تَقَاطَرَ
 الدَّهْنُ مِنْ لَحْمِ الْخَيْلِ الْمَشْوِيِّ بَيْنَمَا دَوَّرَتْ زَوْجَاتُ كِرَاسْتَرِ الْأَسْيَاحَ فَوْقَ
 بُؤْرَةِ النَّارِ، وَجَعَلَتْ الرِّائِحَةَ لِعَابِهِ يَسِيلُ مِنْ جَدِيدٍ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ بِنَانٌ. كَيْفَ
 يَأْكُلُونَ الْخِيُولَ الْمَخْلُصَةَ الْمَسْكِينَةَ الَّتِي حَمَلْتَهُمْ كُلَّ تِلْكَ الْمَسَافَاتِ؟ عِنْدَمَا
 جَلَبَّتْ زَوْجَاتُ كِرَاسْتَرِ الْبَصَلَ اخْتَطَفَتْ وَاحِدَةً بِلَهْفَةٍ. جِزءٌ مِنْهَا كَانَ مَسْوَدًّا
 مِنَ الْعَفْنِ، فَقَطَعَهُ بِسِكِّينِهِ وَأَكَلَ الْجِزءَ السَّلِيمَ نَيْثًا. وَكَانَ هُنَاكَ حُبْزٌ أَيْضًا،
 وَإِنَّمَا رَغِيْفَانِ لَا أَكْثَرَ، وَلَمَّا طَلَبَ أَوْلَمَرُ الْمَزِيدَ اِكْتَفَتْ الْمَرْأَةُ بِهَزِّ رَأْسِهَا.

وهنا بدأت المتاعب.

متذمراً، قال كارل ذو القدم المعوّجة من آخر الدّكة: «رغيفان؟ أنتن بلهوات أيتها النّسوة؟ نحتاج إلى خُبز أكثر من هذا!».

رماه حضرة القائد مورمونت بنظرة قاسية، وقال: «خُذ ما تُعطى إياه واشكُر. هل تُفضّل أن تكون في العاصفة في الخارج تأكل الثّلج؟».

لم تردع صرامة الدّب العجوز كارل، ورَدّد: «سنكون في الخارج قريباً، وأفضّل أن أكل ما يُخفيه كراستري يا سيّدي».

زَرّ الهمجي عينيه قائلاً: «أعطيتكم ما يكفي أيها الغربان. لديّ نساء أطعمهن».

قال ديرك وهو يطعن قطعةً من لحم الخيل بخنجره: «نعم. تقرُّ إذن بأن هناك مخزن طعام سرّيّاً، وإلا كيف ستقضون الشّتاء؟».

بدأ كراستر يقول: «أنا رجل تقي...»، لكنه كارل قاطعه: «أنت رجل بخيل وكذاب».

قال جارث ابن (البلدة القديمة) بهيام: «لحم خنازير. كانت هناك ثلاثة خنازير المرّة السّابقة. أراهنُ أنه يُخبّي لحمها في مكانٍ ما، لحمًا مدخّنًا مملّحًا، ولحمًا مقدّدًا أيضًا».

قال ديرك: «سجق، ذلك السّجق الأسود الطّويل، إنه صُلب كالصّخر، ويبقى صالحًا أعوامًا. أراهنُ أن لديه مئات القطع المعلّقة في قبو ما».

أضاف أولو الأبتري: «شوفان. ذرة. شعير».

ورَدّد غُداً مورمونت خافقًا بجناحيه: «ذرة، ذرة، ذرة، ذرة، ذرة، ذرة».

صاح حضرة القائد مورمونت رافعًا صوته فوق نعيب الطّائر الصّاخب: «كفى. اصمّموا جميعًا. هذه حماقة».

قال جارث جرينواي: «تفّاح، براميل وبراميل من تفّاح الخريف النّاضر. هناك أشجار تفّاح في الخارج، رأيتها».

- «توت مجفّف. كرنب. صنوبر».

- «ذرة، ذرة، ذرة».

- «ضأن مملّح. هناك حظيرة غنم. لديه براميل وبراميل من الضّأن، مؤكّد».

بدا كراستر لحظتها كأنه يُريد أن يُخوز قهَم بالأسياخ، ونهَضَ حضرة القائد مورمونت صائِحًا: «صمًا! لن أسمع مزيدًا من هذا الكلام».

دفع كارل ذو القدم المعوجَّة نفسه عن المائدة قائلاً: «احشُ أذنك بالخُبز إذن أيها العجوز، أم أنك ابتلعت اللُّقمة التي أعطاك إياها بالفعل؟».

رأى سام وجه الدُّب العجوز يحتقن وهو يقول: «هل نسيت مَنْ أنا؟ اجلس وكُل واصمُت، هذا أمر».

لم يتكلَّم أحد، ولم يتحرَّك أحد، وتسلَّطت الأعيُن كُلها على حضرة القائد والجوَّال الأحنف الكبير إذ حدَّق كلاهما إلى الثَّاني عبر المائدة، وإن بدا لسام أن كارل استسلمَ أولاً، وكان يُوشِك على الجلوس ثانيةً على مضض...
... لكن كراستر نهَضَ وبلطته في يده، البلطة الفولاذ السَّوداء الكبيرة التي أعطاه مورمونت إياها كهديةً ضيافة، وبصوتٍ هادر قال: «كلا، لن تجلس. لا أحد يعنني بالبُخل ينام تحت سقفي أو يأكل على مائدتي. إلى الخارج أيها الكسيح، وأنت وأنت وأنت»، وأشار برأس البلطة إلى كل من ديرك وجارث وجارث على التَّوالي مضيئًا: «اذهبوا وناموا في البرد ببطونٍ خالية، هيا كلِّكم، وإلا...».

- «أيها النَّغل الحقيقر!».

سمع سام الشَّتيمة من أحد الاثنين جارث، ولم يرَ من هو.

- «مَنْ يعنني بالنَّغل؟!»، جازَّ كراستر كانسًا الأطباق واللَّحم وأكواب النَّبيذ من على المائدة يُسراه على حين رفع البلطة بيُمناه، وأجابَه كارل: «لم يُقل إلا ما يعرفه الجميع».

تحرَّك كراستر بسرَّعةٍ لم يُصدِّقها سام، ووثبَ فوق المائدة وبلطته في يده، وصرخت امرأة، واستلَّ جارث جرينواي وأوس اليتيم سكينين، وتراجع كارل فتعثَّر في السير بيام المتمدِّد جريحًا على الأرض. في لحظةٍ كان كراستر ينقضُّ عليه والشَّتائم تتناثر من بين شفَّتيه، وفي اللَّحظة التَّالية تناثرَ من بينهما الدَّم. أمسكه ديرك من شعره وشدَّ رأسه إلى الوراء، وشقَّ حلقة من الأذن إلى الأذن بحركةٍ طويلةٍ واحدة، ثم دفعه بخشونةٍ فسقطَ على وجهه مرتطمًا بالسير بيام، الذي صرخَ بألمٍ شديدٍ بينما غرقَ الهمجي في دماؤه وأفلتت البلطة من أصابعه. كانت اثنتانٌ من زوجات كراستر تُولولان وثالثة تصبُّ لعناتها،

وَأَلَقَتْ رَابِعَةً نَفْسَهَا عَلَى دُونَ الْمَرْحِ مَحَاوِلَةً أَنْ تَنْهَشَ عَيْنِيهِ، لَكِنَّهُ طَرَحَهَا أَرْضًا.

وَقَفَ حَضْرَةَ الْقَائِدِ فَوْقَ جِثَّةِ كِرَاسْتَرِ وَوَجْهَهُ مَرِيدٌ غَضْبًا، وَصَاحَ فِيهِمْ: «سَتَحِلُّ بِنَا نِقْمَةَ الْأَلْهَةِ. مَا مِنْ جَرِيمَةٍ أَنْكَرَ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ أَعْطَى ضَيْوْفَهُ الْأَمَانَ. بِحَقِّ قَوَانِينِ الضَّيَّافَةِ كُلِّهَا نَحْنُ...».

قَاطَعَهُ دِيرِكُ: «لَا تَوْجِدُ قَوَانِينَ وَرَاءَ (الْجِدَارِ) أَيُّهَا الْعَجُوزُ، هَلْ نَسِيتَ؟»، وَأَطْبَقَ عَلَى ذِرَاعِ إِحْدَى زَوْجَاتِ كِرَاسْتَرِ، وَوَضَعَ رَأْسَ خَنْجَرِهِ تَحْتَ ذَقْنِهَا قَائِلًا: «أَرَيْنَا أَيْنَ يَحْتَفِظُ بِالطَّعَامِ وَإِلَّا نَلْتِ مَا نَالَهُ يَا امْرَأَةَ». تَقَدَّمَ مَورْمُونَتِ خُطْوَةً، وَقَالَ: «اتْرُكْهَا. سَأَقْطَعُ رَأْسَكَ مِنْ أَجْلِ هَذَا أَيُّهَا...».

أَعَاقَ جَارِثَ جَرِينَوَايَ طَرِيقَهُ، وَشَدَّهُ أَوْلُو الْأَبْتَرِ إِلَى الْوَرَاءِ وَكِلَاهُمَا خَنْجَرَهُ فِي يَدِهِ، وَقَالَ أَوْلُو مَنْدَرَا: «صُنْ لِسَانَكَ»، لَكِنْ بَدَلًا مِنْ هَذَا مَدَّ حَضْرَةَ الْقَائِدِ يَدَهُ إِلَى خَنْجَرِهِ. لِأَوْلُو يَدٍ وَاحِدَةٍ، لَكِنَّا سَرِيعَةٌ، وَبِهَا أَغْمَدَ خَنْجَرَهُ فِي بَطْنِ مَورْمُونَتِ وَعَادَ يُخْرِجُهُ مَكْسُوفًا بِالْأَحْمَرِ. ثَمَّ جُنَّ جَنُونَ الْعَالَمِ.

وَبَعْدَهَا، بَعْدَهَا بِكَثِيرٍ، وَجَدَ سَامَ نَفْسَهُ مَتَرَبِّعًا عَلَى الْأَرْضِ وَرَأْسَ مَورْمُونَتِ فِي حَجْرِهِ. لَمْ يَتَذَكَّرْ كَيْفَ وَصَلَا إِلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ، وَلَا أَغْلَبَ مَا حَدَثَ عَقِبَ أَنْ طُعِنَ الدُّبَّ الْعَجُوزِ. يَعْرِفُ أَنَّ جَارِثَ جَرِينَوَايَ قَتَلَ جَارِثَ ابْنِ (الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ)، لَكِنَّهُ يَجْهَلُ السَّبَبَ، وَرَوْلِي ابْنِ (سَسْتَرْتُونِ) سَقَطَ مِنَ الْعُلْيَةِ وَكَسَرَ عُنُقَهُ بَعْدَ أَنْ صَعَدَ السَّلْمَ لِيَأْخُذَ إِحْدَى زَوْجَاتِ كِرَاسْتَرِ، وَجَرْنَ... جَرْنَ زَعَقَ فِيهِ وَصَفَعَهُ، ثَمَّ هَرَعَ إِلَى الْخَارِجِ مَعَ الْعَمَلِاقِ وَإِدَ الْكُثِيبِ وَبَعْضَ الْآخَرِينَ.

كَانَ كِرَاسْتَرُ لَا يَزَالُ مَلْقَى فَوْقَ السَّيْرِ بِيَامٍ، لَكِنَّ الْفَارِسَ الْجَرِيحَ كَفَّ عَنْ الْأَيْنِ، وَجَلَسَ أَرْبَعَةَ رَجَالٍ يَرْتَدُونَ الْأَسْوَدَ عَلَى الدَّكَّةِ يَلْتَهُمُونَ قِطْعًا مِنْ لَحْمِ الْخَيْلِ الْمَحْرُوقِ، بَيْنَمَا جَامَعَ أَوْلُو امْرَأَةَ فَوْقَ الْمَائِدَةِ. - «تَارِلِي»، تَكَلَّمَ الدُّبُّ الْعَجُوزُ فَسَالَ الدَّمَّ مِنْ فَمِهِ إِلَى لِحْيَتِهِ. «تَارِلِي، اذْهَبْ، اذْهَبْ».

قال بصوتٍ ذابلٍ لا حياة فيه: «إلى أين يا سيّدي؟ لا مكان أذهبُ إليه». لستُ خائفًا. كان إحساسًا عجيبيًا.

- «(الجدار)، عُد إلى (الجدار)، الآن».

صاحَّ الغُداف: «الآن، الآن، الآن!»، ومشى على ذراع العجوز إلى صدره، واقتلع شعرةً من لحيته.

- «يجب أن تُخبرهم، يجب».

سأله سام برفق: «أخبرهم بماذا يا سيّدي؟».

قال القائد: «كل شيء، (القبضة)، الهمج، زُجاج التّنين، هنا، كل شيء»، وتباطأت أنفاسه كثيرًا وانخفضَ صوته إلى همسةٍ وهو يُضيف: «أخبر ابني، چورا، أخبره أن يرتدي أسودنا، رغبتني، رغبة الموت».

مالَ الغُداف برأسه والتمعت عيناه السّوداوان الخرزيتان، وسأل: «رغبة؟ ذرة؟».

تمتّم مورمونت بوهن: «لا ذرة. أخبر چورا، أسامحه، ابني. أرجوك، اذهب».

قال سام: «(الجدار) بعيد جدًا. لن أبلغه أبدًا يا سيّدي». كم هو متعب. كلُّ ما يُريده أن ينام، ينام وينام ولا يستيقظ أبدًا، لكنه يعلم أنه إذا ظلَّ هنا فسيغضب منه ديرك أو أولو أو كارل ويُحقّق رغبتَه، فقط ليتفرّج عليه وهو يموت. «أفضّل أن أبقى معك. أترى؟ إنني لم أعد خائفًا، منك أو... من أيّ شيء».

قال صوت امرأة: «ينبغي أن تخاف».

ثلاثة من زوجات كراستر كُنَّ واقفات فوقهما، اثنتان منهما عجوزان شمطاوان لا يعرفهما، لكن جيلي وقفت بينهما متدثّرةً بجلود الحيوانات وتحتضن ربطةً من الفرو البنيّ والأبيض لا بُدَّ أنها تحتوي وليدها. قال لهن سام: «ليس مسموحًا لنا بأن نُكلّم زوجات كراستر، لدينا أوامر».

قالت العجوز الواقفة إلى اليمين: «كل هذا انتهى».

وقالت الواقفة إلى اليسار: «الغربان الأكثر سوادًا في القبو يفترسون الطّعام، أو في العُلّية مع الفتيات، لكنهم سيعودون قريبًا. الأفضل أن تكون

قد ذهبت وقتها. لقد هربت الخيول، لكن ديا أمسكت اثنين».

خاطبته جيلي قائلة: «قلت إنك ستُسَاعِدُنِي».

- «قلت إن چون سُبُسَاعِدِكِ. چون سُجَاع، ومقاتل بارع، لكني أظنه مات. إنني جبان، وبدين، انظري إلى حجمي. كما أن اللورد مورمونت جريح، ألا ترين؟ لا أستطيع أن أترك حضرة القائد».

قالت العجوز الثانية: «يا صغيري، الغراب العجوز سبقك إلى الرَّحِيل، انظر».

كان رأس مورمونت لا يزال في حجره، لكن عينيه مفتوحتان تُحَدِّقَانِ إِلَى الفِراغِ وشفتهَا كَفَّتَا عَنِ الحِرْكَةِ. حنى الغُذَافِ رَأْسَهُ وَنَعَبَ، ثم رفعه إلى سام سائلًا: «ذُرَّةُ؟».

- «لا ذُرَّة، ليس معه ذُرَّة». أغلق سام عَيْنَيْ الدُّبِ العجوز وحاول أن يُفَكِّرَ فِي صَلَاةٍ، لكن لم يَخْطُرْ لَهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ: «رُحْمَاكِ يَا أَمْنَا، رُحْمَاكِ يَا أَمْنَا».

قالت العجوز الواقفة إلى اليسار: «أَمْكُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُسَاعِدَكِ، وَلَا العجوز المِيتِ. خُذْ سِيفَهُ وَمِعْطَفَهُ الْفِرَوِ الدَّافِئِ وَحِصَانَهُ إِذَا عَثَرْتَ عَلَيْهِ، وَاذْهَبِ».

قالت الأخرى: «الفتاة لم تكذب. إنها فتاتي، وضربتتها حتى تعلّمت ألا تكذب منذ نعومة أظفارها. قلت إنك ستُسَاعِدُهَا. افعل ما تقوله فيرني يا فتى، خُذِ الْفِتَاةَ وَأَسْرِعْ».

ونعَبَ الْغُدَافُ: «أَسْرِعْ، أَسْرِعْ أَسْرِعْ أَسْرِعْ!».

سأل سام حائرًا: «أين؟ آخذها إلى أين؟».

أجابَتِ المِمرَاتَانِ مَعًا: «إِلَى مَكَانٍ دَافِئٍ».

وبَكَتْ جِيلِي وَهِيَ تَقُولُ: «أَنَا وَطِفْلِي، أَرْجوكِ. سأكونُ زوجتكِ كما كنتِ زوجة كراستر. أرجوكِ أيها السيرُ غراب. إنه صبي كما قالت نِلا. إذا لم تأخذه فسيأتون هُم ويأخذوه».

- «هُم؟»، تساءل سام، وحرَّكَ الطَّائِرَ رَأْسَهُ مَرَدِّدًا: «هُم، هُم، هُم!».

قالت العجوز الواقفة إلى يسار جيلي: «إِخْوَةُ الصَّبِيِّ، أبناء كراستر. البرد الأبيض يشتدُّ في الخارج أيها الغُراب، أشعرُ به في عظامي، وهذه العظام العجوز المسكينة لا تكذب. سيكونون هنا عمَّا قريب، الأبناء».

آريا

كان بصرها قد اعتادَ الظلام، فلَمَّا رَفَعَ هاروين العِصابَ عن رأسها جعلَ الوهجَ المحمَّرُ داخلَ التَّلِّ الأجوفِ عينيها تطرفانِ كبومةٍ سخيفةٍ.
في منتصفِ الأرضيَّةِ التُّرابِ بؤرةَ نارٍ هائلةٍ يرتفعُ لها دائرًا مقطَّعًا إلى السَّقْفِ الملوَّثِ بأثارِ الدُّخانِ، والجُدْرانِ مزيجِ متجانسٍ من الحجارةِ والتُّربةِ، تتخلَّلها جذورٌ بيضاء ضخمةٌ ملتويةٌ كآلافٍ من الثَّعابين الشَّاحبةِ البطيئةِ، وقد بدأ أناسٌ يظهرون من بين هذه الجذورِ وآريا تتلَفَّت حولها، يَخْرُجون من الظلالِ لِيُلقوا نظرةً علي الأُسرى، ويَبْرُزون من مداخلِ أنفاقِ دامسةِ الظلامِ، وتلوح رؤوسهم من الشُّقوقِ والصُّدوعِ. في بُقعةٍ على الجانبِ البعيدِ من النَّارِ صنَعَتِ الجذورُ تكوينًا أشبه بسُلْمٍ يقود إلى تجويفٍ في الجِدَارِ استقرَّ فيه رجلٌ يكاد يتوارى وسطِ شبكةٍ من الويرِ وودِ.
رَفَعَ ليمَ عِصابِ جندرِي، فسألَه: «ما هذا المكان؟».

- «مكانٌ قديمٌ، عميقٌ وسرِّي، ملاذٌ لا يستطيعُ أن يتلصَّصَ عليه ذئبٌ أو

أسدٌ».

ذئبٌ أو أسدٌ. اقشعرَّ جلدُ آريا، وتذكَّرت حُلْمها ومذاقِ الدَّمِ في فمها حين مزَّقت ذراعَ الرَّجُلِ من كتفه.

على الرغمِ من حجمِ بؤرةِ النَّارِ فالكهفِ أكبرَ كثيرًا، ومن العسيرِ أن تعرفَ أين يبدأ وأين ينتهي، فقد تمتدُّ تلكِ الأنفاقِ قدمين لا أكثرَ أو تغوصُ ميلين كاملين في باطنِ الأرضِ. رأت آريا رجالًا ونساءً وأطفالًا، كلهم يُراقِبونها بحذرٍ.

قال ذو اللِّحية الخضرَاء: «ها هو السَّاحرُ أيتها السَّنْجَابُ النَّحِيلِ. ستَحْصُلين

على إجاباتك الآن»، وأشار نحو النار، حيث وقفَ توم سبعة أوتار يُكَلِّم رجلاً طويلاً ناحلاً ربطاً بواقِي دروع قديمة على ثوبه الوردِي المهترئ. لا يُمكن أن يكون هذا ثوروس المايروي. فَي ذاكِرة آريا الرَّاهِب الأحمر سمين، وجهه ناعم ورأسه أصلع لامع، أمَّا هذا الرَّجل فوجهه متهدَّل وشعره أشيب أشعث. جعله شيء ما قاله توم يَنْظر إليها، وحسبت آريا أنه سيأتي ويكَلِّمها، لكن في هذه اللَّحظة ظهر القنَّاص المجنون دافعاً أسيره إلى دائرة الضَّوء، فَنسي أمرها هي وجندري. اتَّضح أن القنَّاص رجل قصير قوي ممتلئ يرتدي الجلد المدبوغ المرقع، ذقنه صغير وشعره يزحف عليه الصَّلع، وتغلب المشاكسة على طباعه. في (السِّبْت الحجري) حسبت آريا أن ليم وذا اللحية الخضراء سيَمزَّقا إرباباً عندما واجهاه عند أقفاص الغِربان ليأخذا أسيره إلى سيِّد البرق. يومها أحاطت بهما كلاب الصَّيْد تشمَّم وتزوم، لكن توم أبا السَّبعات هدَّأها بموسيقاه، وقطعت تانسي الميدان وقد ملأت مزرها بالعظم والضَّان الدُّهني، وأشار ليم إلى أنجاي الواقف في نافذة الماخور مثنِّباً سهماً إلى قوسه. لعنهم القنَّاص المجنون وعتتهم بالمرائين، لكنه وافق في النِّهاية على أخذ غنيمته إلى اللورد بريك ليَحْكُم عليه بنفسه.

كانوا قد قيِّدوا معصميَّ الأسير بحبل من القنَّب وأحاطوا عُنفه بأشوَطة ووضعوا جوالاً على رأسه، وعلى الرِّغم من هذا ظلَّ الرَّجل يشعُّ خطورةً أحسَّت بها آريا عبر الكهف. في منتصف المسافة إلى النَّار قابلَ ثوروس - إذا كان هذا ثوروس حقاً - الأسر والأسير، وسأل: «كيف قبضت عليه؟».

- «الكلاب التقت رائحته. صدق أو لا تُصدِّق، كان نائمًا سكرانًا تحت

شجرة صَفِصاف».

قال ثوروس: «خانَه بنو جلدته»، والتفت إلى الأسير وخلع الجوال من على رأسه قائلاً: «مرحبًا بك في بهونا المتواضع أيها الكلب. إنه ليس فخماً كقاعة عرش روبرت، لكن الصُّحبة أفضل».

صبغ اللهب المتراقص وجه ساندور كليجاين المحروق بظُلِّ برتقالي، فبدأ أشنع مما يبدو في نور النَّهار، وحين جذبَ الحبل الذي يُقيِّد معصميه سقطت منه قُشارة من الدَّم الجاف. التوى فم كلب الصَّيْد، وقال لثوروس: «إنني أعرفك».

- «كنت تعرفني. اعتدت في الالتحام الجماعي أن تلعن سيفي النَّاري، مع أنني تغلَّبْتُ به عليك ثلاث مرَّات».

- «ثوروس المايري. كنت تحلق رأسك في السَّابق».

قال الرَّاهِب: «كأمانة على القلب المتواضع، بينما كان قلبي في الحقيقة مفعماً بالغرور، كما أنني فقدتُ موسى الحلاقة في الغابة»، وربَّت على بطنه مردفاً: «إنني أقلُّ مما كنتُ، لكن أكثر. اجعل رجلاً يقضي عامًا في البراري وسيذوب لحمه، لكن ليتني أعرْتُ على خِيَّاطٍ يقصُّ البشرة المتهدِّلة، فلعلي أبدو شابًّا من جديد وتُطرني الفتيات بالقُبَل».

- «الضَّيريات فقط أيها الرَّاهِب».

ضحك الخارجون عن القانون، وأصخبهم ثوروس الذي رَدَّ: «بالضَّبْط. لكني لستُ الرَّاهِب الرَّائف الذي عرفته في الماضي، إذ أيقظُ إله الضِّياء قلبي. قوى عديدة غافية منذ زمنٍ طويل تستيقظ الآن، وقواتٌ تتحرَّك في الأرض. لقد رأيتها في اللَّهب».

قال كلب الصَّيد بلا تأثُر: «اللعة على لهبك، وعليك أيضًا»، وتلَفَّت متطلِّعًا إلى الآخرين مضيِّفًا: «رفقتك غريبة بالنسبة لراهب».

أجاب ثوروس ببساطة: «إنهم إخوتي».

تقدَّم ليم ذو المعطف اللِّيموني، فهو وذو اللِّحية الخضراء الوحيدان اللذان يُناهزان كلب الصَّيد طولًا، وقد نظرَ في عينيه مباشرةً قائلاً: «انتبه لنباحك أيها الكلب. إن حياتك في أيدينا».

قال كلب الصَّيد ضاحكًا: «خيرٌ لكم أن تُنظِّفوا أيديكم من الخراء إذن. منذ متى وأنتم مختبئون في هذا الجُحر؟».

صاح أنجاي القوَّاس بحق على إثر التلميح إلى كونهم جُبناء: «سَل الكيش إن كنا مختبئين يا كلب الصَّيد، سَل أخاك، سَل اللورد عَلاقة. لقد أدميناهم جميعًا».

- «أنتم؟ لا تُضحكني. إنكم تبدون أقرب إلى رُعاة الخنازير من الجنود».

قال رجل قصير لا تعرفه آريا: «بعضنا اعتاد أن يرعى الخنازير بالفعل، والبعض عملَ دَبَاغًا أو مطربًا أو حجَّارًا، لكن ذلك كان قبل الحرب».

- «عندما خرجنا من (كينجز لاندنج) كنا رجالًا من (وينترفل) و(داري)

و(المرفأ الأسود)، رجال ماليري ورجال وايلد. كنا فرساناً ومُرافقين وحنوداً، لوردات وعواماً، لا يربطنا إلا هدف واحد». جاء الصّوت من الجالس وسط جذور الويرود في التّجويف في منتصف الحائط، وقد بدأ ينزل الدّرجات الملتوية المتشابكة وهو يتكلّم. «مئة وعشرون منا خرجوا لإنزال العدالة بأخيك، مئة وعشرون من الرّجال الشّجعان المخلصين يقودهم أحق في معطف مزين بالتّجوم». رجل مهزول كالفرّاعة هو، يرتدي معطفاً أسود بالياً مرقطاً بالتّجوم، وواقى صدر منبعجاً من جرّاء عشرات المعارك، يُخفي أغلب وجهه شعر بلون الذهب الأحمر، باستثناء بقعة مكشوفة فوق أذنه اليسرى حيث يغور رأسه. «أكثر من ثمانين من مجموعتنا موتى الآن، لكن آخريين حملوا السيوف التي سقطت من أيديهم». بلغ الأرض فأفسح الخارجون عن القانون له الطّريق، ورأت آريا أنه فقد إحدى عينيه، وقد تشوّه الجلد حول محجرها وتجعّد، وحول عنقه حلقة سوداء داكنة. «بمساعدهم نقاتل قدر استطاعتنا من أجل روبرت والبلاد».

مرتاباً ردّد ساندور كليجاين بصوته الأجهش: «روبرت؟».

قال چاك المحفوظ ذو الخوذة القصيرة: «ند ستارك أرسلنا، لكنه كان جالساً على العرش الحديدي حين أملكى علينا الأوامر، أي أننا لم نكن رجاله حقاً، بل رجال روبرت».

- «روبرت ملك على الدّود الآن. ألهذا تسكنون تحت الأرض؟ لتعتقدوا

بلاطه؟».

قال الفارس الفرّاعة: «الملك مات، لكننا لم نزل رجاله، وإن فقدنا الرّاية الملكيّة التي حملناها عند (مخاضة الممثلين) لمّا داهمنا جزّارو أخيك»، ومسّ صدره بقبضته مضيئاً: «روبرت قُتل، لكن مملكته لا تزال حيّة، ونحن ندافع عنها».

ردّد كلب الصّيد ساخراً: «عنها؟ أهي أمك يا دونداريون أم عاهرتك؟».

دونداريون؟ بريك دونداريون كان وسيماً، ووقعت چين صديقة سانزا في هواه، لكن حتى چين پوول ليست بالبلاهة التي تجعلها تحسب أن هذا الرّجل الواقف أمام آريا وسيم. غير أنها عادت تتطلع إليه، فرأت بقايا لسان البرق الأرجواني المتشعب على واقى الصّدر المطلي بالميّنا المشقّق.

واصل كلب الصَّيد: «صخور وأشجار وأنهار، هذه هي المملكة. هل تحتاج الصُّخور إلى من يُدافع عنها؟ لم يكن روبرت ليحسب هذا وقد كان يملئ من أيِّ شيءٍ لا يستطيع أن ينكحه أو يُقاتله أو يشربه، وكان ليجدكم مملين أيضًا... يا رفاق الشُّجعان».

خيَّم الشُّحط على التَّلِّ الأجوف، واستلَّ ليم سيفه الطَّويل قائلاً: «نادنا بهذا الاسم ثانيةً أيها الكلب وستبتلع لسانك».

رمقَ كلب الصَّيد النَّصل باحتقار، وقال: «رجل شجاع، ترفع فولاذك اللامع على أسيرٍ مقيَّد. لِمَ لا تحلُّ قيودي لنرى مدى شجاعتك؟»، وألقى نظرةً نحو القنَّاصِ المجنون الواقف وراءه مردِّفاً: «وماذا عنك؟ أم أنك نسيت شجاعتك في أوجرتك؟».

سحبَ القنَّاصُ سكينًا، ورَدَّ: «لا، لكن كان حرِّياً بي أن أتركك في قفص غربان، وربما أفعل».

وضحك كلب الصَّيد في وجهه.

أعلن ثوروس المايري: «نحن إخوة هنا، إخوة أتقياء، مقسمون على القتال من أجل البلاد والهنأ وبعضنا بعضاً».

داعبَ توم وترا في قيثارته قائلاً: «أخوة اللا رايات، فُرسان التَّلِّ الأجوف».
- «فُرسان؟»، قال كليجان جاعلاً من الكلمة صيحةً هازئةً. «دونداريون فارس، لكن بقتيتكم أحقر مجموعةٍ من الخارجين عن القانون والرَّجال المكسورين رأيتها في حياتي. إنني أتبرِّزُ رجلاً أفضل منكم».

قال الفزاعة بريك دونداريون: «كل فارس يستطيع أن يُنصَّب رجلاً غيره فارساً، وكل رجل تراه أمامك لمسَ نصلٍ كتفه. إننا الرِّفقة المنسيَّة».

رَدَّ كليجان بخشونة: «دعوني أرحلُ وسأنساكم أيضًا، لكن إذا كنتم تنوون قتلي فهلّموا. لقد أخذتم سيفي وحصاني وذهبي، فخذوا حياتي أيضًا وأنهوا الأمر... لكن اعفوني من هذا الثُّغاء الورع».

قال ثوروس: «ستموت قريباً أيها الكلب، لكنه لن يكون قتلاً، بل عدالة».
أضافَ القنَّاصِ المجنون: «أجل، وهو المصير الأرحم مما يستحقُّ أمثالك بعد ما فعلتموه. تُسمُّون أنفسكم أسوداً. في (شيرر) و(مخاضة الممثلين)

اغْتَصَبَتْ فتيات في السَّادسة والسَّابعة من العُمر، وشُطِرَ أطفال رُضِعَ إلى أنصاف على مرأى من أمهاتهم. لا أسد يقتل بهذه الوحشية أبدًا». - «لم أكن في (شيرر) أو (مخاضة الممثلين). لوموا أحدًا غيري على أطفالكم الموتى».

قال ثوروس: «هل تُنكر أن عائلة كليجاين بُنيت على جُثث الأطفال؟ لقد رأيتهم يضعون الأمير إجون والأميرة رينس أمام العرش الحديدي. الأخرى أن يكون رمزكم طفلين دامين بدلًا من تلك الكلاب القبيحة». ارتعشَ فم كلب الصَّيد وهو يقول: «هل تحسبني أخي؟ هل مولدي في عائلة كليجاين جريمة؟».

- «القتل جريمة».

- «ومن قتلْت؟».

قال هاروين: «اللورد لوثار ماليري والسير جلادن وايلد».

وأعلنَ چاك المحظوظ: «أخوي لستر و لينوكس».

وصاحت امرأة من وسط الظلال: «العقيل بك ومودج ابن الطَّحَّان من (دونلوود)».

وأضاف ذو اللحية الخضراء: «أرملة ميريما المحبَّة الجميلة».

- «السَّبتونات في (بركة الوحل)».

- «السير أندري كارلتون، ومُرافقه لو كاس روت، وكلَّ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ في (حقل الحجر) و(طاحونة الفئران)».

- «اللورد والليدي ديدنجز. كان عملاً قدرًا».

أكملَ توم سبعة أوتار العَدِّ قائلاً: «ألين ابن (ويتترفل)، چوث كويكبو، مات الصَّغير وأخته راندا، أنثيل رين، السير أورموند، السير دودلي، پايت ابن (موري)، پايت ابن (غابة الرِّماح)، پايت العجوز، پايت ابن (تُستان شمر)، وايل النَّجَّار الأعمى، العقيلة ماري، العاهرة ماري، بكا الخبَّازة، السير رايمون داري، اللورد داري، اللورد داري الصَّغير، نغل براكن، فلتشر ويل، هارسلي، العقيلة نولا...».

قاطعَه كلب الصَّيد وقد انقلبت سحنته غضبًا: «كفى! إنكم تُصدِّرون ضجَّةً كثيرةً. هذه الأسماء لا تعني شيئًا. مَنْ كانوا؟».

قال اللورد بريك: «كانوا أناسًا، أناسًا كبار الشَّان وصغاره، مسنين وشبابًا، صالحين وطالحين، وكلهم ماتوا بحراب آل لانستر أو بُقِرَت بطونهم بسيف آل لانستر».

- «لم يكن سيفي أنا الذي بقَرَ بطونهم، ومن يقول هذا كاذب ملعون».

قال ثوروس: «أنت تخدم آل لانستر أولاد (كاسترلي روك)».

ردَّ كليجان: «كنتُ أخدمهم، أنا وآلاف غيري. هل يحمل كلُّ منا ذنب جرائم الآخر؟»، وبصقَ وأردف: «ربما تكونون فرسانًا حقًا. إنكم تكذبون كالفرسان، وربما تقتلون جزافًا مثلهم».

بدأ ليم وچاك المحظوظ يزعقان فيه، لكن دوناريون رفعَ يده أمرًا بالصَّمت، وقال: «قُل ما تعنيه يا كليجان».

- «الفارس سيف على حصان، أمَّا البقيَّة، الثُّدور والرُّبوت المقدَّسة وعطايا الليدييات، فمجرَّد شرائط من الحرير تُلفُّ حول السَّيف. ربما يبدو السَّيف أجمل والشرائط تتدلَّى منه، لكنه يقتل كالسَّيف المجرَّد. حسن، لتذهب شرائطكم إلى الجحيم ولتدسُّوا سيوفكم في أديباركم. إنني مثلكم، لكن الفارق أنني لا أكذبُ بخصوص هُويَّتي. اقتلونني إذن، لكن لا تقفوا هكذا ويُهَنِّئُ بعضكم بعضًا على أن خراءكم ليس كرية الرَّاثحة، هل تسمعون؟».

اندفعت آريا متجاوزةً ذا اللحية الخضراء بمنتهى السُّرعة فلم يستطع اللِّحاق بها، وصرخت: «أنت قاتل! لقد قتلت مايكا! لا تقل إنك لم تفعل! لقد قتلتها!».

حَدجها كلب الصَّيد بلا دلالةٍ على تعرُّفها، وقال: «ومن كان مايكا هذا يا ولد؟».

- «لستُ ولدًا! لكن مايكا كان كذلك. كان صبيَّ جزارٍ وأنت قتلته. چوري قال إنك فلقتَه إلى نصفين، ولم يكن يحمل سيفًا».

أحسَّت بهم يَنْظُرُونَ إليها، النِّساء والأطفال والرِّجال الذين يُسمُّون أنفسهم فرسان التَّلِّ الأجوف، وسمعت أحدهم يسأل: «مَن هذه؟».

أجاب كلب الصَّيد: «بحقِّ الجحائم السَّبْع، إنها الأخت الصُّغرى، الفتاة التي أَلقت سيف چوف الأنيق في النَّهر»، وأطلق ضحكةً كالنَّباح مضيِّفًا: «ألا تعرفين أنك ميتة؟».

رَدَّتْ محتدَّةً: «نعم، إنك أنت الميت».

أمسك هاروين ذراعها ليسحبها إلى الوراء، على حين قال اللورد بريك: «الفتاة تتهمك بالقتل. هل تُنكر قتل صبيِّ الجَزَّار مايكَا؟».

هَزَّ الرَّجُل الكبير كتفيه مجيئاً: «كنتُ حارسِ چوفري الخاص. صبيُّ الجَزَّار هاجمَ أميرًا من الدَّمِ الملكي».

تلوّت آريا محاولةً التَّمَلُّص من قبضة هاروين صائحةً: «كذب! أنا التي ضربتُ چوفري وألقيتُ (مخلب الأسد) في النَّهر. مايكَا فرَّ فحسب كما قلتُ له أن يفعل».

سأل اللورد بريك كلب الصَّيد: «هل رأيت الصَّبي يتعدَّى على الأمير چوفري؟».

قال كليجايين: «سمعتُ الكلام من الشَّفِيتين الملكيّتين. ليس مكاني أن أجادل الأمراء»، ولوَّح بيديه نحو آريا مواصلاً: «أختها قالت الكلام نفسه عندما وقفتُ أمام حبيبكم روبرت».

رَدَّتْ آريا وغضبتها من أختها تشتعل من جديد: «سانزا كاذبة. ما قالته لم يحدث، لم يحدث!».

انتحى ثوروس جانبًا باللورد بريك، ووقفًا يتكلَّمان هامسين بينما تتميِّز آريا غيظًا. يجب أن يقتلوه. لقد دعوتُ أن يموت مئآت ومئآت الممرات.

التفت بريك دونداريون إلى كلب الصَّيد قائلاً: «أنت متهم بالقتل، لكن لا أحد هنا يُدرك صحَّة الاتِّهام من عدمها، وعليه فليس لنا أن نحكم عليك. وحده إله الضيَّاء يُمكنه أن يفعل هذا الآن، ولذا أقضي بمحاكمتك بالنزَّال».

عقد كلب الصَّيد حاجبيه بشكِّ كأنه لا يثق بأذنيه، وسأل: «أأنت أحمق أم مجنون؟».

- «لا هذا ولا ذاك، إنني رجل عادل. اثبت براءتك بالسَّيف ولك حرِّيَّة الذَّهاب».

- «لا!»، صرخت آريا قبل أن يكتم هاروين فمها. لا، لا يُمكنهم أن يفعلوا هذا، سيفوز ويذهب. كلب الصَّيد مميت حقًا وفي يده سيف، والكل يعلم هذا. سيضحك منهم.

وقد كان. أطلق كليجايين ضحكةً خشنةً طويلةً تردَّدت أصداءها على جُدران

الكهف، ضحكةً مختنقةً بالازدراء، ورمقَ ليم قائلاً بسخرية: «مَنْ سَيُنَازِلُنِي إِذْنَ؟ الشُّجَاعُ ذُو المَعَطْفِ المَلُوءِ بالبُولِ؟ لَا؟ مَاذَا عَنكَ أَيُّهَا القَنَاصُ؟ إِنَّكَ مَعْتَادٌ عَلَى رِكلِ الكَلَابِ، فَجَرَّبْنِي»، ورأى ذَا اللِّحْيَةِ الخُضْرَاءَ فَقَالَ لَهُ: «حِجْمَكَ كَبِيرٌ بِمَا فِيهِ الكِفَايَةُ يَا (تايروش)، فَتقدَّمْ، أَمْ أَنْكَ تَنوِي أَنْ تَدْعَ الفَتَاةَ الصَّغِيرَةَ تُقَاتِلُنِي بِنَفْسِهَا؟»، وَضَحَكَ ثَانِيَةً مُضِيْفًا: «هَلُمُّوْا، مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَمُوْتَ؟».

أجابه اللورد بريك دوندايرون: «سَتُوجِهُنِي أَنَا».

تذكرت آريا ما سمعته عنه من حكايات، وقالت لنفسها راجيةً ما لا رجاء منه: إنه لا يموت، بينما قطع القناص المجنون الحبل الذي يُكَبِّلُ يَدَيَّ ساندور كليجاين، الذي قال وهو يفرُّك معصميه المسحوجين: «أريدُ سيفًا ودرعًا».

أعلنَ اللورد بريك: «ستنال سيفك، لكن براءتك هي درعك».

ارتعشَ فم كليجاين، وقال: «براءتي في مواجهة وافي صدرك، أهكذا إذن؟».

- «ند، ساعدني على خلع وافي الصدر».

سرت في جسد آريا القشعريرة إذ سمعت اللورد بريك ينطق اسم أبيها، لكن ند هذا كان مجرّد صبي، مُرافِقًا ناعم الشعر لا تتجاوز سنّه العاشرة أو الثانية عشرة، وقد تقدّم مسرعًا يحلّ المشابك التي تُثَبَّتُ الفولاذ المنبجح إلى صدر اللورد الآتي من التُّخوم الدورتية، فرأت البطانة تحته متعفنة من فرط الاستخدام والعرق، وانفصلت عن المعدن لما خلع.

كتم جندي شهقةً مغمغماً: «رُحْمَاكِ يَا أَمْنَا».

كانت ضلوع اللورد بريك محدّدةً بوضوح قابض تحت جلده، وشوّهت فجوةً مجعّدة صدره فوق الحلمة اليسرى مباشرةً، وحين دارّ ليطلب سيفًا وتُرسًا رأت آريا فجوةً مماثلةً في ظهره. الرُّمُحُ اخترق صدره ونفذ من ظهره. كلب الصيّد أيضًا رأى الإصابة، فتساءلت آريا: أهو خائف؟ إنها تُريده أن يكون خائفًا قبل أن يموت، خائفًا كما كان مايكا لا بُدّ.

ناولَ ند اللورد بريك حزام سيفه وسُترةً طويلةً سوداء من المفترض أن تُرتدى فوق الدرّع، لكن في غيابها انسدت السترة فضفاضةً على جسده الضّاوي، وإن لاح عليها لسان البرق الأرجواني رمز عائلته، وامتشق اللورد بريك السيف وأعاد الحزام إلى مُرافقه.

أحضَرَ ثوروس لـكـلب الصَّيْدِ حزام سيفه قائلاً: «هل للكلاب شرف؟
لئلا تُفكَّر في الخروج من هنا قتالاً أو تأخذ طفلاً ما رهينةً... آنجاي، دينيت،
كايل، أمطروه بالسَّهام مع أول بادرةٍ من الخيانة»، وانتظرَ حتى ثَبَت الرُّماة
الثَّلاثة سهامهم إلى أقواسهم قبل أن يُناول كليجاين الحزام.

استلَّ كلب الصَّيْدِ السَّيف وألقى الغِمد أرضاً، وناولَه القنَّاصَ المـجنون
تُرسه البلوط المطعم بالحديد، الذي طُلِّي بالأصفر ورُسِّمَت عليه ثلاثة كلاب
سوداء، فيما ساعدَ الصَّبي ند اللورد بريك على تثبيت تُرسه على ذراعِهِ، وقد
بدا في حالةٍ مزريةٍ حتى إن النُّجوم المرسومة عليه تكاد تختفي تماماً، وكذا
لسان البرق.

لكن حين تقدَّم كلب الصَّيْدِ من خصمه، أوقفه ثوروس المايري، وقال:
«سنُصلي أولاً»، والتفت إلى النَّار رافعاً يديه داعياً: «أيا إله الضَّياء، تطلَّع إلينا
من عليائك».

رفعت أخواة اللآ رايات أصواتها في كلِّ أنحاء الكهف محيبةً: «أيا إله
الضَّياء، دافع عنا».

- «أيا إله الضَّياء، احمنا في الظُّلمات».

- «أيا إله الضَّياء، اسطع بنورك علينا».

واصل الرَّاهب الأحمر: «أشعل لهبك بيننا يا راهلور، أَرنا حقيقة هذا
الرَّجل أو زيفه، جنِّدله إذا كان مذنباً وامنح سيفه القوَّة إذا كان بريئاً. أيا إله
الضَّياء، هب لنا الحكمة».

ترنم الآخرون -وبينهم هاروين وآنجاي- بالصَّوت العالي نفسه: «فالليل
مظلمٌ ومفعمٌ بالأهوال».

قال كلب الصَّيْدِ: «هذا الكهف مظلم أيضاً، لكنني الهول هنا. أتمنى أن
يكون رَبُّكَ رحيماً يا دونداريون، فقريباً ستُقبله».

دون أن يتسم، وضع اللورد بريك حافة النَّصل على راحة يده ومرَّرها
عليها ببطء، فسالت الدِّماء قانيةً من الشَّقِّ الذي صنعه وأغرقت الفولاذ.

ثم اشتعل السَّيف ناراً.

وسمعت آريا جندري يردِّد صلاةً هامسةً.

صاح كلب الصَّيْدِ حانقاً: «احترق في الجحائم السَّبع، أنت وثوروس

أيضًا»، وألقى نظرةً نحو الرَّاهب الأحمر مضيئًا: «أنت التَّالي عندما أفرغُ منه يا (مير)».

أجابَه ثوروس: «كلُّ كلمةٍ تلفظها تبوح بذنبك أيها الكلب»، بينما رماه ليم وذو اللحية الخضراء وچاك المحفوظ بالشتائم واللعنات، أمَّا اللورد بريك نفسه فانتظرَ صامتًا بهدوء المياهِ الرَّاكدة، تُرسه على ذراعهِ اليُسرى وسيفه متَّقد في يده اليُمْنى، وفكَّرت آريا: اقتله. أرجوك، يجب أن تقتله. في الإضاءة الآتية من أسفل كان وجهه قناع موت، وعينه المفقودة جرحًا أحمر غاصبًا. اشتعلَ السَّيف من الرَّأس حتى الواقِي العرضي، لكن لم يبدُ على دونداريون أنه يحسُّ بالحرارة، ووقفَ بمنتهى الثبات كأنه تمثال قُد من حجر.

لكن حين انقضَّ كلب الصَّيد عليه، تحرَّك بالسرعة الكافية. وثبَّ السَّيف النَّاري إلى أعلى ليلتقي الآخر البارد، تمتدُّ أعلام طويلة من اللهب في أثره كالشَّرائط التي تحدَّث عنها كلب الصَّيد. صلصل الفولاذ على الفولاذ، وبمجرد أن صُدَّت ضربته الأولى هوى كليجاين بالثَّانية، لكن هذه المرَّة اعترضَ تُرس اللورد بريك طريقها، وتطايرت شظايا الخشب من قوَّة الضَّربة. عنفةٌ سريعةٌ توالَّت الضَّربات، من الأعلى والأسفل، من اليمين والشَّمال، وصدَّها دونداريون جميعًا واللَّهب يتموِّج حول سيفه مخلفًا أشباحًا حمراء وصفراء في الهواء. كلُّ حركة من اللورد بريك أجَّجت النَّار وجعلتها تتوهَّج أكثر وأكثر، فبدأ كأن قفصًا ناريًّا يُحيط بسيد البرق.

سألت آريا جندري: «أهذه نار شعواء؟».

- لا، هذه شيء آخر، إنه...».

- «... سحر؟»، أنهت عبارته وكلب الصَّيد يتقهقرُ خطوةً. الآن كان اللورد بريك يضغط بالهجوم، يملأ الهواء بخيوط من اللهب، يدفع الرَّجل الذي يكبره حجمًا إلى الورا. صدَّ كليجاين ضربةً من أعلى بتُرسه، فقدَّ أحد الكلاب المرسومة رأسه، ثم إنه سدَّد ضربةً مرتدَّةً اعترضها دونداريون بتُرسه ووجَّه ضربةً ناريَّةً بسيفه. هللت أخوَّة الخارجين عن القانون مشجعةً قائدها، وسمعتهم آريا يهتفون: «إنه لك! عليك به! عليك به! عليك به!». تفادى كلب الصَّيد ضربةً قصدت رأسه وقد التوت ملامحه إذ شعرَ بحرارة اللهب على وجهه، وأنَّ وأطلق سبابًا وتراجع متعثِّرًا.

ولم يمنحه اللورد بريك فرصةً لالتقاط أنفاسه، بل تقدّم سريعاً في أعقاب الرّجل الكبير دون أن تثبّت ذراعه لحظةً، وتقارع السّيفان وافترقا وتفارعا ثانيةً، وتطايرت الشّظايا من تُرس البرق، وقبّل اللهب الكلاب مرّةً واثنين وثلاثاً. تحرّك كلب الصّيد إلى يمينه، لكن دوناريون صدّه بخطوةً جانبيةً سريعة وأجبره على التّراجع في الاتّجاه الآخر... نحو لهيب بؤرة النّار الأحمر الجهميم.

ظلّ كليجاين يتراجع حتى أحسّ باللّهب يلفح ظهره، وأرته نظرة خاطفة من فوق كتفه ما ينتظر وراءه، وكادت تُكلّفه رأسه إذ عاود اللورد بريك الهجوم.

رأت آريا بياض عينيّ ساندور كليجاين وهو يندفع إلى الأمام ثانيةً كالثور. ثلاث خطوات إلى الأمام واثنان إلى الخلف، حركة إلى اليسار اعترضها اللورد بريك، خطوتان أخريان إلى الأمام وواحدة إلى الخلف، قرعة وقرعة، وتلقّى التّرسان البلوط ضربةً بعد ضربةٍ بعد ضربة. ألصق العرق اللامع شعر كلب الصّيد المسترسل بوجهته، فقالت آريها لنفسها: عرق النّبيذ، وقد تذكّرت أنه وقع في الأسر سكراناً. خيّل إليها أنها ترى بوادر الخوف تستيقظ في عينيه، وفكرت منتشبةً وسيف اللورد بريك يدور ويهوي: سيخسر. بانقضاضةٍ واحدةٍ ضارية استحوذ سيّد البرق على المساحة التي انسحب منها كلب الصّيد، جاعلاً كليجاين يتقهقر مترنحاً من جديد إلى شفا بؤرة النّار، وقالت آريا في أعماقها: نعم، نعم، سيموت، وشبّت على أصابع قدميها سعياً إلى رؤية أفضل.

- «أيها الخسيس!»، صرخ كلب الصّيد شاعراً بالسّنة اللّهب تعلق فخذيه من الخلف، وانقضّ ملوّحاً بالسّيف الثّقيل أقوى وأقوى، محاولاً أن يُحطّم الرّجل الأصغر منه حجماً بالقوّة الغاشمة، أن يكسر نصله أو تُرسه أو ذراعه، لكن لهب دوناريون طقق في عينيه، ولما تفاداه كليجاين بحركةٍ حادّة تداعت ساقه من تحته وسقط على رُكبته، ومن فوره انقضّ اللورد بريك لتصرّخ ضربه الموجهة من أعلى في الهواء وتُترّف معها رايات النّار. لاهثاً من المجهود المفرط، رفع كليجاين تُرسه فوق رأسه في الوقت المناسب، وتردّدت أصداء انشقاق الخشب في الكهف.

قال جندي بصوت مكتوم: «تُرسه يحترق»، ورأته آريا في اللحظة نفسها، اللهب يشبُّ في الطلاء الأصفر المشوّه ويتلع الكلاب الثلاثة.

قاتل ساندر كليجاين لينهض مجدداً بضربات مضادة رعاء، ولم يكد اللورد بريك يتراجع خطوة حتى أدرك كلب الصيد أن النار التي تجار على هذه المقربة من وجهه هي تُرسه المشتعل، وبصيحة ارتياح هوى بسيفه على البلوط المكسور بضراوة مكتملاً دماره. انفلق الترس إلى نصفين، طار أحدهما بعيداً والنار تلتهمه، أمّا الثاني فتمسك بساعده بعناد، ولم تفلح محاولاته للتخلص منه إلا في إزكاء اللهب أكثر ليطول كُمه وتشتعل ذراعه اليسرى كلها.

حَتَّ ذُو اللَّحِيَةِ الْخَضْرَاءُ اللُّورْدُ بَرِيكَ صَائِحًا: «أجهز عليه!»، وارتفعت أصوات الآخرين بهتاف: «مذنب!»، وهتفت آريا معهم: «مذنب، مذنب، اقتله، مذنب!».

بنعومة الحرير الصّيفي دنا اللورد بريك ليضع نهايةً للرّجل، وأطلق كلب الصيد صرخةً خشنةً ورفع سيفه بكلتا يديه وهوى به بقوّته كلها، فصدّ اللورد بريك الضربة ببساطة...
وصرخت آريا: «لااااااا!».

... لكن السيف المضطرم انكسر إلى نصفين، وانغرس فولاذ كليجاين البارد في لحم اللورد بريك حيث يلتقي عنقه وكتفه، وشقّه حتى عظم صدره، وانبتقت الدماء في دفقة سوداء ساخنة.

تراجع ساندر كليجاين بحركة حادة وذراعه لا تزال تحترق، وانتزع بقايا تُرسه وألقاها بعيداً وهو يسبُّ، ثم تدحرج في التراب ليخمد النار.

انطوت رُكبتا اللورد بريك ببطء كأنه يركع للصلاة، وحين فتح فمه لم يخرج منه إلا الدّم. كان سيف كلب الصيد لا يزال مغروساً فيه إذ خرّ ساقطاً إلى الأمام، وتشرّبت الأرض دماءه.

تحت التلّ الأجوف لم يكن هناك صوت إلا طقطقة اللهب الخافتة والتشيع الذي صدر من كليجاين عندما حاول أن ينهض، ولم تستطع آريا إلا التفكير في ما يكا وكلّ الصلوات السخيفة التي ردّتها لموت كلب الصيد. إذا كانت هناك آلهة، فلم لم يفز اللورد بريك؟ إنها تعلم علم اليقين أن كلب الصيد مذنب!

قال ساندور كليجاين بصوت مبحوح وهو يحمل ذراعه بيده ويضمُّها إلى صدره: «أرجوكم، لقد احترقتُ، ساعدوني، أرجوكم، ساعدوني»، وبكى بحرقه مرَّدًا: «أرجوكم». رمقته آريا بدهشة مفكرة: إنه يبكي كالأطفال.

قال ثوروس: «ميلي، عليك بحرقه. ليم، چاك، ساعداني على حمل اللورد بريك. ند، يحسن أن تأتي أيضًا»، وانتزع الرَّاهب الأحمر سيف كلب الصَّيد من جسد سيِّده الصَّريع وأغمد رأسه في الأرض المرتوية بالدماء. دسَّ ليم يديه الكبيرتين تحت ذراعَي دونداريون، بينما رفع چاك المحظوظ قدميه، وحمله حول بؤرة النَّار إلى ظلمة أحد الأنفاق، وتبعهما ثوروس والصَّبي ند.

بحدَّة قال القنَّاص المجنون: «لنأخذه إلى (السَّيت الحجري) ونضعه في قفص غريان».

قالت آريا: «نعم. لقد قتل مايكا، قتله!».

تمتَّ ذو اللِّحية الخضراء: «يا لك من سنجابٍ غاضب». تنهَّد هاروين، وقال: «راهلور حكَم ببراءته».

- «من رولور هذا؟!». لم تستطع حتى أن تنطق الاسم صحيحًا.

- «إله الصَّيَّاء. ثوروس علمنا...».

لم تكثرث لما علمهم إياه ثوروس، واختطفَت خنجر ذي اللِّحية الخضراء من غمده ووثبت متبعدةً قبل أن يُمسكها، وحاولَ جندري إمساكها أيضًا، لكن لظالما كانت آريا أسرع منه.

كان توم سبعة أوتار وامرأة ما يُساعدان كلب الصَّيد على القيام، وصدمهَّا منظر ذراعه حتى إنها عجزت عن الكلام. كان هناك شريط وردي حيث تعلَّق الحزام الجلدي بالذراع، لكن فوقه وتحتة اللَّحم مشقَّق وينزف من المرفق إلى المعصم، ولَمَّا التَّقت عينا الرَّجل عينيها ارتعش فمه، وقال: «أترغبين في موتي لهذه الدَّرَجَة؟ افعليها إذن أيتها الذَّئبة. أغمدي هذا الخنجر في جسدي. إنها ميتة أنظف من النَّار»، وحاولَ أن ينهض، لكن إذ تحرَّك انسلخت قطعة من اللَّحم عن ذراعه وسقطت، وتداعت رُكبته من تحتها، إلَّا أن توم أمسكه من ذراعه السَّليمة وسنده.

فَكَرَّتْ آريَا: ذراعُه ووجهه، لكنه كلب الصَّيْد، ويستحقُّ أن يحترق في الدَّرَكِ الأسفل من الجحيم. أَحَسَّتْ بالخنجر ثَقِيلاً في يدها، فأطبقت عليه وقالت مرَّةً أخرى متحدِّيةً إياه أن يُنكِر: «لقد قتلت ما يكا. قُلْ لهم. لقد قتلتُه، قتلتُه».

التَوَّتْ ملامحه كُلُّها وهو يقول: «نعم، دعسته بحصاني وشطرته إلى نصفين وضحكْتُ. وشاهدتُ بينما ضربوا أختكِ حتى أدموها أيضًا، وشاهدتهم يقطعون رأس أبيك».

قبَضَ ليم على معصمها ولواه وانتزَعَ منها الخنجر. راحَت تَرُكُّله لكنه رفضَ أن يُعيده، فصرَّخت في وجه ساندور كليجاين بثورةٍ عاجزة: «اذهب إلى الجحيم يا كلب الصَّيْد! اذهب إلى الجحيم!».

قال صوت يكاد لا يعلو على همسة: «قد ذهبَ بالفعل».

وحين التفتت آريا كان اللورد بريك دونداريون واقفًا وراءها، تُطبِق يده الدَّامية على كتف ثوروس.

كاتلين

قالت كاتلين في سريرتها: فلينعم ملوك الشتاء بسردابهم البارد تحت الأرض. أمّا آل تلي فيستمدون قوتهم من النّهر، وإلى النّهر يرجعون حينما تنتهي حياتهم.

مدّدوا اللورد هoster في قارب خشبيّ نحيف، وقد سجّوه بدرع برّاقه من الصّفائح والحلقات المعدنيّة المطليّة بالفضّة، وبسطوا تحته معطفه المموج بالأزرق والأحمر، اللّونين اللذين تكوّنت منهما سترته الطويلة أيضاً، بينما تألّفت ريشة خوذته العظيمة الموضوععة إلى جوار رأسه من سمكة ترويت قشورها من الفضّة والبرونز، وعلى صدره وضعوا سيفاً خشبيّاً ملوّناً تكوّرت أصابعه حول مقبضه. أخفى قفّازان من حلقات المعدن يديه الذّابلتين وجعلاه يبدو أقرب إلى القوّة مجدّداً، واستقرّ ثُرسه الضّخم المصنوع من البلوط والحديد إلى يساره وبوقه إلى يمينه، أمّا بقيّة القارب فملئت بالخشب المجروف والمواد الملتهبة وقطع الرّقوق، بالإضافة إلى الحجارة من أجل أن يظلّ ثقيلًا في الماء، ومن مقدّمة القارب خفقت راية اللورد هoster وعليها سمكة (ريثرزن) الوثّابة.

تكريماً لأوجه الإله السّبعة اختير سبعة رجال لدفع القارب إلى الماء، أولهم روب باعتباراه مولى اللورد هoster، ومعه اللوردات براكن وبلاكوود وفانس وماليستر والسير مارك پاير... ولوثار فراي الكسيح، الذي جاء من (التّوأمتين) بالإجابة التي ينتظرونها، وقد رافقه أربعون جنديّاً يقودهم والدر ريثرز أكبر أبناء اللورد والدر غير الشّرعيين، وهو رجل أشيب صارم ذو سُمعةٍ مهيبه كمُحارب. فجّر وصولهم بعد ساعاتٍ معدودة من وفاة اللورد هoster غضبة إدميور، الذي

صاح: «المفترض أن يُسلخ والدر فراي ويُمزق إلى أربع⁽¹⁾! يُرسل واحدًا عاجزًا وآخر نغلاً ليتعاملًا معنا؟ قول لي إنه لا يقصد إهانةً بهذا».

أجابت كاتلين: «لا شكَّ لدي في أن اللورد والدر انتقى مبعوثيه بعناية. إنه تصرفٌ نَزق، نوع رخيص من الانتقام، لكن تذكر مع من نتعامل؛ اللورد والدر المملوك كما اعتاد أبونا أن يُسمِّيه. إنه حاد الطباع وحسود، وفوق كل شيءٍ آخر متعطرس».

لكن من الخير أن ابنها كان أكثر تعقلاً من أخيها، فحيًا روب ولدي فراي بكل حفاوة، ووجد مكانًا في الثكنات لمُرافقيهم، وبهدوء طلب من السير دزموند جرل أن يتنحى جانبًا كي ينال لوثار شرف المساعدة على تشييع اللورد هوستر إلى مثواه الأخير. لقد تعلم ابني حكمةً قاسيةً تفوق سني عمره. ربما تخلت عائلة فراي عن الملك في الشمال، لكن يبقى سيّد (المعبر) أقوى حَمَلة راية (ريثررن)، ولوثار هنا ممثلاً عنه.

أطلق السبعة اللورد هوستر من عند سلالم الماء، وخاضوا نازلين الدراجات فيما ارتفعت الشبكة الحديد. كان لوثار فراي، وهو رجل بدين لدن الجسد، يلهث بقوة وهم يدفعون القارب إلى التيار، ووقف جيسون ماليستر وتايتوس بلاكوود عند المقدمة غائصين في الماء حتى الصّدر ليقوداه إلى طريقه في النهر.

وقفت كاتلين في الشرفة تنتظر وتُشاهد كما فعلت مرارًا من قبل، وفي الأسفل تدفق نهر (الجلمود) العاتي بسرعة الحربة إلى جانب (الفرع الأحمر) الواسع، يمحض تياره الأبيض المزرق مياه النهر الأكبر التي أكسبها الطمي لونًا بنيًا يميل إلى الحمرة، وفوق صفحة الماء استقرت غشاوة صباحية رقيقة كلعاب الشمس⁽²⁾ وخيوط الذكرى.

(1) وسيلة إعدام شاعت في العصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر، واستخدمتها محاكم التفتيش الإسبانية كثيرًا، بحيث تُربط يدا المُدان وساقاه إلى أربعة أحصنة تظل تتحرك حتى تتمزق أوصاله. (المترجم).

(2) لعاب الشمس أو السهام غشاء رقيق كنسيج العنكبوت يطفو في الهواء إذا ما اشتدَّ الحرُّ وتشبع الجو بالرطوبة. (المترجم).

فَكَرَّت كَاتِلِينَ بِلُوعَةٍ: بران وريكون في انتظاره الآن كما اعتدتُ أن أنتظره.
تَحَرَّكَ الْقَارِبُ التَّحْيِفَ تَحْتَ قَنْطَرَةٍ (بَوَابَةِ الْمَاءِ) الْحَجْرِيَّةِ الْحَمْرَاءِ،
تَتَزَايِدُ سُرْعَتُهُ مَعَ دَخُولِهِ مَجْرَى (الْجُلْمُودِ) الْعَنِيفِ وَانْدِفَاعِهِ إِلَى مَلْتَقَى
النَّهْرَيْنِ الثَّائِرِ، قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ تَحْتَ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ الْعَالِيَةِ لِتَنْفُخِ الرِّيحِ شِرَاعَهُ
الْمَرْبِيعَ، وَرَأَتْ كَاتِلِينَ بِرَيْقِ الشَّمْسِ مَعَكِسًا عَلَى خَوْذَةِ أَبِيهَا.
ظَلَّتْ دَفَّةَ اللُّورْدِ هُوَسْتَرٍ تَلِي ثَابِتَةً، وَأَبْحَرَ بِجَلَالٍ فِي مَتَنَصِّفِ الْمَجْرَى
نَحْوَ الشَّمْسِ الْمَشْرِقَةِ.

قَالَ عُمُّهَا: «الآن»، وَإِلَى جَوَارِهَا ثَبَّتَ أَخُوهَا إِدْمِيور - اللُّورْدِ إِدْمِيور الْآنَ
بِالْأُحْرَى، وَكَمْ سَتَسْتَعْرِقُ مِنَ الْوَقْتِ حَتَّى تَعْتَادَ هَذَا؟ - سَهْمًا إِلَى وَتَرِ قَوْسِهِ،
وَوَضَعَ مُرَافِقَهُ مَشْعَلًا مَوْقِدًا عِنْدَ رَأْسِ السَّهْمِ، فَانْتَظَرَ إِدْمِيور حَتَّى شَبَّ فِيهِ
اللَّهَبُ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ الْقَوْسَ الطَّوِيلَ وَيَسْحَبَ الْوَتَرَ إِلَى أُذُنِهِ، ثُمَّ تَرَكَ السَّهْمَ
الْمَشْتَعَلَ يُحَلِّقُ بِصَوْتٍ طَنَّانٍ عَمِيقٍ، وَتَابَعَتْهُ كَاتِلِينَ بَعَيْنَيْهَا وَقَلْبِهَا، إِلَى أَنْ
انْعَرَسَ فِي الْمَاءِ بِهَيْسِيسٍ وَاطَى وَرَاءَ قَارِبِ اللُّورْدِ هُوَسْتَرٍ بِمَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ.

أَطْلَقَ إِدْمِيورُ سَبَابًا خَافِتًا، وَغَمِغَمَ وَهُوَ يَسْحَبُ سَهْمًا ثَانِيًا: «إِنهَا الرِّيحُ.
مَرَّةً أُخْرَى»، فَاقْبَلَ الْمَشْعَلُ الْخَرْقَةَ الْمَشْبَعَةَ بِالزَّيْتِ وَرَاءَ رَأْسِ السَّهْمِ وَاشْتَعَلَ
اللَّهَبُ، وَرَفَعَ إِدْمِيورُ الْقَوْسَ مَجْدَّدًا وَسَحَبَ وَأَطْلَقَ. عَالِيًا وَبَعِيدًا حَلَقَ
السَّهْمُ، بَعِيدًا جَدًّا، وَاخْتَفَى فِي النَّهْرِ عَلَى بُعْدِ دَسْتَةٍ مِنَ الْيَارِدَاتِ مِنَ الْقَارِبِ
لِتَنْطَفِئَ نَارُهُ فِي لِحْظَةٍ، فَسَرَتْ حُمْرَةٌ بِلَوْنِ لِحْيَتِهِ عَلَى عُنُقِ إِدْمِيورِ، وَقَالَ أَمْرًا
وَهُوَ يَسْحَبُ سَهْمًا ثَالِثًا مِنَ الْكِنَانَةِ: «مَرَّةً أُخْرَى».

فَكَرَّت كَاتِلِينَ: إِنَّهُ مَشْدُودٌ كَوَتَرِ الْقَوْسِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ السَّيْرُ بَرَايِنْدُنَ رَأَى الشَّيْءَ نَفْسَهُ، فَقَالَ مَقْتَرِحًا: «اسْمَحْ لِي يَا
سَيِّدِي».

رَدَّ إِدْمِيورُ بِإِصْرَارٍ: «يُمْكِنُنِي أَنْ أَفْعَلَهَا»، وَتَرَكَ مُرَافِقَهُ يُشْعَلُ السَّهْمَ وَعَادَ
يَرْفَعُ الْقَوْسَ، وَأَخَذَ نَفْسًا عَمِيقًا وَسَحَبَ. مَرَّتْ لِحْظَةٌ طَوِيلَةٌ وَهُوَ يَبْدُو مَتَرَدِّدًا
بَيْنَمَا زَحَفَ اللَّهَبُ مَطْقَقًا عَلَى قَنَاةِ السَّهْمِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَطْلَقَ أُخِيرًا، وَارْتَفَعَ السَّهْمُ
إِلَى أَعْلَى وَأَعْلَى، قَبْلَ أَنْ يَنْحَنِي إِلَى أَسْفَلٍ وَيَسْقُطَ وَيَسْقُطُ... وَيَمُرُّ مَهْسَهْسًا
بِالشَّرَاعِ الْمَتَنَفِّخِ.

رَمِيَةٌ قَرِيبَةٌ لِلْغَايَةِ، وَلَمْ تَتَعَدَّ الْمَسَافَةَ بَيْنَ السَّهْمِ وَالْقَارِبِ حَجْمَ كَفِّ

مفتوحة، لكنها تظل رمية خاطئة، وصاح إدميور غاضبًا: «تبا!». كان القارب يُشارف على الخروج من المدى، يتوارى في ضباب النَّهر ويلوح ثانيةً، وبلا كلمةٍ أخرى ألقى أخوها القوس إلى عمَّهما.

قال السير برايندن: «بسرعة»، وركب سهمًا جديدًا على الوتر ورفعته بثباتٍ إلى المشعل، وسحبَه وأطلقَه قبل أن تتأكد كاتلين حتى من أن النَّار اشتعلت في رأسه... لكن السَّهم ارتفع عاليًا ورأت ذيله النَّاري في الهواء كراية برتقاليةٍ شاحبة. كان القارب قد اختفى في الضباب الذي ابتلع السَّهم النَّاري أيضًا إذ بدأ رحلة السُّقوط... لكن مدَّة لحظةٍ واحدة لا أكثر، ثم كما يأتي الأمل على حين غرَّة رأوا الزَّهرة الحمراء تتفتَّح، واشتعلت النَّار في الشَّراع وتوهَّج الضباب بالوردي والبرتقالي، وللحظةٍ عابرة رأت كاتلين حدود القارب بوضوح واللَّهب المضطرم يُكَلِّله.

وسمعت أباها يهمس لها: ترقبي عودتي يا قطني الصَّغيرة.

مدت كاتلين يدها بحركة تلقائيةٍ بحثًا عن يد أخيها، لكن إدميور كان قد ابتعد ليقف وحده على أعلى نقاط الشُّرفة، فالتقط عمَّها برايندن يدها بدلًا منه لتعانق أصابعه القويَّة أصابعها، ومعًا شاهدَا النَّار الصَّغيرة تتضاءل إذ جرف النَّهر القارب المحترق بعيدًا.

ثم إنه غاب عن الأنظار... إمَّا أنه لا يزال يَمُخر الماء في اتِّجاه المصب، وإمَّا تحطَّم وغاص. سيحمل ثقل الدَّرع اللورد هوستر إلى أسفل ليستريح وسط طمي قاع النَّهر النَّاعم، في الأبهاء المائيَّة التي يعقد فيها آل تلي بلاطهم إلى الأبد، لا يُصاحِبهم في مستقرِّهم الأخير إلا أسراب السَّمك.

لم يكد القارب يختفي حتى ابتعد إدميور. أرادت كاتلين أن تحتضنه ولو لحظةً، أن تجلس معه ساعةٍ أو ليلةٍ أو دورة قمر ليتكلَّما عن الرَّاحلين وينعياهم، لكنها تُدرك أن هذا ليس بالوقت المناسب، فأخوها سيِّد (ريقررن) الآن، وفرسانه يحشِّدون حوله مردِّدين عبارات العزاء ووعود الإخلاص، يحجبونه عن شيءٍ مناهي الصَّغر كحزن شقيقته، وأصغى لهم إدميور دون أن يسمع كلمةً واحدةً.

قال لها عمَّها بهدوء: «لا عار في أن يُخطئ المرء رميته، ولا بُدَّ أن يسمع إدميور هذا. يوم أطلقنا السيِّد والدي في النَّهر أخطأ هوستر الرَّمية كذلك».

كانت كاتلين أصغر من أن تتذكَّر في ذلك الحين، لكن كثيرًا ما حكي اللورد هوستر الموقف، فقالت: «الرَّمية الأولى، لكن الثَّانية أصابَت الشَّراع»، وزفرت مفكِّرةً أن إدميور ليس بالقوَّة التي تبدو عليه. لقد كان موت أبيهما رحمةً حين أتى أخيرًا، إلا أن أباها تلقَّاه كصدمةٍ عنيفةٍ على الرغم من هذا. ليلة أمس وهو سكران انهارَ إدميور وانفجرَ في البكاء وقد ملاه النَّدم على أفعالٍ لم تتَّم وكلماتٍ لم تُقل، وقال لها والعبرات تترقرق في عينيه إنه لم يكن يجدر به أن يخرج ويخوض تلك المعركة عند المخاضات، بل كان عليه أن يبقى إلى جوار فراش أبيه. «كان يجب أن أكون معه مثلك. هل ذكرني في النِّهاية؟ قولي الحقيقة يا كات، هل سألت عني؟».

آخر كلمةٍ لفظها اللورد هوستر كانت «تانسى»، لكن كاتلين لم تستطع أن تُخبره بهذا، وبدلاً من هذا أجابته كاذبةً: «لقد همست باسمك»، فأوماً أخوها برأسه ممتناً وقبَّل يدها.

قالت لنفسها متنهدةً: لو لم يُحاول أن يُغرق أساه بالنَّيذ لاستطاع إصابة الهدف، لكن هذا شيء آخر لا تجرؤ على قوله. اصطحبها السَّمكة السوداء نزولاً من الشُّرفة إلى حيث وقفَ روب وسط حملة رايته، وإلى جواره ملكته الشَّابة، ولما رآها ابنها احتواها بين ذراعيه بصمت، أمَّا جاين فغمغمت: «اللورد هوستر بدا نبيلًا كالملوك يا سيّدي. ليتني نلتُ فرصة معرفته». أضاف روب: «وفُرصة أن أعرفه أفضل».

قالت كاتلين: «كان ليرغب في هذا أيضًا، لكن بين (ريفررن) و(وينترفل) فراسخ كثيرة». وجمال وأنهار وجيوش كثيرة بين (ريفررن) و(العُش) على ما يبدو. لقد امتنعت لايسا عن الرَّد على رسالتها.

ومن (كينجز لاندنج) أيضًا لم يأت إلا الصَّمت. كانت تأمل أن بريان والسير كليوس قد بلغا المدينة بأسيرهما، ولعلَّ بريان في طريق العودة بالفعل ومعها البنتان. السير كليوس أقسم أن يجعل العفريت يرسل غُداً بمجرّد أن تتمَّ المبادلة، أقسم! لكن الغدافان لا تصل إلى وجهتها دائماً، وربما أسقط قوَّاس ما الطائر وشواه على العشاء، والآن تستقرُّ الرِّسالة التي كانت تُطمئن قلبها في رماد نار معسكرٍ ما وسط عظام الغداف.

كان آخرون منتظرين أن يُقدِّموا الروب تعازيهم، فوقفت كاتلين جانبًا بصبر بينما تكلم مع كل من اللورد جيسون مالمستر وچون الكبير والسير رولف سپايسر بدوره، لكن حين اقترب لوثار فراي شدت روب من كُمِّه، فالتفت وانتظر أن يسمع ما سيقوله لوثار.

لوثار فراي رجل سمين في منتصف الثلاثينات، له عيانان متقاربتان ولحية مدبَّبة وشعر داكن ينسدل على كتفيه في حلقات صغيرة، أكسبته ساقه التي التوت في أثناء مولده لقب لوثار الكسيح، وقد خدم كوكيل أبيه طيلة الاثنتي عشرة سنة المنصرمة. خاطب فراي روب قائلاً: «جلالة الملك، نكره أن نتطفل على حزنك، لكن هلاً سمحت لنا بالتحدُّث معك الليلة؟». أجاب روب: «سيكون هذا من دواعي سروري. لم تكن رغبتني قطُّ أن أزرع الخصومة بيننا».

وقالت الملكة چاين: «ولا رغبتني أن أكون سبباً فيها». ابتسم لوثار فراي قائلاً: «أفهمُّ هذا كما يتفهَّمه أبي. لقد أوصاني بأن أقول إنه كان شاباً ذات يوم، ويتذكَّر تماماً كيف يسلب الجمال قلب المرء». شكَّت كاتلين كثيراً في أن والدر فراي قال شيئاً كهذا، أو أن جميلة ما استحوذت على قلبه يوماً. لقد عمَّر سيِّد (المعبر) بعد وفاة سبع زوجات ومتزوِّج الآن بالثامنة، لكنه لا يتكلم عنهن إلَّا باعتبارهن نساءً لتدفئة فراشه والتكاثر. على أن الكلام قيلَ بتهذيب، ولا يُمكنها الاعتراض على هذه المجاملة، وكذا روب الذي قال: «أبوك شديد الدِّمائية. سأتطلَّع إلى حديثنا». انحنى لوثار ولثم يد الملكة وانسحب، فيما تجمَّع دسته من الآخرين حول روب، فتكلَّم معهم واحداً تلو الآخر، يُعطي هذا كلمة شكر وذاك ابتساماً، حسبما دعت الحاجة، ولَمَّا فرغ من آخرهم عادَ يلتفت إلى كاتلين قائلاً: «ثمَّة أمر يجب أن نتحدَّث فيه. هلاً مشيتِ معي؟».

- «كما تأمر يا جلالة الملك».

- «لم يكن أمراً يا أمَّاه».

- «من دواعي سروري أن آتي معك إذن». منذ عادَ ابنها إلى (ريقررن) وهو يُعاملها برفق ولطف، وإن سعى إلى الكلام معها نادراً، ولكن لا يُمكنها أن تلومه إذا وجدَّ راحةً أكثر في صُحبة ملكته الشَّابة. چاين تجعله يبتسم، وأنا

ليس لديّ ما أمنحه إياه إلا الحسرة. ويبدو أنه يستمتع بصُحبة أخويّ عروسه أيضًا؛ مُرافقه الصَّغير رولام وحامل علمه السير راينالد، وقد أدركت كاتلين وهي تُشاهدهم معًا أنهما حَلًا محلًّا من فقدهم. رولام أخذ مكان بران، وراينالد جزء ثيون وجزء جون سنو. فقط مع أولاد وسترلينج ترى روب يتسّم أو تسمعه يضحك كالصَّبي الذي كانه، أمّا مع الآخرين فهو دومًا الملك في الشمال، محنيّ رأسه تحت ثقل التَّاج، حتى وهو عار.

قَبْلَ روب زوجته برقةٍ ووعدَ بأن يراها في مسكنهما، ثم ذهبَ مع السيِّدة أمه، وقادته خُطاه إلى أَيْكة الآلهة، حيث قال: «لوثار بدا ودودًا، وهي علامة تبعث على الأمل. إننا في حاجةٍ إلى آل فراي».

- «وإن كان هذا لا يعني أننا سنَحْضِلُ عليهم بالضرورة».

أومأ برأسه موافقًا وعلى ملامحه كآبة وفي كتفيه انحناء جعلت قلبها يختلج من أجله. التَّاج يسحقه سحقًا. يُريد بشدَّة أن يكون ملكًا صالحًا، أن يكون شجاعًا وشريفًا وذكِيًّا، لكن التَّاج أثقل من أن يحتمله صبي. تعلم أن روب يبذل قصارى جهده، لكن الضربات ظَلَّت تتوالى واحدةً تلو الأخرى بلا هوادة. عندما أتوه نبأ معركة (وادي الغسق)، حيث حطَم اللورد راندل تارلي كلاً من روبت جلوفر والسير هلمان تولهارت، توقَّعت أن تتفجَّر غضبته، لكنه حدَّق بدلاً من هذا مصدومًا وقال: «(وادي الغسق) الواقعة على (البحر الضيِّق)؟ ولماذا يذهب إلى (وادي الغسق)؟»، وهزَّ رأسه مذهولًا حائرًا، وأضاف: «فقدتُ ثلث مُشاتي من أجل (وادي الغسق)؟!».

قال جالبارت جلوفر بصوتٍ أثقله اليأس: «الحديديُّون أخذوا قلعتي، والآن أخذ آل لانستر أخي». كان روبت جلوفر قد نجا من المعركة، لكن لم يمض وقت طويل حتى وقع في الأسر على (طريق الملوك).

وعَدَه ابنها قائلاً: «لن يدوم هذا طويلًا. سأعرضُ عليهم مارتن لانستر مقابل استعادته، وسيقبل اللورد تايوين مرغمًا لأجل خاطر أخيه». مارتن ابن السير كيثان، توأم ويلم الذي اغتاله اللورد كارستارك، وهي الجريمة التي تعرف كاتلين أنها لا تزال تُسيطر على أفكار ابنها، حتى إنه ضاعفَ الحراسة ثلاث مرَّات على مارتن، ومع ذلك يظلُّ قلقًا على سلامته.

قال روب وهما يمشيان في الرُّواق: «كان عليّ أن أبادل قاتِل الملك بسانزا

فور أن ناشدتني أن أفعل. إذا عرضت أن أزوجه فارس الزهور فلربما كان آل تايرل معنا الآن بدلاً من چوفري. كان يجب أن أفكر في هذا».

- «كان عقلك مشغولاً بمعاركك، ولك الحق. حتى الملوك لا يفكرون في كل شيء».

تمتَ روب وهو يخرج بها بين الأشجار: «مباركي. لقد انتصرت في كل معركة، وعلى الرغم من ذلك هأنذا أخسر الحرب بشكل ما»، ورفع بصره إلى السماء كأنما سيجد الإجابة مكتوبةً فيها، وأردف: «الحديديون سيطروا على (ويتترفل) و(خندق كايلن)، ومات أبي وبران وريكون، وربما آريا كذلك، والآن لحق بهم أبوك».

لم يمكنها أن تدعه يستسلم لليأس، فهي تعي مذاقه المرير جيّداً جداً، فسارعت تقول: «أبي كان يموت منذ فترة طويلة، ولم يكن بإمكانك أن تُغيّر هذا. لقد ارتكبت عدداً من الأخطاء يا روب، لكن من الملك الذي لم يفعل؟ كان نديفخر بك حقاً».

- «هناك شيء يجب أن تعرفه يا أمي».

انقبض قلب كاتلين في صدرها مفكرةً: إنه شيء يكرهه، شيء يخشى أن يقوله لي. كل ما استطاعت التفكير فيه هو بريان ومهمتها، فسألته: «أهو قاتل الملك؟».

- «لا، إنها سانزا».

فكرت كاتلين في الحال: ماتت. فشلت بريان وماتت چايمي وقتلت سرسي ابنتي الجميلة ثاراً له. مرّت لحظات دون أن تعرف كيف تتكلم، قبل أن تقول أخيراً: «هل... هل رحلت يا روب؟».

لاحت عليه الدهشة وهو يُردّد: «رحلت؟»، ثم أردف: «ماتت؟ أوه، لا يا أمي، ليس هذا. إنهم لم يؤذوها، ليس هكذا على الأقل، لكن... وصلنا طائر ليلة أمس، لكنني لم أستطع أن أخبرك قبل أن نُشيع أباك إلى مثواه الأخير»، ثم التقط يدها قائلاً: «لقد زوجه تيريون لانستر».

تشبّثت أصابعها بأصابعه، وقالت: «العفريت».

- «نعم».

قالت كالمخدّرة: «لقد أقسم أن يُبادلها بأخيه، هي وآريا. قال إننا

سنستردُّهما إذا أعدنا عزيزه چايمي وأقسمَ على هذا أمام البلاط كلَّه، فكيف يتزوَّجها بعد أن قال هذا علي مرأى من الآلهة والبشر؟».

مَسَّ رُوب قبيعة سيفه قائلاً: «إنه أخو قاتل الملك، الحنث بالأيمان يجري في دمائهم. لو استطعتُ لقطعْتُ رأسه القبيح، فعندئذٍ سترمّل سانزا وتحرّر. لا أرى سبيلاً آخر. لقد جعلوها تُرَدُّ التذوّر أمام سبتون وترتدي معطفاً قرمزياً».

تذكّرتُ كاتلين الرّجل الصّغير القبيح الذي قبضت عليه في الخان على تقاطع الطرق وحملته إلى (العُش)، وقالت: «كان عليّ أن أترك لايسا تُلقيه من (باب القمر). صغيرتي المسكينة سانزا... لماذا يفعل بها أيُّ أحد شيئاً كهذا؟».

أجابَ رُوب بلا إبطاء: «من أجل (ويتترفل). سانزا وريثي بعد موت بران وريكون، فإذا حدث لي شيء...».

تشبّثت بيده بقوة قائلة: «لا شيء سيحدث لك، لا شيء. لن أحتمل ذلك. لقد أخذواند وأخويك الغالين، وسانزا تزوّجت، وآريا مفقودة، وأبي مات... إذا حدث شيء لك سأفقد عقلي يا رُوب. أنت كل ما تبقى لدي، أنت كل ما تبقى للشمال».

- «لم أمت بعد يا أُمي».

فجأةً اعتراها خوف طاغ دفعها لأن تقول دون أن تُخطئ نبرة اليأس في صوتها: «ليس من المحتمّ أن تُخاض الحروب حتى آخر قطرة دم. لن تكون أول ملكٍ يركع، ولا حتى أول ستارك».

زَمَّ فمه قائلاً: «لا، هيهات».

- «لا عار في هذا. بالون جرايچوي ركع لروبرت حين فشل تمرّده، وتورين ستارك فضل الرُّكوع لإجون الفاتح على رؤية جيشه يُواجه النيران».

قال: «هل قتل إجون أبا تورين؟»، وسحبَ يده من يدها مضيقاً: «قلتُ هيهات».

إنه يلعب دور الصّبي الآن، لا الملك. «آل لانستر لا يحتاجون إلى الشمال. سيُطالبون بالبيعة وعددٍ من الرّهائن لا أكثر... والعفريت سيحتفظ بسانزا مهما فعلنا، أي أن لديهم رهينة بالفعل. الحديديّون سيكونون عدوّاً ألدّاً، تأكّد

من هذا. إذا كانوا يرجون الهيمنة على الشَّمال، فلن يترك آل جرايچوي سلبًا واحدًا لعائلة ستارك على قيد الحياة لئِنَازِعَهُم على حَقِّهِم في الحُكْم. ثيون قتلَ بران وريكون، والآن كل ما عليهم أن يَقتُلوك... وچاين أيضًا، نعم. هل تحسب أن اللورد بالون سيسمح ببقائها حيَّةً لئِنَجِبَ لك ورثة؟».

قال روب بملامح جامدة: «ألهذا أطلقتِ سراح قاتِلِ الملك؟ لتُقيمي السَّلام مع آل لانستر؟».

- «أطلقتِ سراح چايمي في سبيل سانزا... وآريا أيضًا إذا كانت حيَّةً، وأنت تعلم هذا. لكن أهِي خَطِيئَةٌ إذا كنتُ قد حملتُ شيئًا من الأمل في إقامة السَّلام؟».

- «نعم. آل لانستر قتلوا أبي».

- «أتحسب أنني نسيْتُ هذا؟».

- «لا أدري. هل نسيْتُ؟».

لم تضرب كاتلين أطفالها إذا أغضبوها قَطُّ، لكنها كادت تصفع روب الآن، ولم يمنحها إلاَّ الجهد الجهد الذي بذلته لتتذكَّر كم هو خائف وحيد الآن. قالت له: «أنت الملك في الشَّمال والخيار خيارك. لا أطلبُ أكثر من أن تأخذ ما قلته بعين الاعتبار. المَطرِبون يُؤلِّفون الأغاني الملحميَّة عن الملوك الذين يموتون في المعركة، لكن حياتك تسوى أكثر من أغنيَّة، بالنَّسبة لي على الأقل وقد جاءت مني»، وخفضت رأسها مردفةً: «هل تسمح لي بالانصراف؟».

أجاب: «نعم»، والتفت عنها شاهراً سيفه، وإن لم تدر ماذا ينوي أن يفعل به، فلا أعداء هنا، لا أحد يُقاتله، لا أحد سواهما وسط الأشجار الطويلة والأوراق السَّاقطة. أرادت كاتلين أن تقول له: ثمَّة حروب لا تربحها الشُّيوف، لكنها خشيت أن يصمَّ الملك أذنيه عن كلماتها.

بعد ساعاتٍ كانت تحيك في عُرفتها عندما جاء رولام وسترلينج يجري مستدعيًا إياها إلى العشاء، فقالت لنفسها براحة: جيّد، إذ لم تكن واثقة بأن ابنها سيُريدها هناك بعد مشاحتهم. قالت لرولام بجهامة: «أنت مُرافق مطيع». وكان بران ليُصبح مثلك.

إذا بدا روب فاترًا وإدميور عابسًا، فقد كان لوثار الكسيح بمثابة عوض عنهما إذ جلسوا إلى المائدة، وتصرف كمنموذجٍ للياقة، يستدرُّ الذكريات الدافئة

عن اللورد هوستر، ويُعزِّي كاتلين برفق على فقدان بران وريكون، ويثني على انتصار إدميور في (الطاحونة الحجرية)، ويشكر روب على «العدالة الواثقة السريعة» التي أنزلها بريكارد كارستارك. أمّا أخو لوثار النعل والدر ريفرز فمسألة أخرى، فهو رجل خشن جهيم له ملامح اللورد والدر الشكاكة، ولم يتكلم إلا قليلاً وركّز معظم انتباهه على الطعام والشراب الموضوعين أمامه. عندما قيلت الكلمات الفارغة كلها، استأذنت الملكة وأولاد وسترلينج الآخرون وانصرفوا، ورفعت بقايا الوجبة، ثم تنحّح لوثار فراي وقال برصانة: «قبل أن نشرع في مناقشة الشأن الذي أتينا من أجله، ثمّة مسألة أخرى، وأخشى أنها مسألة صعبة. كنت أمل ألا يقع على عاتقي أن آتيكم بهذه الأنباء، لكن يبدو أن لا مفرّ من هذا. لقد تلقى السيّد والدي رسالةً من حفيديه».

كان حزن كاتلين على أطفالها قد كاد يُنسيها أمر الصبيّين فراي اللذين وافقت على تربيتهما. كفى بحقّ (الأم) كم ضربةً يُمكننا أن نحتمل؟ بشكل ما أدركت أن الكلمات التالية التي ستسمعها ستُعمد نصلًا آخر في قلبها، لكنها جعلت نفسها تسأل: «الحفيدين اللذين في (وينترفل)؟ ربيبي؟».

- «والدر ووالدر، نعم، لكنهما في (معقل الخوف) حاليًا يا سيّديتي. يُحزني أن أخبركم بهذا، لكن معركةً دارت واحترقت (وينترفل)».

مشدوهاً ردّ روب: «احترقت؟!».

- «لوردات الشمال حاولوا استردادها من الحديديين، ولمّا رأى ثيون جرايچوي أن غنيمته ضاعت أضرم النار في القلعة».

قال السير برايندن: «لم نسمع شيئاً عن معركة».

- «ابنا أخويّ صغيران، لكنهما كانا هناك. والدر الكبير كتب الرسالة، لكن ابن عمّه وقّعها أيضًا. كانت معركةً داميةً طبقًا لكلامهما، سقط فيها أمين القلعة. كان اسمه السير رودريك، أليس كذلك؟».

أجابت كاتلين كأنها مغيبة: «السير رودريك كاسل». العجوز العزيز الشجاع المخلص. تكاد تراه أمامها الآن يشدُّ شواربه البيضاء الكثّة. «وماذا عن قومنا؟».

- «أخشى أن الحديديين قتلوا كثيرًا منهم».

عاجزًا عن الكلام من فرط الغضب، ضرب روب الطاولة بقبضته وأشاح بوجهه لئلا يرى ابنا فراي دموعه.

لكن أمّه رأتها وقالت لنفسها: شيئاً فشيئاً تزداد الدُّنيا حلَكَةً كلَّ يوم. ذهبت أفكار كاتلين إلى ابنة السير رودريك الصَّغيرة بث، إلى المايستر لوين الذي لا يكل والسِّبتون كايل البشوش، إلى ميكن في الورشة وفارلن وپالا في الأوجرة، إلى العجوز نان وهودور السَّاذج. قالت وهي تشعُر بقبضةٍ تعترض قلبها اعتصاراً: «أرجوك، ليس الجميع».

قال لوثر الكسيح: «لا، لقد اختبأت النِّساء والأطفال، ومعهم والدر والوالدر. بعد الخراب الذي أحاق بـ(وينترفل) حِمِل النَّاجون إلى (معقل الخوف) بأمر من ابن اللورد بولتون».

بصوتٍ مشدود قال روب: «ابن بولتون؟».

تكلم والدر ريفرز قائلاً: «ابنه التَّغل حسبما فهمت».

قال روب بعبوس: «رامزي سنو؟ أَللورد روس نغل آخر؟ رامزي هذا كان وحشاً قاتلاً، ومات ميتة الجُبَّاء، أو أن هذا ما قيل لي».

- «لا أستطيعُ الإجابة عن هذا، ففي أيِّ حرب هناك الكثير من الارتباك والكثير من الأخبار الخطأ. كلُّ ما يُمكنني أن أقوله إن ابني أخوي يَزْعُمَان أن ابن بولتون التَّغل هذا هو من أنقذ نساء وأطفال (وينترفل). النَّاجون كلهم آمنون في (معقل الخوف) الآن».

قال روب فجأةً: «ثيون. ماذا حدث لثيون جرايچوي؟ هل قُتل؟».

بسَط لوثر الكسيح يديه قائلاً: «لا أملكُ الإجابة عن هذا السُّؤال يا جلالة الملك. والدر ووالدر لم يذكرا شيئاً عن مصيره. ربما يعرف اللورد بولتون إذا بلغته رسالة من ابنه هذا».

قال السير برايندن: «سنسأله بالتأكيد».

- «أرى أنكم جميعاً مضطربون الآن، ويؤسفني أني أتيتكم بهذه الأنباء المحزنة. ربما يجدر بنا أن نُوجِّل حديثنا إلى الغد. من الممكن أن ينتظر شأننا حتى تستجمعوا...».

قاطعهُ روب: «لا. أريدُ تسوية هذه المسألة».

أوماً أخوها إدميور برأسه مؤدِّباً، وقال: «وأنا أيضاً. ألدك ردُّ على عرضنا يا سيدي؟».

أجاب لوثر مبتسماً: «نعم. السيّد والدي أمرني بإبلاغ جلالة الملك

بموافقته على حلف المصاهرة الجديد بين عائلتنا وتجديد ولاءه للملك في الشمال، بشرط أن يعتذر صاحب الجلالة عن الإساءة التي وُجِّهَتْ إلى عائلة فراي بشخصه الملكي، وجهًا لوجه».

الاعتذار ثمن زهيد حقًا، لكن على الرغم من ذلك لم يَرُقْ كاتلين الشرط الرخيص الذي وضعه اللورد والدر.

قال روب بحذر: «إنني مسرور. لم تكن غايتي قط أن أزرع الفُرقة بيننا يا لوثار. لقد حارب آل فراي ببسالةٍ من أجل قضيتي، وأرغبُ في وقوفهم إلى جانبي من جديد».

- «لطف بالغ منك أن تقول هذا يا جلالة الملك. بما أنك قبلت هذا الشرط، فتعليماتي أن أعرض على اللورد تلي يد أختي الليدي روزلين، وهي فتاة في السادسة عشرة. روزلين أصغر بنات السيّد والدي من زوجته السّادسة، الليدي بثاني سليله عائلة روزبي. إنها رقيقة الطباع وموهوبة في الموسيقى». اعتدل إدميور في مقعده قائلاً: «أليس من الأفضل أن ألتقيها أول...».

قاطعته والدر ريفرز بجفاف: «ستلتقيها عندما تُزَفُ إليك، أم أن اللورد تلي يرغب في عدّ أسنانها أولاً؟».

قال إدميور متمالكًا أعصابه: «سأثقُ بكلامك بخصوص أسنانها، لكن سيكون من الأفضل أن ألقى نظرةً على وجهها قبل أن أتزوَّجها». ردّ والدر ريفرز: «لا بُدَّ أن تقبلها الآن يا سيّدي، وإلا فعرض أبي مسحوب».

قال لوثار الكسيح باسطًا يديه: «أخي يتكلّم بغلظة الجنود، لكن ما يقوله صحيح. إن رغبة السيّد والدي أن تتمّ الزّيجة في الحال».

- «في الحال؟»، قالها إدميور متكدّرًا للغاية، حتى إن خاطرًا لا يليق راودَ كاتلين بأن أخواها يُفكّر ربما في فسخ الخطبة بعد أن تضع الحرب أوزارها. سأل السير برايندن بحدّة: «هل نسيّ اللورد والدر أننا في حرب؟».

قال لوثار: «بتاتا، ولهذا يصرُّ على تمام الزّيجة على الفور أيها الفارس. في الحرب يموت الرّجال، حتى إذا كانوا شبابًا أقوياء، فماذا سيحدث لتحالفنا إذا سقط اللورد إدميور قبل أن يتزوَّج روزلين؟ ويجب أن نضع سنّ أبي في الاعتبار أيضًا. لقد تجاوزَ التسعين من العمر، وليس واردًا أنه سيشهد نهاية

هذا الصِّراع، وسيطمئن قلبه النَّبيل إذا رأى غاليته روزلين متزوِّجةً آمنَّةً قبل أن تأخذه الآلهة، فيموت عالمًا أن للفتاة زوجًا قويًّا يُدللها ويحميها».

كلُّنا نريد أن يموت اللورد والدر سعيدًا. كان رضا كاتلين عن هذا الاتِّفاق يقلُّ مع كلِّ لحظة، وقالت: «لقد فقدَ أخي أباه للتَّو، ويحتاج إلى وقت لينعاه». ردَّ لوثرار: «روزلين فتاة بشوش، وقد تكون الشَّيء الذي يحتاج إليه اللورد إدميور تحديدًا ليتجاوز حزنه».

وأضاف النَّغْل والدر ريفرز: «كما أن جدِّي أصبح غير ميَّال إلى الخطبات الطَّويلة، لا أدري لِمَ».

رمقه روب بنظرة باردة، وقال: «أفهم ما تعنيه يا ريفرز. أرجو أن تسمحنا لنا بالتَّشاور».

قام لوثرار الكسيح قائلاً: «أمر جلالتك»، وساعده أخوه النَّغْل على الخروج عارجًا من العُرفة.

ساخطًا قال إدميور: «كأنهم يقولون إن وعودي لا قيمة لها. لماذا أترك ابن عرس العجوز يختار عروسي؟ اللورد والدر لديه فتيات أخريات غير روزلين هذه، وحفيدات كذلك. المفترض أن أنال الخيار الذي نلتته أنت. إنني مولاه، وحرِّيُّ به أن يطير فرحًا لقبولي الزَّواج بأيِّ منهن».

قالت كاتلين: «إنه رجل متعال، ونحن جرحنا كبريائه». - «فليأخذ (الآخرون) كبريائه! لن أسمح بأن أهان في قلعتي. الإجابة لا».

حدجَه روب بنظرة متعبَة قائلاً: «لن أمرك، ليس في شيء كهذا، لكن إذا رفضت فسيعدها اللورد والدر إهانةً أخرى، وكل أمل في تصحيح هذه المسألة سينتهي».

ردَّ إدميور بإصرار: «لست تعلم هذا يقينًا. فراي يُريدني لإحدى بناته منذ يوم ميلادي، ولن يتركُ فرصةً كهذه تضيع من يديه. حين يذهب إليه لوثرار بإجابتنا سيدور ويرجع قابلاً للخطبة... لكن بابنة من اختياري».

قال برايندن السَّمكة السَّوداء: «ربما مع الوقت، لكن هل نستطيع الانتظار فيما يركب لوثرار ذهابًا وإيابًا بالعروض والعروض المضادَّة؟».

كوَّر روب قبضتيه قائلاً: «يجب أن أعود إلى الشَّمال. أخواي ماتا

و(ويتترفل) احترقت وقومي قُتلوا... والآلهة وحدها تعلم ما يسعى إليه نغل بولتون هذا، وإن كان ثيون حيًّا طليقًا. لا يُمكنني الجلوس هنا منتظرًا زيجة قد تتمُّ أو لا تتمُّ».

قالت كاتلين وإن لم يكن برضا: «يجب أن تتمَّ. لستُ أرغبُ في تلقِّي الإهانات من اللورد والدر أكثر منك يا أخي، لكني لا أرى خيارًا. دون هذه الزَّيجة تضيع قضية روب تمامًا. لا بُدَّ أن نقبل يا إدميور».

- «لا بُدَّ أن نقبل؟ نحن؟»، ردَّد بعناد. «لستُ أراكِ تعرضين أن تكوني الليدي فراي الثَّاسعة يا كات».

- «الليدي فراي الثَّامنة لا تزال حيَّة تُرزق على حدِّ علمي». لحسن الحظ. معرفتها باللورد والدر تقول إن الأمور كانت لتصل إلى ذلك الحدِّ حقًّا.

قال السَّمكة السَّوداء: «أنا آخر رجل في (الممالك السَّبع) يقول لأحدٍ من يتزوَّج يا ابن أخي، لكن تذكَّر أنك قُلت شيئًا عن التَّعويض عن معركة المخاضات».

قال إدميور: «كنتُ أفكِّرُ في نوع آخر من التَّعويض، كمنازلة قاتل الملك، أو قضاء سبع سنوات كفَّارة كأخٍ شحاذ، أو السَّباحة في (بحر الغروب) بساقين مقيدتين»، ولمَّا رأى أن لا أحد منهم يبتسم رفع يديه قائلاً: «فليأخذكم (الآخرون) جميعًا! ليكن، سأتزوَّج الفتاة... كتعويض».

دافوس

رفع اللورد أَلستر رأسه بحركة حادة قائلاً: «أصوات. هل تسمع يا دافوس؟ أحدهم قادم إلينا».

قال دافوس: «إنه سَجَانُ السُّلُق. موعد العشاء حان، أو يدنو». البارحة جلب لهما الرَّجُلُ نِصْفَ فطيرة لحم بقرِّي ولحم مقدّد بالإضافة إلى إبريق من البتع. مجرد التّفكير في الطعام جعل معدته تُقرِّقِر.

- «لا، هناك أكثر من واحد».

إنه مُحِق. سمع دافوس صوتين على الأقل، وخطوات أقدام تتعالى، فنهض واقترب من القضبان.

نفض اللورد أَلستر القش عن ثيابه، وقال: «الملك أرسل يستدعيني، أو الملكة، نعم. سيلييس لن تتركني أتعفن هنا وأنا من دمها».

ظهر سَجَانُ السُّلُق خارج الرُّنْزَانَة حاملاً حلقة المفاتيح، وفي أعقابه السير أكسل فلورنت وأربعة من الحُرَّاس، وانتظروا تحت المشعل بينما بحث السَّجَانُ عن المفتاح الصَّحيح.

قال اللورد أَلستر: «أكسل، الشُّكر للآلهة. مَنْ يطلُبني؟ الملك أم الملكة؟».

أجاب السير أكسل: «لا أحد طلبك أيها الخائن».

نكص اللورد أَلستر كأنه لطم على وجهه، وقال: «لا، أقسم لك أنني لم أرتكب خيانة. لماذا ترفض أن تسمعي؟ إذا سمح لي جلالته فقط بأن أشرح...».

وضع السَّجَانُ المفتاح الحديدي في القفل ودوره وفتح الباب، فصرخت المفصلات الصَّدئة اعتراضاً بينما قال لدافوس: «أنت، تعال».

نظر دافوس إلى السير أكسل قائلاً: «إلى أين؟ أصدقني القول أيها الفارس،

هل تنوون إحراقي؟».

- «إنك مطلوب. هل تستطيع المشي؟».

أجاب دافوس: «أستطيع المشي»، وخرج من الزنزانة، وأطلق اللورد أكستر صيحة فزع إذ عاد السجان يصفق الباب.

قال السير أكسل للرجل أمراً: «خذ المشعل واترك الخائن في الظلام».

قال أخوه: «لا، أكسل، أرجوك، لا تحرمني الضوء... بحق الآلهة...».

قاطعه السير أكسل: «الآلهة؟ ليس هناك إلا راهلور والآخر»، وأشار بحدّة

فرفع أحد الحرس المشعل من الحامل، وقاد الطريق إلى السّلام.

سأل دافوس: «هل تأخذونني إلى مليساندرا؟».

جاوبه السير أكسل: «ستكون موجودة». إنها لا تتعد عن الملك أبداً، لكن

صاحب الجلالة هو من طلبك بنفسه».

رفع دافوس يده إلى صدره، حيث اعتاد أن يُعلّق حَظّه في جراب جلدي

يتدلّى من شريط. لكنه راح، ومعه أطراف أربعة أصابع. غير أن يديه ما زالتا

طويلتين بما يكفي لأن يُطوّق بهما عُنق امرأة، خصوصاً إذا كان نحيلاً كعُنقها.

صعدوا السّلام الملتفة في طابور فردي. كانت الجدران من الحجر

الخشن الدّاكن بارد الملمس، وسبقهم ضوء المشاعل بينما زحفت ظلالهم

إلى جوارهم على الجدران. عند المنعطف الثالث مرّوا من بوابة حديد تفتح

على ظلام دامس، ومن أخرى عند المنعطف الخامس، وخمن دافوس أنهم

يقتربون من السّطح الآن إن لم يكونوا فوقه بالفعل. الباب التّالي الذي توقّفوا

عنده كان من الخشب، لكنهم ظلّوا يصعدون، والآن لاحت في الجدران

فتحات السّهام، وإن لم يتسلّل نور الشّمس عبر الحجر السّميك، فأدرك أن

الوقت ليل في الخارج.

كانت ساقاه تُؤلمانه حين دفع السير أكسل باباً ثقيلاً وأشار له بالمرور،

وفي الخارج امتدّ جسر حجري عال متقوّساً فوق الفراغ إلى البرج الأوسط

الضّخم المسمّى (الطبلة الحجريّة). هبّت ريح بحريّة مضطربة من خلال

القناطر التي تدعم السّقف، وشمّ دافوس المياه المالحة وهم يعبرون، فالتقط

نفساً عميقاً مالئاً رثتيه بالهواء البارد النّظيف، وصلى: امنحني القوّة أيتها

الريّاح والمياه. في السّاحة في الأسفل كانت نار ليليّة هائلة مشتعلة لتطرّد

أحوال الظلام، وحولها اجتمع رجال الملكة يبتهلون لرّبّهم الأحمر الجديد.

توقّف السير أكسل فجأةً عندما بلغوا منتصفَ الجسر ولوّح بيده بحركةٍ جافّةٍ، فابتعدَ رجاله حتى خرجوا من مجال السَّمع، ثم قال لداؤوس: «لو كان الأمر بيدي لأحرقتك مع أخي ألستر، فكلّاكما خائن».

- «قل ما تقول، لكن لا يُمكن أن أخون الملك ستانيس أبداً».

- «بل يُمكنك أن تخونه، وستخونه. إنني أرى الخيانة مرسومةً على وجهك، ورأيتها في اللهب أيضاً. لقد أنعمَ راهلور عليّ بهذه المَلَكَة، ومثل الليدي مليساندرا يُريني المستقبل في النَّار. ستانيس باراثيون سيجلس على العرش الحديدي، لقد رأيتُه، والآن أعرفُ ما يجب أن يكون. يجب أن يجعلني جلالته يده بدلاً من أخي الخائن، وأنت ستقول له هذا».

فكر داؤوس: حقاً؟ لكنه لا ذُ بالصَّمَت.

واصل السير أكسل: «الملكة حثّته على تنصبي، وحتى صديقك اللايسيني القديم، ذلك الفُرصان سان، يقول الشّيء نفسه. لقد وضعنا خطةً معاً، لكن جلالته يرفض التّصرُّف. الهزيمة تلتهمه من الدّاخل كدودةٍ سوداءٍ تنخر روحه، ومنوط بنا نحن من نُحِثُه، أن نُريه ما عليه أن يفعله. إذا كنت وفياً لجلالته كما تدّعي أيها المهرّب، فضمّ صوتك إلى أصواتنا. قل له إنني اليد الوحيد الذي يحتاج إليه. قل له هذا، وعندما نُبحر سأتأكّد من حصولك على سفينةٍ جديدةٍ».

سفينة. أمعن داؤوس النّظر إلى وجه الرّجل. كالمملكة، للسير أكسل أذنا عائلة فلورنت الكبيرتان، ومنهما ينبت الشّعْر الخشن كما ينبت من منخريه، والمزيد منه ينمو في جزلٍ ورُقَع تحت ذقنه المشقوق، وله أنف عريض وجبين بارز وعينان متقاربتان نظراتهما مملأى بالعداوة. يُفضّل أن يُلقيني في محرقة على أن يُعطيني سفينةً كما قال، لكن إذا أسديته هذا الصّنيع...

قال السير أكسل: «إذا كنت تُفكر في خيانتني، فتذكّر أنني أمين القلعة في (دراجونستون) منذ فترةٍ طويلة، والحامية تحت إمرتي. ربما لا أستطيع أن أحرقك دون موافقة الملك، لكن من يُمكنه الجزم بأنك لن تتعرّض لحادثٍ ما وتسقط؟»، ووضع يده اللّحيمية على مؤخّرة عنق داؤوس ودفعه بقوةٍ إلى سور الجسر الذي يرتفع حتى الخاصرة، ثم بدفعةٍ أقوى أجبره على الميل برأسه فوق السّاحة مردفاً: «هل تسمعني؟».

قال داؤوس: «أسمعك». وتنعّني أنا بالخيانة؟

أطلق السير أكسل سراحه، وابتسم قائلاً: «عظيم. جلالته ينتظرك. الأفضل ألا نتأخر عليه».

على قمة (الطبلة الحجرية)، وفي القاعة المستديرة الفسيحة المسماة (قاعة المائدة المرسومة)، وجدا ستانيس باراثيون واقفاً وراء قطعة الأثاث التي استمدت منها القاعة اسمها، اللوح الخشبي الهائل المنحوت والمرسوم على شكل خارطة (وستروس) كما كانت في أيام إجون الفاتح، وإلى جوار الملك مستوقد حديدي يتوهج جمره بلونٍ برتقالي ضارب إلى الحمرة، بينما تطلُّ أربع نوافذ طويلة ضيقة على الشمال والجنوب والشرق والغرب، وفي الخارج الليل والسَّمَاء المرصعة بالنجوم. سمع دافوس الرِّيح تهبُّ، وبصوتٍ أكثر خفوتاً تلاطم أمواج البحر.

قال السير أكسل: «بعد إذن جلالتك، لقد أتيت بفارس البصل».

أجاب ستانيس: «أرى هذا». كان يرتدي سترَةً قصيرةً ضيقةً من الصُّوف الرمادي، وحرملَةً ذات لونٍ أحمرٍ قانٍ، ويتمنطق بحزام تقليدي من الجلد يتدلَّى منه سيفه وخنجره، ويحيط بجبينه تاج من الذهب الأحمر المشكّل كالسنة الذهب. صدمَ منظره دافوس، إذ بدا أكبر عشرة أعوام دفعةً واحدةً من الرّجل الذي تركه في (ستورمز إند) حين أبحر إلى (النهر الأسود) والمعركة التي كسرتهم، وانتشرت في لحية الملك المشدّبة الشعيرات الشائبة، وقد فقد نحو ثلاثين رطلاً من وزنه. لم يكن ستانيس رجلاً ممتلئاً قط، لكن الآن تتحرّك العظام تحت جلده كحِراب تُقاتل للتحرُّر، وحتى تاجه يبدو كبيراً على رأسه، أمّا عيناه فكأنهما حُفرتان زرقاوان غائصتان في محجرين عميقين، ويلوح شكل جمجمته تحت وجهه.

وعلى الرغم من ذلك داعبت ابتسامة خفيفة شفّيته لما رأى دافوس، وقال: «أعاد البحر فارس السمك والبصل إليّ إذن».

ركع دافوس على ركبته قائلاً: «نعم يا جلالة الملك». ألا يعرف أنه ألقاني في زنزانتة؟

قال ستانيس: «انهض يا سير دافوس. لقد افتقدتك أيها الفارس. إنني في حاجةٍ إلى مشورةٍ سديدة، وأنت لم تُعطني أقلّ من هذا قط. أخبرني بصدقٍ إذن، ما عقوبة الخيانة؟».

ظَلَّت الكلمة عالقةً في الهواء، وفكَّر دافوس: كلمة مخيفة. أَيْطَلِب منه أن يُدين زميله في الرِّزْزَانَة أم نفسه؟ الملوك يعرفون عقوبة الخيانة أفضل من أيِّ أحد. أخيراً استطاع أن يقول بوهن: «الخيانة؟».

- «ماذا تُسمِّي إنكار الملك والسَّعي إلى سرقة عرشه الشَّرعي؟ سأسألك ثانية، ما عقوبة الخيانة وفق القانون؟».

لم يملك دافوس خياراً إلاَّ الإجابة، فقال: «الموت، العقوبة هي الموت يا جلالة الملك».

- «ودائمًا كانت هكذا. أنا لستُ... أنا لستُ رجلاً متوحِّشًا يا سير دافوس. إنك تعرفني منذ زمن طويل. هذا ليس قضائي أنا، بل كان هكذا دائمًا منذ عهد إجون وقبله أيضًا. ديمون بلاكفاير، الإخوة توين، الملك العُقَاب، المايستر الأكبر هارث... دائمًا يدفع الخونة حياتهم ثمناً للخيانة... حتى رينيرا تارجارين، التي كانت ابنةً لملكٍ وأماً لملكين، ومع ذلك ماتت ميتة الخونة لمحاولتها اغتصاب تاج أخيها. إنه القانون، القانون يا دافوس وليس وحشيةً».

- «نعم يا جلالة الملك». إنه لا يتكلَّم عني. أحسَّ دافوس بشفقةٍ لحظيَّة

على رفيق زنزانتة القابع في الظلام، وعلى الرغم من إدراكه أن عليه أن يلزم الصَّمْت، فقد دفعه إرهاقه والأسى الذي يحزُّ في نفسه إلى أن يقول: «مولاي، اللورد فلورنت لم يهدف إلى خيانتك».

- «أُبطِّق عليها المهرَّبون اسمًا آخر؟ لقد جعلته يدي، وكان لبيع حقوقه مقابل وعاء من عصيدة البازلاء. بل إنه أراد أن يُعطيهم شيرين، ابنتي الوحيدة أراد أن يُزوِّجها نغلاً مولودًا من زنى المحارم»، وأفعَم الغضب نبرة الملك وهو يتابع: «أخي كان موهوبًا في إلهام النَّاس الإخلاص، حتى الأعداء منهم. في (قلعة الصَّيف) انتصرَ في ثلاث معارك في يوم واحد، وعادَ باللوردين جرانديسون وكافرن إلى (ستورمز إند) بعد أن أسرَّهما، وعلَّق رايتهما في قاعته كتذكار. ظباء كافرن البيضاء كانت ملطَّخةً بالدم، وأسد جرانديسون النَّائم كان ممزَّقًا إلى نصفين تقريبًا، لكنهما اعتادا الجلوس تحت هاتين الرَّايَتين ليلاً ليشربا ويأكلا مع روبرت، بل اصطحبهما إلى الصَّيد كذلك. في مرَّةٍ قلتُ له بعد أن رأيتهم يُلقون الفؤوس في السَّاحة: هذان الرَّجُلان أرادا تسليمك إلى إيرس ليُحرِّقك، ولا يجدرُ بك أن تضع في أيديهم فؤوسًا، لكن

روبرت اكتفى بالضحك. كنتُ لألقي جرانديسون وكافرن في زنزانه، لكنه حوّلهما إلى صديقين. مات اللورد كافرن في (قلعة آشفورد) على يد راندل تارلي وهو يُقاتل من أجل روبرت، وجرح اللورد جرانديسون في معركة (الثالوث) ومات متأثراً بالجرح بعد عام. أخي كان يجعل الناس يُحبُّونه، بينما يبدو أنني لا ألهمهم إلا بالخيانة، حتى من هم من لحمي ودمي، أخي وجدِّي وأبناء خالي وعم زوجتي...».

قال السير آكسل: «أتوسّل إليك يا جلالة الملك أن تُعطيني الفرصة لأثبت أن الضعف ليس سمة آل فلورنت كلهم».

قال الملك ستانيس لدافوس: «السير آكسل يُريدني أن أستأنف القتال. آل لانستر يحسبون أنني قُهرتُ وانتهى أمري، واللوردات الذين أقسموا لي هجروني كلهم تقريباً. حتى اللورد إستمونت جدِّي لأمي ركَع لـجوفري، والقلائل المخلصون الذين تبوّأوا لي بدأت حماسهم تتخلى عنهم، ويبدّدون أيامهم في الشرب والقمار ولعق جراحهم كالكلاب المضروبة».

قال السير آكسل: «ستشعل المعركة قلوبهم من جديد. الهزيمة مرض علاجه النصر».

لوى الملك فمه قائلاً: «النصر. هناك انتصارات وانتصارات أيها الفارس. لكن أخبر السير دافوس بخطتك، فأريد أن أسمع رأيه في ما تقترحه».

التفت السير آكسل إلى دافوس وفي عينيه نظرة كالتّي لا بُدَّ أنها كلّلت ملامح اللورد بلجريف يوم أمره الملك بيلور المبارك بأن يغسل قدمي الشّحاذ المتقرّحتين، لكنه أطاع على الرغم من هذا.

الخطة التي وضعها السير آكسل بالاشتراك مع سالادور سان بسيطة. على بُعد ساعات قليلة من (دراجونستون) تقع (جزيرة المخالب)، مقرُّ عائلة سلتيجار العتيق الذي يطوّقه البحر. كان اللورد آردريان سلتيجار قد قاتل تحت راية القلب النَّاري في معركة (النَّهر الأسود)، لكن بمجرد وقوعه في الأسر لم يُصيِّع الرّجل وقتاً قبل أن يُعلن ولاءه لـجوفري، وحتى الآن ما زال في (كينجز لاندنج)، وهو ما علّق عليه السير آكسل قائلاً: «لا ريب أنه مرعوب من غضبة صاحب الجلالة، ولا يجسُر على الدُّنو من (دراجونستون)، وأعدُّ هذا حكمةً، فقد خان الرّجل مليكه الشرعي».

عرض السير أكسل الاستعانة بأسطول سالادور سان والرّجال الذين نجوا من محرقة (النّهر الأسود) - فلا يزال مع ستانيس نحو ألف وخمسمئة رجل على (دراجونستون)، أكثر من نصفهم من رجال فلورنت - لإنزال العقاب باللورد سلتيجار على مروقة. حامية (جزيرة المخالب) ضعيفة، ويُشاع أن قلعها متخمة بالسّجاد الماييري والرّجاج الثولانتيني، والأطباق الذهب والفضّة والكؤوس المحلّاة بالجواهر، والصّقور البديعة، وفأس من الفولاذ الثاليري، وبوق يستدعي وحوشاً من الأعماق، وصناديق من الياقوت، وخمور أكثر من أن يستطيع رجل أن يشربها في مئة عام، فلئن ادّعى سلتيجار البُخل أمام العالم، إلّا أنه لم يُقتَر على نفسه قطّ إذا تعلق الأمر بمُتَع الحياة. هكذا أنهى السير أكسل الشّرح قائلاً: «فلنُحرق قلعته ونقتل قومه، نترك (جزيرة المخالب) قفراً من الرّماد والعظام لا يصلح إلّا لغربان الجيف، لكي ترى البلاد كلّها مصير من يتحالفون مع آل لانستر».

أنصت ستانيس لكلام السير أكسل بصمت وهو يُحرّك فكّيه المكبوسين من جانب إلى جانب، ولما انتهى قال: «أعتقدُ أن شيئاً كهذا ممكن. چوفري بلا قوّة في (البحر الضيّق) إلى أن يُبحر اللورد ردواين من (الكرمة)، وقد تكفي الغنائم لإبقاء القُرصان سالادور سان مخلصاً فترةً. (جزيرة المخالب) عديمة القيمة في حدّ ذاتها، لكن سقوطها سيلفت نظر اللورد تايوين إلى أن قضيتي لم تُمّت»، ثم التفت الملك إلى دافوس قائلاً: «أصدّقني القول أيها الفارس، ما رأيك في ما يعرضه السير أكسل؟».

أصدّقني القول أيها الفارس. فكّر دافوس في الزّنازة المعتمة التي شاركه اللورد ألكستر إياها، وتذكّر سجّان الشّلق وسجّان الثريد، واسترجع وعيد السير أكسل على الجسر فوق السّاحة. سفينة أم دفعة؟ ماذا اختار؟ لكن من يسأله هو ستانيس، وهكذا قال ببطء: «جلالة الملك، رأيي أنها حماقة... نعم، وجبن».

صاح السير أكسل مغتاضاً: «جبن؟! لا أحد ينعنني بالجبن أمام مليكي!».

قال ستانيس بلهجة أمة: «صمتاً. تكلم يا سير دافوس، أريد أن أسمع أسبابك».

واجه دافوس السير أكسل قائلاً: «تقول إن علينا أن نري البلاد أننا لم ننته، أن نُوجّه ضربة، نشنّ الحرب، لا بأس... لكن على أيّ عدو؟ إنك لن تجد أحداً من آل لانستر على (جزيرة المخالب)».

- «سنجد خونة! وإن كنتُ أستطيعُ أن أجد بعضهم في مكانٍ أقرب، حتى هنا في هذه القاعة».

تجاهلَ دافوس التعليل الهازئ، وقال: «لا شكَّ لديَّ في أن اللورد سلتيجار ركَعَ لـچوفري. إنه رجل هَرم على عتبة القبر، يرغب فقط في أن يُنهي أيامه في قلعته وهو يشرب نبيذه الفاخر من كؤوسه المحلّاة بالجواهر»، وعادَ يلتفت إلى ستانيس مردفًا: «لكنه جاءَ حين استدعيتَه يا مولاي، جاءَ بسُفنه وسيوفه، ووقفَ إلى جانبك عند (ستورمز إند) لَمَّا هاجمنا اللورد رنلي، وأبحرت سُفنه في (النَّهر الأسود)، وقاتلَ رجاله في سبيلك، وقتلوا في سبيلك، واحترقوا في سبيلك. (جزيرة المخالب) ضعيفة الدِّفاعات، نعم، تُدافع عنها النِّساء والأطفال والمسنُّون، فلمَ؟ لأن الأزواج والأبناء والآباء ماتوا في (النَّهر الأسود)، ماتوا على مجاديفهم أو وفي أيديهم السُّيوف وهُم يُقاتلون تحت راياتنا، لكن السير أكسل يقترح أن نُداهم البيوت التي تركوها، ونغتصب نساءهم ونذبح أطفالهم. هؤلاء العائمة ليسوا خونة...».

بإصرارٍ قال السير أكسل: «بل خونة. لم يسقط جميع رجال سلتيجار في المعركة، وأسِرَ المئات منهم مع سيدهم وركعوا عندما ركَعَ».

- «عندما ركَعَ»، ردَّد دافوس. «إنهم رجاله الذين أقسموا له، فهل كان لديهم خيار؟».

- «لكلِّ رجل خياره. كان يُمكنهم أن يرفضوا الرُّكوع. بعضهم رفضَ وماتَ، لكنهم ماتوا رجالًا صالحين مخلصين».

- «بعض الرُّجال أقوى من غيرهم». كانت إجابةً واهيةً ودافوس يعلم هذا. ستانيس رجل ذو إرادةٍ من حديد، لا يفهم ولا يُسامح الضَّعف في الآخرين. إنني أخسرُ.

أعلنَ ستانيس بلهجةٍ لا تسمح بالجدل: «واجب كلُّ رجل أن يبقى مخلصًا لمملكه الشرعي، حتى إذا ثبتت خيانة اللورد الذي يخدمه».

تملَّكت حماقة يائسة دافوس، تهوُّر أدنى إلى الجنون جعله يندفع قائلاً: «كما ظللت مخلصًا للملك إيرس حين رفعَ أخوك راياته ضده؟».

تبِعَ قولُه صمت مصدوم رانَ على القاعة إلى أن صاح السير أكسل منتزعًا خنجره من غمده: «خيانة! إنه يُهينك في وجهك يا جلالة الملك!».

سمع دافوس صرير أسنان ستانيس، ورأى عرقاً أزرق متفحاً يتأ في
جبهته.

ثم التقت أعينهما، وقال الملك: «ضع سكينك يا سير أكسل واتركنا».
- «إذا سمحت جلالتك...».

- «أسمع بأن تغادر. اخرج من هنا وأرسل لي مليساندر».

قال السير أكسل: «كما تأمر»، وأغمد خنجره وانحنى وأسرع إلى الباب
بخطوات تدق الأرض بغضب.

منذراً قال ستانيس لدافوس عندما صاروا وحدهما: «لطالما تجرأت على
تساهلي معك أيها المهرّب. يُمكنني أن أقصر لسانك بالسهولة نفسها التي
قصرت بها أصابعك».

- «أنا رجلك يا جلالة الملك، أي أن لساني لسانك، تفعل به ما تشاء».

قال الملك بنبرة أهدأ: «بالضبط، وأريده أن يقول الحقيقة، وإن كانت
الحقيقة مرّة المذاق أحياناً. إيرس؟ آه لو تعلم كم كان ذلك الخيار صعباً.
دمي أم مولاي، أخي أم ملكي»، وعقد حاجبيه متباعدًا: «هل رأيت العرش
الحديدي؟ البروزات في ظهره وشرائط الفولاذ الملتوي ورؤوس السيف
والسكاكين المتشابكة الذائبة معاً؟ إنه ليس مقعداً وثيراً أيها الفارس، ومراراً
جرح إيرس نفسه عليه، حتى إن الناس اعتادوا تلقيه بالملك مجلبة، وميجور
المتوحش قتل على ذلك الكرسي، أو قتله ذلك الكرسي كما يزعم البعض.
إنه ليس مقعداً تجلس عليه مستريحاً، وكثيراً ما أسائل نفسي لماذا رغبت فيه
أخوأي لهذه الدرجة».

سأله دافوس: «لماذا ترغب فيه أنت إذن؟».

- «إنها ليست مسألة رغبة. العرش حقّي باعتباري وريث روبرت. إنه
القانون. وبعدي يجب أن يذهب إلى ابنتي، ما لم تُنجب لي سيليس ابناً
أخيراً»، ومرّر ثلاث أصابع بخفة على المائدة، فوق طبقات الورنيش الجامد
الأملس الذي أكسبته السنون لوناً داكناً، وواصل: «أنا الملك، الرغبة لا تمت
بصلة للأمر. إن عليّ واجباً نحو ابنتي ونحو البلاد، بل ونحو روبرت أيضاً.
أعرف إنه لم يُجنّبني إلا قليلاً، لكنه كان أخي، وابنة لانستر ركبت له قرنين
والبسته ثياب المهرّجين، وربما قتلته كذلك كما قتلت جون آر نود ستارك،

ولا بُدَّ من الرَّدِّ على هذه الجرائم بالعدالة، بدايةً بسرسي ومسوخها، لكنها مجرد بداية، لأنني أنوي تطهير البلاط تمامًا كما كان على روبرت أن يفعل بعد (الثالوث). ذات مرّة قال لي السير باريستان إن العفن في حُكم الملك إيرس بدأ بفارس. ما كان يجب أن يُعفى عن الخصيِّ قَط، لا هو ولا قاتِل الملك. كان حرّياً وروبرت على الأقل أن ينزع عن چايمي معطفه الأبيض ويُرسله إلى (الجدار) كما ألحَّ اللورد ستارك، لكنه أصغى لچون آرَن بدلاً من هذا. وقتها كنتُ لا أزالُ في (ستورمز إند) تحت الحصار ولا أستطيعُ إسداء المشورة»، والتفت فجأةً يرمُق دافوس بنظرةٍ فاحصةٍ قاسية، وقال: «أريدُ الحقيقة الآن، لماذا أردت أن تقتل الليدي مليساندرا؟».

إنه يعلم إذن. لم يستطع دافوس أن يكذب عليه، فأجاب: «أربعة من أبنائي احترقوا في (النهر الأسود). لقد سلّمتمهم إلى النَّار».

- «إنك تظلمها. تلك النيران لم تكن من صنعها. العن العفريت، العن الهايرومانسرات، العن فلورنت الأحمق الذي أبحرَ بأسطولي بين فكّي فخ، أو العنّي لكبريائي العنيدة التي جعلتني أصرفها وأنا في أمسِّ الحاجة إليها، لكن ليس مليساندرا. إنها لا تزال خادمتي الوفيّة».

- «المايستر كرسن كان خادمك الوفي، لكنها قتلته كما قتلت السير كورتناي پنروز وأحاك رنلي».

قال الملك بتبرُّم: «الآن تتكلّم كالحمقى. لقد رأيت نهاية رنلي في اللهب، نعم، لكنها - مثلي بالضبط - لم تلعب دورًا فيها. الرّاهبة كانت معي، وسيقول لك ابنك دُفان الشّيء نفسه. سلّه إذا كنت تُشكِّك في كلامي. كانت مليساندرا لتُحافظ على حياة رنلي لو استطاعت، وهي التي حثّني على لقائه ومنحه فرصةً أخيرةً للتراجع عن خيانتته، ومليساندرا هي التي أخبرتني أن أستدعيك حين أراد السير أكسل أن يُضخّي بك لراهلور»، ورسم على شفثيه ابتسامةً رقيقةً متسائلاً: «هل يُدهشك هذا؟».

- «نعم. إنها تعرف أنني لستُ صديقاً لها أو لوالها».

قال ستانيس: «لكنك صديق لي، وهي تعرف هذا أيضًا»، وأشار لدافوس بالاقتراب مُردفًا: «الصّبي مريض. المايستر پايلوس يُعلّق له العلق».

ذهبت أفكاره من فوره إلى دثان مُرافق الملك، فسأل: «الصَّبِي؟ ابني يا مولاي؟».

- «دثان؟ إنه صَبِيٌّ طَيِّبٌ، فيه الكثير منك. نغل روبرت هو المريض، الصَّبِي الذي أخذناه من (ستورمز إند)».

إدريك ستورم. «تكلّمتُ معه في (حديقة إجون)».

قال ستانيس: «كما أرادت، كما رأيت»، وتنهَّد مضيئاً: «هل سحرَكَ الصَّبِي؟ إنه يتمتّع بهذه الموهبة. لقد ورثها من أبيه كما ورثَ دمه. يعلم أنه ابن ملك، لكنه يختار أن ينسى عدم شرعيّته، ويعبُد روبرت مثل رنلي في صغره. أخي الملوكي لعبَ دور الأب المحب كلما زارَ (ستورمز إند)، وأغدق عليه بالهدايا أيضاً... سيوف وخيول قرمة ومعاطف مبطنّة بالفراء، والخصي كان مسؤولاً عنها جميعاً. اعتاد الصَّبِي أن يكتُب لـ (القلعة الحمراء) رسائل الشكر الجزيل، فيضحك روبرت ويسأل فارس عمّا أرسله هذا العام. ورنلي لم يكن أفضل منه. ترك تربية الصَّبِي لأمناء القلعة والمايسترات، وسقط كل منهم ضحيةً لسحره. بنروز أثر الموت على التَّخْلِلي عنه»، وصرَّ الملك بأسنانه متابعاً: «ما زال الأمر يُغضبيني. كيف حسبَ أنني قد أسس الصَّبِي بسوء؟ لقد اخترتُ روبرت، أليس كذلك؟ عندما جاء ذلك اليوم الصَّعب اخترتُ الدَّم فوق الشَّرَف».

إنه لا ينطق اسم الصَّبِي. أصابَ الخاطر دافوس بتوتُّرٍ شديد، فقال: «أتمنّى أن يتعافى إدريك الصَّغير قريباً».

لوح الملك بيده نابذاً قلق دافوس، وقال: «إنه برد لا أكثر، يُعاني من السُّعال والرَّجفة والحُمى، لكن المايستر يابلوس سيُعالِجه قريباً. في حدِّ ذاته لا يعني الصَّبِي شيئاً، لكن في عروقه تجري دماء أخي. إنها تقول إن في دماء الملوك قوَّة».

لم يجد دافوس حاجةً إلى أن يسأل مَنْ يعني.

مَسَّ ستانيس المائدة المرسومة قائلاً: «انظر إليها يا فارس البصل. مملكتي، حقِّي، بلادي (وستروس)»، ومرَّر يده فوقها مواصلاً: «هذا الكلام عن سبع ممالك حماقة. إجون رأى هذا قبل ثلاثمئة عام حين وقفَ حيث نقف الآن. لقد صنعوا هذه المائدة بأمره، رسموا الأنهار والخلجان والتلال

والجبال والقلاع والمُدن وبلدات الأسواق والبحيرات والمستنقعات والغابات... لكنهم لم يرسموا حدودًا. إنها واحدة، مملكة واحدة يَحْكُمها ملك واحد بمفرده».

علّق دافوس: «ملك واحد. ملك واحد يعني السّلام».

- «سأقيّم العدل في (وستروس)، الشّيء الذي لا يفهمه السير أكسل، تمامًا كالحرب. لن تُكسبني (جزيرة المخالب) شيئًا... وهي فكرة شرّيرة حقًا كما قلت. على سلتيجار أن يدفع ثمن الخيانة بنفسه وشخصه، وسيفعل حين أحكم مملكتي. كل امرئ سيحصد ما زرعه، من أعلى اللوردات إلى أدنى جردان الحواري، وأؤكد لك أن بعضهم سيفقد أكثر من أطراف أصابعه. لقد جعلوا مملكتي تنزف، ولن أنسى هذا»، والتفت الملك ستانيس عن المائدة قائلاً: «على رُكبتك يا فارس البصل».

- «جلالة الملك؟».

- «مقابل أسماكك وبصلك جعلتك فارسًا، ومن أجل هذا أفكّر في أن أجعلك لوردًا».

هذه؟ قال دافوس حائرًا: «إنني قانع بأن أكون فارسك يا جلالة الملك، فلا أدري كيف أكون كاللوردات إطلاقًا».

- «عظيم. أن تكون كاللوردات معناه أن تكون مدعيًا، وقد تعلّمتُ هذا الدّرس بالطريقة الصّعبة. والآن اركع، ملكك يأمر».

ركع دافوس، وشهر ستانيس سيفه الطويل الذي سمّته ملبساندرا (جالب الضياء)، سيف الأبطال الأحمر المسحوب من النّيران التي التهمت الآلهة السبعة. بدا أن الضوء في القاعة يزداد سطوعًا والسيف يخرج من غمده، وانبعث من الفولاذ وهج يتبدّل؛ في لحظة هو برتقالي، وفي لحظة أصفر، وفي لحظة أحمر، وومض الهواء حوله، ولم يحدث أن تألقت جوهرة بهذا السطوع من قبل قط... لكن حين مسّ ستانيس كتف دافوس بالنّصل لم يختلف شعوره به عن أيّ سيفٍ طويل عادي.

قال الملك: «السير دافوس سليل عائلة سيوورث، أنت رجلي الصّادق الوفي الآن وإلى الأبد؟».

- «نعم يا جلالة الملك».

- «وهل تُقسِمُ أن تخدمني بإخلاصٍ طيلة عُمرِكَ، وأن أنال منك سديد النَّصيحة وسريع الطَّاعة، وأن تُدافع عن حقوقي ومملكتي ضد كلِّ الخصوم في كبير المعارك وصغيرها، وأن تحمي قومي وتُعاقب أعدائي؟»
- «نعم يا جلالة الملك».

- «إذن انهض يا دافوس سيوورث، وانهض باعتبارك سيّد (الغابة المطيرة) وأميرال (البحر الضيّق) ويد الملك».

أذهلت المفاجأة دافوس لحظةً وجمّدتَه في مكانه، وفكّر: لقد صحوتُ هذا الصُّباح في زنزانته! «جلالة الملك، لا يُمكنك أن... أنا لستُ بالرجل الصَّالح لأن يكون يد ملك».

قال ستانيس: «لا يوجد من هو أصلح منك»، ودسَّ (جالِب الضياء) في غمده، وأعطى دافوس يده وساعده على التُّهوض.
قال دافوس: «أنا من العوام، مهرّب رُقِّي إلى فارسٍ لا أكثر. لورداتك لن يُطيعوني أبداً».

- «سنصنع لوردات جُددًا إذن».

- «لكنني... لا أجدُ القراءة... أو الكتابة...».

- «المَايستر پايلوس يستطيع أن يقرأ لك، وبالنسبة للكتابة فقد كتب يدي السَّابق أمر فصل رأسه عن كتفيه. لا أطلبُ منك إلا الأشياء التي لطالما أعطيتني إياها، الصِّدق والإخلاص والخدمة».

- «لا بُدَّ أن هناك أحدًا أفضل... واحدًا من كبار اللوردات...».

قال ستانيس ساخرًا: «الصَّبي بار إمون؟ جدِّي الخائن؟ سلتيجار تخلّي عني، وفيلاريون الجديد في السادسة من العُمر، وصنجلاس الجديد أبحرَ إلى (فولانتيس) بعد أن أحرقت أخاه»، وشوَّح بيده بسُخْطٍ مواصلاً: «ما زالَ هناك بعض الرِّجال الصَّالحين، هذا صحيح. السير جيلبرت فارنج يُدافع عن (ستورمز إند) من أجلي ومعه مئتا رجلٍ مخلص، وهناك أيضًا اللورد موريجن، ونغل (التَّغريدة)، وتشيترينج الصَّغِير، وأندرو ابن خالي... لكنني لا أثقُ بأحدٍ منهم مثلما أثقُ بك يا سيّد (الغابة المطيرة). ستكون يدي، فأنت من أريدُ إلى جوارِي في المعركة».

فكّر دافوس: معركة أخرى ستعني نهايتنا جميعًا. هذا على الأقل كان

اللورد أكستر محققاً فيه، ثم إنه قال: «جلالتك طلبت مني النصيحة الصّادقة. بصدق إذن... إننا نفتقر إلى القوّة لخوض معركةٍ أخرى ضد جيوش لانستر». - «جلالته يتكلّم عن المعركة العظمي»، قال صوت امرأةٍ غنيٍّ بلكنات الشّرق. كانت مليساندرا واقفةً عند الباب مرتديّة الحرير الأحمر والساتان البرّاق وفي يدها طبق فضّيّ مغطّي. «هذه الحروب الصّغيرة ليست أكثر من شجار أطفال مقارنةً بما هو آت. الذي يجب ألاّ يُذكر اسمه يحشد قواه يا دافوس سيورث، قوَى رهيبة شريفة وغازمة لأقصى درجة. قريباً يحلّ البرد والليل الذي لا ينتهي»، ووضعت الطبق على المائدة المرسومة مردفةً: «ما لم يجد المخلصون القوّة لمحاربتها، هؤلاء الذين قلوبهم من نار». حدّق ستانيس إلى الطّبّق قائلاً: «لقد أرّنتي إياها يا لورد دافوس، أرّنتي في اللهب».

- «أنت رأيتها يا مولاي؟». ليس من شيمة ستانيس باراثيون أن يكذب بشأن شيء كهذا.

- «بأمّ عيني. بعد المعركة، وقد تمكّن مني اليأس، طلبت مني الليدي مليساندرا أن أنظر في نار المستوقد. كانت المدخنة تسحب الدخان بقوّة، وذرات الرّماد تتصاعد من النّار، ونظرتُ فيها شاعرًا بالحُمق، لكنها قالت أن أتعمّق بصري، و... كان الرّماد أبيض، يرتفع مع التّيّار الصّاعد، لكن فجأةً بدا كأنه يسقط. قلتُ في نفسي إنه ثلج، ثم بدت الشرارات في الهواء كأنها تدور مكوّنة حلقةً من المشاعل، ووجدتُ نفسي أتطلّع عبر النّار إلى تلّ عالٍ في غابة. تحوّلت الجمار إلى رجالٍ يرتدون الأسود وراء المشاعل، وثمة أشياء تتحرّك في الثلج، وعلى الرغم من حرارة النّار شعرتُ ببردٍ فظيعٍ أرجفني، وحينها تلاشت الرّؤيا، وعادت النّار نارًا... لكن ما رأيته كان حقيقيّاً، وأراهنُ بمملكتي على هذا».

قالت مليساندرا: «وقد راهنت بالفعل».

أخاف اليقين في صوت الملك دافوس حتى النّخاع، وغمغم: «تلّ في غابة... أشياء في الثلج... لست...».

قالت مليساندرا: «معنى هذا أن المعركة بدأت. الرّمال تجري في الرّجاج بسرّعة أكبر الآن، وساعة الإنسان على الأرض تُشارف على الانتهاء. يجب

أن تصرّف بجسارَةٍ وإلّا ضاعَ كلُّ أملٍ. لا بُدَّ أن تتحد (وستروس) وراء ملكها الشرعيّ الأوحَد، الأمير الموعود، سيّد (دراجونستون) ومختار راهلور».

مكشراً قال الملك، كأنه تذوّق شيئاً كريه الطعم: «راهلور يختار بغرابية إذن. لماذا أنا وليس أخويّ؟ رنلي وخواخته. في أحلامي أرى العصور يسيل من فمه والدّم من حلّقه. لو أدّى واجبه نحو أخيه لدحرنا اللورد تايوين معاً. انتصار كان روبرت نفسه ليفخر به. روبرت...»، وصرّت أسنانه وهي تتحرّك من جانب إلى جانب داخل فمه وهو يُواصل: «أراه في أحلامي أيضاً، يضحك ويشرب ويتفاخر. تلك كانت الأشياء التي أجادها أكثر من غيرها، هي والقتال. إنني لم أتفوّق عليه في أيّ شيء قط. كان المفترض أن يختاره إله الضياء نصيراً له. لماذا أنا؟».

أجابته مليساندرا: «لأنك رجل نزيه».

تحسّس ستانيس الطبق الفضيّ المغطّى بإصبعه قائلاً: «رجل نزيه... معه علقات».

- «نعم، لكن عليّ أن أكرّر أن هذا ليس السبيل».

لاخّ الغضب على الملك وهو يقول لها: «لقد أقسمت أن هذه الطريفة ستصلح».

- «ستصلح... ولن تصلح».

- «أيّهما؟».

- «هذا وذاك».

- «قولي كلاماً معقولاً يا امرأة».

قالت والياقوتة الكبيرة على حلّقها تشربّ النّار من وهج المستوقد: «عندما تتكلّم النّار بوضوح أكثر فسأفعلُ أيضاً. في اللهب تكمن الحقيقة، لكنها لا تتجلّى دائماً. أعطني الصّبي يا جلالة الملك. إنها الوسيلة الأضمن، الوسيلة الأفضل. أعطني الصّبي وسأوقظُ التّنين الحجري».

- «قلت لك لا».

- «إنه مجرد صبيّ وليد زنا مقابل كلّ صبية (وستروس)، وكلّ الفتيات أيضاً، مقابل كلّ الأطفال الذين قد يولدون في كلّ ممالك العالم».

- «الصّبي بريء».

- «الصَّبِي دَنْسُ فِرَاشِ زَوْجِيَّتِكَ، وَإِلَّا لَكُنْتَ قَدْ أَنْجَبْتَ أَبْنَاءً. لَقَدْ كَلَّلَكَ بِالْعَارِ».

- «رُوبِرْتُ فَعَلَ هَذَا وَوَلَيْسَ الصَّبِي، وَابْنَتِي أَصْبَحَتْ مَغْرَمَةً بِهِ. ثُمَّ إِنَّهُ مِنْ دَمِي».

- «دَمَ أَخِيكَ، دَمَ مَلِكٍ. لَنْ يُوقِظَ التَّنِينُ الْحَجْرِي إِلَّا دَمَ مَلِكٍ».

صَرَ سْتَانِيْسُ بِأَسْنَانِهِ، وَقَالَ: «لَنْ أَسْمَعَ الْمَزِيدَ. التَّنَانِيْنُ انْقَرَضَتْ. آلُ تَارْجَارِيْنَ حَاوَلُوا إِعَادَتَهَا مَرَارًا فَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَهْرَجِيْنَ أَوْ جُثْثًا. ذُو الْوَجْهِ الْمَرْقَعُ هُوَ الْمَهْرَجُ الْوَحِيدُ الَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ عَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ الْبَائِسَةِ. الْعَلَقَاتُ مَعَكُمْ، فَقُومِي بِعَمَلِكِ».

حَنَّتْ مَلِيْسَانْدْرَا رَأْسَهَا بِجُمُودٍ، وَقَالَتْ: «كَمَا يَأْمُرُ مَوْلَايَ الْمَلِكُ»، وَدَسَّتْ يَدَهَا الْيَمْنَى دَاخِلَ كُمِّهَا الْأَيْسَرِ، ثُمَّ أَلْقَتْ مَلءَ قَبْضَةٍ مِنْ مَسْحُوقِ مَا فِي الْمَسْتَوْقِ فَهَدَرَ الْجَمْرُ وَتَأَجَّجَ، وَإِذْ تَلَوَّى اللَّهَبُ الشَّاحِبَ فَوْقَهَا التَّقَطَّتْ الْمَرْأَةُ الْحَمْرَاءُ الطَّبَقَ الْفُضِّيَّ وَنَاوَلَتْ الْمَلِكَ إِيَّاهُ، وَرَاقِبَهَا دَافُوسٌ وَهِيَ تَرْفَعُ الْغِطَاءَ لِتَكْشِفَ عَنْ ثَلَاثِ عَلَقَاتٍ سَوْدَاءَ كَبِيرَةٍ مَتَخِمَةٍ بِالْدَّمِ.

دَمَ الصَّبِيِّ، دَمَ الْمَلِكِ.

مَدَّتْ سْتَانِيْسُ يَدَهُ وَانْغَلَقَتْ أَصَابِعُهُ حَوْلَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْعَلَقَاتِ، وَقَالَتْ مَلِيْسَانْدْرَا أَمْرَةً: «قُلِ الْاسْمَ».

كَانَتِ الْعَلَقَةُ تَتَلَوَّى فِي يَدِ الْمَلِكِ مُحَاوَلَةً أَنْ تُثَبَّتَ نَفْسَهَا إِلَى أَحَدِ أَصَابِعِهِ، وَقَالَ هُوَ: «الْغَاصِبُ چُوفْرِي بَارَاثِيُونُ»، وَلَمَّا أَلْقَى الْعَلَقَةَ فِي النَّارِ تَجَعَّدَتْ وَسَطَ الْجَمْرَاتِ كُورِقَةً شَجْرٍ فِي الْخَرِيفِ وَاحْتَرَقَتْ.

التَّقَطَّتْ سْتَانِيْسُ الثَّانِيَةَ، وَأَعْلَنَ بِصَوْتٍ أَعْلَى هَذِهِ الْمَرَّةَ: «الْغَاصِبُ بِالْوَنِ جَرَايِچُوي»، وَقَذَفَهَا بِخَفَّةٍ فِي الْمَسْتَوْقِ، فَتَشَقَّقَ لِحْمُهَا وَانْبَثَقَ مِنْهَا الدَّمُ مَصْحُوبًا بِالْهَيْسِ وَالِدُّخَانِ.

كَانَتِ الْأَخِيرَةُ فِي يَدِ الْمَلِكِ، وَتِلْكَ أَمْعَنَ النَّظْرَ إِلَيْهَا لِحِظَّةٍ وَهِيَ تَتَلَوَّى بَيْنَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ أَخِيرًا: «الْغَاصِبُ رُوبِ سْتَارِكِ». وَأَلْقَى الْعَلَقَةَ فِي النَّارِ.

چایمی

حَمَام (هارنهال) قاعة معتمة واطئة السقف ملأى بالأبخرة والأحواض الحجرية الكبيرة، وحين اقتاده حارسه إلى الدّاخل وجدَ چایمی بریان جالسةً في أحدها، تفزك ذراعها بحركات أدنى إلى الغضب.

ناداها قائلاً: «تمهلي يا هذه وإلا كسّطت جلدك عن لحمك»، فأسقطت فرساتها وغطت ثديها بيدين كبيرتين كيدي جريجور كليجاين، وإن كان هذان البرّعمان الصّغيران المدبّبان اللذان أصرت على إخفائهما ليبدوا طبيعيتين أكثر على فتاة في العاشرة مما بديا على صدرها العضلي الغليظ.

- «ماذا تفعل هنا؟».

قال چایمی: «اللورد بولتون مصرّ على أن أتناول العشاء معه الليلة، لكنه رفض دعوة براغيثي»، وشدّ حارسه بيسراه قائلاً له: «ساعديني على خلع هذه الأسمال العفنة». بيد واحدة لا يستطيع أن يحلّ أربطة سراويله، وقد أطاعه الرّجل على مضض، لكنه أطاعه على كلّ حال، وأمره چایمی عندما تكوّمت ثيابه على الأرض الحجرية المبتلة: «والآن اترُكنا. سيّدتني ابنة تارث لا تُريد أن يُحملي أمثالك من الحثالة إلى ثديها»، وأشار بجذعته إلى المرأة ذات الوجه الطويل النّحيل التي تحرّس بریان مضيئاً: «وانت أيضاً، انتظري في الخارج. هناك باب واحد، والفتاة أكبر حجماً من أن تُحاول الهرب من إحدى المداخل».

عادة الطّاعة متأصلة، وهكذا تبعّت المرأة حارسه إلى الخارج، تاركين الحَمَام لهما وحدهما. يتّسع كلّ من الأحواض لستّة أو سبعة أفراد في آنٍ واحد، على غرار حَمَامات المُدن الحرّة، فنزل چایمی إلى الحوض الذي

استقرت في الفتاة بحركة بطيئة خرقاء. كانت كلتا عينيه مفتوحتين الآن، وإن ظلت اليمنى متورمة إلى حد ما على الرغم من علقات كايبرن، وأحسّ چايمي كأنه في المئة والتسعة من العمر، وهو تحسّن بالغ عما كان يشعُر به حين دخل (هارنهال).

انكسرت بريان منه قائلة: «هناك أحواض أخرى».

قال: «هذا يُناسِبني تمامًا»، وبحذر غمس نفسه في المياه الساخنة حتى تحت ذقنه، لكنه اضطرَّ لأن يسند ذراعه اليمنى إلى الحافة، بما أن كايبرن أوصاه بالحفاظ على الضمادة الكتان جافة. شعر بالشد ينسحب من ساقيه وبرأسه يدور وهو يُرِدْف: «لا تقلقي يا هذه. فخذاك لونهما أرجواني وأخضر من فرط الكدمات، ولست مهتمًا بما بينهما. أخرجيني من الماء إذا فقدت الوعي. لم يحدث أن مات لانستر غرقًا في حمامه من قبل، ولا أنوي أن أكون الأول».

- «ولماذا أبالي إذا مُتُّ؟».

- «لأنك حلفتِ يمينًا مقدسة»، وابتسم لمرأى الأحمر الذي زحف على عنقها التخين الأشبه بالعمود وهي تُدير ظهرها إليه، وقال: «أما زلتِ تتصرّفين كالعذراء الخجول؟ ما الذي تحسبيني لم أره من قبل؟»، ومدَّ يده إلى الفرشاة التي أسقطتها والتقطها بأصابعه، وبدأ يفرك جسده هنا وهناك، وحتى هذا وجده عويصًا مرهقًا. يدي اليسرى لا تصلح لشيء.

لكن الماء بدأ يكتسب لونًا داكنًا إذ ذابت الأوساخ المتكتلة على جلده، وظلت الفتاة تُعطيهِ ظهرها فرأى العضلات في كتفيها الكبيرتين محببةً صلبةً.

قال چايمي: «هل يُزعجك منظر جِدعتي؟ المفترض أن تُسرِّي لأني فقدتُ اليد التي قتلتُ بها الملك، اليد التي ألقت ابن ستارك من البرج، اليد التي أضعها بين فخذَي أختي لأجعلها تبتل»، ورفع جِدعته في وجهها مضيقًا: «لا عجب أن رنلي مات وأنتِ تحمينه».

هبت واقفة كأنه صفعها لتتشر الماء الساخن في كل مكان، ولمحّ چايمي الدغل الأشقر الكثيف عند ملتقى ساقيه وهي تخرُج من الحوض، ففكر أنها مشعرة أكثر من أخته بكثير، أمّا السخيف فإنه أحسّ بذكره يتحرك تحت مياه الاستحمام، فقال لنفسه: الآن أعرفُ أنني قضيتُ وقتًا طويلاً للغاية بعيدًا عن سرسي. غصَّ بصره وقد أزعجته استجابة جسده للمنظر، وغمغم: «لم يكن

من اللائق أن أقول هذا. إنني رجل معاق مفعم بالمرارة. سامحيني يا هذه. لقد حميتني كما كان أيُّ رجل ليفعل، بل أفضل من معظم الرِّجال».

سَرتْ عُريها بمنشفةٍ لَفَّتْها حول جسدِها، وقالت: «هل تسخر مني؟». جدَّد قولها غضبه، فصاحَ فيها: «أأنتِ بلهاء؟ كنتُ أعتذرُ. لقد تعبتُ من الشُّجارِ معك. ما رأيك في أن نُقيم هُدنةً؟».

- «الهُدنة تُبنى على الثِّقة. هل تريدني أن أثق ب...».

- «قاتِل الملك، نعم، الحانث بالقسم الذي اغتالَ إيرس تارجارينَ الحزينَ المسكين»، وأطلقَ چاييميَ خيراً قبل أن يُردِف: «ليس إيرس من أندُم على ما فعلته معه، بل روبرت. في أثناء مأدبة تنويجه قال لي: سمعتُ أنهم لَقَبوك بقاتِل الملك، لكن لا تُفكِّر في جعلها عادةً، وضحك. لماذا لا يتَّهم أحد روبرت بالحنث بالقسم؟ لقد مرَّق البلادَ تمزيقاً، ومع ذلك أنا الذي شَرَفه خراء».

قالت بريان والمياه تجري على ساقِها وتتجمَّع في بركةٍ تحت قدميها: «روبرت فعلَ كلَّ ما فعله في سبيلِ الحُب».

- «روبرت فعلَ كلَّ ما فعله من أجل الكبرياء وكُس ووجه جميل»، وكوَّر چاييمي قبضته... أو كان ليُكوِّرها لو أن له يداً، وسرى الألم في ذراعه بقسوة الضَّحكات السَّاخرة.

قالت بإصرار: «لقد خرجَ إلى الحرب لإنقاذ البلاد».

لإنقاذ البلاد. «هل تعلمين أن أخي أشعلَ النَّارَ في (النَّهر الأسود)؟ النَّارُ الشَّعواءُ تظلُّ مشتعلةً على سطح الماء، وكان إيرس ليستحمَّ بها إذا جرَّو. آل تارجارين كلُّهم كانوا مجانين بالنَّار». أحسَّ چاييمي بالدُّوارِ يكتنف رأسه، فقال لنفسه: إنها الحرارة والسَّمُّ في دمي، بقايا الحُمى. أنا لستُ على طبيعتي، وبتؤدَّةٍ أنزلَ نفسه أكثر في الماء حتى بلغَ ذقنه، ثم تمتَم: «لوثتُ معطفي الأبيض... يومها كنتُ أرثدي الدَّرعَ الذهبيَّة، لكن...».

بدا صوتها بعيداً خافتاً وهي تُردِّد: «الدَّرعَ الذهبيَّة؟».

قال چاييمي لانستر وهو يسبح في الحرارة والذِّكريات: «بعد أن خسَرَ صاحِب الجِرافين الرَّاقيصة معركة الأجراس نفاه إيرس». لماذا أحكي هذا لتلك الطفلة السَّخيفة القبيحة؟ «كان قد أدركَ أخيراً أن روبرت ليس مجرد لورد

خارج عن القانون يستطيع أن يسحقه ببساطة، وإنما أكبر تهديدٍ واجهَ عائلة تارجارين منذ ديمون بلاكفاير. ذكّر الملك ليوين مارتل بوقاحةٍ بأن إليا تحت رحمته، وأرسله ليقود العشرة آلاف دورني القادمين على (طريق الملوك)، بينما ذهبَ چون داري وباريستان سلمبي إلى (السِّبْت الحجري) ليحشدا ما يُمكنهما من رجال الجريفيين، ورجعَ الأمير ريجار من الجنوب وأقنعَ أباه بأن يتلغ كبرياءه ويستدعي أبي، لكن لا عُداً عادَ من (كاسترلي روك)، وهو ما أثارَ خوف الملك أكثر فأكثر، وبدأ يرى الخونة في كلِّ مكان، وكان فارس موجوداً دائماً لئُشير إلى أيِّ أحدٍ فاته. هكذا أمرَ جلالته الخيميائيين بوضع مخزونهم من النَّار السَّعواء في كلِّ أرجاء (كينجز لاندنج)، تحت (سِبت بيلور) وبيوت (جُحر البراغيث)، تحت الاسطبلات والمستودعات، وعند بوابات المدينة السَّبَّع، بل وفي أقبية (القلعة الحمراء) نفسها. تَمَّ كلُّ شيءٍ بأقصى درجةٍ من السَّرِيَّة على يد مجموعةٍ صغيرةٍ من كبار الپايرومانسرات، الذين لم يأتَمِنوا تلامذتهم أنفسهم على مساعدتهم. كانت عينا الملكة مغلقتين قبل سنوات، وريجار مشغولاً بتعبئة جيشه، لكن غباء يد إيرس الجديد ذي رمز الصَّولجان والخنجر لم يكن مطبقاً، وبدأت الشُّكوك تُساوره مع مجيء ذهاب روزارت وبيليس وجاريجوس ليل نهار. تشيلستد، كان هذا اسمه، اللورد تشيلستد». استرجعَ الاسم فجأةً وهو يحكي. «ظننتُ الرَّجُلَ جباناً، لكنه عثرَ على شيءٍ من الشَّجاعة في مكانٍ ما يوم واجهَ إيرس، وبذلَ قصارى جهده لئُثنيه عن نَيْبته، كلِّمه بالعقل ومازحه وهدَّده، وأخيراً توَسَّلَ إليه، ولَمَّا فشلَ هذا أيضاً خلعَ سلسلة اليدويَّة وألقاها على الأرض، ولأجل هذا أحرَقه إيرس وعلَّقَ السِّلْسلة حول عُنق روزارت، الپايرومانسر المفضَّل عنده، الرَّجُل الذي طهى ريكارد كارستارك في درعه. طيلة هذا الوقت كنتُ واقفاً عند قاعدة العرش الحديدي في درعي البيضاء، واقفاً بسكون الجُثث، أحرصُ مولاي وأسراره المسيلة للعباب. كان جميع إخوتي في الحرس الملكي بعيدين وقتها، لكن إيرس أحبُّ أن يُيقيني قريباً منه دائماً. كنتُ ابن أبي، ولذا لم يثق بي، وأرادني حيث يستطيع أن يُراقبني فارس طوال اللَّيل والنَّهار، فسمعتُ كل شيءٍ». تذكَّر كيف كانت عينا روزارت تتألَّقان كلما بسطَ خرائطه لئُري الملك الأماكن التي وُضِعَت فيها المادَّة، ولم يختلف جاريجوسُ وبيليسُ

عنه في شيء. «التقى ريجار وروبرت على ضفاف (الثالوث)، وتعلمين ما حدث هناك، وحين بلغ الخبر البلاط أرسل إيرس الملكة إلى (دراجونستون) مع الأمير فسيرس، وكانت الأميرة إليا لتذهب أيضًا، لكنه منعها. بشكل ما دخلت رأسه فكرة أن الأمير ليوبن خان ريجار في معركة (الثالوث)، وإن فكر أنه يستطيع الحفاظ على ولاء (دورن) له إذا أبقى على إليا وإجون إلي جواره. سمعته يقول لروزارت: الخونة يريدون مدينتي، لكنني لن أعطيهم إلا الرّماد. فليكن روبرت ملكًا على العظام المتفحمة واللحم المشوي. لم يكن آل تارجارين يدفنون موتاهم وإنما يحرقونهم، وكان إيرس ينوي أن يحظى بأكبر محرقة جنازية في تاريخهم. الواقع أني لا أعتقد أنه توقع أنه سيموت حقًا. مثل إريون اللهب الساطع من قبله، حسب إيرس أن النار ستحوّله... أنه سينهض ثانية، يولد من جديد كتنين ويُحيل أعداءه إلى رماد. وقتها كان ند ستارك يهرع جنوبًا على رأس طليعة جيش روبرت، لكن قوّات أبي بلغت المدينة أولاً، وأقعّ بايسل الملك بأن حاكم الغرب قد جاء يُدافع عنه، ففتّح البوّابات. المرّة الوحيدة التي كان عليه أن يُصغي إلى فارس وتجاهله. كان أبي قد امتنع عن الاشتراك في الحرب، يُفكر في كل الإساءات التي تعرّض إليها من إيرس، وقرّر أن تُساند عائلة لانستر الطرف الرّايح، وحزمت معركة (الثالوث) أمره. وقع على عاتقي الدّفاع عن (القلعة الحمراء)، لكنني كنتُ أعلم أننا ضائعون. أرسلتُ إلى إيرس طالبًا إذنه في مناقشة شروط الاستسلام، فعاد رجلي بأمر ملكي: اجلب لي رأس أبيك إذا لم تكن خائنًا. رفض إيرس الاستسلام تمامًا، وقال رسولي إن اللورد روزارت كان معه، فعرفتُ ما يعنيه هذا. عندما وجدتُ روزارت كان في طريقه إلى بوّابة جانيّة وهو يرتدي ثياب جنديّ عادي. قتلته أولاً، ثم قتلْتُ إيرس قبل أن يجد أحدًا آخر يحمل أمره إلى الهايرومانسرات، وبعد أيام طاردتُ الآخرين وقتلتُهما أيضًا. عرض بيليس عليّ الذهب، وتوسّل جاريجوس الرّحمة باكيًا. السيف أرحم من النّار، لكنني لا أظنُّ أن جاريجوس شعرَ بالامتنان للرّحمة التي نالها مني».

كانت المياه قد بردت، وحين فتحّ چايمي عينيه وجد نفسه يُحدّق إلى جدعة يد السيف. اليد التي جعلتني قاتل الملك. لقد سلّبه الكبش مجده وعاره في آنٍ واحد. تاركًا ماذا؟ من أكون الآن؟

بَدَتِ الْفَتَاةُ سَخِيْفَةَ الْمَنْظَرِ وَهِيَ تَضُمُّ الْمَنْشَفَةَ إِلَى ثَدْيَيْهَا الضَّئِيلَيْنِ، بَيْنَمَا تَبْرُزُ سَاقَاهَا الْبَيْضَاوَانَ الْغَلِيْظَتَانِ مِنْ تَحْتِهَا، وَقَالَ لَهَا: «هَلْ أَصَابَتْكِ حَكَائِي بِالْخَرَسِ؟ هَلْمَيَّ، الْعَيْنِي أَوْ قَبْلِي أَوْ انْعَتِينِي بِالْكَذْبِ، أَي شَيْءٍ».

- «إِذَا كَانَ مَا قَلْتَهُ صَحِيْحًا، فَكَيْفَ لَا يَعْرِفُ بِهِ أَحَدٌ؟».

- «فُرْسَانَ الْحَرَسِ الْمَلِكِي يُقْسِمُونَ عَلَى الْحِفَافِ عَلَى أَسْرَارِ الْمَلِكِ. هَلْ تُرِيدُنِي أَنْ أَحْنُثَ بِقَسْمِي؟»، وَضَحَكَ چَايْمِي مُوَاصِلًا: «هَلْ تَتَصَوَّرِينَ أَنْ سَيِّدٌ (وَيَتَرَفَّلُ) النَّبِيلُ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ شَرْحِي الْوَاهِي؟ يَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ شَرِيفٍ. لَقَدْ اكْتَفَى بِالْقَاءِ نَظْرَةً وَاحِدَةً عَلَيَّ لِيَحْكُمَ عَلَيَّ بِالذَّنْبِ»، وَانْتَفَضَ وَاقْفًا لَيْسِيلَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى صَدْرِهِ، وَتَابَعَ: «بَأَيِّ حَقٍّ يَحْكُمُ الذَّنْبُ عَلَى اللَّيْثِ؟ بَأَيِّ حَقٍّ؟!». انْتَابَتْهُ رَعْدَةٌ عَنِيفَةٌ، وَارْتَطَمَتْ جَدْعَتُهُ بِحَافَةِ الْحَوْضِ وَهُوَ يُحَاوِلُ الْخُرُوجَ، فَاجْتَاخَ الْأَلْمُ الْمَمْضُ كِيَانَهُ كُلَّهُ... وَفَجَأَةً رَاحَ الْمَكَانَ يَدُورُ مِنْ حَوْلِهِ، لَكِنْ بَرِيَانٌ لِحَقَّتِهِ وَأَمْسَكَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ. أَحْسَسَ بَذِرَاعِهَا بَارِدَةً رَطْبَةً وَتَزَحَفَ عَلَيْهَا الْقَشْعِرِيرَةَ، لَكِنهَا كَانَتْ قَوِيَّةً، وَأَرْقٌ مِمَّا كَانَ لِيَحْسَبُ. أَرْقٌ مِنْ سَرَسِي، فَكَّرَ وَهِيَ تُسَاعِدُهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْحَوْضِ عَلَى سَاقَيْنِ مَهْزُوزَتَيْنِ كَقَضِيْبِ رَخْوٍ، وَسَمِعَهَا تَزْعَقُ: «أَيُّهَا الْحُرَّاسُ! قَاتِلِ الْمَلِكَ!».

چَايْمِي. اسْمِي چَايْمِي.

عِنْدَمَا اسْتَعَادَ وَعِيَهُ وَجَدَ نَفْسَهُ مَمْدَدًا عَلَى الْأَرْضِ الرَّطْبَةِ، بَيْنَمَا يَقِفُ الْحَرَسُ وَالْفَتَاةُ وَكَابِرْنَ فَوْقَهُ وَالْقَلْقُ يَبْدُو عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ بَرِيَانٌ عَارِيَّةً، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهَا نَسِيَتْ هَذَا فِي الْوَقْتِ الْحَالِي. سَمِعَ الْمَايْسْتَرَ كَابِرْنَ يَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّهَا حَرَارَةُ الْأَحْوَاضِ». لَا، إِنَّهُ لَيْسَ مَايْسْتَرٌ، لَقَدْ أَخَذُوا سَلْسَلَتَهُ. «وَمَا زَالَ هُنَاكَ سُمْ فِي دَمِهِ أَيْضًا، بِالْإِضَافَةِ إِلَى سُوءِ تَغْدِيْتِهِ. مَاذَا كُنْتُمْ تُطْعِمُونَهُ؟».

قَالَ چَايْمِي: «الذُّودُ وَالْبُولُ وَالْقِيَاءُ الْمَتَعَفَّنُ».

لَكِنْ الْحَارَسُ قَالَ بِإِصْرَارٍ: «الْخَبْزُ الْجَامِدُ وَالْمَاءُ وَثَرِيدُ الشُّوفَانِ، لَكِنهُ يَأْكُلُ بِالْكَادِ. مَاذَا نَفْعَلُ بِهِ؟».

أَجَابَ كَابِرْنَ: «نُظِّفُوهُ وَالْبَسُوهُ ثُمَّ احْمَلُوهُ إِلَى بُرْجِ (مَحْرَقَةِ الْمَلِكِ) حَمَلًا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ. اللُّورْدُ بُولْتُونُ يَصْرُُّ عَلَى تَنَاوُلِ الْعَشَاءِ مَعَهُ اللَّيْلَةَ، وَالْوَقْتُ قَصِيرٌ».

قَالَتْ بَرِيَانُ: «أَحْضِرُوا لَهُ ثِيَابًا نَظِيْفَةً وَسَاتُوْلِي تَنْظِيْفَهُ وَالْبَاسَةَ».

سُرَّ الآخَرُونَ بِالطَّبَعِ لَتَوَلَّيْهَا هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةَ، وَسَاعَدُوهُ عَلَى التَّهْوُضِ
وَأَجْلَسُوهُ عَلَى دَكَّةٍ حَجْرِيَّةٍ عِنْدَ الْحَائِطِ، بَيْنَمَا ذَهَبَتْ بَرِيَانٌ لِتَسْتَعِيدَ مَنَشَفَتَهَا
وَعَادَتْ بِفَرَشَةٍ يَابِسَةٍ لِتُنْهِيَ تَنْظِيفَهُ. أَعْطَاهَا أَحَدَ الْحُرَّاسِ مُوسَى لِشُدْبٍ
لِحَيْتِهِ، وَعَادَ كَابِيرُنٌ بِثِيَابٍ دَاخِلِيَّةٍ مِنَ الْخَيْشِ وَسِرَاوِيلٍ نَظِيفَةٍ مِنَ الصُّوفِ
الْأَسْوَدِ، وَقَمِيصٍ أَخْضَرَ فَضْفَاضٍ وَسُتْرَةٍ تُعَقِّدُ أَرِبَطَتَهَا مِنَ الْأَمَامِ. عِنْدَئِذٍ
كَانَ الدُّوَارُ الَّذِي أَصَابَ چَايْمِي قَدْ خَفَّ، وَإِنْ ظَلَّ الْخَرَقُ يُلَازِمُ حَرَكَتَهُ،
وَبِمَسَاعَدَةِ بَرِيَانٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يَرْتَدِيَ الْمَلَابِسَ، وَقَالَ لَهَا: «لَا أَحْتَاجُ الْآنَ إِلَّا
إِلَى مِرَاةٍ فُضِيَّةٍ».

جَلَبَ الْمَايَسْتَرُ السَّفَاحَ ثِيَابًا نَظِيفَةً لِبَرِيَانٍ أَيْضًا، فُسْتَانًا وَرَدِيًّا مَبْقَعًا مِنَ
السَّاتَانِ وَقَمِيصًا تَحْتِيًّا مِنَ الْكُتَّانِ، وَلَمَّا نَاوَلَهَا إِيَّاهُمَا قَالَ: «مَعذَرَةٌ يَا سَيِّدَتِي.
هَذِهِ هِيَ الثِّيَابُ النَّسَائِيَّةُ الْوَحِيدَةُ فِي (هَارِنَهال) الَّتِي تُنَاسِبُ مَقَاسِكِ».
أَتَضَحَّ فِي الْحَالِ أَنَّ الْفُسْتَانَ مَفْصَلٌ لِامْرَأَةٍ بِذِرَاعَيْنِ أَنْحَفَ وَسَاقَيْنِ
أَقْصَرَ وَثَدْيَيْنِ أَكْثَرَ امْتِلَاءً بِكَثِيرٍ، وَلَمْ تَنْجَحْ شَرَائِطُ الزَّيْنَةِ الْمَايَرِيَّةِ فِي مَوَارَاةِ
الْكِدَمَاتِ الَّتِي رَقَطَتْ بَشْرَةَ بَرِيَانٍ، وَبَشَكَلَ عَامٌ جَعَلَ الْفُسْتَانَ الْفَتَاةَ تَبْدُو
سَخِيفَةً حَقًّا. كَتَفَاهَا أَكْبَرُ مِنْ كَتْفِي، وَعُنُقُهَا أَثَخَنٌ. لَا غَرَوُ أَنَّهَا تَفْضَلُ ارْتِدَاءَ
الْحَلَقَاتِ الْمَعْدِنِيَّةِ. وَالْوَرْدِي لَيْسَ لُونًا يَلِيقُ بِهَا كَذَلِكَ، وَجَعَلَ دَسْتَهُ مِنَ
النِّكَاتِ اللَّادِعَةِ تَخْطُرُ بِبَالِ چَايْمِي، لَكِنَّهُ احْتَفَظَ بِهَا هُنَاكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ. مِنَ
الْأَفْضَلِ أَلَّا يُثِيرَ غَضَبَ الْفَتَاةِ، فَهُوَ لَيْسَ نَدًّا لَهُ بِيَدٍ وَاحِدَةٍ.
جَلَبَ كَابِيرُنٌ مَعَهُ قَارُورَةً أَيْضًا، وَلَمَّا طَلَبَ مِنَ چَايْمِي أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا
سَأَلَهُ: «مَا هَذَا؟».

- «عَرَقَسُوسَ مَنْقُوعٍ فِي الْخَلِّ، مَعَ الْعَسَلِ وَالْقَرْنَفَلِ. سَيِّئَوِيكَ وَيُصَفِّي
رَأْسَكَ».

- «اسْقِنِي الْعَقَّارَ الَّذِي يُنْبِتُ لِي يَدًّا جَدِيدَةً. هَذَا مَا أُرِيدُهُ».

قَالَتْ بَرِيَانٌ دُونَ أَنْ تَتَسَمَّ: «اشْرِبْهُ»، فَشَرِبَ.

مَضَى نِصْفَ سَاعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَشْعُرَ بِالقُوَّةِ الْكَافِيَةِ لِلْوُقُوفِ، وَبَعْدَ دَفْعِ الْحَمَّامِ
الرَّطْبِ الْمَعْتَمِّ كَانَ الْهَوَاءُ فِي الْخَارِجِ بِمِثَابَةِ صَفْعَةٍ عَلَى وَجْهِهِ.
قَالَ أَحَدُ الْحُرَّاسِ لِكَابِيرُنَ: «لَا بُدَّ أَنْ سَيِّدِي يَنْتَظِرُهُ الْآنَ، وَهِيَ أَيْضًا. هَلْ
يَجِبُ أَنْ أَحْمِلَهُ؟».

قال چایمی: «یُمکننی أن أمشي. بریان، أعطیني ذراعك». مطبقاً على ذراعها، تركهم چایمی یقتادونه عبر السّاحة إلى قاعةٍ فسيحةٍ يشتدُّ فيها الهواء، قاعة أكبر من قاعة العرش في (كينجز لاندنج)، تصطفُ فيها المستودعات الضّخمة عند الجدران، تفصل كلاً منها عن الآخر مسافة عشر أقدام أو نحوها، وعددها أكبر من أن يستطيع چایمی إحصاءه، لكن نازاً لم تشتعل فيها، فتوغّل البرد حتى العظام. وقفت دستة من حاملي الحراب في معاطف من الفرو تحرّس الأبواب والدّرجات التي تقود إلى الشرفتين العلويتين، وفي منتصف هذا الفراغ الهائل، وإلى مائدةٍ محاطة بما يبدو كأفدنة كاملة من الأرضيّة الأردواز الملساء، جلس سيّد (معقل الخوف)، يخدمه ساقٍ واحدة لا أكثر.

قالت بریان حين وقفا أمامه: «سيّدي».

لرووس بولتون عينان أفتح لوناً من الحجر وأغمق من الحليب، وصوته بنعومة شبك العنكبوت، وبه قال: «يُسعدني أنك بالقوّة الكافية لزيارتي أيها الفارس. تفصّلي بالجلوس يا سيّدي»، وأشار إلى وجبة الجُبنة والحُبز واللحم البارد والفواكه التي غطت المائدة قائلاً: «نبذ أحمر أم أبيض؟ أخشى أنه نوع تقليدي، فقد أفرغ السير آموري أقيبة الليدي ونت عن آخرها تقريباً». أسرع چایمی يجلس كي لا يرى بولتون وهنه الشّديد، وقال: «أفترض أنك قتلته لهذا. الأبيض لون ستارك. سأشربُ الأحمر كلانستر صالح». وقالت بریان: «أفضّل الماء».

قال بولتون للسّاقِي: «إلمار، نبذ أحمر للسير چایمی وماء لليدي بریان والهيپوكراس⁽¹⁾ لي»، ولوّح بيده لمُرافقيهما ضارفاً إياهم، فانسحب الرّجال بصمت.

جعلت العادة چایمی يمدُّ يميناه إلى التّبيد، فرجّت جدعته الكأس لتتلوّث ضمّاداته الكثّان النّظيفة ببقع حمراء زاهية، بينما أمسك الكأس بيُسراه قبل أن تسقط، لكن بولتون تظاهرَ بأنه لم يلحظ حرّقه، ومدّ يده إلى حبة برقوق

(1) الهيپوكراس مشروب صحّي يُعدُّ من التّبيد المخلوط بالسُّكر والتوابل، وعادةً ما يتضمّن القرقة، ابتكره أبقرات وسمّي نسبةً إليه. (الترجم).

مَجْفَفَ التَّهْمَهَا عَلَى قَضَمَاتٍ صَغِيرَةٍ سَرِيعَةٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «جَرَّبْ هَذَا الْبَرْقُوقَ يَا سِيرِ چَايْمِي. مِذَاقُهُ شَدِيدٌ الْعَذُوبَةُ، كَمَا أَنَّهُ يُسَاعِدُ عَلَى إِفْرَاقِ الْأَحْشَاءِ أَيْضًا. الْلُورْدُ فَارْجُو أَخَذَهُ مِنْ خَانٍ قَبْلَ أَنْ يُحْرِقَهُ».

- «أَحْشَائِي بِخَيْرٍ، وَالْكَبْشُ لَيْسَ لُورْدًا، وَبَرْقُوقُكَ لَا يَهْمُنِي مِثْلَمَا تَهْمُنِي نِيَّاتُكَ».

تَلَاعَبَتِ ابْتِسَامَةٌ بَاهِتَةٌ عَلَى شَفَتَيْ رُوسِ بُولْتُونِ وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ يَكَادُ لَا يَعْلُو عَلَى هَمْسَةٍ: «بِخُصُوصِكَ؟ أَنْتِ غَنِيمَةٌ خَطِرَةٌ أَيُّهَا الْفَارْسُ، تَزْرَعُ الشُّقَاقَ أَيْنَمَا ذَهَبْتَ، حَتَّى هُنَا فِي بَيْتِي السَّعِيدِ (هَارْنِهَالِ)، وَفِي (رِيْفَرْرَن) أَيْضًا عَلَى مَا يَبْدُو. هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ إِدْمِيورَ تَلِي عَرَضَ أَلْفِ تَنْبِنٍ ذَهَبِي مَقَابِلَ أُسْرِكَ ثَانِيَةً؟». فَقَطُّ؟ «أَخْتِي سَتَدْفَعُ عَشْرَةَ أَضْعَافِ هَذَا الْمَبْلَغِ».

- «حَقًّا؟». تَلَكَّ الْابْتِسَامَةُ مِنْ جَدِيدٍ، لِحْظَةً تَلُوحُ فِي التَّالِيَةِ تَخْتْفِي. «عَشْرَةَ أَلْفِ تَنْبِنٍ مَبْلَغُ فَادِحٍ، لَكِنْ بِالطَّبْعِ عَلَيْنَا أَخْذُ عَرَضِ الْلُورْدِ كَارِسْتَارِكُ بَعِينِ الْاِعْتِبَارِ أَيْضًا. لَقَدْ نَذَرْتُ ابْنَتَهُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَأْتِيهِ بِرَأْسِكَ».

قَالَ چَايْمِي: «دَعِ الْأَمْرَ لِكِبْشِكَ وَسَيَفْعَلُ الْعَكْسَ».

ضَحِكَ بُولْتُونُ بِنِعْمَةٍ، وَقَالَ: «هَارِيونُ كَارِسْتَارِكُ كَانَ سَجِينًا هُنَا عِنْدَمَا أَخَذْنَا الْقَلْعَةَ، أَتَعْرِفُ هَذَا؟ أَعْطَيْتَهُ كُلَّ رِجَالِ (كَارِهُولْد) الَّذِينَ مَعِي وَأَرْسَلْتَهُ مَعَ جُلُوفِي. أَتَمَنَّى أَنْ شَيْئًا سَيِّئًا لَمْ يَحْدُثْ لَهُ فِي (وَادِي الْغَسَقِ)... وَإِلَّا لَنْ يَتَبَقَّى مِنْ ذُرِّيَّةِ الْلُورْدِ رِيكَاردِ غَيْرِ أَلَيْسَ كَارِسْتَارِكُ»، وَالتَّقَطَّ بِرُقُوقَةٍ أُخْرَى مِتَابَعًا: «مَنْ حُسْنِ حِظِّكَ أَنِّي لَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى زَوْجَةٍ. لَقَدْ تَزَوَّجْتُ الْيَلْدِي وَالِدَا فِرَايِ وَأَنَا فِي (التَّوَأْمَتَيْنِ)».

- «وَالِدَا الْحَسَنَاءِ؟»، تَسَاءَلَّ چَايْمِي وَهُوَ يُحَاوِلُ تَشْيِيتَ الْخُبْزِ بِجَدْعَتِهِ بَيْنَمَا يَقْطَعُهُ بِسِرَاهِ.

- «وَالِدَا السَّمِينَةِ. الْلُورْدُ فِرَايِ عَرَضَ عَلَيَّ وَزَنَ عَرُوسِي فَضَّةً كَمَهْرٍ، فَاخْتَرْتُ بِنَاءً عَلَى هَذَا. إِلْمَارُ، اقْطَعِ الْخُبْزَ لِلْسِيرِ چَايْمِي».

مَزَّقَ الصَّبِي قِطْعَةً بِحِجْمِ قَبْضَةِ الْيَدِ مِنْ طَرَفِ الرِّغِيفِ وَنَاوَلَ چَايْمِي إِيَّاهَا، عَلَى حِينِ قَطَعَتْ بَرِيانَ خُبْزِهَا بِنَفْسِهَا وَسَأَلَتْ: «لُورْدُ بُولْتُونِ، يُقَالُ إِنَّكَ تَنْوِي تَرْكَ (هَارْنِهَالِ) لِقَارْجُو هُوَتَ».

أَجَابَهَا: «كَانَ هَذَا ثَمَنَهُ. لَيْسَ آلُ لَانْسْتَرِ وَحْدَهُمْ مَنْ يُسَدِّدُونَ دِيُونَهُمْ».

وعلى كلِّ حالٍ عليٌّ أن أرحل قريبًا. إدميور تلي سيتزُوج الليدي روزلين فراي في (التَّوأمَينِ)، ومليكي أمرني بالحضور».

سألها چايمي: «إدميور سيتزُوج وليس روب ستارك؟».

بصقَ بولتون نواة البرقوقة في يده ووضعها جانبًا، ثم أجاب: «جلالة الملك روب تزوج واحدةً من فتيات آل وسترلينج أولاد (الجُرف). قيلَ لي إن اسمها چاين. لا شك أنك تعرفها أيها الفارس، فأبوها من حملة راية أبيك». قال چايمي: «حملة راية أبي كُثر، ومعظمهم لديه فتيات»، ومدَّ يُسراه إلى الكأس محاولاً أن يتذكَّر چاين هذه. وسترلينج عائلة قديمة، وإن كانت كبيراًؤها أكبر من قوتها.

قالت بريان بعناد: «لا يُمكن أن يكون هذا صحيحًا. الملك روب أقسم أن يتزُوج واحدةً من بنات فراي، ومستحيل أن يحنث بقسمه و...». قاطعها رويس بولتون بهدوء: «جلالته صبيٌّ في السادسة عشرة، وسأكون ممتنًا إذا لم تُشككي في كلامي يا سيِّدتي».

كادَ چايمي يشعُر بالأسف من أجل روب ستارك، وقال لنفسه: فازَ بالحرب في ميدان المعركة وخسرها في غُرفة النُّوم، الأحمق المسكين، ثم إنه سأل: «وهل يستمرُّ اللورد والدر لحم سمكة الترويت بدلًا من لحم الذئب؟».

قال بولتون: «أوه، الترويت وجبة شهية»، وأشار بإصبع شاحبة إلى ساقيه مردفًا: «مع أن إلمار المسكين كسير القلب. كان من المفترض أن يتزُوج آريا ستارك، لكن حماي فراي لم يملك خيارًا إلا فسخ الخطبة عندما خانَه الملك روب».

مالت بريان إلى الأمام متسائلة: «هل من أخبار عن آريا ستارك؟ الليدي كاتلين تخشى أن... ألا تزال الفتاة حيَّة؟».

أجاب سيِّد (معقل الخوف): «أوه، إنها حيَّة».

- «أنت موفن بهذا يا سيِّدي؟».

هزَّ رويس بولتون كتفيه قائلاً: «آريا ستارك ظلت مفقودةً فترةً، هذا صحيح، لكنها لم تُعد كذلك، وأنوي أن تعود آمنةً إلى الشِّمال».

- «هي وأختها. تيريون لانستر وعدَّ بإعادة كلتا الفتاتين مقابل أخيه».

بدا أن سيِّد (معقل الخوف) وجدَّ قولها طريفًا، وردَّ: «ألم يُخبركِ أحدٌ يا سيِّدتي؟ أولاد لانستر يكذبون».

التقطَ چاييمي سكين الجُبنة بيده السليمة قائلاً: «أهذه إهانة لشرف عائلتي؟»، ومرّر إصبعه على حافة النّصل متابعاً: «الرأس مدورٌ وثلم، لكنه ما زال صالحاً لأن يفقأ عينك». أحسّ بالعرق ينضح على جبينه، وتمنّى أنه لا يبدو بالضعف الذي يشعُر به.

عادت ابتسامة اللورد بولتون الرّفيعّة تزور شفّته، وقال: «تتكلمم بجرأة بالنّسبة لرجل يحتاج إلى مساعدة لتقطيع خُبزه. دعني أذكرك بأن حُرسي يُحيطون بنا». تطلّع چاييمي إلى القاعة الضّخمة قائلاً: «يُحيطون بنا ولكن يُبعدون نصف فرسخ كامل. عندما يبلغوننا ستكون ميتاً كإيرس».

قال سيّد (معقل الخوف) مؤنّباً: «ليس من الشّهامة أن تُهدّد مضيفك وبينكما جُبتته وزيتونه. إننا لا نزال نُقدّس قوانين الضّيافة في الشّمال».

- «إنني أسير هنا ولستُ ضيفاً. كبشك قطع يدي، وإذا كنت تحسب أن برقوقك سيجعلني أغاضى عن هذا، فأنت مخطئٌ تماماً».

باغتَ قوله روكس بولتون الذي رَدّ: «ربما أكون مخطئاً، وربما يجدرُ بي أن أقدمك لإدميور تلي كهديّة زفاف... أو أقطع رأسك كما فعلتُ أختك بإدارد ستارك».

- «لا أنصحُ بهذا. (كاسترلي روك) لا تنسى».

- «ألف فرسخ من الجبال والبحار والمستنقعات تفصل أسواري عن صخرتك. عداوة لانستر تعني القليل لبولتون».

- «لكن صداقة لانستر قد تعني الكثير». خطرَ لچاييمي أنه يُدرك اللّعبة الدّائرة بينهما الآن. لكن هل تُدركها الفتاة أيضاً؟ لم يجرؤ على النّظر إليها ليرى.

- «لستُ متأكّداً من كونكم الأصدقاء الذين يرغب فيهم أحد»، وأشارَ روكس بولتون إلى السّاقى قائلاً: «إلمار، قطع اللحم لضيفينا».

قُدّم اللحم المشوي إلى بريان أولاً، لكنها لم تُحاول أن تذوقه، وقالت: «سيّدي، المفترض أن يُبادل السير چاييمي بابتني الليدي كاتلين. يجب أن تُطلق سراحنا لنواصل طريقنا».

- «الغُداً الذي وصل من (ريقررن) حملَ خبراً عن هروب لا تبادُل للأسرى، وإذا ساعدتِ هذا الأسير على الفرار فأنتِ مذنبّة بالخيانة يا سيّديتي».

نهضت الفتاة الكبيرة قائلة: «إنني أخدمُ الليدي ستارك».
 - «وأنا أخدمُ الملك في الشَّمال، أو الملك الذي فقدَ الشَّمال كما يُسمِّيهِ البعض الآن، وهو لم يرغب قط في إعادة السير چايمي إلى عائلته».
 قال چايمي فيما وضع إلمار أمامه قطعةً داكنةً داميةً من اللحم المشوي: «اجلسي يا بريان. إذا كان بولتون ينوي قتلنا لما بدد برقوقه الثمين علينا وعرض أحشائه لخطر الإمساك»، وحدق إلى اللحم مدرِّكاً أنه لا يستطيع تقطيعه بيدٍ واحدة. «إنني أسوأ أقل من فتاة الآن. الكباش جعل الصَّفقة عادلة حين قطع يدي، وإن كنتُ أشك في أن الليدي كاتلين ستشكره عندما تُعيد سرسي فتاتها في حالة مماثلة. جعله الخاطر يعبس. أراهن أنني سألامُ على هذا أيضًا».

قطع رويس بولتون لحمه بعنايةٍ لیسيل الدَّم في طبقه، وقال: «ليدي بريان، هل ستجلسين إذا قلتُ لكِ إنني أملُ أن أرسل السير چايمي في طريقه كما ترغبين أنتِ والليدي كاتلين؟».
 - «أنا... ستترُكنا نذهب؟». لاح الحذر في نبرة الفتاة، لكنها جلست.
 «هذا عظيم يا سيدي».

- «نعم، إلا أن اللورد فارجو تسبَّب لي في... مشكلةٍ صغيرة»، وعاد بولتون يلتفت إلى چايمي قائلاً: «هل تعرف لماذا قطع هوت يدك؟».
 أجاب چايمي رامقاً ضماداته الملوثة بالدَّم والنبيد: «إنه يستمتع بقطع الأيدي، والأقدام أيضًا، ولا يبدو أنه يحتاج إلى سبب».

- «لكنه كان يملك سببًا على الرغم من هذا. هوت أكثر مكرًا مما يبدو. لا أحد يقود جماعة كرفقة الشُّجعان دون أن يتحلَّى بالقليل من الذكاء»، وطعن بولتون قطعةً من اللحم برأس خنجره ووضعها في فمه ومضغها بعنايةٍ ثم ابتلعها، قبل أن يتابع: «اللورد فارجو تخلَّى عن عائلة لانستر لأنني عرضتُ عليه (هارنهال)، الجائزة الأعظم ألف مرَّة من أيِّ شيء كان يأمل في نيله من اللورد تايوين، وبصفته غريبًا على (وستروس) فإنه لم يعرف أن الجائزة مسمومة».

قال چايمي ساخرًا: «لعنة هارن الأسود؟».
 رفع بولتون كأسه فملأها إلمار بصمغٍ بينما قال: «لعنة تايوين لانستر».

كان على كبشنا أن يستشير آل تاربيك أو آل راين، فكانوا ليُحذِّروه من معاملة أبيك للخونة».

- «ليس هناك آل تاربيك أو آل راين».

- «بالضبط. لا ريب أن اللورد فارجو كان يأمل أن ينتصر اللورد ستانيس في (كينجز لاندنج)، ومن ثمَّ يُصدِّق على استحواذه على هذه القلعة امتناناً للدور الذي لعبه في سقوط عائلة لانستر»، وقهقهة بجفافٍ مواصلاً: «أخشى أنه يعرف القليل عن ستانيس باراثيون أيضاً. كان يُعطيهِ (هارنهال) لقاء خدمته... لكنه كان ليُعلِّقه من أنشودة لجرائمه».

- «الأنشودة مصير أرحم مما سيناله من أبي».

- «وهو ما يُدرِكه الآن. مع انكسار ستانيس وموت رنلي فلا شيء سيُنقِذه من انتقام اللورد تاوين إلا انتصار ستارك، لكن فُرص أن يحدث هذا تتضاءل بإطراد».

قالت بريان بحزم: «الملك روب انتصر في كلِّ معركةٍ خاضها». مخلصاً هي في الكلام كما تُخلص في الفعل.

- «انتصر في كلِّ معركةٍ عليّ حين خسرت آل فراي وآل كارستارك (ويتترفل) والشمال. مؤسفٌ أن الذئب صغير للغاية. كل صبيٍّ في السادسة عشرة يؤمن بأنه خالد لا يُقهر. أعتقدُ أن رجلاً أكبر كان ليستسلم ويركع. بعد الحرب يحلُّ السَّلام، ومع السَّلام هناك عفو... عن أمثال روب ستارك على الأقل، لكن ليس أمثال فارجو هوت»، وأعطى بولتون چايمي ابتسامَةً خفيفةً مردفاً: «كلا الطرفين استغله، لكن أحداً منهما لن يذرف دمعةً واحدةً عليه عندما يموت. رفقة الشُّجعان لم تُقاتل في معركة (النَّهر الأسود)، لكنها ماتت هناك».

- «هل ستسامحني إذا لم أنعه؟».

- «الأ تُشفيق على كبشنا الهالك التَّعس؟ آه، لكن لا بُدَّ أن الآلهة تُشفيق عليه... وإلا لِمَ أوقعتك بين يديه؟»، ولاك بولتون قطعةً أخرى من اللحم قبل أن يُواصل: «(كارهولد) أصغر وأحقر من (هارنهال)، لكنها بعيدة جداً عن مخالِب الأسد، وربما يُصبح هوت لوردًا بحقٍّ بمجرد أن يتزوَّج أليس كارستارك. إذا استطاع أن يقبض القليل من الذهب من أبيك فلا بأس، لكنه

كان لِيُسَلِّمَكَ إلى اللورد ريكارد مهما دفعَ اللورد تاويين، ويتلقَى الفتاة وملاذًا آمنًا ثمناً. لكن لبييعك فعليه أن يحتفظ بك، وأراضي النهر ملأى بمن سيُسعِدُهم اختطافك. جلوفر وتولهارت انكسرا في (وادي الغسق)، لكن فلولاً من جيشهما تظلُّ طليقةً، والجبل يُطارِدُ ويذبح الشَّاردين منهم، وثمة ألف من رجال كارستارك يذرعون الأنحاء جنوب وشرق (ريفررن) بحثاً عنك، وفي أماكن أخرى رجال داري بلا لورد أو قانون، قطعان من الذئاب ذات الأقدام الأربع، بخلاف جماعات سيّد البرق الخارجة عن القانون. دونداريون سيُسَنِّقُك مع الكبش من شجرة واحدة بكلِّ سرور»، وغمَسَ سيّد (معقل الخوف) قطعة خبز في الدَّم مردفاً: «(هارنهال) كانت المكان الوحيد الذي يسمح للورد فارجو بالحفاظ على سلامتك، لكن عدد شُجعانه هنا أقل بكثير من رجالي، بالإضافة إلى السير إينس ورجال فراي. لا شكُّ أنه خشِي أن أعيدك إلى السير إدميور في (ريفررن)... أو الأسوأ، أن أعيدك لأبيك. بتر يدك أزاح تهديد براعتك في استخدام السَّيف عن طريقه، وريح تذكّاراً شنيعاً يُرسله لأبيك، وقلل من قيمتك عندي، لأنه رجلي كما أني رجل الملك روب، أي أن جريمته جريمتي، أو هكذا ستبدو للسيّد والدك، وهنا تكمن... مشكلتي الصَّغيرة»، ورمقَ چايمي بعينين مترقبتين باردتين لا تطرفان. فهمتُ. «تريدني أن أبرئك من اللوم، أن أقول لأبي إن هذه الجَدعة ليست من صنْعك»، وضحكَ چايمي قائلاً: «سيّدي، أعديني إلى سرسي وسأعني على مسامح أبي أعذب أغنيّة عن معاملتك الحسنة لي». يعلم أنه إذا أجاب بأيّ شيءٍ آخر لأعادَه بولتون إلى الكبش. «لو كانت لي يد لكتبتُ أن من شوّهني هو المرتزق الذي جلبه أبي إلى (وستروس)، ومن أنقذني هو اللورد بولتون النّيبيل».

- «سأثقُ بكلمتك أيها الفارس».

شيء لا أسمعُه كثيرًا. «متى تسمح لنا بالذهاب؟ وكيف تنوي أن تجتاز بي كلَّ هؤلاء الذئاب واللصوص ورجال كارستارك؟».

- «ستُغادر عندما يقول كايبرن إنك قويٌّ كفايةً، تحت حراسةٍ مشدّدة من الرّجال المنتقنين يقودهم رجلي والتون ذو السّاقين الفولاذ. إنه جندي إرادته من حديد. سيحرص والتون على إعادتك آمنًا سليمًا إلى (كينجز لاندنج)».

قالت الفتاة: «بشرط أن تعود ابنتا الليدي كاتلين آمتين سليمتين أيضًا. إننا نُرَحِّب بحماية رجلك والتون يا سيّدي، لكن الفتاتين مسؤوليتي أنا». رمقها سيّد (معقل الخوف) بلا اهتمام قائلاً: «لم تعودي في حاجةٍ إلى القلق على الفتاتين يا سيّدي. الليدي سانزا زوجة القزم الآن، ولا يستطيع التفريق بينهما إلا الآلهة».

قالت بريان بارتياح: «زوجته؟ العفريت؟ لكن... لكنه أقسم أمام البلاط كلّه وشهدت عليه الآلهة والبشر...».

يا لبراءتها. كان چايمي مندهشًا مثلها تقريبًا، لكنه أخفى دهشته أفضل منها. سانزا ستارك. لا بُدَّ أن هذا كفيل برسم ابتسامة على وجه تيريون. تذكّر كم كان أخوه سعيدًا مع ابنة المزارع الصّغيرة... طيلة أسبوعين لا أكثر. قال اللورد بولتون: «ما أقسم أو لم يُقسَم عليه العفريت لا يهمّ الآن، سيّما بالنسبة لك»، بدت الفتاة مكلومة، وربما أحسّت أخيرًا بفكّي الشّرك الفولاذيّين لمّا أشار الرّجل الشّمالي إلى حُرّاسه مواصلاً: «السير چايمي سيواصل طريقه إلى (كينجز لاندنج)، لكنني أخشى أنني لم أقل شيئًا عنك. من غير المقبول أن أحرم اللورد فارجو من كلتا غنيمتيه»، والتقط سيّد (معقل الخوف) برقوةً أخرى، وأردف: «لو أنني في مكانك يا سيّدي لكففت عن القلق على آل ستارك واهتممتُ أكثر بالصّفير».

تيريون

سهل حسان بصبر نافذ وراءه من وسط صفوف ذوي المعاطف الذهبية الذين وقفوا منتظمين بعرض الطريق، وسمع تيريون اللورد جايلز يسأل أيضًا. لم يكن قد طلب حضور جايلز، تمامًا كما لم يطلب السير أدام أو چالابار شو أو أيًا من الباقين، لكن السيد والده قدّر أن دوران مارتل سيعدها إساءة إذا وجد قزمًا لا غير ينتظر لاصطحابه عبر (النهر الأسود).

فكر وهو راكب حصانه منتظرًا: كان يجب أن يستقبل چوفري الدورنيين بنفسه، لكنه كان يئس الأمر كله لا ريب. في الفترة الأخيرة اعتاد الملك ترديد الدعابات التي يسمعها من جنود تايرل عن الدورنيين. كم دورنيًا يتطلب تركيب حدوة حسان؟ تسعة، أحدهم يُركب الحدوة والثمانية الآخرون يرفعون الحصان. بشكل ما لا يحسب تيريون أن دوران مارتل سيجد هذا طريقًا.

رأى الرّايات تخفق إذ خرج الرّاكبون من خُصرة الغابة الحيّة في ركب مغبرّ طويل. بين هنا والنّهر لم يتبقّ إلا ثلاث أشجار جرداء مسوّدة، تركّة معركة. رايات كثيرة للغاية، قال لنفسه بجهامة وهو يرقب سنايك الخيول المقترية ترُفس الرّماد، كما فعلت سنايك خيول طليعة جيش تايرل التي داهمت ستانيس من المؤخّرة. مارتل أحضر معه نصف لوردات (دورن) على ما يبدو. حاول التّفكير في خيرٍ ما قد يأتي من هذا لكن عبثًا، وسأل برون: «كم راية تُحصي؟».

ظللّ الفارس المرتزق عينيه بيده قائلاً: «ثمانية... لا، تسعًا».

التفت تيريون إلى الخلف، وقال: «بود، تعال هنا. صف الرّموز التي تراها وقل لي العائلات التي تُمثّلها».

دنا پودريك پاين بحصانه المخصي وقد حمل العلم الملكي - وعمل وأسد
چوفري - بمشقة، أمّا برون فحمل راية تيريون، أسد لانستر الذهبي على
خلفية قرمزية.

قال تيريون لنفسه بينما وقف پود على ركابتي حصانه طلباً لرؤية أفضل:
إنه يزداد طولاً، وقریباً سيقف أمامي بقامة فارعة ككل الآخرين. لقد اجتهد
الصبي في دراسة رموز النبالة الدورنية كما أمره تيريون، لكنه كان متوتراً
بعادته، وقال: «لا أرى. إنها تخفق بشدة بسبب الريح».

- «برون، أخبر الصبي بما تراه».

يبدو برون كفارس أصيل اليوم، وقد ارتدي سترته ومعطفه الجديدین،
وعبر صدره تمتد السلسلة ذات شكل ألسنة اللهب. تطلع إلى الرايات، ثم
قال: «شمس حمراء على خلفية برتقالية، تخترقها حربة».

قال پودريك پاين من فوره وقد بدت عليه الراحة بوضوح: «مارتل، رمز
آل مارتل أولاد (صنسپير) يا سيدي، أمير (دورن)».

ردّ تيريون بجفاف: «حتى حصاني يعرف هذا. أعطه رمزاً آخر يا برون».
- «ثمة علم أرجواني بكرات صفراء».

قال پود بأمل: «أهو ليمون؟ حقل أرجواني يتناثر فيه الليمون؟ رمز عائلة
دالت من... من (غابة الليمون)».

- «ربما. التالي طائر أسود كبير على خلفية صفراء، يحمل بمخالبه شيئاً
وردياً أو أبيض. يصعب التبين مع خفقان الراجعة».

- «عقاب بلاكمونت يحمل رضيعاً بمخالبه. آل بلاكمونت أولاد
(بلاكمونت) يا سيدي».

ضحك برون قائلاً: «هل عدت إلى القراءة؟ الكتب ستفسد عينيك اللتين
تري بهما سيفك يا فتى. أرى جمجمة على راية سوداء».

قال پود بنبرة ثقة تتزايد مع كل إجابة صحيحة: «جمجمة عائلة مانوودي
المتوجة، عظم وذهب على خلفية سوداء. آل مانوودي أولاد (مقبرة الملك)».

- «ثلاثة عنكب سوداء؟».

- «إنها عقارب يا سيدي. آل كورجايل أولاد (حجر الرمل)، ثلاثة عقارب

سوداء على خلفية حمراء».

- «أحمر وأصفر وبينهما خط متعرج».
- «لهب (هضبة الجحيم)، عائلة أولر».
- فكر تيرون شاعرًا بالإعجاب: الصَّبِي ليس أحمر حقًا بمجرد أن تنحلَّ عُقدة لسانه. «أكمل يا بود. إذا عرفتها جميعًا سأعطيك هدية».
- قال برون: «فطيرة شرائحها حمراء وسوداء. هناك يد ذهبية في المنتصف».
- «آل أليرون أولاد (عطية الآلهة)».
- «دجاجة حمراء تلتهم ثعبانًا على ما يبدو».
- «آل جارجالن أولاد (ساحل الملح). إنها أصلة⁽¹⁾ يا سيدي، معذرة، ليست دجاجة. أصلة حمراء في منقارها ثعبان أسود».
- صاح تيرون: «رائع! تبقى رمز واحد يا فتى».
- تفحص برون صفوف الدورنيين المقترين، ثم قال: «الأخير مروحة ذهبية على مربعات خضراء».
- «ريشة ذهبية يا سيدي. آل چورداين أولاد (الربوة)».
- قال تيرون ضاحكًا: «تسع رايات، أحسنت. لم أكن لأتعرّفها كلّها عن نفسي». إنها كذبة، لكن من شأنها أن تبتّ شيئًا من الفخر في الصَّبِي، وهو الشَّيء الذي يحتاج إليه بشدة.
- يبدو أن مارتل أحضرَ معه رفاقًا مهيبين حقًا. ولا واحدة من العائلات التي ذكرها بود صغيرة أو تافهة. تسعة من أكبر لوردات (دورن) قادمون عليّ (طريق الملوك)، هم أو وراثتهم، ولسبب ما لم يحسب تيرون أنهم قطعوا كل هذا الطريق الطويل الشاق ليتفرّجوا على الدُّب الرّاقص. في مجيء هؤلاء رسالة. وليست رسالة تروقي إطلاقًا. تساءل إن كان أخطأ في إرسال مارسلا إلى (صنسبير).
- فجأة قال بود بشيء من الخشية: «سيدي، لا يوجد هودج».
- التفت تيرون برأسه بحركة حادة، ورأى أن الصَّبِي مصيب.
- قال الصَّبِي: «دوران مارتل يُسافر في هودجٍ دائمًا، هودج مزدان بالتقوش، وستائر الحرير عليها رمز الشمس».

(1) الأصلة حيوان خرافي يوصف في الأساطير بأن له جسد حيةً وجناحين ورأس ديك. (المترجم).

كان تيريون قد سمع الكلام ذاته. الأمير دوران تجاوزَ الخمسين من العمر، ومصاب بالتهقرس. ربما أراد أن يتحركَ بسرعة أكبر، أو ربما خشي أن يكون الهودج هدفًا مغريًا لقاطعي الطريق، أو أن يكون ثقيلًا بطيئًا في ممرات (طريق العظام) العالية. ربما خف نقرسه قليلًا.

لماذا إذن يتابه هذا الشعور السيئ؟

وجد الانتظار لا يطاق، فقال بحدّة: «فلتقدّم الرّيات. سنُقابلهم»، وهمز حسانه ومعه تحرك برون ويود على جانبه، ولما رآهم الدورثيون يتقدّمون همزوا أحصنتهم بدورهم لتخفق رياتهم بقوة أكبر. من سروجهم الأنيقة المنمّقة علقت التروس المعدنية المستديرة التي يُفضّلون استخدامها، وحمل كثير من منهم رزمًا من الحراب القصيرة أو الأقواس الدورثية ذات المنحنيين التي يُجيدون الرّماية بها من فوق ظهور الخيول.

ثمّة ثلاثة أنواع من الدورثيين كما لاحظَ الملك داريون الأول. هناك الدورثيون الملحّيون الذين يعيشون على السّواحل، والدورثيون الرّمليّون الذين يقطنون في الصّحاري ووديان الأنهار الطويلة، والدورثيون الحجريّون الذين أقاموا معاقلمهم في ممرّات ومرتفات (الجبال الحمراء). الملحّيون أقرب الدورثيين نسبيًا إلى الروينار، والحجريّون أبعدهم.

بدا أن الأنواع الثلاثة ممثلة جيّدًا في حاشية دوران. الملحّيون سُمر رشيقون، بشرتهم زيتونيّة ناعمة وشعرهم طويل يُرفرف في الرّيح، والرّمليّون أكثر اسمرارًا وقد أكسبت شمس (دورن) الحارقة بشرتهم لونًا بُنيًا، ولذا يلقون أو شحة زاهية طويلة حول خوذاتهم كي لا يُصابوا بضربة الشّمس، أمّا الحجريّون فأبهاهم، بما أنهم أولاد الأنداليين والبشر الأوائل، شعرهم بُني أو أشقر، ووجوههم منمّشة وقد سفعتها الشّمس بدلًا من أن تحرقها.

ارتدى اللوردات ثيابًا ذات أكمام فضفاضة من الحرير والساتان، وتمنطقوا بأحزمة مرصّعة بالجواهر، وطلّبت دروعهم بطبقات سميكة من المينا وزُحرفت بالنّحاس المصقول والفضّة اللامعة والذهب الأحمر الرّقيق، وقد جاءوا راكبين خيولًا حمراء وذهبيّة، وإن كان بعضها شاحبًا كالثلّج، لكن جميعها نحيل سريع، برقاب طويلة ورؤوس ضيقة جميلة. جياد الرّمال الدورثية الشّهيرة أصغر حجمًا من خيول الحرب العاديّة ولا تقوى على حمل

الدُّرُوعِ الثَّقِيلَةِ، لَكِنْ يُقَالُ إِنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْدُو نَهَارًا وَلَيْلَةً ثُمَّ نَهَارًا آخَرَ دُونَ أَنْ تَكُلَّ أَبَدًا.

امتطى قائد الدورنيين فحلًّا أسود كالخطيئة له عُرف وذيل بلون النيران، وقد جلسَ الرَّجُلُ فَوْقَ سَرَجِهِ كَأَنَّهُ وُلِدَ هُنَاكَ، طَوِيلًا نَحِيفًا رَشِيقًا، وَانْسَدَلَ مِعْطَفَ أَحْمَرَ مِنَ الْحَرِيرِ الرَّمْلِيِّ مِنْ عَلَى كَتْفَيْهِ، بَيْنَمَا دُرِعَ قَمِيصَهُ بِأَقْرَاصٍ مَتَدَاخِلَةٍ مِنَ الثُّحَاسِ تَلْمَعُ كَأَلْفِ عُمَلَةٍ مَسْكُوكَةٍ لِنَوَّهَا، وَاتَّخَذَتْ مَقْدَمَةً خَوْذَتَهُ الْمَذْهَبَةَ شَكْلَ شَمْسِ نُحَاسِيَّةٍ، وَحَمَلَ الثَّرْسَ الْمَعْلَقَ وَرَاءَهُ شَمْسٌ وَحَرِيَّةٌ عَائِلَةٌ مَارْتَلٌ عَلَى سَطْحِهِ الْمَعْدِنِيِّ الْمَصْقُولِ.

فَكَرَّ تِيرِيونٌ وَهُوَ يَجْذِبُ عِنَانَ حِصَانِهِ: شَمْسٌ مَارْتَلٌ، لَكِنْ مِنْ يَحْمِلُهَا أَصْغَرَ بَعْشَرَةِ أَعْوَامٍ، نَاهِيكَ بِرِشَاقَتِهِ وَقُوَّتِهِ. الْآنَ يَعْلَمُ مَعَ مَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَامَلَ، وَسَأَلَ نَفْسَهُ: كَمْ دَوْرِيًّا يَتَطَلَّبُ انْدِلَاعَ حَرْبٍ؟ فَأَجَابَتْهُ: وَاحِدٌ فَقَطْ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ خِيَارٌ غَيْرَ أَنْ يَبْتَسِمَ وَيَقُولَ: «أَهْلًا بِكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ. لَقَدْ بَلَّغْنَا خَبَرَ اقْتِرَابِكُمْ، وَطَلَبَ مِنِّي جَلَالََةَ الْمَلِكِ چَوْفَرِيِّ أَنْ أُخْرِجَ لِأَرْحَبَ بِكُمْ بِاسْمِهِ، وَالسَّيِّدَ وَالَّذِي يَدُ الْمَلِكِ يُرْسِلُ تَحِيَّاتَهُ أَيْضًا»، وَتَظَاهَرَ بِالْوُدِّ الْمَرْتَبِكِ مَتَسَائِلًا: «مَنْ مِنْكُمْ الْأَمِيرُ دُورَانُ؟».

- «صَحَّةُ أَخِي تَتَطَلَّبُ أَنْ يَبْقَى فِي (صَنْسَبِيرِ)»، قَالَ الْأَمِيرُ الصَّغِيرُ رَافِعًا خَوْذَتَهُ، وَتَحْتَهَا كَانَ وَجْهُ صَارِمٍ انْتَشَرَتْ فِيهِ التَّجَاعِيدُ، بِحَاجِبَيْنِ رَفِيعَيْنِ مَقْوَسَيْنِ فَوْقَ عَيْنَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ يُدْكَرُكَ سَوَادُهُمَا وَلِمَعْتَهُمَا بِبِرْكَتَيْنِ مِنَ النَّقْطِ، بَيْنَمَا تَخْطُ خُصَلَاتٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الشَّيْبِ الْفَضِّيِّ شَعْرَهُ الْأَسْوَدَ الصَّقِيلَ الَّذِي يَنْحَسِرُ عَنْ جَبِينِهِ بِشَكْلِ مَدَبَّبٍ كَأَنفِهِ الْمَعْقُوفِ. فَكَرَّ تِيرِيونٌ: دُورِنِيٌّ مَلْحِي بِالتَّأَكِيدِ، وَقَالَ الرَّجُلُ: «الْأَمِيرُ دُورَانُ أَرْسَلَنِي لِلانْضِمَامِ إِلَى مَجْلِسِ الْمَلِكِ چَوْفَرِيِّ بَدَلًا مِنْهُ، بَعْدَ إِذْنِ جَلَالَتِهِ».

- «سَيَسْعِدُ جَلَالَتُهُ لِلْغَايَةِ بِأَنْ يَكُونَ أَحَدَ مَسْتَشَارِيهِ مُحَارِبًا شَهِيرًا كَالْأَمِيرِ أُوْبَرِينَ بْنِ (دُورِنِ)»، رَدَّ تِيرِيونٌ مَفْكَرًا: وَسَتَسِيلُ الدِّمَاءُ فِي الشَّوَارِعِ أَنْهَارًا. «وَرِفَاقُكَ التُّبَلَاءُ عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ أَيْضًا».

- «اسْمَحْ لِي بِأَنْ أَقْدِمَهُمْ لَكَ يَا سَيِّدِي لِانْسَتِرِ. السَّيْرُ دِيزِيلٌ دَالَتْ مِنْ غَابَةِ اللَّيْمُونِ)، اللَّوْرْدُ تَرِيْمُونْدُ جَارْجَالِنِ، اللَّوْرْدُ هَارْمَنْ أَوْلَرُ وَأَخُوهُ السَّيْرُ أَوْلُولِيكُ، السَّيْرُ رِيونُ أَلِيرِيونُ وَابْنُهُ الطَّيْبَعِيُّ السَّيْرُ دِيْمُونُ سَانْدُ نَغْلٍ (عَطِيَّةٌ

الآلهة)، اللورد داجوس مانوودي وأخوه السير مايلز وابناه مورس وديكون، السير أرون كورجايل. ولا يحسبن أحد أني قد أهمل تقديم السيدات. ميريا چورداين وريثة (الهضبة)، الليدي لارا بلاكمونت وابنتها چاينيسا وابنها بيروس»، ورفع يداً ناحلةً إلى امرأة سوداء الشعر بالقرب من مؤخرة الركب مشيراً إليها بالاقتراب، وأضاف: «وهذه إلاريا ساند، خليلتي».

ابتلع تيريون أنيناً ساخطاً، وقال لنفسه: خليلته، ونغلة أيضاً. سيجن جنون سرسي إذا أرادها أن تحضر الزفاف. إذا خصصت أخته للمرأة مكاناً في ركن مظلم تحت الملح، فإنها تخاطر بإثارة غضب الأفعوان الأحمر، وإذا أجلستها إلى جواره على المائدة العالية ستعدها كل ليدي أخرى على المنصة إهانة. هل انتوى الأمير دوران أن يستفزنا ويبدأ نزاعاً ما؟

دار الأمير أوبرين بحصانه ليواجه رُفقاءه الدورنيين قائلاً: «إلاريا، أيها اللوردات والليدييات والفرسان، انظروا كم يُحِبُّنا الملك چوفري. لقد تَلَفَّ جلالته بإرسال خاله العفريت ليصطحبنا إلى بلاطه».

كتم برون ضحكته، واضطرَّ تيريون لأن يتظاهر بالمرح بطبيعة الحال، وقال: «لست وحدي أيها السادة. هذا واجب أكبر كثيراً من يؤدِّيه رجل صغير مثلي بمفرده»، كانت مجموعته قد لحقت بهم، ودوره الآن أن يقدِّمها. «اسمحوا لي بتقديم رفاقي. السير فليمنت براكس وريث (هورنقىل)، اللورد جايلز سيّد (روزبي)، السير أدام ماربراند حضرة قائد حرس المدينة، چالابار شو أمير (وادي الزهرة الحمراء)، السير هاريس سويفت حمو عمي السير كيثان، السير مرلون كراكهول، بالإضافة إلى السير فيليب فوت والسير برون فارسا (النهر الأسود)، وهما من أبطال معركتنا الأخيرة ضد المتمرد ستانيس باراثيون، وتابعي الشخصي پودريك سليل عائلة پاين». كان للأسماء وقع لطيف بينما سردها تيريون، لكن أصحابها ليسوا مميّزين أو مهيين مطلقاً كمن يُرافِقون الأمير أوبرين، وكلاهما يعرف هذا خير المعرفة.

قالت الليدي بلاكمونت: «سيدي لانستر، لقد سلكنا طريقاً طويلاً مغبراً، وسنرحب بشدة بالراحة والقليل من الطعام والشراب. هل تسمح بأن نواصل الطريق إلى المدينة؟».

ردَّ تيريون: «في الحال يا سيديتي»، وأدار رأس حصانه منادياً السير أدام

ماربراند، فدارَ ذُو المعاطفِ الذَّهبيَّةِ الذين يُشكِّلون السَّوادَ الأعظمَ من رِفقتِه بخيولهم وقد أعطاهم السيرَ أدام أمرَ التَّحرُّكِ، وانطلقوا إلى النَّهَرِ و(كينجته لاندنج) وراءه.

تمتَّ تيريون لنفسه بصوتٍ بالغِ الخفوتِ وهو يتحرَّكُ إلى جوارِ الأميرِ: أوبرين نايميروس مارتل، أفعاون (دورن) الأحمر، وماذا عليَّ أن أفعلَ معه بحقِّ الجحائمِ السَّبعِ؟

إنه يعرف الرَّجُلَ بالسُّمعةِ فقط بالطَّبعِ... لكنها سُمعةٌ مخيفةٌ حقًّا. كان الأميرُ أوبرين في السَّادسةِ عشرةِ لا أكثرَ حينَ ضُبطَ في الفِراشِ مع خليعة اللوردِ يرونود العجوزِ، وهو رجلٌ ضخَمٌ ذو صيِّتٍ ذائعٍ وغضبةٍ سريعةٍ، وترتَّبَ على هذا نزالٌ، لكن نظرًا إلى صِغَرِ سنِّ الأميرِ ونسبهِ العالِي، كان نزالًا حتى إراقةِ قطراتِ الدَّمِ الأولى لا أكثرَ، وجرحَ كلَّ من الرَّجلينِ الثَّانِي بالفعلِ وِعَوَّضَ العجوزَ عن شرفه المهانِ، غيرَ أن الأميرَ أوبرين تعافى من إصابته سريعًا بينما تعفَّنَ جرحُ اللوردِ يرونود وقتلَه. بعدها تهاَمَسَ النَّاسُ قائلين إن الأميرَ أوبرين قاتَلَ بسيفٍ مسمومٍ، ومنذ ذلك الحين والأصدقاء والأعداء على حدِّ سواء يُلقَّبونه بالأفعاونِ الأحمرِ.

كان هذا منذ سنواتٍ طويلةٍ، والصَّبيُّ ذو السَّنَةِ عشرَ عامًا رجلٌ تجاوزَ الأربعينِ الآن، رجلٌ تعاطمتْ أسطورتُه وأصبحتْ أكثرَ مدعاةً للرَّهبةِ. لقد ارتحلَ في المُدنِ الحُرَّةِ وتعلَّم فنونَ المسمِّمينِ وربما فنونًا أكثرَ سوادًا أيضًا إذا صدقتِ الشائعاتُ، ودرَسَ في (القلعة) حتى كوَّنَ ستَّ حلقاتٍ من سلسلة المايستر قبل أن يُصابَ بالمللِ ويُغادرَ، كما خدَمَ كجُندي في (أراضي النَّزاع) وراء (البحرِ الضيِّقِ)، وركبَ مع جماعةِ الأبناءِ الثَّانينِ فترةً قبل أن يُكوِّنَ جماعةَ الحُرَّةِ الخاصَّةِ. مبارياته، معاركه، نزالاته، خيوله، شهواته... يُقالُ إنه يُصاجعُ الرِّجالَ والنِّساءَ، وإنه أنجبَ فتياتٍ نغلاتٍ في جميعِ أنحاء (دورن)، يُسمِّيهن النَّاسُ أفاعي الرِّمالِ، لكن على حدِّ علمِ تيريون لم يُنجبِ الأميرُ أوبرين أبناءً قطُّ.

كما أنه أقعدَ وريثَ (هايجاردن).

لن يجدَ رجلٌ في (الممالكِ السَّبعِ) كلِّها ترحيبًا أقلَّ في زفافٍ لآل تايول. إرسال الأميرِ أوبرين إلى (كينجز لاندنج) بينما لا تزال المدينةُ تستضيفُ

اللورد مايس تايرل واثنين من أبنائه وتعجُّ بألوفٍ من جنودهم استفزاز خطير كالأمير أوبرين نفسه. كلمة خاطئة، دُعاة في الوقت غير المناسب، نظرة. لا يتطلب الأمر أكثر من هذا حتى يُطبق حلفاؤنا النبلاء على حناجر بعضهم بعضاً.

- «لقد التقينا من قبل»، قال الأمير الدورني ببساطة وهما راكبان جنبًا إلى جنب علي (طريق الملوك)، مارَّين بالحقول المحروقة وهاكل الأشجار. «لكني لا أتوقَّع أن تتذكَّر، فقد كنت أصغر مما أنت الآن».

كانت في صوته رنةٌ ساحرة لم ترقَّ تيريون، وإن لم يسمح لنفسه بالاستسلام لاستفزاز الدورني، وسأل بنبرة اهتمامٍ مهذب: «متى كان هذا يا سيدي؟».

- «أوه، منذ أعوام وأعوام، عندما كانت أمِّي تحكُم في (دورن) وأبوك يدًا لملك مختلف».

ليس مختلفاً للدرجة التي تحسبها.

- «كان هذا عندما زرتُ (كاسترلي روك) مع أمِّي ورفيقها وأختي إليا. كنتُ في... الرَّابِعة أو الخامسة عشرة، وإليا أكبر مني بعام. أخوك وأختك كانا في الثامنة أو التاسعة حسبما أذكرُ، وأنت كنت قد وُلدت للثو».

وقت غريب للزيارة. لقد ماتت أمُّه وهي تله، فلا بُدَّ أن أولاد مارتل وجدوا (الصخرة) كلها في حالة عميقة من الحداد، خصوصًا أباه. نادرًا ما يأتي اللورد تاويين على ذكر زوجته، لكن تيريون سمعَ أعمامه يتكلمون عن الحُبِّ الذي جمع بينهما. آنذاك كان أبوه يد إيرس، وردد كثير من اللورد تاويين لانستر يحكُم (الممالك السبع)، لكن الليدي چوانا تحكُم اللورد تاويين. ذات مرَّة قال له عمُّه جيري: «إنه لم يُعد كما كان بعد أن ماتت أيها العفريت. أفضل جزءٍ فيه مات معها». كان جيريون أصغر أبناء اللورد تايتوس لانستر الأربعة، والعمُّ الذي أحبه تيريون أكثر من الآخرين... لكنه رحل، ضاع وراء البحار، ووضع تيريون نفسه الليدي چوانا في قبرها.

- «هل رافقتك (كاسترلي روك) يا سيدي؟».

- «قليلاً جدًّا. أبوك تجاهلنا طيلة وجودنا هناك بعد أن أمر السير كيثان بتولي ضيافتنا. الحجيرة التي أعطوني إياها ضمَّت فراشًا بحشيشة ريش أنام فيه

وسجّادًا مايريًا على الأرض، لكنها كانت مظلمةً وبلا نوافذ، أدنى إلى زنزانه في الحقيقة كما قلتُ لإليّا وقتها. سماؤكم كانت ملبّدةً بالغيوم، ونبذكم محلّي جدًّا، ونساؤكم عفيفات أكثر من اللازم، وطعامكم عديم المذاق... وأنت نفسك كنت أكبر خيبة أمل على الإطلاق».

«كنتُ مولودًا لتويّ، فماذا توقّعت مني؟».

أجابَ الأمير أسود الشَّعر: «البشاعة! كنتُ صغيرًا لكن مشهورًا. كنا في (البلدة القديمة) وقت ميلادك، والمدينة كلها تتكلّم عن الوحش الذي أنجبه يد الملك، وما قد يعنيه نذير شؤم كهذا لمستقبل البلاد».

قال تيريون بابتسامةٍ عابسة: «المجاعات والأوبئة والحروب لا شك. إنها المجاعات والأوبئة والحروب دومًا. أوه، والشتاء، واللَّيل الطويل الذي لا ينتهي أبدًا».

قال الأمير أوبرين: «جميع هذه الأشياء، وسقوط أيبك أيضًا. سمعتُ أحد الإخوة الشَّحاذين يقول واعظا في الشَّارع إن اللورد تايوين جعل نفسه أعظم من الملك إيرس، لكن لا يُفترَض أن يعلو فوق ملكٍ إلا إله. كنت أنت لعنته، العقاب الذي أنزلته به الآلهة لتُعلِّمه أن البشر كلُّهم سواسية، لا أحد منهم أفضل من الآخر».

تنهَّد تيريون قائلاً: «إنني أحاول، لكنه يرفض أن يتعلّم. لكن أكمل من فضلك. إنني أحبُّ الحكايات المسليّة».

- «وستحبُّ هذه بالتأكيد باعتبار ما كان يُقال عنك؛ إن لديك ذيلًا يابسًا معقوصًا كذيول الخنازير، ورأسك شديد الضخامة، يُناهز حجم جسدك مرّةً ونصف مرّة، وإنك وُلدت بشعر أسود كثيف ولحيةٍ أيضًا، وعين شريرة، ومخالب أسد، وأسنانك طويلة للغاية حتى إنك لا تستطيع أن تُغلق فمك، وبين ساقيك عُضو أنثى وعُضو ذكر في آن واحد».

- «لكانت الحياة أبسط كثيرًا إذا استطاع النَّاس أن ينكحوا أنفسهم، أليس كذلك؟ ويُمكنني التّفكير في بضعة مواقف كانت المخالب والأسنان لتتفنعني فيها، لكنني بدأتُ أرى طبيعة شكواك على الرغم من هذا».

أطلقَ برون ضحكةً، لكن أوبرين اكتفى بالابتسامة قائلاً: «ربما لم نكن لنراك على الإطلاق لولا أختك الجميلة. إننا لم نرك قط في أيِّ مكان، وإن كنا

نسمع أحياناً صوت رضيع يعوي في أعماق (الصخرة) في جوف الليل. كان صوتك جهورياً، يجب أن أعتزف بهذا، وكنت تبكي طيلة ساعاتٍ وساعات، فلا تُهدّئك إلا حلمة امرأة». - «ما زال هذا صحيحاً».

هذه المرّة ضحك الأمير أوبرين، وقال: «نزعة نشترك فيها. في مرّة قال لي اللورد جارجالن إنه يأمل أن يموت وفي يده سيف، فرددتُ قائلاً إنني أوثر أن أموت وفي يدي نهد».

ابتسم تيريون مرغماً وهو يقول: «كنت تتكلّم عن أختي».

- «وعدت سرسي إلبا بأن تُرينا إياك، وفي اليوم السّابق لإبحارنا، فيما اجتمعت أمّي بأبيك، أخذتنا مع چايمي إلى حُجرتك. حاولت مرصعتك أن تصرفنا، لكن أختك رفضت تماماً، وقالت: إنه لي، وأنت مجرد بقرة حلوب ولا يُمكنك أن تُخبريني بما أفعله، فاصمّتي وإلا جعلتُ أبي يقطع لسانك. البقرة لا تحتاج إليّ لسان، بل إلى ضروع فقط».

- «جلالتها تعلمت الفتنة في سنّ مبكرة»، قال تيريون متفكّهاً بفكرة أن تقول أخته إنه لها. «لكن الآلهة تعلم أنها لم تُحاول أن تُعلن أنني لها منذ ذلك الحين».

تابع الأمير الدورني: «حلّت سرسي قِماطك أيضاً من أجل أن نلقي نظرة أفضل. نعم، كانت لك عين شريرة وشيء من الرّغب على فروة رأسك، وربما كان رأسك أكبر قليلاً من معظم الرّؤوس... لكن لم يكن هناك ذيل أو لحية، لا أسنان أو مخالب، ولا شيء بين ساقيك إلا عُضو ذكري وردي ضئيل. بعد كلّ تلك الشائعات الرّائعة اتّضح أن هلاك اللورد تايوين مجرد رضيع أحمر قبيح بساقين ناقصتي النّمو، حتى إن إلبا أصدرت تلك الأصوات التي تُصدرها الفتيات لمرأى الرّضيع. لا بُدّ أنك سمعتها من قبل، الأصوات نفسها التي يُصدرنها حين يرين الهُريرات الجميلة والجراء اللعوب، وأعتقد أنها أرادت أن تُرضعك بنفسها على الرغم من قُبْحك. عندما علقتُ قائلاً إنك وحش مخيّب للآمال حقاً، قالت أختك: لقد قتل أمّي، واعتصرت ذكرك الصّغير بقوة جعلتني أتصوّر أنها ستتزعجه، وظللت أنت تصرّخ حتى قال چايمي: دعيه، إنك تُؤلمينه، فتركتك سرسي وقالت لنا: لا يهمّ. الجميع يقولون إنه

سيموت قريبًا. لم يكن من المفترض أن يعيش كلَّ هذه المدَّة أصلاً». كانت الشَّمس ساطعةً فوقهم والنَّهار دافئًا على نحوٍ محبَّب بالنَّسبة لأجواء الخريف، لكنَّ البرد اجتاح جسد تيريون لانستر كلَّه لَمَّا سمعَ هذا. أُختي العزيزة. حَكْ نَدْبَة أنفه ورمقَ الأمير الدورني بـ«عينه الشَّريرة» مسأئلاً نفسه: لماذا يحكي قصَّة كهذه؟ هل يخبرني أم يعتصر قضبيي كما فعلتَ سرسي ليسمعني أصرخُ؟ «أحرص على أن تحكي هذه القصَّة لأبي. ستبَّهجه حقًا كما أبهجتني، خصوصًا الجزء المتعلِّق بذيلي. كان لي واحد بالفعل، لكنه أمرٌ بئره».

قال الأمير أوبرين ضاحكًا رغمًا عنه: «أصبحت أطرف مما كنت حين رأيتك آخر مرَّة».

- «نعم، لكنني أردتُ أن أصبح أطول!».

- «على ذِكر الطَّرافة، سمعتُ شيئًا مثيرًا للاهتمام من وكيل اللورد بوكلر، أنك فرضت ضريبةً على دخول النِّساء الخاصَّة».

أجاب تيريون والشُّعور بالضيق يُعاوده: «إنها ضريبة على الدَّعارة». وكانت فكرة أبي اللعينة. «بنس واحد فقط على كلِّ، أه... زيون. رأى يد الملك أن من شأن هذا أن يُحسِّن أخلاق المدينة». ويدفع تكلفة زفاف چوفري أيضًا. غنيٌّ عن القول إن اللوم كلَّه وقع على تيريون باعتباره أمين النَّقد، وأخبره برون بأنهم يُسمُّون الضَّريبة «بنس القزم» في الشَّوارع، وإذا صدقَ المرتزق فإنهم يُنادون في المواخير والخمَّارات قائلين: «افتحي ساقيك للنِّصف رجل».

- «سأحرصُ على أن يظلَّ كيس نقودي ممتلئًا بالنِّسبات. حتى الأمراء عليهم أن يدفعوا الضَّرائب».

ألقي تيريون نظرةً إلى الورا على إلاريا ساند الرَّاكبة مع النِّساء، وسأله: «ولِمَ تحتاج إلى ارتياد بيوت الدَّعارة؟ هل مللت خليلتك على الطَّريق؟».

أجاب الأمير أوبرين: «إطلاقًا. إننا نتقاسم الكثير»، وهزَّ كتفيه مضيفًا: «لكننا لم نتقاسم شقراء جميلةً من قبل، وإلاريا تشعُر بالفضول. هل تعرف واحدةً بهذه المواصفات؟».

- «أنا رجل متزوِّج». وإن لم يتمَّ زواجي بعدُ. «ولم أعد أتردَّد إلى العاهرات». ما لم أكن أرغب في رؤيتهن مشنوقات.

غَيَّرَ أوبرين الموضوع فجأةً قائلاً: «يُقال إن سبعةً وسبعين صنفاً من الطَّعام سَتُقَدَّم في مأدبة زفاف الملك».

- «أأنت جائع يا سمو الأمير؟».

- «إنني جائع منذ زمن طويل، وإن لم يكن الطَّعام ما أشتهيه. أخبرني من فضلك، متى تتحقَّق العدالة؟».

- «العدالة». نعم، إنه هنا لهذا السَّبب. كان يجب أن أرى هذا في الحال. «هل كنت قريباً من أختك؟».

- «في طفولتنا كنْتُ وإلياً متلازمين طيلة الوقت، مثل أخيك وأختك».

لا أملُ هذا بحقِّ الآلهة! «الحروب والزَّفافات شغلَّتنا جميعاً أيها الأمير أوبرين، وأخشى أن الوقت لم يسمح لأحدٍ بعدُ بالتحقيق في جرائم وقعت منذ ستَّة عشر عاماً على الرغم من شناعتها، لكننا سنفعل بالطبع بمجرد أن نستطيع. أيِّ مساعدة تستطيع (دورن) تقديمها لإعادة إقامة سلام الملك سَتُعجَّل ببداية تحقيق أبي...».

قاطعَه الأفعوان الأحمر بنبرة غاب عنها وُدُّها السَّابق كثيراً: «اعفني من أكاذيب لانستر هذه أيها القزم. أتُحسِن خرافاً أم حمقى؟ أخي ليس رجلاً متعطِّشاً للدِّماء، لكنه لم ينعم بالنَّوم منذ ستَّة عشر عاماً. چون آرن زارنا في (صنسيير) في العام التَّالي لاستحواذ روبرت على العرش، ولك أن تثق بأننا استجوبناه بدقَّة، هو ومئة غيره. إنني لم آت من أجل تمثيلية التَّحقيق تلك، بل أتيتُ من أجل العدالة لإلياً وطفليها، وسأناها بدايةً بجريجور كليجاين... لكن ليس انتهاءً به. قبل أن يموت، سيُخبرني القاذورة راكبة الخيل ممَّن جاءت أوامره، وأرجو أن تُؤكِّد هذا لأبيك»، وابتسم مضيئاً: «ذات مرَّة زعم سِبتون عجوز أنني دليل حي على رافة الآلهة. أتعرف السَّبب أيها العفريت؟». ردَّ تيريون بحذر: «لا».

- «لأنها لو كانت قاسيةً لجعلتني أول أولاد أمِّي ودوران ثالثهم. إنني رجل متعطِّش للدِّماء، والآن عليك أن تتعامل معي أنا، وليس أخي الصَّبور المتعقِّل المبتلى بالنَّقرس».

رأى تيريون الشَّمس السَّاطعة على صفحة (النَّهر الأسود) على بُعد نصف ميل، وعلى أسوار وجُدران وتلال المدينة وراءه، وألقى نظرةً إلى الخلف على

الرَّكْب اللَّامِعُ الَّذِي يَتَّبِعُهُمْ عَلَى (طَرِيقِ الْمَلُوكِ)، ثُمَّ قَالَ: «تَتَكَلَّمُ كَرَجُلٍ وَرَاءَهُ جَيْشٌ عَرْمَرَمٌ، لَكِنِّي لَا أَرَى أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِمِئَةٍ. هَلْ تَرَى تِلْكَ الْمَدِينَةَ شِمَالِ النَّهْرِ؟».

- «مَقْلَبُ الْقِمَامَةِ الَّذِي تُسَمُّونَهُ (كَيْنِجْزْ لَا نَدِنْجْ)؟».

- «بِالضُّبُطِ».

- «لَا أَرَاهَا فَحَسْبُ، بَلْ أَعْتَقِدُ أَنِّي أَشْمُهَا أَيْضًا».

- «تَسْمَمُ جَيِّدًا إِذْنُ يَا سَيِّدِي، أَفَعِمَ أَنْفُكَ بِالرَّائِحَةِ. سَتَجِدُ أَنْ نِصْفَ مِليُونِ شَخْصٍ رَائِحَتُهُمْ أَسْوَأُ مِنْ ثَلَاثِمِئَةٍ. هَلْ تَسْمُ ذَوِي الْمَعَاظِفِ الذَّهَبِيَّةِ؟ هُنَاكَ زَهَاءٌ خَمْسَةُ آلَافٍ مِنْهُمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ جُنُودُ أَبِي يَبْلُغُونَ عَشْرِينَ أَلْفًا. ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ الْوُرُودَ. الْوُرُودُ عَطْرَةُ الرَّائِحَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَا سَيِّمَا حِينَ يَكُونُ هُنَاكَ الْكَثِيرُ جَدًّا مِنْهَا، نَحْوَ خَمْسِينَ أَوْ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ أَلْفَ وَرْدَةٍ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ مَخِيْمَةٍ خَارِجَهَا. لَا أَعْرِفُكُمْ بِالضُّبُطِ، لَكِنِ الْعَدَدُ أَكْبَرَ مِنْ أَنْ أَحْصِيَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ». هَزَّ مَارْتَلُ كَتْفَيْهِ قَائِلًا: «فِي (دُورِن) الْقَدِيمَةِ، قَبْلَ أَنْ تُنَاسِبَ دَايِرُونَ، كَانَ يُقَالُ إِنَّ الزُّهُورَ كُلَّهَا تَنْحَنِي أَمَامَ الشَّمْسِ، فَإِذَا سَعَتْ الْوُرُودُ إِلَى إِعَاقَتِي سَيُسْعِدُنِي أَنْ أَدْهَسَهَا دَهْسًا».

- «كَمَا دَهَسْتَ وَيْلَاسَ تَايِرْلُ؟».

لَمْ تَكُنْ رَدَّةُ فِعْلِ الرَّجُلِ الدُّورِنِيِّ كَمَا تَوَقَّعَ تَيْرِيُونَ، إِذْ قَالَ: «قَبْلَ أَقْلٍ مِنْ نِصْفِ عَامٍ بَلَغْتَنِي رِسَالَةٌ مِنْ وَيْلَاسَ. إِنَّا نَشْتَرِكُ فِي شَغْفِنَا بِالْخَيْلِ، وَهُوَ لَمْ يُضْمِرْ لِي ضَغِينَةً قَطُّ بِسَبَبِ مَا جَرَى فِي مِضْمَارِ النَّزَالِ. لَقَدْ ضَرَبْتُ وَاقِي صَدْرَهُ، لَكِنِ قَدَمَهُ عَلَقْتُ فِي رِكَابِهِ وَهُوَ يَقَعُ وَسَقَطَ حِصَانُهُ فَوْقَهُ. أَرْسَلْتُ إِلَيْهِ مَائِيسْتَرَ بَعْدَهَا، وَبِذَلِكَ قِصَارَى جِهَدِهِ لِإِنْقَازِ سَاقِ الصَّيْبِيِّ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ سَبِيلَ لِعِلَاجِ رُكْبَتِهِ. إِذَا كَانَ لَوْمٌ أَحَدٌ مُحْتَمًّا فَهُوَ ذَلِكَ الْأَحْمَقُ أَبُوهُ. وَيْلَاسَ تَايِرْلُ كَانَ أَخْضَرَ كَالشُّتْرَةِ الَّتِي ارْتَدَاهَا وَلَمْ يَكُنْ وَاجِبًا أَنْ يُنَازِلَ أَمْثَالَنَا. الْوُرْدَةُ الْبَدِينَةُ أَلْقَاهُ فِي الْمُبَارِيَّاتِ فِي سَنٍّ مَبْكَرَةٍ لِلْغَايَةِ، تَمَامًا كَمَا فَعَلَ مَعَ الْاِثْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ. أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ لِيُوَ لُونَجْثُورُنَ جَدِيدًا، وَانْتَهَى بِهِ الْأَمْرُ بِابْنِ عَاجِزٍ».

- «هُنَاكَ مَنْ يَقُولُونَ إِنَّ السَّيْرَ لِيُورَاسَ أَفْضَلَ مِمَّا كَانَ لِيُوَ لُونَجْثُورُنَ بكَثِيرٍ».

- «وَرْدَةُ رَنْلِيِّ الصَّغِيرَةِ؟ أَشْكَ فِي هَذَا».

- «شكَّ كما تشاء، لكن لوراس تايرل هزمَ فرساناً عظماء كثيرين، بمن فيهم أخي چايمي».

- «بقولك «هزمهم» تعني «أسقطهم عن خيولهم»، أي في المباريات. قل لي مَنْ قتل في المعركة إذا كنت تُريد أن تُخيفني».

- «السير روبار رويس والسير إمون كاي على سبيل المثال. يقولون إنه أبدى شجاعةً مذهلةً في معركة (النَّهر الأسود) وهو يُقاتِل إلى جوار شبح اللورد رنلي».

- «إذن فَمَنْ رأوا تلك الشَّجاعة المذهلة رأوا الشَّبح أيضاً؟»، قالها الدورني وأطلقَ ضحكةً خفيفةً.

رمقه تيريون بنظرةٍ طويلة، ثم قال: «ستجد ماخور شاتايا في (شارع الحرير)، حيث فتيات كثيرات قد يلائمن رغبتك. دانسي شعرها بلون العسل، وماري شعرها كالذهب الأبيض الشَّاحب. أنصحك بأن تحتفظ بإحدهما أو كليهما إلى جوارك طيلة الوقت يا سيدي».

رفع الأمير أوبرين حاجباً أسودَ رفيعاً، وسأله: «طيلة الوقت؟ ولم أيها العفريت العزيز؟».

ردَّ تيريون: «قلت إنك تُريد أن تموت وفي يدك نهد»، وهمزَ حصانه متقدِّماً إليّ حيث انتظرت العبارات على ضفة (النَّهر الأسود) الجنوبيَّة. لقد احتملَ كلُّ ما يستطيع احتمالَه مما يعده الدورنيون طرافةً. ربما كان حرياً بأبي أن يُرسل چوفري فعلاً. كان ليسأل الأمير أوبرين إن كان يعرف الفرق بين الدورنيين وروث الأبقار. جعله الخاطر يتسم رغماً عنه. سيتعمد أن يكون حاضرًا عندما يمثُل الأفعوان الأحمر أمام الملك.

آريا

ماتَ الرَّجُلُ الكامن على السَّطْحِ أَوْلًا. كان قابِعًا إلى جوار المدخنة على بُعد مئتي ياردة، لا يبدو أكثر من ظِلِّ مَبْهَمٍ في عتمة ما قبل الفجر، لكن إذ بدأت السَّمَاءُ تستنير تحرَّكَ وتمطى ونهضَ، فأصابه سهم أنجاي في صدره، ليتهاوى جسده الرَّخو من فوق السَّطْحِ الأردواز المنحدرِ ويسقط أمام باب السِّپتري⁽¹⁾ مباشرةً.

كان الممثلون قد عَيَّنوا حارسين هناك، لكن مشعلهما أعشاهما، واستطاعَ الخارجون عن القانون الرَّحف حتى مسافةٍ قريبة. سقط أحدهما بسهم في حلقه والثاني بسهم في بطنه، ليسقط معه المشعل ويلعقه اللهب، ووضعت الصَّرخة التي أطلقها مع شوب النَّار في ثيابه نهايةً للخلسة، فرفع ثوروس صوته بصيحة، وهاجمَ الخارجون عن القانون علانيةً.

شاهدت آريا من على ظهر حصانها فوق قَمَّةِ الأخدود المشجَّر التي تطلُّ على السِّپتري والطاحونة والمخمرة والاسطبلات، وما يحيط بها من خراب من الحشائش والشجر المحروق والأوحال. معظم الأشجار أجرد الآن، فلم تحجب الأوراق البتَّة الذَّابِلة القليلة التي ظلَّت متشبَّهةً بالغصون المنظر عن عينيها إلا قليلاً. كان اللورد بريك قد ترك ديك الحليق ومودج لحراستهما، وقد كرهت آريا أن تُترك هكذا كأنها مجرد طفلةٍ سخيفة، لكنهم أبقوا جندي معها على الأقل. كانت أعقل من أن تُحاول مجادلتهم، فهذه معركة، وفي المعارك عليك أن تُطيع.

(1) إذا كان السَّهْمُ معادلاً للكُنيسة في عالم الواقع، فالسِّپتري يُعادِلُ الدَّيرَ. (المتزجم).

توقّدت السَّمَاء بالذَّهبي والوردي، وفي الأعلى اختلَس الهلال النَّظر إليهم من بين السَّحاب الواطئ المُزجِّي، فيما هبَّت الرِّيح باردةً، وسمعت آريا خرير المياه المتدفقة وصرير عجلة الطاحونة الخشبيّة الكبيرة. أفعمت رائحة المطر هواء الفجر، لكن القطرات لم تبدأ في السُّقوط بعد، وحلقت السَّهام النَّاريّة شاقّة الضَّباب ومخلّفةً شرائط شاحبةً من اللهب في إثرها قبل أن تغرس في جدران السِّبيري الخشبيّة، واخترق بعضها النَّوافذ المغلقة، وسرعان ما بدأت خيوط الدُّخان تتصاعد من المصاريع المحطّمة.

اندفع اثنان من الممثّلين من الباب جنبًا إلى جنب وفي يد كلٍّ منهما بلطة، وكان أنجاي والرُّماة الآخرون في الانتظار. مات أحدهما في الحال، بينما وجدَ الثَّاني الوقت الكافي لينحني ليخترق السَّهم كتفه، وعلى الرغم من هذا ظلَّ يتقدّم إلى أن أصابه سهمان آخران بسُرعةٍ شديدة جعلت من الصَّعب على آريا أن تُدرك أيهما بلغه أولاً، ونفذ السَّهمان الطويلان من واقفي صدره كأنه مصنوع من الحرير لا الفولاذ، فسقط الرّجل كالجُلمود. كانت مع أنجاي سهام ذات رؤوس مرّعة، بالإضافة إلى الرُّوس التَّقليديّة، والرُّوس المرّعة يُمكنها اختراق الدُّروع الثَّقيلة. فكّرت آريا: سأتعلم الرُّماية. إنها تحبُّ القتال بالسِّيف، لكنها ترى كيف تكون السَّهام مفيدةً أيضًا.

كان اللهب يزحف على جدار السِّبيري الغربي، والدُّخان الكثيف يتدفق من النَّوافذ المكسورة. أخرجَ حامل نُشائيّة مايري رأسه من نافذةٍ مختلفة وأطلقَ سهمًا ثم انحنى تحت العتبة ليُرْكَب سهمًا آخر، وسمعت آريا أصوات القتال آتيةً من الإسطبلات أيضًا، صياحًا يمتزج بصريخ الخيول وصيلل الفولاذ، وفكّرت بشراسةٍ وهي تعضُّ شفتها بقوةٍ حتى تذوّقت الدّم: اقتلوهم جميعًا، اقتلوهم عن آخرهم.

ظهرَ حامل النُّشائيّة ثانيةً، لكن بمجرد أن أطلقَ شقَّت ثلاثة سهام الهواء مهسهسةً، ومَرَّ اثنان منها برأسه وأصاب أحدها خوذته وارتدَّت عنها، فاختنى بنُّشايّته. رأت آريا اللهب مشتعلًا وراء كثيرٍ من نوافذ الطَّابق الثَّاني، وبين الدُّخان وغشاوة الصُّبح استحالَ الهواء إلى سديمٍ من الأسود والأبيض، على حين دنا أنجاي والرُّماة الآخرون أكثر من أجل العثور على أهدافٍ أفضل لسهامهم.

ثم استعزَّ السَّيْطِرِيُّ كُلَّهُ، وتدفَّقَ الممَثَّلون من الدَّاخل كالتَّمَلِّ الغاضب. اندفعَ اثنان إيبينزيَّان من الباب بترسين بئيين مرفوعين عاليًا أمامهما، ووراءهما جاءَ دوثرافي بأراخ معقوف كبير وأجراس في جديته، ووراءه ثلاثة مرتزقة فولانتينييين تُعْطِي أجسادهم أوشام رهيبية المنظر، وكان آخرون يَخْرُجون من التَّوافذ ويثبون إلى الأرض، ورأت آريا أحدهم يُصاب بسهم في صدره وقد وضعَ إحدى ساقيه على عتبة النَّافذة بالفعل، وسمعتَ صرخته إذ هوى. تكاثفَ الدُّخان بشدَّة، ومرقتَ السَّهام من هنا وهناك في الهواء. سقطَ واتي متأوِّهاً وانزلتْ قوسه من يده، وكان كايل يُحاول تثبيتَ سهم آخر إلى وتره عندما ألقى رجل يرتدي الحلقات المعدنيَّة السَّوداء حربةً وأعمدها في بطنه. سمعتَ اللورد بريك يصيح، ومن بين الأشجار خرجتَ بقيَّة الجماعة مسرعةً والفولاذ في الأيدي، ورأت معطف ليم الأصفر الزَّاهي يخفق وراءه وهو يدعس الرِّجل الذي قتلَ كايل بحصانه، أمَّا ثوروس واللورد بريك فكانا في كلِّ مكانٍ بسيفيهما النَّاريين، وهوى الرَّاهب الأحمر بضرباتٍ متتاليةٍ على تُرس مصنوعٍ من الجِلد حتى تحطَّم إلى شظايا، بينما رفسَ حصانه حامل التُّرس في وجهه. صرخَ دوثرافي وانقضَّ على سيِّد البرق، ووثبَ السَّيف النَّاري ليصدَّ الأراخ، فتبادلَ النَّصْلان قُبلةً وافترقا ثم تبادلًا قُبلةً ثانيةً، ثم اشتعلَ شعرُ الدوثرافي، وفي اللَّحظة التَّالية سقطَ صريعًا. لمحتَ آريا ندًا أيضًا يُقاتل إلى جوار سيِّد البرق، فقالت لنفسها: ليس هذا عدلاً. إنه يكبرني بأعوامٍ قليلة فقط. كان عليهم أن يدعوني أقاتلُ.

لم تدمِ المعركة طويلاً، وسرعان ما ماتَ رجال رفقَةِ الشُّجعان الذين ظلُّوا على أقدامهم أو ألقوا أسلحتهم أرضاً. استطاعَ اثنان من الدوثرافي استعادة حصانيهما والفرار، وإنما فقط لأن اللورد بريك سمحَ لهما، وقال وفي يده سيفه المضطرم: «فليحملا الخبر إلى (هارنهال) كي يُحرَم اللورد علقة وكبشه من النَّوم بضع ليالٍ».

بشَّجاعةٍ أقدمَ چاك المحظوظ وهاروين وميريت ابن (بلدة القمر) على دخول السَّيْطِرِيِّ المحترق بحثًا عن أسرى، وبعَد لحظاتٍ خرجوا معهم ثمانية من الإخوة البئيين، أحدهم في غاية الضَّعف حتى إن ميريت اضطرَّ لأنَّ يحمله على كتفيه. كان معهم سبتون أيضًا، كتفاه محيَّتان ورأسه يزحف عليه

الصَّلَع، لكنه ارتدى الحلقات المعدنيَّة السَّوداء فوق ثوبه الرَّمادي، وقال چاك ساعلا: «وجدناه مختبئًا تحت سلالم القبو». ابتسم ثوروس لمرآه قائلاً: «أنت أوت». - «السِّتون أوت، رجل الإله».

دمدم ليم: «ومن الإله الذي يُريد أن يخدمه أمثالك؟». قال السِّتون مولولاً: «لقد أذنبتُ، أعرفُ هذا، أعرفه. اغفر لي أيها الأب). أوه، لقد ارتكبتُ ذنبًا جسيمةً للغاية».

تذكرتُ آريا السِّتون أوت من الفترة التي أمضتها في (هارنهال). كان شاجويل المهرج يقول إنه يُصلي ويكي طالبًا الغُفران دائمًا كلما قتل غلامه المأبون الجديد، وأحيانًا كان يجعل الممثلين الآخرين يجلدونه، وإن رأوا جميعًا أن هذا طريف حقًا.

دَسَّ اللورد بريك سيفه في غمده مطفئًا النَّار، وقال أمرًا: «أعطوا المحتضرين هدبة الرَّحمة وقيدوا أيدي وأقدام البقية كي يُحاكموا»، وقد كان مرَّت المحاكمات سريعًا. تقدَّم عديد من الخارجين عن القانون ليشهدوا على ما فعلته رفقة الشُّجعان، من نهب البلدات والقُرى وإحراق المحاصيل واغتصاب وقتل النساء وتشويه وتعذيب الرِّجال، وحكى بعضهم عن الصِّبية الذين اختطفهم السِّتون أوت. طوال محاكمته ظلَّ السِّتون يبكي ويصلي، وقال للورد بريك: «إنني ضعيف. أصلي لـ(المُحارب) طالبًا القوَّة، لكن الآلهة خلقتني ضعيفًا. ارحم ضعفي. الصِّبية، الصِّبية الطَّيِّبون... لم أقصد قط أن أؤذيهم...».

بعد قليل تدلَّى السِّتون أوت من شجرة دَردار، يتأرجح عاريًا كيوم مولده من أنشوطة حول عنقه، وتبعه الممثلون الآخرون واحدًا تلو الآخر. قاوم بعضهم وأخذوا يركلون والحبال تلتف حول أعناقهم، وظلَّ أحد حاملي النُشابية يصيح بلكنة مايريَّة ثقيلة: «أنا جُندي، أنا جُندي»، وعرض آخر أن يقود أسريه إلى خبيبة من الذهب، وقال ثالث لهم إنه يصلح لأن يكون خارجًا عن القانون ممتازًا. كلُّهم جُرِّد من ثيابه وقيد وشق، وعزف لهم توم سبعة أوتار لحنا جنائزيًا على قيثارته، بينما تضرَّع ثوروس إلى إله الضِّياء أن يُحرق أرواحهم حتى آخر الدَّهر.

شجرة ممثلين، ففكرت آريا وهي تتطلع إليهم مشنوقين ولهب السّپتري المحترق يُضفي عليهم لوناً أحمر كثيباً، وقد ظهرت الغربان بالفعل آتية من اللامكان، وسمعتها آريا تنعب لبعضها بعضاً فتساءلت عمّا تقوله. لم تكن تخشى السّپتون أوت كالعصاض ووروج وبعض الآخرين الذين ما زالوا في (هارنهال)، وإن سرّت لموته على كل حال. كان عليهم أن يشنقوا كلب الصيد أيضاً، أو يقطعوا رأسه. لكنهم بدلاً من هذا، على الرغم من تفرّزها، اعتنوا بذراع ساندور كليجاين المحروقة وأعادوا إليه سيفه ودرعه وحصانه، وأطلقوا سراحه على بُعد بضعة أميال من التلّ الأجوف، ولم يحتفظوا إلاّ بذهبه.

سرعان ما انهار السّپتري في هدير من الدخان واللّهب بعد أن لم تعد جدرانه قادرةً على حمل سطحه الأردواز الثّقيل، وراقب الإخوة البّيتون باستسلام. إنهم كلٌّ من تبقي كما شرح أكبرهم سنّاً، الذي تتدلّى من عنقه مطرقة حديدية صغيرة تدل على تكريس حياته لـ(الحدّاد)، وقال: «قبل الحرب كنا أربعة وأربعين، وكان هذا المكان مزدهراً. كانت لدينا دسته من الأبقار الحلوب وثور، ومئة من خلايا النّحل، وكرمة عنب وبستان تّفاح، لكن حين جاء السّباع أخذوا كلّ ما لدينا من نيبدٍ وحليب وعسل وذبحوا الأبقار وأضرموا النّار في الكرمة. بعدها... لا أذكرُ عددٌ من تبعوهم بعدها. هذا السّپتون الزّائف كان آخرهم لا أكثر. أحد أولئك الوحوش... أعطيناه فضّتنا كلّها، لكنه أصرّ أن لدينا ذهباً مخبئاً، فقتلنا رجاله واحداً تلو الآخر لإجبار الأخ الأكبر على الكلام».

سأله أنجاي القوّاس: «وكيف نجا ثمانيتكم؟».

أجاب العجوز: «هذا عاري أنا. كنتُ السّبب. لمّا أتى دوري لأموت أخبرتهم بمكان الذهب المخبوء».

قال ثوروس الماييري: «عارك الوحيد أنك لم تُخبرهم في الحال يا أخي». أوى الخارجون عن القانون ليلتها إلى المخمرة المجاورة للّهير. كان لدى مضيفهم طعام مخبئاً تحت أرضية الاسطبلات، فتقاسموا عشاءً بسيطاً من خُبز الشوفان والبصل وحساء كرنب خفيف للغاية فيه شيء من مذاق الثوم، ووجدت آريا شريحةً من الجِزر في وعائها فعدّدت نفسها محظوظةً. لم

يسأل الإخوة الخارجين عن القانون عن أسمائهم، فأدرکت آريا أنهم يعرفون من هم. وكيف لا؟ اللورد بريك يحمل لسان البرق على وافي صدره وتُرسه ومعطفه، وثوروس يرتدي ثوبه الأحمر أو ما تبقى منه.

أحد الإخوة، مترهبين شاب، تحلّى بالجرأة الكافية لأن يقول لثوروس ألا يُصَلِّي لإلهه الزائف ما دام تحت سقفهم، فقال ليم ذو المعطف الليموني: «دعك من هذا الهراء. إنه إلهنا أيضًا، وأنتم مدينون لنا بأرواحكم اللعينة. وما الزائف فيه؟ ربما يستطيع حدادكم إصلاح سيفٍ مكسور، لكن هل يستطيع شفاء رجل مكسور؟».

قال اللورد بريك بنبرة أمرة: «كفى يا ليم. سنحترم قواعدهم ما دُمنا تحت سقفهم».

ووافقهُ ثوروس قائلاً بكياسة: «الشمس لن تكفَّ عن الشروق إذا فاتتنا صلاة أو اثنتان، سلني أنا».

لم يأكل اللورد بريك نفسه، والحقيقة أن آريا لم تراه يأكل قط، وإن كان يحتمي كوثًا من التبيذ بين الحين والآخر. ويبدو أنه لا ينام كذلك؛ فقط تنغلق عينه السليمة أحيانًا كأنما بدافع الإرهاق، لكنها تفتح ثانية من فورها إذا كلمته. كان اللورد القادم من التَّخوم الدورتيّة لا يزال يرتدي معطفه الأسود المهترئ وواقي صدره المنبجع ذا لسان البرق المينا المشقّق، وقد أخفى الفولاذ الأسود الباهت الجرح الشنيع الذي أصابه به كلب الصَّيد، بالطريقة ذاتها التي يُخفي بها وشاحه الصُّوف السَّميك الحلقة الدَّاكنة حول رقبتة، لكن شيئًا لا يُخفي الغور في رأسه عند الصُّدغ، أو الحُفرة الحمراء التي حلّت محل عينه المفقودة، أو شكل جمجمته تحت وجهه.

رمقته آريا بحذر متذكّرة كلِّ ما كان يُروى عنه في (هارنهال)، وبدا أن اللورد بريك أحسَّ بخوفها، فالتفت إليها مشيرًا لها بالاقتراب، وقال: «هل أخيفك أيتها الصَّغيرة؟».

أجابته ماضغةً شفتها: «لا... لكن... حسبتُ أن كلب الصَّيد قتلك، لكن...».

قال ليم ذو المعطف الليموني: «مجرّد جرح. جرح بليغ، نعم، لكن ثوروس عالجه. إنه أفضل المعالجين على الإطلاق».

حدج اللورد بريك ليم بنظرة غريبة من عينه السليمة ولا نظرة على الإطلاق في الأخرى، لا شيء إلا التذوب والدم الجاف، وقال مؤيداً بإرهاق: «أفضل المعالجين على الإطلاق»، ثم أردف: «ليم، أعتقد أن وقت تبديل المناوبة قد فات. تول هذا إذا سمحت».

قال ليم: «حاضر يا سيدي»، ورفرف معطفه الأصفر وراءه وهو يخرج إلى الليل العاصف بخطى واسعة.

بعد أن خرج قال اللورد بريك: «حتى الشجعان يُعمون أنفسهم أحياناً عندما يخشون أن يروا. ثوروس، كم مرة أعدتني؟».

خفض الراهب الأحمر رأسه قائلاً: «راهلور هو من يُعيدك يا سيدي، إله الضياء، وأنا مجرد أداة له».

كرّر اللورد بريك بإصرار: «كم مرة؟».

أجاب ثوروس على مضض: «ست مرّات، وكلُّ مرّةٍ أصعب من سابقتها. أصبحت متهوراً يا سيدي. هل الموت بهذه الحلاوة؟».

- «حلاوة؟ لا يا صديقي، ليس حلواً على الإطلاق».

- «لا تُغازله هكذا إذن. اللورد تايوين يقود من المؤخرة، واللورد ستانيس أيضاً، ومن الحكمة أن تفعل مثلهما. قد تعني مئة ساعة نهايتنا معاً».

مسّ اللورد بريك البقعة التي يغور فيها صُدغه فوق أذنه، وقال: «هنا كسر اللورد برتون كراكهول خوذتي ورأسي بضربةٍ من هراوته»، وحلّ وشاحه كاشفاً عن الكدمة السوداء المحيطة بعنقه متابعا: «وهنا العلامة التي خلفها المانتيكور في (الشلال الهادر). كان قد قبض على نَحال فقير وزوجته معتقداً أنهما من أتباعي، وأذاع في كلِّ مكانٍ أنه سيستنقهما ما لم أسلم نفسي إليه، وعندما فعلتُ شتقهما على كل حال وأنا بينهما»، وأشار بإصبعه إلى فجوة عينه الحمراء، وواصل: «وهنا حيث أعمد الجبل خنجره في مقدّمة خوذتي»، وتراقصت ابتسامة شاحبة على شفّتيه وهو يُردف: «هكذا متُّ ثلاث مرّات على يد عائلة كليجاين. كنتُ لتحسين أني تعلمتُ...».

عرفت آريا أنها مزحة، لكن ثوروس لم يضحك، ووضع يداً على كتف اللورد بريك قائلاً: «الأفضل ألا تُسهب في التّفكير».

«وكيف أسهبُ في التّفكير في ما لا أكادُ أذكره؟ أعرفُ أني كنتُ أملكُ

قلعةً في (التَّخوم) من قبل، وكانت هناك امرأة تعهدتُ بأن أنزَّوجها، لكني لا أستطيعُ أن أجد تلك القلعة اليوم، ولا أن أقول لك لون شعر تلك المرأة. مَنْ نصَّبني فارسًا يا صديقي القديم؟ ماذا كانت أطعمتي المفضَّلة؟ ذكرياتي كلها تذوي، لدرجة أنني أحسبُ أحيانًا أنني وُلِدْتُ على الكلاء الدَّامي في بستان الدَّردار إياه، في فمي مذاق النار وفي صدري فجوة. هل أنت أمِّي يا ثوروس؟».

حدَّثتُ آريا إلى الرَّاهب المايري بشعره الأشعث وأسماله الوردية وقطع الدُّروع القديمة التي يرتديها، وقد غطتْ جُدامة سائبة وجنتيه والجلد المترهل تحت ذقنه. إنه لا يبدو كالسَّحرة في قصص العجوز نان، ولكن... «هل يُمكنك أن تُعيد رجلًا بلا رأس؟ مرَّةً واحدةً فقط وليس سنًا. هل تستطيع؟» - «ليس في جعبتي سحر أيتها الصَّغيرة، فقط الصَّلوات. في تلك المرَّة الأولى كان رُمح قد نفذ من جسد حضرة اللورد وامتلاً فمه بالدماء، وعرفتُ أن لا أمل في إنقاذه، فلَمَّا كَفَّ صدره عن الحركة أعطيته قُبلة الإله الرَّحيم لأودَّعه وهو في طريقه إلى العالم الآخر. ملأتُ فمي بالنَّار ونفثتها في داخله عبر حلَّقه إلى رثتيه وقلبه وروحه. اسمها القُبلة الأخيرة، وكثيرًا ما رأيتُ الرُّهبان الكبار يُسبغون بها على خُدم الإله وهم يموتون، كما أعطيتها مرَّةً أو مرَّتين بنفسِي كما يتحتَّم على الرُّهبان كلِّهم، لكن لم يحدث قبلها قطُّ أن شعرت برجل ميت ينتفض إذ ملأته النَّار، أو رأيت عينيه تفتحان. ليس أنا من أعاده يا سيِّدتي، بل الإله. راهلور لم يفرُّغ منه بعد. الحياة دفء، والدَّفء نار، والنَّار تحت إمرة الإله والإله وحده».

أحسَّت آريا بالدموع تنبُّع في مُقلتيها. ثوروس قال كلامًا كثيرًا، لكنها لم تستوعب منه إلا أنه يقول لا.

قال اللورد بريك: «أبوكَ كان رجلًا صالحًا. هاروين حكى لي كثيرًا عنه، ولأجلِ خاطره كان لئسعدني أن أتنازل عن فديتك، لكننا في أمسِّ الحاجة إلى الذهب».

مضعتُ آريا شفيتها مفكِّرةً: هذا صحيح على ما أعتقدُ. لقد أعطى ذهب كلب الصَّيِّد لذي اللحية الخضراء والقنَّاص المجنون ليشترؤا مؤنًا جنوب (الماندر)، وسمعتَه يقول حين أرسلهما: «الحصاد السَّابق احترق، والحالي

يغرق، والشَّتاء سيُدرِكنا قريبا. الأهالي في حاجةٍ إلى الغلال والبذور، ونحن محتاجون إلى الأسلحة والخيول. كثيرون من رجالي يركبون أحصنة الجَرِّ والحِثِّ والبغال ضد أعداءِ يركبون الجياد الحربيَّةَ».

لكن آريا لا تدري كم سيدفع روب مقابل استعدادتها. إنه ملك الآن، وليس الصَّبي الذي تركته في (وينترفل) والثَّلج يذوب في شِعْره، وإذا عرفَ الأشياء التي فعلتها، من عامل الاسطبلات إلى الحارس في (هارنهال) وغيرهما... «وماذا لو لم يُرد أخي أن يدفع فديتي؟».

سألها اللورد بريك: «لماذا تحسبين هذا؟».

أجاب آريا: «لأن شعري منفوش وأظفاري مَنسَخة وقدمي يابستان». غالبًا لن يُبالي روب بهذا، لكن أمها ستفعل. لطالما أرادتُها الليدي كاتلين أن تكون مثل سانزا، أن تُغني وتُرقص وتحيك وتحرص على الكياسة. مجرد التفكير في هذا جعل آريا تُحاول تصفيف شعرها بأصابعها، فوجدته متشابكا ملبَّدًا، ولم تُفلح إلا في تمزيق القليل من خُصلاته. قالت ماضغةً شفتها: «لقد أتلفتُ الفُستان الذي أعطيتي الليدي سمولود إياه، ولستُ أُجيدُ الحياكة. كانت السَّيِّئة موردين تقول إن لديَّ يدي حداد».

ضحك جندري، وقال متندِّرًا: «هاتان اليدان الصَّغيرتان النَّاعمتان؟ إنك لا تستطيعين الإمساك بمطرقة حتى».

ردت بحدَّة: «أستطيعُ إذا أردتُ!».

قهقه ثوروس، وقال: «أخوك سيدفع أيتها الصَّغيرة. لا يُقلِّقنك هذا».

سألت بإصرار: «نعم، لكن ماذا لو رفض؟».

تنهَّد اللورد بريك محيِّبًا: «إذن سأرسلك إلى الليدي سمولود فترة، أو ربما إلى قلعتي في (المرفأ الأسود)، لكنني واثق بأن ذلك لن يكون ضروريًا. لستُ أملكُ القُدرة على إعادة أبيك إليك، تمامًا كما لا يملكها ثوروس، لكنني أستطيعُ على الأقل أن أعيدك آمنَّةً إلى ذراعِي أمك».

سألته: «هل تُقسِم؟». يورن أيضًا وعدَّ بأن يأخذها إلى الدِّيار، وبدلًا من هذا قُتِلَ.

أجاب سيِّد البرق برصانة: «بشرفي كفارس».

كان المطر ينهمر حين عادَ ليم إلى المخمرة متممًا باللَّعنات والمياه

تسيل على معطفه الأصفر لتتجمّع على الأرض، بينما جلس أنجاي وچاك المحظوظ عند الباب يلعبان الترد، لكن أيًا كانت اللعبة فلم يكن چاك ذو العين الواحدة محظوظًا فيها إطلاقًا. استبدل توم وترًا في قيثارته الخشبيّة، وغنّى (دموع الأم) و(حين ابتلّت زوجة ويلوم) و(في يوم مطير خرج اللورد هارت)، ثم (أمطار كاستامير).

بكبر قال اللورد:
ومنّ ذا تكون
كي أمرغ رأسي في التراب أمامك؟
مجرد قط يكتسي بفروة الأسد
وهذا مبلغ علمي فيك
فحتى إن تسربل بالأحمر، وإن تحلّى بالذهب
تظل لليث مخالبه
ومخاليبي طويلة حادة يا سيدي
طويلة حادة، تمامًا كمخالك
وهكذا تكلم وتكلم
ذلك الذي كان سيّد (كاستامير)
والآن تبكي الأمطار على قصره
ولا أحد هنالك يسمع
أجل، الآن تبكي الأمطار على قصره
وما من نفس تسمع.

أخيرًا نفذ ما لدى توم من أغاني المطر ووضع قيثارته جانبًا، ولم يعد هناك إلا صوت المطر نفسه، إذ يضرب سقف المخمرة الأردواز. انتهت لعبة الترد، ووقفت آريا على ساق واحدة ثم الأخرى تُصغي لميريت وهو يشكو من حصانه الذي انخلعت حدوته.

قال جندي فجأة: «يمكنني أن أركب الحدودة من أجلك. كنت صبيّ حدادٍ فقط، لكن معلمي قال إن يدي مخلوقة لحمل المطرقة. أستطيع تركيب

الحدوات ورتق القمصان المعدنيّة الممزّقة وإصلاح الدروع المنبجعة،
وأراهنُ أنني أستطيعُ صناعة السيوف كذلك».
سأله هاروين: «ماذا تقول يا فتى؟».

جثا جندري على رُكبةٍ واحدة أمام اللورد بريك قائلاً: «سأستغلُ عندكم
حدّادًا. سأكونُ مفيدًا لكم إذا قبلتني يا سيّدي. لقد صنعتُ أدواتٍ وسكاكين،
وفي مرّةٍ خوذّةٍ لا بأس بها، لكن أحد رجال الجبل سرقها مني حين أسرنا».
عضّت آريا شفرتها مفكّرةً: ينوي أن يتركني.

قال اللورد بريك: «أحسن لك أن تخدم اللورد تلي في (ريقرن)، فلا
أستطيعُ أن أنقذك أجرًا لقاء عملك».
- «لا أحد نقدني أجرًا قط. لا أريدُ إلا ورشةً وطعامًا ومكانًا أنامُ فيه، وهذا
يكفييني يا سيّدي».

- «الحدّادون مرحّب بهم في كلِّ مكانٍ تقريبًا، وصنّاع السّلاح المهرة
يجدون ترحيبًا أكبر، فلم تختار البقاء معنا؟».

راقبت آريا جندري وهو يلوي ملامحه السّخيفة مفكّرًا، قبل أن يُجيب:
«ما قلته في التّلّ الأجوف عن كونكم رجال الملك روبرت وعن أخوتكم...
راقني هذا، وراقني أنكم حاكمتم كلب الصّيد. اللورد بولتون كان يشنق النّاس
أو يقطع رؤوسهم فقط، واللورد تايوين والسير آموري كانا مثله، ولذا أفصّل
أن أعمل حدّادًا عندكم».

قال چاك للورد بريك مذكرًا: «لدينا قمصان معدنيّة كثيرة في حاجةٍ إلى
إصلاح يا سيّدي. معظمها أخذناه من الموتى، وفيها الثّقوب التي دخل منها
الموت».

قال ليم: «لا بُدّ أنك أبله يا فتى. إننا خارجون عن القانون، معظمنا أوباش
من نسبٍ حقير، باستثناء حضرة اللورد. لا تحسب أن الأمر سيكون كأغاني
توم السّاذجة، فلن تسرق قُبلةً من أميرة أو تشترك في دورة مباريات بدرع
مسروقة. إذا انضمت إلينا سينتهي بك المطاف بأنشطةٍ حول رقبتك أو
برأسك على خازوق فوق بوّابة قلعة ما».

ردّ جندري: «وهل سيفعلوا بكم أقلّ من هذا؟».

قال چاك المحظوظ بمرح: «نعم، هذا صحيح، الغريبان تنتظرنا جميعًا».

سيدي، الصّبي يبدو شجاعاً بما فيه الكفاية، ونحن محتاجون إلى ما يُمكنه أن يفعله. چاك يقول أن تقبله».

أضاف هاروين مقهقهاً: «وبسُرعة قبل أن تمرَّ الحُمى ويستردَّ عقله».

مَسَّت ابتسامة باهتة شفَتَي اللورد بريك، وقال: «ثوروس، سيفي».

هذه المرّة لم يوقد سيّد البرق السيف، بل وضعه بخفّة على كتف جندي قائلاً: «جندي، هل تُقسِم على مرأى من الآلهة والبشر أن تدود عن لا يستطيعون الذود عن أنفسهم، وأن تحمي النّساء والأطفال، وأن تُطيع قادتك ومولاك وملكك، وأن تُقاتِل بشجاعةٍ عند الحاجة، وتُلبّي ما تُكَلِّف به مهما كان عسيرًا أو متواضعًا أو خطرًا؟».

- «نعم يا سيدي».

نقل اللورد السيف من كتف جندي اليمنى إلى اليسرى، وقال: «انهض إذن أيها السير جندي، فارس التّلّ الأجوف، ومرحبًا بك في أخوتنا».

ومن عند الباب ارتفعت ضحكة خشنة مبحوحة.

كان ماء المطر يسيل على ثيابه، والتفت ذراعه المحروقة بأوراق الشجر والكتّان، ورُبطت إلى صدره بإحكام بمِغلاق بسيط من الحبال، لكن الحروق القديمة التمعت بسواد صقيل في وهج نارهم الصّغيرة.

زمجر المتطفّل: «تُنصّب مزيدًا من الفُرسان يا دونداريون؟ حريّ بي أن أقتلك ثانيةً من أجل هذا».

واجهه اللورد بريك ببرودٍ قائلاً: «كنتُ أملُ أننا رأيناك للمرّة الأخيرة يا كليجاين. كيف وجدتنا؟».

- «لم يكن هذا صعبًا. لقد أصدرتم دُخانًا يكفي لأن يروه في (البلدة القديمة)».

- «وماذا فعلت بالحارسين اللذين عيّنتهما؟».

ارتعش فم كليجاين وهو يقول: «تقصد هذين الكفيّفين؟ ربما قتلتهما. ماذا ستفعلون إذا كان هذا صحيحًا؟».

ثبّت أنجاي سهمًا إلى قوسه، وحذا نوتش حذوه، على حين قال ثوروس: «أترغب في الموت لهذه الدّرجة يا ساندور؟ لا بُدّ أنك مجنون أو سكران كي تتبعنا إلى هنا».

- «سكران من شرب المطر؟ إنكم لم تتزكوا لي ذهبًا لأبتاع مجرد كوب من التبيد يا أبناء العاهرات».

سحب أنجاي سهمه قائلاً: «نحن خارجون عن القانون، والخارجون عن القانون يسرقون. هذا مذكور في الأغاني. إذا طلبت بأدب فقد يُغني لك توم واحدة. كُن ممتناً لأننا لم نقتلك».

- «تعال وجرب أيها القوَّاس. سأخذ منك هذه الكنانة وأدس السهم في مؤخرتك الصغيرة المنمَّشة».

رفع أنجاي قوسه الطويل، إلا أن اللورد بريك رفع يده قبل أن يُطلق، وقال: «ماذا تفعل هنا يا كليجايين؟».

- «أريد أن أسترده ما لي».

- «ذهبك؟».

- «وماذا غيره؟ لم آت لأستمع بالنظر إلى وجهك يا دونداريون، ثق بهذا. إنك أقبح مني الآن، وفارس لص أيضاً على ما يبدو».

قال اللورد بريك بهدوء: «لقد أعطيتك إيصلاً بذهبك، وعداً بالدفع بعد أن تنتهي الحرب».

- «مسحت مؤخرتي بورقتك. أريد الذهب».

- «ليس معنا. لقد أرسلته جنوباً مع القنَّاص وذو اللحية الخضراء، ليشتريا غللاً وبذوراً عبر (الماندر)».

قال جندري: «لإطعام من أحرقت محاصيلهم».

ضحك ساندور كليجايين ثانيةً، وقال: «أهذا ما يقال الآن؟ طيب، يتصادف أن هذا بالضبط ما انتويت أن أفعله به، أن أطعم مجموعة من الفلاحين القباح وأطفالهم المجدورين».

قال جندري: «أنت كاذب».

- «أرى أن الصبي سليل اللسان. لماذا تُصدِّقهم ولا تُصدِّقني أنا؟ لا يمكن أن يكون السبب وجهي، أليس كذلك؟»، ونظر كليجايين إلى آريا مواصلاً: «هل ستُنصِّبها فارساً أيضاً يا دونداريون؟ أول فارس فتاة في الثامنة من العمر؟».

- «أنا في الثانية عشرة!»، صاحت آريا كاذبةً. «ويمكنني أن أكون فارساً إذا

أردتُ، وكان يُمكنني أن أقتلك أيضًا لولا أن ليم أخذَ مني السكين». ما زالَ تذكرُ هذا يُحَنِّقها.

- «عليك بالشكوي لليم إذن وليس لي، وبعدها دسّي ذلك بين قدميكِ واهربي. هل تعرفين ما تفعله الكلاب بالذئاب؟».

- «المرة القادمة سأقتلك، وسأقتلُ أخاك أيضًا!».

ضيق عينيه القاتمتين قائلاً: «لا، هذا لن تفعله»، وعادَ يلتفت إلى اللورد بريك، وقال: «ما رأيك أن تُنصّب حصاني فارسًا؟ إنه لا يتغوّط في الدّاخل ولا يرفس أكثر من معظم الخيول، ويستحقُّ أن يكون فارسًا... ما لم تكن تنوي أن تسرقه أيضًا».

قال ليم منذرًا: «خيرٌ لك أن تترك ذلك الحصان وترحل».

- «سأرحلُ بذهبي. إلهكم نفسه يقول إنني بريء...».

قاطعهُ ثوروس المايري: «إله الضياء أعادَ إليك حياتك، لكنه لم يُعَلِّمك بيلور المبارك وقد وُلِدَ من جديد»، واستلَّ الرَّاهب الأحمر سيفه، ورأت آريا چاك وميريت يفعلان المثل، بينما كان اللورد بريك لا يزال يحمل سيفه الذي نصّب به جندري. ربما يقتلونه هذه المرة.

ارتعشَ فم كلب الصّيد ثانيةً، وقال: «لستم أكثر من لصوص».

حملقَ إليه ليم قائلاً: «أصدقاؤك الأسود يدخلون القرى ويأخذون كلَّ ما يجدونه من طعام ومال ويُسمّون هذا «إمدادات»، والذئاب أيضًا، فلمَ لا نفعل مثلهم؟ لا أحد سرقك أيها الكلب، بل حصلنا على «إمداد» منك».

تطلّع ساندور كليجاين إلى وجوههم واحدًا واحدًا كأنه يُحاول تدوينها في ذاكرته، ثم خرجَ إلى الظلام والمطر المنهمر اللذين جاءَ منهما دون أن ينس بكلمةٍ إضافيّة، وانتظرَ الخارجون عن القانون مترقّبين...

قال هاروين: «سأذهبُ لأرى ما فعله بالحارسين»، وألقى نظرةً حذرةً من الباب قبل أن يخرج، ليتأكد من أن كلب الصّيد ليس كامنًا في الخارج.

سألَ ليم، ذو المعطف الليموني، ليُخفّف وطأة التوتّر المخيم على المكان: «كيف حصلَ ذلك الوغد الملعون على كلِّ هذا الذهب أصلًا؟».

هزَّ أنجاي القوَّاس كتفيه مجيبًا: «فازَ بدورة مباريات اليد في (كينجز لاندنج)»، ورسَم على وجهه ابتسامةً واسعةً مضيئًا: «ربحتُ ثروةً لا بأس بها

عن نفسي، لكنني قابلتُ بعدها دانسي وچايد وأليايا، وعلمتني مذاق البجع المشوي ومعنى الاستحمام في نبيذ (الكرمة).
قال ليم ضاحكًا: «بددتها كلها إذن».

- «ليس كلها. اشتريتُ هذا الحذاء وهذا الخنجر الممتاز».

قال چاك المحظوظ: «كان يجدرُ بك أن تشتري قطعة أرض وتجعل من واحدة من فتيات البجع المشوي امرأة شريفة، تُربِّي محصولًا من اللفت ومحصولًا من الأبناء».

- «بحقِّ (المُحارب)! هذا هو التَّبديد بعينه، أن أحول ذهبي إلى لفت».

قال چاك بأسى: «أحبُّ اللفت، ويُمكنني أن آكل القليل من اللفت المهروس الآن».

لم يلتفت ثوروس المايري إلى مزاحهما، وقال متأملًا: «كلب الصِّيد خسر ما هو أكثر من بضع زكائب من التُّقود، خسر سيِّده ووجاره أيضًا. إنه لا يستطيع العودة إلى آل لانستر، والذئب الصَّغير لن يقبله أبدًا، وليس محتملًا أن أخاه سيرحِّب به. هذا الذهب كان كلَّ ما يملكه على ما يبدو لي».

قال واتي الطحَّان: «يا للجحيم! مؤكِّد أنه سيأتي ويقتلنا في نومنا إذن».

دَسَّ اللورد بريك سيفه في الغمد قائلاً: «لا. سيُسعد ساندر كليجان إن يقتلنا، وإنما ليس ونحن نيام. أنجاي، غداً اركب في المؤخرة مع ديك الحليق، وإذا رأيت كليجان يقتني أثرنا فاقتل حصانه».

قال أنجاي معترضًا: «إنه حصان جيِّد».

وأبَّده ليم: «نعم. حريٌّ بنا أن نقتل راكبه، أمَّا الحصان فسينفعا».

قال نوتش: «أنا مع ليم. دعني أغرس بضعة سهام في الكلب وأثبت همته قليلاً».

هَزَّ اللورد بريك رأسه رافضًا، وقال: «كليجان ربح حياته تحت التَّلُّ الأجوف، ولن أسلبه إياها».

قال ثوروس للأخريين: «اللورد يتكلَّم بحكمة. أيها الإخوة، المحاكمة بالنزال شيء مقدَّس. لقد سمعتموني أطلب من راهلور أن يتدخل، ورأيتهم إصبعه النَّاري يكسر سيف اللورد بريك وهو موشك على وضع نهايةٍ لحياة الكلب. يبدو أن إله الضيَّاء لم يفرِّغ بعدُ من كلب چوفري».

بعد قليل عادَ هاروين إلى المخمرة، وقال: «بودنجفوت كان يغطُّ في نومٍ عميق، لكنه بخير».

قال ليم: «انتظروا حتى أضع يدي عليه. سأصنع له فتحة شرحٍ جديدةً. كان يُمكن أن يتسبَّب في موتنا جميعاً».

لم ينم أحدهم مستريحاً تلك اللَّيلة وهم يعلمون أن ساندور كليجاين قريب في مكانٍ ما في الظلام. تكوَّرت آريا على نفسها بالقرب من النَّار شاعرةً بالدَّفء والهدهوء، لكن النَّوم أعرَض عن المجيء. أخرجت العُملة التي أعطهاها چا كُن هاجار إياها، وضمت أصابعها حولها وهي متمددة تحت معطفها، وأشعرها الإمساك بها بالقوَّة وهي تتذكَّر كيف كانت الشَّبح في (هارنهال)، بإمكانها أن تقتلَّ بهمسة.

لكن چا كُن رحلَ وتركها. هوت پاي رحلَ أيضاً، والآن سير حل جندري. ومات لومي، ومات يورن، ومات سيريو فورل، وحتى أبوها مات، وأعطها چا كُن بنساً حديدياً سخيفاً واختفى. بخفوتٍ همست وهي تشدُّ قبضتها على حواف العُملة الصُّلبة لتتغرس في راحة يدها: «فالار مورجولس. السير جريجور، دانسن، پوليفر، راف المعسول، المُدغدغ وكلب الصَّيد، السير إلين، السير مرين، الملك چوفري، الملكة سرسي». حاولت آريا أن تتخيل كيف سيبدون وهم موتى، لكنها وجدت استرجاع ملامحهم في ذاكرتها صعباً. كلب الصَّيد يُمكنها أن تراه، وكذا أخوه الجبل، ولا يُمكنها أن تنسى وجه چوفري أو أمه أبداً... لكن وجوه دانسن وراف وپوليفر تذوي، وحتى المُدغدغ الذي كانت ملامحه تقليديَّة تماماً.

اكتنفها النَّوم أخيراً، لكن في سواد اللَّيل صحت آريا ثانيةً شاعرةً بوخز. لم يتبقَّ من النَّار إلاَّ جذوات، ووقفَ مودچ عند الباب بينما تحركَ حارس آخر جيئةً وذهاباً في الخارج. كان المطر قد توقَّف وسمعت ذئباً تعوي. قريبة للغاية، وكثيرة للغاية. بدت أصواتها كأن عشرات منها تُحيط بالأسطبلات، وربما مئات. قالت لنفسها متذكِّرةً ما قاله كلب الصَّيد عن الذئب والكلاب: أمل أن نفرسه.

عندما طلع النَّهار كان السِّبتون أوت لا يزال يتدلَّى من الشَّجرة، لكن الإخوة البتَّين خرجوا بالمجاريف ليحفروا قبوراً ضحلةً للموتى الآخرين.

شكرهم اللورد بريك على الوجبة وإيوائهم إياهم خلال الليل، وأعطاهم كيسًا من الأيائل الفضيّة تُساعدهم على إعادة البناء.

خرج هاروين ولوك الرّاجح وواتي الطّحان للاستكشاف، لكنهم لم يعثروا على ذئاب أو كلاب.

بينما ربطت أريا حزام سرجها، جاءها جندري يقول إنه آسف، فوضعت قدمًا على الرّكاب واعتلت الحصان كي تنظر إليه من أعلى لا من أسفل مفكرةً: كان بإمكانك أن تصنع السيوف لأخي في (ريقررن)، لكنها اكتفت بقول: «إذا أردت أن تكون فارسًا سخيًا خارجًا عن القانون، فلم أباي؟ سأكون في (ريقررن)، فديتي مدفوعة، ومع أخي».

لحسن الحظ لم يهطل المطر يومها، وهذه المرّة على الأقل قطعوا شوطًا لا بأس به.

بران

على الجزيرة يرتفع البرج، وعلى صفحة المياه الرِّقَاء السَّاكنة توأمه المنعكس، وحين تهبُّ الرِّيح تتحرَّك التَّموجات على سطح البحيرة مطاردةً بعضها بعضًا كأطفالٍ يلعبون. على الضَّفَّة تنمو أجمة كثيفة من أشجار السَّنديان، وتحتها تفتش الأرض جوزات البلوط السَّاقطة، ومن وراءها تلوح القرية، أو ما تبقي منها.

إنها أول قرية يرونها منذ خرجوا من اللال. كانت ميرا قد سبقتهم لتستطلع وتتأكد من أن أحدًا ليس كامنًا بين الأطلال، وتحركت بخفة فوق شجر السَّنديان والتُّفاح ووسطه حاملةً شبكتها ورُمحها، فأفزعت ثلاث غزالات حمراء وجعلتها تندفع هاربةً عبر الدَّغل، ورأى سمر الحركة الخاطفة فانطلق وراءها في الحال. شاهد بران الذئب الرهيب يتوآب، ولم يرغب لحظتها في شيءٍ أكثر من أن يخرج من جلده ويعدو معه، لكن ميرا كانت تُلوح لهم بالمجيء، فالتفت مكرهاً عن سمر وأمر هودور بالتقدُّم ودخول القرية، وسارَ چوچن معهما.

يعلم بران أن لا شيء بين هنا و(الجدار) إلا الأراضي المعشوشبة؛ حقول بوار وهضاب واطئة مائجة ومروج عالية ومستنقعات منخفضة. سيكون التَّحرُّك في تلك الأصقاع أسهل كثيرًا من الجبال ورائهم، لكن هذه المساحات المفتوحة أصابت ميرا بالتوتر، وقالت لهم: «أشعرُ كأني عارية. لا مكان نتوارى فيه».

سألَ چوچن بران: «من يملك هذه الأراضي؟».

أجابَ بران مسترجعًا ما علمه المايستر لوين إياه من التَّاريخ: «حرس الليل».

هذه الأراضي اسمها (الهدية)، (الهدية الجديدة)، وشمالها (هدية براندون). براندون البناء أهدى جميع الأراضي جنوب (الجدار) للإخوة السود حتى مسافة خمسة وعشرين فرسخًا، من أجل... من أجل معاشهم وقوتهم». شعر بالفخر بنفسه لأنه لا يزال يتذكر هذا الجزء. «بعض المايسترات يقولون إنه كان براندون آخر غير البناء، لكنها لا تزال (هدية براندون). بعد آلاف الأعوام زارت الملكة الكريمة أليس (الجدار) على متن تينتها سيلثروينج، ورأت أن حرس الليل شجاعان لأقصى حد، فجعلت الملك العجوز يُضاعف مساحة أراضيهم إلى خمسين فرسخًا، وهكذا أصبح اسم هذه المناطق (الهدية الجديدة)»، وأشار بيده مضيئًا: «هنا، كل هذا».

رأى بران بوضوح أن أحدًا لم يقطن في القرية الخاوية على عروشها منذ سنوات طويلة. المنازل كلها آيلة للسقوط، وحتى الخان، ومع أن منظره لا يوحي بأنه كان خانًا كبيرًا في الأصل، لكن كل ما تبقى منه الآن مدخنة حجرية وجدران متصدعان وسط دسنة من أشجار التفاح، إحداها تنمو في القاعة العامة، حيث كست طبقة من الأوراق البيئية المبتلة والتفاح العفن الأرض، وأفعمت الهواء رائحة تفاحية فاغمة تكاد تظني على كل شيء آخر. طعنت ميرا بضع تفاحات برُمح صيد الضفادع في محاولة للعثور على الصالح منها للأكل، لكنها وجدتها كلها متعفنة ملاءى بالدود.

كان السلام يحف المكان ويُسبغ عليه الشكون والهدوء ويجعل التطلع إلى منظره محببًا، لكن بران فكر أن الخان الفارغ شيء حزين حقًا، وبدا أن هودور شاركه إحساسه، وقال بنبرة مرتبكة: «هودور؟ هودور؟».

التقط چوچن حفنة من التربة وفركها بين أصابعه قائلاً: «هذه أرض مناسبة تمامًا للسكنى. قرية وخان ومعقل قوي في البحيرة، وكل أشجار التفاح هذه... لكن أين الناس يا بران؟ لماذا يهجرون مكانًا كهذا؟».

أجاب بران: «لخوفهم من الهمج. الهمج يأتون متسلقين (الجدار) أو عبر الجبال ليغيروا ويسرقوا ويختطفوا النساء. إذا أمسكوك فإنهم يصنعون من جمجمتك كوبًا لشرب الدّم كما حكّت لنا العجوز نان. حرس الليل لم يعودوا أقوياء كما كانوا في عهد براندون أو الملكة أليس، ولذا يستطيع المزيد من الهمج المرور من الشمال. البقاع الأقرب إلى (الجدار) تعرّضت لغارات

عديدة جدًّا، حتى إن السُّكَّان انتقلوا جنوبًا إلى الجبال أو أراضي عائلة أومبر شرق (طريق الملوك). قوم چون الكبير يتعرَّضون للغازات أيضًا، لكن ليس بالكثرة التي عانى منها مَنْ كانوا يعيشون في (الهدية)».

دار چوچن ريد برأسه بتؤدِّد مصعياً إلى موسيقى لا يسمعه إله، وقال: «يجب أن نأوي إلى مكان ما هنا. ثمة عاصفة تقترب، عاصفة سيئة».

رفع بران عينيه إلى السَّماء. كان نهارًا خريفياً جافاً صافياً، وجميلاً بحق، لكن السُّحب الدَّاكنة تلوح بعيداً في الغرب الآن، وبدأت سرعة الرِّيح تتزايد بالفعل. «الخان بلا سقفٍ وله جدران قائمان فقط. علينا أن نذهب إلى المعقل».

قال هودور: «هودور»، موافقاً ربما.

قالت ميرا وهي تطعن الأوراق على الأرض برأس رُمحها: «ليس لدينا قارب يا بران».

- «ثمة معبر، معبر حجري متوار تحت الماء. يُمكننا أن نمشي عليه». هم يستطيعون المشي عليه على الأقل، أمَّا هو فعليه أن يركب على ظهر هودور، لكنه سيقى جافاً هكذا على الأقل.

تبادل الأخوان ريد نظرة، وسأل هودور: «وكيف تعرف هذا؟ هل سبق لك المحيء إلى هنا يا سمو الأمير؟».

- «لا، لكن العجوز نان أخبرني. المعقل يعلوه تاج ذهبي، أترى؟»، وأشار عبر البحيرة إلى رُقع الطلاء الذهبي المتقشر على سور الشرفة العلوية مواصلاً: «الملكة أليسين نامت هنا، فطلوا سور الشرفة باللون الذهبي تكريماً لها».

أمعن چوچن النَّظر إلى البحيرة متسائلاً: «معبر؟ أنت واثق؟».

- «واثق».

عثرت ميرا على أوله بسهولة بمجرد أن عرفت عمَّا تبحث، ووجدوه ممشي حجرياً عرضه ثلاثة أقدام يخترق مياه البحيرة. قادتهم بخطى شديدة الحذر متحسِّسة الطريق أمامهم برُمحها، ورأوا أين يُعاود الممشى الظهور من تحت الماء ويمتدُّ إلى الجزيرة مستحيلاً إلى سِلالم قصيرة تقود إلى باب المعقل.

نهاية الممشى والدَّرجات والباب كلها في حُط مستقيم، وهو ما يجعلك

تحسب أن الممشى يمتد مستقيماً طوال الطريق، لكن ذلك ليس صحيحاً، إذ يتعرّج تحت مياه البحيرة ويمضي ثلث الطريق حول الجزيرة قبل أن يعود من جديد. كانت المنعطفات خادعة، وطول المعبر يعني أن كل من يدنو يتعرّض فترة طويلة للسّهام التي تُطلَق من البرج، كما أن سطحه الحجري لزج وزلق أيضاً، ومرّتين كاد هودور يزل وبفزع صرّخ: «هودور!» قبل أن يستعيد توازنه. أخافت المرّة الثّانية بران بشدّة، لأنّه إذا سقط هودور في البحيرة وهو في سلّته، فمن الوارد للغاية أن يغرق، خاصّة إذا تمكّن الذعر من صبيّ الاسطبل الضّخم ونسي أن بران على ظهره كما يحدث أحياناً. ففكر: ربما كان علينا البقاء في الخان تحت شجرة التّفّاح، لكن أوان ذلك كان قد فات بالفعل.

لحسن الحظّ لم تكن هناك مرّة ثالثة، ولم تتجاوز المياه خصر هودور، وإن غاصّ فيها الأخوان ريد حتى الصّدر، ولم يمض وقت طويل قبل أن يبلغوا الجزيرة ويصعدوا السّلام إلى المعقل. لا يزال الباب قوياً، لكن الألواح البلوط الثّقيلة اعوجّت على مرّ السّنين، ولم يعد قابلاً للانغلاق حتى النّهاية، ودفعته ميرا فاتحةً إياه عن آخره لتصرّخ المفصلات الحديد الصّدئة. كانت عتبه العلويّة واطئة، فقال بران: «انخفص يا هودور»، ففعل، وإنما ليس بما يكفي للحيلولة دون أن يخبط بران رأسه، فقال شكياً: «هذا مؤلم».

ردّ هودور وهو يفرد قامته: «هودور».

وجدوا أنفسهم في حُجرة منبوعة تتسع بالكاد لاحتواء أربعتهم، تنعطف درجات مبنية في الحائط الدّاخلي إلى أعلى إلى يسارهم وإلى أسفل إلى يمينهم، وهذه وتلك يمنعهم عنها بابان حديديّان. رفع بران رأسه فرأى باباً آخر فوقه مباشرة، فقال لنفسه: كوّة دفاع. شعرت بالارتياح لأن لا أحد الآن في الأعلى يُلقي عليهم الرّيت المغلي.

كان البابان موصدين، لكن الصّدا الأحمر يكسو القضبان الحديديّة. قبض هودور على الباب الأيسر وشدّه وهو يئنّ من المجهود، غير أن شيئاً لم يحدث، فحاول أن يدفعه، إنما بلا طائل أيضاً، وهكذا راح يربّج القضبان ويركلها ويدفعها بكتفه ويلكّم المفصلات بيديه الضّخمتين، إلى أن امتلأ الهواء برقائق الصّدا، وظلّ الباب الحديدي لا يتزحّج، وكذا الباب الثّاني الذي يقود إلى القبو، فهزّت ميرا كتفيها قائلة: «لا سبيل للدّخول».

كانت كَوْءُ الدَّفَاعِ فوق رأس بران مباشرةً وهو جالس في سَلْتِهِ على ظَهْرِ هودور، فَمَدَّ يديه إلى أعلى وتمسَّكَ بالقضبانِ مجرَّبًا إياها، ولَمَّا شَدَّها إلى أسفل انخَلَعَ الباب من السَّقْفِ مصحوبًا بوابل من قشور الصَّدَأِ والحجارة المتفتتة. صاح هودور: «هودور!»، وأصابَ الحديدَ الثَّقِيلَ بران بضربةٍ أخرى على رأسه، فدفعه بعيدًا عنه لَيْسَقُطَ أرضًا عند قدميِ چوچن.

قالت ميرا ضاحكةً: «انظر إلى نفسك يا سمو الأمير. إنك أقوى من هودور»، وتورَّد وجه بران خجلًا.

مع انخلاع الباب، استطاع هودور أن يدفع ميرا وچوچن عبر الكوَّة المفتوحة، وأمسك الأخوان بران من ذراعيه وسحباها إلى أعلى بعدهما. صعود هودور نفسه كان الجزء الصَّعب، فهو أَثقل من أن يستطيع الأخوان ريد رفعه كما فعلوا مع بران، وأخيرًا قال له بران أن يذهب ويبحث عن بعض الصُّخور الكبيرة، وهي الشَّيء الذي لا تفتقر إليه الجزيرة بطبيعة الحال، وتمكَّن هودور من رَصِّها فوق بعضها بعضًا بما يكفي لأن يقبض على حافتي الكوَّة المتفتتتين ويدفع نفسه إلى أعلى، ويعد أن فعلَ رسمَ على وجهه ابتسامَةً عريضةً وقال لهم لاهثًا: «هودور».

وجدوا أنفسهم في تيهٍ من الحُجيرات الصَّغيرة المظلمة الخالية، لكن ميرا استكشفت المكان حتى عثرت على الطَّرِيق إلى السَّلالِم، وكلما صعدا ازدادَ الضَّوء. في الطَّابقِ الثَّالث كانت فتحات الرِّماية تتخلَّل الجِدارِ الخارجي السَّمِيك، وفي الرَّابِعِ نوافذ، أمَّا الخامس والأعلى فعبارة عن قاعةٍ مستديرة واسعة ذات أبواب مقلَّنة على ثلاثة جوانب تفتح على شُرَفاتٍ حجريَّةٍ صغيرة، والجانب الرَّابِع فيه مرحاض يقبع فوق بالوعةٍ يمتدُّ أنبوبها تحت مستوى البحيرة.

حين وصلوا إلى السَّطح كانت السَّماء قد غامت تمامًا والسَّحاب في الغرب أسود، وهبَّت الرِّياح بقوةٍ شديدة رفعت معطف بران ومضغته مضغًا، وقال هودور متذمَّرًا من صوتها الصَّاخب: «هودور».

دارت ميرا حول نفسها قائلة: «أشعرُ كأني عملاقة تقف على قَمَّة العالم». قال أخوها: «ثُمَّ أشجار في (العنق) أطول مرَّتين من هذا البرج». - «نعم، لكنها محاطة بأشجارٍ أخرى تُناهزها طولًا. العالم مغلق في

(العنق)، والسَّماء أصغر كثيرًا، أمّا هنا... هل تَشْعُرُ بالريِّح يا أخي؟ وانظر كم أصبح العالم واسعًا».

كانت مصيبةً، فمن هنا يُمكنك أن ترى حتى مسافاتٍ شاسعة. إلى الجنوب ترتفع التلال ومن ورائها الجبال بلونيهما الرَّمادي والأخضر، وفي كلِّ الاتجاهات الأخرى تتراعى أطراف سهول (الهدية الجديدة) على مدى البصر، لكن بران قال بخيبة أمل: «كنتُ أملُ أن نرى (الجدار) من هنا، لكنها فكرةٌ سخيفة، فلا بُدَّ أننا لا نزال نَبُعدُ خمسين فرسخًا». مجرد الكلام عن المسافة التي تفصلهم عن (الجدار) أشعره بالتعب والبرد. «ماذا سنفعل حين نصل إلى (الجدار) يا چوچن؟ لطالما قال عمِّي إنه ضخم للغاية، يرتفع سبعمئة قدم، وقاعدته سميقة جدًا، حتى إن البوابات أقرب إلى أنفاق في الجليد. كيف سنمرُّ لنبحث عن الغراب ذي الأعين الثلاث؟».

أجابَه چوچن: «سمعتُ أن هناك قلاعًا مهجورةً بطول (الجدار)، القلاع التي أنشأها حرس الليل وتركوها شاغرةً. قد تصلح واحدة منها لأن نمرًا». قلاع الأشباح التي حكّت عنها العجوز نان. كان المايستر لوين قد علم بران أسماء جميع قلاع (الجدار)، وهو ما ألفاه صعبًا، فعددها يبلغ تسع عشرة قلعة، مع أن سبع عشرة لا أكثر شُغلت في وقتٍ واحد. في أثناء المأدبة التي أقيمت على شرف الملك روبرت لدى زيارته إلى (ويتنفل) ردَّد بران أسماء القلاع على مسامع عمِّه بنچن، من الشَّرْق إلى الغرب ثم من الغرب إلى الشَّرْق، وضحك بنچن ستارك وقال: «إنك تعرفها أفضل مني يا بران. ربما يجدرُ بك أن تكون الجوّال الأول، وأبقى أنا هنا بدلاً منك». كان هذا قبل أن يسقط بران، قبل أن ينكسر، ولَمَّا أفاق مشلولاً من غيبوبته كان عمُّه قد رجَعَ إلى (القلعة السوداء).

قال بران: «عمِّي أخبرني بأن البوابات مسدودة بالجليد والحجارة في كلِّ القلاع المهجورة».

قالت ميرا: «علينا أن نفتحها مجددًا إذن».

وترّه قولها، وردَّد: «ينبغي ألا نفعل ذلك، فقد تمرُّ أشياء سيئة من الجانب الآخر. الأفضل أن نذهب إلى (القلعة السوداء) ونطلب من حضرة القائد أن يترُكنا نمرًا».

قال چوچن: «يا سموّ الأمير، علينا أن نتحاشى (القلعة السوداء) كما تحاشينا (طريق الملوك). ثمة مئات الرّجال هناك».
- «رجال حرس اللّيل. إنهم يتعهّدون بعدم التّدخّل في الحروب وما إلى ذلك».

- «نعم، لكن رجلاً واحداً مستعداً لأن يحدث بقسمه يكفي لبيع سِرِّك للحديديين أو نغل (بولتون)، وليس لنا أن نثق بأن الحرس سيسمحون لنا بالمرور. قد يُقرّرون احتجاجنا أو إعادتنا من حيث أتينا».
- «لكن أبي كان صديقاً لحرس اللّيل، وعمّي الجوّال الأول، وقد يعرف أين يعيش الغراب، كما أن چون في (القلعة السوداء) أيضاً». كان يأمل أن يرى چون ثانية، وعمّهما أيضاً. آخر زوّار (ويبترفل) من الإخوة السّود قالوا إن بنچن ستارك اختفى في جولة تقصّر، لكن لا بُدّ أنه عاد منذ ذلك الحين. «أراهن أن الحرس سيُعطوننا خيولاً أيضاً».

فجأة قال چوچن: «صمتاً»، ورفع يده فوق عينيه ونظر في اتجاه الشّمس الغاربة مردفاً: «انظر، هناك شيء ما... خيال على ما أعتقد. هل تراه؟».
ظلّل بران عينيه بدوره، ومع ذلك اضطرّ لأن يُضيّقهما. في البداية لم ير شيئاً، ثم جعلته حركة ما يلتفت. خطر له أولاً أنه سمر، لكن لا. إنه رجل على حصان. كان أبعد من أن يرى شيئاً آخر.
فعل هودور مثلهما ورفع يده فوق عينيه، لكنه كان ينظر في الاتجاه الخطأ وهو يتساءل: «هودور؟ هودور؟».

قالت ميرا: «ليس مستعجلاً، لكنه في طريقه إلى هذه القرية على ما يبدو».
قال چوچن: «الأفضل أن ندخل قبل أن يرانا».
اعترض بران قائلاً: «سمر قريب من القرية».
ردّت ميرا: «سمر سيكون بخير. إنه مجرد رجل واحد على حصان مرهق».
بدأت قطرات كبيرة من الماء تضرب الحجارة وهم ينسحبون إلى الطابق الخامس، وجاء انسحابهم في الوقت المناسب لأن المطر بدأ يهطل بغزارة بعد قليل، وحتى عبر الجدران السّميقة سمعوه يجلد سطح البحيرة، وقد جلسوا على الأرض في القاعة المستديرة الخالية في الحلّكة التي تغلق على العالم من حولهم. كانت النّافذة التي تُوّاجه الشّمال تطلّ على القرية، فزحفت

ميرا على بطنها لتختلس النَّظْرَ عبر البحيرة وترى ما جرى للخيال، ولَمَّا عَادَتْ قالت لهم: «لقد أوى إلى أطلال الخان، ويبدو أنه يُشعل نارًا في المستوقد».

قال بران: «ليتنا نُشعل نارًا. إنني أشعرُ بالبرد. هناك أثاث مكسور أسفل السَّلام. يُمكننا أن نجعل هودور يُقَطِّعه ونتدَقَّأ».

راقت الفكرة هودور، وقال بأمل: «هودور».

هَزَّ چوچن رأسه نفيًا، وقال: «النَّار تعني الدُّخان، والدُّخان الخارج من هذا البُرج سيُرى من مسافة بعيدة».

قالت أخته: «إذا كان هناك من يراه».

- «هناك رجل في القرية».

- «رجل واحد».

- «رجل واحد يكفي لأن يشي ببران لأعدائه إذا كان الرَّجل الخطأ. ما زالَ معنا نصفُ بطةٍ من الأمس. علينا أن نأكل ونستريح، وحين يحلُّ الصُّباح سيذهب الرَّجل في طريقه ونحن أيضًا».

نفَّذَ چوچن ما أَرَادَه كما يفعل دائمًا، وقسَّمت ميرا البطةَ بينهم. كانت قد صادتها البارحة بشبكتها وهي تُحاول الفرار من البركة التي باغتها فيها. لم يكن مذاقها باردةً باللذادة نفسها وهي ساخنة على السَّيخ، لكنهم لم يجوعوا ليلتها على الأقل. اقتسمَ بران وميرا الصُّدر، وأكلَ چوچن الفخذ، بينما التهم هودور الجناح والسَّاقَ لاعتقا الدُّهن عن أصابعه بعد كلِّ قضمةٍ ومهممًا: «هودور». كان الدُّور على بران أن يحكي قصَّةً، فحكى لهم عن براندون ستارك آخر اسمه براندون السَّفَّان ارتحلَ وراء (بحر الغروب).

كان الغسق يفرض ملكوته عندما انتهت البطة والقصة، وظلَّ المطر ينهال، وتساءلَ بران إن كان سمر قد ابتعد كثيرًا، وإن كان قد لحق بإحدى الغزلان.

أفعمت العتمة الرَّماديَّة البُرج، وشيئًا فشيئًا استحالت إلى ظلمةٍ دامسة. أصابَ الملل هودور وجعله ينهض ويمشي بعض الوقت، يدور ويدور حول الجُدران بِخُطواتٍ واسعة، ويتوقَّف عند المرحاض مع كلِّ دورةٍ ليلقي نظرةً، كأنه نسيَ أنه هناك، على حين وقفَ چوچن عند الشُّرفة الشماليَّة مستتراً بالظلال يتطلَّع إلى اللَّيل والمطر. في مكان ما إلى الشَّمال، شقَّ لسان من البرق السَّماء منيرًا البُرج من الدَّاخِل لحظةً، فوثبَ هودور كالملسوع وأصدرَ

صوتًا مرعوبًا، وعدَّ بران حتى 8 منتظرًا الرّعد، ولمّا هزمَ صاحَ هودور:
«هودور!».

فكّر بران: أتمنّى أن سمر ليس خائفًا أيضًا. دائمًا ما كانت الكلاب في
أوجرة (وينترفل) تفرّج من العواصف الرّعدية، تمامًا كهودور. يجدرُ بي أن
أذهب وأرى كي أهدّئه...

ومضَ البرق ثانيةً، وهذه المرّة تلاه الرّعد بعد 6، وعادَ هودور يصيح:
«هودور! هودور! هودور!»، واختطفَ سيفه كأنه يُريد أن يُقاتل العاصفة.
قال چوچن: «اهدأ يا هودور. بران، قُل له ألا يصيح. ميرا، هلا أخذتِ منه
السيف؟».

- «سأحاول».

قال بران: «صمتًا يا هودور. اهدأ وكفى هودرةً سخيفةً. اجلس».
غمغمَ هودور: «هودور؟»، وناولَ ميرا السيف بإذعان، وإن استحالَ وجهه
إلى قناع من الارتباك.

عادَ چوچن يلتفت إلى الظلام، وسمعوه كلُّهم يشهق، فسألته ميرا: «ما
الخطب؟».

- «أناس في القرية».

- «الرّجل الذي رأيناه؟».

لم يبدُ چوچن كصبيّ خائفٍ من قبل قَطُّ كما الآن وهو يقول: «رجال
آخرون، مسلّحون. لمحتُ فأسأ وحرابًا أيضًا. رأيتهم يتحرّكون تحت
الأشجار عندما ومضَ البرق».

- «كم عددهم؟».

- «كثيرون جدًّا، أكثر من أن أحصيه».

- «على خيول؟».

- «لا».

قال هودور بخوف: «هودور. هودور. هودور».
أحسَّ بران أيضًا بشيءٍ من الخوف، وإن لم يرغب في أن يعترف بهذا أمام
ميرا، وسأل: «ماذا لو أتوا إلى هنا؟».

جلست إلى جواره مجيبةً: «لن يأتوا. لماذا يفعلون؟».

أجابَ چوچن بنبرةٍ جهيمة: «سعيًا إلى المأوى، ما لم تهدأ العاصفة. ميرأ، هلاً نزلتِ وأوصدتِ الباب؟».

- «لم أستطع أن أغلقه أصلاً. الخشب معوج للغاية. لكنهم لن يتجاوزا البابين الحديد على كلِّ حال».

- «قد يفعلوا. ربما بإمكانهم أن يكسروا الأقفال أو المفصلات، أو يصعدوا من كوة الدَّفَاع كما فعلنا».

شَقَّ البرق السَّماء ونشَج هودور، ثم دَوَّى قصف الرِّعد عبر البحيرة، فصرخَ وهو يضرب أذنيه بيديه ويدور حول نفسه في الظلام: «هودور! هودور! هودور!».

صرخَ فيه بران: «لا! لا هودرة!».

لكن لا جدوى. صرخَ هودور: «هوووودور!»، وحاولتِ ميرأ إمساكه وتهدئته، لكنه أقوى منها مرارًا، وطرَحها جانبًا بمجرد دَفعة. «هوووووودووووو!»، صرخَ صبيُّ الاسطبل والبرق يُنير السَّماء مرَّةً أخرى، وحتى چوچن كان يصيح الآن، يصيح في بران وميرأ أن يُسكتاه.

- «اصمت!»، زعق بران بصوتٍ خائفٍ حاد وهو يمدُّ يده عبثًا إلى ساق هودور الذي يدقُّ الأرض، يمدُّها، يمدُّها...

وترنَّح هودور وأطبق فمه وببطءٍ هزَّ رأسه من جانب إلى جانب، ثم عادَ يجلس متقاطع الساقين، وحين دَوَّى الرِّعد لم يبدُ أنه سمعه حتى، وجلسَ أربعتهم في البُرج المظلم يَجسرون بالكاد على التقاط أنفاسهم. همستِ ميرأ: «بران، ماذا فعلت؟».

هزَّ بران رأسه قائلًا: «لا شيء، لا أدري». لكنه يدري. مددتُ نفسي إليه كما أفعلُ مع سمر. لقد كان هو هودور لحظةً، ولكم أخافه هذا.

قال چوچن: «شيء ما يحدث عبر البحيرة. أظنُّ أنني رأيتُ رجلًا يُشير إلى البُرج».

لن أخاف. إنه أمير (وينترفل)، ابن إدارد ستارك، يكاد يكون رجلًا بالغًا، كما أنه وازج أيضًا، وليس مجرد طفل كريكون. سمر لن يخاف. «إنهم من رجال أومبر غالبًا، أو رجال نوت أو نوروي أو فلينت وقد نزلوا من الجبال، أو ربما يكونون إخوة من حرس الليل. هل يردون معاطف سوداء يا چوچن؟».

- «كلُّ المعاطف تبدو سوداء ليلاً يا سموَّ الأمير، والوميض سطعَ وخبأ
بسرعةٍ قبل أن أرى ما يرتدونهُ».

قالت ميرا بحذر: «لو كانوا إخوةً سودًا لامتطوا الخيول، أليس كذلك؟». ثم إن بران فكَّر في شيءٍ آخر، وقال بثقة: «لا يهَمُّ. لن يُمكنهم الوصول إلينا حتى إذا أرادوا، ما لم يكونوا يملكون قاربًا أو يعرفون بأمر المعبر».

صاحت ميرا: «المعبر!»، ونفست شعر بران وقبَّلته على جبهته قبل أن تُضيف: «أميرنا الجميل! إنه على حق يا چوچن، لن يعرفوا بأمر المعبر، وحتى إذا فعلوا فلن يستطيعوا العثور على الطريق في الظلام والمطر».

- «لكن الليل سينتهي، وإذا بقوا حتى الصُّباح...». لم يجد حاجةً إلى قول الباقي، وبعد قليل قال: «إنهم يُزكون النَّار التي أشعلها الرَّجل الأوَّل».

سطعَ البرق في السَّماء وملاً الضُّوء البُرج صابغاً إياهم بالظلال، وهزَّ هودور نفسه من الأمام إلى الخلف وهو يهَمهم.

أحسَّ بران بخوف سَمر في تلك اللحظة السَّاطعة، وأغلقَ عينين وفتح الثالثة، وانسلَّ من جلدة الصَّبي كأنها معطف وهو يُغادر البُرج...

... ووجد نفسه في المطر بمعدةٍ متخمة بلحم الغزلان، ينكمش على نفسه في الدَّغل بينما تهدر السَّماء وتُدوي من فوقه. كادت رائحة التُّفاح العفن وأوراق الشَّجر المبتلة تُغرق رائحة الإنسان، لكنها شمَّها رغم ذلك، وسمع خشخشة الجلد الصُّلب، ورأى رجالاً يتحرَّكون تحت الأشجار. مرَّ به رجل حاملاً عصاً يرفع فوق رأسه جلدة جعلته أعمى وأصمَّ، فدار الدُّب في دائرة واسعةٍ حوله، وراء شُجيراتٍ شائكة يَقطر منها الماء وتحت غصون شجرة تُفاح عارية. سمعهم يتكلمون، وبروائح المطر والأوراق والخيول امتزجت رائحة حمراء نفاذة، رائحة الخوف...

چون

افترشَ الأرضَ بساطَ من إبر الصَّنوبرِ الخضراءِ والأوراقِ البَيَّبةِ التي لا تزال رطبةً من جزاءِ الأمطارِ الأخيرةِ، وانسحقتَ تحت أقدامهم وهم يمرُّون، تُحيطُ بهم أشجارُ السَّنديانِ الضَّخمةِ العاريةِ والحارسِ الطَّويلةِ، وتُحاصِرهم جيوشُ من شجرِ الصَّنوبرِ الجُندي. على تَلٍّ فوقهم يَرتفعُ بُرجُ مستديرٍ آخرٍ، كغيره ضاربٍ في القَدَمِ ومقفرٌ، وعلى جانبه تزحف الطحالبُ الخضراءُ بكثافةٍ حتى تكاد تَبْلُغُ قَمَّتَهُ، ولَمَّا رَأَتْهُ إيجريتُ سألتْ چونَ: «مَنْ الذي بنى هذا كَلَّهُ من الحجارةِ؟ مَلِكٌ من؟».

- «لا، مَنْ كانوا يعيشون هنا».

- «وماذا حدثَ لهم؟».

- «ماتوا أو رحلوا».

عملَ حرسِ اللَّيلِ على فِلاحةِ أراضي (هديةِ براندون) طيلة آلافِ الأعوامِ، لكن مع تضاؤلِ أعدادهم صارتَ هناك أيادٍ أقلُّ لحرثِ الحقولِ ورعايةِ النَّحلِ وزرعِ أشجارِ البساتينِ، وعادتِ البراري تفرِّضُ سيطرتها السَّابقةَ على كثيرٍ من الحقولِ والمباني. في (الهديةِ الجديدة) كانت بعضُ القُرَى والمعازلِ تدفعُ ضرائبَ للإخوةِ السُّودِ في صورةِ أطعمةٍ وعَمَّالٍ، ومن ثَمَّ تُساعدُ على تزويدهم بالمأكُلِ والملبسِ، إلا أن أغلبها لم يُعَدِّ موجودًا أيضًا. قالت إيجريتُ: «حماقة منهم أن يَتْرُكوا قلعةً كهذه».

- «إنه مجردُ بُرجٍ سكني عاشَ فيه لوردٌ صغيرٌ ما مع أسرتهِ وبضعةِ حُرَّاسٍ،

وكان يوقِدُ منارةً على السَّطحِ عندما يظهرُ المُغيرون. (ويترفل) فيها أبراجٌ أعلى من هذا ثلاثِ مرَّاتٍ».

رمقته بنظرةٍ توحى باعتقادها أنه اختلقَ ما قاله، وسألته: «كيف يستطيع البشر بناء شيءٍ بذلك الارتفاع دون عمالقة يرفعون الحجارة؟».

في الأساطير استعانَ براندون البناء بالعمالقة على بناء (وينترفل)، لكن چون لم يشأ أن يُعقّد المسألة، فقال: «البشر يستطيعون تشييد مبانٍ أعلى بكثير. في (البلدة القديمة) بُرج أعلى من (الجدار) نفسه»، وعلى الرغم من هذا رأى أنها لا تُصدّقه، فحدّث نفسه قائلاً: ليتني أستطيعُ أن أربها (وينترفل)... أن أقتطف لها زهرةً من الصُوبة الزُّجاجيّة، وأقيم لها مأدبةً في القاعة الكبرى، وأربها الملوك الحجريّين على عروشهم... نتحمّم في البرك الساخنة، ونمارس الحُبَّ تحت شجرة القلوب بينما تشهد علينا الآلهة القديمة. جميلٌ هذا الحُلم... لكن (وينترفل) لن تكون له أبداً. إنها لأخيها، الملك في الشّمال، وچون ليس ستارك، بل سنو. نغل، مارق، حانث بالقسم... قالت: «ربما نعود فيما بعد ونسكن هذا البُرج. هل ترغب في هذا يا چون سنو؟ فيما بعد؟».

فيما بعد. كلمة كحربةٍ في قلبه. بعد الحرب، بعد الغزو، بعد أن يهدم الهَمَج (الجدار)...

ذات مرّة تكلم السيّد والده عن تنصيب لوردات جُدد وتوطينهم في المعازل المهجورة ليكونوا درعاً ضد الهَمَج. كانت الخطة تتطلّب أن يتنازل حرس الليل عن مساحةٍ كبيرة من (الهدية)، لكن عمّه بنجن أكد أنه يستطيع إقناع حضرة القائد، ما دام أولئك اللوردات الصغار سيدفعون الضرائب لـ (القلعة السوداء) بدلاً من (وينترفل). وقتها قال اللورد إدارد: «لكنه حُلم للربيع. حتى الوعد بالأرض لن يُغري النَّاس بالذهاب شمالاً والشتاء يدنو». لو أسرع الشتاء في المجيء والرحيل وتبعه الربيع، فلربما وقع الاختيار عليّ لتولي أحد تلك الأبراج باسم أبي. لكن اللورد إدارد مات، واختفى أخوه بنجن، والدّرع التي حلما بها معاً لن تُطرَق أبداً. قال چون: «هذه الأرض ملك الحرس».

تمدّدت طاقتا أنفها غضباً، وقالت: «لا أحد يعيش هنا».

- «لأن هجّانكم طردوهم».

- «كانوا جُبناءً إذن. لو أرادوا الأرض لبقوا وقاوموا».

- «ربما تعبوا من القتال، تعبوا من إيصاد أبوابهم كلَّ ليلةٍ والتَّسأول إن كان ذو القميص المُخشخش أو أحد على شاكلته سيقتمها ويختطف زوجاتهم، تعبوا من سرقة حصادهم، ومقتنياتهم الثَّمينة إن وُجِدَت. الأسهل أن يتعدوا عن متناوَل المُغيرين». لكن إذا سقطَ (الجدار) سيُصبح الشَّمال كله في متناولهم.

- «لستَ تعلم شيئًا يا چون سنو. البنات يُختطفن لا الزَّوجات، وأنتم السَّارقون، سرقتم العالم كله وبنيتم جدارًا لتمنعوا شعب الأحرار من دخوله».

- «حقًّا؟ وكيف حدثَ هذا بالضبط؟». أحيانًا ينسى چون كم هي ضارية جامحة، لكنها لا تنفكُ تُذكِّره.

- «الآلهة خلقت الأرض ليتقاسمها البشر جميعًا، ثم أتى الملوك بتيجانهم وسوفهم الفولاذ وأدَّعوا أنها لهم فقط، فقالوا: هذه أشجاري، لا تأكلوا هذا الثَّقَّاح. هذا نهري وهذه غابتي، ممنوع الصَّيد. هذه أرضي، مياهي، قلعتي، ابنتي، أبعِدوا أيديكم وإلَّا قطعتها، لكن إذا ركعتم لي فقد أترككم تتشَّمَّموا نفحةً من خيري. تقولون إننا لصوص، لكن على الأقل يجب أن يكون اللصُّ شجاعًا وذكيا وسريعا، لكن ما على الرُّكع إلا أن يركعوا».

- «أمثال هارما وجوال العظم لا يُغيرون من أجل السَّمك والثَّقَّاح، بل يسرقون الشُّيوف والفؤوس والتَّوابل والحريز والفرو، وينهبون كلَّ عملةٍ وحليَّةٍ وكأس مزينةً بالجواهر يعثرون عليها، ويستولون على براميل النِّيد في الصَّيف وبراميل اللِّحم في الشَّتاء، ويختطفون النِّساء في أيِّ فصلٍ ويحملوهن إلى ما وراء (الجدار)».

- «وماذا في هذا؟ أفضلُّ أن يختطفني رجل قوي على أن يُعطيني أبي لرجل ضعيف».

- «هذا ما تقولينه، لكن كيف تعرفين أنه كذلك؟ ماذا لو اختطفك رجل تكرهينه؟».

- «لا بُدَّ أن يكون سريعاَ وماكراَ وشجاعاَ ليستطيع أن يختطفني أنا، أي أن أبنائه سيكونون أقوىاء وأذكياء مثله، فلم أكره رجلا كهذا؟».

- «ربما لا يغتسل أبداً ورائحته كريهة كالذبابة».

- «سأدفعه في نهير أو أسكب عليه دلوًا من الماء، وعلى كلِّ حال لا يجدر بالرجل أن تكون رائحته عطرة كالزُّهور».

- «وما عيب الزُّهور؟».

قالت إيجريت: «لا شيء بالنسبة للنحل، أمّا في الفراش فأريدُ واحدًا كهذا»، ومدّت يدها إلى مقدّمة سراويله.

أمسكَ چون معصمها قائلاً بِالْحاح: «ماذا لو كان الرَّجل الذي سرقك يُسرف في الشُّرب؟ ماذا لو كان عنيفاً أو قاسياً؟»، وشدّد قبضته توكيداً على كلامه، وتابع: «ماذا لو كان أقوى منك ويروقه أن يضربك حتى تنزفي؟».

- «سأشقُّ حلقه وهو نائم. لستَ تعلم شيئاً يا چون سنو»، وتملّصت إيجريت منه بليونته ثعابين الماء وانتزعت معصمها من قبضته.

أعرفُ شيئاً واحداً، أنكِ همجيّة حتى النُّخاع. من السَّهل أن ينسى هذا أحياناً وهما منهما مكان في الضَّحك أو القُبلات، ثم يقول أحدهما أو يفعل شيئاً، ويتذكّر چون فجأةً الحاجز بين عالميهما.

قالت له إيجريت: «من الممكن أن يمتلك الرَّجل امرأةً، ومن الممكن أن يمتلك سكيناً، لكن لا رجل يُمكنه أن يمتلك الاثنين. كل فتاة صغيرة تتعلّم هذا من أمّها»، ورفعت ذقنها بتحدٍّ وهزّت شعرها الأحمر الغزير مردفةً: «ولا أحد يُمكنه أن يملك الأرض أكثر مما يملك البحر أو السَّماء. أنتم أيها الرُّكع تتوهّمون أنكم تملكونها، لكن مانس سيُريكم العكس».

فكّر چون أن تباهيها لا بأس به من حيث شجاعة الألفاظ، لكنه أجوف تاماً، وتطلّع وراءه ليتأكّد من أن الماجنر خارج مدى السَّمع، فرأى إروك وبشرة الكبير ودان القنبي يمشيان على بُعد بضع ياردات، وإنما دون أن يُعيروهما انتباهاً، وقد أخذ بثرة الكبير يشكو من الألم في مؤخرته. هكذا قال بصوتٍ خفيض: «إيجريت، مانس لا يستطيع الانتصار في هذه الحرب».

ردّت بعناد: «بل يستطيع! لستَ تعلم شيئاً يا چون سنو. إنك لم ترَ شعب الأحرار يُقاتل من قبل!».

الهمج يُقاتلون كالأبطال أو كالشَّياطين، الإجابة تختلف حسب مَنْ تسأله، لكن خُلاصتها دائماً واحدة. إنهم يُقاتلون بشجاعة عمياء، كل واحد منهم يشتهي المجد لنفسه. «لا أشك في كونكم شجعاناً جميعاً، لكن في المعركة يهزم الانضباط الإقدام كلِّ مرّة، وفي النّهاية سيفشل مانس كما فشل كل ملوك ما وراء الجدار من قبله، وعندما يفشل ستموتون جميعاً».

لاَحَ على إيجريت غضب شديد جعله يحسب أنها ستلطمه، وقالت: «سنموت جميعًا. أنت منا. إنك لم تُعدُّ غرابًا يا چون سنو. لقد أقسمتُ أنك لست كذلك، فخيرٌ لك ألا تكون»، ودفَعته إلى جذع شجرةٍ وأصقَّت شفتيها بشفتيه وهما في منتصفِ الطَّابورِ المتقدِّمِ بلا نظام، وسمعَ چون جريج التَّيسَ يحثُّها على التَّقدُّمِ بينما ضحك واحد آخر، لكنه بادلها القَبلة على الرغم من هذا، ولمَّا افترقا أخيرًا كان وجهها مخضَّبًا بالحُمرة، وقالت له هامسةً: «أنت لي، لي مثلما أنا لك، وإذا لم يكن من الموت بُد فلنمُت. كلُّ البَشَرِ يُدركهم الموت يا چون سنو، لكن أولًا سنعيش».

أجابها بصوت ثقيل: «نعم، أولًا سنعيش».

منحَّته ابتسامةٌ عريضةٌ كشفت عن أسنانها المعوجَّة التي وقعَ بشكل ما في هواها، وكرَّرَ لنفسه وفي وَهدة معدته إحساس قويَّ بالسَّقمِ والحُزن: همجيَّة حتى النُّخاع. بسطَ أصابع يد السَّيفِ وضمَّها متسائلًا عمَّا ستفعله إيجريت إذا أدركت ما في قلبه. هل ستخونه إذا أجلسها وقال لها إنه لا يزال ابن ند ستارك ورجلًا في حرس اللَّيل؟ لا يأمل ذلك، لكنه لا يجروء على المجازفة. حياة كثيرين تعتمد على بلوغه (القلعة السَّوداء) بوسيلةٍ ما قبل الماجنر... بافتراض عثوره على فُرصةٍ للفرار من الهَمج.

كانوا قد نزلوا على وجه (الجدار) الجنوبي عند (الحارس الرَّمادي) المهجورة منذ مئتي عام. جزء من الدَّرجات الحجريَّة الهائلة كان قد انهارَ قبل قرن، ومع ذلك وجدوا التُّزول أسهل كثيرًا من التَّسلُّق، ومن هناك توغَّل بهم ستير في أراضي (الهدية) لتحاشي دوريات حرس اللَّيل المنتظمة، وقادهم جريج متجاوزًا بهم القرى المعدودة التي ظلَّت مأهولةً في هذه الأثناء. ما عدا بعض الأبراج المستديرة التي تخزُّ السَّماء كأصابع حجريَّة لم يروا أثرًا للإنسان، وعبر التَّلال الباردة المبتلَّة والشُّهول العاصفة زحفوا، لا يراهم أحد، لا يشعُر بهم أحد. لا تَرُفُضُ مهمما طلبوا منك. اركب معهم، كلُّ معهم، قاتل معهم طيلة ما يلزم من وقت. هكذا تكلم ذو النِّصف يد، وركبَ چون معهم فراسخ طويلة ومشى فراسخ أكثر، وتقاسم معهم العيش والملح، ونامَ مع إيجريت تحت أغطيها، لكنهم ما زالوا لا يثقون به، يُراقبه الثَّيَّون طيلة اللَّيل والنَّهار متحفِّزين لأول بادرة خيانة. إنه لا يستطيع الهرب منهم، وقريبًا سيفوت الأوان.

قاتل معهم، قال كورين ثم سلم حياته إلى (المخلب الطويل)... لكن الأمور لم تصل لذلك الحد حتى الآن. بمجرد أن أرى دماء أحد إخوتي فأنا ضائع. عندها سأعيرُ (الجدار) إلى الأبد بلا سبيل للعودة. عقب مسيرة كل يوم يستدعيه الماجنر ليلقي عليه أسئلة مباشرة ثابتة عن (القلعة السوداء) وحاميها ودفاعاتها، فيكذب متى استطاع ويدّعي الجهل من حين إلى آخر، لكن جريج التيس وإروك يُنصتان لكلامه كذلك، وهما يعلمان ما يكفي لأن يتوخى جون الحذر في رده، ذلك أن كذبة سافرة واحدة كفيلة بالبوح بالحقيقة.

لكن الحقيقة مريعة، ف(القلعة السوداء) بلا دفاعات على الإطلاق باستثناء (الجدار) نفسه، وتفتقر إلى مجرّد الشُوح الخشبيّة أو السواتر التراب. «القلعة» ليست إلا مجموعة من الأبراج والحصون التي آل ثلثاها إلى الشقوق، وبالنسبة إلى الحامية فقد أخذ الدب العجوز متين من رجالها في حملته. هل عادوا؟ لا يدري. قد يبلغ عدد الباقين في القلعة الأربعمئة، لكن معظمهم من البنّائين أو الوُكلاء وليس الجوّالة.

الثبّيون مُحاربون مخضرمون، وأكثر انضباطاً من عموم الهَمج، ولا شك أن مانس اختارهم لهذا السبب. أمّا المدافعون عن (القلعة السوداء) فيتضمّنون المايستر إيمون الأعمى ووكيله كلايداس شبه الأعمى، ودونال نوي ذا الذراع الواحدة، والسّبتون سلا دور السّكّير، وديك فولارد الأصم، والطاهي هوب ذا الثلاثة أصابع، والسير وينتون ستاوت العجوز، بالإضافة إلى هالدر وتودر وبيپ وآلبت وبقية الصّبية الذين تدرّبوا مع جون، وسيكون قائدهم باون مارش قيّم الوُكلاء الممتلئ أحمر الوجه، الذي عُيّن أميناً للقلعة في غياب اللورد مورمونت. أحياناً يدعو إد الكتيب مارش بالرّمانة العجوز، وهو اللقب الذي يُلائمه تماماً كما يُلائم لقب الدب العجوز مورمونت، ويُضيف إد بنبرته الكالحة المعتادة: «مارش هو من تُريده في الطليعة عندما تُواجه الأعداء في الميدان، فسُحّصهم لك بمتهى الدقّة. إنه شيطان في العدا».

إذا داهم الماجنر (القلعة السوداء) على حين غرة ستكون مجزرة حمراء، صبيّة يذبحون في أسرّتهم قبل أن يدرّكوا أنهم يتعرّضون لهجوم. يجب أن يُحذّرهم، لكن كيف؟ إنهم لا يُرسلونه لجمع الطعام أو الصّيد أبداً، ولا

يسمحون له بالوقوف حراسةً بمفرده. ثم إنه يخشى على إيجريت أيضًا، فلا يُمكنه أن يأخذها معه، لكن إذا تركها فهل يجعلها الماجرّ تدفع ثمن خيانتها؟
قلبان ينبضان كواحد...

إنهما يتقاسمان جلود النَّوم نفسها كلَّ ليلة، ويغيب چون عن الوعي ورأسها على صدره وشعرها الأحمر يُدغدغ ذقنه، حتى أصبحت رائحتها جزءًا منه. أسنانها المعوجَّة، إحساسه بثديها إذ يحتويه بيده، مذاق ثغرها... تلك الأشياء فرحته ويأسه، وفي ليالٍ كثيرة يرقد وإلى جواره جسد إيجريت الدَّفء، يتساءل إن كان السيّد والده شعرَ بهذه الحيرة نحو أمّه أيّا كانت. نصبتُ إيجريت الفخّ ودفعني مانس رايدر إليه.

كل يوم يقضيه بين الهمج يجعل ما عليه أن يفعله أصعب وأصعب. يجب أن يجد وسيلةً يخون بها هؤلاء الرّجال، وعندما يخونهم سيموتون. إنه لا يرغب في صداقتهم كما لم يرغب في حُبِّ إيجريت، وعلى الرغم من ذلك... الشّيون يتكلّمون اللّغة القديمة، وناذرًا ما يُحدّثون چون، لكن الأمر يختلف مع هجانة چارل الذين تسلّقوا (الجدار) وبدأ چون يتعرّف إليهم رغم أنفه، إلى إروك الهزيل السّريع وجريج التّيس المغرم بصُحبة الآخرين، وإلى الصّبيّين كورت وبودچر، ودان القنّبي صانع الحبال، وهذا بخلاف دل، أسوأهم على الإطلاق، الصّبي ذي وجه الحصان الذي يُقارب چون في السنّ، ويتكلّم حاليًا عن الهمجيّة التي ينوي أن يختطفها. «إنها محظوظة مثل فتاتك إيجريت، قبّلتها النّار».

ويلزم چون الصّمت مرغمًا. إنه لا يُريد أن يعرف شيئًا عن فتاة دل أو أمّ بودچر، أو المكان الملاصق للبحر الذي جاء منه هنك ذو الدّفقة، أو شوق جريج إلى زيارة الرّجال الخضر على (جزيرة الوجوه)، أو المرّة التي طارد فيها أيل توفينجر أعلى شجرة. لا يُريد أن يسمع شيئًا عن البثرة التي على مؤخّرة بثرة الكبير، أو كميات المزر التي يستطيع ذو الإبهام الحجري أن يشربها، أو إلحاح أخي كورت الصّغير عليه ألا يذهب مع چارل. كورت في الرّابعة عشرة من العُمُر على الأكثر، لكنه اختطفَ لنفسه زوجةً بالفعل وطفله الأول في الطريق، وهو ما قال عنه: «ربما يولد في قلعة ما، يولد في قلعة كاللوردات!». كان مأخوذًا للغاية بما رأوه من «قلاع»، أي أبراج الحراسة بالأخرى.

تساءلَ چون أين جوست الآن. هل رجَعَ إلى (القلعة السّوداء) أم أنه يركُض في الغابة مع قطعٍ ذئابٍ؟ إنه لا يستشعر وجود الذئب الرّهيب على الإطلاق، حتى في أحلامه، وجعلَه هذا يحسُّ كأن جزءًا من ذاته قد اقتطعَ، وحتى وإيجريت نائمة إلى جواره يشعُر بالوحدة.

وچون لا يريد أن يموت وحيدًا.

مع حلول أصيل هذا اليوم بدأت الأشجار تقلُّ وتحركوا عبر سهولٍ ناعمة التّموجات، ترتفع فيها أعواد العُشب حتى الخاصرة من حولهم وتتمايل سنابل القمح البرّي بتراخ مع كلِّ دفقة من الرّيح، وإن كان النّهار في الغالب دافئًا صافيًا. لكن مع دنوّ الغروب بدأ السّحاب القاتم يُعلن وعيده من الغرب، وسرعان ما أخفى الشّمس البرتقاليّة، وتنبأً لِن بهبوب عاصفة سيّئة. كانت أمّه ساحرة غابة، واتفق المغيرون جميعًا على أنه موهوب في التنبؤ بأحوال الطّقس.

قال جريج النّيس للماجنر: «ثمّة قرية قريبة، تبعد ميلين أو ثلاثة على الأكثر. يُمكننا أن نلجأ إليها»، فوافق ستير في الحال.

كان الظّلام قد توغل كثيرًا والعاصفة تزار بكلِّ عنفوانها حين بلغوا وجهتهم أخيرًا. تطلُّ القرية على بحيرة، وقد هُجرت منذ زمن طويل حتى إن أغلب منازلها قد تهاوى، بما فيها الخان الخشبي الصّغير الذي تداعى سقفه ونصف جدرانها، بعد أن كان منظره مسرّةً لأعين المسافرين فيما مضى. فكّر چون بكآبة: لن نجد ملاذًا يصلحُ هنا. كلما ومضَ البرق رأى البرج الحجري المستدير الذي يرتفع على جزيرة في منتصف البحيرة، لكن لا سبيل لبلوغه في غياب القوارب.

سبقهم إروك ودلّ متسلّين لاستطلاع الأطلال، لكن دلّ عاد في الحال تقريبًا، فأوقف ستير الطّابور وأرسلّ دسّته من الثّنين قبلهم وفي أيديهم الحراب. عندئذٍ كان چون أيضًا قد رأى وهج النّار الذي صبغ مدخنة الخان بالأحمر. لسنا وحدنا. تلوى الخوف في داخله كالثّعبان، وسمع حصانًا يصلح ثم صحيحة. اركب معهم، كلّ معهم، قاتل معهم.

لكن القتال انتهى سريعًا، وقال إروك حين عاد: «واحد فقط، عجوز

بحصان».

جَارَ المَاجِرَ بِأمرٍ بِاللُّغَةِ القَدِيمَةِ، فَانْتَشَرَ عَشْرُونَ مِنْ رِجَالِهِ لِيُشَكِّلُوا مَحِيطَ حِرَاسَةٍ حَوْلَ القَرِيَةِ، بَيْنَمَا شَرَعَ آخَرُونَ فِي اسْتِكْشَافِ المَنَازِلِ لِيَتَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّ لَاحِدَ آخَرَ مَخْتَبِئاً وَسَطَ الحِشَائِشِ والأَحْجَارِ السَّاقِطَةِ، وَتِزَاحِمَ البَاقُونَ فِي الخَانَ الَّذِي انْهَارَ سَقْفُهُ وَرَاحُوا يَتَدَافَعُونَ لِيَدْنُوا أَكْثَرَ مِنَ المَسْتَوَقَدِ. كَانَتِ الأَغْصَانُ المَكْسُورَةُ الَّتِي أَحْرَقَهَا العَجُوزُ تُصَدِّرُ دُخَانًا أَكْثَرَ مِنَ الحَرَارَةِ، لَكِنِ أَيَّ دَفءٍ عَلَى الإِطْلَاقِ مَحَبَّدٌ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ عَاصِفَةٍ كَهَذِهِ.

كَانَ اثْنَانِ مِنَ الثَّنِيِّينَ قَدْ طَرَحَا العَجُوزَ أَرْضًا وَأَخَذَا يُنْقَبَانِ فِي أَغْرَاضِهِ، فِيمَا أَمْسَكَ ثَالِثُ حِصَانِهِ وَشَرَعَ ثَلَاثَةَ غَيْرِهِمْ فِي نَهَبِ جِرَابِي السَّرَجِ.

ابْتَعَدَ چُونُ سَاحِقًا تَفَاحَةً عَفْنَةً بِحِذَائِهِ وَقَاتِلًا لِنَفْسِهِ: سَيَقْتُلُهُ سَتِيرٌ. هَذَا مَا قَالَهُ المَاجِرَ وَهُمُومٌ فِي (الحَارَسِ الرَّمَادِيِّ)، إِنْ أَيَّ رَاكِعٍ يَلْتَقُونَهُ سَيَمُوتُ فِي الحَالِ لِيَضْمُنُوا أَلَّا يُنْذِرَ الآخَرِينَ. ارْكَبْ مَعَهُمْ، كُلِّ مَعَهُمْ، قَاتِلْ مَعَهُمْ. أَيَعْنِي هَذَا أَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ أَبْكُمْ عَاجِزًا بَيْنَمَا يَنْحَرُونَ رِجَالًا عَجُوزًا؟

قُرْبَ حُدُودِ القَرِيَةِ وَجَدَ نَفْسَهُ وَجْهًا لَوَجْهِهِ مَعَ أَحَدِ الحُرَّاسِ الَّذِينَ عَيْنَهُمْ سَتِيرٌ، فَدَمَدَمَ الثَّنِيُّ شَيْئًا مَا بِاللُّغَةِ القَدِيمَةِ وَأَشَارَ بِحَرَبَتِهِ نَحْوَ الخَانَ، وَخَمَّنَ چُونُ أَنَّهُ بِأَمْرِهِ بِالْعُودَةِ إِلَى حَيْثُ يَنْتَمِي. لَكِنِ أَيْنَ هَذَا؟

سَارَ نَحْوَ المَاءِ وَاسْتَشْفَ بُقْعَةً شَبِهَ جَافَةً تَحْتَ حَائِطٍ مَائِلٍ مِنَ البَجْصِ والأَغْصَانِ المَجْدُولَةِ لِكُوعِ مَتَهَدِّمْ، وَهَنَّاكَ وَجَدْتَهُ إِجْرِيَتٍ جَالِسًا يُحَدِّقُ إِلَى البَحِيرَةِ الَّتِي يَجْلِدُ المَطْرَ صَفْحَتِهَا. قَالِ لَهَا لَمَّا جَلَسْتَ إِلَى جِوَارِهِ: «أَعْرِفُ هَذَا المَكَانَ. هَذَا البُرْجُ... انظُرِي إِلَى القِمَّةِ عِنْدَمَا يَسْطَعُ البَرَقُ ثَانِيَةً وَقُولِي لِي مَا تَرِينَهُ.»

قَالَتْ: «حَسَنٌ، إِذَا أَرَدْتَ»، ثُمَّ أَضَافَتْ: «بَعْضُ الثَّنِيِّينَ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ سَمِعُوا صُجَّةً آتِيَةً مِنْ هُنَا، صِيَاحًا.»

- «إِنَّهُ الرَّعْدُ.»

- «قَالُوا إِنَّهُ صِيَاحٌ. رُبَّمَا تَكُونُ الأَشْبَاحُ.»

لِلْمَعْقَلِ مَنظَرٌ كَثِيبٌ يُوْحِي بِأَنَّهُ مَسْكُونٌ بِالأَشْبَاحِ بِالفِعْلِ، وَقَدْ ارْتَفَعَ فِي العَاصِفَةِ بِلَوْنِهِ الأَسْوَدِ عَلَى جِزِيرَتِهِ الصَّخْرِيَّةِ وَالمَطْرِ يَنْهَمِرُ عَلَى البَحِيرَةِ مِنْ حَوْلِهِ.

قَالَ لَهَا: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَذْهَبَ وَنُلْقِيَ نَظْرَةً. أَشْكَ فِي أَنَا سَنَبْتُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا.»

رَدَّتْ ضاحكةً من اقتراحه: «نسيح؟ في أثناء عاصفة؟ أهذه حيلة لكي أخلع ملابسِي يا چون سنو؟».

قال مداعبًا: «وهل أحتاجُ إلى حيلةٍ لتفعلي هذا؟ أم أنكِ لا تستطيعين السباحة؟». چون نفسه سَبَّاح قوي، إذ تعلَّم هذا الفنَّ في صباه في خندق (ويتترفل) الكبير.

لكمته إيجريت في ذراعه، وقالت: «لستَ تعلم شيئًا يا چون سنو. دعني أخبرك بأني نصف سمكة».

- «نصف سمكة، نصف عنزة، نصف حصان... أنصافك كثيرة يا إيجريت»، وهَزَّ رأسه مضيغًا: «لسنا في حاجةٍ إلى السباحة إذا كان هذا هو المكان الذي أفكرُ فيه. يُمكننا أن نمشي».

تراجعت عنه ورمقته باستغرابٍ قائلةً: «نمشي على الماء؟ أيَّ شعوذة جنوبيَّة هذه؟».

بدأ يقول: «ليست شع...»، لكن لسانًا هائلًا من البرق قاطعه شاقًا السَّماء ومَسَّ سطح البحيرة، وسطع العالم لحظةً كأنه في منتصف الظَّهيرة، وتبعه هزيم الرِّعد المدوِّي جاعلاً إيجريت تشهق وتُعْطِي أذنيها. سألها چون والصَّوت يخفت واللَّيل يعود أسود من جديد: «هل نظرتِ؟ هل رأيتِ؟».

أجابت: «أصفر. أهذا ما تعنيه؟ بعض الأحجار الواقفة على السَّطح كان أصفر».

- «نُسِّمها شُرَّافات. لقد طلَّوها بالذهبي قبل زمنٍ طويل. هذا البُرج اسمه (تاج الملكة)».

عبر البحيرة عادَ البُرج إلى سواده السَّابق، لا يبدو أكثر من هيكلٍ مظلم يُرى بصعوبة، وسألته إيجريت: «هل عاشت ملكة هنا؟».

- «بل قضت ليلةً واحدة». كانت العجوز نان قد حكَّت له القصة، لكن المايستر لوين أكَّد معظمها. «الملكة أليسين زوجة الملك چهيرس المُصلح. يُسمَّى الملك العجوز لأنه حكمَ أعوامًا طويلةً، لكنه كان شابًا حين اعتلى العرش الحديدي. في تلك الأيام اعتادَ أن يجوب البلاد كلَّها، وعندما زار (ويتترفل) أحضرَ معه ملكته وستة تنانين ونصف بلاطه. كانت لدى الملك أمور عليه أن يُناقشها مع حاكم الشَّمال، وأصيبَت أليسين بالملل، فامتطَّت

تَبَيَّنَتْهَا سِيلْفَرُوِينِجْ وَحَلَّقَتْ شَمَالًا لِتَرَى (الْجِدَارَ)، وَكَانَتْ هَذِهِ الْقَرْيَةُ مِنَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي تَوَقَّفَتْ فِيهَا. بَعْدَهَا طَلَى أَهْلُ الْقَرْيَةِ قَمَّةَ مَعْلَمِهِمْ لِتَبْدُو كَالْتَّاجِ الذَّهَبِيِّ الِذِي اعْتَمَرَتْهُ لَمَّا أَمْضَتْ لَيْلَةً بَيْنَهُمْ. - «لَمْ أَرِ تَبَيَّنًا قَطُّ».

- «لَا أَحَدٌ رَأَى أَيَّ تَنَانِينَ مِنْذُ مِئَةِ عَامٍ أَوْ أَكْثَرَ، عِنْدَمَا مَاتَ آخِرُهَا، لَكِنْ هَذَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ».

- «تَقُولُ الْمَلِكَةُ أَلَيْسِينَ؟».

- «الْمَلِكَةُ الْكَرِيمَةُ أَلَيْسِينَ كَمَا لَقَّبُوهَا لِأَحْقًا. إِحْدَى قِلَاعِ (الْجِدَارِ) سُمِّيَتْ تَبَيَّنًا بِهَا أَيْضًا، (بُؤَابَةُ الْمَلِكَةِ)، لَكِنْ قَبْلَ زِيَارَتِهَا كَانَ اسْمُهَا (بُؤَابَةُ الثَّلْجِ)».

- «كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَهْدِمَ (الْجِدَارَ) إِذَا كَانَتْ بِذَلِكَ الْكَرَمِ».

لَا. (الْجِدَارِ) يَحْمِي الْبِلَادَ، يَحْمِيهَا مِنَ (الْآخِرِينَ)... وَمِنْكَ وَمِنْ بَنِي جَلْدَتِكَ أَيْضًا يَا حُلُوتِي. «كَانَ لِي صَدِيقٌ آخَرٌ اعْتَادَ أَنْ يَحْلُمَ بِالتَّنَانِينَ، قَزَمَ. قَالَ لِي...».

- «چون سنو!».

فَوْقَهُمَا وَقَفَ أَحَدُ التَّنِينِ يَقُولُ عَابَسًا: «مَاجَنَرُ يُرِيدُ». خَطَرَ لِچُونِ أَنَّهُ الرَّجُلُ نَفْسُهُ الِذِي وَجَدَهُ خَارِجَ الْكَهْفِ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ لِصُعُودِهِمْ (الْجِدَارَ)، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَاكِّدًا مِنْ هَذَا. هَكَذَا نَهَضَ وَذَهَبَتْ إِجْرِيَّتُ مَعَهُ، وَهُوَ الشَّيْءُ الِذِي يَجْعَلُ سَتِيرَ يَتَجَهَّمُ دَوْمًا، لَكِنْ مَتَى حَاوَلَ صَرْفَهَا ذَكَرْتَهُ بِأَنَّهَا امْرَأَةٌ حُرَّةٌ وَلَيْسَتْ رَاكِعَةً، وَلَهَا أَنْ تَذْهَبَ وَتَجِيءَ حَيْثَمَا شَاءَتْ.

وَجَدَا الْمَاجَنَرَ وَاقِفًا تَحْتَ الشَّجَرَةِ النَّامِيَةِ فِي مَنْتَصَفِ أَرْضِيَّةِ قَاعَةِ الْخَانَ الْعَامَّةِ، وَقَدْ رَكَعَ أَسِيرُهُ أَمَامَ الْمَسْتَوْقَدِ مُحَاصِرًا بِالْحِرَابِ الْخَشْبِ وَالسُّيُوفِ الْبَرُونزِ، يُرَاقِبُ چُونِ يَدُنُو وَإِنَّمَا بَلَ كَلَامٍ. كَانَ الْمَطَرُ يَسِيلُ عَلَى الْجِدَارَيْنِ الْقَائِمَيْنِ وَيَضْرِبُ الْأَوْرَاقَ الْقَلِيلَةَ الْأَخِيرَةَ الَّتِي ظَلَّتْ مَتَمَسِّكَةً بِالْفُرُوعِ، عَلَى حِينِ تَصَاعَدَ الدُّخَانُ بِكَثَافَةٍ مِنَ النَّارِ.

قال الماَجَنَرُ سَتِيرَ: «يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ. اقْتُلْهُ أَيُّهَا الْغُرَابُ».

لَمْ يَنْبَسِ الْعَجُوزُ بِنْتِ شَفَةِ، وَاكْتَفَى بِالْتَّطَلُّعِ إِلَى چُونِ الْوَاقِفِ بَيْنَ الْهَمَجِ. وَسَطَ الْمَطَرِ وَالدُّخَانِ، وَفِي غِيَابِ كُلِّ ضَوْءٍ بِاسْتِثْنَاءِ وَهْجِ النَّارِ، لَا يُمَكِّنُ

أن يرى الرَّجُل أن ثيابِ چون كَلَّها سوداء ما عدا معطفه المِفْصَل من جلد الخراف. أم يُمكنه؟

امتشقَ چون مخلبه الطَّويل من غِمدِه، فغسلَ المطرَ الفولاذَ وأضاءت النَّارُ حافة النَّصلِ بلونِ برتقاليٍّ كئيب. نارٌ أصغر من أن تُكَلِّفَ رجلاً حياته. تذكَّر ما قاله كورين ذو النَّصف يد حين أبصروا النَّارَ المشتعلة أعلى (الممر الصَّادح): النَّارُ تعني الحياة هنا، لكن يُمكنها أن تعني الموت أيضًا. لكن ذلك كان في أعالي (أنياب الصَّقيع)، في براري ما وراء (الجدار) حيث لا شرائع أو قوانين، لكنهم هنا في أراضي (الهدية) التي يحميها حرس اللَّيل وقوَّة (وينترفل)، والمفترض أن يُشعل المرء نارًا يتدفَّق بها هنا ولا تكون عاقبته الموت.

قال ستير: «فيم تردُّدك؟ اقتله وافرِّغ من الأمر».

ومع ذلك ظلَّ العجوز لائدًا بالصَّمْت. كان يُمكنه أن يقول: الرَّحمة، أو: لقد أخذتم حصاني ونقودي وطعامي، فدعوني أحتفظ بحياتي، أو: لا، أرجوكم، إنني لم أمسِّكم بسوء. كان من الممكن أن يقول ألف شيء، أو يبكي، أو يتوسَّل النَّجدة من آلهته، لكن لا كلام سيُنقِذه الآن، وربما يعلم هذا بالفعل، ولذا ظلَّ صامتًا ورمقَ چون بعينين ملؤهما الضَّراعة والأتهاَم.

لا ترفض مهما طلبوا منك. ازكب معهم، كلِّ معهم، قاتل معهم... لكن هذا العجوز لم يُقاوم، وكلُّ ما هنالك أنه مُنيَّ بحظِّ عاثر. من يكون، ومن أين جاء، وإلى أين انتوى أن يذهب بحصانه البائس ذي الظَّهر المَحْدَب... لا شيء من هذا بهم حقًا.

قال چون لنفسه: إنه عجوز في الخمسين من العُمر، وربما الستين، أي أنه عاش حياةً أطول من أغلب النَّاس. الثَّنيون سيَتخلَّطونَه علي كلِّ حال، ولا شيء أقوله أو أفعله سيحول دون هذا. أحسَّ به (المخلب الطويل) أثقل من الرِّصاص في يده، أثقل من أن يرفعه، وظلَّ الرَّجُل يرمِّقه بعينين سوداوين واسعتين كأنهما بثران. سأسقطُ في هاتين العينين وأغرقُ. كان الماَجِرَ أيضًا يُسلِّط عليه نظراته الثَّابتة حتى كادَ چون يتدوَّق شكوكه. الرَّجُل ميَّت في جميع الأحوال، فما الفا

رق إذا مات بيدي؟ ضربة واحدة تكفي، ضربة سريعة نظيفة، فال(مخلب الطَّويل) من الفولاذ القالبيري. مثل (جليد). تذكَّر قنلةً أخرى... المتهرَّب

على رُكبتيه، رأسه يتدحرج، الدَّم يلتمع على الثَّلَج... وسيف أبيه، وكلمات أبيه، ووجه أبيه...

حَتَّته إيجريت قائلةً: «هَلَمْ وافعلها يا چون سنو. يجب أن تفعلها كي تُثَبِّت أنك لست غُرابًا، بل فرد من شعب الأحرار». - «أقتل رجلاً مسنًا جالسًا إلى جوار نار؟».

حدجته بنظرة قاسية وهي تقول: «أورل كان جالسًا إلى جوار نار أيضًا، لكنك لم تتردد في قتله. ثم إنك كنت ستقتلني أيضًا إلى أن رأيت أنني امرأة، وكنت نائمةً كذلك».

- «هذا غير ذلك. كنتم جنودًا... نواطير».

- «نعم، وأنتم أيها الغربان لم تُريدوا أن يراكم أحد، تمامًا كما لا تُريد أن يرانا أحد الآن. لا فرق إذن. اقتله». - أدارَ ظهره للرجل مجيبًا: «لا».

طويلاً باردًا مهددًا دنا منه الماجنر وخاطبه قائلاً: «وأنا أقول نعم. إنني القائد هنا».

- «قائد الثَّنين وليس الأحرار».

- «لا أرى أحرارًا، أرى غُرابًا وزوجته».

صاحت إيجريت: «لستُ زوجة غُراب!»، وانتزعت خنجرها من غمده، وتقدّمت من العجوز بثلاث خطوات واسعة سريعة، وشدّت رأسه إلى الوراء من شعره وشقّت حلقة من الأذن إلى الأذن. حتى في موته لم يُصدر الرجل صوتًا، أمّا إيجريت فزعقت: «لست تعلم شيئًا يا چون سنو!»، وألقت الخنجر الدّامي عند قدميه.

قال الماجنر شيئًا باللُّغة القديمة، ربما أمرًا الثَّنين بأن يقتلوا چون حيث يقف، لكنه لن يتيقن من ذلك أبدًا. طعن البرق السماء، ومسّ لسانه الأبيض الممزق اللّافح قمة البُرج في منتصف البحيرة، وشمّوا جميعًا غضبته في الجو، وحين تبعه الرّعد ارتجّ الليل ارتجاجًا. ووثب الموت بينهم.

أغشى وميض البرق بصر چون، لكنه لمح الظلّ المندفع قبل أن يسمع الصّرخة، ومات أول بُني كما مات العجوز والدّماء تتفجّر من حلقة الممزق،

ثم غاب الصَّوء ودارَ الشَّبح المزمجر مبتعدًا، وسقطَ رجل ثانٍ في الظلام. سمعَ چون سبابًا وصياحًا وعويل الألم، ورأى بثرةً الكبيرةً يتعثرٌ ويسقطُ إلى الوراء مُسقطًا ثلاثة رجال معه، وتملكه الخبال لحظةً فقال في أعماقه: إنه جوست، جوست وثبَّ من فوق (الجدار)، ثم أحالَ البرق الليل إلى نهار، ورأى الذئب الواقف على صدرِ دلِّ والدِّم الأسود يسيل من بين فكَّيه، ففكر: رمادي، لونه رمادي.

عادت الظلمة تنزل مع قصف الرِّعد، وراحَ الثَّنيون يطعنون الهواء بحراهم إذ اندفعَ الذئب بينهم، على حين تراجعَت فرس العجوز رافعةً قائمتيها الأماميتين وقد أهاجتها رائحة المذبحة وأخذت ترفس بحافريها. كان (المخلب الطويل) لا يزال في يده، وفي الحال رأى چون سنو أن فرصةً أفضل لن تواتيه أبدًا.

جندل الرِّجل الأول وهو يلتفت إلى الذئب، وانطلقَ دافعًا الثاني، وضربَ الثالث بسيفه، وفي معمعة الجنون سمعَ أحدًا يصيح باسمه، لكنه لا يدري إن كان إيجريت أم الماجنر. لم يره الثَّني الذي يُكافح للسيطرة على الفرس، وفي يده كان (المخلب الطويل) بخفة الرِّيشة، وبه هوى على مؤخرة رِبله ساق الرِّجل وأحسَّ به يغوص فيها حتى العظم. اندفعت الفرس تعدو حين سقطَ الهمجي، إلا أن چون استطاع بوسيلةٍ ما أن يتمسك بعُرفها بيده الخالية ويثب على ظهرها. أطبقت يد على كاحله، فهوى عليها بضربةٍ ورأى وجهه بودجر يغيب وراء شلالٍ من الدِّم، ومرةً أخرى رفعت الفرس قائمتيها الأماميتين، وضربَ حافرها أحد الثَّنيين في صُدغه ليسحقه.

ثم إنهما انطلقا راكضين، ولم يبدل چون مجهودًا لتوجيه الفرس وهو يُناضل للبقاء على متنها وهما يندفعان في الوحل والمطر والبرق. صفعه العُشب المبتل على وجهه، وحلقت حربة إلى جوار أذنه، وفكر: إذا تعثر الحصان وكسر ساقًا فسيلحقون بي ويقتلونني، لكن الآلهة القديمة كانت معه، ولم تتعثر الفرس.

سطعَ البرق الرَّاَجف في قبة السَّماء السوداء وهزمَ الرِّعد عبر الحقول، وسرعان ما خفت الصَّياح من ورائه وذوى.

توقفت الأمطار بعد ساعاتٍ طويلة، ووجدَ چون نفسه في بحرٍ من الكلاء

الأسود الطويل. أحسَّ بوجع نابض عميق في فخذة اليمين، فلَمَّا نظرَ إليها أدَّهسه أن يرى سهمًا يبرز من مؤخرتها. متى حدثَ هذا؟ أمسكَ قناة السهم وحاولَ أن يجذبه، لكن رأسه كان مغروسًا تمامًا في لحم ساقه التي اشتعلتَ ألماً فظيماً حين جرَّب أن يسحبه. حاولَ أن يستعيد ما جرى في الخان من جنون، لكنه لم يُفلح إلا في تذكُّر الوحش الرمادي التَّحليل الرَّهيب. كان أكبر من أن يكون ذئبًا تقليدياً. إنه ذئب رهيب إذن، لا بدُّ أنه كذلك. لم يرَ حيواناً يتحرَّك بهذه السَّريعة قط... كريح رمادية... أيمكن أن روب عادَ إلى الشَّمال؟ هزَّ چون رأسه. إنه لا يملكُ إجابات، والتَّفكير عسير حقاً... في الذئب، في العجوز، في إيجريت، في أيِّ شيء...

بحركة خرقاء نزلَ من على ظهر الفرس، واثنتَ ساقه الجريحة من تحته وجعلته يتلع صرخةً. سيكون هذا عذاباً. يجب أن يُخرج السهم، فلا خير سيأتي من الانتظار. كورَ چون يده حول الرِّيشة والتقطَ نفساً عميقاً ودفعَ السهم إلى الأمام. أطلقَ أنيناً ثم سباباً، واضطَّرَّ للتوقُّف من فرط الألم قائلاً لنفسه: إنني أنزفُ كخنزير مذبوح، لكن لا سبيل لإيقاف التَّزيف ما لم يُخرج السهم أولاً. هكذا أطبقُ فكَّيه وحاولَ ثانية... ثم عادَ يتوقَّف مرتجفاً. مرَّة أخرى. وهذه المرَّة صرخَ، لكن حين انتهى كان رأس السهم يبرز من مقدَّمة فخذة، فأزاحَ چون سراويله الدَّامية من أجل مسكة أفضل، وأطبقُ فكَّيه مجدداً، وتتوَدَّه سحبُ القناة عبر ساقه، ولا يدرى كيف فعلَ ذلك من دون أن يفقد الوعي.

تمدَّد على الأرض بعدها ممسكاً غنيمته، وينزفُ ببطء دون أن يقوى على الحراك، لكنه أدركَ بعد قليل أنه سينزفُ حتى الموت إذا لم يُجبر نفسه على الحركة، فزحفَ إلى الجدول الضَّحل الذي ترتوي منه الفرس، وغسلَ فخذة بالمياه الباردة، ثم أحكمَ ربطها بقطعة من القماش مزَّقه من معطفه، وغسلَ السهم أيضاً مدوَّراً إياه في يده. هل الرِّيشة رمادية أم بيضاء؟ دائماً ما تُرَّكَّب إيجريت على سهامها ريش إوزٍ رمادياً باهتاً. هل رمَّتي بسهم وأنا أهرُب؟ لا يُمكنه أن يلومها إذا فعلتَ، لكنه تساءلَ إن كانت صوّبتَ عليه أم على الفرس. لو سقطتَ الفرس لهلكَ بكلِّ تأكيد، ولذا تمتَم: «من حُسن طالعي أن ساقِي اعترضتَ الطريق».

استراح بعض الوقت تاركًا الفرس ترعى، وسرّه أنها لم تبعد كثيرًا، فلا
يُمكنه أن يلحق بها أبدًا وهو يحجل على ساقٍ واحدة. بذلَّ جهده كله ليُرغم
نفسه على القيام وامتطاء الفرس من جديدٍ متسائلًا في نفسه: كيف استطعتُ
ركوبها من قبل بلا سرجٍ أو ركاينٍ وفي يدي سيف؟ سؤال آخر لا يملك عليه
إجابةً.

سمع الرّعد يُدوّي بخفوتٍ من بعيد، لكن من فوقه كانت السُّحب تتشّتت،
ويحثّ چون في السّماء عن كوكبة (التنّين الجليدي)، ثم وجّه الفرس شمالًا
نحو (الجدار) وقلعته السّوداء. جعلَ نبض الألم في عضلة فخذه ملامحه
تتقلّص، إذ همزَ حصان العجوز بكعبيه، وقال لنفسه: إنني عائد إلى الدّيار.
لكن إذا كان هذا صحيحًا، فلمَ يشعُر بكلِّ هذا الخواء؟
ركبَ چون حتى مطلع الفجر والنّجوم تتطلّع إليه من أعلى كأنها أعين
تُراقبه.